BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

جمهرة أعلام الأزهر الشريف

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين

الجزء الأول

المؤلف
أسامة الأزهري

تصدير
د. مصطفى الفقي

ط (١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م)



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

أعلام الأزهر الشريف

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين

المؤلف
أسامة السيد محمود الأزهري

تصدير
د. مصطفى الفقي

١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

جمهرة أعلام الأزهر الشريف

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين

الجزء الأول

المؤلف
أسامة السيد محمود الأزهري

تصدير
د. مصطفى الفقي

١٤٤٠هـ/ ٢٠١٩م

مكتبة الإسكندرية بيانات الفهرسة- أثناء - النشر (فان)

الأزهري، أسامة السيد محمود.

جمهرة أعلام الأزهر الشريف في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين / تصدير مصطفى الفقي؛ تأليف أسامة السيد محمود الأزهري. – الإسكندرية، مصر : مكتبة الإسكندرية، 2019 .

مجلدات ؛ سم

يشتمل على إرجاعات ببليوجرافية

تدمك 5-481-452-977-978 (مجلد 1)

1. الجامع الأزهر -- تراجم. 2. الأئمة و الأولياء. ج. العنوان.

ديوي –297.650922 2018999846994

ISBN 978-977-452-481-5

رقم الإيداع: 2018/11724

إعداد وتجهيز المجلد للطباعة

وتصميم الغلاف: الحسن عصام

تصدير

تحرصُ مكتبةُ الإسكندرية دائمًا على تقديم الجديد وإحياء المعارف الجادة والعلوم المُفيدة؛ لذا جاء تبنيها لنشر موسوعة «جمهرة أعلام الأزهر الشريف، في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الهجريين» للشيخ الدكتور أسامة الأزهري؛ ليؤكد إحياءها لعلم الطبقات والتراجم الذي أُهْمِل لعقود، فأعاد العالم النابه الدكتور الأزهري إحياءَ هذا العلم، عبر بحثٍ تابعتُه عن قُرب وعاينتُ فيه جهدَه، حتى أنه قابل بعضَ مَن ترجم لهم وسمع منهم في موسوعته المكونة من عشرة أجزاء.

يجدُ القارئُ في هذه الموسوعة تراجم لعلماء ظلمهم تيار الإسلام السياسي حين تعمَّد دفن إنتاجهم الفكري لصالح من تبنّوا آراءه، علماء أجلاء أفاضل مُجدِّدين، كانت رؤاهم تنويرية سابقة لعصرهم، ومنهم الشيخ بخيت المطيعي؛ فكتابه عن التصوير الفوتوغرافي في بدايات القرن العشرين أنهى مبكرًا الجدلَ في مصر حول حِلّ التصوير الفوتوغرافي، وأتى بعده الدكتور محمد علي السايس لينهي الجدل الآتي من خارج مصر في هذا الشأن نهائيًّا. إننا في هذه الموسوعة أيضًا نكتشفُ الأزهرَ الشريف من جديد بطبقاته وعلمائه، طبقةً بعد طبقة، فقد تراكم العلم الأزهري بوسطيته وتجديده لعلوم الشرع، حتى صارت العلوم الإسلامية مقترنةً بالأزهر، وصار علماء الأزهر هم أعلام الإسلام في العصرين الحديث والمعاصر.

ولم يكن الوصول إلى سِيَر هؤلاء الأعلام بالأمر الهيِّن؛ لذلك يزهو الباحثُ عن سِيَرهم هنا وهناك بما فعله من أجل الحصول على معلومات عنهم؛ وقد تصدَّى الدكتور أسامة الأزهري لهذه المهمة الشاقة بهمة الباحث الدءوب، فخرجت لنا موسوعة «جمهرة أعلام الأزهر الشريف»؛ لتكون لنا عونًا على سبر غور سِيَر الأعلام ممن دفنهم النسيان والإهمال. فضلاً عن أن إحياء ذكراهم واستعادة إنتاجهم هو مرحلة تالية تعمل عليها الآن مكتبة الإسكندرية بجدّ وهمة.

إنه مما لا شكَّ فيه أنه قد أصبح من الملحّ الآن استعادة هذه المعارف وإتاحتها مرةً أخرى، في ظل عنف يُمارَس باسم الإسلام زورًا وبهتانًا، فتكون موسوعة الدكتور أسامة الأزهري قاعدةً لنا نبني عليها مشروعًا ضخمًا يشمل أيضًا الإنتاج الفكري للمصريين في القرنين التاسع عشر والعشرين الميلاديين، ثم يصبّ في هذا رافد جديد للمعرفة والفكر والفلسفة هو الإنتاج المعرفي لمكتبة الإسكندرية بعد أن تم إحياؤها في بدايات القرن الحادي والعشرين، هكذا هي مكتبة الإسكندرية تغوص في أعماق الماضي وتثير الحاضر لتنتج معرفة وفكرًا نسعى بهما نحو المستقبل.

الدكتور مصطفى الفقي

مدير مكتبة الإسكندرية

مدخل
في الباعث على جمع هذه الجمهرة
وأنه لا يوجد بين أيدينا تاريخ جامع يستوعب تراجم رجال الأزهر وعلمائه

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد سيد الأولين والآخرين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد:

فالجامعُ الأزهر الشريفُ بقعةٌ مركزيةٌ عبقريةٌ، احتَفَّتْ بخصوصياتٍ نادرة التَّكرار، وشهدت نشاطًا معرفيًّا فائقًا، وتدفَّقتْ فيها حركةٌ علميةٌ فريدةٌ، لم يتمَّ الكشف عن كيفياتها ومعالمها وإجراءاتها ومزاياها إلى الآن، بل لا يزال منجمه حافلًا بجواهر من طرائق صناعة العلم وتحريره، لم تَحْظَ بالتنقيب عنها بعد.

فكمْ رحلَ إليه، أو خطا فيه، أو نزل في رحابه، أو عَبَر عليه من إمامٍ متبحرٍ صاحبِ عُلومٍ، وكم جلس فيه من نحريرٍ مُتَمَكِّنٍ، تتدفق منه التحريراتُ الدقيقة، والاستنباطات العميقة، وكم جَرَتْ فيه وانعقدتْ في أروقته من مجالس علمٍ ونظرٍ ومناقشة، جرى فيها استدعاءُ قواعدِ العلوم من أقطارها، وجرى تركيبُها حتى أنتجتْ وأثمرتْ.

وكم أوى إليه من طالبِ علم، من الأقطار البعيدة، والأصقاع النائية، فاغترب عن الأهل والوطن، وتجشَّم البُعْدَ والمشقة، وصبر على لَأْوَاءِ ذلك.

وكم تداول الطلبةُ والواردون عليه من نوادر الكتب، وغرائب التصانيف، وعجائب المخطوطات النفيسة، التي تُشَدُّ لها الرحال، وكم ظفر الواحد منهم بعجائب النقول والتحريرات في المسائل الدقيقة، وكم عكف الواحد منهم على مبحثٍ صعبٍ من بحوث العلم، يتأمل مدارك العلماء فيه زمنا، مع استنفار طاقاته البحثية، وكثرة المداولة فيه للعلماء والنُّظَّارِ.

وكم من موقفٍ تاريخيٍّ مجيدٍ، في أوقاتٍ عصيبةٍ صاخبةٍ، وأحداثٍ مَهُولةٍ عاصفةٍ، وظروفٍ مدلهمةٍ، وجد الناس والوطن فيها ملاذهم في الأزهر، فما خذلهم ولا تقاصر، بل رأوا من رجاله الإقدامَ وعدمَ التَّهَيُّبِ ولا الاضطراب، والذَّوْدَ عن الحقوق، وردَّ المظالمِ، مما يملأ العين والقلب وقارًا وجلالًا.

وكم برزتْ حوله من مهنٍ وحِرَفٍ وصنائع، تعتمد عليها حركةُ العلم، وتمسُّ إليها حاجة الطلاب

والشيوخ، كمثل: مُغَيِّري الكتبخانة، ونُقَباء الجرايات، والمؤذنين والمِيقَاتِيِّين، والوقَّادين، وقُرَّاء السورة، وقُرَّاء الدلائل والمقارئ، ومشايخ ووكلاء الأروقة، وحرفة بيع الكتب، وصنعة التجليد، وصناعة الجبب والقفاطين، وتجارة العمائم والطرابيش والقلانس، وتجارة العِصيِّ والعكاكيز والمسابح، وتجارة الأوراق والأقلام والمحابر، وكراء البيوت لسكنىٰ الطلاب والمجاورين، وكراء الدواب وتوفير سبل الانتقال والمواصلات، والمطابع المختلفة التي اشتهرت بطباعة الكتب والحواشي الأزهرية، إلىٰ غير ذلك من الصنائع والحرف والتجارات، الخادمة للعملية التعليمية، والتي تنشأ ـ عادة ـ لتتلمس المطالب والاحتياجات؛ التي تَمَسُّ إليها حاجة هذه البيئة العلمية، فإذْ بصناعة العلم قد تولدت حولها عشرات الحرف والصنائع الخادمة، وقد جرت بسببها أرزاق ومنافع للناس(1).

ومن المعلوم أنَّ شأن الجامعات الكبرىٰ في العالم، ذات التاريخ العريق في التعليم ـ مثل جامعة أوكسفورد، وجامعة كامبريدج، وجامعة بولونيا، وجامعة ييل، وجامعة مانشستر وغيرها ـ أن تعتني بتقييد سجل وأرشيف، يوثق الأعلام الذين تخرجوا في تلك الجامعة، ممن حصل علىٰ نوبل، أو سجل براءة اختراع، أو صار من الشخصيات المشهورة في العالم، ومن شأن تلك الجامعات أيضًا أن تعتمد علىٰ هذا السجل المشرف في تقديم نفسها، واجتذاب الأجيال الجديدة، التي تُقبل علىٰ هذه الجامعة أو تلك، مصحوبة بالفخر والاعتزاز أن تَدْرُس وتتعلم في الجامعة التي تخرج فيها هذا أو ذاك من المشاهير، وتنبعث في هممهم الآمال العظام أن يكونوا مثلهم بعد حين.

ولقد فتشتُ كثيرًا عما يوازي ذلك عندنا بالنسبة للجامع الأزهر، مما يصلح أن يكون قاعدة بيانات كبرىٰ، نهتدي بها إلىٰ رصد عراقة المؤسسة الأزهرية في التعليم، ونستجلي الأعلام الكبار الذين جاءوا إليها وتلقوا العلم فيها، فلم أجد في تراجم رجاله سوىٰ كتابين:

الأول: (مشيخة الأزهر) للأستاذ علي عبد العظيم، في ثلاثة مجلدات، طبعته مشيخة الأزهر الشريف، وهو مقصورٌ علىٰ الترجمة لمن تولوا منصب شيخ الأزهر فقط، ثم خرجت عدة كتب في تراجم من تولوا مشيخة الأزهر، لا تزيد علىٰ ما جاء في كتاب الأستاذ علي عبد العظيم، بل تختصر منه، فصارت جهودهم جميعًا مقصورة علىٰ نيف وأربعين عَلَمًا لا غير من أعلام الأزهر، وهم من تولوا منصب الإمام الأكبر.

---

(1) وقد كان الأزهر يعتني بالوظائف التي تدور في فلكه، وعليها المدار في تيسير حركة التعليم، حتىٰ إنك ترىٰ في مجلس الأزهر الأعلىٰ لسنة ١٣٣٢هـ/ص٩٢/، و/٤/١٣٣/ مذكرة مرفوعة للمجلس في جلسة أول ديسمبر سنة ١٩١٤م بشأن الوظائف التي تمنع أصحابها من الاشتغال بطلب العلم وهي نحو خمس عشرة وظيفة، والتي لا تمنع، وهي نحو ست عشرة وظيفة، لتطبيق شروط الواقفين، وتمييز المستحق من غيره، حتىٰ لا يُحْرَم مستحقٌّ، ولا يصرف شيء من الأموال في غير سبيله.

والثاني: كتاب (المعجم الأصغر، لعلماء الجامع الأزهر) للشيخ أبي الوفا المراغي، وهو مخطوط مهجور، في أربع كراريس لا غير، وقد قال ﷺ في أوائل كتابه هذا: (وإن هذا المعجم سجلٌ حافلٌ لأمجاد الأزهريين في خدمة العلم)[1]، ورغم هذا فقد ظل إلىٰ هذه الساعة مخطوطًا لم ير النور، ولم يكمل أحد مسيرته بعده.

ومن وراء كتابَي الأستاذين: علي عبد العظيم وأبي الوفا المراغي ألوف مؤلفة من العلماء الأزهريين الأجلاء، لم يجمع أحد أخبارهم ولا سيرهم في صعيد واحد، ولربما أُلِّفَتْ كتب في تراجم الأعلام لأغراض متباينة، فتقع تراجم الأزهريين فيها عَرَضًا، وهي مُشَتَّتَةٌ ومبعثرةٌ، فلا ينتظم من ذلك سياق يُطْلِعُ الباحث والقارئ علىٰ الحال الكامل للأزهر وتاريخ العلم فيه.

وما سوىٰ الكتابين المذكورين من المؤلفات التي تتحدث عن تاريخ الأزهر الشريف فقد اعتاد الكُتَّاب فيها أن يكتبوا عنه في العهد الفاطميِّ أيام نشأته الأولىٰ، وتاريخ تأسيسه، وانطلاق التدريس فيه، ثم الأزهر في العصر الأيوبي، والتحولات التي طرأت علىٰ التعامل مع الأزهر في تلك الحقبة، ثم الأزهر في العصرين المملوكي والعثماني، ثم مرحلة الحملة الفَرَنْسية وانطلاق الثورات الوطنية من قلب الأزهر، ثم الأزهر في العصر الحديث، والحراك الفكري الذي جرىٰ فيه بين مدرسة المحافظين والإصلاحيين، مع شذرات عابرة عن معماره وأبنيته، وتراجم من تولوا مشيخته، وهذه هي جملة المشتملات المتكررة في الكلام عن الأزهر عند سائر السادة الكرام الكاتبين عنه، وتحت يدي العشرات بل المئات من المؤلفات عن الأزهر، لا تكاد تتجاوز هذه الأبحاث قط، ولا تخرج عنها، إلا فيما ندر.

وأستثني من ذلك كتبًا تدلُّ عند تأملها علىٰ عناية أصحابها بالتفتيش عن الوثائق والسجلات والأضابير، ولذا فقد كانوا يأتون ببحوث مهمة تتعلق بتاريخ الأزهر لا توجد عند غيرهم، وأسجل هنا الإشادة في هذا الصدد بالعلامة الجليل الشيخ محمود أبو العيون في كتابه (الجامع الأزهر نبذة في تاريخه).

ويبقىٰ تاريخ رجال الأزهر وأعلامه بعد كل ذلك مهجورًا، مع أن العلماء وآثارهم وأنشطتهم هم الغرض الأصيل الذي لأجله تأسس الأزهر، من حيث إنه مدرسة علمية كبرىٰ هدفها صناعة العلماء، فأين هؤلاء الأعلام، وأين مواهبهم وأطوارهم، وأين عجائب صبرهم علىٰ تحصيل العلم والرحيل فيه، وأين بقية شئونهم وأحوالهم، لقد طوىٰ النسيان ذلك كله أو كاد.

وأنت ترىٰ ذلك مثلًا في مداولةٍ علميةٍ مهمة أثارها المؤرخ الكبير الأستاذ عزيز بك خانكي سنة ١٩٣٣م، حيث نشر مقالًا في الأهرام، بتاريخ ٢٢ يونيو من العام المذكور، عنوانه (ذكرىٰ مرور ١٠٠٠ سنة

(١) المعجم الأصغر، لعلماء الجامع الأزهر /١/ص: ب/، مخطوط، تحت يدي مصورة منه.

علىٰ تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر).

وقد دعا فيه إلىٰ تأليف لجنة من كبار المفكرين للتحضير لمهرجان عظيم للاحتفال بألفية القاهرة والأزهر، بحيث يعكف كبار رجال العلم في مصر لكتابة تاريخ الألف سنة، فتدعو رجال الصناعة لكتابة تاريخ تطور الصناعة في مصر، ورجال التجارة لكتابة تاريخ تطور التجارة في مصر، وكذلك رجال الأزهر الشريف، ورجال التعليم، ورجال العسكرية، ورجال السياسة، وغير ذلك.

وندعو لحضوره كبار رجال العلم في أوربا وأمريكا، وخصوصًا علماء فلسطين وسوريا وتركيا وإيران والهند والصين والحبشة وتونس وسائر البلاد التي تربطنا بها روابط علمية أو سياسية أو دينية، اعتزازًا منها بالقاهرة وعراقتها وتاريخها.

حتىٰ قال عزيز بك خانكي: (إنه لم يبق علىٰ تمام الألف سنة علىٰ تأسيس مدينة القاهرة والجامع الأزهر سوىٰ ست سنوات، وست سنوات تكاد تكفي لوضع أسس الاحتفال بمهرجان ذكرىٰ مرور ألف سنة).

فعَقَّب عليه المرحوم داود بركات بك رئيس تحرير جريدة الأهرام في اليوم التالي مُرَحِّبًا بالفكرة، واقترح الشروع في ذلك في الحال، بحيث يجتمع رؤساء الأزهر الشريف، ومديرو الآثار الفرعونية، والقبطية، والرومانية، والعربية، ورئيس الجمعية الجغرافية، ورئيس المعهد العلمي، ومديرو المعاهد، وعمداء الكليات ومن إليهم، لبداية تنفيذ هذا المشروع، مؤملًا أن يخرج علىٰ وصفٍ يتفق وعظمة القاهرة وعظمة تاريخها.

فعلَّق حضرة الأستاذ الشيخ أحمد أبو رحاب من علماء الأزهر بتاريخ ٢٥ يونيو علىٰ كل ذلك، ثم قال: (والذي أقصر فيه القول من هذا البحث الطريف المتشعب الأطراف والنواحي، نقطة واحدة من النقط الهامة، التي اشتمل عليها بحثه الفياض، وهي نقطة البحث عن تاريخ الأزهر، من حيث الأدوار التي مرت به).

حتىٰ قال ـ وهو الشاهد من ذلك كله ـ: (ولا يظن المؤرخ أن هذا البحث قريب الورود، ولا في متناول اليد، سهل المأخذ، فقد كنت أظن ذلك، فإذا أنا في الضلال أهيم، وهذا البحث غير ميسور لعمل فرد، بل يحتاج إلىٰ تكاتف القوىٰ واتحاد الجهود).

ثم ذكر مجهودًا فرديًّا له جمع فيه سبع مقالات عن تاريخ الأزهر، عانىٰ فيها معاناة كبيرة، واقترح تسعة محاور لتأريخ الأزهر، ثم ختم بقوله: (وقد سألت الأستاذ العلامة المحقق شيخ العروبة سعادة أحمد باشا زكي في هذا البحث، فعلمت منه أنه يعلم الكثير من خفايا تاريخ الأزهر، فنلتمس منه أن يقوم بتحقيق هذه الغاية السامية.

ويقيني أن هذا العمل لا يستوفي الكمال المرجو إلا إذا ساعدته حكومتنا الجليلة، وساهمت فيه مشيخة الأزهر بقسط وافر، وألفت لجنة من كبار رجال التاريخ والتعليم، يضم إليها خيرة الشباب، لجمع ما يحتاج للجمع من مختلف الأبحاث العلمية، ويدخل فيها بعض المستشرقين الذين لهم إلمام بتاريخ مصر، للاستعانة بهم في تعريب ما يحتاج للتعريب).

وياليت شيخ العروبة أحمد زكي باشا قد قيد لنا تلك الخفايا التي يعلمها من تاريخ الأزهر، فإن من اطَّلَع علىٰ تراث أحمد زكي باشا ومسيرته العلمية، ورأىٰ سعة اطلاعه وعنايته بنوادر الكتب، يدرك ولا شك أنه كان علىٰ حظٍّ عظيمٍ من المعرفة، وأنه لو تصدر لكتابة شيء عن تاريخ الأزهر لأتىٰ في ذلك بالفوائد النادرة.

وأنت ترىٰ ذلك أيضًا بعدها بأربع سنوات، وذلك في سنة ١٣٥٥هـ، الموافق سنة ١٩٣٧م؛ حيث إنَّ مشيخةَ الأزهر كانت قد أنشأت قبيل ذلك لجنةً، لكتابة تاريخ شاملٍ للجامع الأزهر، استعدادًا لعيده الألفيِّ، الذي كان مقررًا له سنة ١٣٥٩هـ.

واستدعتْ لذلك عددًا من المؤرخين المتخصصين في التاريخ، فعقدتْ تلك اللجان بضعة اجتماعات، ثم تغيَّر شيخ الأزهر، فرأىٰ شيخه الجديد أن هناك فسحةً كبيرةً من الوقت قبل حلول العيد الألفي، ثم طرأ أن اعترضت العملَ عراقيلُ، فتوقف المشروع.

حتىٰ علَّقتْ مجلة (الرسالة) علىٰ ذلك بقولها: (وإذا كان لنا أن نعلِّقَ علىٰ هذا الموضوع بشيء فهو: أنَّ تأليفَ اللجانِ الحاشدةِ ليس وسيلةً عمليةً لكتابة التاريخ، وأنَّ كتابة التاريخ الصحيح قد أصبحت في عصرنا علمًا حقيقيًّا، لا يستطيع أن يضطلع به إلا المتخصصون فيه، هذا وإنا لنأمل أن يكون لمشيخة الأزهر في عهدها الجديد في هذا الموضوع نظرة أوسع آفاقًا، وأوفر سدادًا وتوفيقًا)(١).

ولم يقف الأمر عند فوات فرصة تدوين تاريخ شامل للأزهر فقط، بل إن العيد الألفي نفسه تأخر عقودًا من الزمن، فلم ينعقد سنة ١٣٥٩هـ، بل تأخر إلىٰ سنة ١٤٠٣هـ الموافق سنة ١٩٨٣م، ومع مرور السنوات فقد غابت أفكار كثيرة كان ينبغي أن يقوم الأزهريون بخدمتها وتوثيقها.

وبعد ذلك بخمس عشرة سنة تكلم شيخ المؤرخين محمد شفيق غربال عن أهمية تراجم رجال الأزهر، في مقال له نشر في مجلة الأزهر سنة ١٣٧١هـ الموافق سنة ١٩٥٢م، وأشاد فيه كثيرًا بمجهودٍ مهمٍّ للمؤرخ الأزهريِّ الدكتور زكي محمد غيث.

(١) مجلة الرسالة /العدد ١٩١/ص٣٥٥/، الصادر بتاريخ ذي الحجة، سنة ١٣٥٥هـ - مارس، سنة ١٩٣٧م.

وقال: (وأما بالنسبة للأزهر في العهد العثماني فقد عالجه عن طريق تراجم الرجال مؤرخٌ أزهريٌّ هو الشيخ زكي غيث، في مجموعة تراجم شيوخ الأزهر في القرنين الحادي عشر والثاني عشر، والتي نشرها في العدد الأول من المجلد الثاني، من المجلة التاريخية المصرية، «مايو سنة ١٩٤٩م»، وسنرىٰ بعد قليلٍ مزايا طريقة الشيخ زكي غيث لدرس تاريخ الأزهر)(١).

فحرَّكَ هذا عندي شهيةَ البحث العلمي، وصار خاطري شديد الشغف للاطلاع علىٰ تلك الدراسة السابقة، ونهضت إلىٰ شراء (المجلة التاريخية المصرية)، لأظفر بالبحث المذكور للشيخ زكي غيث، وبكل كلمة في المجلة المذكورة تتعلق بالأزهر الشريف، وأنا في كل ذلك أُمَنِّي نفسي بقدرٍ هائلٍ من التراجم الأزهرية النادرة، يُغَطِّي فترة القرن الحادي عشر والثاني عشر، ويبقىٰ لنا القرن الثالث عشر في حاجة إلىٰ عملٍ وبحثٍ لجمع تراجمه، ويكون كتابي هذا قد أكمل المسيرة من بعد ذلك؛ إذ تناول القرنين الرابع عشر والخامس عشر.

فإذا بالبحث المذكور عنوانه: (شيوخ الجامع الأزهر في القرن الثاني عشر الهجري، الثامن عشر الميلادي)(٢)، وإذا بكاتبه الجليل قد تناول فيه ـ مرة أخرىٰ ـ تراجم من تولوا مشيخة الجامع الأزهر، وذكرهم الجبرتي في تاريخه؛ وهم السادة الأئمة: الخراشي، والبرماوي، والنشرتي، والقليني، وشنن، والفيومي، والشبراوي، والحفني، والسجيني، والدمنهوري، والعروسي، وجعل للبحث ملحقًا عن شيوخ الأزهر في القرن الثالث عشر، قصره علىٰ العلامة الشرقاوي.

وإذا بهذا البحث رغم محدودية مادته، قد وقع موقعًا جليلًا عند شيخ المؤرخين شفيق غربال، فأشاد به، وقال فيه: (ومن حيثُ تراجمُ الرجال أعتقد أنَّ ما نشره الشيخ زكي غيث عن الشيوخ يكفي ليدل القارئ علىٰ ما احتواه تاريخ الرجال من مادةٍ قلَّ أن تجاريها مادةٌ في الشخصيات والمواهب والأطوار)(٣).

فأنت ترىٰ مقدار ما أحدثته تلك الشذرة اليسيرة من تراجم رجال الأزهر من أثرٍ مهمٍّ، كشف عن احتياجٍ عميقٍ للاتساع في جمع أطراف هذا الباب.

فقدَّرْتُ في نفسي أنه لو اطلع علىٰ هذه الجمهرة ـ التي هي بين يديك الآن، والتي ضمَّتْ بين دفتيها ألوفًا مؤلفة من الأزهريين، من مختلف الأقطار والبقاع، وأَعْرَبَتْ عن الشخصيات، والمواهب، والأطوار ـ لوقعت منه موقعًا حسنًا جدًّا، ولحققت أمنية غالية، ولكان فيها سدادٌ لفراغٍ كبيرٍ، واحتياجٍ مُلِحٍّ، ولوجد فيها

(١) تراث محمد شفيق غربال /١/١١٨/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

(٢) المجلة التاريخية المصرية /المجلد الثاني، العدد الأول /ص٢٤٥ ـ ٢٨٥/، الصادرة عن الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، العدد الصادر في مايو، سنة ١٩٤٩م.

(٣) تراث محمد شفيق غربال /١/١٢٤/.

ما يرومه من تاريخ رجالات الأزهر ومواهبهم وأطوارهم، ولكانت قرة عينٍ لكل باحثٍ مدقق، حريص على التاريخ العلمي العريق، لهذا المعهد الجليل العتيق.

وفي أثناء ذلك كله تزداد سير علماء الأزهر اندراسًا، وتنطمس آثارهم، وتمحوها الأيام شيئًا فشيئًا، حتى يبلغ من إهمال التأريخ للعلماء الأزهريين أن أسرة الواحد منهم ربما سعت في نشر شيء عن والدهم، لما عايشوه معه من مواقف جليلة، تملأ العين والقلب، فيبذلون في سبيل ذلك جهودًا كبيرة، ويجمعون ما يمكنهم من سيرته وآثاره، ويتجشمون المشقة في سبيل توصيل ذلك لمن لهم عناية بالكتابة عن الشخصيات، ثم تضيع جهودهم سدى، ويطوي التاريخ سيرة ذلك العالم الأزهري الجليل الذي نبغ منهم.

وخذ مثالًا لذلك ما حكاه الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي، قال: (جاءتني سيدة تبلغ الخمسين من العمر، ولم أكن قد رأيتها من قبل، وبيدها ملف يجمع بعض الأوراق، وقالت في هدوء: أنا فلانة، متزوجة من صديقك فلان، وكريمة الأستاذ «ع» أحد علماء الأزهر الشريف، الذين فارقوا الحياة منذ ثلاثين عامًا، وكان أبي أستاذ فلان وفلان ممن تتردد أسماؤهم يوميا في إذاعة القرآن الكريم، وكانوا دائما يزورون أبي في المنزل، وكنت صغيرة وأنا أشاهدهم يجلسون عند أبي إلى ما بعد صلاة العشاء، ولكني أشعر بالحسرة وأبكي لأني لا أسمع اسم والدي وهو أستاذ الجميع ـ هكذا قالت ـ.

وقد تحدثتُ مع أستاذ فاضل، فقال لي: إنك تريد أن تكتب دائمًا عن الراحلين من العلماء، وتذيع عنهم أحاديث كثيرة، فترددت أن أفاجئك بالزيارة على غير معرفة، وشجعني زوجي، وقال: إنه صديقك، ولابد أنك ستجبر خاطري إذا عرفت صلتي به، ومعي أوراق كثيرة تحمل بعض مقالاته، فلعلك تفيد منها، وتكتب عنه، وترسم صورته!

أخذت أتذكر بيني وبين نفسي ما أعرفه عن أبيها، فعرفت أنه كان يشتغل بمراجعة الكتب الدينية في إحدى المطابع الشهيرة، كما كان شيخًا لبعض المعاهد الأزهرية، وله آثار تدل على فضله، ولكنه مع ذلك لا يتميز بميزة كبرى تجعله مدار حديث متصل، فسكتُّ مفكرًا فيما يمكن أن أقوله، وقد أعجبتُ بوفاء السيدة لأبيها، وقد سافرتْ من القاهرة إلى المنصورة، لا لشيء إلا لتبحث عمن يتحدث عنه.

وبعد لحظة قالت السيدة: أذكر أن والدي كان مريضًا، وكان الليل باردًا في الشتاء، فأوقدت «وابور الجاز» ليدفئ قدميه، وهو عاكف على تصحيح أوراق تجمع حديث رسول الله ﷺ، فعَزَّ عليَّ أن يسهر هكذا وهو مريض، فقلت له: يا أبي! اترك ما معك، واسترحْ في السرير، فالشتاء شديد البرد، ودفء «الوابور» لا يكفي، فنظر إليَّ نظرة طويلة، وقال: يا بُنَيَّتِي! إنني أخجل من رسول الله ﷺ حين أترك حديثه دون مراجعة، والمطبعة تنتظر المسوَّدات في الصباح، لو كان كتاب أحد غير رسول الله لقمتُ!

قالت السيدة ذلك عفوًا، دون أن تقصد إثارتي، فشعرتُ برجفة في كياني، وقلت: إن هذا الصنيع وحده يوجب عليَّ أن أكتب عنه، فهو أدلُّ علىٰ معدنه من عدة مجلدات)[1].

قلت: ولم يشفع كل ذلك عند الدكتور البيومي فيسدي للشيخ جميلًا، ويُبْقِي للأجيال شيئًا عنه يُخلِّدُ به ذكره، حتىٰ اسمه رمز إليه ولم يصرح به، وسبب ذلك أن العلامة البيومي له شرط خاص به، يحقق مقصوده هو فيمن يترجم لهم، والشيخ الجليل المذكور ليس علىٰ شرطه، ويا ليتني اليوم أتمكن من التواصل مع تلك السيدة الكريمة، لأكتب عن والدها الشيخ الجليل، ما يجبر الخاطر، ويبقي أحسن الذكر له.

لكن موضع الشاهد أن هذا الحال إجمالًا كاشف عن مقدار الحاجة إلىٰ أعمال علمية جامعة، تستقصي أخبار الأزهريين علىٰ تفاوت مراتبهم ودرجاتهم وطبقاتهم، وتحصي كل ما يمكن الوصول إليه من سيرهم وتراجمهم، ومن ثم تنفتح بحوث أخرىٰ في اتجاهات متعددة.

ونظير ذلك أن أهل الحديث وقع في تصانيفهم ما يترجمون به للحفاظ فقط، كـ(طبقات الحفاظ) للسيوطي، فلا يُدْخلون في كتبهم هذه إلا من بلغ هذه الدرجة الرفيعة، ثم إن لهم بجوار ذلك التصانيف الكثيرة العامة الجامعة، والتي ما تركوا فيها راويًا قطُّ عُرِف برواية حديث أو حديثين فأكثر إلا نقَّبوا عنه وسبروا أحواله وترجموا له، فتقع في هذه الكتب تراجم الأساطين والجهابذة المتبحرين من الحفاظ والنقاد، مع تراجم رواة ليس لهم من ذكر سوىٰ في مواضع معدودة رووا فيها حديثًا أو أثرًا.

فتجاورت عندهم الكتب التي تنتقي نوعًا خاصًّا من الرجال، مع كتب التراجم العامة التي حصرت التراجم واستوعبتها مهما كان التفاوت بين المترجَمين في الشهرة والعدالة والحفظ والإتقان واتساع الرواية أو ندرتها.

وكذا ينبغي أن يكون الشأن عندنا، فتوجد الكتب التي تختص بمن لهم (ميزة كبرىٰ تجعلهم مدار حديث متصل) علىٰ حد تعبير الدكتور رجب البيومي، بأن نُفرد كتبًا لمن تولوا مشيخة الأزهر، وكتبًا لمن تولوا منصب الإفتاء، وكتبًا لمن تولوا رئاسة الجامعة الأزهرية، وغير ذلك من الحيثيات الرفيعة، وأن ننهض بجوار ذلك إلىٰ الكتب العامة الجامعة، التي تلتقط من كل أزهريٍّ ما في حياته من شذرات ولمحات وإفادات، مهما كان حاله من نباهة الذكر أو خمول الحال.

وقد أفضىٰ ذلك كله إلىٰ أن بقي الأمرُ إلىٰ يوم الناس هذا، وليس للأزهر الشريف قاعدة بيانات، ولا سجلٌّ موثَّقٌ شاملٌ، يستقصي كل زوايا تاريخه، ويجمع شتات أخباره التفصيلية، ويجمع سير أعلامه ورجاله الأكابر.

(١) طرائف ومسامرات /ص٣٨١/، ط: دار القلم، دمشق، سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠١م.

وبقي التأريخ للأزهر الشريف بعد كل ذلك حلْمًا عزيز المنال، يطمح إليه العارفون بقدر هذا المعهد العلمي الأجلّ، لكن تحول دون ذلك العوائق.

ومهما كُتبتْ المؤلفات والبحوث والكتب لتتحدث عن الأزهر الشريف وتاريخه، فإنها لا تزال قاصرةً عن الوفاء بحقيقة التأريخ له، ما لم تتناول بالوصف المستوعِبِ، والتوثيق الدقيق: أخبار رجاله، وأنظمة التعليم فيه، وتوصيف تطورات العملية التعليمية التي تهادتْ وتبلورتْ في رحابه، نتيجة التجربة التاريخية الواسعة في تنقيح مهارات التدريس، بما يناسب الطبائع والأمزجة والعقول المختلفة المتفاوتة، على امتداد الوافدين إليه من العالم الإسلامي مشرقًا ومغربًا، مع رصد الآثار الواسعة علميًّا واجتماعيًّا، والمترتبة على أنشطة أولئك الدارسين بعد تخرجهم وانتشارهم في بلدانهم، وكيف أنها انعكستْ على تلك الدول والمجتمعات بالإيجاب، والسيرة الحسنة، والسمعة الطيبة، وثقة تلك المجتمعات، مما حمل المجتمعات والأسر على أن توالي إرسال أبنائها للأزهر عبر القرون، وعلى تعاقب الأجيال.

ولذا فإني أجزمُ أنه لم يُوضَعْ إلى زمننا هذا تأريخٌ جامعٌ حافلٌ مستوعبٌ، يستقصي تاريخ الأزهر، ويومياته، ورجالاته، وعمارته وأروقته، وحركة التعليم فيه، ويتناول بالترجمة أعيانه وشيوخه وعلماءه، ويرصد ما جرى في رحابه من حركة علمية متدفقة حافلة، التقى فيها العلماء وطلاب العلم من مختلف أقطار الأرض، على نحو عجيبٍ، نادر الحدوث، ويُعرب عن الصنائع والمهن التي نهضت حوله لخدمة حركة العلم فيه.

حتى قال شيخ المؤرخين الأستاذ الجليل محمد شفيق غربال ﷺ: (لا نستطيع أن نقول: إن المؤرخين المصريين قد قاموا بما ينبغي عليهم نحو تاريخ الأزهر، فتلك العجالات أو النبذات التي أُعِدَّتْ للنشر للمناسبات المختلفة، لا يمكن أن تسمى تاريخًا للأزهر، وإن حملت ذلك الاسم)(١).

ولأجل هذا قررتُ النهوض إلى هذا المرتقى الصعب، والخوض في هذا البحر المتلاطم، والإقدام على هذا العمل الضخم المترامي الأطراف، وقد أدركت أن التأريخ لرجال الأزهر على مدى ألف سنة أمر فوق الطاقة، فأردت أوَّلًا تثبيت نقطة ارتكاز يمكن الانطلاق منها، بأن أختار قرنًا هجريًّا كاملًا أجمع تراجم رجاله، ثم أنتقل من بعده إلى قرن آخر، أو ينهض بذلك من يأتي من بعدي.

وقد تخيَّرْتُ القرن الرابع عشر الهجريَّ، لأنه الأقرب إلينا، ولأنه الحلقة التي تنطمس بالتدريج يومًا بعد يومٍ، فيجب العمل على سرعة استنقاذها وتقييدها، لتكون جسرًا نعبر من خلاله إلى تاريخ الجامع

(١) تراث محمد شفيق غربال /١/١١٧/.

الأزهر في القرون السابقة، التي توفرت فيها كتابات وأثبات وتواريخ، تُقيِّد قدرًا لا بأس به من أخبار علمائها.

ثم خطر لي أن أضمَّ إلىٰ القرن الرابع عشر الهجري تلك العقود الثلاثة التي مضت من القرن الخامس عشر الهجري، فصارت هذه الجمهرة مشتملة علىٰ تراجم الأزهريين من وفيات سنة ١٣٠٠هـ إلىٰ العام الحالي سنة ١٤٣٩هـ.

ورأيت أن هذا العمل يكون مشابهًا لصنيع عدد من كبار المؤرخين من علمائنا، الذين أفردوا قرنًا من القرون علىٰ حدته بالعناية بتراجم رجاله، كما فعل الحافظ ابن حجر في كتابه: (الدرر الكامنة، في أعيان المئة الثامنة)، ثم تلميذه الحافظ السخاوي في كتابه: (الضوء اللامع، في أعيان القرن التاسع)، ثم نجم الدين الغزي في كتابه (الكواكب السائرة، في أعيان المئة العاشرة)، وكما فعل المحبي والمرادي والبيطار من بعد في أعيان القرون التالية.

ورأيت أنَّ هذا العمل يعد أول تأريخٍ شاملٍ لرجال الأزهر الشريف، وأنه باكورةٌ يمكن أن تتراكم عليها أعمال المؤرخين من الأجيال القادمة، بأن ينهض من يجمع كتابًا في تراجم أعيان القرن الثالث عشر الهجري من الأزهريين، ثم تراجم أعيان القرن الثاني عشر الهجري، وأن ينهض أيضًا من يستدرك من فاتني ولم أتمكن من الوصول إليه من أعلام الفترة التي تشرفت بخدمتها في القرنين: الرابع عشر والخامس عشر الهجريين.

ومفتاح التوصل إلىٰ ذلك كله هو التوثيقُ والحشدُ والجمعُ لتراجم رجاله وأعيانه، ورصد كل شذرة أو قصاصة ورق تتعلق بهم، في المخطوطات والمطبوعات والدوريات؛ ليكون ذلك عملًا تحضيريًّا تمهيديًّا، يمكن من خلاله التحليل والتأمل لما اشتملت عليه سيرهم وتراجمهم من الأحداث، والمواقف، ومهارات التدريس، ومراعاة الفروق الفردية بين الدارسين، ومعرفة طبيعة البيئة العلمية والجو العلمي الذي يستنفر الهمم، ومعرفة ما يحيط بالبيئة العلمية ويساعد علىٰ إنجاحها، من متطلبات الدراسة والمعيشة.

وإذا فاتنا التوثيقُ انطمستْ سيرهم بكل ما تشتمل عليه من فوائدَ جليلةٍ، وافتقدنا ذاكرتنا المعرفية الأزهرية، وطُوِيَتْ صفحاتُ شخصياتٍ مهمةٍ، من المصريين والوافدين، حفروا تاريخ بلدانهم وأوطانهم، ونسجوا عَلاقاتٍ متشابكةً تلتقي جميعها هنا في القاهرة، وتنبع جميعها من الأزهر الشريف.

ولاشك أنَّ موت هؤلاء، وانطفاء صفحات تاريخهم خسارةٌ فادحة، (وكم مات بعدم الذكر من كبير، وكم خَمُل بالإهمال من شهير، وكم فات بالنسيان من عِلْم كثير، كما قيل:

تَفُـوتُ كرامـاتُ الرجـال شـواردًا ... إذا لـم تُقَيِّـدْها علينـا الـدفاترُ
تمـوت الخبايـا فـي الزوايـا ومـا لهـا ... من الناس بين الناس في الناس ذاكرُ)[1].

وقال العلامة الأزهري الجليل الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي في: (نفحة البشام): (وقلت في مزية كتب التاريخ المشتملة على تراجم أعيان كل زمان، من أصحاب الحيثيات في سائر جهات العالم بأحسن الأوصاف والمكارم:

إذا كـان أمـرُ المـرء إن طـال عَهْـدُه ... بحكـم الفنـا فـي النـاس يُنْسَـىٰ ويُنْسَـخُ
فصَـيِّرْهُ بالتـاريخ حَـيًّا مُخَلَّـدًا ... ليبقىٰ علىٰ طول المدىٰ مَنْ يـؤرِّخُ)[2].

ولعل الأهمَّ من ذلك كله هو أن نعتصر ونستخرج ما في سير هؤلاء العلماء الأزهريين الأجلاء، من القيم المركزية، والمعاني النبيلة، والأخلاق الرفيعة، والآثار العلمية، والأدوار المجتمعية التي ظهرت علىٰ يد هؤلاء العلماء بعد عودتهم إلىٰ أوطانهم، عند قيامهم بوظائفهم ومناصبهم الرفيعة، من رئاسة الدولة، إلىٰ الوزارة، إلىٰ الإفتاء، إلىٰ القضاء، إلىٰ التدريس، إلىٰ غير ذلك من المهن والمواقع التي تبوأها هؤلاء الأجلاء.

والثابتُ المُطَّرِدُ في سيرهم وأخبارهم جميعًا هو حلول الأمان في أوطانهم، فما رجع مُوفدٌ ولا دارسٌ أزهريٌّ قط إلىٰ وطنه ـ علىٰ امتداد قرون من الزمان، ومع اتساع النطاق الجغرافي الذي تفرقوا فيه ـ فتسبب في القتل أو الحروب أو الرعب أو الصدام والتدمير، بل كانت المحصلة النهائية لدورهم في مجتمعاتهم هي حلول الأمان، وانطفاء نيران الثأر والحروب، وحب العلم ونشره، وشدة العناية بإنشاء مدارس التعليم، وتعميق حب الأوطان والوفاء لها في النفوس، وسريان منظومة الأخلاق المحمدية الرفيعة إلىٰ الشعوب والمجتمعات.

قال بيارد دودج: (وأما الطلاب الأجانب الذين أَتَمُّوا دراستهم بالأزهر، وعادوا إلىٰ بلادهم، فإنهم يضطلعون بأعمال تعدُّ صورة جليلة لأثر الأزهر في تلك البلاد)[3].

وقد كتب الدكتور عبد المنعم عبد الرحمن عبد المجيد أحمد بحثًا مهمًّا عنوانه: (بعثات الأزهر الأولىٰ لنشر الثقافة الإسلامية ودراسة أحوال المسلمين) خلص في آخره إلىٰ قوله: (اتضح من البحث الدور الذي قام به الأزهر في العمل علىٰ الحفاظ علىٰ الوحدة الوطنية بين المسلمين وإخوانهم من أبناء وطنهم،

---

(١) تاج الأعراس، في مناقب الحبيب صالح بن عبد الله العطاس /٢٨/١/ للعلامة علي بن حسين العطاس، ط: مكتبة ومطبعة منارا قدس، أندونيسيا، سنة ١٣٩٩هـ.

(٢) نفحة البشام، في رحلة الشام /ص١٤٧/، ط: دار الرائد العربي، بيروت، سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٣) الأزهر في ألف عام (دودج) /ص١٧٣/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، (القراءة للجميع)، سنة ١٩٩٧م.

والعمل على غرس قيم الوطنية والانتماء لديهم، وقد رأينا ذلك واضحًا جليًا في جهود بعثتي الأزهر في إرتريا وجنوب إفريقيا، وهو ما يوضح بجلاء الفرق بين دور البعثات الأزهرية، ووسائلها وأهدافها النبيلة)(١).

ولعل الله تعالىٰ أن يُحقِّقَ الأمل في هذه الجمهرة، وأن يفتح فيها فتحًا تصحبه الإبانة، وأن يفتح فيها مغاليق خزائن العلوم والمعارف، وأن يجعلها عنوان بر ووفاء لرجال عظماء، ذوي وجاهة ومنزلة، بذلوا المهَجَ في خدمة العلم، وقَبَسوا من سراج العلم المنير في الأزهر قَبَسًا من العلم والبصيرة، فأتوا شعوبهم وأممهم بمعادن العلم والحكمة.

وقد ورد في قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م توصيف مهم لمهمة الجامع الأزهر ووظيفته، يتبين منها أن الغرض الأكبر منه هو صناعة العلماء، حيث ورد في المادة الثانية منه ما نصه: (الغرض من الجامع الأزهر والمعاهد الأخرىٰ هو القيام علىٰ حفظ الشريعة الغراء، وفهم علومها، ونشرها علىٰ وجه يفيد الأمة، وتخريج علماء يوكل إليهم أمر التعاليم الدينية، ويلون الوظائف الشرعية في مصالح الأمة، ويرشدونها إلىٰ طريق السعادة)(٢).

وفي سنة ١٣٥٦هـ لما أن أصدر مجلس الأزهر الأعلىٰ قراره بالإشراف علىٰ معهد بلصفورة(٣) الأزهري العريق، جمع شيخه العلامة الشيخ أحمد علي بدر علماء المعهد والأعيان والمشاهير في حفل جليل، وألقىٰ فيه كلمة ساحرة عصماء، قال فيها: (الغرض الذي يرمي إليه المعهد وتعاليمه وإرشاداته هو عمارة القلب بالله تعالىٰ، حتىٰ تظهر أسرار الشريعة وأنوارها علىٰ طلاب العلم، فينفعوا البلاد والعباد)(٤).

فالعلماء المذكورون في القانون هم ثمرة الأزهر في الحقيقة، بل هم الأزهر في الحقيقة، وتاريخ

(١) بعثات الأزهر الأولىٰ لنشر الثقافة الإسلامية ودراسة أحوال المسلمين /٣٣٠٩/ (منشور ضمن المجلد الثالث من أعمال مؤتمر: دور الأزهر في النهوض بعلوم اللغة العربية وآدابها والفكر الإسلامي)، المنعقد في كلية اللغة العربية في الزقازيق في المحرم سنة ١٤٣٤هـ ــ نوفمبر ٢٠١٢م.

(٢) قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م: قانون الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، ط: المطبعة الأميرية، مصر، سنة ١٩١١م.

(٣) قرية عريقة في سوهاج، لها خصوصية علمية تستحق الإحياء والإشادة والتعريف، من القرىٰ القديمة، لها ذكر في الكتب القديمة المعنية بالبلدان المصرية، وقد ذكرها الأسعد ابن مماتي في (قوانين الدواوين)، وعلي مبارك باشا في الخطط، وحظيت باستقبال الزعماء عبر التاريخ، كزيارة السلطان أحمد فؤاد، وزيارة محمد محمود باشا رئيس الوزراء الأسبق، والخديوي عباس حلمي، والزعيم سعد زغلول، وغيرهم، وفيها نشأ المعهد الأزهري الذي هو ثالث معاهد العلم بعد الأزهر والجامع الأحمدي، وانظر نبذة عن ذلك في ترجمة العلامة علي بدر البلصفوري هنا في وفيات سنة ١٣١٥هـ، وانظر كتاب: بلصفورة ملح الصعيد /ص١٤ ــ ٢٩/، ط: دار محسن للطباعة.

(٤) بلصفورة ملح الصعيد /ص١٣٣/.

الأزهر في الحقيقة هو علماؤه ورجاله، وأحوال علمائه ورجاله، وثمرة تحركات رجاله وأنشطتهم، ومواقفهم وتصرفاتهم، وجهودهم العلمية، وأثرهم الاجتماعي في بلدانهم وأوطانهم ودوائر تأثيرهم، قال الدكتور سعد ظلام: (وتاريخ الأزهر مَدِينٌ إلىٰ حدٍّ كبيرٍ لهذه النماذج الفادية القادرة، فتاريخه غير المكتوب رهنٌ بمواقف هؤلاء الشيوخ الأفذاذ، ومواقفهم الشجاعة، وعلمهم الثبْت)(١).

ويقول شيخ قراء العراق الملا عثمان الموصلي الأزهري علىٰ لسان الأزهر الشريف:

(وكَـمْ حِلَقِـي أَبْـدتْ رجـالًا أَعِـزَّةً ... تَسَـامَتْ علـىٰ هـام السِّـماكَيْن مَفْخـرا

رجـالٌ لهـم بـالله أوثـق عـروة ... بآثـارهم أحيـا ولـو سـكنوا الثرىٰ)(٢).

أي أن الأزهر يقول: إنني أحيا بهؤلاء الرجال الأكابر رغم أنهم هم قد ماتوا، لكنهم صُنَّاعُ مجدي وسيرتي وآثاري في الناس، فأنا هم علىٰ الحقيقة.

فالأزهر المعمور معنىٰ قبل أن يكون مبنىٰ، وعلوم ومنهجٌ معرفيٌّ قبل أن يكون كتبًا وأوراقًا، وشيخٌ وإمامٌ ورجالٌ ومواقف قبل أن يكون جدرانًا ومنابر ومناراتٍ ومآذن.

وتاريخه هو حصيلة حركة هؤلاء الرجال الأكابر في تحقيق العلم وإتقان مناهجه، وفي فهم الشرع الشريف، وفي حسن تنزيله علىٰ الواقع.

وممن أشار إلىٰ ذلك العلامة الشيخ إبراهيم أبو الخشب في قصيدة له منها:

الأزهـر المعمـورُ شـيخٌ يـا أخـي لـبس العمامـةْ

ومشـىٰ علـىٰ أرضِ الإنـارة والطهـارةِ والكرامـةْ

وأشـاع هـذا النُّـورَ وهْـوَ مُـوَقَّرٌ لـم يُحْـنِ هامـةْ

كـم ثـار للظلـمِ المسـلطِ وانبـرىٰ لِيَصُـبَّ جامـةْ

أنـا ماعرفـتُ سـواه يبـذلُ دون شُـحٍّ أو سـآمةْ

مـا بـال قـومي هاهنـا أو هاهنـا جهلـوا مقامـةْ

وتَنَكَّـرُوا أو أنكـروا أنّـا بـه نلنـا الزعامـةْ

إنـي أُحِـسُّ بأننـا صـرنا إلـىٰ يـوم القيامـةْ

(١) مجلة الأزهر /٦٩/١٤٨١/، العدد الصادر بتاريخ شوال، سنة ١٤١٧هـ ـ فبراير سنة ١٩٩٧م.

(٢) التوجع الأكبر، علىٰ لسان الجامع الأزهر /ص٣/، ط: مطبعة النهج القويم، مصر، (د ت).

وقد قال الإمام الجليل محيي الدين النووي: (اعلم أن لمعرفة أسماء الرجال وأحوالهم ومراتبهم فوائد كثيرة، منها: معرفة مناقبهم وأحوالهم، فيتأدب بآدابهم، ويقتبس المحاسن من آثارهم، ومنها معرفة مراتبهم وأعصارهم، فيُنزَلون منازلهم.

وعن عائشة ﵂ قالت: «أمرنا رسول الله ﷺ أن ننزل الناس منازلهم»، ومنها أنهم أئمتنا وأسلافنا، كالوالدين لنا، وأحنىٰ علينا في مصالح آخرتنا التي هي دار قرارنا، وأنصح لنا فيما هو أعود علينا، فيقبح بنا أن نجهلهم، وأن نهمل معرفتهم)(١).

وقال العلامة الجليل أبو الحسنات محمد عبد الحي اللكنوي في فوائد كتب التراجم: (وأجلها فن تراجم الكبار، وأخبار الأخيار، ففيه فوائد جمة، ومنافع مهمة)، فذكر عددًا من فوائد ذلك، منها قوله: (الاطلاع علىٰ مناقبهم، وأوصافهم، ونباهتهم، وجلالتهم؛ ليحصل التأدب بآدابهم، والتخلق بأخلاقهم)، إلىٰ أن ختم تلك الفوائد بأهمها وأجلها في نظري، وهو قوله: (ومنها الاطلاع علىٰ آثارهم وحكاياتهم، وفيوضهم، وتصنيفاتهم، فيتحركُ عِرْقُ الشوق إلىٰ الاهتداء بهديهم، والاقتداء بسيرهم)(٢).

فإحياء تاريخ عظماء الرجال من مستلزمات النهوض في أي أمة، لما أنه يكشف عن الهمم والمواهب والتجارب الناجحة، وكيفية إدارة الأزمات، وصناعة النجاح، حتىٰ إن الدارس لبواكير العصر الوسيط في أوربا يجد أن الإمبراطور شارلمان قد كان صاحب يد طولىٰ في إحياء نهضة علمية شاملة اعتبارًا من أواخر القرن الثامن الميلادي، سميت باسمه، ونسبت إليه، وعرفت باسم النهضة الكارلونجية.

فاهتمَّ بجمع الكتب القديمة، من مؤلفات اللاتين القدامىٰ في إيطاليا وغيرها من دول الغرب، واستدعىٰ إلىٰ عاصمته كثيرًا من علماء عصره من مختلف أنحاء القارة الأوربية، من الأدباء والفلاسفة واللاهوتيين والمفكرين، للاشتغال بأمور العلم والتعليم في بلاطه، لتعليم أبنائه وأبناء كبار رجال حاشيته، إلىٰ غير ذلك من معالم عنايته الفائقة بالعلم والتعليم.

ورغم أن شارلمان كان متقدمًا في السن وقتذاك، ورغم كثرة أعماله ومشاغله التي كانت تلتهم وقته، ورغم أنه لم يكن عالمًا أو متعلمًا بالمعنىٰ المفهوم فقد كان رجلًا مستنيرًا، ولم يكن يجد غضاضة في أن يجلس إلىٰ جانب صبيان القصر الإمبراطوري ليستزيد من نور العلم والمعرفة، وكان يناقش الأساتذة ويناقشونه مناقشة علمية، وأمر بانتقال هذه المدرسة معه أينما ذهب وحيثما حل، حتىٰ وهو في حملاته الحربية، فكانت بمثابة مركز علمي متنقل من نوع فريد.

ونجد أن من معالم النهضة العلمية الكارلونجية: الاهتمام البالغ بالتاريخ؛ إذ انتعشت حركة التدوين

(١) تهذيب الأسماء واللغات /١/١٠/، بتصرف، ط: إدارة الطباعة المنيرية.
(٢) الفوائد البهية، في تراجم الحنفية /ص٢/، ط: دار الكتاب الإسلامي، (د ت).

التاريخي، وتقدم فن الكتابة التاريخية، فكتب بولس اللومباردي كتابه: (تاريخ اللمبارديين)، كما وضع اينهارد باللاتينية كتابًا عن حياة شارلمان، مع العناية بالتدوين التاريخي العام في الحوليات، المرتبة على السنوات، مع العناية بالشعر والنثر، والعناية بحركة تحسين الخطوط، حيث إن الخط اللاتيني كان أصابه تدهور كبير عقب غزوات البرابرة، فشهد في الحضارة الكارولنجية تطورًا واضحًا[1].

والحاصلُ أنَّ تراجمَ الأئمةِ والعلماء وعظماء الرجال بابٌ جليلٌ من أبواب العلم، يُستعانُ به على فهم عباراتهم واختياراتهم وأقوالهم ومناهجهم وطرائق تفكيرهم، وتنكشف به شذراتٌ مما كان يجري في بيئاتهم العلمية من محاورات ومناظرات، ومن غاب عنه ذلك جَهِلَ أقدارهم، واختلطت عليه طبقاتهم ومراتبهم، قال الإمام أبو الطيب عبد الواحد بن علي اللغوي النحوي ت٣٥١هـ في: (مراتب النحويين): (وحَرِيٌّ بمن عَمِيَ عن معرفة قومٍ أن يكون عن علومهم أعمىٰ وأضلَّ سبيلا)[2].

وقد صوَّر العلامة السيد علوي بن عباس المالكي هذا المعنىٰ تصويرًا دقيقًا؛ إذ قال في سياق آخر: (إن هذه الفترة من تاريخ ماضينا العلمي المجيد قد علاها غبار النسيان، وأحاطت بها عناكب الإهمال، وكان شبابنا يشتاقون إلىٰ معرفة أخبارها، والإحاطة بحقائقها، فلا يجدون بعد البحث إلا صورة موجزة، لا تبعث في نفوسهم الإعجاب، ولا تدفعهم إلىٰ الاقتداء)[3].

ولقد أحسن ﷺ إذ اقتنص كلمة الإعجاب وعبَّر بها، فإن الإنسان لا ينتمي لشيء إلا إذا أعجب به، ولا يعجب به إلا إذا عرفه، ولا يعرفه إلا إذا غاص في تاريخه.

ولقد منَّ الله تعالىٰ بالولع والشغف والحرص والتتبع لذلك كله، حتىٰ تجمعتْ ـ مع طول السنين وشدة الكدِّ والدأب، وكثرة التفتيش والمطالعة والتقييد والتقصي ـ بحوثٌ وتراجم، وأحداث وأخبار، أوجبتْ الأمانة والوفاء أن أنهض لتقييدها ورقمها في كتاب جامع، وجمهرة حافلة.

فجاء هذا الكتاب سباحةً وسياحةً في تاريخ الأزهر الشريف، وغَوْصًا في مناجم كنوزه، وتنقيبًا عن جواهرها، وانفتاحًا لنافذةٍ في جدار الزمن، نُطِلُّ منها علىٰ صناعةٍ علميةٍ ثقيلةٍ، عَكَفَتْ علىٰ تحويل العلوم والمعارف إلىٰ رجالٍ كبارٍ، وقاماتٍ شوامخ، صِيغَتْ بعنايةٍ، وتغذَّتْ بالعلم حتىٰ ارتوت منه، وتشَرَّفتْ بالصحبة التامة لجيل أساتذتهم، فورثوا عنهم مهارات تحويل العلوم إلىٰ واقع، وإلىٰ مسلك اجتماعي، ومواقف وطنية، شهد فيها الناس الجلال والرفعة.

(١) نشأة الجامعات في العصور الوسطىٰ /ص٥٩ ـ ٧٠، وص١٢٥/، ط: دار النهضة العربية، بيروت، سنة ١٩٨١م.

(٢) مراتب النحويين /ص٥/، ط: مكتبة نهضة مصر، الفجالة، القاهرة، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٣) من مقدمة العلامة السيد علوي بن عباس المالكي علىٰ كتاب: سير وتراجم بعض علمائنا في القرن الرابع عشر للهجرة /ص١١/، ط٣: الكتاب العربي السعودي، تهامة، جدة، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤٠٣هـ ـ ١٩٨٢م.

إِضَاءَةٌ

في أنَّ جمعَ تراجم العلماء والعباقرة جزءٌ من الذاكرة الوطنية والمؤسسية التي تبني الأمم، ومدى أهمية ذلك في بناء الأجيال

لكل أمةٍ من الأمم وعيٌ بذاتها، وإدراكٌ لما أحرزته عبر تاريخها من نجاحات، ورصد لمجموع عبقريات أبنائها ومواهبهم وإبداعاتهم، مما يتكون منه في نهاية المطاف صناعة صيتٍ ما لهذه الأمة، تشتهر به بين الأمم والحضارات.

ولقد ترسَّخ هذا في عقليةِ حضارة المسلمين وذاكرتهم المعرفية، التي حرصتْ حرصًا عميقًا على رصد المواهب، وملامح النبوغ والتفوق والتفرد المنثورة عند الأفراد، مما يشكل رصده وجمعه وتأمله وتصنيفه والوعي به أرشيفًا حضاريًّا، ومُتْحَفًا معرفيًّا، يجمع تلك الشعاعات المبعثرة من العبقرية عند الأشخاص في بؤرة واحدة وصعيد واحد، يتمكَّن معه القارئ والمطالع عبر الأعصار من إيقاد سراجِ أفكاره من حصيلة أفكارهم، والوعي العميق بطرائق اختراقهم للأزمات والمصاعب.

وقد ترك كل ذلك في تاريخ المسلمين عنايةً كبرى بذلك الفنِّ المعرفي، أثمر حركةً فريدةً من التأليف في التأريخ للشخصيات الموهوبة، وصفها الدكتور إحسان عباس بقوله: (وربما لم يُتَحْ لأمةٍ أخرى أن تعتني بتأليف المعاجم عن الرجال كما عني المؤلفون المسلمون بها، وتنوعت تلك الكتب وتعددت على مدى العصور، حتى أصبح حصرها عِبْئًا مُعْجِزًا.

فهنالك معجماتٌ تُفْرِدُ أصحابَ كلِّ علمٍ: من نحوٍ، وأدبٍ، وشعرٍ، وفقهٍ، وحديثٍ، وتصوف، وقراءة، وتُفْرِد أهل كل مذهب: من شافعية، وحنفية، ومالكية، وحنابلة، ومعجمات محصورة في البلدان كـ«تاريخ بغداد» للخطيب، و«تاريخ دمشق» لابن عساكر، و«تاريخ أصفهان» لأبي نعيم، وليست هذه التواريخ إلا تراجم للرجال المشهورين من علماء كل بلد.

وهناك الكتب المتسلسلة، التي يُذَيِّلُ بها التالي على عملِ مَنْ تقدَّمه، فـ«يتيمة الدهر» ذيل على «البارع»، و«دمية القصر» ذيل على «اليتيمة»، و«الخريدة» ذيل على «الدمية».

وهناك سلسلة في علماء الأندلس تبدأ بـ«جذوة المقتبس» للحميديِّ، وتتلوها «بغية الملتمس» للضبي، ثم «الصلة» لابن بشكوال، فـ«التكملة» لابن الأبار، و«تكملة التكملة»، وهكذا، وهذه الظاهرة

ـ أي اتصال العمل في حقل واحد ـ قلَّ أن تجد لها مثيلًا ، إلا في بعض التاريخ الكنسي عند المسيحيين)[(١)].

وأقول: وفائدة ذلك لا تقتصر علىٰ الأفراد ، بل ترجع بالفوائد العظيمة علىٰ الأوطان والحضارات ، حتىٰ اعتنىٰ الدكتور كمال محمد عرفات نبهان بجمع دراسة في غاية الأهمية ، عنوانها: (التراجم الوطنية والقومية ، وأهمية إنشاء مرصد بيانات ، ومكتبة متعددة الأوعية للتراجم) ، أتىٰ فيه بفوائد نفيسة في هذا الصدد.

ومن ذلك قوله: (ولا يمكن الإلمام بظاهرة التراجم الإسلامية والعربية إلا في دراسة مطولة ، ولكنَّ دارسها يقفُ مبهورًا أمام إدراك أهمية ترجمة الأفراد والتأريخ لهم ، وهي درجة راقية من الوعي الحضاري ، وحتىٰ في القرون التي توصف بقرون التخلف العربي كانت التراجم ظاهرة مزدهرة ، بعكس ما نشهده في عصرنا الحاضر الذي أهملت فيه قيمة الفرد.

وضاعت تراجم الأفراد ، وأصبحنا في موضع يتنافىٰ مع أي درجة من الوعي التراجمي ، وهي ظاهرةٌ خطيرةٌ في كل أنحاء العالم العربي وفي مصر ، لولا محاولات محدودة للغاية كمًّا وكيفًا ، مثلما نجد في الموسوعة القومية للشخصيات المصرية)[(٢)].

وقد جاء في أول الموسوعة القومية للشخصيات المصرية ما نصه: (والشعوب العظيمة هي التي تتمتع بذاكرةٍ جماعيةٍ قوية ، وبوعيٍ دقيقٍ بالذات ومكوناتها وطاقاتها ، والشعوب التي تفقد ذاكرتها أو وعيها لا حاضر لها ولا مستقبل)[(٣)].

وهذه الذاكرة الجماعية للأممِ والأوطانِ هي التي تستخلص وتعتصر التجارب والتطبيقات الناجحة لأبنائها ، ومظاهر نجاحهم في إدارة المواقف والأزمات المختلفة ، وما يلمع هنا وهناك من مظاهر العبقرية التي تنقدح علىٰ يد الواحد منهم في هذا المجال أو ذاك ، ومدىٰ براعتهم في استدعاء قواعد العلم وأصول المعرفة في إدارة الحياة وشئونها ومجرياتها وأزماتها ، حتىٰ يسري نور العلم إلىٰ تصرفات البشر ، فتستنير به.

ونحن في المؤسسة الأزهرية يكمن من وراء ظهورنا فيضٌ من الخبرات الأزهرية النادرة ، وإدارة المواقف ، والتصدي للأزمات ، والبروز للناس في أوقاتٍ عاصفةٍ ، وأحداثٍ وطنيةٍ محتدمة ، تطيشُ فيها العقول ، وتضطرب فيها الأذهان الثاقبة.

فلمع في أثناء ذلك كله قبسٌ من الحكمة ، أو التدبير الحكيم ، أو التصرف الموزون ، أو المشورة المحفوفة ببُعْدِ النظر الثاقب والبصيرة النافذة ، علىٰ يد عالمٍ أزهري هنا أو هناك ، لمس الناس فيه أثر

---

(١) فن السيرة /ص١٤/ ، ط: دار الثقافة ، بيروت ، (د ت).

(٢) التراجم الوطنية والقومية /ص٢٣/ ، ط: مكتبة الإمام البخاري ، القاهرة ، سنة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

(٣) الموسوعة القومية للشخصيات المصرية /ص٧/ ، ط: هيئة الاستعلامات ، القاهرة ، سنة ١٩٨٩م.

المعرفة، ونَفَاذَ البصيرة، مما زاد خواطرهم اطمئنانًا وثقةً في جدوىٰ هذه المدرسة الأزهرية العريقة وأهميتها.

مما يجعل كلَّ ناشئٍ أزهريٍّ من الأجيال الجديدة لا يخوض في مواجهة الحياة وعواصفها وأزماتها معتمدًا علىٰ ذهنه المجرد، أو رأيه البحت، أو انطباعاته الأولية الساذجة.

حتىٰ كأنه ينحت التجربة والخبرة بالحياة من جديدٍ، بل يخوض غمار الحياة وقد استنار الذهنُ بعشرات المواقف السابقة، والتصرفات الحكيمة لعلمائه الأجلاء في مختلف ميادين الحياة، فإذا بالذاكرة التاريخية المتراكمة للمؤسسة تسعفه، وتلهمه الحلول المتراكمة، وتجعله يواجه الحياةَ مُسَلَّحًا بعشرات الحلول والخبرات، فيقتدر بالتدريج علىٰ أن ينسج علىٰ منوال ذلك، ويصنع المواقف الجديدة التي تناسب زمنه ومجتمعه وواقعه، فينجح في زمانه كما نجحوا هم في زمانهم.

وياليت الأمر استمر عندنا علىٰ هذا المستوىٰ الرفيع من التوثيق والرصد للمواهب والأشخاص النوابغ، لكن هذا النمط كاد يغيب في القرن الهجري الأخير.

وخلاصة ما أريده هنا هو إبراز الجسر الرابط بين أمرين: الأول هو القيمة الذاتية لسير الرجال وتراجمهم، ومقدار ما تنطوي عليه من مواهب وتجارب وهمم، والأمر الثاني هو أثر ذلك في بناء الأوطان، وصناعة سمعتها، وضخِّ الثقة في نفوس أبناء الوطن، وتحريك همم بقية أبنائه لينهضوا إلىٰ المعالي.

والأزهر الشريف يمثل في هذا السياق نقطة محورية، حيث إنَّ مهمته الأولىٰ هي صناعة العقول والرجال، وتشييد بناءٍ عقليٍّ ومعرفيٍّ مُحْكَم، وتزويد العقول بموازين الحكمة والبصيرة، مما جعلَ لرجال الأزهر وخريجيه أثرًا حميدًا في بلادهم ومجتمعاتهم، حيث وفد إليه طلاب العلم والمعرفة من الصِّين والهند والملايو والعراق والشام واليمن وبلاد المغرب والعمق الأفريقي، ثم رجعوا إلىٰ بلادهم، فأمنتْ بهم الأوطان، وأطفأوا نيران الفتن، ونشروا الأمان بين الناس، وحملوا مشاعل العلم في مختلف مجالاته، وتقلدوا أرفع المناصب فسلكوا فيها المسلك الحسن المحمود، مما جعل النهوض إلىٰ جمع تراجمهم في الدرجة العليا من الأهمية.

فدراسة تاريخ الأزهر وتاريخ رجاله إنما هو في الحقيقة أثر من آثار مصر وفضلها وفضل مؤسساتها؛ لأن مصر هي التي أهدت إلىٰ الأزهر كثيرًا من مقومات نجاحه، كما سيأتي تفصيله في الفصول القادمة.

إِضَاءَةٌ
في مستلزمات إنشاء مرصدٍ تاريخيٍّ ينهض بأعباء التأريخ اللائق بالأزهر الشريف، وأن الوثائق الأصلية من أهم أدوات ذلك

عند إرادةِ إنشاءِ مرصدٍ تاريخيٍّ دقيقٍ، يحيط بأطراف أوصاف الأزهر، وتاريخه، ومعماره، ورجاله، ومواقفه، وأثره في شعوب الإسلام، فلابد من عملٍ علميٍّ أصيلٍ، يعتمد على المصادر والباحث والمنهج.

◉ **أما المصادر** فلابد من استقراءٍ واسعٍ صبورٍ لوثائق أصلية، شديدة الانتشار والتفرق، في دور الكتب، وخزائن المخطوطات، وفي الدوريات والصحف، وفي صدور الرجال والأُسَر.

فالوثائقُ الأصليةُ للأزهر الشريف هي قدرٌ هائلٌ من المكتوبات والأضابير، التي كانت تدون يوميات الأزهر ومكاتباته، وشئونَ علمائه، وتحركاتهم وتنقلاتهم.

والسجلات التي كانت تُقَيِّدُ أسماء المنسوبين إليه في الأروقة المختلفة من المصريين والوافدين، وتُقَيِّدُ الأوقاف والأرزاق المرصودة لفئات وشرائحَ كثيرةٍ تحت قيود متعددة.

وسجلات تدبير شئون الامتحان وتراتيبه في أزمانه المتأخرة، مع وثائق مجلس الأزهر الأعلى، ونشرة الأزهر الرسمية في أجزائها الكثيرة، وكم فيهما من معلومات نفيسة منثورة.

ووثائق شهادات العالمية التي كانت تُحَرَّرُ لمن أتمَّ تحصيله وتأهل، واستحقَّ تلك الدرجة العلمية السامية، ومكاتباتهم وفتاواهم ومراسلاتهم التي جرت بينهم وبين علماء الأقطار المختلفة مشرقًا ومغربًا، فتضمنتْ لمحاتٍ كثيرةً من شئون حياتهم ومعاشهم وشبكةَ علاقاتهم العلمية ومناهج تفكيرهم.

ووثائق ديوان المعيَّةِ السَّنيَّة، التي تجمع الأوامر الصادرة من الديوان الخديوي أيام محمد علي باشا، وفيها نفائس مما يتعلق بالأزهر وشئونه.

والمكاتبات الرسمية التي كانت تَرِدُ إلى مشيخة الأزهر الشريف أو تصدر عنها، فنزلتُ مثلا في رحاب (جمعية السادة العلويين) في جاكرتا، فرأيت فيها مكاتبات بين الجمعية وبين مشيخة الأزهر الشريف أيام مشيخة الشيخ المراغي، وهي وثائق أزهرية مهمة، وأمثالها في بقاع الأرض لا ينحصر.

وملفات وزارة الخارجية المحفوظة في دار الوثائق القومية، وكم فيها من أخبار نفيسة عن بعثات الأزهر الشريف من الثلاثينات إلىٰ اليوم، مما يمكن من خلاله استخراج جوانب جليلة من تراجم الأزهريين وأخبارهم، وتفاصيل رحلاتهم.

وملفات دار المحفوظات المصرية، وفيها جبال من المعلومات حول علماء الأزهر، ولا يكاد يخطر للباحث مقدار ما تشتمل عليه تلك الأضابير من نفائس أخبار الأزهريين، ووظائفهم، ورواتبهم، وخطوطهم، وتملكاتهم، وتنقلاتهم، ووفياتهم، وورثتهم، بل وتجد فيها تفاصيل تخرجهم، وشهادات عالمية بعضهم، بل تجد في ملفات بعضهم ما حضروه علىٰ شيوخهم من الكتب وأسماء العلماء الذين حضروا ذلك عليهم، مما يفصل في أهليتهم لنيل العالمية من عدمه.

ثم ما كان ينشر في الجرائد والمجلات والدوريات من خواتيم القرن التاسع عشر إلىٰ اليوم، حول الأزهر وقضاياه، وتحركات علمائه، أو رثاء موتاهم ونعيهم، ثم وثائق وأراشيف المعاهد الفرعية التابعة للأزهر كأرشيف معهد أسيوط، ومعهد الزقازيق، ومعهد الإسكندرية، ومعهد بلصفورة، وغير ذلك من المعاهد العريقة، حتىٰ لقد وجدتُ في سجل زيارات معهد بلصفورة معلومات نادرة، وخطوط جماعة من العلماء الأزهريين، تمثل كنوزًا أزهرية لا تقدر بثمن.

ثم المجلات العلميةُ التي كانت تصدر في تلك المعاهد، وكان يقوم علىٰ تحريرها شيوخ تلك المعاهد وعلماؤها، ويأتي بعد ذلك كله كتب التراجم العامة والخاصة، والتواريخ المحلية للمدن والقرىٰ المصرية، والتي لا تكاد تخطر علىٰ بال، ولا يكاد يعتني بها إلا أبناء تلك القرية بخصوصها.

وبدون التبحر في تلك الوثائق فإنَّ تفاصيلَ العقلِ العلميِّ للأزهر ولرجاله تظل مبعثرةً باهتة، بل تظل مطمورةً ومنطمسةً ومدفونةً، كالمعادن النفيسة القابعة هنالك في أعماق الأرض والجبال، ولا بد من معاناة التنقيب عنها واستخراجها وصهرها وتخليصها من الشوائب، ثم التصرف فيها وتصنيعها حتىٰ تبرز نفاستُها، وتلألؤُ جوهرها، وصفاءُ معدنها.

وقد أشار شيخ المؤرخين محمد شفيق غربال إشارةً عابرةً إلىٰ كل ما سبق، وهو يتحدث عن كيفية الشروع في تأريخ جادٍّ للأزهر، وإشارته تدل علىٰ أنه كان يعرف عن أي شيء يتحدث، وأنه كان خبيرًا صاحبَ بصرٍ نافذٍ بكيفية صناعة ما يمكن أن يسمىٰ علىٰ الحقيقة تاريخًا للأزهر ورجاله، فقال في مقاله المهم عن تاريخ الأزهر: (ولا أعرف أحدًا رجع إلىٰ الوثائق الأصلية، بل لا أعرف أحدًا ابتدأ بحصر تلك الوثائق، فنحن إذًا في البداية وأمامنا بعدُ كل شيء)[1].

(١) تراث محمد شفيق غربال /١/١١٧/.

ولما أن نهضت مثلا همة الأستاذ الجليل السفير العلامة الدكتور عبد الهادي التازي إلىٰ جمع كتابه العظيم عن جامع القرويين، شقيق الجامع الأزهر، وجعل كتابه هذا أطروحة جامعية نال بها درجة الدكتوراه من كلية الآداب جامعة الإسكندرية، فإذا بالمشرف علىٰ أطروحته الأستاذ الدكتور أحمد العبادي يقول: (وقد أعان الله مؤلف هذا الكتاب فاستطاع أن يطلع علىٰ جميع المصادر الأصيلة التي تفيده في بحثه، فإلىٰ جانب المراجع المعاصرة، والمخطوطات النادرة، اعتمد أيضًا علىٰ مدونات النوازل الفقهية، والحوالات الحبسية، وكتب الرحلات والتاريخ والمعاجم، إلىٰ جانب الآثار والعملات القديمة، والنقوش المدونة علىٰ جدران هذا المسجد ومرافقه، وبهذا العمل الشاق تمكن الدكتور التازي من إخراج أول دراسةٍ علميةٍ مستفيضةٍ عن هذه الجامعة التي تعد من أقدم جامعات العالم)(١).

وأقول: علىٰ مثل هذا الجهد الكبير الشاق المستوعب يُعتمد في كتابة تأريخٍ جادٍّ لجامع القرويين، حتىٰ تجاوزت همته الوقوف عند المألوف من كتب التاريخ والتراجم، وتسلل إلىٰ خبايا الزوايا المطمورة، التي تحمل جوانب مهجورة من تاريخ القرويين، في وثائق الوقفيات، ونقوش جدران الجامع، وكتب الرحلات، وغير ذلك من المصادر الأصيلة، التي لا يمكن بدونها من إخراج عملٍ أصيلٍ يليق بحجم جامع القرويين، وكذلك الشأن بالنسبة للأزهر.

فالرجوع إلىٰ الوثائق الأصلية أمرٌ محوريٌّ، وفي غاية الأهمية، بل هو المدخل الوحيد لاختراق الأبحاث النمطية والمعهودة عند بحث أي قضية، والتي تصير مع الأيام نمطًا مستهلكًا من الأبحاث، لا ترسم الصورة الكاملة، ويعتاد الكاتبون الكلام عنها بعينها كلما أرادوا الكتابة في هذا الموضوع، والانتقال منها إلىٰ محاولة جمع الأطراف المبعثرة، والأخبار المنثورة، والفوائد المتفرقة، التي انتشرت في الوثائق علىٰ اختلاف صورها، حتىٰ يصل الأمر إلىٰ جمع أخبارٍ مبعثرة بالسماع والمشافهة، مما وعته الذاكرة ولم يُقَيَّدْ في أوراقٍ.

وانظر مثلا إلىٰ بحثٍ مهمٍّ للدكتور سيد علي إسماعيل علي، الأستاذ بكلية دار العلوم بجامعة المنيا، عنوانه: (أثر الوثائق في تغيير المفاهيم)، قال في أوله: (إذا كانت الصحف والدوريات القديمة بما تحمله من أوراق صفراء بالية تمثل ذاكرة الأمة المصرية، فإن الوثائق المحفوظة بدار المحفوظات العمومية بالقلعة تمثل هوية وشخصية الأمة المصرية بأسرها)(٢).

ثم يتحدث بعد ذلك عن أثر هذه الوثائق في كتابة ترجمة وثائقية لبعض الأعلام، ممن يصعب علىٰ

(١) جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس، موسوعة لتاريخها المعماري والفكري ١/١٠/، ط٢: دار نشر المعرفة، الرباط، سنة ٢٠٠٠م.

(٢) قدمه في المؤتمر الدولي: (مناهج التجديد في العلوم الإسلامية والعربية)، الذي أقامته جامعة المنيا بالاشتراك مع رابطة الجامعات الإسلامية سنة ٢٠٠٥م، ونشر البحث في كتاب المؤتمر ٣/٢٠٥١ - ٢٠٧٩/.

الباحث إيجاد تراجم لهم في الكتب المنشورة، والتعرف على توقيعات بعض الأعلام وأختامهم وخطوطهم إلى غير ذلك من الفوائد الغزيرة.

وانظر أيضًا بحثًا للدكتور مصطفى رمضان عنوانه (رواق الشوام بالأزهر إبان العصر العثماني)، تقدم به للمؤتمر الدولي الثاني لتاريخ بلاد الشام، المنعقد في دمشق، يوم ٢٧ نوفمبر، سنة ١٩٧٨م، نشر في الجزء الثاني من أعمال المؤتمر، وأسهب فيه في الكلام عن عدد الطلاب المنتسبين إلى الأزهر من الشوام خلال سنوات ١٣٣٥هـ ـ ١٣٥٤هـ، وأرفق بحثه بعشر وثائق أصلية، تناولت الشوام في الأزهر حتى سنة ١٩٢١م.

فلما كتب الأستاذ مسعود ضاهر كتابه: (هجرة الشوام) اعتمد البحث المذكور مصدرًا مهما وعلل ذلك بقوله: (وقد استند في جمع معلوماته وتحليلها إلى وثائق الأزهر الأصلية، لذلك لم نجد ما نضيفه من وثائق إلى البحث، فاستندنا إليه في تحليل هجرة الشوام إلى مصر في القرنين التاسع عشر والعشرين)[1].

و(النشرة الرسمية للجامع الأزهر) كذلك وثيقة شديدة الأهمية في الكشف عن حركة العلماء والمدرسين، وتنقلاتهم الإدارية، وشئونهم المالية، وبعثاتهم خارج مصر، وترتيب أمور المعاهد الأزهرية، إلى غير ذلك من الشئون التي لا يمكن لمؤرخ للأزهر أن يحيط بأخباره إلا من خلال هذه النشرة.

وقد انطلقت النشرة الرسمية للأزهر بناءً على القرار الصادر من جمال عبد الناصر، رئيس مجلس الوزراء حينئذ، بتاريخ ٦ شعبان، سنة ١٣٧٤هـ، الموافق ٣٠ مارس، سنة ١٩٥٥م، وينص على أن تتولى الوزارات والمصالح إصدار نشرات مصلحية في فترات دورية، تتضمن نصوص القرارات الصادرة في شئون الموظفين كالتعيين والترقية والنقل والندب وما أشبه، وغير ذلك من القرارات الإدارية، والتعليمات التي ترى الوزارة أو المصلحة نشرها، وتتولى تلك الوزارات أو المصالح إذاعة تلك النشرات الخاصة بها بكافة الوسائل التي تعينها.

فأمر الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن تاج بتأليف لجنة لتنفيذ هذا القرار بإصدار النشرة الرسمية للجامع الأزهر، وجاء في كلمة الشيخ تاج في العدد الأول من النشرة: (فهذه أولى نشرات الأزهر الجامعية، التي اعتزم الأزهر إصدارها كصحيفة رسمية تطالع الناس ـ وخاصة المعنيين بالشئون الأزهرية ـ بما يعالجه من شئون، وبما يؤديه من جهود، في ميدان النشاط الديني والثقافي والاجتماعي والرياضي)[2].

وقد صدر من هذه النشرة أربعون عددًا أو أكثر، وقد اطلعت عليها، فتعجبت من ثرائها بمعلومات

(١) هجرة الشوام: الهجرة اللبنانية إلى مصر /ص٣٢/، ط: دار الشروق، القاهرة، سنة ٢٠٠٩م.
(٢) النشرة الرسمية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية /١/٥/، ط: مطبعة الأزهر، مصر، سنة ١٩٥٦م.

هائلة ونفيسة عن العلماء الأزهريين الأجلاء في تلك الفترة، في مختلف قطاعات الأزهر على طول القطر المصري وعرضه، وتيقنتُ أنه لا يمكن بحالٍ أن ينهض أحدٌ للتأريخ للجامع الأزهر ورجاله بدون هذه الوثيقة.

فانظر إلى أثر الوثائق الأصلية ومدى أهميتها ومصداقيتها عند إرادة التأريخ الصحيح للأزهر الشريف ورصد حركة العلم فيه.

ومن الوثائق المهمة في ذلك تلك الدفاتر التي كانت تحصر أسماء جميع علماء الأزهر مرتبين فيها على سِنِيْ تخرجهم وحصولهم على شهادة العالمية، فقد جاء في قرارات مجلس الأزهر الأعلى في حادثة معينة: (فنظرنا في الدفتر الذي يحصر جميع علماء الأزهر والمعاهد الأخرى، ويقسمهم باعتبار تواريخ امتحانهم للعالمية)(1).

فكيف يمكن التأريخ للأزهر الشريف بدون هذه الوثيقة المفتاحية النفيسة، وهذا الدفتر المهم، وتتبع أخبار من ورد ذكرهم فيها من العلماء، لمعرفة تدرجهم العلمي ومواهبهم ونشاطهم التعليمي، وهكذا ينفتح باب النظر في وثائقه الأصلية، حتى يتاح فتح صفحات حركته العلمية.

وكيف يمكن التأريخ للأزهر بمعزل عن أخبار قدامى شيوخ المعاهد الأزهرية المنتشرة في بقاع مصر، وقد كان الواحد منهم جبلًا في النحو والصرف والبلاغة والفقه والتفسير وغير ذلك من العلوم، حتى إني سمعت شيخنا العلامة الجليل الشيخ محمد هاشم محمود عمر السيوطي الحنفي يذكر عن شيخه العلامة الشيخ بَشَنْك أنه كان يحفظ كتاب (الاختيار) في فقه السادة الأحناف عن ظهر قلب، لا يفوته منه حرف، وظل عاكفًا على تدريسه على مدى عقود.

ففهم مداخله ومخارجه، وأصوله ومصادره، وما يجب فيه من تقييد عبارة، أو توضيح صورة مشكلة من صور فروع الفقه فيه، وما يناسب منه زماننا هذا وما لا يناسبه، مما تغيرت فيه الأعراف، واختلف فيه الواقع الاجتماعي اختلافًا جذريًّا بما يوجب وجود تغير في الحكم الشرعي بمقدار الاختلاف الذي طرأ على محله وموضعه.

وأقول: فمثل هذا العالم الجليل يكون بصيرًا بالكتاب، ويستطيع أن يقرِّبَ للطلاب ما وراء الكتاب من منهجٍ علميٍّ وطريقة تفكير، دون الوقوف عند جزئياته ومسائله، التي كانت تعالج زمن مؤلفه.

وقد لقيت أيضًا من قدامى الشيوخ الأزهريين من يقول لي: لقد ظللت عاكفًا على تدريس شرح ابن

(1) مجلس الأزهر الأعلى: محاضر وقرارات المجلس المشكل بمقتضى قانون الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية /1/187/.

عقيل على ألفية ابن مالك نحو خمسين سنةً، والكتاب كله في ذهني.

وأقول: مثل هذا الشيخ الجليل الذي تخرجتْ من تحت يده أجيالٌ، وعانىٰ تقريب المسائل وتفهيمها لهم على مدى عقودٍ، تكون عنده مهارةٌ رفيعةٌ في شرح المسائل وتذليلها، وتقريبها للعقول.

وقبل هؤلاء أجيالٌ أشدُّ منهم تمكنًا وتضلعًا في مختلف العلوم الأزهرية، وقد امتزجتْ في أذهانهم، وأدركوا خبايها ومقاصدها وعللها وقيودها، فكان كل واحد منهم عالمًا بحق.

فكيف يمكن التأريخ للأزهر إلا إذا جمعت أخبار هؤلاء جميعًا، وتمَّ تدوينها وتوثيقها للأجيال القادمة من طلاب العلم والمعرفة.

فهذه إشارة إلى نبذة من الوثائق الأصلية التي يمكن أن نستخلص منها قدرًا هائلًا من المعلومات النفيسة عن الأزهر ورجاله، وبيان أثرهم في المجتمع وتفاعلهم معه.

◉ **وأما الباحث** فليس الغرض هنا أن أتكلم عن الشروط الأكاديمية لتأهيله، وليس غرضي أن أتكلم عن كيفية إعداده، ولا عن كيفية تدريبه وصقل ملكاته ومواهبه، بل الغرض الإشارة إلى أن الباحث في هذا الميدان على خصوصه لابد له من زاد نفسي خارق، يعينه على هضم تراكم ألف سنة من صناعة العلماء وتخريجهم، مع خلو الميدان من أعمال سابقة تطوي مراحله.

فمن ذا الذي يتذرع بالصبر والجلد، والأناة والتحمل، وينخرط في تلك الأطباق المتراكمة بكل همة وعزم، صبورًا على قراءة كل ذلك الركام الذي لو جمع في صعيدٍ واحدٍ لكان جبلًا مهولًا من الأوراق والسجلات والدفاتر، ويقتدر على أن تنصرم من حوله الليالي والأيام والشهور والسنوات وهو عاكفٌ على تصفح تلك التلاع والهضاب من الأوراق والأضابير، خصوصًا أن العقود والسنوات قد تراكمت وانطوت، ولم ينهض أحدٌ إلى سبر ذلك وجَرْدِه وتصفحه، فازدادت المهمة مشقةً وصعوبةً، حتى كادت تُعَدُّ ضربًا من أضرب الخيال، وصورةً من صورِ المحال.

والذي أجزم به أنه لا يوجد هنالك من البواعث والدوافع ما يحمل إنسانًا على تجشم ذلك العنت إلا إن كانت تتدفق في باطنه الينابيع المتفجرة، والأمواج المتلاطمة الجارفة الخارقة، من الهمم العظام، التي تصهر كل ذلك وتخترقه وتحتويه، مع وقود دائم من التعلق والمحبة والشغف بذلك المعهد العلمي العريق.

وأن يكون قد لاح له بصيصٌ مما تجشمه آباؤه المصريون العظماء وتفردوا به ـ دون العالم ـ من إبقاء جذوة العلم متوقدة في تلك البقعة الأزهرية الجليلة، حتى حفظ على مصر العلمَ في أوقاتٍ عاصفةٍ، انهارت فيها مدارس العلم مشرقًا ومغربًا، وجذب إلى أرض مصر كل صاحب همة شريفة من أقاصي الملايو،

وجبال القوقاز، ومجاهل أفريقيا، وحواضر العالم ومدنه.

وهم يشهدون أن مصر ما زالت موئل العلم وحاملة رايته في أزهرها الشريف، حتىٰ صار الأزهر شاهدا علىٰ عظمة هذا الوطن العريق، كما تشهد علىٰ ذلك الأهرام والأبنية العجيبة، المشيدة علىٰ أسس هندسية بالغة التعقيد والعبقرية، تلك بمعمارها العبقريِّ الغريب، وهذا بحفظه للعلوم وصناعته للعقول[١].

❁ **وأما المنهج:** فهو الخريطة المحكمة، التي يستبين الباحث منها سبيله إلىٰ دروب البحث ومسالكه، ويستنطق بها مصادره ويحللها، ويحدد بها مشكلاته، ويجيب علىٰ أسئلته، ويقفز بها عقله المتوقد الفذ إلىٰ إدراك خباياه، وافتراض احتمالات يسفر البحث الدقيق عن ترجيح أحدها.

ولسنا هنا بصدد الكتابة عن المنهج في ذاته، وخطواته، ولا بصدد الكلام عن تفاصيل المنهج المقترح للتأريخ للأزهر، بل الغرض الإشارة إلىٰ أن من يتصدىٰ للتأريخ فلابد له من حضورٍ منهجيةٍ منضبطةٍ محكَمة، تتنزل من كليات البحث وفلسفته إلىٰ دقائق جزئياته.

وقد أشار شفيق غربال إلىٰ بداية رسم الخريطة والمنهج فقال ـ بعد أن ذكر شيئًا من البحوث والدراسات التي تطرقت إلىٰ دراسة جانب من جوانب الأزهر ـ: (وتدلنا الدراسات التي خصَّصتها بالذكر علىٰ أربعة أنواع من المباحث، أعتبرها أساسية:

فالنوعُ الأولُ أثريٌّ معماريٌّ، والنوع الثاني دينيٌّ صرفٌ، والنوع الثالث نظامٌ تعليميٌّ، والنوع الرابع

(١) ولا يزال يسحر لُبِّي ويخلب عقلي قولُ العلامة الإمام الجليل عبد اللطيف البغدادي ـ أوائل القرن السابع الهجري، الثالث عشر الميلادي ـ في كتابه: (الإفادة والاعتبار) ـ /ص٩٠/ ط٢: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٨م ـ عن أهرام الجيزة: (وقد سُلك في بناية الأهرام طريقٌ عجيبٌ من الشكل والإتقان، ولذلك صَبَرَتْ علىٰ مَرِّ الزمان، بل علىٰ مَرِّها صبر الزمان؛ فإنك إذا تَبَحَّرْتَها وجدتَ الأذهان الشريفةَ قد اسْتُهْلِكَتْ فيها، والعقولَ الصافيةَ قد أَفْرَغَتْ عليها مجهودها، والأنفس النَّيِّـرَةَ قد أفاضت عليها أشرف ما عندها، والملكات الهندسية قد أخرجتها إلىٰ الفعل مُثُلا هي غاية إمكانها، حتىٰ إنها تكاد تحدث عن قومها، وتُخْبِرُ بحالهم، وتنطق عن علومهم وأذهانهم، وتترجم عن سيرهم وأخبارهم).
بل يقول عن الجيزة: (فهذه المدينة مع سعتها وتقادم عهدها، وتداول الملل عليها، واستئصال الأمم إياها، من تعفية آثارها، ومحو رسومها، ونقل حجارتها وآلاتها، وإفساد أبنيتها، وتشويه صورها، مضافًا إليها ما فعلته فيها أربعة آلاف سنة فصاعدا، تجد فيها من العجائب ما يفوت فهم الفطن المتأمل، ويحسر دون وصفه البليغ اللسن، وكلما زدته تأملا زادك عجبا، وكلما زدته نظرًا زادك طربا، ومهما استنبطت منه معنىٰ أنبأك بما هو أغرب، ومهما استثرت منه علما دلك ذلك علىٰ أن وراءه ما هو أعظم).
وأذكر هنا بكل فخر واعتزاز أن البغدادي كاتب هذه السطور المتألقة قد كان من علماء الأزهر الشريف، وجلس للتدريس فيه في القرن السادس الهجري، كما تراه في (مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار) /٩/٨٩/، ط: لابن فضل الله العمري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ٢٠١٠م، وسوف يأتي نص كلامه هنا في هذه الجمهرة في الفصل المتعلق بأقدمية الأزهر وأسبقيته لمدارس العلم الأخرىٰ.

تراجمُ الرجال؛ وتقوم الأنواع الأربعة على الوثائق الأصلية)[1].

وهذه أيضًا خريطةٌ إجمالية مرسومةٌ بدقةٍ لمن يريد أن ينهض بأعباء مشروعٍ علميٍّ جامعٍ، يليق بجلالِ الأزهر الشريف وعراقته، وأثره المعرفيِّ الضخم، المترامي الأطراف، ولا يزال هذا المشروع دَيْنًا في أعناقنا معاشر الأزهريين، يجب الوفاء به.

ولقد أخذتُ على عاتقي هنا أن أنهض بأعباء النوع الرابع، وهو تقييد تراجم الأزهريين، في القرنين الأخيرين، حيث إن تراجمهم وسيرهم تشتمل على جوانب متفرقة من نظام التعليم، ومهاراته، وأطواره، وغرائبه، ومنعطفاته، وأسباب الجودة والإتقان فيه، والأثر الاجتماعي لذلك.

كما قامت مكتبة الإسكندرية بأعباء النوع الأول، وهو الشق الأثري المعماري، فأخرجت كتابًا في مجلدين عنوانه: (الجامع الأزهر)، قدمت فيه دراسة غير مسبوقة لهذا الجانب.

فيبقى من الخريطة التي رسمها شفيق غربال نوعان، وهما النوع الثاني: الديني الصرف، والنوع الثالث المتعلق بالنظام التعليمي، ونأمل أن نرى في قادم الأيام من ينهض بأعبائهما.

وتبقى من وراء ذلك أمورٌ إبداعيةٌ، تميط اللثام عن جوانب مهجورة، وزوايا مجهولة من تاريخ الأزهر، لا تظهر إلا بنمطٍ مُبتكرٍ من الدراسة، يغوص داخل العقل العلمي للأزهر، ويرصد جهودًا جبَّارةً على مدى قرون في فنيَّات التعليم ومهاراته، وصناعة العقول، وبناء الشخصيات، مع الآثار العلمية والاجتماعية والوطنية، المبنية على حركتهم وأنشطتهم، ومقدار الروابط والعلاقات التي تأسست على أكتافهم بين الأمم والشعوب ومؤسسات التعليم، وكل ذلك لا يمكن التوصل إليه من خلال الوثائق الأصلية.

(١) تراث محمد شفيق غربال /١/١١٨.

إِضَاءَةٌ

في نموذج من أثر الوثائق الأصلية، واكتشاف أول شيخ للأزهر الشريف التقطت له صورة فوتغرافية، وهي أول صورة في تاريخ القطر المصري

مما لاشك فيه أن تاريخ الأزهر لم يدون بعد على النحو الدقيق الموثق اللائق به، وأنه ما زال بحاجةٍ إلى جهدٍ جبَّارٍ لاكتشاف آفاقه وزواياه، والوثائق الأصلية هي المرجع الأول لتدوين هذا التاريخ المجهول، ومن أمثلة ذلك هذه الصورة النادرة، التي يمثِّل اكتشافها حدثًا مهمًّا، لا في تاريخ الأزهر الشريف فقط، بل في تاريخ مصر أيضا.

ولهذه الصورة قصةٌ لابد من كتابتها، حيث إنَّ الإمام الشيخ الدمهوجي قد تولى مشيخة الأزهر الشريف في أوائل رجب سنة ١٢٤٦هـ، الموافق الثلث الأخير من شهر ديسمبر سنة ١٨٣٠م، خلفًا للإمام الأكبر الشيخ محمد بن أحمد العروسي، المتوفى سنة ١٢٤٥هـ، الموافق سنة ١٨٢٩م، فكان تقليد منصب المشيخة للدمهوجي حدثًا جليلًا، حيث ظل المنصب الشريف العالي خاليًا على مدى ستة شهور.

وبعد طول ترقب جاء قرار الوالي بتكليف الشيخ الدمهوجي لتحمل أعباء هذا المنصب الجليل، وتعيين الشيخين الجليلين المهدي والأمير وكيلين له، نظرًا لكبر سنه، واحتياجه إلى من يساعده في القيام بأعباء مشيخة الأزهر.

والذي أستنتجه بعد طول تأمل أن والي مصر محمد علي باشا قد رتب استقبالًا لشيخ الأزهر، عقب توليه بفترة يسيرة، لتكون زيارة بروتوكولية معتادة، لما أن المنطق والعادة يقضيان بأن يستقبل محمد علي باشا شيخ الأزهر عقب توليه المشيخة، للتهنئة والحديث في شئون الأزهر، وما إلى ذلك.

وفي هذه الزيارة التقطت هذه الصورة النادرة، والتي هي وثيقةٌ أصليةٌ، سيكون لها شأن عظيم بعد ذلك، ثم لم يلبث الإمام الشيخ الدمهوجي أن توفي بعد ذلك بمدة يسيرة، حيث كانت وفاته ليلة الأضحى سنة ١٢٤٦هـ، الموافق ٢١ مايو، سنة ١٨٣١م، فما زادت مدة ولايته لمشيخته الأزهر على ستة أشهر.

فيكون عمر هذه الصورة النادرة مئة واثنتين وتسعين سنة بالهجري، ومئة وسبعًا وثمانين سنة بالميلادي.

ثم دفعها السيد بك الفيومي إلىٰ جريدة (منبر الشرقية) الصادرة في مدينة الزقازيق، فنشرت ما نصه: (تحلىٰ جيد المنبر بهذه الصورة التاريخية الجميلة، لساكن الجنان محمد علي باشا، والي مصر، ومحيي مجدها، وصاحب الفضيلة الأستاذ الكبير المغفور له الشيخ أحمد علي الدمهوجي، شيخ الأزهر، في العصر الذهبي، في حضرة محمد علي، وجماعة من كبار العلماء، وقد كانت عناية الوالي لشيخ الإسلام لخدماته الجليلة، ووقوفه بجواره يعمل لخير مصر والمصريين، فشمله بعطفه وتقديره.

ولمناسبة العيد المئتي رفع حضرة الأستاذ السيد الفيومي مدير شركة أوتوبيس الشرق ورئيس الغرفة التجارية بالزقازيق للأعتاب الملكية الكريمة، فتقبلها جلالة فاروق المعظم قبولا حسنا، باعتباره حفيد المغفور له شيخ الإسلام.

ولهذه المناسبة وزع الأستاذ الفيومي الصدقات والكساء علىٰ البؤساء والمحتاجين في اليوم الأخير من أسبوع الذكرىٰ المئوية، والأستاذ الفيومي تحلىٰ بالصلاح والتقوىٰ، والبر بالفقراء، وله في ميادين الخير مآثر غراء.

وقد تفضل حضرته فأهدىٰ إلينا هذه الصورة الكريمة، ننشرها في المنبر، تخليدًا لهذا الأثر الكريم.

رحم الله فقيد مصر وشيخ الإسلام، وأمطر علىٰ جدثهما شآبيب غفرانه، وأنزلهما منزلة كريمة، مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين، وحفظ الله جلت قدرته مولانا الفاروق، وأعز به العروبة والإسلام)[1].

ويبدو أن الصورة المذكورة حظيت باهتمام كبير، فنفد العدد، وأرسل الناس إلىٰ صاحب الجريدة يطلبون منه نسخًا، فأعاد نشرها في العدد التالي ومعها ما نصه: (ساكن الجنان محمد علي باشا والمغفور له صاحب الفضيلة الشيخ أحمد الدمهوجي شيخ الإسلام: أهدانا حضرة الأستاذ السيد بك الفيومي حفيد المغفور له الشيخ أحمد الدمهوجي شيخ الإسلام في عهد ساكن الجنان محمد علي باشا، وقد طلب منا الكثيرون الاطلاع عليها، وبما أن العدد نفد كله، فأعدنا نشرها، تلبية لرغبة الراغبين، لمناسبة العيد الملكي السعيد)[2].

(١) جريدة منبر الشرقية /العدد ٦٥١، السنة الخامسة والعشرون /ص١/، الصادر بتاريخ الخميس ١٩ يناير، سنة ١٩٥٠م، الموافق ١ ربيع الثاني، سنة ١٣٦٩هـ.

(٢) جريدة منبر الشرقية /العدد ٦٥٢، السنة الخامسة والعشرون /ص١/، الصادر بتاريخ الاثنين ١٣ فبراير سنة ١٩٥٠م، الموافق ٢٦ ربيع الثاني، سنة ١٣٦٩هـ.

العدد ٦٥١ — الابرقي يوم الخميس ١٩ يناير سنة ١٩٥٠ الموافق ١ ربيع الثاني سنة ١٣٦٩ — السنة الخامسة والعشرون

منبر الشرقية

جريدة سياسية تجارية جامعة أسبوعية

قررت المحاكم الاهلية جريدة منبر الشرقية لنشر الاعلانات القضائية

المكاتبات

تكون باسم صاحب الجريدة

وناشرها ومديرها المسئول

محمد العراقي

لاترد الرسائل ادرجت أو لم تدرج

الاشتراكات

١٤٠ قرش صاغ عن سنة كاملة

الاعلانات يتفق عليها بأسماع ادارة

الجريدة بشارع الساحل الزقازيق

لاتعتمد الايصالات الا اذا كانت

مختومة بختم الادارة أو صاحب الجريدة

١٩٥١/٢١٧١

١/٩٧٠

الرئيس الجليل مصطفى النحاس باشا





في كل يوم ترد لنا رسائل يعرب فيها أصحابها من اغتباطهم بالشعور الفياض الذي ساد البلاد لفوز مرشحي الوفد وقد سر الشعب لهذه النتيجة الباهرة التي أسفرت عنها الانتخابات فكانت صفعة دامية لخصوم الوفد الذين تقولوا عليه الاقاويل وافتروا الكذب فرد الله كيدهم في نحورهم وقد طلب منا الكثيرون أن نزف تهانيهم لحضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا زعيم الامة على صفحات جريدة منبر الشرقية الجريدة الوحيدة التي تطالع تحت سماء الشرقية فتعرض شعور الشرقاويين وأمانيهم كما طلب منا جم غفير أن نزف التهنئة الحارة الى حضرة النائب المحترم رجل الاخلاص والوطنية والشهامة والرجولة

الدكتور أمين بك المغربي

وكلهم يحسنون الظن في الدكتور وينتظرون أعماله الجليلة انتظار الارض الجدبة رحمة السماء والسجين البرىء فصل القضاء والحائط في الظلماء رأي بدر السماء فالدكتور المغربي راض نفسه من حداثة سنه على أدب اللسان والقلم رسول من رسل الوطنية له سمته وله ايمانه وجاذبيته فكان عزمة قوية لاتقهر وقلبا ثابتا لايرتاع وكفاية ممتازة لاتخفى وفطنة نفاذة قرنت قوله وفعله بسداد الرأي وقوة التدبير وحسن مثال في الخلق وطهر الضمير فلتهنأ دائرة الزقازيق بنائبها (الامين) واذا كررنا أجمل التهنئة حدثنا قراءنا حديث النفس الى النفس وحديث الروح الى الروح لزعيم الوادى حضرة صاحب المقام الرفيع مصطفى النحاس باشا ادمى العب الخير على يديه ونرجو تحقيق الاستقلال بجهوده وهكذا شاء الله أن تكون القيادة نضالا بين الزعيم الوادى الى الامام فالله ناصرك والامة من خلفك تؤيدك والى معالي الاستاذ فؤاد باشا سراج الدين الذي أتى بالمعجزات وكان حركة دائبة ومشعل الوطنية فكان نموذج الشباب المصرى الموثوب الحزم طلع في سماء الوطنية كوكبا ساطعا وجاه الكنانة رسول حق فكان بدرا منيرا أكشف حيرة الشبهات رأيا ورجحا لمشكلات وخاض المركة فكان له أقواء المفقود اجتمع في شخصه الحنيان سماء الجو الذي من أجله رقص الوادى وطرب الى سماء العدل وجمال المظهر فسيروا الى المجد باحياء الوطن وأسد العرين والله معكم وقد جاء يومكم الذى كنتم توعدون وهذا الشعب وراءكم لايذل ولايستكين ولايهون ولا يلين وشهر لخصومه سلاحه في وجوههم وسدده نحو نحورهم ليحيا حياة الكرامة والاستقرار وليولين على أمره من جاهدوا في سبيل عزته ورفع رايته وأقسم الشعب ليعيدن مصطفى باشا النحاس وأنصاره البرره ورون على سادته وعتاته الى البرلمان ليمضوا بالبلاد قدما نحو الرفعة والاستقلال

محمد العراقي



ساكن الجنان محمد على باشا

والمغفور له صاحب الفضيلة

الشيخ أحمد الدمهوجي

شيخ الاسلام

نحلي صدر المنبر بهذه الصورة التاريخية الجليلة لساكن الجنان محمد على باشا والى مصر ومحيي مجدها وصاحب الفضيلة الاستاذ الكبير المغفور له الشيخ أحمد على الدمهوجي شيخ الازهر في العصر الذهبي في حضرة محمد على وجماعة من كبار العلماء وقد كانت عناية الوالى لشيخ الاسلام لخدمته الجليلة ومواقفه بجواره يعمل لخير مصر والمصريين فشمله بعطفه وتقديره ولمناسبة العيد الذي رفع حضرة الاستاذ السيد الفيومي مدير شركة اوتوبيس الشرق ورئيس الغرفة التجارية بالزقازيق للاعتاب الملكية الكريمة فتقبلها جلالة الفاروق المعظم قبولا حسنا باعتباره حفيد المغفور له شيخ الاسلام ولهذه المناسبة وزع الاستاذ الفيومى الصدقات والكساء على البؤساء والمحتاجين في اليوم الاخير من أسبوع الذكرى المئوية والاستاذ الفيومى تحلى بالصلاح والتقوي والبر بالفقراء وله في ميادين الخير مآثر غراء

وقد تفضل حضرته فأهدي الينا هذه الصورة الكريمة تنشرها في المنبر تمجيدا لهذا الاثر الكريم رحم الله فقيد مصر وشيخ الاسلام وأمطر على جدثهما شآبيب غفرانه وأنزلهما منزلة كريمة مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين وحفظ الله جلت قدرته مولانا الفاروق الاول وأعز به العروبة والاسلام

من الحكم

ثلاث خصال تجتلب بهن المحبة : الانصاف في المعاشرة والمواساة في الشدة والانطواء على المودة

خير الاخوان من استغنيت عنه لم يزدك في المودة وان احتجت اليه لم ينقصك منها

اذا كان الغدر في الناس موجودا فالثقة بكل أحد عجز

أحسن الناس عيشا من حسن عيش من هو دونه في عيشه وأسوأ الناس عيشا من لا يعيش معه أحد

لا تكن على الاساءة أقوي منك على الاحسان

العدد ٦٥٢ — المنبر في يوم الاثنين ١٣ فبراير سنة ١٩٥٠ الموافق ٢٦ ربيع الثاني سنة ١٣٦٩ — السنة الخامسة والعشرون

المكاتبات	منبر الشرقية	الاشتراكات
تكون باسم صاحب الجريدة وناشرها ومديرها المسئول **محمد العراقى** لاترد الرسائل ادرجت أو لم تدرج	جريدة سياسية تجارية جامعة أسبوعية. قررت المحاكم الاهلية جريدة منبر الشرقية لنشر الاعلانات القضائية	١٤٠ قرش صاغ عن سنة كاملة. الاعلانات يتفق عليها رأساً مع ادارة الجريدة بشارع النائب بالزقازيق. لاتعتمد الايصالات الا اذا كانت مختومة بختم الادارة أو صاحب الجريدة



معالى

فؤاد سراج الدين باشا وزير الداخلية

بالأمس أشرق في سماء وزارة الداخلية سراج ساطع فكان نجماً لامعاً وبدراً ساطعاً وانا اليوم انتيه عجباً و[illegible] طرباً بهذا الاختيار الموفق الذى وقع من نفوسنا موقع الماء من ذى الغلة الصادي، فأحيا الهمم وأنهض العزائم وبث الامل والرجاء، بل لقد كان له رنة فرح وسرور سرت في النفوس مداماً وزالت على القلوب برداً وسلاماً وترقرقت في الثغور بشراً وابتساماً فأنعم به من وزير خطير قد لاحت تباشير الابتهاج بمناسبة إسناد وزارة الداخلية اليه — بشراً تتهلل [illegible] الوجوه، و[illegible] به القلوب وجا[illegible] النواظر، ودعاء تلهج به [illegible] وانا لشاكرون لمعاليه نحن رجال الصحافة ما أزال عنها من قيود ورقابة وجعلها حرة تكتب ما تشاء في حدود القانون العام، فسقياً ورعياً لتربة أنبتته ودارة أطلعته، فقد أهدت لمصر سراجاً وضيئاً، وبدراً منيراً كشف حيرة الشبهات، وأنار دجي الظلمات وجاهد في سبيل الحق فكان له اللواء المعقود، سقته الامانة من عذب أنهارها، وغذاه النيل غذاء شهياً، وكساه الفضل لباساً بهياً، بارك الله حوله فكان وزيراً شكوراً وأظهره على الباطل فدحره دحوراً. ولا غرو فالاخلاص الشائق نبع من معين فؤاده فكان برداً وسلاماً، والكفاية النادرة تفجرت من جوانبه فكان حلال المشكلات قديراً والحكمة نطقت من نواصيه فكان للصواب دليلاً وللحق نصيراً. سجايا طويت عليها نفسه، ونهض على دعائمها نظام حياته!!

فلقد توفر لمعالي الاستاذ فؤاد سراج الدين باشا الشيء الكثير من عناصر النبوغ دقة في الحس وصفاء في الذهن وتفس دائبة الشبوب، وعزيمة دائمة الوثوب، وهمة رفيعة الصعد، وعبقرية سامية المثال سابحة الجناح، لامحة الطرف مبسوطة الافق مصرية النشأة نمت نبتتها متسقة الاصول على النيل المبارك، وعلت دوحتها مبسوطة الافانين — تلك العبقرية المصرية قد جمعت بين العنف والظرف مثلاً مثل الطبيعة المصرية الشمس فيها محرقة، والسماء فيها مشرقة!!

ولقد تبلج عن هذه المواهب عقله المشرق الوقاد وتفتح عنها قلبه الذكي المشبوب، فتوفر على العمل المثمر في غير مار هو أو ادعاء!! واني لاردد مع المتنبي قوله:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم

وتأتي على قدر الكرام المكارم

فلقد عمل معاليه الوزارة برنامجاً حافلاً فيه للاصلاح سبب ممدود وشمل جامع والحرية فصل مشهود ومظهر رائع، وللوطنية لواء معقود ومحفل نغم وللقومية أمل منشود وعمل صالح فكان لها شدا على كل لسان، ودعاء صعد من كل قلب، فكان البعث الجديد وكانت الحياة العامرة وكان الخير العام بعث بوادره تتدفق في انحاء البلاد تدفق النيل الفياض في مسارب الوادي الخصيب، ولقد شعر المصريون بالطمأنينة الشاملة وشعروا أن آمالهم التي بذلوا فيها الارواح والدماء قد تحققت

البقية على الصفحة الرابعة



ساكن الجنان محمد على باشا

والمغفور له صاحب الفضيلة

الشيخ أحمد الدمهوجى شيخ الاسلام

اهدانا حضرة الاستاذ السيد بك الفيومي حفيد المغفور له الشيخ أحمد الدمهوجى شيخ الاسلام في عهد ساكن الجنان محمد على باشا وقد طلب منا الكثيرون الاطلاع عليها وبما ان [illegible] فقد [illegible] فاعدنا نشرها تلبية لرغبة الراغبين [illegible] العيد الملكي السعيد



الدكتور

محمد بك طنطاوى مباشر

حكيمباشي مستشفى الامراض الصدرية

كان [illegible] غالية تجول بخاطر ابناء الشرقية [illegible] الارض الجديبة رحمة [illegible] وهي انشاء مستشفى للامراض الصدرية يأوى مرضى الداء الوبيل الذى ينخر في أجسام المرضى فيذيقهم كأس الفناء والدمار ويجعلهم كالهشيم تذروه الرياح ابل طالما تمنى الشرقاويون الشفقة بهولاء البؤساء الى أن



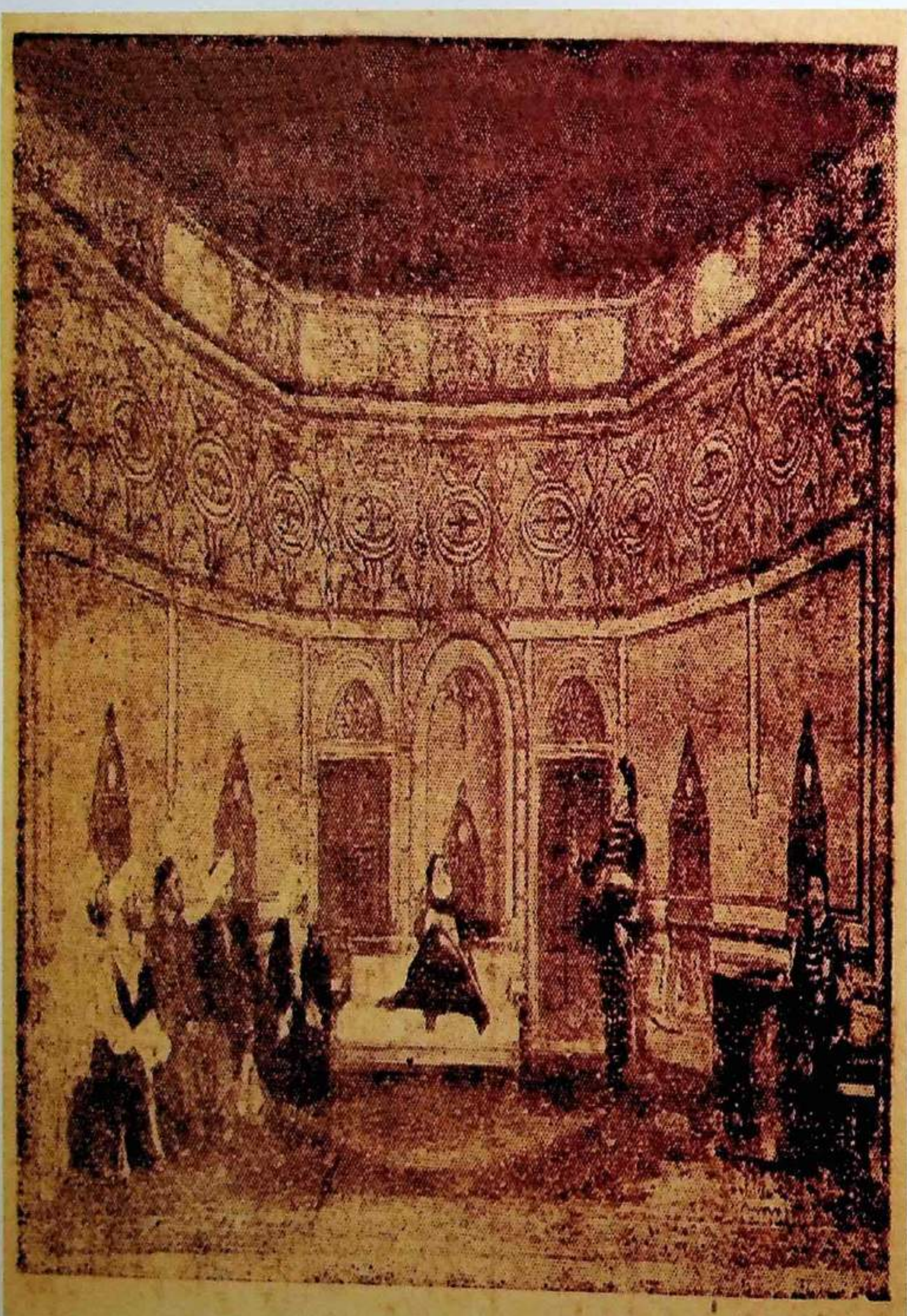
الاستاذ

السيد الفيومى

حفيد شيخ الاسلام الدمهوجى

كان أحد أيام هذا الاسبوع عرفت من حضرة الطالبي البارع الدكتور محمد بك طنطاوى أن المستشفى طلعت عليه شمس الوجود وقد تم بناؤه في مكان طلق الهواء من الجهات الاربع ونقل اليه المرضى

البقية على الصفحة الرابعة



قال الدكتور محمد رفعت الإمام: (كانت عبارة «هذا من عمل الشيطان» أسرع رد فعل تلقائي على أول صورة التقطتها آلة تصوير داجير في منطقة الشرق الأدنى لمحمد علي باشا يوم ٧ نوفمبر ١٨٣٩م.

ورغم جهل الباشا بمنطق هذه التقنية، وانبهاره برؤية صورته، فإن العبارة آنفة الذكر تكرس المفاهيم والمعتقدات الدينية المتوارثة بخصوص تحريم الصور والتماثيل في المجتمع الإسلامي)(١).

ومصدره في نقل هذا الانطباع عن محمد علي باشا - ومن ثم تأكيد هذا التاريخ - هو زيفي فيليبو في كتابه (المصورون ومصر في القرن التاسع عشر)، مما يدل على مدى شيوع هذا الخطأ وثبوته في المصادر العربية والأجنبية.

وكذلك فعلت موسوعة دار الهلال (فوتوغرافيا مصر: صور وذكريات ١٧٥ عاما)، حيث أوردت الموسوعة الصورة المذكورة لمحمد علي باشا وتاريخها فبراير سنة ١٨٣٩م، وذكرت أنها أول صورة لوالي مصر محمد علي باشا، وأنها أول صورة أُخذت لشخص في أفريقيا، وكانت في رأس التين في الإسكندرية(٢).

وأنت ترى ذلك في الموقع الإلكتروني لجامعة شيكاجو الأمريكية، حيث ورد فيه أنه بعد إعلان تقنية الداجيروتايب بشكل رسمي سنة ١٨٣٩م كان الفرنسيان هوراس فيرنيه وفريدريك جوبيل فيسكويه أول من قام بالتصوير بهذه التقنية في مصر، وأنهما صورًا بوابة حرملك محمد علي باشا في الإسكندرية، وأن هذه الصورة تعد أول صورة تلتقط في مصر، وأنها أثارت ضجة كبرى عند عرضها في باريس.

وفي مقال لدانيال مالكولم عنوانه: (المصورون في مصر)، على موقع متحف المتروبوليتان في نيويورك، يذكر أن أول صورة في مصر هي صورة ماكسيم دو كامب وجوستاف فلوبير سنة ١٨٤٩م، وغير ذلك كثير من المصادر التي تدور في ذلك الفلك.

لكن الذي يظهر لنا أن كل تلك التواريخ غير دقيقة ولا صحيحة، وها هو محمد علي باشا قبل التاريخ المذكور بثماني سنوات تظهر صورته مع الإمام الأكبر شيخ الأزهر المتوفى في مايو سنة ١٨٣١م وكبار العلماء، وعليه السكينة، غير مندهش ولا متعجب.

ويتأكد هذا بأن الأستاذ السيد بك الفيومي قد أهدى هذه الصورة إلى الملك فاروق، فتقبلها الملك قبولا حسنا، مما يدل على أنها لم تكن محفوظة من قبل في الديوان الملكي، علما بأن الملك فاروق كان قد اتخذ لنفسه ولقصره مصورًا خبيرًا بهذا الشأن، لا يفوته شيء في هذا الباب، وهو رياض أفندي شحاتة، رائد

---

(١) عصر الصورة في مصر الحديثة /ص٦٧/.

(٢) فوتوغرافيا مصر: ألبومات أثرية نادرة، صور وذكريات ١٧٥ عامًا، مركز الهلال للتراث الصحفي، دار الهلال، مصر، سنة ٢٠١٧م.

التأليف الفوتوغرافي في مصر، والمشهور بتمصير التصوير الشمسي، وقد دخل سوق التصوير الشمسي عام ١٩٠٧م، واتخذ حينئذ محلًّا له بشارع الفجالة خلف مكتب البوسطة، وتعلم صناعة الحفر والتصوير على الزنك والنحاس، وعمل الأكليشيهات واللافتات وغير ذلك مما له علاقة تامة بفن التصوير.

واستحضر من أوربا جميع العدد والآلات الحديثة اللازمة لصناعة التصوير ومتعلقاته، وتجلَّى إنتاجه في فعاليات المعرض الصناعي سنة ١٩١٢م، حتى نال إعجاب الخديوي عباس حلمي الثاني، وخرجت الصحافة تطالب المصريين بأن يقدروا هذا الوطني قدره كما فعل أميرهم، فيذهبون إليه تشجيعا له ولغيره من المصريين.

وقد توج رياض أفندي شحاتة خبراته بفن التصوير وتاريخه حينما ألف أول كتابٍ مرجعيٍّ عن (التصوير الشمسي الحديث)، وقد نشرته مطبعة المعارف عام ١٩١٠م، وتوفي سنة ١٩٤٢م.

فإذا جاء الأستاذ السيد الفيومي بعد كل ذلك وأهدى هذه الصورة النادرة إلى الملك فاروق سنة ١٩٥٠م فهذا دليل على أننا أمام وثيقة نادرة من تاريخ مصر والأزهر، لا تقدر بثمن، وعليه فنحن أمام أول صورة في تاريخ مصر وتاريخ أفريقيا.

ولابد من إحسان توظيف هذه الوثيقة في تصحيح عدة معلومات تتعلق بمصر، وما نحن بصدده ليس مجرد تصحيح تاريخ أول صورة، بل ينبني على هذا بحوث عديدة، وتنقيبات أخرى في عدة مجالات.

ثالثها: أن الذي تولى مشيخة الأزهر بعد الدمهوجي هو الإمام الشيخ حسن العطار ت١٢٥٠هـ ولم يحفظ التاريخ له صورة، رغم مخالطته للفرنسيين ودخوله معاملهم، ورغم رحلاته وسياحاته الواسعة في مصر والشام وتركيا وغيرها من البلاد، ورغم توليه مشيخة الأزهر بعد الدمهوجي، ولاشك أن والي مصر قد استقبله، وربما تكون هناك صور لهذا الاستقبال لكن التاريخ قد طواها ولم يعتن بها أحد.

وقد تولى المشيخة بعده الإمام الشيخ حسن القويسني ت١٢٥٤هـ الموافق سنة ١٨٣٨م ولم يحفظ التاريخ له صورة، وتولى المشيخة بعده الإمام الشيخ أحمد عبد الجواد السفطي الشهير بالصائم ت ١٢٦٣هـ، ولم يحفظ التاريخ له صورة، وتولى المشيخة بعده الإمام الشيخ البرهان إبراهيم الباجوري ت ١٢٧٦هـ، ولم يحفظ التاريخ له صورة، وتولى المشيخة بعده الإمام الشيخ مصطفى بن محمد العروسي ت ١٢٩٣هـ، ولم يحفظ التاريخ له صورة، وتولى بعده الإمام الشيخ محمد المهدي العباسي ت ١٣١٥هـ، وظل في مشيخة الأزهر نحو ثلاثين سنة ورغم ذلك لم يحفظ التاريخ له صورة، وتولى المشيخة بعده الإمام الشمس الأنبابي ت ١٣١٣هـ، ولم يحفظ التاريخ له صورة، حتى تولى بعد الإمام الشيخ حسونة النواوي ت ١٣٤٣هـ الموافق سنة ١٩٢٤م، وهو أول من حفظ له التاريخ صورة فوتوغرافية بعد الإمام الشيخ أحمد الدمهوجي،

فيكون بينهما سبعة من شيوخ الأزهر في زمن التصوير، وليس بين أيدينا صورة لهم.

ثم يأتي من بعد الإمام الشيخ حسونة النواوي عدد من شيوخ الأزهر أيضًا لا نملك صورًا لهم، وهم: الإمام الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي، والإمام الشيخ عبد الرحمن الشربيني، والإمام الشيخ علي البيلاوي.

❁ **رابعها:** أن الصور الشائعة لشيوخ الأزهر، والمبثوثة في الكتب والموسوعات الورقية والإلكترونية ليست صورًا ولا وثائق أصلية، بل هي رسوم، رسمها الأستاذ الدكتور عبد الله سلامة نصر، ومن رسومه شاعت الصور المتداولة، وكان المظنون أن الإمام الشيخ حسونة النواوي هو أول شيخ للأزهر بين أيدينا صورة فوتوغرافية له، لتأتي هذه الصورة النادرة التي بين أيدينا وتكون وثيقة أزهرية نادرة، تتعلق بتاريخ شيوخ الأزهر.

ويظهر من ذلك أن ما حفظه الأزهر من تاريخ مصر في مختلف المجالات أوسع بكثير من الأثر العلمي والمعرفي والديني، بل يتجاوز ذلك إلىٰ آفاق أوسع بكثير، وأن تاريخ الأزهر علىٰ الحقيقة ما زال مجهولًا، وما زالت وثائقه الأصلية مطمورة ومدفونة.

❁ **خامسها:** اختار علماء الأزهر منذ نحو ثمانين سنة أن التصوير الفوتوغرافي حلال، خلافًا للمتنطعين الذين يحرمونه، ويحملون الأحاديث النبوية علىٰ غير محاملها، وقد ألف مفتي الديار المصرية العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي رسالته: (الجواب الشافي، عن حكم التصوير الفوتوغرافي)، وقد طبعت عدة مرات.

وقد كان لهذه الرسالة أثر كبير في حسم الشغب والغبش الذي كان يحيط بهذه المسألة، حتىٰ قال حضرة صاحب الفضيلة العلامة المفتي الشيخ أسعد الشقيري - مفتي الجيش الرابع العثماني في الحرب العالمية الأولىٰ، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٥٩هـ - في الجلسة الثالثة من جلسات (مؤتمر الخلافة) المنعقد في الأزهر يوم الثلاثاء ٦ ذي القعدة الحرام سنة ١٣٤٤هـ، الموافق ١٨ مايو سنة ١٩٢٦م: (كانت ديارنا كلها تنتقدنا في مسألة التصوير الشمسي، فلما ظهرت رسالة فضيلة مفتي مصر السابق وهو الجالس هنا، وذكر فيها أن الصورة الشمسية ليست صورة مخترعة، بل هي صورة حفظت بوساطة الآلات، امتنع اعتراض الناس علينا، فعلمنا أن الأستاذ مؤلف الرسالة هو من أهل الاجتهاد في المذهب ومن أهل الاستنباط).

لكن الذي يظهر من هذه الصورة أن الأمر أقدم من هذا بكثير، حيث إن شيخ الأزهر الإمام الأكبر

الشيخ أحمد الدمهوجي قد اعتز هو وكبار العلماء الموجودين معه بهذه الصورة النفيسة، واحتفظ بها، وتوارثها أبناؤه من بعده، حتىٰ أهدتها أسرته إلىٰ الملك فاروق كما تقدم.

◈ **سادسها**: تبقىٰ عدة أسئلة لابد من التنقيب عنها للوصول إلىٰ إجابة شافية، وهي: من هو المصور الفرنسي أو الإنجليزي الذي التقط هذه الصورة، ولماذا لم تتكرر في حياة محمد علي باشا، ولماذا لم نجد له صورًا مع بقية شيوخ الأزهر بعد الدمهوجي، أم أنها ما زالت مطوية في بيوت أسر العلماء وربما تظهر، ولماذا لم نر لمحمد علي باشا صورًا أخرىٰ في بقية المناسبات الوطنية المهمة والأحداث التي أدارها، أم أن تلك الصورة كانت حدثًا تجريبيًّا عابرًا عندما استضاف محمد علي أحد المخترعين الأوائل للتصوير بآلاته ومعداته، ولم يتيسر وجود شيء منها في مصر إلا بعد ذلك بسنوات، إلىٰ غير ذلك من الزوايا التي تحتاج إلىٰ بحث وتنقيب.

◈ **سابعها**: أردت توثيقًا للبحث أن أذهب إلىٰ قلعة محمد علي باشا للوصول إلىٰ القاعة التي التقطت فيها هذه الصورة، وكان الهدف أن أصورها اليوم من نفس الزاوية، بحيث نقارن بين الصورة القديمة وبين هيئة القاعة وملامحها اليوم، فلجأت إلىٰ السيد وزير الآثار، وإلىٰ القوات المسلحة، وقد أتاحوا لي جميعًا جولة في رحاب قلعة محمد علي بمختلف قصورها وقاعاتها والمتحف الحربي، مع عدد من الخبراء في الآثار وفي تاريخ قلعة محمد علي.

وأقرب شيء وجدته هو بعض قاعات قصر الجوهرة، إلا أن مرور الزمن، وطمس الإنجليز لكثير من زخارف القاعات ونقوشها، والحرائق التي طرأت علىٰ قصر الجوهرة في الأربعينات والسبعينات لم تُمَكِنَّا من الوصول إلىٰ مكانٍ محققٍ نجزم أنه نفس القاعة.

وذلك أن القلعة كما هو معلوم ظلت مقر الحكم أيام محمد علي باشا، وإبراهيم باشا، وعباس باشا الأول، ومحمد سعيد باشا، ثم تقلد الحكم الخديوي إسماعيل، فنزل من القلعة إلىٰ قصر عابدين، وجعل الإنجليز القلعة مقرًّا لهم، فطمسوا زخارفها، وغيروا بعض معالمها، فلعل القاعة المذكورة قد تغيرت معالمها في أثناء ذلك كله.

وأيضًا فقد تواصلت مع أسرة المرحوم السيد بك الفيومي، فطلبت من ابن بنته: الأستاذ الدكتور محسن أحمد عبد العزيز الألفي، أن يراجع الأسرة الكريمة لعلهم يحتفظون بأصل تلك الصورة، أو عندهم خبر عنها، لكنه لم يتوصل إلىٰ شيء بعد بحث ومراجعة وتنقيب.

❁ **ثامنها**: ومما يتصل بما نحن فيه كتاب مهمٌّ جدًّا اسمه: (استخدام الصورة الفوتوغرافية في تدوين التاريخ)، تأليف الدكتورة مها علي عامر آل خشيل، الأستاذ المشارك في قسم التاريخ بكلية الآداب في جامعة الأميرة نورة بنت عبد الرحمن في الرياض، والمتخصصة في التاريخ الحديث والمعاصر، تقول في أولها: (وفي هذا العصر الذي تهيمن عليه الوسائل والأعمال المرئية، أصبح للصورة حضور دائم، مما دفع المهتمين بالتاريخ إلىٰ العناية بها، والبحث عن أفضل السبل للتعامل معها والاستفادة منها)(١).

ثم قالت بعد سطور: (وفرضت الصورة نفسها كجزء مهم من الحضور والاستشهاد، وتحولت العلاقة بين المصادر المصورة والمصادر المكتوبة إلىٰ علاقة تكاملية، فأصبح التصوير الفوتوغرافي وسيلة جديدة للتسجيل والتوثيق).

ثم أشارت إلىٰ مدرسة الحوليات الفرنسية، التي نادت بتجديد كتابة التاريخ، من خلال قراءة كل ما تركه الإنسان عن حياته بمختلف جوانبها، مما يحملنا علىٰ توسيع نطاق المصادر التاريخية، بحيث تكون الصورة الفوتوغرافية، والسينمائية، وطوابع البريد، وغير ذلك وثائق بصرية، ومصدرًا غير مكتوب، لا تقل أهميته عن الوثيقة المكتوبة والرواية الشفهية(٢).

وكل هذا مؤكد للسياق الذي نرصده هنا في هذه الجمهرة، والذي هو إبراز قيمة الوثائق الأصلية في تدوين تاريخ المؤسسة الأزهرية، وقد اعتمدت هذا المنهج، فأوردت هنا نحوًا من ألف وخمس مئة وثيقة، تتعلق بثمان مئة شخصية من المترجم لهم، ما بين صورة شخصية، أو صورة شهادة العالمية، أو صورة خطه، أو صورة ختمه، إلىٰ غير ذلك.

❁ **تاسعها**: أختم هذا الفصل بترجمة لطيفة لشيخ الأزهر الشريف: شيخ الإسلام، الإمام الشيخ: شهاب الدين أحمد بن علي بن أحمد الدمهوجي الشافعي ﷺ.

ولد سنة ١١٧٠هـ الموافق سنة ١٧٥٦م، وكانت داره برقعة القمح، وراء رواق الصعايدة، بجوار الأزهر، وفيها هناك عطفة تعرف بعطفة الدمهوجي، ويعود نسبه إلىٰ قرية دمهوج بمحافظة المنوفية، بالقرب من بنها، وهي القرية التي يرجع إليها أصل عائلته وإقامتهم فيها قبل انتقالهم إلىٰ القاهرة، لذلك انتسب إليها، رغم أن ولادته كانت في القاهرة، وقد التحق بالأزهر الشريف، فتتلمذ لعلمائه الأجلاء، ومنهم: العلامة عبد الله الشرقاوي، والشيخ أحمد بن جمعة البجيرمي، والشيخ عبد اللطيف الحلبي ت١١٢١هـ، وغيرهم، وجدَّ في تحصيل العلم فبرع ونبغ وتفوق، حتىٰ أجيز من شيوخه بالتدريس والفتوىٰ والتأليف والرواية.

(١) استخدام الصورة الفوتوغرافية في تدوين التاريخ /ص٣/، (د ن)، نشر سنة ٢٠١٧م.
(٢) استخدام الصورة الفوتوغرافية /ص١٠/.

واشتغل بالتدريس في الجامع الأزهر، فكان يُدَرِّسُ شرح الأشموني على ألفية ابن مالك، والكتب الكبار في مختلف العلوم، ولم يؤلف شيئًا من الكتب، لكن كان له مجموعة في إجازاته كأنها ثبت لطيف، أجاز بها لبعض تلامذته؛ ومنهم: الشهاب أحمد منة الله، والبرهان السقا.

وأما سمته وأخلاقه فقد كان ﷺ واسعَ العلم، متبحرًا، حسن الصورة والهيئة، زاهدًا، منقطعًا للعبادة، عاكفًا على إفادة الطلاب، وكان نقش خاتمه هكذا: (الشكر لله، يحمد ❊ عبده الدمهوجيُّ أحمد).

وقد تولى مشيخة الأزهر أوائل رجب سنة ١٢٤٦هـ، وتوفي ليلة عيد الأضحى سنة ١٢٤٦هـ، الموافق سنة ١٨٣١م، فبقي في المشيخة ستة أشهر، ومن ذريته الشيخ إبراهيم الدمهوجي، كان من أعيان دمياط، وهو جد الأستاذة عائشة عبد الرحمن بنت الشاطئ لأمها.

وإليك لمحة تفصيلية عن شيوخه وأسانيده في العلم، فمن شيوخه: ١ ـ الحافظ محمد مرتضى الزبيدي ت١٢٠٥هـ، وقد سمع منه الأولية[1]، وكان سماعه حديث الأولية من الحافظ مرتضى الزبيدي في بيت السيد مرتضى، بسويقة اللالا بالقاهرة، وتمَّ كتابةُ محضرٍ بالسماع، فيه أسماءُ الحضور، وتاريخ المجلس، وعليه توقيع الحافظ مرتضى ﷺ، كان ذلك يوم الأربعاء، الرابع والعشرين من شوال، سنة

---

(١) الحديث المسلسل بالأولية: (الراحمون يرحمهم الرحمن تبارك وتعالى، ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء)، توارد رواته من سفيان بن عيينة إلى طبقة شيوخنا على أن يكون هو أول ما يسمعه الطالب من أستاذه من الحديث النبوي، وبهذه الهيئة المتصلة المسلسلة سمعته من جماعة من شيوخي، من المصريين، والحجازيين، والشوام، والحضارم، والهنود، والجاويين، والمغاربة، وغيرهم، وقد جمعت ما انتهى إليَّ من أسانيده في كتابي: (السبل المذللة، إلى الأحاديث المسلسلة)، وقد رواه البخاري في التاريخ الكبير /٩/٦٤/، ط: دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، سنة ١٣٦٠هـ، وأبو داود في سننه /٢/٨٢٨ ح ٤٩٤٣ مكنز/، كتاب الأدب، باب في الرحمة، والترمذي في سننه /٢/٥٠٤ ح٢٠٤٧ مكنز/، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في رحمة المسلمين، وقال: (حسن صحيح)، وأحمد في المسند /٣/١٣٦٦ ح٦٦٠٥ مكنز/، وغيرهم كثير، وصححه الزين العراقي في الأربعين العشاريات السامية /ص١٢٥ ضمن مجموع/ ط٢: دار ابن حزم، بيروت، سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م، وحسنه ابن ناصر الدين الدمشقي في: مجالس في تفسير قول الله تعالى: ﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة آل عمران، الآية ١٦٤] /ص١٣٤/، ط٢: دار اليسر، المدينة المنورة، ودار المنهاج، جدة، سنة ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م، ثم أسنده مسلسلًا سائر أصحاب الأثبات، والمؤلفين في المسلسلات، انظر مثالا: فهرس الفهارس والأثبات لمسند الدنيا السيد عبد الحي الكتاني /١/٨٥ ـ ٩٤/، والعجالة، في الأحاديث المسلسلة لمسند العصر محمد ياسين الفاداني /ص٩/، ط٢: دار البصائر، دمشق، سنة ١٤٠٥هـ ـ ١٩٨٥م، وفي مسلسلاته الكبرى: بغية الحاضر والباد /١/١ ـ ٣٥/، وقال: (هذا المسلسل مثبوت بهذا الأداء واللفظ في أكثر كتب الفهارس والمعاجم والمشيخات والمسلسلات، ولم يؤلف العلماء كتابا وضعوه في المسلسلات إلا ذكروه في مقدمة الكتاب ـ مسندًا منهم ـ كالتذكار بأنه أول حديث سمعوه من أشياخهم في الأمصار، فذكره الشنواني، والشرقاوي، والزبيدي، والبصري، والنخلي، والكوراني، والعجلوني، والنابلسي، والقشاشي، والخياري، والشناوي، والسخاوي، والسيوطي، والشمني، والعيني، وغيرهم من المتأخرين والمعاصرين، أحصينا ذلك في أكثر من ألف وثلاثمئة ثبت، ذكره مؤلفه في أول كتابه أو في آخره، وقلَّ من لم يذكره إلا غفلة).

١١٩٦هـ، وكان كاتب السماع هو العلامة الجليل السيد علي بن عبد البر الونائي ت١٢١١هـ، وكان بينه وبين الشهاب الدمهوجي مودة ومرافقة وصحبة.

وهذا نص مكتوب السماع، قال العلامة الجليل السيد علي بن عبد البر الونائي ﷺ: (بسم الله الرحمن الرحيم، وبه ثقتي، الحمد لله الذي رحم أهل حبه، فمنَّ عليهم برفع الحجب عنهم حتىٰ استغرقوا في شهود قربه، والصلاة والسلام علىٰ الناطق بالصواب، سيد الأحباب، محمد عبده ورسوله، وحبيبه وخليله، وعلىٰ آله وأصحابه وتابعيه وحزبه، أما بعد، فقد سمع ـ من لفظ وحفظ إمام المحدثين، ورحلة المحققين، شمس المعارف، وكنز اللطائف: أبي الفيض محمد مرتضىٰ بن محمد الحسيني الواسطي الزبيدي الحنفي، عومل بالرضوان الوفي آمين ـ الشيخُ الفاضِلُ، الجِهبذُ الشهاب أحمد بن علي الدمهوجي الشافعي الأزهري حفظه الله حديث الرحمة، وهو أول حديث سمعه منه، وأجاز له جميع ما يجوز له، بحق روايته لهذا الحديث عن جلة فخام، وأساتذة عظام).

ثم ساق الونائي سند السيد مرتضىٰ إلىٰ حديث الأولية، إلىٰ أن قال: (وسمع معه: سيدي محمد ابن الهاني بن علي العرياني البديري، وشافعي بن عمر الدغستاني الشافعي، وهو أول حديث استماعه عن المسمِّع المذكور، ومحمد بن مسعود القراني، وهو أول مسلسل عنه، وكاتب الأحرف، الفقير: علي ابن عبد البر الشافعي الونائي، وأخوه في الطلب: العلامة علي بن منصور الأجهوري الشافعي، كلاهما عود علىٰ بدء، في بيت المسمع المذكور، ضوعفت له الأجور، بسويقة اللالا، وصح ذلك يوم الأربعاء، أربع وعشرين من شوال، سنة ١١٩٦هـ ست وتسعين ومئة وألف، من هجرة من له الشرف ﷺ، ما بدا نجم وغرب، والحمد لله رافع الرتب).

ثم يلي ذلك قول الحافظ مرتضىٰ: (صحيح ذلك، وقد أجزته أيضًا بما يجوز لي عمومًا، وفقه الله تعالىٰ، وأحسن إليه، وكتبه الفقير: محمد مرتضىٰ الحسيني، غفر له، حامدًا مصليًا مسلمًا مستغفرًا).

٢ ـ والعلامة محمد بن عبد السلام الدرعي الناصري ت١٢٣٩هـ، وهو عن جماعة؛ منهم: الحافظ أبو العلاء إدريس العراقي الفاسي، وقد أجاز الدرعي للدمهوجي إجازة عامةً في السادس من ربيع الثاني سنة ١١٩٧هـ، والإجازة بخط العلامة الونائي.

٣ ـ وعبد العزيز بن عباس الأمطاعي المراكشي، نزيل مصر.

٤ ـ والشهاب أحمد بن أحمد بن جمعة البجيرمي الشافعي، وقد أجاز للدمهوجي في ذي الحجة ١١٩٦هـ، وكان كاتب الإجازة هو علي بن عبد البر الونائي.

٥ ـ والإمام عبد الله بن حجازي الشرقاوي ت١٢٢٧هـ بأسانيده ومروياته.

٦ ـ والصفي محمد بن أحمد بن محمد البخاري النابلسي، وقد أجاز للدمهوجي إجازة عامة ضحىٰ يوم الجمعة، سابع المحرم الحرام سنة ١١٩٧هـ، وهي بخط الونائي.

٧ ـ والعلامة الشيخ محمد بن أحمد الجوهري وغيرهم.

وأما تلامذته فهم عدد كبير؛ منهم: أحمد بن عبد الكريم الترمانيني الحلبي ت١٢٩٣هـ، ومحمد نجيب بن مصطفىٰ النخالة الشافعي ت١٢٩٦هـ، ورفاعة الطهطاوي ت١٢٩٠هـ، والبرهان السقا، وبشرىٰ ابن هاشم الجبرتي، وعبد القادر بن عبد الرحيم الخطيب الدمشقي، ومحمد العزب المدني، وأحمد منة الله المالكي، وأبو عبد الله محمد بن محمد التهامي، والشهاب المعمر أحمد النحراوي المكي، وعثمان ابن حسن الدمياطي الشافعي المكي، والشيخ محمد عيسىٰ القلماوي، والشيخ أبو عبد السلام عمر بن هيكل ابن جعفر الشبراوي الشافعي، ومحمد سليمان حسب الله المكي، وغيرهم كثير.

أروي مروياته من طريق شيخنا محمد سعد بدران الدمياطي، عن محمد بهاء الدين أبي النصر القاوقجي، عن البرهان السقا، عنه.

(ح) ومن طريق العلامة الشيخ عبد الغني بن محمد علي الدقر، والمعمر الشيخ سليم الحمامي، كلاهما عن البدر الحسني، عن البرهان السقا، عنه.

(ح) ومن طريق السيدة صفية بنت عمر بن صالح بن عبد الله العطاس، وهي عن الإمام الحبيب أحمد ابن حسن العطاس، وهو عن الإمام الحبيب عيدروس بن عمر الحبشي، عن العلاَّمة محمد بن محمد العزب، عنه.

(ح) ومن طريق شيخنا نور الدين بن محمد بن حسن عتر الحلبي الأزهري، عن مسند العصر الفاداني، عن المعمر الكياهي جمعان بن سامون التنقراني، عن العلامة نواوي بن عمر البنتني ثم المكي، عن العلامة أحمد النحراوي، عنه.

وبالإسناد إلىٰ الإمام عيدروس بن عمر، عن العلامة علي بن عبد القادر باحسين، والعلامة محمد ابن عبد الله باسودان، كلاهما عن الشيخ بشرىٰ بن هاشم الجبرتي، عنه[1].

(١) وانظر ترجمة الإمام الشيخ الدمهوجي في: مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتىٰ الآن /١/٢٠٥ ـ ٢٠٧/، وحلية البشر، في تاريخ القرن الثالث عشر /١/٣٠٥/، وفهرس الفهارس والأثبات /١/٤٠٥/، وكنز الجوهر، في تاريخ الأزهر /ص١٣٨/، وعقد اليواقيت الجوهرية /١/٧٧٢، و٧٧٣، و٨١١/، وأسانيد المصريين /ص٢٤٠/.

إِضَاءَةٌ

في ذكر لمحة مما كابدته في هذه الجمهرة من عناء البحث

ولقد أخذتُ على عاتقي بذل غاية الوسع في مكاتبة علماء الآفاق، لينهضوا إلى إفادتي بتراجم الأزهريين من أبناء بلدانهم ونواحيهم، فإن ظفرت من الواحد منهم بترجمة واحدة لشخصية أزهرية فهذا غُنْمٌ عظيم، وغنيمة من غنائم العمر، والفضل محفوظ لأهله، والشكر واجب لكل من تفضل بإفادةِ لَفْظَةٍ، أو توثيقِ معلومةٍ، أو إفادةٍ بتاريخٍ، أو تصحيحِ نسبةٍ، تتعلق بأحد العلماء المترجم لهم هنا، ولا أحصي عدد من تفضلوا بالإفادة.

فقد طلبت من أخي الكريم الشيخ حسين لي شينغ بينغ الصيني الأزهري أن يتحفني بتراجم الصينيين من الأزهريين، فجمع لي أوراقًا في ذلك، مزودة بصورهم.

وطلبت من فضيلة الشيخ محمد أحمد حسن شرشر أن يكتب لي ما يتاح له من تراجم العلماء آل شرشر الأزهريين، فأمدني من ذلك بأخبار نفيسة.

وأرسلت إلى فضيلة الشيخ رياض بازو أن يجمع لي تراجم الأزهريين اللبنانيين، فكلف الأخ الكريم بلال بن مصطفى دمج بذلك، فجمع كتابًا لطيفًا عنوانه: (أعلام من لبنان، درسوا في الجامع الأزهر)، ووصلني فاغتبطت به، لما فيه من الإفادة، وسوف أدفعه للنشر قريبًا بإذن الله.

وطلبت من أخي الكريم الشيخ خالد محمد رمضان بن سعيدان الطرابلسي الأزهري أن يسعفني بما تطاله يده من تراجم الليبيين الأزهريين فأتحفني بسير رجالٍ أكابر أدرجتهم هنا.

وأرسلت إلى مسند المغرب أخي الشيخ خالد بن محمد المختار السباعي بمثل ذلك، فأفادني بمواضع تراجم عدد من الأزهريين المغاربة، ووعدني بالمزيد.

وطلبت من فضيلة الدكتور جمال أبو الهنود مستشار وزير الأوقاف الفلسطيني أن يمدني بما يمكنه الوصول إليه من تراجم الأزهريين من أبناء فلسطين، فأفادني بإفادات كثيرة.

وطلبت من فضيلة الشيخ إسماعيل ابن الإمام المفتي إبراهيم المختار بن عمر أن يمدني بما تحت يده من تراجم علماء أرتريا الأزهريين، فأرسل لي بإفادات جمة.

وطلبت من فضيلة الشيخ المكرم محمد التوم أن يسعفني بجمع ما يمكن من تراجم العلماء السودانيين الكرام الذين وفدوا إلىٰ الأزهر الشريف ونالوا شهادته ثم رجعوا إلىٰ ديارهم، فأرسل لي نحوًا من مئة شخصية في عقد الستينات وحده، ووعدني بأن يستمر في البحث والحصر لأن هذا أمر واسع جدًّا.

وطلبت من أخي الكريم الشيخ حامد إبراهيم محمد النمر الدمنهوري الأزهري أن يجمع لي ما يمكنه من تراجم الأزهريين من أبناء دمنهور، فجمع في ذلك أوراقًا تصلح لأن تكون نواة كتيب لطيف، يتهيأ لمن يأتي من بعد أن يذيل لها، ويراكم عليها.

وطلبت من فضيلة المسند الشيخ أسامة السيد عبيد التيدي أن يرسل لي ما يمكنه الوصول إليه من تراجم الأزهريين في بلده تيده وما حولها من قرىٰ كفر الشيخ ومدنها، فأرسل لي نفائس من ذلك.

وطلبت من العلامة المفتي الشيخ شعبان رمضان موباجي مفتي أوغندا أن يسعفني بمن يمكنه حصره من العلماء الأزهريين الأوغنديين فوعد خيرًا.

وطلبت من صديقنا البحاثة المفيد ناصر بن أحمد بن عيسىٰ السركال حفظه الله أن يمدني بما تحت يده من أخبار علماء دبي وأبو ظبي، وعلماء ضفتي الخليج، فأفادني بتراجم ومصادر تشهد له بالتنقيب والاطلاع.

ونزلت مراكش فلقيت فيها مؤرخها وذاكرتها الحية، الأستاذ الكبير أحمد متفكر، وله نحو الخمسين تأليفًا في تاريخ مراكش وتراجم أعيانها وقضاتها ومفتيها، فطلبت منه إسعافي بالأزهريين المراكشيين خصوصًا والمغاربة عمومًا، فأمدني بذلك مشكورًا.

وحللت ضيفًا علىٰ الخزانة الحسنية الملكية الموقرة، لأتلمس أي شذرة تفيد في أخبار الأزهر والأزهريين عندهم، فبذل لي مديرها العلامة البحاثة الدكتور أحمد شوقي بنبين كل حفاوة وكرم، هو والسادة الخبراء الباحثون فيها.

وطلبت من معالي الوزير محمد عيسىٰ وزير الأوقاف بدولة الجزائر الشقيقة أن يكلف من يسعفنا بتراجم الأزهريين الجزائريين فأثنىٰ خيرًا ووعد خيرًا.

وطلبت مثل ذلك من معالي الوزير محمد مصطفىٰ الياقوتي وزير الأوقاف الأسبق بالسودان الشقيق، فأفادني إفادات جمة، وأسعفني هو وشقيقه السيد: محمد الشيخ الياقوت بإحضار عدد من الكتب التي طلبتها من السودان.

وكنت قد عبرت في مدينة سيلانجور، بضواحي العاصمة كوالالمبور في ماليزيا، علىٰ الخزانة الفطانية، وتنعمت بمطالعة محتوياتها من المخطوطات والمقتنيات النفيسة، حتىٰ ظفرت بكتاب نفيس في

تراجم علماء فطاني، في تايلاند، لكنه بالملايوية، فطلبت منهم ترجمته، رجاء أن أستخرج منه تراجم الأزهريين الفطانيين، فوعدوني أن يتم ذلك خلال ستة أشهر، فما تمت ترجمة الجزء الأول منه إلا بعد سنتين، واستلمت ترجمة ذلك القدر في سفرتي الأخيرة إلىٰ الديار الماليزية، في شوال سنة ١٤٣٥هـ، وصار اسمه بعد الترجمة (علماء في عالم الملايو).

وكان سعادة الأستاذ الدكتور سيد فليفل عميد معهد الدراسات الأفريقية بجامعة القاهرة قد دعاني إلىٰ محاضرة في المعهد عن دور الأزهر في أفريقيا، فتشرفت بإلقاء المحاضرة هناك، بحضور عدد من سفراء بعض الدول الإفريقية، وعدد من أساتذة المعهد الأجلاء، وعدد من الباحثين الأفارقة، وطلبت منهم إمدادي بما في خزائن الكتب والمخطوطات في دولهم من أخبار الأزهريين وتراجمهم.

وكانت سعادة الأستاذة الدكتور هدىٰ درويش عميدة معهد الدراسات الآسيوية، بجامعة الزقازيق قد دعتني إلىٰ محاضرة في المعهد، فرجوت منهم تزويدي بما تحت يدهم من أطروحات للماجستير أو الدكتوراه حول أي علم أزهري من أبناء تلك البلدان.

وطلبت من فضيلة الشيخ يسري كراع الإسنوي الأزهري أن يكتب لي عن أعيان بيت كراع الأزهريين من أعيان علماء أسنا، وعمن يمكنه أن يقيد لي تراجمهم من علماء إسنا كذلك، فأفاد مشكورًا بما أمكنه.

وطلبت من سماحة المفتي الشيخ كامل سميع الله إسكندر مفتي جمهورية تتارستان أن يمدني بما يمكنه الوقوف عليه من الأزهريين الذين وفدوا إلىٰ الأزهر من تتارستان، فأفادني أنه يستحضر ترجمة شيخ وفد إلىٰ الأزهر وله ترجمة في كتاب مطبوع بالروسية، ثم أسعفني بذلك أخونا الكريم الشيخ راميل عزت اللين الأزهري أكرمه الله، حيث كتب لي بعدة تراجم.

وطلبت من فضيلة الشيخ داود عبد المجيد الفانلا أن يسعفني بأخبار الأزهريين من أبناء نيجيريا فوعد بذلك، ثم التقينا في الدروس الحسنية فأخبرني أنه جمع نحوا من خمسين شخصية، إلا أن التفتيش عن أخبارهم وتراجمهم يحتاج إلىٰ جهد كبير.

وطلبت من سماحة الدكتور محسن موسىٰ الحسني المشرف علىٰ الرابطة الإسلامية للعلماء بأمريكا الجنوبية أن يمدني بأخبار الأزهريين الذين ذهبوا إلىٰ هناك من جيل الشيخ عبد الله عبد الشكور وأضرابه فوعد خيرًا، وتباحثنا غير مرة في استحضار ذلك.

وطلبت مثل ذلك من تلميذنا الكريم السيد: الحسين بن محمد سليمان محمد، سبط الإمام المربي الشيخ أحمد رضوان ﷺ، أن يمدني بتراجم أعيان الصعيد وخصوصًا أبناء قنا والأقصر وما والاهما جنوبًا، فأفادني بتراجم نادرة، وإفادات جليلة، عن الأزهريين في الأقصر وإسنا وقنا وغيرها من تلك النواحي

العريقة الكريمة.

وكتبت وراسلت بمثل ذلك أعيان السودان والجزائر والعراق وحضرموت وبروناي وغير ذلك، ثم صببت ما وصلني من ذلك كله هنا في هذه الجمهرة، وأنا على يقين من أن ما وصلني وأتيح لي من ذلك لا يساوي غرفة من بحر، من الجم الغفير، من العلماء، الذين وفدوا من تلك الأقطار المتباعدة، فتعلموا في الأزهر الشريف، ثم رجعوا إلى بلدانهم، وملأوا طباق الأرض علما ونورا، ولم نتمكن من رصدهم، وتوثيق سيرهم وتراجمهم، وحسبي أنني دعوت إلى ذلك، وأنجزت منه ما قدر لي، ثم يأتي من بعدنا من يكمل المسيرة.

وأثناء هذه المكاتبات والمراسلات عكفت على القراءة الجارفة الواسعة، ورتبت في ذهني تلك الكتب المقروءة على تبويب معين:

❁ **فمنها**: التواريخ المحلية للقرى والمدن المصرية وغير المصرية، من تلك الكتب الصغيرة، التي ربما لا يعتني بها ولا يشعر بوجودها إلا أبناء تلك القرية وحدها، وقد توفر لي من ذلك قدر كبير جدًّا، لا يكاد يخطر على بال(١).

❁ **ومنها**: كتب التأريخ لمدارس العلم، ككتاب: (ثلج الفؤاد بالأمن والسلم، في تاريخ رباط ابن سلم)، وكتاب: (جامع القرويين المسجد والجامعة)، وكتاب (ماضي القرويين ومستقبلها)، وكتاب: (بلاد شنقيط المنارة والرباط)، و(تاريخ معهد أسيوط الديني)، وغير ذلك كثير جدا من الكتب التي أرخت لمدارس

(١) وهذه التواريخ التي نتكلمُ عنها هي التي عُرِفَت عند المؤرخين والمحدثين بتواريخ الرجال المحلية، وقد قال الدكتور أكرم ضياء العمري في كتابه القيم: (موارد الخطيب البغدادي في تاريخ بغداد) /ص٢٥٩/: (نقصد بكتب تواريخ الرجال المحلية: تلك المؤلفات، التي اختصت بالتعريف برجال مدينة واحدة من المدن الإسلامية).
وقد تكلم الدكتور سالم أحمد محل في كتابه: (المنظور الحضاري في التدوين التاريخي عند العرب) /ص١٣٥/ عن التواريخ المحلية أو تواريخ المدن، فقال: (إن استمرار التأليف في تواريخ المدن، أو التواريخ المحلية، أظهر المدن باعتبارها وحدات حضارية فكرية)، إلى أن قال: (وهكذا ظهرت هذه التواريخ، لتقدم خدمةً جليلةً للثقافة العربية الإسلامية).
وكذلك فعل الدكتور فاروق عمر فوزي في كتابه الجم الفوائد: (التدوين التاريخي عند المسلمين) /ص٢٠٠ ـ ٢٦٣/، فقد أفرد فصلا طويلا يربو على الستين صفحة، للكلام على التواريخ المحلية، فأتى فيه بفوائد عزيزة، تنم عن بحث وتنقيب.
وأقول: والمقصود أن التأريخ للمدن أو التواريخ المحلية ـ كما عُرِفَتْ عند أهل العلم ـ تمثل نشاطًا علميًّا، جليلَ الفائدة، عظيم الأثر، في القيام برصدٍ وتتبعٍ للأعلام والنبغاء والعلماء في الفنون المختلفة، مهما نأت أوطانهم، وأرى أنه نمطٌ من التصنيف قد جعل يتوارى بالتدريج، وعسى أن يكون هذا الفصل باعثًا للهمم على استثارة هذا اللون من التصانيف، وإحيائه.
ولا شك في أن التواريخ المحلية تتضمن بالإضافة إلى التراجم نتفًا مفيدة من وصف كل مدينة يتم التأريخ لأعلامها، مع وصف خططها، وأعمالها، وهذا مهم أيضًا، لأنه يصف الجو المحيط الذي نشأ فيه العلماء، ويقترب بنا خطوة من الاطلاع على تكوينهم.

العلم الكبرى والصغرى، ورجال تلك المدارس.

۞ **ومنها:** كتب التراجم: ككتاب: (تعطير النواحي والأرجا، في تاريخ علماء جرجا)، (إعلام النبلاء، بتاريخ حلب الشهباء)، وكتاب (إتحاف الأعزة، في تاريخ غزة)، و(موسوعة أهل الذكر في السودان)، و(إتمام الأعلام، بمن حل مراكش وأغمات من الأعلام)، و(تاريخ بني عدي)، وكذلك كتاب: (الأعلام للزركلي)، وذيله لأحمد العلاونة، وذيله لمحمد رياض المالح، وذيله لمحمد خير رمضان يوسف وقد أخرج من كتابه هذا إصدارين الثاني منهما في عشرة مجلدات، مع كتاب: (أوهام الأعلام) لمحمد عبد الله الرشيد، و(ترتيب الأعلام على الأعوام) لزهير ظاظا.

۞ **ومنها:** كتب الرحلات، وقد اشتملت كتب الرحلات على وصف أحوال البلاد التي نزل فيها صاحب الرحلة، مع ذكر من لقيه في كل بلد من الأعيان والعلماء، وكم فيها من شذرات عن الأزهر وعلماء الأزهر، ومما طالعته من الرحلات: (رحلة عظمة السلطان حسين في رياض البحرين)، وهي رحلة السلطان في محافظات الدلتا سنة ١٩١٦م، و(الرحلة السامية، إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية) للسيد محمد بن جعفر الكتاني، ومثل: (الشاهد المقبول، في الرحلة إلى مصر والشام واستنبول) للحبيب شيخ بن محمد بن حسين الحبشي، ومثل: (رحلة الحبيب أحمد بن حسن العطاس إلى مصر) جمعها ولده الحبيب علي بن أحمد، ومثل: (ماء الموائد) وهي رحلة العلامة أبي سالم العياشي، وهي مهمة جدًّا، و(نفحة البشام، في الرحلة إلى الشام) لمحمد عبد الجواد القاياتي، وكم فيه من الفوائد والنفائس، وغيرها كثير.

فضلًا عن الرحلات التي قام بها عددٌ من الأعلام الأزهريين إلى بلاد المشرق والمغرب، ومن أهمها: (تخليص الإبريز، في تلخيص باريز) لرفاعة بك الطهطاوي، و(الرحلات) لشيخ الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين، و(الرحلة اليابانية) للشيخ علي الجرجاوي وغيرها كثير.

۞ **ومنها:** كتب الأثبات، وهي التي يترجم فيها كل عالم لمشايخه، ومقروءاته، وأسانيده ومروياته، ففي كل ثبتٍ وصفٌ للمدرسة العلمية التي نشأ فيها، ومما طالعته من تلك الأثبات: (فهرس الفهارس والأثبات) للسيد عبد الحي الكتاني، و(معجم المعاجم والمشيخات) للشيخ يوسف المرعشلي، و(رياض الجنة، أو المدهش المطرب) للعلامة عبد الحفيظ الفاسي، وثبت الشيخ إسماعيل عثمان زين، وثبت الشيخ أحمد جابر جبران، وثبت الشيخ عبد الفتاح أبو غدة، وثبت أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري، وثبت الأمير الكبير، وثبت عبد الله الصديق الغماري، وثبت الشبراوي، وثبت إسماعيل الأنصاري، وثبت سالم ابن جندان، وأثبات محمد علوي المالكي، وأثبات مسند العصر محمد ياسين الفاداني، وأثبات آل الكزبري، وأثبات محمد بن علي السنوسي، وأثبات عيدروس بن عمر الحبشي، وغير ذلك كثير جدًّا مما لا أحصيه،

مما اطلعت عليه من مخطوط ومطبوع، وانتفعت به.

وتلتحق بها الإجازات الخطية، التي يذكر فيها كل واحد من العلماء أسماء مشايخه وأساتذته، ومقروءاته عليهم، ومن فوائدها الوقوف على خطوط العلماء، ومتابعة المراسم والإجراءات المتبعة لتخريج طالب العلم وتأهيله، وقد وقفت منها على عدد لا أحصره، وطالعت منها قدرًا كبيرًا جدًّا.

وللإجازات عند الأزهريين تاريخ عريق، وكان لهم بها عناية فائقة، وكانت في الغالب تصدر عقب انتهاء فترة التحصيل والدراسة، قال محمد محفوظ في: (تراجم المؤلفين التونسيين): (وأخذ الإجازات مؤذن بانتهاء مدة الدراسة)[1].

وكان للأزهريين من الإجازات والأثبات ما يستحق أن يفرد بدراسة جامعة مستوعبة، فلعل باحثًا نجيبًا خبيرًا أن ينهض لخدمة هذا الباب الجليل.

◉ **ومنها**: الكتب التي درست قضيةً بعينها في التاريخ المصري الحديث، لأستجلي من ذلك أطرافًا وأبعادًا من نشاط الأزهر وأعلامه، وجهودهم في خدمة وطنهم في مختلف الميادين، مثل: قضية التعليم، وقد كتب فيها الدكتور أحمد عزت عبد الكريم كتابه: (تاريخ التعليم في مصر من نهاية حكم محمد علي إلى أوائل حكم توفيق)، وكتب فيها الدكتور سامي سليمان السهم كتابه: (التعليم والتغيير الاجتماعي في مصر في القرن التاسع عشر).

وقضية العامية وتاريخ انتشارها في مصر، وقد كتبت فيها الدكتورة نفوسة زكريا كتابها: (تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر).

ومنها قضية الطباعة في مصر، وقد كتب فيها أبو الفتوح رضوان كتابه: (تاريخ مطبعة بولاق، ولمحة من تاريخ الطباعة في بلدان الشرق الأوسط)، وكتب فيها الدكتور محمود الطناحي كتاب: (الكتاب المطبوع في مصر في القرن التاسع عشر)، وكتاب: (مدخل إلى تاريخ نشر التراث العربي).

◉ **ومنها**: كتب المذكرات، مثل: (مذكرات مجاور في الجامع الأحمدي) للأستاذ محمد عبد الجواد، ومثل: (السياسة والأزهر) وهي مذكرات الشيخ محمد الأحمدي الظواهري شيخ الأزهر الشريف، ومذكرات الدكتور محمد البهي: (حياتي في الأزهر)، ومذكرات عبد الحميد كشك: (قصة أيامي)، ومذكرات فخري عبد النور، ومذكرات شيخ الإسلام مصطفى عبد الرازق، وغيرها كثير جدا من مذكرات السياسيين

(١) تراجم المؤلفين التونسيين /١/٦٣/، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة ١٤٠٥هـ - ١٩٨٥م، أثناء حديث له عن أحد أعلام التونسيين الدارسين في الأزهر، وهو العلامة علي بن علي بن محمد الأومي الصفاقسي ت١٢٠٤هـ، وله ثبت فيه شيوخه الذين درّسوا له وأجازوه من علماء الأزهر.

والصحفيين والكُتَّاب، مما لعله يشتمل على شذرة أو لمحة تتعلق بعالم أزهري.

❁ **ومنها**: المجلات والجرائد والدوريات، وقد طالعتُ منها عددًا كبيرًا جدًّا في دار الكتب المصرية وغيرها، ومنها المجلات والجرائد المتعلقة بأحد المدن أو المحافظات، أو المؤسسات أو مجلات المعاهد الأزهرية.

❁ **ومنها**: السماع المباشر من أسر العلماء وأهليهم وذرياتهم، أو من تلامذتهم الذين عرفوهم، وخبروا أحوالهم، وكم تجمع في صدري وحافظتي مما وعت أذني من أخبارهم وأحوالهم، وكم أجريت قلمي بما سمعته من شئونهم، وكم عرفت بخبرٍ عن الواحد منهم فسارعت بالرحلة إليه، أو إلى من بقي من أهله حيًّا.

ولعل أشد ما كابدته في هذه الجمهرة هو هذا التواصل مع أسر العلماء وذويهم، واستنطاقهم بما يحفظونه أو يعرفونه عن العالم الأزهري الذي نبغ منهم، سواء كان أبًا أو جدًّا أو أحد الأرحام، حتى لقد تذكرت قول الأستاذ الشيخ محمد كامل الفقي: (فقد كان كثير من الأعلام الذين ترجمت لهم ودرستهم لا يستطيع الكاتب أن يصل إلى شيء من آثارهم وأخبارهم إلا بالاتصال بأهلهم، والذين خالطوهم وعاشروهم، ومن هؤلاء شربت المر، وجَرَعْتُ الألم كؤوسًا مترعة.

فقد كان أكثر هؤلاء لا يقدرون سُموَّ الغاية التي انتدبتُ لها، ولا شرف المقصد الذي أخذت نفسي به، وطالما كاتبت فريقًا منهم وهم متعلمون مثقفون، وتشفعت إليهم بالوسطاء والشفعاء، فلم أصل من ورائهم إلى طائل، بل لم أظفر حتى برجع الجواب، ورد الخطاب، وكان بعضهم يكاد يضيع وقتي في التردد عليه، والوقوف ببابه، ثم لا يكون نصيبي منه آخر الأمر إلا حكاية معادة، أو قصة مسرودة، وبعضهم كان من الجهل والانصراف والنسيان بحيث لا يعي شيئًا عن المترجم له حتى تاريخ وفاته)[1].

وأقول: لقد لقيت من ذلك العجائب والغرائب، وعانيت الأمرَّين، كما لقيت من البعض حفاوة ومسارعة في الإسعاف بما أطلبه، إلا أن مكابدة الأسر في طلب ما يتعلق بالعلماء النابغين منهم يبقى من أغرب الأمور وأعجبها.

وقد عهدت في الوقت نفسه بعدد من الكتب إلى عدد من الأفاضل، لكي يطالع كل واحد منهم ذلك الكتاب، ويرجع لي بفهرس يرصد موضع كل شخص أزهري في ذلك الكتاب، بحيث يسهل عند شروعي في كتابة ترجمة كل علم أن أعرف المواضع التي تكلمت عنه.

(١) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة /ص٣/.

وسأذكر هنا علىٰ وجه الحصر الكتب التي تفضلوا بالنظر فيها، فقد تفضل الدكتور أحمد حسن باستقراء كتاب: (إتمام الأعلام)، و(النور الأبهر)، و(تكملة معجم المؤلفين).

وكذلك فعل فضيلة الشيخ محمد الصياد حيث قام بمطالعة عدة كتب منها: (أخبار المصريين في القرن العشرين)، و(المختصر من نشر النور والزهر، في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلىٰ القرن الرابع عشر)، و(النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين)، و(موسوعة أعلام القرن الرابع عشر والخامس عشر)، و(موسوعة أعلام القرن التاسع عشر في العالمين الغربي والإسلامي)، و(التوشيحات)، و(تاريخ علماء دمشق)، و(أخبار المصريين)، و(دور الأزهر في السودان)، و(ذيل الأعلام) للعلاونة، و(عقد الجمان)، و(معجم المؤلفين)، و(هيئة كبار العلماء)، و(شجرة النور الزكية).

وكذلك فعل فضيلة الشيخ محمد عبد اللطيف في كتاب: (فيض الملك الوهاب المتعالي، بأنباء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي).

وكذلك فعل فضيلة الشيخ أحمد نبوي أحمد مخلوف المالكي حفظه الله في كتاب: (الأعلام) للزركلي، ومجلة الأزهر.

وكذلك فعل فضيلة الشيخ أحمد جمال علي محمود في كتاب: (تتمة الأعلام)، و(المستدرك علىٰ تتمة الأعلام).

وكذلك فعل فضيلة الشيخ أحمد ربيع أحمد السيد الأزهري في كتاب (موسوعة القطعاني)، و(صفحات مطوية من تاريخ الأزهر في عصر السيوطي)، و(قبل أن يأتي الغرب)، و(أصول الفقه تاريخه ورجاله)، و(معجم البابطين للشعراء العرب المعاصرين)، و(موسوعة أعلام القرن العشرين).

وكذلك فضيلة الشيخ محمد علوان في: (نزهة النظر، في تراجم رجال القرن الرابع عشر)، (إتحاف الأعزة، في تاريخ غزة)، و(المقال الموجز في مدينة أسيوط)، و(تاريخ الإصلاح في الأزهر)، و(الأعلام الشرقية، في المئة الرابعة عشرة الهجرية)، و(تراجم أعيان القرن الثالث عشر وأوائل الرابع عشر)، و(عصر إسماعيل)، و(من أخلاق العلماء)، و(نثر الثناء الحسن)، و(نثر الجواهر والدرر وذيله عقد الجوهر)، و(أعلام كتاب منارات ثقافية كويتية)، و(أعلام مقدمة كتاب منح الجليل)، و(تراجم المؤلفين التونسيين)، و(حكاية الصحافة المصرية)، و(حياة مجاور في الجامع الأحمدي)، و(عرف البشام، فيمن ولي فتوىٰ دمشق الشام)، و(رد هيئة كبار العلماء علىٰ كتاب الإسلام وأصول الحكم)، و(مجلة نور الإسلام)، و(من أدباء قنا الراحلين)، و(نيل الخيرات الملموسة، بزيارة أهل البيت والصالحين بمصر المحروسة)، و(الجواهر الحسان)، و(فهرس الفهارس والأثبات).

وكذلك فعل فضيلة الشيخ يوسف محمد سي سفاني ، فقد كان هو القائم علىٰ توزيع هذه الكتب علىٰ أولئك السادة الكرام ، وتنسيق أعمالهم ، كما أنه سبر كتاب (علماء دمشق وأعيانها في القرن الخامس عشر الهجري) لنزار أباظة ، فلهم جميعا خالص الشكر والتقدير والامتنان ؛ فإن الصدق مع النفس يوجب شكر الجميل من كل متفضل به .

وقد أعدت مراجعة عدد من هذه الكتب مرة ومرة ومرات ، لأنظر فيها بعين أخرىٰ ، فرب فائدة متعلقة بزاوية تشغل ذهني وليست في دائرة رصدهم واهتمامهم .

وإن كتابًا كـ(فهرس الفهارس والأثبات) قد أدمنت النظر فيه منذ نحو تسع عشرة سنة ، وقلبته وتدبرته ، وتأملت مداخله ومخارجه ، وطالعت أبحاثًا وكتابات نقدية تمحص بعض بحوثه ، ثم خرجت منه إلىٰ غيره من مؤلفات كاتبه ، المخطوطة والمطبوعة ، ورغم ذلك فلا بأس بأن يطالعه غيري لينظر من فيه من الأزهريين ؛ فإن هذا كله عائد بمزيد من الفائدة .

ورب كتاب من الكتب أعبر عليه ، وأنتهي منه ، ثم أحتاج منه إلىٰ الرجوع إليه بعد سنوات ، وتكون قد تفتحت عندي مسائل أو زوايا لم تكن قد خطرت لي عند المرور عليه لأول مرة ، فأعيد النظر فيه كاملًا مرة أخرىٰ ، ورب كتاب منها يكون في عدة أجزاء أو مجلدات ، لكن الصبر وحسن إدارة موارد المعرفة ، وحسن التوظيف لكل معلومة مهما بدت صغيرة أو عابرة من أهم أدوات من يتصدي للتأليف والكتابة .

وأذكر أيضًا بكل التقدير والعرفان والامتنان السيدين: وزيري الثقافة الكريمين: الأستاذ الدكتور جابر عصفور وزير الثقافة السابق ، والكاتب الأستاذ حلمي النمنم وزير الثقافة السابق ، حيث اعتنيا عناية كبيرة بفتح أبواب دار الكتب المصرية وذخائرها النفيسة ، وأصدر كلاهما توجيهه إلىٰ السادة الأجلاء الكرام مديري دار الكتب المصرية العامرة بتقديم العون والمساعدة ، وكان السيد الوزير حلمي النمنم لا يكاد يلقاني إلا بادر بالسؤال عن أخبار هذه الجمهرة ، وموعد إصدارها ، واستعداده لتقديم كل ما يمكن أن يعين علىٰ طباعتها ونشرها .

وأذكر بكل العرفان والتقدير السادة الكرام مديري دار الكتب المصرية العريقة: الأستاذ الدكتور شريف شاهين ، ثم الأستاذ الدكتور محمود الضبع ، ثم الأستاذ الدكتور أحمد الشوكي ، علىٰ ما أسبغوه من كرم وحفاوة بالغة ، وتسخير لكل الموارد المعرفية والكنوز والذخائر المحفوظة في دار الكتب المصرية الحافلة ، فإنني مُقِرٌّ لحضراتهم بالجميل ، وقد أفردوا لي قاعة خاصة في دار الكتب ، كنت أعكف فيها الساعات الطوال ، غارقًا في رحاب كرمهم وفضلهم .

وأخص بالشكر الجزيل الدكتور محمود عبد الحميد عبد الحليم عبد الحميد ، مدير النشر في دار

الكتب المصرية، والأستاذ الكريم: محمد عاطف جاد سليمان، فني المقتنيات بدار الكتب المصرية، علىٰ فضلهما وصبرهما واحتمالهما، فإني مدين لهما بالعرفان علىٰ ما بذلاه من جهد في إسعافي بما أطلبه من الكتب.

وأشكر كذلك صاحبة السعادة الدكتور سامية حسين رئيسة دار المحفوظات العريقة، علىٰ ما تفضلت به من إتاحة الاطلاع علىٰ وثائق كثيرة تتعلق بعلماء الأزهر من ذخائر دار المحفوظات وكنوزها النفيسة، وأشكر مدير الدار سعادة الأستاذ إبراهيم علي إسماعيل، وسائر فريق العمل الكريم في رحاب دار المحفوظات.

وكذلك سماحة العلامة الجليل المفتي الشيخ علي جمعة، عضو هيئة كبار العلماء ومفتي الديار المصرية سابقًا، فقد أتاح لي الانتفاع بمكتبته الحافلة بالدرر والنوادر من المطبوع والمخطوط، وفيها من نوادر الكتب ما لا يوجد في سواها، بل إن هذه المكتبة العامرة الحافلة لفضيلته من أكبر المكتبات الشخصية في العالم، وقد أتاحها فضيلته لي طوال السنوات الماضية، فله كامل العرفان والامتنان.

وأشكر كذلك صاحب السعادة الدكتور عباس الجراري مستشار صاحب الجلالة الملك محمد السادس، وسعادة الدكتور أحمد شوقي بنبين مدير الخزانة الملكية الحسنية علىٰ حفاوتهما وجميل سعيهما في إفادتي بكل ما تطاله اليد هناك في الخزانة الملكية العريقة الحافلة.

وكذلك صاحب السمو الملكي الأمير غازي بن محمد، حفظه الله وحرس مهجته، حيث حرص سموه علىٰ إمدادي بكل ما أطلبه من الكتب الصادرة في الأردن الشقيق، ومدير مكتبه سعادة لطفي بك عصفور، فلصاحب السمو خالص العرفان علىٰ الأيادي البيضاء المحبة للعلم والبحث.

وأخص بالعرفان أيضا الصديق الكريم الشيخ أحمد جمال علي محمود الأزهري، حيث إنه تجشم من التعب والمشقة فيما عهدت به إليه من أمور وتكليفاتٍ ما تجشم، وكنت أعهد إليه بكل صور هذه الجمهرة ووثائقها، فكنت أرسل إليه كل صورة أو وثيقة أظفر بها، فكان هو الأمين عندي علىٰ تلك الثروة من الوثائق، وعلىٰ ترتيبها علىٰ السنوات، وعلىٰ تنظيف ما يحتاج منها إلىٰ التنظيف إلكترونيًّا، ثم ظل قائمًا علىٰ أعمال الصف والتنسيق والإعداد للطباعة، ثم تابع أيضًا الفريق القائم علىٰ صناعة مجلد الفهارس، وبذل في ذلك علىٰ مدىٰ سنوات جهدًا مبرورًا، يستحق كل الإشادة والعرفان.

وقد أخذت تلك الشذرات من إفادات من كاتبتهم وغيرهم، ومن بطون الكتب المطبوعة والمخطوطة، ومن أفواه الرجال، فاستقيتها من كل ذلك مبعثرة متفرقة متناثرة، وأوردتها هنا مجموعة

مؤتلفة، مهذبة منقحة، محررة منسقة، كالنهر العظيم يكون في أول أمره قطرات من الغيث متفرقة، ثم إذا اجتمعت صارت نهرًا هادرًا يتدفق بالحياة.

فذكرني هذا بقول حافظ الديار المصرية ومحدثها الإمام عبد الغني بن سعيد الأزدي: (ابتدأت بعمل كتاب «المؤتلف والمختلف»، وقدم علينا أبو الحسن الدارقطني، فأخذت عنه أشياء كثيرة، فلما فرغت من تصنيفه سألني أن أقرأه عليه، ليسمعه مني، فقلت له: عنك أخذت أكثره، فقال لي: «لا تقل هكذا، فإنك أخذته عني متفرقًا وقد أوردته مجموعًا، وفيه أشياء كثيرة أخذتها عن شيوخك»، فقرأته عليه، أو كما قال)[1].

وقد انصَهَرَتْ وامتزجتْ كل تلك الشذرات في عقلي، وتَرَكْتُ روحي تتشبع بها، على حد قول ابن المقفع: (شربتُ الخطب رِيًّا، ولم أضبط لها رَوِيًّا، فغَاضَتْ ثم فَاضَتْ، فلا هي هي نظامًا، ولا هي غيرها كلاما)[2]، يقول: (لم أضبط لها رويًّا) أي لم أقف عند حدود عباراتها وألفاظها، ولكني (شربتها رِيًّا) أي ارتوت بها روحي، وتغلغلت في فؤادي، فـ(غاضت) أي ذَهَبَتْ عميقًا في أعماق وجداني، وهنالك تسلط عليها من حرارة الباطن وجريان الفكر تركيبًا ومزجًا وتنسيقًا ما نضجت به وتمازجت، ثم (فاضت) أي تدفقت معانيها على الخاطر بعد ذلك، فلا هي هي بعينها من حيث نظام العبارات وحروف الكلمات، وليست غيرها في الفحوى والجوهر، بل هي نابعة منها، وراجعة إليها.

وكذلك أصف حالي هنا فيما تسرَّب إلى الوعي، وتشربه الجنان، ولاح للعقل، وانجلى للخاطر، عند احتشاد كل أولئك الأعلام في خاطري، حتى ارتسم في النفس مشهد عميق من فهمهم، وفهم تكوينهم العلمي الدقيق، ومعرفة سمت نفوسهم وعقولهم، وطرائق تفكيرهم.

وقد تكبدت في سبيل ذلك ما لا سبيل إلى وصفه، فتذكرت ما قاله قبلي الأستاذ إلياس خورة في: (مرآة العصر): (ولولا إدخال بعض التراجم في بعض المؤلفات العمومية لكادت تراجم أعيان هذا الزمان تغيب عن الأذهان).

إلى أن قال: (متكبدًا في هذا السبيل من المشقات ما لا يدركه إلا من زاول مثل هذه الأعمال، وركب متن هذه الأشغال، وقد بذلت جهد المستطاع سعيًا وراء اقتباس الأخبار، واستمداد الحوادث، والتماس التراجم، معانيًا متاعب التنقل والأسفار إلى البنادر والقرى، حتى جمعت عددًا وافرًا من تراجم الأعيان والأخيار في هذا الكتاب)[3].

---

(١) التقييد، لمعرفة رواة السنن والمسانيد /٢/١٣٧/، ط: مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٢) سير أعلام النبلاء /٦/٢٠٩/، ط١١: مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

(٣) مرآة العصر، في تاريخ ورسوم أكابر الرجال بمصر /١/٦/، ط: المطبعة العمومية، مصر، سنة ١٨٩٧م.

والله - ﷻ - وحده يعلم ما كابدته في جمع ما تفرق من مادة هذا الكتاب، مما ذكرني بقول شيخ مشايخنا مسند الدنيا محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني: (التصنيف في الموضوع البعيد الأطراف، الذي (لا) يتناوله الوصف والإشراف، كوة صغيرة، يُطَلُّ منها على مخيلة المصنف، وأمد صبره، وانتهاء نبله، ومقدار اختياره، واستقلاله الفكري)(١).

وقد استهواني وراقني ما دبجه البحاثة الأستاذ المؤرخ نقولا يوسف سنة ١٩٥٦م، وهو يصف الصعوبات التي لقيها وهو يجمع مادة كتابه: (تاريخ دمياط)، حيث مضى على مدى مقالين كاملين يصف ما واجهه من مشقة في البحث، من اتساع تاريخ مدينة دمياط على مدى نحو ألفين أو ثلاثة آلاف عام، وتشعب الكتابات عنها في الكتابات التي تؤرخ للعصر البيزنطي والروماني والفرعوني والعربي.

فما ترك كتابًا عن جغرافية مصر القديمة إلا واجتهد في تلمس بصيص من الضوء فيه مهما كان خافتًا، ومشقة مقارنة الروايات والأخبار والحوادث والتواريخ والنوازل والشخصيات، ثم يذكر تردده إلى دار الكتب المصرية، ومكتبة بلدية الإسكندرية، وغيرهما من دور الكتب، إلى أن يختم بنصيحة سماها: (كلمة إلى مؤرخ الغد)(٢).

إلى غير ذلك من مظاهر المشقة التي تحتاج إلى صبر عجيب، فكنت أجد في كلماته من الأنس والسلوى ما يعينني على الصبر على جمع المادة الشديدة التشعب والبعثرة، مما يتعلق بالجامع الأزهر الشريف ورجاله.

ورأيته يقول في كلمته: (كلمة إلى مؤرخ الغد: ولكني أعود فأكرر القول إن هناك فجوات واسعة لم تعبر، وصفحات ضائعة لم تكشف).

إلى أن يقول: (أقول لمؤرخ الغد الذي سوف يضع عن دمياط مؤلفًا أعظم وأوفى: إن تاريخ هذه المدينة لا يبدأ من ذلك القرن السابع بعد الميلاد، وأنصح له أن يكون مكتشفًا لا مصنفًا فحسب، فقد يخدمه الزمن والتقدم والحضارة، وقد يساعده الحظ والمال أكثر مما خدم سابقيه).

ثم ينصحه بالاستعانة بالحفريات، والتنقيب في دور الكتب في الشرق والغرب، ومكتبات العواصم الأوربية خصوصًا مكتبتي الفاتيكان والمتحف البريطاني ومكتبتي باريس وبرلين(٣).

ولا تزال الهمة موفورة للتنقيب عن سيرة أي عَلَمٍ أزهري كريم قصد الأزهر لطلب العلم، وأمضى من

(١) التراتيب الإدارية /١/٦٥/، ط: دار البشائر الإسلامية، بيروت، سنة ١٤٣٢هـ - ٢٠١١م.

(٢) ومقاله في أخبار دمياط /عدد ٣١٨ السنة السابعة /ص٨/ الصادر بتاريخ الاثنين ٣٠ ذي القعدة سنة ١٣٧٥هـ الموافق ٩ يوليه سنة ١٩٥٦م، ومقال في العدد في الذي قبله. ومقال ثالث في العدد الذي بعده.

(٣) أخبار دمياط /عدد ٣٢٠ السنة السابعة /ص١١/ الصادر بتاريخ ٢٢ ذي الحجة، سنة ١٣٧٥هـ الموافق ٣٠ يوليو سنة ١٩٥٦م.

عمره مدة في تحمل منهج الفهم، وطريقة التفكير، واستكشاف مفاتيح العلم، وأدواته، ثم رجع من حيث جاء فأفاد وأسس ونفع، ثم مضىٰ إلىٰ ربه، وقد أنفق عمره الكريم في تحمل العلم وأدائه، ففي النفس ما فيها من الإجلال لأولئك الكرام، والحرص علىٰ الوفاء لهم.

وفي نهاية المطاف فإن هذه الجمهرة قد اشتملت علىٰ فوائد:

منها الغوص في العقلية الأزهرية، والكشف عن مكوناتها، ودوائر علومها، ومهارات صناعة العقول فيها.

ومن فوائد هذه الجمهرة بيان جانب من أثر أرض الكنانة مصر الطاهرة في شعوب العالم الإسلامي، وإظهار مفاتيح ريادة هذا البلد العظيم بموجب ما خصه الله به من المزايا، والتي منها هذا الأزهر الشريف، الذي هو سفير مصر في وجدان كل شعب وأمة من شعوب المسلمين ودولهم.

ومن فوائد هذه الجمهرة التي بين يديك أيضًا أنها تطلعك علىٰ نبذة من مؤلفات الأزهريين، والبحوث والمسائل التي كتبوا فيها، والنطاق المعرفي الواسع الذي تناولوه بالتأليف، والكتب والبحوث والرسائل التي اشتبكوا فيها مع واقع زمانهم، ورددوا النظر في نوازل أعصارهم في الفكر والفلسفة والفروع الفقهية والفتاوىٰ، وقد ألمح الأستاذ علي الجارم إلىٰ هذا المعنىٰ في قصيدته العصماء عن مصر، حيث قال:

(نَبَعَ النورُ بالنبوةِ فيها ... فطوىٰ صفحةَ الليالي السُّودِ
ومضىٰ يملأ الممالكَ عدلا ... بَاسِمَ الوعد مُكْفَهِرَّ الوعيدِ
أطلق العقلَ من سلاسله الدُّهْمِ ... ونَحَّاهُ عن صليل القيودِ
بَلَغَتْ مصرُ في التآليف أَوْجًا ... فاتَ طَوْقَ المنىٰ بمرمًىٰ بعيدِ
فاسأل الفاطميَّ كم من كتابٍ ... زان تاريخَه وسِفْرٍ فريدِ)[1].

والفاطميُّ هو الجامع الأزهر الشريف المعمور، وهو يشير إلىٰ كثرة التآليف والأسفار التي زينت تاريخه وجرت علىٰ يد علمائه، وقد قال الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين: (أما الأزهر فله الشهرة في الشرق والغرب، لأن دائرة التعليم فيه أوسع، وطلاب العلم يؤمونه من كل ناحية، والمكاتب عامة أو خاصة لا تكاد تخلو من مؤلفات علمائه)[2].

وكان الشيخ أبو الوفا المراغي يقول عن كتابه: (المعجم الأصغر، لعلماء الجامع الأزهر): (وإن هذا المعجم سجلٌّ حافلٌ لأمجاد الأزهريين في خدمة العلم، ودليلٌ حيٌّ علىٰ فضلهم في ميدان التأليف، يفحم

(١) ديوان علي الجارم /ص٢٧/.
(٢) تونس وجامع الزيتونة /ص١٦/، ط: (د ن)، سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

من استطالت ألسنتهم بالجحود والنكران، لفضل علماء الأزهر في هذا الميدان)[1].

وأقول: نعم، وقد جاء كتابه كما أمّل وزيادة، وكان اعتماده ﷺ علىٰ ما هو تحت يده بالفعل من مؤلفات الأزهريين المخطوطة والمطبوعة، أيام عمله في إدارة مكتبة الأزهر، لكن في كتابي هذا زيادة وإضافات كثيرة، نظرًا لذكر عدد من المترجمين من أبناء الأقطار الأخرىٰ، ممن جمعت تواريخ بلدانهم قدر وسعي.

لكن يبقىٰ من التقصير عندي عدم التمكن من الإحالة إلىٰ مواضع وجود كل مخطوط أو كتاب ذكرت اسمه هنا في خزائن المخطوطات في العالم، ولم أتمكن من مجاراة الزركلي في ذلك، في صنيعه المهم في كتاب (الأعلام)، حيث أفاد القراء والمطالعين كثيرًا بأمثال هذه الإحالات، نظرًا لاعتماده علىٰ فهارس كثيرة لخزائن المخطوطات حول العالم، ونظرًا لطول الزمن الذي أنضج فيه كتابه الأعلام علىٰ مدىٰ أربعين سنة، ونظرًا لوجود شبكة علاقات واسعة ربطت بينه وبين عدد من أمناء تلك المكتبات والخزائن، لكن أول الغيث قطرة، ولعل الله ﷻ أن يعين في طبعات لاحقة لهذه الجمهرة بإفادات وإضافات ذات بال، تزيد الكتاب ثراءً ونفعًا.

---

(١) المعجم الأصغر، لعلماء الجامع الأزهر /١/ص: ب/، مخطوط، تحت يدي مصورة منه.

إِضَاءَةٌ

في تاريخ المدارس العلمية في الإسلام وأن الأزهرَ هو تاجُ تلك المدارس

والأزهرُ في حقيقته هو المدرسة الكبرىٰ، التي تفرَّدتْ من بين مدارس الإسلام بمزايا وخصائصَ لم توجدْ لغيرها، فهو المؤسسة الأم، الصانعة للعلماء في مصر والعالم الإسلامي، علىٰ مدىٰ قرون، قال الدكتور عاصم الدسوقي: (وتأسيسًا علىٰ هذا فإنَّ الجامع الأزهر يُعَدُّ تاريخيًّا المؤسسةَ الأمَّ للعلماء)[١].

وأقول: إن هذا المفهوم مهمٌّ، حيث إن المدرسة الأمَّ هي التي تتفرد بحمل أعباء التعليم، وتنجح في اجتذاب العلماء الأَكْفَاء النوادر، ونوابغ الطلبة، وتنجح طرق التدريس فيها في صناعة علماء ذوي مقدرة معرفية ومجتمعية عالية، وتنشأ المدارس الفرعية هنا وهناك فتقتبس مناهجها التعليمية، وتنسج علىٰ منوال طرق التدريس فيها، ويَطَّلِعُ علىٰ نِتَاجها كبار علماء المدارس المناظِرة فيقرون لهذه المدرسة بأنها تسبق بخطوات، فأيما مدرسة استجمعت هذه المعاني فهي المدرسة الأم، والأزهر الشريف نموذج متقدم وسابق ومُسْتوفٍ في كل تلك الصفات.

وقد قال العلامة الشيخ عيسىٰ منون: (الجامع الأزهر هو المدرسة الدينية الكبرىٰ، والجامعة العلمية العظمىٰ، ليس له نظيرٌ ولا مثيلٌ في سائر البلاد.

خدم كتاب الله الكريم، وسنة نبيه سيد المرسلين ﷺ، وحافظ علىٰ الشريعة الإسلامية وعلومها، وعلىٰ اللغة العربية وفنونها، وغيرها من العلوم العقلية والرياضية منذ أكثر من ألف سنة، وهو في جميع عصوره كالبحر الخضم يموج بالعلماء والطلاب، يعلمون ويتعلمون، وينشرون الدين بين العالم، ويحرسونه من عبث العابثين وإلحاد الملحدين.

ولم يَخْلُ عصرٌ من عصوره من وجود فطاحل من العلماء، أتمّوا الدراسات لجميع العلوم، وأحاطوا بدقائقها، ووقفوا علىٰ خفاياها، إليهم المرجع في حل المشكلات، وتبيين المعضلات)[٢].

ثم إنَّ المدارسَ الكبرىٰ في الإسلام لا تكاد تنحصر، وقد عَمُرتْ كلُّ مدرسةٍ منها زمنًا طويلًا،

(١) مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٨٩٥ ـ ١٩٦١ /ص١٠/، ط: دار الثقافة الجديدة، القاهرة، سنة ١٩٨٠م.
(٢) حياة علم من أعلام الإسلام: الشيخ عيسىٰ منون /ص٤٢/.

نهضت فيه بأعباء الصناعة العلمية، وتداعىٰ إليها العلماءُ وطلاب العلم، وتحدَّرتْ فيها ينابيعُ العلمِ مدةً، ثم زال عنها ذلك كله، وتحول عنها إلىٰ غيرها من المدارس.

وكانت مدارسُ العلم علىٰ تمام الإحكام، والرعاية والاستحكام، في مدينة السلام بغداد، عاصمة الخلافة، بل عاصمة الدنيا حينئذ، حتىٰ قال العلامة الشيخ عبد الملك بن الحسين العصامي الشافعي في: (سمط النجوم العوالي): (وكانت مدارسُ بغداد يُضْرَبُ بها المثل، في ارتفاع العِماد، وإتقان المهاد، وطيب الماء، ولُطْفِ الهواء، ورفاهية الطلاب، وسعة الطعام والشراب)[1].

وأقول: انظر معي هنا إلىٰ وصفه الدقيق للأمور التي كان يتم توفيرها وحشدها حول صناعة العلم والتعليم، حتىٰ يتخرج منها الطالب عالِمًا متكامل المعرفة، صحيح الموهبة، فقد كان يُراعىٰ في المبنىٰ المخصص لعملية التعليم معايير محددة، ومواصفات خاصة، تحقق جودة عملية التعليم:

منها: ارتفاع عماد المبنىٰ، مما يدل علىٰ اتساعه ورحابته، وإحكام معماره الهندسي، وعلو أسقفه، مما يجعل النظر لا يتخبط في حجرات ضيقة تطبق علىٰ أنفاس طالب العلم فتظلم نفسه وروحه.

ومنها: إتقانُ مهادِه، أي تسوية أرضه، وبسط فرشه، وحسن رصفها، بإتقان يثير العجب، ويدع في النفس أثرًا عميقًا من الثبات.

ومنها: طيبُ الماء وعذوبته، أي توفير المشارب والأطعمة، العذبة، الرائقة، مما يكشف عن تحريهم كل وجوه ارتياح خاطر طالب العلم ليتفرغ للإبداع.

ومنها أيضًا: لطف الهواء باتساع أرجائه، مما يدل علىٰ دقة نسبه الهندسية والتوزيع المحسوب بإتقان للممرات والأجنحة والحجرات وقاعات الدرس، مما يضمن توزيع الإضاءة وسريان الهواء لكي يمر في جنباته نسيمًا عليلًا.

حتىٰ بلغ أنهم كانوا يراعون أمرًا في غاية العجب، وهو: رفاهية الطلاب، واستجمام خواطرهم وأذهانهم كلما أرهقها التحصيل العلمي الجاد، فليس الأمر مجرد حشد للطلاب في بيئة ضيقة ومتعثرة، بل المدار في إحكام عملية التعليم علىٰ نقل الطلاب إلىٰ حالة رفاهية تريح خاطرهم، مصحوبة بالجد وإدراك المقصد، وأن هذا المقصد هو الانصراف بالكلية إلىٰ العلم، وجمع الهمة والخاطر عليه دون تشويش.

وفي النهاية يأتي الاتساع في الطعام والشراب، وليس مجرد الاقتصار علىٰ مأكلٍ جافٍّ أو طعامٍ غليظ، بل ينظرون لهم الأزكىٰ طعامًا فيأتونهم برزق منه.

(١) سمط النجوم العوالي، في أنباء الأوائل والتوالي /٣/٥١٥/، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤١٩هـ - ١٩٩٨م، تحقيق: عادل أحمد عبد الموجود، وعلي محمد معوض.

كل ذلك وهو لم يتكلم بعد عن الأمور العلمية البحتة، فإذا كانوا يحشدون لعملية التعليم أمثال هذه المُدْخلات والمتطلبات.

فكيف يكون التحري في اختيار الأساتذة الخبراء، ذوي الصيت العلمي الرفيع، والمواهب العلمية الفائقة، في أي بقعة من الأرض كانوا، ومهما بلغت تكلفة أجورهم وسفرهم ومعيشتهم ومتطلباتهم.

وكيف يكون انتقاء أكفأ الطلاب وأشدهم نبوغًا وسطوعًا وتوهجًا وتألقًا، وكيف يكون توفير المكتبات وأدوات التعليم، إنها معايير جودة التعليم في أرقىٰ صورها.

ومن وراء كل تلك الإجراءات وعي عميق بما كفله هذا الشرع الشريف من شدة أهمية إكرام طالب العلم والحفاوة به، وبسط الوجه له، والنهوض بإكرامه، وبذل المعارف والمكرمات له، وتنوير عقله، وإكرام غربته.

وينكشف لك من ذلك كله أن عملية التعليم إذا شهدت نقيض ما سبق من الأبنية القبيحة المتهالكة، الكاتمة للأنفاس والعقول، والتكدس الخانق للطلاب، وانعدام الخدمات المرافقة التي ترتقي بعقل الطالب ونظره وذهنه، وساء اختيار الأساتذة فتحولوا إلىٰ مصادر نقمة وتدمير لأذواق الطلاب وآدابهم وعقولهم، وينضحون علىٰ الطلاب يأسًا وإحباطًا وشراسة خُلُق، فإن عملية التعليم تخفق إخفاقًا لا مزيد عليه.

وقد تكاثرتْ وتضافرتْ الوقفياتُ علىٰ طلاب الأزهر لضمان تحقيق كفايتهم وتفرغهم لطلب العلم، فكانت عندنا الوقفيات العظيمة الكبيرة في ربوع القطر المصري، التي كانت توقف علىٰ الأزهر وأروقته، مما كان ينهض بشئون الإنفاق علىٰ الطلاب، ويمثل في مجمله ومجموعه شريان الحياة لحركة العلم ومرافقها ومتطلباتها.

ولم يزل الأثرياء والأغنياء والأمراء يحبسون الأموال والأوقاف علىٰ هذا الغرض، إلىٰ أن وصل الأمر إلىٰ أصحاب الأموال في مختلف ربوع القطر المصري، ممن كانوا يتمنون المشاركة في دعم نشاط العلم في الأزهر، فحبسوا بعض الأوقاف علىٰ من لعله قد فاتته شروط الواقفين، فرأيتُ أثناء المطالعة خبرًا عن وقفيةٍ في عمق الصعيد في مدينة دشنا، وقد وقفته الست نفيسة بنت عبد الغني - ﷺ - علىٰ الفقراء والمساكين من طلاب الأزهر برواق الصعايدة بالجامع الأزهر، وكان ناظر الوقف هو الشيخ خليفة محمود عبد الله، وكان من شرط الواقف تقديم الأحوج فالأحوج من طلبة العلم، ورفع النظر في ربع سنتي ١٩١٠م و١٩١١م إلىٰ المجلس الأعلىٰ للأزهر، فقرر صرفه بتطبيق شروط الواقف(١).

(١) في جلسة مجلس الأزهر الأعلىٰ المنعقدة بتاريخ السبت ١٥ جمادىٰ الثانية، سنة ١٣٣٠هـ، الموافق أول يونية، سنة ١٩١٢م، وانظر: مجلس الأزهر الأعلىٰ: مجموعة محاضر وقرارات المجلس المشكل بمقتضىٰ قانون الجامع الأزهر /١/١١٠/، ط: مطبعة الإصلاح، القاهرة، سنة ١٣٣٠هـ.

ومن بين مدارس بغداد كانت المدرسة المستنصرية ـ علىٰ وجه الخصوص ـ درة تلك المدارس وغرتها وشامتها، بل كانت علامةً فارقةً في تاريخ المدارس العلمية في الإسلام، فقد أسسها الخليفة المستنصر بالله، فعمرها واعتنىٰ بها، وتخير موقعها، وحبَس لها الأوقاف العظيمة، والميزانية الوافية، وعدَّد فيها الفنون والعلوم، وجمع لها الكتب النادرة، وبالغ في الحفاوة بها، حتىٰ قال ابن تغري بردي في: (مورد اللطافة): (والمستنصر هذا هو باني المدرسة المستنصرية ببغداد، التي لم يُبْنَ في الإسلام مثلها، في كثرة أوقافها، وكثرة ما جعل فيها من الكتب)[1].

وقد أكثر الخليفة المستنصر ـ ﷺ ـ من أوقافها، واتخذ لها خِططًا علمية سابقة، لم تُعْهَدْ في مدرسة من مدارس العلم في الإسلام قبله، حتىٰ قال الدكتور ناجي معروف في: (تاريخ علماء المستنصرية): (لعل أعظم جامعة علمية كانت ببغداد في أواخر الدولة العباسية، وفي أثناء حكم المغول، هي: المدرسة المستنصرية.

وهي أول جامعة في العالم الإسلامي عنيت بدراسة علوم القرآن، والسنة النبوية، والمذاهب الفقهية، وعلوم العربية، والرياضيات، وقسمة الفرائض والتركات، ومنافع الحيوان، وعلم الطب، وحفظ قوام الصحة، وتقويم الأبدان، في آن واحد.

كما أنها أول جامعة إسلامية جمعت فيها الدراسات الفقهية علىٰ المذاهب الإسلامية الأربعة: الحنفي، والشافعي، والحنبلي، والمالكي، في بناية واحدة، هي مدرسة الفقه)[2].

كما كان من أسباب عمارتها وازدهارها أن الخليفة المستنصر ﷺ كان يسبغ عليها رعايته، ويوليها عنايته، حتىٰ لقد أسس لنفسه شرفة يباشر منها الدروس ويستمعها، قال الحافظ الذهبي في: (سير أعلام النبلاء): (وكان للمستنصر منظرة يجلس فيها، يسمع دروس المستنصرية)[3].

والمتتبع لإحصاء ما وقف عليها، ومقدار ما كانت تدره تلك الأوقاف يجد أمرًا عجبًا مذهلًا، قال الذهبي في: (تاريخ الإسلام): (قلت: رأيت نسخةَ كتابِ وقفها، في خمسة كراريس، والوقف عليها عدة رباع وحوانيت ببغداد، وعدة قرىً كبار وصغار، ما قيمته تسع مئة ألف دينار فيما يخال إلي، ولا أعلم وقفًا في الدنيا يقارب وقفها أصلا، سوىٰ أوقاف جامع دمشق، وقد يكون وقفها أوسع)[4].

(١) مورد اللطافة، فيمن ولي السلطنة والخلافة /١/٢٣١/، ط: دار الكتب والوثائق المصرية، القاهرة، سنة ١٩٩٧م، تحقيق: نبيل محمد عبد العزيز أحمد.

(٢) تاريخ علماء المستنصرية /١/٢٥/، ط٣: الشعب، القاهرة، سنة ١٣٩٦هـ ـ ١٩٧٦م.

(٣) سير أعلام النبلاء /٢٣/١٦٧/،

(٤) تاريخ الإسلام /٤٦/٧/، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٧هـ ـ ١٩٨٧م.

ثم أطال الحافظُ الذهبيُّ في ذكر أسماء القرى التي وقفت على تلك المدرسة، ورغم ما ذكره من سعة أوقافها، والمقدار العظيم الذي تدره من الأموال الطائلة، مما هو مسخر لخدمة المدرسة وما يجري فيها من حركة علمية، فإن عدد من كان ينزل بها من العلماء والطلاب لا يجاوز الخمس مئة، حتى وصف الذهبي من ينتفعون بهذه الأوقاف فقال: (نحو من خمس مئة نفس، المدرسون فمن دونهم، وبلغني أن تبن الوقف يكفي الجماعة، ويبقى مغل هذه القرى، مع كري الرباع فضلة، فكذا فليكن البر، وإلا فلا).

ولأجل هذه العناصر التي اجتمعتْ لتلك المدرسة العظيمة، فقد صارت حَدَثًا فارقًا في تاريخ العلوم في أمة الإسلام، وتحولت إلى أُنموذجٍ يحُتذى، بحيث إنها أثَّرتْ بمعمارها، وهيئة خدمتها للعلم، وجمعها للمناهج الدراسية العلمية المتعددة، فصار كل من نهض لعمارة مدرسة في المشرق أو المغرب، فإنه ينسج على منوالها، وقد أثَّرت بهذا في حركة العلم أيما تأثير.

قال الدكتور ناجي معروف: (وعُدَّت المستنصرية قدوةً لمؤسسي المدارس من الرجال والنساء، في العراق، ومصر، والشام، والحجاز، حيث شرعوا يبنون مدارسهم على صفتها، من حيث الدراسة على المذاهب الأربعة، وربما بنوها على غرارها أيضا، من حيث هندسة البناء، واحتواؤها على أربعة أواوين، للمدرسين الأربعة، أو على دروس للطب، والتفسير، والحديث، وعلى مخازن ودور للكتب، وعلى بقية المرافق الأخرى)[١].

وقال اليافعي في (مرآة الجنان): (وفيها تكامل بناء المستنصرية ببغداد، على المذاهب الأربعة، قال بعضهم: «ولا نظير لها في الدنيا فيما أعلم»، قلت لو تمت بعد نيف وسبع مئة وستين مدرسة السلطان حسن ابن السلطان ملك الناصر محمد بن قلاوان في الديار المصرية ما كان مثلها من الدنيا، لا المستنصرية ولا غيرها، فيما شاع عن الجم الغفير، والعلم عند الله العليم الخبير)[٢].

وقد تداعى ذلك بالتدريج، في الوقت الذي استمرت فيه عمارة مدارس العلم في القاهرة على حالها، فقال الذهبي في: (تاريخ الإسلام): (بلغ ارتفاع وقوف المستنصرية في بعض الأعوام نيفًا وسبعين ألف مثقال، وتليها في الكبر وكثرة الريع: «المنصورية» بالقاهرة، وبها ضريح السلطان، في قبة عظيمة، وبها دار جملة القرى الموقوفة على المدرسة المستنصرية ما مساحته مئة ألف جريب وخمسون ألف جريب سوى الخانات والرباع وغير ذلك، ويقرب من وقفها وقوف جامع دمشق، وهي أكثر منه وقوفا، لكن اليوم ما يدخل المستنصرية عشر ذلك، بل أقل بكثير)[٣].

---

(١) تاريخ علماء المستنصرية /١/٣٠/.
(٢) مرآة الجنان /٤/٧٣/، ط: دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.
(٣) تاريخ الإسلام /٤٦/٤٥٦/.

وقد أضيف إلىٰ ذلك كله أنَّ سنة الله تعالىٰ جرتْ فيها، فاستبحر فيها العلم عمرًا طويلًا، ثم دالت دولتها، وتحولت راية العلم منها إلىٰ غيرها من الديار، وخصوصًا الديار المصرية.

قال الدكتور ناجي معروف: (وقد ظل التدريس قائما بالمستنصرية أربعة قرون، منذ افتتاحها سنة ٦٣١هـ، حتىٰ سنة ١٠٤٨هـ، عدا فترتين من الزمن، الأولىٰ قصيرة جدًا، وكانت في أثناء الاحتلال المغولي لبغداد، سنة ٦٥٦هـ، حيث تعطلت المدارس والربط والمساجد.

والثانية طويلة جدا، وتبدأ من احتلال الجيوش اللنكية لبغداد، بقيادة تيمورلنك، وكانت قد احتلتها مرتين، في السنتين ٧٩٥هـ، و٨٠٣هـ.

حيث لم نسمع ذكرًا للمستنصرية نحو قرنين من الزمان، وذلك أن أخبارها تكاد تنقطع انقطاعًا تامًا، منذ أواخر القرن الثامن الهجري، إلا ما ورد عنها من معلومات يسيرة جدًا، في بعض المؤلفات المصرية، وذلك بعد أن نزح إلىٰ مصر بعض علمائها، كالمحب بن نصر الله الحنبلي، المعيد بالمستنصرية، فقد قطن القاهرة، سنة ٧٨٧هـ، وأصبح شيخ الحنابلة فيها، ومفتي الديار المصرية)[(١)].

وانظر هنا في الزمان المتأخر وصفًا مهمًا لمدرسة المستنصرية وأبنيتها وأحوالها، في سنة ١٣٢٤هـ، للأستاذ محمد كرد علي، في مقال ماتع له نشره في مجلته (المقتبس)، وختمه بقصيدة عصماء في رثاء مدرسة المستنصرية وذكر تاريخها العلمي المجيد[(٢)].

فكانت تلك الأحداث الجسام، والكوائن العظام، التي دهمت دار الخلافة، باعثًا طاردًا للعلماء للتفرق في أرجاء أمة الإسلام، حتىٰ أوىٰ كثير منهم إلىٰ قاهرة المعز صانها الله، ولذا جاء في الموسوعة الإسلامية الميسرة، الصادرة عن الأكاديمية الهولندية الملكية: (ومن هذه الفترة يبدأ ازدهار الأزهر كجامع، ومعهدٍ للعلم، وبخلاف الاهتمام الذي أغدق عليه في مصر، استفاد الأزهر فضلًا عن هذا من حقيقة أن أعمال التدمير التي ارتكبها التتار في الشرق، أو انحلال الإسلام في الغرب، حطم أو أضعف شأن الكثير من المدارس المزدهرة قديمًا)[(٣)].

وقال الدكتور ميلاد حنا في كتاب: (الأعمدة السبعة للشخصية المصرية): (وتحولت القاهرة لتكون

(١) تاريخ علماء المستنصرية /١/٣٣/، وانظر أيضا في تاريخ المدرسة المستنصرية مقالًا نفيسًا للعلامة محمد راغب الطباخ في: مقالات العلامة المؤرخ المحدث محمد راغب الطباخ وبحوثه في التاريخ والتراث والأدب والتراجم ومقدمات الكتب التي حققها /١/١٦٧/.

(٢) مجلة المقتبس /ص٥٧١/، العدد الصادر بتاريخ غرة ذي القعدة، سنة ١٣٢٤هـ.

(٣) الموسوعة الإسلامية الميسرة /١/٦٦/، أشرف علىٰ تحريرها نيابة عن الأكاديمية الهولندية الملكية هـ. ا. ر. جب، وج. هـ. كالمرز، ترجمة راشد البراوي، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠١٣م.

أقوىٰ مقرات الخلافات الثلاث، من خلال حركة ثقافية مزدهرة، بإنشاء كلٍّ من الجامع الأزهر، ودار الحكمة، وأصبح الجامع الأزهر منذ تلك الحقبة وإلىٰ الآن مصدر معرفةٍ وفكرٍ وفقه.

وأتصور أن هناك تشابهًا في الزخم الثقافي في هذه الفترة يناظر ما تمتعت به مصر في القرون الأولىٰ للمسيحية، عندما كانت مدرسة اللاهوت بالإسكندرية هي مصدر المعرفة.

وكانت مكتبة الإسكندرية هي المرجع لكل ما يكتب، لأنه بنفس الطريقة تحول الأزهر ليكون قبلة العلماء وطلاب العلم والمعرفة في كافة أمور الدين والدنيا، من كل الأقطار، دون تفرقة في الجنس، أو اللغة، أو الطبقة.

وقدَّم الأزهر عبر العصور إسهامًا حضاريًّا يرتكز علىٰ العقلانية، والتوجهات المنطقية المتطورة المتقدمة عما حولها بمقاييس ذلك الزمن، فما بال قوم ينكرون علىٰ مصر حقها في أن تفاخر بأنها حمت العقل الإنساني مرتين: حين آوت فلسفة اليونان وحضارته أكثر من عشرة قرون، وحمتها حين آوت الحضارة الإسلامية، وحمتها إلىٰ هذا العصر الحديث)[١].

وقالت الدكتوره سعاد ماهر ﷺ في: (مساجد مصر وأولياؤها الصالحون): (وقد غدا الأزهر منذ أواخر القرن السابع ـ أي منذ عفت معاهد بغداد وقرطبة ـ كعبة الأساتذة والطلاب من سائر أنحاء العالم الإسلامي عامة)[٢].

وازداد الصيتُ العلميُّ للأزهر الشريف علىٰ مرور الأيام، حتىٰ تعلقت به الهمم، واستقرَّ النبأ البرَّاق والأخَّاذ له في قلوب العلماء، ولم يقتصر هذا الشأن علىٰ الراحلين إليه من طلاب العلم، بل صار متمكنًا من أفئدة الصالحين وأهل العلم حتىٰ في اجتيازهم العابر للديار المصرية في طريقهم إلىٰ الحرمين.

قال مؤرخ الجزائر العلامة المهدي البوعبدلي: (ولكن سمعة الأزهر وشهرته جعلت معظم العلماء الوافدين علىٰ مصر في طريقهم إلىٰ الحج يقصدونه، ويعقدون فيه حلقات دروسهم، ولم يرضوا برحابه بديلًا)[٣].

---

(١) الأعمدة السبعة للشخصية المصرية /ص١٠٥/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠١٣م.

(٢) مساجد مصر وأولياؤها الصالحون /١٦٩/١/، ط: المجلس الأعلىٰ للشؤون الإسلامية، القاهرة، مصر، سنة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

(٣) علاقات الجامع الأزهر بالجزائر بمناسبة عيده الألفي /ص٥٦/، ضمن: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، ط: عالم المعرفة، الجزائر، سنة ٢٠١٣م.

إِضَاءَةٌ

في بدايات طَفْرةِ حركة المدارس العلمية في مصر، وكيف أنها بادت واندثرت جميعا، وبقي الأزهر

وقد واكب ذلك أن ألقىٰ الله تعالىٰ في قلوب أمراء بني أيوب في مصر أمرًا عجبًا، كان له أعظم الأثر في نهوض الحركة العلمية في مصر نهوضًا فائقًا.

وذلك الأمر هو الذي رصده العلامة ابن خلدون ﷺ فقال في: (المقدمة): (ونحن لهذا العهد نرىٰ أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أنَّ عمرانَها مستبحرٌ، وحضارتها مستحكمةٌ منذ آلاف السنين.

فاستحكمتْ فيها الصنائع وتفننت، ومن جملتها تعليمُ العلم، وأكَّدَ فيها ذلك وحفظه ما وقع لهذه العصور بها، منذ مئتين من السنين في دولة الترك، من أيام صلاح الدين بن أيوب وهلم جرًّا.

وذلك أن أمراء الترك في دولتهم يخشون عادية سلطانهم علىٰ ذريتهم، لما له عليهم من الرق أو الولاء، ولما يخشىٰ من معاطب الملك ونكباته، فاستكثروا من بناء المدارس والزوايا والربط، ووقفوا عليها الأوقاف المغلة، يجعلون فيها شركًا لولدهم، ينظر عليها أو يصيب فيها، مع ما فيهم غالبًا من الجنوح إلىٰ الخير والصلاح، والتماس الأجور في المقاصد والأفعال.

فكثرت الأوقاف لذلك، وعظمت الغلات والفوائد، وكثر طالب العلم ومعلمه بكثرة جرايتهم منها، وارتحل إليها الناس في طلب العلم من العراق والمغرب، ونفقت بها أسواق العلوم، وزخرت بحارها، والله يخلق ما يشاء)(١).

قلت: فكان من ثمرة هذا أن كثرتْ المدارسُ في مصرَ كثرةً فائقةً، لِمَا وقعَ من تنافس الأمراء علىٰ حَبْسِ الأوقاف علىٰ مدارس العلم، حتىٰ قال العلامة القلقشنديُّ في: (صبح الأعشىٰ): (وفي خلال ذلك ابتنىٰ أكابر الأمراء وغيرهم من المدارس ما ملأ الأخطاط وشحنها)(٢).

---

(١) مقدمة ابن خلدون /ص٥٢٤/، ط: دار القلم، بيروت، سنة ١٩٨٤م.

(٢) صبح الأعشىٰ، في صناعة الإنشا /٣٦٤/٣/، ط: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، سنة ١٩٦٣م.

يريد أنَّ الخِطَطَ والنواحي والضواحي قد عمرت بالمدارس المزدهرة، العاكفة على التعليم، والتي تصنع العقول، وتبني الرجال، وتوسع الآفاق، وآثار ذلك على البلاد والمجتمعات والشعوب بالغة الأهمية.

ولم يكن هذا الشأن العلمي المستفيض بمقصورٍ على القاهرة وحدها، بل سرى إلى عددٍ من مدن مصر، عمرت فيها المدارس العلمية، حتى بلغ من استفاضة ذلك ما وصفه الأدفوي في القرن الثامن الهجري فقال في: (الطالع السعيد): (وبقوص ستة عشر مكانًا للتدريس، وبأسوان ثلاثة مواضع، وبأسنا مدرستان، وبالأقصر مدرسة، وبأرمنت مدرسة، وبقنا مدرستان، وبـ«هو» مدرسة، وبقمولا مدرسة، الجملة ثمانية وعشرون موضعًا)[(١)].

وقد نقل ذلك الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدردير في تكملته على (الطالع السعيد)، ثم قال: (هذا ما كان في عصر الكمال في القرن السابع وأوائل الثامن الهجري، وأما ما بعده فقد انتشرت مدارس العلم في كثير من مدن الصعيد، وغصت البلاد بالعلماء، حتى أصبحت تضارع وتسامي الأزهر الشريف بالقاهرة، وذلك مثل مدينة «جرجا»، ومدينة «طهطا»، ومدينة «أسيوط»، وبلدة «بلصفورة»، وغيرها من المدن والقرى، وقد آتت هذه المدارس ثمارها، وظهر من أبناء الصعيد وطنيون وزعماء مخلصون)[(٢)].

فكلامُ الأدفويِّ ـ في حقيقته ـ مرصدٌ مهمٌ لعددٍ من المدارس الواقعة في الصعيد الأعلى[(٣)]، من قنا إلى أسوان، في القرن الثامن الهجري فما قبل، وكلام الشيخ عبد العزيز الدردير متمم له.

وبجوار ذلك تعددت المدارس العلمية في أسيوط أيضًا قبل قرون، حتى قال الحافظ السخاوي في (الضوء اللامع) وهو يتكلم عن أحد الأعلام: (لكنَّه ولي بعد سنة خمس وثلاثين تدريس مدارس بأسيوط، وهي: الشريفية، والفائزية، والبدرية الخضيرية ونظرها، فلم يتم له ذلك)[(٤)]، فأين أخبارُ تلك المدارس العلمية الكائنة في قنا وأسوان وأسيوط، ومن هم شيوخها وخريجوها، وكم كان عددهم، وما هي أطوارها، وما هو وصف حركة العلم وصناعة العقول التي جرت فيها وتمت في رحابها، كلها شئون مجهولة، وصفحات مطوية من تاريخ العلم في مصر العظيمة.

وللدكتور عبد الجواد صابر إسماعيل بحثٌ لطيفٌ حول علاقة رجال الأزهر بمدارس الأقاليم، فأشار إلى مشيخة العلم في جرجا، وجامع السيد إبراهيم الدسوقي، ومراكز العلم في طنطا، ودمياط، ورشيد،

---

(١) الطالع السعيد، الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد /ص١٩/.

(٢) قلائد الجيد، في تراجم علماء الصعيد /١/١٢/.

(٣) يبدأ الصعيد من الجيزة شمالا، ثم يمتد ويسترسل إلى الجنوب، وما كان قريبا من الجيزة فهو الصعيد الأدنى، ثم أواسطه هي الصعيد الأوسط، ثم الصعيد الأعلى في أقاصيه في أقصى الجنوب، خلافًا لما يتوهمه من ينظر اليوم في الخرائط أن الصعيد الأعلى هو الأقرب للقاهرة.

(٤) الضوء اللامع /٧/١٧٨/، ط: منشورات مكتبة الحياة، بيروت، لبنان.

وجامع السيد أحمد البدوي في طنطا، وذكر أسماء عدد من المدارس الموجودة في تلك المدن(١).

وقد عمرت المدارس العلمية الكبرىٰ في القاهرة من ثم، واستفاض العلم فيها، وكثر المشتغلون المنقطعون للعلوم، مع توفر متطلبات تلك الصناعة العلمية الجليلة، من عمارة المدرسة العلمية، وفراغ العلماء لإقراء الطلبة، وحضور الكتب والمصادر والمراجع المطلوبة للتعلم والمطالعة والبحث، واحتكام أجواء النقاش العلمي الحر المبدع الجاد، مُسَائلةً ومذاكرة، ووصف ابن ظهيرة ذلك الحال الشريف من استبحار أحوال العلوم في مدارس مصر أواسط القرن التاسع الهجري فقال في: (الفضائل الباهرة): (وغالب مدارسها ولله الحمد معمورة بعبادة الله تعالىٰ، من إقامة الصلوات والأذكار، وتجد في كل مدرسةٍ وجامعٍ جمعًا من الطلبة يشتغلون بأنواع العلوم في كل فن، لا يعلم بهم، ولا يفتش عنهم، ولا يسأل عنهم، ولا يعرفهم إلا من خالطهم في اشتغالهم)(٢).

وبالجملة فقد كانت تلك المدارس ينابيع علم ورحمة وعمران، تفيض علىٰ ما حولها من المجتمعان بالعلماء والصنائع والخير:

(ومدارسٍ لم تأتها في مشكلٍ ... إلا وجدتَ فتىً يَحُلُّ المشكلا
ما أمَّها مَرْءٌ يُكابد حيرةً ... وخصاصةً: إلا اهتدىٰ وتموَّلا
وبها وُقُوفٌ لا يزال مُغِلُّها ... يستنقذ الأسرىٰ ويغني العَيِّلا
وأئمةٌ تُلقي الدروس، وسادةٌ ... تَشفي النفوس وداؤها قد أعضلا
ومعاشرٌ تَخِذوا الصنائع مكسبًا ... وأفاضلٍ حفظوا العلوم تَجَمُّلا
وقبورُ قومٍ من دعا في مطلبٍ ... متعسِّرٍ أضحىٰ بها مُتَسَهِّلا
من صالحين وتابعين وزمرة ... شهداء شاهدت النبيَّ المرسلا)(٣).

وكَثُرتْ المدارس فيها علىٰ ذلك الوصف، مع ما يترتب عليها من استبحار حركة العلم والفكر حولها، وما تصدره وتصبُّه في المجتمع من ثقافةٍ وحركة معرفية، حتىٰ نهض الحافظ السخاوي ﵀ لجمع كتاب حافل في تاريخ مدارس مصر، قال عنه في: (وجيز الكلام) وهو يتكلم عن الحافظ شهاب الدين أحمد بن العلاء حجي بن أحمد السعدي الحُسْباني الدمشقي ت٨١٦هـ: (وكذا له: «الدارس، في تاريخ المدارس»،

---

(١) مجتمع علماء الأزهر إبان الحكم العثماني سنة ١٥١٧هـ - ١٧٩٧م /ص٢٥٣/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

(٢) الفضائل الباهرة، في محاسن مصر والقاهرة /ص١٩٠/، ط: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ٢٠٠٩م.

(٣) تاريخ مدينة دمشق /٢/٤٠٢/، للإمام الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن بن هبة الله المعروف بابن عساكر، ط: دار الفكر، بيروت، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

نفيسٌ، يدلُّ علىٰ كثرة اطلاعه، وقد حاكيته في: «مدارس الديار المصرية وجوامعها»، ذاكرًا ما بها من الوظائف، وأعيان من باشرها وإن لم أستوعبهم، مع الإلمام بشروط الواقفين إن أمكن، ولكنه في المسودة)[1].

وكتابُ السخاويِّ هذا في غاية الأهمية، ويا ليتني أظفر به ولو بذلْتُ فيه الكنوز والذخائر، والنفائس والجواهر، وهو الكتابُ الذي حاكاه العلامة الشيخ عبد القادر النعيمي؛ إذ نهض إلىٰ جَمْعِ تاريخٍ لمدارس العلم في الشام، علىٰ غرار ما جمعه أولئك الأماثل، من تاريخ مدارس العلم في مصر، فأخرج كتابه الجليل: (الدارس، في تاريخ المدارس)، وهو مطبوع ومتداول.

والمتتبع لتاريخ المدارس يجد بحرًا متلاطمًا من أخبار العلم ومعاقله ومراكزه في بقاع الإسلام، أفردت لها البحوث والدراسات المتكاثرة، فكتب الباحث صلاح السيد أطروحةً لنيل درجة الماجستير، من كلية التربية، بجامعة الزقازيق، فرع بنها، عنوانها: (نشأة المدارس وتطورها في العالم الإسلامي).

وكتب الباحث أيمن شاهين سلام أطروحته للدكتوراه في كلية الآداب، بجامعة طنطا، تحت عنوان: (المدارس الإسلامية في مصر في العصر الأيوبي ودورها في نشر المذهب السني)، سنة ١٤٢٠هـ، الموافق سنة ١٩٩٩م، وغير ذلك كثير جدًا من الدراسات والبحوث في تاريخ مدارس العلم في الإسلام.

ولم يزل تاريخ المدارس في الإسلام في حاجة إلىٰ تتبع واستقراء وجمع، لرصد أبعاد هذه الحركة العلمية الفائقة، التي نشطت في الأمة الإسلامية، وحُبست عليها الأوقاف الهائلة، وحُشد لها العلماء والخبراء من أقطار الأرض، وتولدت فيها دوائر العلوم المختلفة، وازدهرت ازدهارًا عظيمًا.

وتلك المدارس في حقيقتها ليست جدرانًا وأبنيةً وأروقة ومنائر ومنابر فقط، بل هي في جوهرها وفحواها أنظمة محكمة للتعليم، استقرت فيها العوائد والقوانين التعليمية المحكمة، وتم فيها اختيار الكتب، واختبار أرفع طرق التعليم وأرقاها، وتم فيها صناعة العقول وفق خريطة معرفية انتقيت بعناية، إنها معنىً قبل أن تكون مبنىً، قال الأستاذ الكبير محمد كرد علي في: (خطط الشام): (لا جرم أنه كان لإلقاء العلوم في تلك المدارس نُظُم ومناهج، ويقرأ الطلبة أشهرًا مخصوصة، ويُفحصون فيما تعلموه، ولا ينال الإجازة بالتدريس والخطابة والإمامة إلا من ثبتت لمشايخه كفايته، وكان علىٰ استعداد لأن يزداد علما بعد إنجاز الطلب، وإجازة الطلاب بمسموعات مشايخهم ومروياتهم)[2].

نعم، إن تلك المدارس في جوهرها وحقيقتها نُظُم ومناهج، وطرائق معتمدة في التدريس ذات تقاليد وشروط، وعلاقات تعليمية متعارف عليها، بين الدراسات والتمارين وطرق التدريس وألوان النشاط،

(١) وجيز الكلام، في الذيل علىٰ كتاب دول الإسلام /٢/٤٢٦/، ط: مؤسسة الرسالة، بيروت، سنة ١٤١٦هـ.
(٢) خطط الشام /٦/٧٠/.

صُقلتْ، واختُبِرت جدواها ومصداقيتها عبر أجيال.

والأزهرُ الشريفُ هو دُرَّةُ تلك المدارس العلمية التي أنجبتها مصرُ قاطبة، وهو تاجُ مدارس العلم المعروفة على وجه البسيطة على الإطلاق، وأحفلها تاريخًا، وأغزرها إنتاجًا، وأكثرها شيوخًا وعلماء ورجالًا، وأعمقها تأثيرًا في حركة العلم في المشرق والمغرب، لا توجد مدرسة علمية على وجه الأرض تقارن به في امتداد مسيرته، وكثرة إنتاجه، وأثره في الواقع.

وللدكتور جورج مقدسي بحثٌ مهمٌّ حول ظاهرة المدارس الجوامع، وكيف أنها كثرت في القاهرة خلافًا لبغداد في القرون الأولى، وأنها جوامع كانت معاهد للعلم في المقام الأول، ومساجد جامعة للصلاة في المقام الثاني، كجامع الحاكم، والجامع الأزهر، وجامع الملك الناصر حسن، وجامع المؤيد(١).

وكان قد لفت نظري أن تلك المدارس جميعًا قد جرت عليها سنة الله تعالى في خلقه، فعمرت، وازدهرت، ونشطت فيها حركة العلم وصنعة التعليم، وارتفع لها صيت علمي براق في أوساط أهل العلم مشرقًا ومغربًا، وتداعى إليها العلماء والراغبون في العلم على مدى أجيال، وقرئت فيها الكتب الكبار والصغار، واستحكمت مسالك العلم فيها زمنًا، ثم قضى الله تعالى أن يؤول ذلك النشاط الجم إلى ذبول، ثم إلى موت، فلا تحصى المدارس الكبيرة التي نهضت بأعباء العلم بضعة قرون، ثم غادرها النشاط العلمي، وبادت، حتى تهدمت أبنيتها، وصارت تاريخًا يُحكى.

حتى إن الرحالة ابن جبير تحدث عن دخوله بغداد سنة ٥٨٠هـ، والمدارس الثلاثين التي رآها، وأشهرها المدرسة النظامية الجليلة الشأن، ثم ما هي إلا مدة، حتى يدخلها ابن بطوطة سنة ٧٢٧هـ، فلم يجد أثرًا لتلك المدارس، حتى إنه ليعقب متحسِّرًا بقوله: (سبحان مبيد الأشياء ومغيرها).

وعلى مثل ذلك السَّنَنِ توالت المدارس في مختلف بقاع الإسلام، وغلب على تلك المدارس أن الواحدة منها تعمر قرنًا أو قرنين أو ثلاثة في المتوسط، ثم إنها تبيد وتزول، باستثناء بضعة مدارس، كتب الله تعالى لها البقاء الطويل، فامتدَّ عمرها العلمي قرونًا متطاولة، وعلى رأسها جامع الزيتونة، وجامع القرويين، والجامع الأزهر، والأزهر أشهرها، وأكبرها، وأجمعها، وأبقاها، وهو الذي تفرد بالبقاء دون تلك المدارس جميعًا، لأمر قدره الله وأراده.

قال الكاتب الأستاذ سيد عبد العاطي: (لقد قامت من قبله مساجد، وقامت من بعده مساجد، ولكنها لم تصل جميعا إلى المستوى والمكانة التي بلغها الأزهر، فقد ترسخت مكانة الأزهر في مصر والعالم

(١) نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب /ص٦٧/، ط: مدارات للبحوث والنشر، القاهرة، سنة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

الإسلامي كمؤسسة علمية ودينية مع توالي العصور والقرون، وآلت إليه الزعامة الفكرية والثقافية في الوقت الذي أفل فيه نجم الحضارة في مواقع كثيرة)[١].

وإليك شهادة واحد من أساطين علماء القرويين، ألا وهو مسند العصر العلامة الإمام السيد محمد عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني ﷺ، قال في كتابه الماتع: (ماضي القرويين ومستقبلها): (إلا أن المعابد والكليات، وإن كثرت في البلاد، وتخرج منها طوائف العباد، فأشهرها في العالم الإسلامي ثلاث كليات: كلية مصر، المعروفة بالجامع الأزهر، وكلية تونس الخضراء، المعروفة بجامع الزيتونة، وكلية فاس، المعروفة بجامع القرويين، التي أردنا أن نتكلم الآن عليها بالخصوص.

وتوجد في مصر وفاس وتونس عدة كليات، ولكن لم تشتهر في العالم الإسلامي كاشتهار هذه الكليات الثلاث، وذلك كجامع بني أمية في دمشق، وكلية الآستانة، وجامع بغداد.

أما المقامان المقدسان: مسجد مكة وحرم المدينة المنورة فهما معهد عبادة أكثر منهما معهد علم الآن، وإن كانا في الزمن السابق، وقت ما كانت الدولة دولة، والناس ناسا، والإسلام في استفحاله، يقال في حقهما: «لا عطر بعد عروس».

والموجب لتأخرهما من حيث العلم فيما يظهر موضعهما الجغرافي، فإن مصر بالنسبة إليهما جاءت في وسط العالم الإسلامي، من جميع الجهات، سواء إفريقية، أو الشام، أو اليمن، أو غيرها من البلاد.

وحجَّ الناسُ إلىٰ الحرمين الشريفين، لما كانا موقتًا، ودون الوصول إليها، أو الرجوع عنها مهامه تحار فيها القطا، لم يأت بالنتيجة المقصودة في هذا الباب.

فعلىٰ هذا أعظم الكليات في العالم الإسلامي اليوم: أزهر مصر، ثم جامع الزيتونة جار تونس)[٢].

وإليك أيضًا شهادة واحد من أساطين علماء الزيتونة، قال الإمام الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين: (في قارة إفريقية ثلاثة معاهد إسلامية: الجامع الأزهر بالقاهرة، وجامع الزيونة بتونس، وجامع القرويين بفاس، أما الأزهر فله الشهرة في الشرق والغرب، لأن دائرة التعليم فيه أوسع، وطلاب العلم يؤمونه من كل ناحية، والمكاتب عامة أوخاصة لا تكاد تخلو من مؤلفات علمائه، أما المعهدان الأخيران فلعل موقعهما الجغرافي وحال محيطهما الاقتصادي وقفا منهما دون أن يحوزا كما حاز الأزهر سمعة لم تدع دارًا إلا

(١) جريدة الوفد /ص١٦/، العدد الصادر في القاهرة، بتاريخ الخميس ١٣ ربيع الأول، سنة ١٤٣٧هـ، الموافق ٢٤ ديسمبر، سنة ٢٠١٥م.

(٢) ماضي القرويين ومستقبلها /ص١٨/، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٢٧هـ - ٢٠٠٦م، تحقيق: الدكتور عبد المجيد بوكاري.

غشيتها، ولا أُذُنًا إلا ولجتها)[1].

وقال شيخ جامع الزيتونة الإمام الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في: (أليس الصبح بقريب): (وعَظُمَ اشتهار مصر بعد سقوط الدولة العباسية، وكان الجامع الأزهر يومئذ قد شرفه الله بأن صار مقر علوم السنة، بهمة الملك الصالح صلاح الدين الأيوبي، إذ أقام القضاء المصري علىٰ مذهب الشافعي، وأزال قضاة الإسماعيلية الذين استأثروا بالقضاء من عهد ظهور الدولة الفاطمية من سنة ٣٦٥هـ، إلىٰ أن قلص ظلهم صلاح الدين رحمه الله تعالىٰ سنة ٥٦٤هـ.

وأصبح الأزهر مقصداً لطلبة العلم من بلاد الإسلام، وبنيت المدارس لإيواء الطلبة الوافدين من غير أهل القاهرة، وعززت المدارس ببناء الأروقة في رحاب الجامع الأزهر، التي تبلغ خمسة وعشرين رواقًا)[2].

وإليك شهادة مفتي أرتريا الأول العلامة الشيخ إبراهيم المختار؛ حيث قال: (ولقد فتحت في الإسلام من المدارس ما لا تحصيها الأقلام، وكلها قد أصبحت في ذمة التاريخ إلا الأزهر؛ فإنه بقي خالداً يرسل شعاعه اللماع إلىٰ الآفاق، حتىٰ صارت له رتبة تعلو إلىٰ مصاف الأماكن المقدسة، فتدافع إليه أبناء الإسلام بالمناكب لينهلوا من حياضه).

قلت: فبقي الأزهر الشريف متفرداً بتلك الخَصِيصَة الشريفة، دون مدارس العلم في بقاع الإسلام قاطبة، حيث اختاره الله تعالىٰ للبقاء دون بقية مدارس العلم، ولربما اعتراه الضعف والوهن، أو خفت أثره، أو تراجع أداؤه، أو تشوش مسار العلم فيه، إلا أنه لا يلبث أن يخرج من ذلك إلىٰ نهوض ونشاط، وسطوع وتألق.

ولم يزل الأزهر الشريف كذلك، إلىٰ أن بلغ درجة رفيعة من الازدهار والتوهج قبيل دخول الحملة الفرنسية، مما يؤكد وجود بوادر ملموسة لنهضة مشرقية كانت قد بدأت تستجمع قواها لكنها أجهضت وارتبكت بدخول الفرنسيين، قال إدوارد وليم لين في: (المصريون المُحْدَثون): (وكان التعليم مزدهرًا ازدهارًا عظيمًا في القاهرة، قبل دخول الجيش الفرنسي، أكثر منه في السنين الأخيرة)[3].

وقد تناول سياق نهضة المشرق هذه غير واحد منهم الأستاذ ناصر عبد الله عثمان في كتابه: (قبل أن يأتي الغرب، الحركة العلمية في مصر، في القرن السابع عشر)، وهو مطبوع ضمن منشورات دار الكتب والوثائق القومية، ومنهم الدكتور عبد الله عزباوي في كتابه: (الحركة الفكرية في مصر في القرن الثامن

(١) تونس وجامع الزيتونة /ص١٦/، ط: (د ن)، سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

(٢) أليس الصبح بقريب /ص٦٤/، ط: الشركة التونسية للتوزيع، قرطاج، تونس، ١٩٦٧م.

(٣) المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم /ص١٤٦/، ترجمة عدلي طاهر نور، ط: مطبعة الرسالة، القاهرة، سنة ١٩٥٠م.

عشر)، ومنهم العلامة الشيخ محمود محمد شاكر في كتابه: (رسالة في الطريق إلىٰ ثقافتنا)، ومنهم الدكتور مصطفىٰ عبد الغني في كتابه: (حقيقة الغرب بين الحملة الفرنسية والحملة الأمريكية)، مطبوع في مكتبة الأسرة، ومنهم عبد المنعم شميس في كتاب: (عظماء من مصر)، ومنهم الدكتور أحمد زكريا الشلق، في كتابه: (الحداثة والإمبريالية، الغزو الفرنسي وإشكالية نهضة مصر)، وهو مطبوع، بل كل الكتب المذكورة منشورة مشهورة، وكنت قد نظمت هذا المعنىٰ علىٰ لسان الأزهر الشريف، فقلت:

(كم من مدارسَ شُيِّدَتْ لكنها ... بادتْ، وسبحان الذي أبقاني
فبقيتُ أشهد فضل ربي أنَّه ... كمْ صانني، ولَكَمْ وكمْ أعطاني)

وإذا كان شاعر مدينة مراكش قد أشاد بجامع ابن يوسف الذي هو منهلٌ عظيمٌ من مناهل العلم والتعليم فيها، وجامعة علمية عريقة خرجت العلماء الأجلاء، حتىٰ قال:

(لا يَنْمَحِي بتتابُعِ الأعْوامِ ... ما شاده في المجد كلُّ هُمامِ
يَبْقىٰ علىٰ طِرْسِ الخلود مثالُهُ ... كالتَّاجِ للأيام فوق الهَامِ
ما ضرَّ ربَّ المجدِ إن سكن الثرىٰ ... من بعد ما قد نال أَوْجَ مَقَامِ
ربُّ الفخار وإن تقادمَ عَهْدُهُ ... نرعىٰ له في الدهر كل ذِمامِ)

إلىٰ أن قال:

(كم من معاهدَ للمعارفِ شُيِّدَتْ ... فيها وكانت منهل الأفهامِ
هذا «ابن يوسف» معهدٌ قدْ كان مُذْ ... عصرٍ طويلٍ في أعزِّ مقامِ
أحيا علومًا قد عفتْ آثارُها ... ومحا بنور العلم كلَّ ظلامِ
كم من نوابغَ تابعتْ تخريجَهُمْ ... جيلا لجيلٍ سائر الأعوامِ)[1].

فإذا كان هذا مبلغ افتخاره بجامع ابن يوسف وجامعته ـ وحُقَّ له ذلك ـ[2]، فكيف بنا أمام الأزهر الشريف، وقد عُمِّرَ حتىٰ جاوز ألف سنة، وعَرَكَتْهُ الأحداثُ والأيامُ والتجاربُ، وتقلَّبتْ به الدهور، حتىٰ صقلت مناهج تعليمه، وأثمرت غصونه ألوفًا مؤلفة من الرجال الأكابر الذين استنارت بهم الدنيا، وقد قال

(١) إتمام الأعلام، بمن حلَّ مراكش وأغمات من الأعلام /١/١٣٥، ط: المجلس الجماعي، مراكش، سنة ٢٠١٤م.

(٢) كان الأستاذ الكبير العلامة الأديب محمد بن عثمان بن أبي بكر المراكشي الإدريسي ت١٣٦٤هـ الموافق ١٩٤٥م بمثابة الأب الروحي لجامعة ابن يوسف بمراكش، وأفرد لها كتابا جليلا عنوانه: (الجامعة اليوسفية في تسع مئة سنة)، في ثلاثة أجزاء، طبع الأول وضاع الباقي، ثم أفرد صديقنا مؤرخ مراكش الأستاذ أحمد متفكر كتابا حافلا اسمه: (علماء جامعة ابن يوسف في القرن العشرين).

السيد أحمد خيري ﷺ في: (قصيدة الأزهر):

(توالتْ علىٰ مصرَ عشرُ مئاتٍ وأزهرُها نضرةً كالذهبْ
تُقامُ به حلقاتُ الدروسِ وتُلْقَىٰ العِظَاتُ، وتُتْلَىٰ الخُطَبْ
فكمْ مِنْ فقيهٍ به قَارِئٍ وحَبْرٍ لَبِيبٍ أَدِيبٍ كَتَبْ
وَكَمْ من شُيُوخٍ تَرَبَّاهُمُ فزَانُوا النَّدِيَّ، وصَانُوا السَّبَبْ
ومِنْ أَتْقِيَاء أقاموا الصلاةَ ومِنْ غُرَبَاء أَتوا للطَّلَبْ
وكَمْ صَادَمَتْهُ خُطُوبٌ جِسَامٌ بها كاد يَقْضِي عَلَيْهِ العَطَبْ
فلا الخَطْبُ أَثَّرَ فيه، ولا تَزَعْزَعَ مِنْ هَوْلِ تلك الكُرَبْ)(١).

والذي كان يستوقفني ويدفعني للبحث والتنقيب هو التفتيش عن ذلك السبب الفريد، الذي توفر في الأزهر خصوصًا، فبقي هو وحده دون تلك المدارس جميعا، فإذا بتلك المدارس العلمية كلها عمرت وازدهرت مدة من الزمان تطول أو تقصر، ثم أدركها الفناء، وطواها الزمن، وصارت تاريخًا يحكىٰ، فلماذا انفرد الأزهر وحده بالبقاء، علىٰ هذا المدىٰ الزمني الممتد حتىٰ جاوز عمره الألف سنة؟؟

والذي يظهر لي أن هذا يرجع إلىٰ عدة أسباب:

۞ **أولها**: القبول العالمي له، حيث حفر الأزهر في التاريخ أثرًا رفيعًا وجليلًا، لا يمكن أن يُمْحَىٰ من التاريخ، وما من قطر ولا بلد إلا وقد امتزجت ذاكرته الوطنية بآثار نبيلة ورفيعة نسجها أبناؤه الذين تعلموا في الأزهر.

قال الأستاذ مصطفىٰ بيرم في كتاب: (الأزهر): (حدثنا الكثير من الأقطار المختلفة، ممن شافهناهم واثقين بهم: أن المتخرج الأزهري حيثما كان، عراقيًا أو كرديًا، لا يعادل به أغلب سكان تلك الأقطار أكبر عالم لديهم لم يتخرج من الجامع المذكور، فترىٰ لهم من الخضوع لعالمهم الأزهري، والإصغاء لقوله، والصدع بأمره، ما ليس لغيره من العلماء، حتىٰ بلغ من ذلك أن مجرد انتساب الرجل للأزهر في بعض الأقطار الإسلامية كاف في سماع قوله، وإطاعة أمره.

وهذا من أعظم الأسباب التي جلبت وفود بعض أهالي البلاد القاصية إلىٰ الأزهر للتعلم، كي يصل بذلك إلىٰ إجلال قومه له، وإكبارهم إياه، فمكان الأزهر لدىٰ عامة المسلمين مكان السويداء من الفؤاد، فتراهم متهللين مستبشرين إذا حدثوا بحديث تعظيمه، وحسن العناية بأهله، نادمين إذا ألقي إليهم ضد ذلك)(٢).

(١) قصيدة الأزهر /ص٩/، ط: مطبعة السعادة، مصر، سنة ١٣٦٩هـ.

(٢) الأزهر /ص١٩/، ط: مطبعة التمدن، مصر، سنة ١٣٢١هـ.

بل بلغ من عمق ذلك أن عددًا كبيرًا من المدارس العلمية في بلدان مختلفة قد تشبهت بالأزهر، ونقلت مناهجه التعليمية، مما يدل على وجود خبرة تعليمية مصرية قابلة للتصدير، لتتبوأ مصر مكانها الرائد اللائق بها، وسيأتي هنا في هذه الجمهرة بعد صفحات فصل يستعرض ذلك عنوانه: (تشبيه مدارس العلم الكبرى في المشرق والمغرب بالأزهر الشريف مما يدلُّ على مركزيته وعبقريته).

◉ **ثانيها:** توفر البيئة العلمية الكفيلة بنجاح عملية التعليم بكامل أركانها، وأنه حوى المذاهب الفقهية الأربعة، بخلاف القرويين مثلا فقد اقتصر على المذهب المالكي، وبخلاف أربطة حضرموت فقد اقتصرت على المذهب الشافعي.

◉ **ثالثها:** امتزاج العلم بالتزكية والعبادة والإقبال على الله، فكان الأزهر ناقلًا لمواريث النبوة أمينًا عليها، مما جعل مقاصد الشريعة شديدة الوضوح أمام أعين أبنائه، فكانوا أمناء على الأوطان، قائمين على تحقيق الأمان في المجتمعات، يحثون على العلم وينصحون به.

◉ **رابعها:** قيام الأزهر بدورٍ وطنيٍّ عريقٍ وعميقٍ، حيث نهض يدافع عن الوطن وأرضه وشعبه، وبرز أمام الشعب المصري في أوقات عصيبة وحساسة، وافتدى شعب مصر بأرواح بنيه في أوقات الخطر في ثورة القاهرة الأولى والثانية، وفي ثورة ١٩١٩م وغيرها.

مما جعل الشعب المصري الكريم يتمسك به، ويثق فيه، ويحرص على بقائه، ويدافع عنه، وصار هذا المعنى عميقًا في وجدان الشعب المصري، ووعى الأزهر هذا في ذاكرته الجمعية، فازداد حبًّا لهذا الوطن، ودفاعًا عنه، فما جاءت لحظة تاريخية عصيبة وفتش الناس عن الأزهر فافتقدوه، ولا عقدوا عليه آمالًا عظامًا فخيبها.

إن سبب بقاء الأزهر في حقيقته هو شهود الناس لجدواه وفائدته في أنه ينبري ويتصدى دونهم للمخاطر، وأنه درع لهم في الشدائد، وينبغي لأبناء الأزهر أن يدركوا أن هذا دورهم وقدرهم، وأن هذه هي المهمة التي لأجلها يتعلمون دوائر العلوم الدقيقة التي يدرسونها في رحابه.

◉ **خامسها:** تجرد رجاله عن الدنيا، وتساميهم عن المطامع والأهواء، وأنهم لا يبتغون من الدنيا عرضًا ولا غرضًا، فرأى فيهم شعب مصر الوقفة الوطنية الشجاعة في أوقات الكرب.

فإذا انجلى الكرب وجاء وقت الراحة والمنفعة وجدهم الناس قد تعففوا، وترفعوا، وانصرفوا إلى شأنهم، وربما كانوا فقراء ذوي حاجة، لكن العلم نور بصائرهم، فلم يزاحموا على الدنيا، ولم يسابقوا إليها، ولم تستعبدهم ولم تستذلهم.

فازداد إكبار الناس لهم، وأدركوا أن هؤلاء بحق أهل صلاح ودين، وأنهم رجال خالطوا الدين

وعلومه، وغاصوا في نسقه المعرفي، ورأوا أنه طريق شريف للآخرة، ومدخل إلىٰ عالم الغيب الشريف.

وبمجموع هذه الأسباب اكتسب الأزهر البقاء، ووثق الناس فيه، وتشبثوا به، فبقي عبر التاريخ وحده دون تلك المدارس العلمية العريقة كلها.

إِضَاءَةٌ
في أقدمية الأزهر وأسبقيته لكل مدارس العلم في أمة الإسلام مع استمرار ذلك فيه دون انقطاع

نظرًا لكل ما سبق من عوامل تفرد الأزهر الشريف فقد صار أقدم جامعة عالمية لعلوم الشرع الشريف على ظهر البسيطة، فهو جامعة الإسلام الأولى، قال ديورانت في: (قصة الحضارة): (وقام في القاهرة ثلاث مئة مسجد، تدعم فقراءها بالرجاء، وتزين المدينة بالقباب الضخمة، والأروقة المعمدة الظليلة، والمآذن الشامخة.

وكان أحدها ـ وهو الجامع الأزهر ـ جامعة الإسلام الأولى، يؤمه من الطلاب ألفان أو ثلاثة، من أقصى بقاع الأرض، من ماليزيا شرقًا إلى المغرب غربًا، ليتعلموا لغة القرآن، وعلوم البلاغة، والتوحيد، والأخلاق، والشريعة، وكان خريجو الجامعة يؤلفون جماعة العلماء، ومنهم يختار المعلمون والقضاة، لقد كان نظامًا وضع لسنية صارمة في الدين والأخلاق والسياسة)(1)، إلى أن قال: (وبإنشاء الجامع الأزهر بدأ ظهورُ أقدم جامعة في العالم كله)(2).

وللدكتور جوزيف نسيم تعليق مهم على المنحى الذي ذهب إليه هاسكنز ولامونت وغيرهما من المؤرخين المعنيين بدراسة نشأة الجامعات في أوربا في العصور الوسطى، وما توصلا إليه من أنه ليس فيما سبق في التاريخ القديم أيام اليونان والرومان القدماء ما يدل على وجود مثل هذه الفكرة الجامعية التي عرفت لأول مرة في العصور الوسطى.

قال الدكتور جوزيف: (وهنا يجب أن نذكر أن الجامع الأزهر كان يعتبر من أقدم الجامعات التي ظهرت في أواخر العصر الوسيط سواء في الشرق أو الغرب، وقد أسسه القائد جوهر الصقلي عام ٩٧٢م، وكان لهذا الحدث أهميته البالغة ليس في مصر فحسب، وإنما في العالم الإسلامي من أقصاه إلى أقصاه، وقد أوقف عليه الخلفاء الفاطميون المتعاقبون وخاصة العزيز الهبات والعطايا، وأخذ الجامع الأزهر صفته الجامعية الواضحة بعد اكتساح المغول لمدينة بغداد سنة ١٢٥٨م بصفة خاصة)(3).

---

(١) قصة الحضارة /٤١/١٣/، ط: دار الجيل، بيروت، والمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم، تونس، سنة ١٩٨٨م.
(٢) قصة الحضارة /٢١/١٤/، ترجمة فؤاد أندرواس.
(٣) نشأة الجامعات في العصور الوسطى /ص١٢١/.

قال بيارد دودج في كتاب: (الأزهر في ألف عام): (ومما يثير الفخر والإعجاب أن نرىٰ خريجي الأزهر قد حملوا مشاعل الثقافة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف، وأنَّ الأزهرَ نفسه كان المنارة التي تشع النور في العالم، من سيبريا إلىٰ نيجيريا، ومن مراكش إلىٰ الصين، قبل أن يسمع الناس بأمريكا، أو الكشف عنها بعد، كما كانت البقاع الشمالية من أوربا تعيش في تيه الضلالة والجهل، برابرة بدائيين)(١).

وقال مؤرخ الجزائر، الأستاذ الكبير المهدي البوعبدلي: (فمن هذا يتبين أن الأزهر هو أقدم جامعة عالمية، لا جامعة بولونية الإيطالية، التي قيل إنها أقدم جامعة عالمية، وذلك أنها تأسست سنة ١١١٩م، أي بعد الأزهر بمئة وتسعة وأربعين سنة، ثم نجد السوربون بباريس، تأسست بعد جامعة بولونيا في القرن الثاني عشر، وجامعة أكسفورد بإنجلترا تأسست سنة ١٢٢٤م.

ولا يمنع وصف الأزهر أنه أقدم جامعة عالمية من وجود جامعي الزيتونة والقرويين قبله، فجامع الزيتونة بتونس يرجع تاريخ تأسيسه إلىٰ ٨٠هـ، الموافق ٦٩٩م، إذ اختطه لأول الفتح الإسلامي القائد الأموي الطائر الصيت حسان بن النعمان الغساني، ثم أعاد بناءه القائد الأموي عبيد الله بن حجاب، في سنة ١١٦هـ، الموافق ٧٣٤م، وهذا التاريخ الأخير هو ما يقتصر عليه كثير من المؤرخين الذين ينسبون تأسيس الزيتونة إلىٰ عبيد الله بن حجاب، والحقيقة ما ذكرناه، وإنما كان الجامع عند تأسيسه سنة ٨٠هـ بسيطًا جدًّا، وهذا لا يمنع أنه جدد في موقعه الأول، والبساطة كانت تمتاز بها جميع مساجد الإسلام في عهد نشأتها، كما أن القرويين بفاس أسس سنة ٢٤٥هـ، الموافق ٨٥٩م.

وإنما اختص الأزهر بوصف القدم لأنه يمتاز عنهما بمواصلته لمهمته العلمية من دون انقطاع إلىٰ يومنا هذا، وإن وجدنا في تاريخه الطويل فترات تخللتها ركود وضعف وتعطيل، ومع كل هذا فإنه فَرَضَ نفسه، وحافظ علىٰ صبغته الثقافية الدينية، إلىٰ أن صار سكان مصر وغيرهم من المسلمين يرونه رمزًا، وجزءًا لا يتجزأ من تاريخ مجدهم الديني والدنيوي، وكل من حاول من الملوك والسلاطين أن يخفف من شأنه، أو ينهي مهمته الثقافية، ارتطم بالرأي العام، وهذا هو السبب في اكتساب الأزهر الحصانة التي جنبته كل مكروه، وصارع بها الأجيال، وأدىٰ مهمته كاملة)(٢).

فالأقدمية المحققة للأزهر الشريف راجعة إلىٰ أنه أقدم معهد علمي ظل قائمًا بالتدريس دون انقطاع علىٰ مدىٰ ألف سنة، أما غيره من معاهد العلم فربما كان سابقًا علىٰ الأزهر في الإنشاء، لكن احتشاد حركة العلم فيه، وانتظامها بين جدرانها، قد تقطعت، أو تأخرت إلىٰ ما بعد نشأة الدراسة

---

(١) الأزهر في ألف عام /ص١٧٥/، ط: ترجمة دكتور حسين فوزي النجار.

(٢) علاقات الجامع الأزهر بالجزائر بمناسبة عيده الألفي /ص٥٢/، ضمن: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، ط: عالم المعرفة، الجزائر، سنة ٢٠١٣م.

الموصولة في الأزهر بزمن.

قال جورجي زيدان: (الأزهر هو أقدم المدارس المصرية، ومن أقدم المدارس الكبرىٰ في العالم علىٰ الإجمال، لأنه أنشئ منذ نحو ألف سنة، ويندر في مدارس العالم الكبرىٰ اليوم مدرسة مر عليها عشرة قرون ولا تزال باقية، وقد توالت علىٰ الأزهر أحوال شتىٰ بين عسر ويسر، وله فضل خاص علىٰ آداب اللغة العربية، لأنه احتفظ بها في أثناء الأجيال المظلمة)[1].

ويشهد لذلك مثلا أن العلامة موفق الدين عبد اللطيف البغدادي وفد إلىٰ مصر سنة ٥٨٩هـ، فأجلسه الملك العزيز ابن السلطان صلاح الدين للتدريس في الأزهر، فأقام يدرس فيه بضع سنوات، إلىٰ وفاة الملك العزيز سنة ٥٩٥هـ، وقد صرح هو بذلك في سيرته الذاتية التي نقلها ابن فضل الله العمري في: (مسالك الأبصار) فقال: (وكان سيرتي في هذه المدة أنني أقرئ الناس في الجامع الأزهر إلىٰ نحو الساعة الرابعة، ووسط النهار يأتي من يقرأ الطب وغيره، وآخر النهار أرجع إلىٰ الجامع، فيقرأ قوم آخرون، وفي الليل أشتغل مع نفسي)[2].

فهذه لمحةٌ مبكرةٌ من صورة الحركة العلمية في الأزهر، أواخر القرن السادس الهجري، وفي أيام العصر الأيوبي، الذي يشيع الظن أنه أبطل الدراسة في الأزهر تماما، ويتبين منها أن الحركة العلمية فيه عامرة وحافلة، وتمتد طوال ساعات اليوم، وقد عزمت علىٰ جمع مقالة عن الحركة العلمية في الأزهر في العصر الأيوبي، لأرصد عن قرب تفاصيل ذلك.

قالت الدكتورة سعاد ماهر: (علىٰ أن قطع خطبة الجمعة من الجامع الأزهر في العصر الأيوبي لم يبطل صفته الجامعية؛ فقد لبث محتفظًا بصفته كمعهد للدرس والقراءة)[3].

بل إن الدكتور محمد عبد العظيم سعود في كتابه (الأزهر والشيوخ) ـ وقد تجافىٰ عن الدولة الأيوبية، وكان تحليله لمقاصدها ونظمها التعليمية فيه قدر من التحليل المناقض لما يسفر عنه النظر التاريخي المتأمل ـ يجزم أيضًا بأن الأزهر ظلَّ في العصر الأيوبيِّ معمورًا بالدروس، فقال: (وعلىٰ الرغم من كل هذا، فقد ظل الأزهر العريق قبلة كبار العلماء الذين وفدوا إلىٰ مصر خلال العصر الأيوبي وما بعده، وأعانه علىٰ ذلك أنه ظل مفتوحًا للطلاب من كل مذهب سني)[4].

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية /٤/١٧/، ط: دار الهلال، القاهرة، (د ت).

(٢) مسالك الأبصار، في ممالك الأمصار /٩/٨٩/، ط: لابن فضل الله العمري، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ٢٠١٠م، وانظر: نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب /ص١٦١/.

(٣) الأزهر أثر وثقافة /ص٩/، ط: سلسلة دراسات في الإسلام، يصدرها المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية بوزارة الأوقاف، سنة ١٣٨٢هـ ـ ١٩٦٢م.

(٤) الأزهر والشيوخ /ص٢٧/، ط: مطابع الجمهورية للصحافة، مصر، سنة ٢٠٠١م.

ويشهد لذلك أن باحثًا متخصصًا في دراسة تاريخ التعليم في تلك الفترة وهو الدكتور عبد الغني محمود عبد العاطي قد عكف على رصد تضاريس حركة التعليم في العصرين الأيوبي والمملوكي، فأخرج كتابه المهم (التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك)، وقال فيه: (ونسمع في ذلك العصر عن استمرار إقامة حلقات العلم والتدريس بالأزهر، وعن أن كثيرًا من العلماء ذوي المكانة العالية قصدوه، وألقوا به محاضرات في علوم الكلام والبيان والمنطق، فضلًا عن الرياضة والفلك وربما الطب أيضا)(١).

ويشهد لذلك أيضًا أنَّ ابن خلدون لما دخل مصر في منتصف شعبان سنة ٧٨٤هـ ألحَّ الناس عليه أن يجلس للتدريس، فجلس للتدريس في الأزهر الشريف، ووصف ذلك فقال في رحلته: (ولما دخلتها أقمتُ أيامًا، وانثال عليَّ طلبةُ العلم بها، يلتمسون الإفادة مع قلة البضاعة، ولم يوسعوني عذرًا، فجلست للتدريس بالجامع الأزهر منها)(٢)، ووصف المقريزي ذلك فقال: (وتصدَّر للاشتغال بالجامع الأزهر، فأقبل الناس إليه، وراقهم كلامه، وأعجبوا به)(٣).

فهذه صورةٌ أخرى عن الحركة العلمية في الأزهر أواسط القرن الثامن الهجري، وفيها تصويرُ انثيال الطلبة وتداعيهم لمجلس درس ابن خلدون، ومقدار الصدى الحسن، والأثر الجميل لمجالسه ودروسه وفكره.

وبالنسبة للقرن التاسع فقد أجريتُ إحصاءً وتتبعا لصورة الأزهر الشريف وأنشطته وحركة العلم فيه في القرن التاسع الهجري من خلال استخراج كل كلمة وردت عن الأزهر في كتاب (الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع) للحافظ السخاوي، فرأيت حركة حافلة لمجالس تدريسه، وأروقته، والمغتربين الوافدين إليه، وقرائه، ومجاوريه.

ومن هنا كان كتاب الضوء اللامع نافذة نطل منها على أخبار الأزهر في القرن التاسع، حتى قال الإمام ابن حجر الهيتمي في ثبته: (كل ذلك بالجامع الأزهر الذي ليس على وجه الأرض بقعة جمعت من علماء الأمة وصلحائها ـ والجهد في طلب العلم وتعلمه وتعليمه، والدأب في ذلك الليل والنهار ـ مثله، بحيث أجمعوا على أنه لم يقع منذ أزمان وإلى الآن أنه خلى عن علم أو ذكر ساعة من ليل أو نهار، وفيه من عدة الدروس والمصنفين والمفتين والعلماء العاملين ما يعجز الوصف عن الإحاطة بهم، ومن تأمل «الضوء اللامع» للحافظ السخاوي أحاط ببعض ما ذكرته)(٤).

---

(١) التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك /ص١٦٣/، ط: دار المعارف، مصر، سنة ٢٠٠١م.

(٢) التعريف بابن خلدون ورحلته غربا وشرقا /ص٢٥٥/، (نشرة تكريمية محدودة، أعدت بمناسبة احتفالات تونس بالمئوية السادسة لوفاة ولي الدين ابن خلدون)، ط: الدار العربية للكتاب، تونس، سنة ٢٠٠٦م.

(٣) السلوك، لمعرفة دول الملوك /ج٣/ القسم الثاني /ص٤٨٠/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٤م.

(٤) ثبت الإمام شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي المكي الشافعي /ص٤١٧/، ط: دار الفتح، الأردن، سنة ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

ويُستدل بكل ما سبق علىٰ خطإٍ وقع في تأريخ حركة العلم في الأزهر، حيث زعم البعض بأنه صار من دور العلم الكبيرة بعد سنة تسع مئة، وهذا غير صحيح، وإن كان قد قال به العلامة المطلع المتبحر الشيخ خليل الخالدي؛ فإنه كان يقول: (وأما الأزهر فقد صار من دور العلم الكبيرة بعد سنة تسع مئة، وعلماؤه الذين ذكرهم الجبرتي متأخرون، وأقدمهم الشيخ خالد الأزهري)(١).

وكلام العلامة الخالدي رغم اطلاعه النادر إلا أنه هنا في هذا المقام كأنه لم يوف الأمر حقه من النظر التاريخي المستوعب الكفيل بإظهار الأمور علىٰ حقائقها.

ويستدل بهذا أيضًا علىٰ عدم دقة الأمر عند العلامة المطلع الشيخ محمد بن محمد المُرير، حيث عقد في كتاب (النعيم المقيم) فصلًا في تاريخ مشيخة القرويين، وما استحدث لها من رئاسة المجلس العلمي بالقرويين، وأنها تشابه حال مشيخة الأزهر بمصر، وذهب إلىٰ أن هذا النظام العلمي محدث، وأن الأزهر والقرويين لم يكونا إلا من جملة المساجد التي يذكر فيها اسم الله تعالىٰ.

ثم اندفع في مبحث عن تاريخ الأزهر الشريف، إلىٰ أن قال عن الأزهر: (والجامع المذكور بيتٌ من بيوت الله، تؤدىٰ فيه الصلوات، وتدرس في داخله العلوم، وتلقن فيه المعارف، وتعلم فيه الفنون الإسلامية علىٰ اختلاف موضوعاتها، والمدرسون أحرار في إلقاء دروسهم، والطلبة يأخذون عنهم ما مالت إليه مداركهم، ودعت إليه قوة أفكارهم، دون تحجير ولا ترتيب، ولم يذكر أحد من المؤرخين فيما قبل القرن العاشر والحادي عشر نظامًا للطلبة، ولا سمىٰ أحد منهم مشيخة لهذا الجامع أسندت لها الرئاسة فيه.

فهذا الحافظ السيوطي الذي كان يعيش في القرن التاسع، وأوائل القرن العاشر، وهو جهينة أخبار مصر، المعتني بذكر مساجدها ومعاهدها ومدارسها، وما جرىٰ فيها من ترتيب شيوخ، أو تقديم مدرسين ووعاظ ومحدثين، لم يذكر لهذا الجامع إسناد أمر التعليم إلىٰ شيخ من الشيوخ)(٢)، إلىٰ آخر كلامه.

وأقول: إنَّ كلَّ هذا ناشئٌ من عدم وجود تاريخٍ تفصيليٍّ موثَّقٍ للأزهر الشريف، يعتمد علىٰ التنقيب الواسع في أضابير التاريخ ووثائقه، ويكشف عن الملامح الدقيقة لكل مرحلةٍ من مراحله، وطورٍ من أطواره، ولا يزال هذا العمل دَيْنًا في أعناقنا معاشر الأزهريين، ولعل هذه الجمهرة التي بين يديك أن تكون هي الخطوة الأولىٰ في هذا السبيل.

وفي هذا الكلام الذي ذكرة العلامة محمد المُرير ﷺ عدد من الأخطاء؛ فإن الحافظ السيوطي وإن كان جهينة أخبار مصر كما قال، لكنَّ تاريخ مصر ومدارسها لا يُستقىٰ فقط من الإمام السيوطي ﷺ، بل الأمر

(١) مجلة الرسالة /العدد ٨٤/ص٢١٤/، الصادر بتاريخ ٧ ذو القعدة، سنة ١٣٥٣هـ ـ ١١ فبراير، سنة ١٩٣٥م.
(٢) النعيم المقيم، في ذكرىٰ مدارس العلم ومجالس التعليم /٤/٥٧ ـ ٦٠/.

فيه أوسع من ذلك وأرحب، وغاية القضية هنا هي عدم عثوره هو على تفصيل تاريخي في ذلك الصدد، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود كما لا يخفى.

ثم إن السيوطي نفسه يذكر في: (حسن المحاضرة) أن علي بن يوسف بن جرير اللخمي الشطنوفي، شيخ الإقراء بالديار المصرية قد تصدر للإقراء بالجامع الأزهر، وتكاثر عليه الطلبة(١).

علمًا بأن اللخمي المذكور توفي أوائل القرن الثامن، في ذي الحجة سنة ٧١٣هـ، فتصدره للإقراء في الأزهر، وازدحام الطلبة عليه يرجع إلى رأس السبع مئة، بل قبلها جزمًا لأنه من مواليد سنة ٦٤٤هـ، فلو أنه جلس للإقراء وهو على رأس الخمسين فإن تزاحم الطلبة عليه يكون سنة ٦٩٤هـ، وتكاثرهم لا يكون عشوائيًا ولا فوضويًا، بل إنه سيولد حتمًا طريقة لتنظيمه وترتيب أوقاته ومراسم تخريج طلابه.

وبجوار هذا المجلس المعمور للإقراء كان مجلس تعليم الخط المنسوب في رحاب الأزهر؛ إذ يذكر السيوطي أيضا أن شمس الدين محمد بن محمد بن نمير المعروف بابن السراج تصدر للإقراء، وأخذ عنه جماعة، وكتب الخط المنسوب، وبرع فيه، وصار معلمًا له بالجامع الأزهر، علمًا بأنه ولد بعد السبعين وست مئة، ومات بالقاهرة في شعبان سنة ٧٤٧هـ(٢).

فهذه حلقات الإقراء، وحلقات تدريس الخط، في رحاب الأزهر، خواتيم القرن السابع، وأوائل القرن الثامن، فكيف بمجالس الفقه والنحو والتفسير والحديث.

وكيف يتأتى بعد ذلك أن يؤرخ العلامة المرير استحكام نظام التعليم في الأزهر بالقرن العاشر والحادي عشر، فيهدر من تاريخ نظام التعليم فيه عدة قرون، ولو أنَّ أحدًا تتبع كتب السيوطي لخرج من ذلك بعجائب، ولو أنَّ السيوطي نفسه التفت للتأريخ للجامع الأزهر وعلمائه لأتى بالفرائد النفيسة، نظرًا لسعة اطلاعه، كما صنع في كتابه: (تحفة الكرام، في خبر الأهرام)، و(المضبوط، في تاريخ أسيوط)، وغير ذلك من كتبه، لكنه لم يتوجه لرصد تاريخ الأزهر، وجمع الشذرات المنثورة عنه في بطون كتب التاريخ، مما نرى معه بوضوح أن تاريخ المؤسسة الأزهرية على التفصيل والحقيقة لم يدون بعد إلى هذه اللحظة بكل أسف.

ويكفي ما ذكرته لك قبل قليل من أن الجَرْدَ والسَّرْدَ لشذرات أخبار الأزهر الشريف في كتاب (الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع) للحافظ السخاوي ـ وهو جهينة تاريخ مصر ومدارسها، وهو الذي صنف في تاريخ مدارس العلم فيها كما سبق ـ يكشف عن ملامح مجهولة أو مندرسة من صورة حركة

(١) حسن المحاضرة، في تاريخ مصر والقاهرة /١/٥٠٦/، ط: دار إحياء الكتب العربية: عيسى البابي الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م.

(٢) حسن المحاضرة /١/٥٠٨/.

العلم والأروقة في الأزهر الشريف، يستفاد منها وجود حركة نظامية، لها أعراف متبعة، وقوانين مرعية، وفيه مجاورون وغرباء.

(وبعد القرن التاسع الهجري «الخامس عشر الميلادي» العصر الذهبي للأزهر؛ إذ احتل الجامع الأزهر مكانة مرموقة بين مدارس مصر وجوامعها، وأصبح المدرسة الأم، والجامعة الإسلامية الكبرىٰ، التي لا تنافسها جامعة أخرىٰ، أصبحت أمنية كل عالم من علماء المسلمين أن يحاضر في الجامع الأزهر.

ويتضمن كتاب السخاوي «الضوء اللامع» تراجم مشاهير العلماء الذين قاموا بالتدريس في الجامع الأزهر في القرن التاسع الهجري)[1].

وقبل ذلك قال المقريزي في: (المواعظ والاعتبار): (وذلك أنه لم يزل في هذا الجامع ـ منذ بني ـ عدة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، وبلغت عدتهم في هذه الأيام سبع مئة وخمسين رجلا، ما بين عجم وزيالعة، ومن أهل ريف مصر، ومغاربة، ولكل طائفةٍ رواقٌ يعرف بهم، فلا يزال الجامع عامرًا بتلاوة القرآن ودراسته وتلقينه، والاشتغال بأنواع العلوم: الفقه، والحديث، والتفسير، ومجالس الوعظ، وحلق الذكر، فيجد الإنسان إذا دخل هذا الجامع من الأنس بالله، والارتياح وترويح النفس ما لا يجده في غيره)[2].

وتقي الدين المقريزيُّ ـ كما هو في شريف علمك ـ هو شيخ المؤرخين المصريين، وهو جهينةُ تاريخ مصر علىٰ الحقيقة، وهو الذي تبوأ صدارة المؤرخين المصريين، في النصف الأول من القرن التاسع، ووفاته سنة ٨٤٤هـ، وقد أفاد هنا انتظام أحوال الأروقة، وأن لكل طائفة من الوافدين رواق يعرف بهم، فهذه البواكير تشير إلىٰ انتقال حركة العلم في الأزهر من التلقائية إلىٰ الانتظام واستقرار الأعراف العلمية فيه.

وقد قال الدكتور محمود رزق سليم في حديثه عن العصر المملوكي: (أصبحت مصر أهم كعبة علمية إسلامية، يحج إليها محبو العلم وطلابه من كل بلد، وقد قيل: إن الجامع الأزهر انتظم في سلك طلابه أحيانًا ما يزيد علىٰ سبع مئة وخمسين طالبًا في آن واحد، وإنه ضاق عن أن يتسع لمثل هذا العدد الضخم، فخرج الطلاب منه إلىٰ العراء بجواره بين الهواء الطلق، يتناولون هناك ما يحلو لهم من أطايب العلم والأدب، وكان من بينهم أحيانًا العجم والزيالعة والمغاربة، وغيرهم من طلاب العلم الغرباء)[3].

---

(١) موجز دائرة المعارف الإسلامية /٣١/٩٦٢٨/، تأليف: م. ت. هوتسما، ت. و. أرنولد، ر. باسيت، ر. هارتمان، وتحقيق: إبراهيم زكي خورشيد، وأحمد الشنتناوي، وعبد الحميد يونس، وحسن حبشي، وعبد الرحمن الشيخ، ومحمد عناني، نشره مركز الشارقة للإبداع الأدبي، الإمارات، ط: مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٤١٨هـ ـ ١٩٩٨م.

(٢) المواعظ والاعتبار، بذكر الخطط والآثار /٢/٢٧٦/، ط: دار الطباعة المصرية ببولاق، مصر، سنة ١٢٧٠هـ.

(٣) عصر سلاطين المماليك ونتاجه العلمي والأدبي /٣/٨٧/، ط٢: مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦٢م.

وهذا الجوُّ العلميُّ الأزهريُّ الآخذ في التصاعد، والذي شهد إقبالًا متزايِّدا من طلاب العلم، هو الذي أشعر سلاطين المماليك وأمراءهم بأن هذه البقعة جاذبة لطلاب العلم، ولها شأن عظيم، فتزايد اهتمامهم بعمارته، وتوسيع رقعته، وإضافة الأروقة الجديدة إليه.

والذي يطالع الدراسة التفصيلية الدقيقة التي أبدعها الدكتور جورج مقدسي حول تاريخ نظام التعليم عند المسلمين مقارنة بأوربا، والتي أسماها (نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب)، وهي في مجلدٍ كبير، يجد أن التصور الذي يطرحه الأستاذ الجليل الشيخ محمد المرير غير دقيق بالمرة.

وللأستاذ الدكتور محمد علي حلة اشتغال بتاريخ الأزهر من خلال أرشيفه ووثائقه، وقد قال: (وقد كان طابع الدراسة في الأزهر طابعًا أكاديميًّا، يتميز بالموضوعية والمنهجية في التعليم، ويسلك طريقًا منتظمًا، ومن تلك الأسس التي نهض عليها نظام الجامع الأزهر يجوز القول ـ دون مبالغة ـ إن ذلك الجامع القديم، الذي مضىٰ عليه ما يربو علىٰ الألف سنة دون توقف، قد اكتملت له منذ قيامه كل مقومات الكيان الجامعي)[1].

(١) الأزهر في الأرشيف المصري: وثائق من القرنين التاسع عشر والعشرين /ص١٣/، ط: دار الكتب والوثائق القومية، مصر، سنة ٢٠١٥م.

إِضَاءَةٌ
في سريان الصيت العلمي الرفيع للأزهر في مختلف بلدان المعمورة

تطاير الصيت العلمي الحسن للأزهر الشريف في مشارق الأرض ومغاربها، لأجل كل ما سبق، ولما عاينته تلك الشعوب جيلا من وراء جيل، من شهود سريان الحكمة والمنطق العلمي الرصين، علىٰ ألسنة الأزهريين، من أبنائها الكرام، الذين ابتعثتهم إلىٰ الأزهر الشريف، فما زالوا يرجعون إليها بالنور والبصيرة، ويتقلدون الأماكن الرفيعة، إمامةً، وخطابةً، وتدريسًا، وقضاءً، وإفتاءً، ووزارةً، وغير ذلك، فيخلعون علىٰ تلك المواقع أثر الحكمة، ونضح البصيرة، فتتوثق صلتهم بالأزهر، ويتجدد العزم في كل جيل علىٰ ابتعاث أبنائه للأزهر، لما رآه في الجيل الذي يسبقه من أثر العلم، وأنوار مواريث النبوة.

ولأجل ذلك كَثُرَتْ الوفود، وتوثَّقَتْ الحبال التي تربط تلك الشعوب والأمم بالأزهر الشريف، فحدثني سماحة الشيخ صلاح الدين ماجيدوف مفتي دولة الشيشان أنه تلقىٰ العلم علىٰ يد جملة من شيوخ بلده، كلهم متقدم في السن، وأنهم كانوا يقولون له: سمعنا مشايخنا جميعا يقولون: (إن استفادتنا كانت من علماء الأزهر الشريف).

ولم يكن هذا المعنىٰ مقصورًا علىٰ المدارس العلمية المنتشرة هنا وهناك، بل ارتقىٰ الأمر إلىٰ المدارس العلمية المناظرة للأزهر، والتي برزت بين مدارس العلم وسطعت سطوعًا زائدًا، فقد بقيت أيضًا تشهد للأزهر بالتقديم، لسريان صيته العلمي المشفوع بالاحتكاك، الذي شهد معه أكابر تلك المدارس باستحقاق الأزهر وتقدمه، قال العلامة الجليل الفاضل بن عاشور: (واتصلت سلاسل الرواية والملاقاة وتلقي الدروس كامل القرن الثاني عشر قويةً ناميةً متتاليةً، وفيه شدَّ كثيرٌ من التونسيين الرحلة إلىٰ الأزهر؛ لاستكمال تخرجهم فيه بالأساتذة الأعلام، الذين كانت سمعتهم السائرة تجلب إليهم الشادين في طلب العلم من الآفاق)[(١)].

وفي حوار جريدة البلاغ مع السيد أبي بكر العطاس رئيس رابطة الحضارم العلويين في أندونيسيا عند وصوله للقاهرة علىٰ رأس وفد رفيع من الأعيان، في جمادىٰ الأولىٰ سنة ١٣٥٤هـ، فجاء ذكر الطلاب

(١) من بحث جليل عنوانه: (امتزاج الأزهر بالزيتونة)، في المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية ٢٢ من ذي الحجة ١٣٨٩هـ = ٢٨ فبراير ١٩٧٠م.

المبعوثين من أندونيسيا في مصر، فقال: يوجد زهاء أربع مئة طالب أندونوسي في مصر، وهم موزعون بين الأزهر الشريف والمدارس الثانوية والعالية[1]، إلىٰ أن قال: (إنهم ينظرون إلىٰ مصر نظرة حفاوة وتقدير وأمل، وللجامع الأزهر خاصة مقام كبير في نفوس أهل أندونسيا عامة، وكل من يصل إلينا في مصر أو من أزهرها يكون موضع التجلة والإكرام).

بل حدثني سعادة الأستاذ الدكتور أسامة العبد رئيس اللجنة الدينية بالبرلمان أنه أثناء رئاسته لجامعة الأزهر ـ وكذلك حدثني سعادة الأستاذ الدكتور إبراهيم صلاح الهدهد نائب رئيس جامعة الأزهر وقتئذ ـ أنهما كانا في زيارة إلىٰ سلطنة بروناي، وكان من تراتيب الزيارة أن عقدوا لرئيس الجامعة والوفد المرافق له مجلسًا، جمعوا فيه سبع مئة نفس، من خريجي الأزهر الشريف، فكان من بينهم الجد والأب والابن، من الأسرة الواحدة، من الأزهريين، ممن هم في سن السبعين أو نحوها، وأنهم كانوا يتذكرون معه شذرات من ذكرياتهم في مصر، إبان دراستهم في الأزهر الشريف، في عقد الخمسينات والستينات، أيام أن كانت السلع بملاليم، بل بلغ من عمق الأمر أن وزير التعليم ووزير الأوقاف ووزير الداخلية هناك كانوا من خريجي الأزهر.

وعلىٰ مثل ذلك مضىٰ الأمر، حتىٰ استفاض العلماء المتخرجون من الأزهر الشريف في أقطار المعمورة، ورُبَّ قطرٍ من الأقطار تداعىٰ أبناؤه عبر الأجيال علىٰ توحيد وجهتهم لتحصيل العلم في الأزهر الشريف، حتىٰ صار العلماء جميعًا في تلك البقعة من الأزهريين.

۞ وكذلك الأمر بالنسبة للسودان، فيقول الشيخ حامد عبد الرحمن الحمدابي: (وكان جل الفقهاء الذين تولوا القضاء في دولة سنار من متخرجي الأزهر، وممن درسوا علىٰ متخرجي الأزهر)[2]، وقال أيضا: (وانتقل إلىٰ دارفور من سنار علماء سودانيون تخرجوا من الأزهر، أو درسوا علىٰ من تخرج من الأزهر، أفادت منهم البلاد)[3]، إلىٰ أن قال: (وتعد دارفور من أكبر مديريات السودان، وقد حظيت بنهضة دينية ثقافية إسلامية كبيرة، كان لرواد الأزهر فيها الدور البارز، ومن الصعب حصر العلماء الأزهريين من أبناء دارفور)[4]، حتىٰ يخلص إلىٰ قوله: (وعلىٰ العموم فإن الأزهر له أثر علىٰ السودان في حفظ الهوية والتنوير الإسلامي، شمل كل شيء في الحياة السودانية)[5].

ولعل من أشهر رجال السودان وعلمائه، الذين تأسست علىٰ أكتافهم جسور روابط العلم بين مصر

---

(١) لمحات خاطفة عن جمعية خير /ص٥٣/.

(٢) دور الأزهر في السودان: إعلام وعلماء /ص٣٥/.

(٣) دور الأزهر في السودان: إعلام وعلماء /ص٣٨/.

(٤) دور الأزهر في السودان: إعلام وعلماء /ص٤٢/.

(٥) دور الأزهر في السودان: إعلام وعلماء /ص٥١/.

والسودان، حيث وفدوا إلىٰ الأزهر وتفقهوا فيه، ثم رجعوا إلىٰ بلادهم فاستفاض منهم العلم والعمران هم: أولاد جابر الأربعة.

وهم: إبراهيم (البولاد)، وعبد الرحمن، وعبد الرحيم، وإسماعيل، فأعلمهم إبراهيم، وأصلحهم عبد الرحمن، وأورعهم إسماعيل، وأعبدهم عبد الرحيم، وأختهم فاطمة نظيرتهم في العلم والدين.

ويشير تاريخ هذه الأسرة أن أصولها كانوا أهل علم ودعوة، وكانت تحركاتهم داخل البلدان من أجل نشر الدعوة، حيث كانوا يتوارثون حفظ القرآن الكريم، نسائهم ورجالهم، وكانوا معروفين بالذكاء وقوة الذاكرة، وهذه من الأسباب التي يسرت لهذه الأسرة النبوغ في مجال العلم والأخذ بأَزِمَّته والتمكن منه ثم القيام بنشره.

وقد درس الإخوة الذكور في الأزهر الشريف علىٰ مراحل مختلفة، وتتلمذوا علىٰ العلامة البنوفري وطبقته من أعيان الأزهر في القرن العاشر، ثم عادوا ليرعوا الحركة العلمية في السودان.

وقد ولدوا جميعًا وعاشوا وتوفوا بجزيرة ترنج، الواقعة في مروي بالشايقية، وهم أول من درسوا مناهج التصوف الصحيح الحق بالسودان، وهم أول من أسسوا خلوة نظامية لتعليم العنصر النسائي بالسودان علىٰ يد الشيخة الصالحة فاطمة بنت جابر، مع مساهمتهم العلمية ومخطوطاتهم الفقهية الكثيرة ابتداء من تأليف جدهم الشيخ غلام الله للجزء الأول من موسوعة أنساب أهل السودان المعروفة بوثيقة (دنقلا) والتي أتمها من بعده أحفاده.

حتىٰ مثل أولاد جابر في مجموعهم التراكمي ظاهرة عملية ذات جذور ثقافية وروافد ممتدة، نفحت وما تزال تنفح المجتمع السوداني بالقيم والأخلاق الفاضلة[١].

وقد ورد في مذكرات المعمر السوداني الشيخ متولي محمد العتباني[٢]، الذي شهد الفترة المهدية،

---

(١) وقد كتب الدكتور سمير محمد عبيد نقد حول أولاد جابر وجدهم وآثارهم العلمية كتابا قيما اسمه: (غلام بن عايد وآثاره في السودان)، ط: دار عزة للنشر والتوزيع، الخرطوم، السودان، سنة ٢٠٠٧م، وللدكتور أحمد إبراهيم أبو شوك مقال منشور يشتمل علىٰ تعقيبات حول هذا الكتاب وإضافات مهمة، وانظر: كتاب طبقات ود ضيف المسمىٰ: الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان /ص٦/، ط: المكتبة الثقافية، بيروت، لبنان، وموسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماءالأعلام والأماكن /١/٣٤٢/.

(٢) المعمر متولي العتباني، هو ابن محمد خليل العتباني بك، قومندان مدفعية الخرطوم إبان سقوطها سنة ١٣٠٣هـ، ولد في الخرطوم سنة ١٢٨٦هـ الموافق ١٨٧٠م، وتعلم بمدرسة الخرطوم القديمة، وكان ضمن أسرىٰ المهدية، وقد طال عمره فكان شاهد عيان علىٰ أحداث هامة في تاريخ السودان، وانظر: موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن /٥/٢٠٩٤/، ويعتبر هذا المعمر هو ومحمد عبد الرحيم صاحب (نفثات اليراع) من كبار شيوخ المؤرخين السودانيين المعاصرين.

وعاصر مقتل غوردون باشا، وشهد دخول الجنود المصريين إلىٰ الخرطوم، فيقول: (كان التعليم في الحكومة الوطنية السابقة مثل حكومة الفونج، يتركز في الخلاوي لقراءة القرآن، وانتشرت الخلاوي في كل أنحاء السودان، وبعد حفظ القرآن يهاجر الطلبة إلىٰ الجهات التي فيها العلماء، فيتعلمون منهم، وبعض الطلبة يهاجرون إلىٰ الجهات المختلفة، إلىٰ مصر، رغم مشقة السفر وصعوبة المواصلات، وكان السفر بالمراكب وبالجمال، وأحيانًا مشيا علىٰ الأقدام، فذهبت أعداد كبيرة للأزهر الشريف، وكان ملوكهم يرسلون نقودًا ومساعدات للأزهر، حتىٰ أصبح للسودانين رواق خاص، ولما جاءت الحكومة التركية زادت الخلاوي حتىٰ صار في كل حلة من الحلا خلوة، وتوسعت معاهد العلم أيضًا، وزاد عدد المهاجرين إلىٰ الأزهر، وأكمل بعضهم دراسته بالأزهر، وحاز الشهادة العالمية، وعاد إلىٰ وطنه السودان لينشر العلم في مسقط رأسه).

◉ وكذلك الأمر بالنسبة إلىٰ أريتريا، حتىٰ قال العلامة الشيخ عبد الله المشد والعلامة الشيخ محمود خليفة في تقريرهما المقدم للأزهر عن الحالة الدينية في الصومال وأريتريا في وصف الحالة الدينية في أريتريا: (حرصهم علىٰ إيفاد عدد كبير من أبنائهم كل سنة إلىٰ الأزهر، ليتفقهوا في الدين، وقد بلغ عدد من التحق بالأزهر أكثر من مئة وخمسين طالبًا، عدا من التحق بالمدارس المصرية الابتدائية والثانوية ممن لا يقل عددهم عن ثلاثين تلميذًا)[1].

◉ وكذلك الأمر بالنسبة لفلسطين، حتىٰ قال العلامة عثمان الطباع في: (إتحاف الأعزة) عند كلامه علىٰ قرية برير بفلسطين: (وقد ظهر منها علماء وصلحاء؛ أدركنا منهم بالجامع الأزهر: العلامة الشيخ محمد حسين، والشيخ علي الأبريري، وكان منها كثير من الطلاب بالأزهر)[2].

فهذه قرية واحدة من قرىٰ فلسطين، شهد الواقع العلمي بتوافد كثير من أبنائها للأزهر الشريف، لما استقر عليه الأمر عندهم، من جلالة الجامع الأزهر، بحيث تعين عندهم أنه هو المدرسة الكبرىٰ التي يطمئنون إلىٰ وجود أبنائهم في كنفها، لجودة صناعتها العلمية، في بناء العقول.

بل حدَّث الأستاذ عوني فارس أن الشيخ عكرمة صبري أخبره في مقابلة معه أنه قام بتعيين مجموعة من الأزهريين في منصب الإفتاء في محافظات الضفة الغربية وقطاع غزة، سنة ١٩٩٥م، تصادف أنهم كانوا زملاء في الأزهر في ثلاثينات القرن الماضي، وهم: الشيخ فتح الله السلوادي، في دار الإفتاء في رام الله، والشيخ توفيق جرَّار، في دار الإفتاء في جنين، والشيخ هاشم صبري، في دار الإفتاء في قلقيلية، والشيخ مشهور الضامن، في دار الإفتاء في نابلس، والشيخ كمال الأغا، في دار الإفتاء في غزة[3].

---

(١) تقرير عن أحوال المسلمين في بلاد الصومال وأريتريا وعدن والحبشة /ص١١٩/، ط: مطبعة الأزهر، سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥١م.

(٢) إتحاف الأعزة، في تاريخ غزة /٢/٤٣٧/، ط: مكتبة اليازجي، غزة، فلسطين، سنة ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م.

(٣) رجال لقيتهم /هامش ص١٦/، ط: أروقة، عمان، الأردن، سنة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

قلت: فهذا جيلٌ واحدٌ من الأزهريين الفلسطينيين، خرجتْ منه هذه الكوكبةُ المنيرة، حتىٰ تأتي سنة، يتولىٰ فيها الإفتاء في محافظات فلسطين هذا العدد من العلماء، وكلهم أبناء طبقة واحدة تعلمت في الأزهر الشريف.

بل قال الأستاذ أحمد سامح الخالدي في كتابه الماتع: (أهل العلم بين مصر وفلسطين): (ويندر أن تجدَ عالمًا أو فقيهًا أو كاتبًا فلسطينيا منذ القرن الرابع الهجري لم يدرس في الأزهر، أو لم يتتلمذ علىٰ أحد علمائه)[1].

وأقول: هذا توصيف صادق للواقع الذي كان موجودًا هناك، ودليل ذلك قول العلامة محمد عبد المجيد الأزهري البروقيني ت١٤١٣هـ: (في سنة ١٩٣٤م قام أشخاص من مسلمي قرية الرينة ـ ممن يعملون في سلك المساحة ـ مع حسن بك بن رأفت بك الحسيني، وهو ابن أخت سماحة الحاج أمين، فطلب أولئك الأشخاص الموظفون معه منه أن يقنع خاله الحاج أمين بأن يُعَيِّن واعظًا وإمامًا ومدرسًا لمسلمي قرية الرينه في قضاء الناصرة، وبالفعل ورد إليَّ كتابٌ من سماحة الحاج أمين بتعييني لتلك الوظائف، ولكن شريطة أن أذهب إلىٰ عكا لمقابلة الشيخ عبد الله الجزار مفتي عكا وعلماء جامع الجزار وعلماء المدرسة الأحمدية، فاجتمعت بالشيخ عبد الله الجزار وعلماء المدرسة الأحمدية، وكلهم أزهريون، فسألوني أسئلة عدة في الفقه وفي أصوله، فكتبوا: «لقد ثبت كفاءة هذا الشيخ وأهليته للقيام بهاتيك الوظائف»)[2].

ويستفاد من هذا الخبر عدة فوائد، منها أن علماء تلك البلدة كلهم أزهريون، ورغم ذلك فقد طلبوا من المفتي تعيين واعظٍ وإمامٍ ومدرس للقرية، فليس عندهم كبر ولا عجرفة في أن يستقدموا عالمًا يقوم بتلك الوظائف، ثم لما رشَّح لهم المفتي عالمًا اختبروه في الفقه والأصول، فثبتت عندهم كفاءته، فشهدوا له بذلك، وأتاحوا له القيام بتلك الشئون بعد أن اطمأنوا إلىٰ أهليته، مما يفيد أن التسليم لشخص بأن يعظ ويخطب ويدرس في المساجد كان شأنًا مضبوطًا، لا يمكن أن يتسرب من خلاله إلىٰ المنبر رجل يحمل فكر التكفير ولا التطرف، ولا ينجرف إلىٰ الشذوذ في الفتوىٰ والشطح في الفكر.

وقال الأستاذ عوني فارس: (كان الأزهر حتىٰ بدايات القرن العشرين ملاذ طلبة العلم من الفلسطينيين ـ واستنادًا إلىٰ دراسة مسحية شملت ٢٤٠ من علماء فلسطين في المدة ما بين القرن العاشر الهجري حتىٰ القرن الرابع عشر ـ فقد اعتبره المؤرخ كامل العسلي المركز الأول للتعليم العالي في فلسطين،

---

(١) أهل العلم بين مصر وفلسطين /ص٣/، ط: شركة نوابغ الفكر، القاهرة، سنة ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م.

(٢) سيرة الشيخ البروقيني المسماة: إتحاف النابه المجيد، في مناقب الشيخ محمد بن عبد المجيد /ص٩/، ط: مطبعة مسعودي، القدس، شعفاط، سنة ١٩٩٤م.

حيث أشارت الدراسة إلىٰ أن ٩٦ عالمًا من هؤلاء تلقوا العلم في الأزهر، بينما تلقاه ٤٢ في إستانبول، و٢٤ في دمشق، وقد بقي الأزهر محط أنظار الطامحين في دراسة العلم الشرعي في فلسطين، حتىٰ نهاية النصف الأول من القرن الماضي)[1].

۞ وكذلك الأمر بالنسبة للشام، حيث قال الأستاذ الدكتور أسعد طلس في كتابه: (مصر والشام بين الغابر والحاضر): (فأنت ترىٰ قوة الصلات بين القطرين، وما ينبغي لنا أن ننسىٰ أن للأزهر يدًا قوية، في إحكام هذه الصلات، فهو الذي كان يخرج رجال الأدب والدين عند المسلمين، وهو الملجأ الوحيد الذي كان يلجأ إليه الشاميون ليتفقهوا في الدين، وليدرسوا لغتهم، وقد كان المصريون يرحبون بهم كل ترحيب، ويغدقون عليهم العطايا والجرايات، ولا يقفون في سبيل من أوتي نصيبًا من العلم والنشاط، أن يتولىٰ الوظائف الكبيرة في مصر، كمشيخة الأزهر، ومشيخة أروقته، وإفتاء مصر، والتدريس في المعاهد)[2]، حتىٰ انتهىٰ المطاف به أن قال: (ولولا الأزهر في مصر لانطفأت شعلة العلم في الشام)[3].

۞ وكذلك الأمر بالنسبة للبنان، حتىٰ إنَّ بلدةً كطرابلس علىٰ وجه الخصوص صار الأزهر قبلة أبنائها ووجهتهم لطلب العلم، حتىٰ قال الأستاذ عبد الله حبيب نوفل في: (تراجم علماء طرابلس): (أما الحالة الأدبية فكانت حسنة بالنسبة إلىٰ ما سواها من المدن السورية، لأن رغبة أبنائها في طلب العلم تكاد تكون سليقة، وحسبك أن كثيرين منهم يذهبون لتحصيله في الأزهر الشريف)[4].

بل قال الدكتور أنيس الأبيض: (ويمكن القول أن كل طرابلسي ـ من أي طبقة ـ أحاط بشيء من العلم في القرن التاسع عشر: تيسر له الإلمام به في مدينته نفسها، ومما يؤكد لنا ذلك أن كل الذين وردت أسماؤهم لدىٰ مؤلف كتاب «تراجم علماء طرابلس» من مسلمين ونصارىٰ التقطوا الحرف من مدينتهم أولا، ثم سافر الكثير منهم إلىٰ بيروت ومصر والأستانة، ليتلقفوا ما أبرزته لنا قريحة علماء هذا الجيل من عرائس العلوم والمعارف.

إلا أن مصر كانت مقصد معظمهم؛ إذ كان للجامع الأزهر في ذلك الوقت أكبر الأثر في نشر العلوم الدينية من تفسير وحديث وفقه، والعربية منها من صرف ونحو، ومنطق، في جميع البلاد الإسلامية، وخاصة طرابلس، لتُخَرِّج عددًا من علمائها في الجامع المذكور.

وكان هؤلاء يعودون بعد تخرجهم في الجامع الأزهر في مصر ليعقدوا حلقات التدريس في جوامع

(١) من مقال: الشيخ فتح الله السلوادي في رواق الشام، ذكريات طالب أزهري /ص٣٦/، مجلة حوليات القدس، العدد ١٢، الصادر في شتاء سنة ٢٠١١م.

(٢) مصر والشام في الغابر والحاضر /ص٨٨/، ط: دار المعارف، مصر، سنة ١٩٤٥م.

(٣) مصر والشام في الغابر والحاضر /ص٨٠/.

(٤) تراجم علماء طرابلس وأدبائها /ص/، ط: مطبعة الحضارة، طرابلس، سنة ١٩٢٩م.

طرابلس، وخاصة في الجامع المنصوري الكبير)[1].

❁ وكذلك الأمر بالنسبة إلىٰ نيجيريا، حتىٰ قال العلامة الشيخ آدم الآلوري: (وكان اتصال مسلمي نيجيريا بمصر وشمال إفريقيا والحجاز من أجل التعلم اتصالا قويا، حتىٰ صارت هذه البلاد تضاهي تلك البلاد في العقيدة والمذهب ومنهج الحياة والتعليم؛ إذ كان طلاب العلم يرتحلون لطلبه إلىٰ القيروان وفاس وطرابلس وتونس، كما يتدفقون إلىٰ الأزهر الشريف بكثرة، حتىٰ أدىٰ إلىٰ تخصيص رواق لهم فيه، يعرف بالرواق البرنوي)[2].

❁ وكذلك الأمر بالنسبة لليبيا، فلقد كان المعول عند الليبيين في التعليم علىٰ الأزهر أو الزيتونة، وربما قفز بعضهم إلىٰ مازونة في الجزائر أو إلىٰ تلمسان، ولا أعلم أن أحدًا منهم أمعن غربًا إلىٰ القرويين، حتىٰ نشأت مدرسة عثمان باشا الساقزلي في طرابلس الغرب، والسند العلمي لشيوخها يرجع إلىٰ الأزهر أولا ثم الزيتونة، والناظر في كتب تراجم الليبيين يجد الأزهريين فيها كثرة كاثرة، وأنت ترىٰ منهم هنا في هذه الجمهرة عددًا جمًّا موزعين علىٰ سنوات وفياتهم.

بل ربما انتظمت أسر كاملة من الليبيين في عداد الأزهريين، حتىٰ إن أسرة واحدة في الديار الليبية، وهي أسرة السادة الأشراف آل الأشهب[3]، وهم ذرية الشريف الجليل عمر الملقب بالأشهب ابن الشريف محمد بن عمر بن محمد ابن الولي الصالح سيدي أبو حميدة السقيفي الإدريسي الحسني، وقد ارتبطت كلها بالأزهر الشريف، فبرز منها عدد جم من الرجال الأكابر، عرفوا بالعلم والتقوىٰ، وتواردوا جميعًا علىٰ الدراسة في الأزهر، وكان لهم فضل نشر العلم في ربوع ليبيا، أمثال: علي عمر مفتاح الأشهب، ومحمد عمر مفتاح الأشهب، وعبد الرحمن أحمد علي الأشهب، وأحمد محمد الأشهب، ومحمد مفتاح الأشهب وإبراهيم محمد علي الأشهب، وعبد السلام محمد علي الأشهب، ومحمد أحمد علي الأشهب.

قال الدكتور علي عبد المطلب الهوني: (وإذا كان هذا العدد من أسرة واحدة تخرجت في جامعة الأزهر، في وقتٍ قلَّ فيه من يعرف القراءة والكتابة في ربوع ليبيا، فإنْ دلَّ هذا علىٰ شيء فإنما يدل علىٰ مكانة رجالات هذه الأسرة بين الأسر الليبية، وإيثارهم للعلم علىٰ ماعداه، وعلىٰ علو كعبهم فيه، وتفضيلهم إياه علىٰ التجارة وغيرها).

وفي المدينة المنورة بيت الأزهري، نسبة إلىٰ الجامع الأزهر، وإلىٰ هذا البيت ينتسب جماعة

(١) علماء ومدارس طرابلس خلال القرن التاسع عشر /ص٢٠/، ط: مطابع المكمل، طرابلس، لبنان، سنة ٢٠٠٦م.
(٢) الإسلام في نيجيريا /ص٧٣/، ط: دار الكتاب المصري اللبناني ومكتبة الإسكندرية ودار الكتاب المصري، سنة ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.
(٣) وسبب التسمية أن لقب الأشهب يعرف بأنه الفجر الأبيض المختلط بالحمرة وقدت جرت العادة في الشمال الأفريقي عموما والمغرب العربي خصوصًا أن يطلق هذا اللقب علي العديد من عائلات وأفراد البيت النبوي الشريف كناية عن الفجر.

كثيرون من أهل العلم والصلاح، وأشهر من قدم منهم مهاجرًا إلىٰ المدينة المنورة في حدود سنة ١٠٠٠هـ: السيد أبو الطيب الحسني الحنفي الأزهري المغربي الفاسي، وكان نائب الأئمة الحنفية في الروضة النبوية مدة مديدة، علىٰ سيرة حميدة، وتوفي في حدود سنة ١٠٢٢هـ، وأعقب عددًا من الأعيان(١).

ومثلهم من المصريين أسر كبيرة؛ منهم علىٰ سبيل المثال: آل كُرَاعٍ في مدينة أسنا من صعيد مصر، فكان منهم الشيخ محمد عبد النعيم سليم كراع، والشيخ عبد الوهاب أبو كراع، والشيخ الصديق الصادق محمد محمود كراع، والشيخ يسري محمد حسن كراع، وغيرهم كثير من أعيان هذه الأسرة الكريمة الموقرة.

ومنهم: آل شرشر، وهي أسرة علمية جليلة، من أعيان عائلات مدينة سرس الليان بمحافظة المنوفية، وقد تسلسل فيها العلم في عدة أجيال، وعلىٰ رأسهم الشيخ الكبير حسن شرشر السرسي الشافعي، وأخوه الشيخ سالم، والشيخ حسين سالم شرشر، وعميد معهد منوف الأزهري الشيخ عبد العزيز شرشر، والشيخ عبد العظيم شرشر، والشيخ علي شرشر، إلىٰ تمام واحد وعشرين عالمًا من علماء الأزهر في البرزخ الكائن بالمقام الملحق بجامع الأربعين، وهو أكبر جامع في مدينة سرس الليان.

وأسرة أبي النجا، من أبناء قرية كفر عيسىٰ، المعروف بكفر العلماء، فمنهم الشيخ محمد سليمان أبو النجا ت١٣١٢هـ، والشيخ محمد عبد الله أبو النجا ت١٣٦٨هـ، والدكتور السيد الصادق أبو النجا، والشيخ الصالح أبو النجا إمام الجامع الأزهر.

وأسرة الفاهوم في فلسطين، وقد جاور منها في الأزهر عدد كبير من السادة الأجلاء، ومنهم الشيخ عبد الله الفاهوم النيني الأزهري مفتي الناصرة، والشيخ أمين الفاهوم الأزهري مفتي الناصرة، والشيخ عبد اللطيف الفاهوم الأزهري قاضي طبريا، والشيخ يوسف أمين الفاهوم الأزهري، وولده الشيخ عمر فاهوم الأزهري مفتي الناصرة(٢)، وبعد الشيخ عبد الله الفاهوم فصل القضاء عن الإفتاء، فالذين ذكروا بعده كانوا مفتين لا قضاة(٣).

وأسرة الرافعي في طرابلس، حتىٰ قال عبد الله نوفل في ترجمة الشيخ مصطفىٰ عبد القادر الرافعي

---

(١) تحفة المحبين والأصحاب، في معرفة ما للمدنيين من الأنساب /ص٦٦/، ط: المكتبة العتيقة، تونس، سنة ١٣٩٠هـ - ١٩٧٠م، تحقيق: محمد العروسي المطوي.

(٢) والناصرة بلدة في فلسطين، علىٰ أرض مرتفعة، من أجمل أودية الشام، وقد أفردها بالتأليف القس أسعد منصور في كتاب حافل كبير، سعدت بمطالعته، عنوانه: (تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلىٰ أيامنا الحاضرة)، ط: مطبعة الهلال، مصر، سنة ١٩٢٤م، وانظر لمحة عنها في: التحفة السنية، في تاريخ القسطنطينية /ص١٦٥/، وانظر كتابا مهما عنوانه: آل الفاهوم والسجل الفاهومي، للدكتور رؤوف أبو جابر، ط: دار ورد الأردنية للنشر والتوزيع، الأردن، سنة ٢٠١٥م.

(٣) تاريخ الناصرة من أقدم أزمانها إلىٰ أيامنا الحاضرة /ص٢٩٩/.

والد مفتي الديار المصرية الشيخ عبد القادر الرافعي: (ورزق جملة أولاد تعلموا جميعهم في الأزهر فبرعوا، وهم الآن من أركان القطر المصري علما وعملا، فمنهم الآن رئيس الجمعية العلمية بمصر، وشيخ رواق الشوام بالجامع الأزهر، ومنهم مفتي طنطا، وقاضي دمنهور، وأولاد أولاده منهم قاضي السويس ومفتي الإسكندرية، وغير ذلك)[1].

فلم يزل الأزهر الشريف الشمس الساطعة بالعلم والمعرفة، على مختلف الأقطار، تشعُّ منه أنوار المعارف، ومدارك العلوم، ويفيض منه الرجال المتبحرون، والأئمة الحكماء المتضلعون، فيرجعون إلى مختلف بقاع المعمورة، ليكونوا نجومَ هدى، يأنس الناس بهم، وتجد فيهم الأمم والشعوب الحكمة والرصانة، والعقل الرفيع الموزون، فلا تزال مكانة مصر والأزهر، تتعمق في وجدان الأمم، وتتأكد تلك المنزلة في كل جيل، بما يلحظونه من استمرار الأزهر في توليد المعارف، وصناعة العقول.

(١) تراجم علماء طرابلس وأدبائها /ص٤٥/، ط: مطبعة الحضارة، طرابلس، سنة ١٩٢٩م.

إِضَاءَةٌ

في تشبيه مدارس العلم الكبرى في المشرق والمغرب بالأزهر الشريف مما يدلُّ على مركزيته وعبقريته

ولقد نزل الأزهر الشريف منزلةً عليا بين معاهد العلم ومدارسه، حتىٰ صارت المدارس العلمية سواه تنزل منه منزلة الفرع من الأصل، فـ(لا يكاد يضارع الأزهرَ معهدٌ آخر في العالم، من حيث الخدمات العلمية التي قام بها منذ إنشائه، قبل نيف وألف سنة، فقد كانت وفود الطلبة تقبل عليه من كل فج عميق، فيجاورون في الأزهر، ثم يعودون إلىٰ بلدانهم شيوخًا، فينشئون فيها بدورهم المعاهد الدينية الإسلامية)(١).

قال العلامة الشيخ محمد المبارك عبد الله الأزهري في كتابه: (مع التعليم الديني في السودان): (وأسمع عن الأزهر الشريف، وأعلم علو شأنه في جامعات العالم، وأصالته في التعليم الديني، وأن ما سواه رافد من روافده، وتبع له في ذلك، وأنه منتهىٰ مقاصد العلماء، يفدون إليه من كل فج عميق، وغاية غايات طلاب العالم الإسلامي، يهرعون إليه من كل حدب وصوب)(٢).

وأقول: وعبارات العلماء في الدلالة علىٰ مركزية الأزهر وتوهجه وسطوع شمسه فوق الحصر، بحيث صار أنموذجًا للمدارس العلمية في المشرق والمغرب، وكلما نهضت مدرسة علمية في بقعة من بقاع العالم الإسلامي علىٰ امتداد رقعته، وآنس الناس فيها بوادر النجاح، واشتهرت بجودة التعليم، وشاع لها الذكر الحسن بذلك فيما حولها من بقاع، وقصدها طلبة العلم ورحلوا إليها، فإن علماءها حينئذ يشبهونها بالأزهر الشريف.

حتىٰ أفضىٰ ذلك إلىٰ أمرٍ عجيبٍ، حيث وقع تشبيهُ عدد من المدارس العلمية والمساجد الكبرىٰ في مشارق الأرض ومغاربها بالأزهر الشريف، وبأن تلك المدرسة هي أزهر ذلك المكان، لما استقر واستفاض في وجدان الشعوب والأمم من جلالة قدر الأزهر الشريف ومنزلته، حتىٰ صار هو المرموق

---

(١) اقتباس من تقرير مطول عن الأزهر الشريف، في مجلة: ناشيونال جيوغرافيك /ص٤٤/، العدد الصادر بتاريخ يوليو، سنة ٢٠١٣م.

(٢) مع التعليم الديني في السودان /ص١٩/، ط: مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، سنة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٣م.

والملحوظ بعين الإكبار، وصار هو المقياس الذي تقاس إليه مدارس العلم، وتتشبه به، ومتىٰ تسنىٰ نهوض مدرسة علمية في المشرق والمغرب بعلوم الشرع الشريف وكثر روادها وطلابها، وتخرجت منها أجيال، فإن منتهىٰ الأمل عند أربابها أن تحظىٰ بما حظي به الأزهر الشريف من منزلة.

قال الدكتور شهاب النمر إسماعيل شهاب: (في أندونيسيا تسمع كلمة الأزهر كثيرا، فكل من تعلم في الأزهر، أو كما قلنا تعلم علىٰ يد من تعلم في الأزهر يرىٰ نفسه أزهريا، وقد كثر إطلاق لقب الأزهري علىٰ كثير من هؤلاء، بل إن بعض الناس قد يسمي ابنه «الأزهر»، مثل «محمد تيسير الأزهر» مثلا ونحو ذلك، وربما أطلقوا اسم الأزهر علىٰ معاهدهم الخاصة تيمنًا باسمه، أو ترغيبًا للناس فيه، وإشارة إلىٰ أن ما يدرسونه من المناهج يسير علىٰ وفق مناهج الأزهر)[١].

فأطلق مثلًا علىٰ المعهد العلمي الجليل في أم درمان اسم: أزهر السودان، وجمع الدكتور معتصم أحمد الحاج كتابًا مهمًّا اسمه: (أزهر السودان: المعهد العلمي بأم درمان: تاريخه وتطوره)، وعليه انتقاد في مواضع منه، كتب فيها الشيخ عبد المحمود أبو شامة عدة مقالات، وللعلامة الشيخ علي العماري مقالتان في مجلة الأزهر[٢]، عنوانهما: (التعليم الديني في السودان)، يصف فيهما عن مشاهدة حال التعليم هناك، وأثر الأزهر في علماء السودان، ونشأة المعهد العلمي في أم درمان علىٰ يد شيخ علماء السودان أبو القاسم أحمد هاشم، وكيف اقتبس نظمه التعليمية من الأزهر الشريف.

بل إن خلوة عبد الرحمن ود حاج، المشهورة بخلوة دويم ود حاج قد وقع تشبيها بأنها كالأزهر، حتىٰ إن العلامة الشيخ محمد خليل الهجرسي الأزهري قد وصفها في كتابه (القصر المشيد) بأنها أزهر مصغر[٣].

وكذلك الرباط العلمي الجليل في مدينة تريم بالديار الحضرمية، وكان علىٰ رأسه أستاذ الجيل وعلامة تريم الحبيب عبد الله بن عمر الشاطري، وقد أفرد له البحاثة المؤرخ عبد الله بن حسن بلفقيه رسالة مهمة اسمها: (تذكرة الباحث المحتاط، في شئون وتاريخ الرباط).

وقد أجرىٰ الله تعالىٰ النفع الغزير بهذا الرباط السامي، وتسابق إليه طلاب العلم من نواحي اليمن والملايو وشرق أفريقيا، وتعددت طبقات المتخرجين فيه، حتىٰ وقع تشبيهه في قطره ومكانه بالأزهر الشريف، لعظيم أثره، قال العلامة النسابة المحقق محمد ضياء شهاب في: (تعليقات شمس الظهيرة): (ومنها رباط تريم، ذو الشهرة العلمية، كما وصفه بعض الكتاب بأنه أزهرُ بلاد الجنوب)[٤]، وقال العلامة

---

(١) أندونيسيا بلاد الحب والسحر والثورة /ص١٣٠/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠١٦م.

(٢) مجلة الأزهر /السنة ٣٠/ص٨٩٨ ـ ٨٩٩/، العدد الصادر بتاريخ شوال سنة ١٣٧٨هـ، الموافق أبريل سنة ١٩٥٩م.

(٣) موسوعة أهل الذكر بالسودان /٢/٤٨٦/، ط: المجلس القومي للذكر والذاكرين، السودان.

(٤) تعليقات شمس الظهيرة /١/٣٩٤/، وانظر عنده أيضا لمحة مطولة في تاريخ رباط تريم في: تعليقات شمس الظهيرة=

الجليل الحبيب علي بن حسين بن محمد العطاس في: (تاج الأعراس) عن رباط تريم أثناء ترجمة العلامة الحبيب عبد الله بن عمر الشاطري: (رباط تريم، وأزهر الإقليم)(١)، وقال العلامة الحبيب محمد بن أحمد الشاطري بعد أن تكلم علىٰ رباط الإمام الحبيب علي الحبشي في مدينة سيئون: (ويليه في التأسيس رباط تريم الشهير، أزهر حضرموت، وذلك سنة ١٣٠٤هـ، وقد تخرج منه ألوف من العلماء والطلاب بحضرموت، واليمن، وعدن، والولايات الغربية، وهي ما كان يسمىٰ بالمحميات الغربية، وصوماليا، وزنجبار، وملايا، وأندونيسيا، وغيرها كثير)(٢).

وكذلك رباط الفتح في تريم أيضا، قال إبراهيم المقحفي في: (معجم البلدان والقبائل اليمنية): (رباط مسجد الفتح، الذي وصفه البعض في ذروة نشاطه العلمي بأنه الأزهر الصغير)(٣).

وكذلك الشأن في رباط العلامة محمد بن عمر بن سلم في غيل با وزير في حضرموت، حتىٰ قال شيخ الرباط حاليا العلامة الشيخ أحمد بن عمر با رفعة: (ونظام التعليم ومقرراته برباط العلامة بن سِلْم مأخوذان من نظام التعليم ومقرراته بالأزهر الشريف، لأن مؤسس هذا الرباط تلقىٰ تعليمه في الأزهر الشريف الذي يعد أعظم جامعة إسلامية تزهو بشتىٰ أنواع العلوم والفنون، بل هو النهضة الحديثة والقدوة الحسنة في التعليم، بالإضافة إلىٰ ما التمسه مؤسس هذا الرباط من أصحاب الفضيلة شيوخ فتحه ومربيه الروحيين علي بن محمد الحبشي وأحمد بن حسن العطاس، فالنظام والمقررات برباط الغيل خليط من المصري والحضرمي)(٤).

إلىٰ أن قال: (ومن ثَمَّ نقل هذا الشيخ الجليل بِنْ سِلْم ما في الأزهر من نظام تعليمي ومقررات وهيئات وعادات، ليتأسىٰ بأكبر جامعة إسلامية، صلتها بالتعليم وثيقة، وطريقتها أوثق).

وأُطلق علىٰ دار العلوم الدينية في ديوبند (أزهر الهند)، لما اتفق لتلك المدرسة الجليلة من احتشاد العلماء، وإقراء الكتب الكبار بكمال التأني والتدقيق، وذيوع الصيت العلمي الرفيع، وقيام حركة العلم علىٰ قدم وساق، وتخريج أجيال متتابعة من العلماء المشهود لهم بالأهلية التامة، مما جعله في أذهان الهنود يشابه الأزهر الشريف لعظيم أثره، حتىٰ قال الشيخ أبو الحسن الندوي: (إن أكبر معهد ديني في

= /٢/٤٥٥/، ط: عالم المعرفة، جدة، سنة ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤م.

(١) تاج الأعراس، في مناقب الحبيب القطب صالح بن عبد الله العطاس /٢/٢٢٧/، ط: مكتبة ومطبعة منارا قدس، أندونيسيا، سنة ١٣٩٩هـ.

(٢) أدوار التاريخ الحضرمي /ص٤٢٢/، ط٣: دار المهاجر، المدينة المنورة، وتريم، حضرموت، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٣) معجم البلدان والقبائل اليمنية /١/٢٢٩/، ط: دار الكلمة، صنعاء، والمؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، سنة ١٤٢٢هـ - ٢٠٠٢م.

(٤) ثلج الفؤاد بالأمن والسِّلْم، في ترجمة العلامة محمد بن عمر بن سِلْم /ص٤٤٥/، ط: دار تقريب التراث، حضرموت، اليمن، سنة ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

الهند يستحق أن يسمىٰ أزهر الهند هو معهد ديوبند الكبير)[١]، وقال العلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: (مهد العلماء الربانيين، والجامعة العظيمة الدينية، أكبر جامعة إسلامية في الهند: دار العلوم الإسلامية في بلدة ديوبند، وهي علىٰ مئة ميل من الجانب الغربي الشمالي لمدينة دهلي عاصمة الهند، وكانت هذه الجامعة قرطبة الهند وأزهرها العامر، تزخر بكبار العلماء في كل علم)[٢].

وقال العلامة المحدث إمداد الحق السلهتي البنغلاديشي في: (هداية الساري): (ولما حضرت أزهر الهند، الجامعة الإسلامية: دار العلوم ديوبند الهندية، في عام تسع بعد الألف وأربعة مئة من الهجرة النبوية، عرضت تلك الوريقات المسودات علىٰ محقق العصر الجاري علامة الزمان المفتي محمد سعيد البالنبوري)[٣].

وقال الأستاذ الشيخ محمد حفظ الرحمن الكملائي في: (البدور المضية) وهو يتكلم عن ديوبند: (وكانت هذه الجامعة قرطبة الهند، وأزهرها العامر، تزخر بكبار العلماء في كل علم)[٤].

ويعلل ذلك الدكتور محي الدين الألوائي فيقول: (دار العلوم ديوبند، ويذكر عن هذا المعهد أزهر الهند، لأنه يؤدي في الهند وظيفة الأزهر في مصر)[٥].

ورأيت أثناء المطالعة عبارات كثيرة هنا وهناك في شغف علماء ديوبند ورجالها بتشبيه تلك الجامعة العريقة بالأزهر الشريف، وتلقيب العلامة قاسم النانوتوي مؤسس ديوبند بذلك اللقب الفريد، وهو أنه مؤسس أزهر الهند.

بل جاء في تقرير البعثة الأزهرية إلىٰ الهند سنة ١٩٣٦م عند كلامهم علىٰ ديوبند ما نصه: (فدار العلوم بديوباند تجري علىٰ ما كان الأزهر يجري عليه، منذ مئة سنة تقريبا، لم يدخل علىٰ مناهجها أي تعديل، وهي جامعة علىٰ النسق القديم، وإن كنا قد آنسنا في رجالها استعدادًا للأخذ بالجديد كما ورد ذلك في خطبهم، إلا أن الروح العامة في هذه الجامعة الدينية ما تزال غير آخذة بالأساليب العصرية، في الجمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين، ورجال هذه الجامعة من الطراز القديم أيضا، يعيشون في عزلة عن

---

(١) المسلمون في الهند /ص١٠٥/، ط: المجمع الإسلامي العلمي، لكناؤ، الهند، سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م، ونقله عنه الشيخ آدم الألوري في: نظام التعليم العربي وتاريخه في العالم الإسلامي /ص١٤٢/، ط٣: مكتبة دار النور، لاجوس، نيجيريا، سنة ١٤٠١هـ ـ ١٩٨١م.

(٢) تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي /ص١٥/، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية، حلب، سنة ١٤١٧هـ ـ ١٩٩٧م.

(٣) هداية الساري، إلىٰ دراسة البخاري /ص: ي/، ط: دار الفكر الإسلامي، داكا، بنغلاديش، سنة ١٤٣٢هـ.

(٤) البدور المضية، في تراجم الحنفية /٨٩/٥/، و/٥٩/٧/، ط: مكتبة شيخ الإسلام، محمد بور، الجامعة الرحمانية العربية، دكا، بنغلاديش، توزيع دار الصالح، القاهرة، سنة ١٤٣٩هـ ـ ٢٠١٨م.

(٥) مجلة صوت الشرق، عدد يناير، سنة ١٩٥٥م، مقال عنوانه: (في الهند مناهج إسلامية تتبع مناهج الأزهر).

العالم، شأنهم شأن علماء مصر في القرن الماضي)[1].

وعرفت مدرسة ندوة العلماء في لكنو بالهند كذلك بأنها أزهر حديث، حيث ورد في تقرير البعثة الأزهرية إلىٰ الهند سنة ١٩٣٦م ما نصه: (أما ندوة العلماء في لكنو فهي أزهر حديث يجمع بين علوم الدنيا وعلوم الدين، علىٰ نسق ما يفعل الأزهر اليوم، ورجال هذه المؤسسة من أنصار القائلين بأن علماء الدين لا يستطيعون القيام بخدمة الدين خدمة صحيحة إلا إذا استمالوا إلىٰ جانبهم علماء الدنيا واختلطوا بهم، وهم يجمعون ما بين الثقافتين علىٰ أحسن ما يستطاع)[2]، إلىٰ أن قالوا: (ومن فطاحل خريجي هذه الجامعة: السيد سليمان الندوي، وهو من قادة الفكر بين المسلمين، ويعيش في مدينة «أعظم جار»، ويتتبع سير الأمور في العالم الإسلامي بعناية، ويعرف عن الأزهر ونهضته ما لا يعرفه كثيرون).

وعرفت المدرسة الصولتية في مكة المكرمة بـ(أزهر الحجاز)، فقد رفع الله تعالىٰ لهذه المدرسة الجليلة منارًا ساميًا، وكان مؤسسها الشيخ رحمت الله قد جعل خليفته ونائبه في إدارة المدرسة الشيخ محمد سعيد ابن أخيه علي أكبر، وفي عهده زار الملك عبد العزيز هذه المدرسة في ٢٨ جمادىٰ الآخرة سنة ١٣٤٤هـ وبرفقته الشيخ محمد نصيف والشيخ يوسف ياسين وتفقد فصولها وأقسامها وبناياتها، وأثنىٰ علىٰ القائمين عليها وقال: (إن الصولتية هي أزهر بلادي).

وعرفت زاوية أبي البهي في ليبيا، والواقعة في الجزء الغربي من مدينة ككلة بالجبل الغربي بوادي الشيخ بـ(أزهر ليبيا) أو الأزهر الصغير، وقال الأستاذ الشيخ عبد المجيد عمارة في مقاله: (رحلة إلىٰ ليبيا): (وبها المعهد الديني السنوسي، والدراسة فيه علىٰ نظام الدراسة في الأزهر، ويقوم بالتدريس فيه نخبة غير قليلة من أساتذة الأزهر)[3].

وعرف مسجد سنكوري، بمدينة تنبكتو العريقة ـ والتي هي من أجل عواصم العلم والتعليم في مالي والغرب الأفريقي ـ بـ(أزهر تنبكتو)؛ لأنه تخرج به عدد لايستهان به من العلماء المحليين؛ فصار بمثابة الجامع الأزهر بمصر، كما عبر الدكتور موسىٰ عبد السلام مصطفىٰ أبيكن، والدكتور محمد حمد كنان ميغ، حتىٰ قال الدكتور عبد الرحمن زكي: (وهكذا نرىٰ أن الثقافة الإسلامية استقرت في تنبكتو، التي أصبحت لها نفس المكانة التي للقيروان في تونس، أو فاس في المغرب، أو قرطبة في الأندلس، وقد ارتبط تاريخ الثقافة في سودان المغرب بتاريخ هذه المدينة الجليلة، منذ أن أنشئت، واجتمع فيها العلماء من كل وطن: المغاربة، والأندلسيون، والحجازيون، والمصريون، وكان يفد إليها الطلاب من سنغال

(١) دراسة لأحوال الطوائف والهيئات الإسلامية بالهند /ص٤٧/، ط: مطبعة حجازي، القاهرة، سنة ١٩٣٦م.

(٢) دراسة لأحوال الطوائف والهيئات الإسلامية بالهند /ص٤٧/.

(٣) مجلة معهد الإسكندرية الديني /١٤٢/٢/، العدد الصادر بتاريخ شعبان، سنة ١٣٧٦هـ ـ مارس، سنة ١٩٥٧م، ط: مطبعة الأزهر، سنة ١٣٧٦هـ ـ ١٩٥٧م.

ونيجر ومن إمارات الهوسا وبرنو وكانم، فيقيمون بها زمنًا ثم يرحلون أو يبقون، وكان معهد سنكري بتنبكتو قريب الشبه من الأزهر في مكانته العلمية)(١).

وعرف أحد مساجد مدينة فاس بالمسجد الأزهر، قال أستاذنا الجليل عبد الهادي التازي في مقال له عن رواق المغاربة بالأزهر الشريف في (مجلة دعوة الحق): (لقد عرف المغرب منذ فجر تاريخه الإسلامي عددًا من المبادرات الطريفة التي لا تخلو من دلالات دقيقة رقيقة، فلأجل أن يستحضر أهله دائما وباستمرار صورة المدن والأماكن المشرقية اعتادوا أن يعطوا أسماء تلك المدن والأماكن لبقاع توجد بالمغرب)، إلىٰ أن قال: (ومن هذا القبيل عرفنا عن جامع في مدينة فاس، حمل منذ القرن السادس أيام الدولة الموحدية اسم «المسجد الأزهر»، تلميحًا للأزهر الشريف)(٢).

وكذلك الجامع العباسي في الهند، فقد ورد في تقرير البعثة الأزهرية إلىٰ الهند سنة ١٩٣٦م ما نصه (أما الجامع العباسي فهو مؤسسة أنشأها سمو «نواب بهاولبور»، لتكون أزهر جديدًا في بلاده، وينتسب سمو النواب إلىٰ الدولة العباسية، ولذلك ظهر شغفه باللغة العربية وتعلقه بكل ما هو عربي وإسلامي، وقد تعرف شئون الأزهر في مستهل القرن العشرين بواسطة وزير المعارف «الميجر شمس الدين»، ووزير المهام الخاص «الكولونيل قريشي»، وعمل بمشورتهما فأنشأ هذه الجامعة العباسية، ومناهجها أقرب ما تكون إلىٰ مناهج الأزهر، قبل القانون رقم ١٠، ولسمو النواب ورجال حكومته عناية كبرىٰ بهذه المؤسسة، ويرجون أن تؤدي لبلادهم ما يؤديه الأزهر لمصر من خدمات، ولكن رئيس هذه الجامعة رجل من رجال المدرسة القديمة)(٣).

وفي هذا الكلام فائدة كبيرة، حول اقتباس نظم التعليم في الأزهر لتشييد هذا الجامع العباسي علىٰ غرارها، ويستوقفني هنا أيضًا هذان الرجلان الجليلان: وزير المعارف الميجر شمس الدين، ووزير المهام الخاص الكولونيل قريشي، حيث كانا ﷺ هما الجسر الواصل ما بين الجامع الأزهر، وما بين هذه المدرسة العلمية الوليدة الناشئة: الجامع العباسي، فهما اللذان عكفا علىٰ تأمل نظم التعليم في الأزهر والتعرف إلىٰ شئونه وأحواله، ونقلها إلىٰ الجامع العباسي، مما يكشف عن أنهما مع جلالة مناصبهما قد تصفحا النموذج الذي يعد مثالًا سابقًا تحتذي به مدارس التعليم في المشرق والمغرب، واطلعا علىٰ تاريخه وعراقته، وأحبوا للمدرسة التي يعتزم سمو النواب إنشاءها أن تقوم في ديارهم بدور يشابه دور الأزهر الشريف في مصر وما يحيط بها.

وفي سنة ١٩١٦م توجه جمال باشا إلىٰ رعاية الكلية الصلاحية التي أسست علىٰ غرار الأزهر

(١) الإسلام والمسلمون في غرب أفريقيا /ص١٥٠/، ط: مطبعة يوسف، القاهرة، (د ت).
(٢) وانظر حول أزهر فاس: معلمة المغرب /٢/٣٦٣/، ط: مطابع سلا، سنة ١٤١٠هـ - ١٩٨٩م.
(٣) دراسة لأحوال الطوائف والهيئات الإسلامية بالهند /ص٤٧/، ط: مطبعة حجازي، القاهرة، سنة ١٩٣٦م.

الشريف في مدينة القدس، وكلف العلامة الشيخ عبد الرحمن سلام بالإشراف عليها(١).

وأطلق علىٰ مسجد الرياض في إقليم لامو بالشرق الإفريقي (أزهر شرق إفريقيا)، وكذلك أطلق علىٰ المسجد العتيق في مدينة قوص من صعيد مصر، المسمىٰ بالمسجد العمري، والمعروف بـ(أزهر الصعيد)(٢)، وكذلك ولاية (أدرار) بالجزائر، فإنها تعرف بـ(أزهر الجزائر) لكثرة زواياها ومدارسها، حتىٰ إن فيها خمس مئة كُتَّاب لتحفيظ القرآن الكريم، وأطلق علىٰ المدرسة الخُسروية في حلب أنها (أزهر حلب)، بالإضافة إلىٰ (أزهر لبنان)، وهو مشهور، إلىٰ غير ذلك مما وقعت عليه عيني أثناء المطالعة.

والأعجب من ذلك ما حدثني به سماحة الدكتور عبد السلام مينتين مفتي المسلمين في بورما أن بعض العلماء هناك أنشأوا كلية للدراسات الدينية سنة ١٩٧٠م فأسموها (الأزهر)، رغم أن العلماء القائمين بالتدريس فيها من خريجي ديوبند.

وكذلك جامع الفاتح في إستانبول، حتىٰ قيل في ترجمة العلامة الكوثري: (ثم انخرط في سلك العلماء المدرسين درسًا عامًّا في جامع الفاتح ـ وهو أزهر العاصمة ـ)(٣)، بل قالها الكوثري نفسه في: (التحرير الوجيز)(٤).

بل إن جامع الزيتونة وهو قرين الأزهر وشقيقه(٥) وصنوه، كان يعتز أبناؤه بتسميته أزهر تونس، قال العلامة الزيتوني الأزهري الجليل الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: (إن من تتردد علىٰ لسانه أو علىٰ أذنيه تلك الكلمات ـ التي لا يزيدها التكرار إلا قبولًا ورسوخًا، وهي أن الزيتونة أزهر تونس، أو أن الزيتونة والأزهر صنوان، أو أن الزيتونيين أزهريون كما يقول الزيتونيون أنفسهم؛ اعتزازًا بالأزهر وتوليًا لشيوخه وأبنائه ـ لحقيق بأن يغوص علىٰ ما تحت هذه الجمل من معانٍ)(٦).

---

(١) علماؤنا في بيروت، صيداء، طرابلس، البقاع /ص١٥٩/، ط: بيروت، لبنان، سنة ١٣٩٠هـ ـ ١٩٧٠م.

(٢) وانظر مقالة حول المسجد العمري في قوص وعراقته، عنوانه: (المسجد العمري بقوص، أزهر الصعيد، وقبلة العلماء)، نشر في جريدة الأخبار، الصادرة في القاهرة، بتاريخ الجمعة ٣ يوليو، سنة ٢٠١٥م، الموافق ١٦ رمضان، سنة ١٤٣٦هـ، وانظر في تأسيسه ومعماره ونقوشه: (النقوش الكتابية الفاطمية علىٰ العمائر في مصر /ص١٧٩ ـ ١٨٣/، ط: مكتبة الإسكندرية، مصر، سنة ٢٠٠٧م، وستأتي شذرة عن نشاطه العلمي ودوره المجتمعي هنا في هذه الجمهرة، في ترجمة العلامة أحمد محمد إبراهيم الشريف ﷺ، في وفيات سنة ١٣٩٧هـ.

(٣) أعلام مصر في القرن الرابع عشر الهجري /٦/٩١/.

(٤) التحرير الوجيز، فيما يبتغيه المستجيز /ص٦٩/، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، سنة ١٤١٣هـ ـ ١٩٩٣م.

(٥) جامع الزيتونة شقيق الجامع الأزهر، وكذلك جامع القرويين، وكذلك بقية جوامع العلم ومدارسه الكبرىٰ والصغرىٰ، يربطها جميعا وصف الأخوة، وقد كتب الأستاذ مصطفىٰ الشهابي في ذلك مقالًا لطيفًا اسمه: (شقيقات الأزهر في العالم الإسلامي)، نشر في مجلة منبر الإسلام /ص٤٢ ـ ٤٧/، العدد التاريخي الصادر في جمادىٰ سنة ١٤٠٣هـ الموافق مارس سنة ١٩٨٣م، بمناسبة العيد الألفي للأزهر.

(٦) امتزاج الأزهر بالزيتونة، أبحاث المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية، بتاريخ ٢٢ من ذي الحجة ١٣٨٩هـ، الموافق ٢٨ فبراير ١٩٧٠م.

ويقول الأستاذ محمد بن مسعود: (فإن الجامع الزيتوني يعتبر ـ بعد الأزهر ـ الجامعة الإسلامية الثانية في العالم، فضلا عن أثره وشهرته في بلدان الغرب، ولذلك ـ كما هو حال الأزهر ـ تجد فيه طلابا وافرين، من مراكش، والجزائر، والسنغال، وغربي أفريقيا، وطرابلس، وتوليهم مشيخة الجامع الزيتوني كل عناية وإشفاق، ولهذا الجامع أيضا من العلماء والأوقاف ومن الميزانية العامة ما للأزهر، والفارق الوحيد بينهما في هذا الخصوص: هو في عدد الطلاب وضخامة نفقات الأزهر، ووجوده في بلاد ذات استقلال ناجز، واقترابه إلىٰ صميم الأقطار العربية والإسلامية)(١).

ولو أنَّ أحدًا أمعن غربًا حتىٰ وافىٰ مدينة سوس في المملكة المغربية، لرأىٰ أولياءها قبل أربعة قرون إذا ذكروا المساجد المباركة في ديارهم جعلوها تشبه الأزهر أو جعلوا الأزهر يشبهها.

وأنت ترىٰ هذا في كتاب (مناقب البعقيلي)، الذي ألفه الولي الصالح محمد بن أحمد بن محمد ـ فَتحًا ـ بن عبد الواسع البعقيلي، المتوفىٰ بعد العشرة الثانية من القرن الحادي عشر، أي بعد سنة ١٠٢٠هـ، المشهور بـ(صاحب الكراسة)، وهي كتاب لطيف في مناقب أولياء زمانه، طبعت باسم (مناقب البعقيلي)، فيقول فيه: (ومنهم المرابط الخيِّر الفاضل عمنا أحمد بن محمد، من أهل سفينة بعقيلة، مشهور بالفضل والدين المتين، وكان من المعتنين بزيارة الشيخ سيدي أحمد بن موسىٰ، وكان الشيخ يوصيه كثيرًا علىٰ زيارة مسجد «موزايت»، وربما صرح له به كثيرًا، ومسجد «تاكوشت» ببلادِ ظريفة، وهو مشهور هنالك، وكان يقول: «لم يكن مسجد يشبه المسجدين المذكورين في البلاد، في الفضل والبركة، إلا «جامع الأزهر بمصر»، فقد أشبههما، والله سبحانه ينفعنا وإياكم معاشر الإخوان ببركتهما)(٢).

وانتبه إلىٰ أن المؤلف المتوفىٰ بعد سنة ١٠٢٠هـ ينقل هذا الكلام عن عمه عن شيخه، فالكلام المذكور هنا عن الأزهر صادر أواسط القرن العاشر، ومنه تعلم أن الذكرَ الرفيع الحسن للأزهر قد تطاير وسبق إلىٰ المغارب والمشارق قبل ذلك بعقود بل قرون، حتىٰ يستقر في وجدان علماء تلك البقاع القاصية وأوليائها أنهم إذا أرادوا ذكر بقعة شريفة، ملموسة البركة، فإنها تقترن في أذهانهم بالأزهر الشريف في أرض مصر الكنانة.

بل وقع تشبيه مدارس النجف بالنسبة للشيعة بأنها تشبه الأزهر بالنسبة لمصر، فقال الأستاذ الكبير محمد كرد علي رئيس المجمع العلمي العربي في (خطط الشام): (النجف الأشرف التي هي للشيعة بمثابة

(١) كأنك معي في طرابلس وتونس /ص٧٨/، ط: مطبعة ماجي، طرابلس الغرب، ليبيا، سنة ١٣٧٢هـ ـ ١٩٥٣م.

(٢) مناقب البعقيلي /ص١١/، طبعه ونشره رضي الله عبد الوافي المختار السوسي، سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٧م، وحققه العلامة المؤرخ النادرة محمد مختار السوسي، والكتاب أحد مصادر كتابه العظيم: (المعسول)، وهو موسوعة في تاريخ سوس وأسرها، ورجالاتها العلمية والأدبية، طبع في عشرين مجلدا، في مطبعة الجامعة، بالدار البيضاء، سنة ١٣٨١هـ ـ ١٩٦١م، ولذا صدر كتاب (مناقب البعقيلي) تحت عنوان: (سلسلة مصادر المعسول)، وكان هو الإصدار الأول في السلسلة.

الأزهر بالقاهرة، والزيتونة في تونس لأهل السنة)[١].

ومن أبرز أمثلة ذلك هنا في مصر: المعهد العلميُّ المبجل في جرجا، الذي عرف بـ(الأزهر الثاني)، وكان له دورٌ لا يقلُّ خطورةً ولا إجلالًا عن دور الأزهر الشريف بالقاهرة، وبه صارت جرجا كعبةَ العلماء، وبه تخرج مؤرخ الصعيد العلامة الشيخ محمد حامد المراغي الجرجاوي.

وقد عُنِي الدكتور أحمد حسين النمكي بالأزهر الثاني، حتىٰ أفرد له تصنيفًا مستقلًّا اسمه: (الأزهر الثاني، تاريخه وحضارته) لا يزال مخطوطًا، وقد كثر علماء جرجا، حتىٰ صارت غاصة بالعلماء الفحول، وهم يتوارثون العلم والمشيخة جيلًا من وراء جيل، قال العلامة الشيخ محمد حامد المراغي الجرجاوي في كتاب: (تعطير الأرجا): (نرىٰ أن ما بها من العلماء لا يفترقون عن علماء الأزهر، علمًا، وهيبة، وشهرة، وكمالًا، وجمالًا، واعتبارًا)[٢]، قلت: وهم ما بين مؤلف، ومدرس، وقاض، ومفتٍ.

وكذلك المعهدُ الأزهريُّ العريقُ في قرية بلصفورة بسوهاج، وهو ثالث معهد أزهري في مصر بعد الجامع الأزهر الشريف والجامع الأحمدي، قال العلامة الشيخ عبد العزيز الدردير: (وافتتح هذا المعهد سنة ١٢٧٣هـ حتىٰ أقبل عليه طلاب العلم من كل فجٍّ، حتىٰ صار هذا المعهد أزهر صغيرًا في أقصىٰ الصعيد، فإنك إذا تجولت في أقاليم الصعيد من سوهاج شمالا حتىٰ حدود السودان جنوبًا فطفت بالقرىٰ والمدن، فقلَّ أن تجد قريةً أومدينةً ليس فيها ذكرٌ لمعهد بلصفورة)[٣].

والجامع الأحمديُّ في طنطا، فإنه أزهر ثانٍ كذلك، بل هو الأزهرُ الثاني علىٰ الحقيقة، قال الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر الشيخ الأحمدي الظواهري عنه: (وهو الجامع الآخر بمصر وبالعالم الإسلامي الذي يلي الجامع الأزهر في تعليم العلوم الدينية بنفس المنهاج الذي يعلم في الأزهر)[٤].

وقد أفرد له الأستاذ الدكتور مجاهد توفيق الجندي كتابًا مهمًّا اسمه: (الجامع الأحمدي شقيق الجامع الأزهر)، جمع من أخبار الجامع الأحمدي وأعيانه ومناهج تدريسه، والتشابك المتضافر بينه وبين المنبع الأكبر، الجامع الأزهر، فجاء كتابًا حافلًا، وسِفْرًا جليلًا.

وكذلك مسجد الشيخ إبراهيم في الإسكندرية؛ فإنه ظلَّ مدةً من الزمن معمورًا بدروس العلم وحلقاته، وإقراء الكتب العلمية الكبيرة والصغيرة، علىٰ نمط الأزهر الشريف سواء بسواء، حتىٰ صار أزهر

(١) خطط الشام /٦/١٣٠/، ط: دار النوادر، دمشق، سنة ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م.

(٢) تعطير النواحي والأرجا /١/١٥٧/، ط: مكتبة دباح، جرجا، مصر، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م، تحقيق الدكتور أحمد حسين النمكي.

(٣) قلائد الجيد، في تراجم علماء الصعيد /٢/١٦٠/.

(٤) السياسة والأزهر /ص١٠٩/، ط: مطبعة الاعتماد، مصر، سنة ١٣٦٤هـ - ١٩٤٥م.

الإسكندرية، قال علي مبارك باشا في (الخطط التوفيقية): (ومسجد الشيخ إبراهيم باشا، بناه المذكور سنة ١٢٤٠هـ، وبه دروس العلم لا تنقطع، فهو في الإسكندرية كالأزهر في مصر)[١]، وقال الأستاذ أحمد أمين وهو يتكلم عن عبد الله النديم: (على أنه في الإسكندرية قريبًا من بيتهم مسجد هو صورة مصغرة من الأزهر، يدرِّس فيه المشايخ ما يُدرَّس في الأزهر، وعلى نمطه، وذلك هو مسجد الشيخ إبراهيم باشا)[٢].

بل لقد اشتهر عدد من العلماء في نيجيريا بأسماء ترجع إلى أسماء قدامى الأئمة، كالشيخ إبراهيم الدسوقي سكوتي، والشيخ زكريا بن البوصيري، وأحمد الرفاعي إندا صلاتي، حتى نصل إلى العلامة محمد بن أحمد بيغوري الفلاني ت ١٣٣١هـ، ويعلل العلامة آدم الإلوري تلك التسميات بقوله: (والأفضل أنه منقول من باجوري أو بيجوري شيخ الأزهر القديم، صاحب المؤلفات، لأن الناس اعتادوا أن يتسموا بأسماء كبار العلماء والأولياء مثل السيوطي والرفاعي والدسوقي، مع عدم انتسابهم إلى تلك الأماكن، إنما أخذوا تبركًا بأسماء العلماء الذين نزحوا منها)[٣].

وكذلك نمط الدراسة في أريتريا، حتى قال العلامة عبد الله المشد وهو يصف معهد فاروق الديني بأسمرا والذي أنشأه المفضال الكريم الحاج أحمد عبيد باحبيش سنة ١٩٤٢م: (وليس هناك حجرات للدراسة، ولا مقاعد لجلوس الطلاب، كما هو الحال في المعاهد الأزهرية الآن، بل الدراسة في هذا المعهد على النحو الذي كانت عليه الدراسة في الأزهر القديم)[٤].

مما يدل على عمق أثر الأزهر الشريف، واتساع دوائر ذلك الأثر، وامتدادها، وأنه رمى بظلال وارفةٍ في ثقافات شعوب نائية، وأمم بعيدة، وحفر في وجدانهم، ونشأت الأجيال عندهم على ذلك الصيت العلمي الرفيع والبراق لهذا المعهد الأنور.

وفي كتاب (الأزهر في ألف عام): (والأزهر هو أبو الجامعات الدينية في عالم الإسلام، وهو الذي يمدها بالتوجيه والخبرة، وبالخطط العلمية المدروسة، وبالمناهج والأساتذة، وعلى نمطه قامت مختلف الجامعات الإسلامية الحديثة في أنحاء العالم الإسلامي، وصار هو الصورة المشرقة لكل الجامعات، وهو الذي يلخص تاريخ الحضارة الإسلامية كلها طوال ألف عام)[٥].

---

(١) الخطط التوفيقية /٧/ /.

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث /ص٢٠٣/.

(٣) لمحات البلور، في مشاهير علماء إلور /ص٤٤/، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، (د ت).

(٤) تقرير عن أحوال المسلمين في بلاد الصومال وأريتريا وعدن والحبشة /ص١١٧/، ط: مطبعة الأزهر، سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥١م.

(٥) الأزهر في ألف عام /٥/٢٢٥/.

والحاصل أن تلك المدارس جميعًا علىٰ جلال أثرها في نواحيها قد دارت في فلك الأزهر الشريف، ونسجت علىٰ منواله، وتشبهت به، ودرجت علىٰ المضمار بجواره تحاول اللحاق به، لكن هيهات:

(فقُلْ للذي يَسْمو لذيلِ غُبارِهِ ظَلَمْتَ العِتاقَ الشَّيْظَمِيَّاتِ فارفُقِ)[1]

مع ما خصه الله تعالىٰ به من التفرد بين مدارس العلم قاطبة، وقلده من المفاخر، التي تتيه بها مصر علىٰ أقطار الإسلام مشرقًا ومغربًا.

ولقد ترسخ هذا الأثر عبر عقودٍ متطاولةٍ وممتدةٍ من الزمان، والشعوب والأمم والأسر ومدارس العلم تتداول ذلك، وتشهد الآثار العلمية والاجتماعية المترتبة علىٰ هذا المدِّ الأزهري الفياض، حتىٰ صار الأزهر بمثابة شمس متوهجة وجاذبة، تدور الأجرام الكبار والصغار حوله، من الكواكب والأقمار والشهب، وكل ذلك مأخوذ ومنجذب بما ينبعث من تلك الشمس من أثر وجاذبية.

(١) ديوان علي الجارم /ص١٨٤/، ط٤: الدار المصرية اللبنانية، مصر، سنة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

الإسكندرية، قال علي مبارك باشا في (الخطط التوفيقية): (ومسجد الشيخ إبراهيم باشا، بناه المذكور سنة ١٢٤٠هـ، وبه دروس العلم لا تنقطع، فهو في الإسكندرية كالأزهر في مصر)(١)، وقال الأستاذ أحمد أمين وهو يتكلم عن عبد الله النديم: (على أنه في الإسكندرية قريبًا من بيتهم مسجد هو صورة مصغرة من الأزهر، يدرِّس فيه المشايخ ما يُدرَّس في الأزهر، وعلى نمطه، وذلك هو مسجد الشيخ إبراهيم باشا)(٢).

بل لقد اشتهر عدد من العلماء في نيجيريا بأسماء ترجع إلى أسماء قدامى الأئمة، كالشيخ إبراهيم الدسوقي سكوتي، والشيخ زكريا بن البوصيري، وأحمد الرفاعي إندا صلاتي، حتى نصل إلى العلامة محمد بن أحمد بيغوري الفلاني ت ١٣٣١هـ، ويعلل العلامة آدم الإلوري تلك التسميات بقوله: (والأفضل أنه منقول من باجوري أو بيجوري شيخ الأزهر القديم، صاحب المؤلفات، لأن الناس اعتادوا أن يتسموا بأسماء كبار العلماء والأولياء مثل السيوطي والرفاعي والدسوقي، مع عدم انتسابهم إلى تلك الأماكن، إنما أخذوا تبركًا بأسماء العلماء الذين نزحوا منها)(٣).

وكذلك نمط الدراسة في أريتريا، حتى قال العلامة عبد الله المشد وهو يصف معهد فاروق الديني بأسمرا والذي أنشأه المفضال الكريم الحاج أحمد عبيد باحبيش سنة ١٩٤٢م: (وليس هناك حجرات للدراسة، ولا مقاعد لجلوس الطلاب، كما هو الحال في المعاهد الأزهرية الآن، بل الدراسة في هذا المعهد على النحو الذي كانت عليه الدراسة في الأزهر القديم)(٤).

مما يدل على عمق أثر الأزهر الشريف، واتساع دوائر ذلك الأثر، وامتدادها، وأنه رمى بظلال وارفة في ثقافات شعوب نائية، وأمم بعيدة، وحفر في وجدانهم، ونشأت الأجيال عندهم على ذلك الصيت العلمي الرفيع والبراق لهذا المعهد الأنور.

وفي كتاب (الأزهر في ألف عام): (والأزهر هو أبو الجامعات الدينية في عالم الإسلام، وهو الذي يمدها بالتوجيه والخبرة، وبالخطط العلمية المدروسة، وبالمناهج والأساتذة، وعلى نمطه قامت مختلف الجامعات الإسلامية الحديثة في أنحاء العالم الإسلامي، وصار هو الصورة المشرقة لكل الجامعات، وهو الذي يلخص تاريخ الحضارة الإسلامية كلها طوال ألف عام)(٥).

---

(١) الخطط التوفيقية /٧/ /.

(٢) زعماء الإصلاح في العصر الحديث /ص٢٠٣/.

(٣) لمحات البلور، في مشاهير علماء إلور /ص٤٤/، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، (د ت).

(٤) تقرير عن أحوال المسلمين في بلاد الصومال وأريتريا وعدن والحبشة /ص١١٧/، ط: مطبعة الأزهر، سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥١م.

(٥) الأزهر في ألف عام /٥/٢٢٥/.

والحاصل أن تلك المدارس جميعًا على جلال أثرها في نواحيها قد دارت في فلك الأزهر الشريف، ونسجت على منواله، وتشبهت به، ودرجت على المضمار بجواره تحاول اللحاق به، لكن هيهات:

(فقُــلْ للــذي يَسْــمو لــنيلِ غُبــارِهِ ظَلَمْــتَ العِتَــاقَ الشَّــيْظَمِيَّاتِ فــارفُقِ)[1]

مع ما خصه الله تعالى به من التفرد بين مدارس العلم قاطبة، وقلده من المفاخر، التي تتيه بها مصر على أقطار الإسلام مشرقًا ومغربًا.

ولقد ترسخ هذا الأثر عبر عقودٍ متطاولةٍ وممتدةٍ من الزمان، والشعوب والأمم والأسر ومدارس العلم تتداول ذلك، وتشهد الآثار العلمية والاجتماعية المترتبة على هذا المدِّ الأزهري الفياض، حتى صار الأزهر بمثابة شمس متوهجة وجاذبة، تدور الأجرام الكبار والصغار حوله، من الكواكب والأقمار والشهب، وكل ذلك مأخوذ ومنجذب بما ينبعث من تلك الشمس من أثر وجاذبية.

(١) ديوان علي الجارم /ص١٨٤/، ط٤: الدار المصرية اللبنانية، مصر، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

إضاءة

في أنَّ الأزهرَ أهدى إلى كل قطرٍ من الأقطار عقلا متألقًا وشخصيةً رفيعةً، كانت بابَ علمٍ وأمانٍ ورحمةٍ لذلك البلد

وقد انعقدت للأزهر الشريف مزية أخرىٰ، حفر بها في التاريخ معالم تأثيره العميق ومنزلته الرفيعة، حيث أتقن صناعة العقول الوافدة إليه من كل فج، وخلع علىٰ تلك الشخصيات خلعة العلم والمعرفة، ونور العقول بقبس الحكمة، فلما رجعوا إلىٰ بلدانهم وشعوبهم وقعت الثقة فيهم، وتبوأوا هناك أرفع المناصب، وشهدت منهم المجتمعات أثرًا اجتماعيًّا وتعليميًّا وتنويريًّا في غاية العمق والجلال.

فكان من هؤلاء العلامة الشيخ محمد ود البدوي، الذي جاء إلىٰ الأزهر، وتتلمذ للعلامة عليش وطبقته، ورجع إلىٰ السودان فتتلمذت له أجيال العلماء جيلا من وراء جيل، من مختلف أنحاء السودان الشاسعة، ولقب بناقل علوم الأزهر إلىٰ السودان، وارتفع له الجاه العلمي والصيت المعرفي والأثر الاجتماعي الحميد، فأضمر الشعب السوداني للأزهر ولمصر امتنانًا عميقًا بمقدار ما شهدوه في شخص الشيخ من إفادة عميقة، وصناعة لمئات العقول والشخصيات السودانية الكبيرة.

وبجواره وقبله وبعده توافدت عشرات ومئات من الشخصيات السودانية الرفيعة، التي تعلمت في الأزهر، ثم رجعت فتصدرت للإفادة هناك، في مختلف ربوع السودان وقراه النائية، مما نسج احترامًا عميقًا في وجدان السودان وأبنائه الكرام للأزهر الشريف ورجاله، ولأرض مصر عمومًا، ومثال ذلك الشيخ محمد المضوي نزيل شندي، ومحمد الأمين ود الهندي، ووكيل الأزهر الشيخ محمد نور الحسن، والشيخ محمد المبارك عبد الله، بل بيت الأزهري بكل أعلامه الذين أناروا في تاريخ السودان، سواء علىٰ مستوىٰ الزعامة الدينية والعلمية أو الزعامة السياسية.

ومن أرتريا جاء العلامة الشيخ إبراهيم المختار بن عمر المينفراوي، فقضىٰ في رحاب مصر خمس عشرة سنة، ينهل من علوم الأزهر، ويتثقف جنانه بمداركه ومعارفه، ثم أبحر راجعًا إلىٰ وطنه، وفي فؤاده من العرفان لمصر ولأزهرها الشريف ما لا مزيد عليه، ووثق الناس هناك في شخصه وعلمه، ورأوا منه الأثر الجليل في أمان المجتمع، وإشاعة العلم والمعرفة، فلم يزل يترقىٰ حتىٰ صار مفتي البلاد، وعُرِفَ بشيخ الإسلام، ولقِّبَ بالمفتي سراج، وكان لا يذكر مصر أبدًا إلا وهو يقول: (مصر الحبيبة).

ومن تشاد جاء العلامة الشيخ عليش عووضة، فتلقى العلم في الأزهر، ورجع إلى مدينة أبشى في شرق تشاد، وأسَّس مدرسته العلمية، التي تضايق منها الاستعمار الفرنسي، وكبَّلها بقيودٍ كثيرة، لكنها استقبلت وفود المتعلمين من نواحي تشاد ومن السودان، حتى صارت منارة علمية، وصفحة مضيئة من تاريخ العلم والتعليم في تشاد.

ومن ليبيا جاء العلامة محمد كامل بن مصطفى، وتتلمذ لجيل العلامة الشيخ شمس الدين محمد عليش شارح خليل، والبرهان السقا، وعبد الهادي نجا الأبياري، حتى تضلع من العلوم، ورجع إلى طرابلس الغرب، فتصدر للإفادة زمنًا طويلًا في مدرسة عثمان باشا الساقزلي، فأفتى وعلم وأفاد، وتخرجت على يده أجيال، حتى صار من رموز العلم والمعرفة هناك، وصار صفحة لا تنسى من تاريخ التعليم في ليبيا.

ومن الشام جاء العلامة الجليل والمحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، وتتلمذ للبرهان السقا وتلك الطبقة الجليلة من العلماء الأزهريين المتبحرين، حتى إذا أتم تحصيله رجع إلى الشام، فرفع الله تعالى له جاهًا عريضًا، وألقى له منزلة منقطعة النظير، وشهدت الشام منه تَدَفُّقًا علميًا ومعرفيًا مُدْهِشًا في العلوم النقلية والعقلية، وتتلمذت له الأجيال، وأقر له العلماء والأعيان بالأستاذية والتفرد، وصار إذا خرج من دمشق امتدت الحشود ألوفًا على مدى كيلومترات إجلالًا له، وهو في كل ذلك شديد الامتنان للأزهر ولمصر.

وجاء من الجزائر هواري بومدين، فتعلم في الأزهر، ثم رجع فلم يزل حتى صار رئيسًا لدولة الجزائر، وكذلك مأمون عبد القيوم حيث صار رئيسًا للمالديف، وكذلك عبد الرحمن واحد حيث صار رئيسًا لأندونيسيا، وكل منهم يحمل امتنانًا وعرفانًا عميقًا للأزهر الشريف.

ومن بلاد الآتشي في الملايو جاء العلامة الأمير الحبيب عبد الرحمن الزاهر آل شهاب، ورجع فتتلمذ لشيخ الأزهر الإمام الشمس الأنبابي، ورجع إلى بلاده وتقلد الإمارة ورزقه الله تعالى فيها التوفيق، وناهض الاستعمار الهولندي، وجرت له شئون وأحداث هائلة، وهو في كل ذلك عارف بقيمة الأزهر وقدره وفضله.

ومن حضرموت وفد العلامة الحبيب عبد الرحمن بن مصطفى العيدروس إمامًا مُتضلِّعًا، فانعقدت أواصر المحبة والإفادة والاستفادة بينه وبين علماء الأزهر، حتى أمضى بقية عمره في مصر، ودُفِن في أرضها الطاهرة، في جوار المشهد الزينبي الكريم، ومن بعده الإمام الحبيب أحمد بن حسن العطاس، ورغم قصر مدة بقائه في رحاب الأزهر إلا أنه ظل طوال مدته بعد ذلك يرسل طلابه للشمس الأنبابي والسيد أحمد بك الحسيني، حتى دونوا في رحلاتهم المنشورة إجلال الأزهر، وتعظيم قدره.

إِضَاءَةٌ

في أنَّ الأزهرَ أهدى إلى كل قطرٍ من الأقطار عقلا متألقًا وشخصيةً رفيعةً، كانت بابَ علمٍ وأمانٍ ورحمةٍ لذلك البلد

وقد انعقدت للأزهر الشريف مزية أخرىٰ، حفر بها في التاريخ معالم تأثيره العميق ومنزلته الرفيعة، حيث أتقن صناعة العقول الوافدة إليه من كل فج، وخلع علىٰ تلك الشخصيات خلعة العلم والمعرفة، ونور العقول بقبس الحكمة، فلما رجعوا إلىٰ بلدانهم وشعوبهم وقعت الثقة فيهم، وتبوأوا هناك أرفع المناصب، وشهدت منهم المجتمعات أثرًا اجتماعيًّا وتعليميًّا وتنويريًّا في غاية العمق والجلال.

فكان من هؤلاء العلامة الشيخ محمد ود البدوي، الذي جاء إلىٰ الأزهر، وتتلمذ للعلامة عليش وطبقته، ورجع إلىٰ السودان فتتلمذت له أجيال العلماء جيلا من وراء جيل، من مختلف أنحاء السودان الشاسعة، ولقب بناقل علوم الأزهر إلىٰ السودان، وارتفع له الجاه العلمي والصيت المعرفي والأثر الاجتماعي الحميد، فأضمر الشعب السوداني للأزهر ولمصر امتنانًا عميقًا بمقدار ما شهدوه في شخص الشيخ من إفادة عميقة، وصناعة لمئات العقول والشخصيات السودانية الكبيرة.

وبجواره وقبله وبعده توافدت عشرات ومئات من الشخصيات السودانية الرفيعة، التي تعلمت في الأزهر، ثم رجعت فتصدرت للإفادة هناك، في مختلف ربوع السودان وقراه النائية، مما نسج احترامًا عميقًا في وجدان السودان وأبنائه الكرام للأزهر الشريف ورجاله، ولأرض مصر عمومًا، ومثال ذلك الشيخ محمد المضوي نزيل شندي، ومحمد الأمين ود الهندي، ووكيل الأزهر الشيخ محمد نور الحسن، والشيخ محمد المبارك عبد الله، بل بيت الأزهري بكل أعلامه الذين أناروا في تاريخ السودان، سواء علىٰ مستوىٰ الزعامة الدينية والعلمية أو الزعامة السياسية.

ومن أرتريا جاء العلامة الشيخ إبراهيم المختار بن عمر المينفراوي، فقضىٰ في رحاب مصر خمس عشرة سنة، ينهل من علوم الأزهر، ويتثقف جنانه بمداركه ومعارفه، ثم أبحر راجعًا إلىٰ وطنه، وفي فؤاده من العرفان لمصر ولأزهرها الشريف ما لا مزيد عليه، ووثق الناس هناك في شخصه وعلمه، ورأوا منه الأثر الجليل في أمان المجتمع، وإشاعة العلم والمعرفة، فلم يزل يترقىٰ حتىٰ صار مفتي البلاد، وعُرِفَ بشيخ الإسلام، ولقِّبَ بالمفتي سراج، وكان لا يذكر مصر أبدًا إلا وهو يقول: (مصر الحبيبة).

ومن تشاد جاء العلامة الشيخ عليش عووضة، فتلقىٰ العلم في الأزهر، ورجع إلىٰ مدينة أبشىٰ في شرق تشاد، وأسَّس مدرسته العلمية، التي تضايق منها الاستعمار الفرنسي، وكبَّلها بقيودٍ كثيرة، لكنها استقبلت وفود المتعلمين من نواحي تشاد ومن السودان، حتىٰ صارت منارة علمية، وصفحة مضيئة من تاريخ العلم والتعليم في تشاد.

ومن ليبيا جاء العلامة محمد كامل بن مصطفىٰ، وتتلمذ لجيل العلامة الشيخ شمس الدين محمد عليش شارح خليل، والبرهان السقا، وعبد الهادي نجا الأبياري، حتىٰ تضلع من العلوم، ورجع إلىٰ طرابلس الغرب، فتصدر للإفادة زمنًا طويلًا في مدرسة عثمان باشا الساقزلي، فأفتىٰ وعلم وأفاد، وتخرجت علىٰ يده أجيال، حتىٰ صار من رموز العلم والمعرفة هناك، وصار صفحة لا تنسىٰ من تاريخ التعليم في ليبيا.

ومن الشام جاء العلامة الجليل والمحدث الأكبر الشيخ بدر الدين الحسني، وتتلمذ للبرهان السقا وتلك الطبقة الجليلة من العلماء الأزهريين المتبحرين، حتىٰ إذا أتم تحصيله رجع إلىٰ الشام، فرفع الله تعالىٰ له جاهًا عريضًا، وألقىٰ له منزلة منقطعة النظير، وشهدت الشام منه تَدَفُّقًا علميًّا ومعرفيًّا مُدْهشًا في العلوم النقلية والعقلية، وتتلمذت له الأجيال، وأقر له العلماء والأعيان بالأستاذية والتفرد، وصار إذا خرج من دمشق امتدت الحشود ألوفًا علىٰ مدىٰ كيلومترات إجلالًا له، وهو في كل ذلك شديد الامتنان للأزهر ولمصر.

وجاء من الجزائر هواري بومدين، فتعلم في الأزهر، ثم رجع فلم يزل حتىٰ صار رئيسًا لدولة الجزائر، وكذلك مأمون عبد القيوم حيث صار رئيسًا للمالديف، وكذلك عبد الرحمن واحد حيث صار رئيسًا لأندونيسيا، وكل منهم يحمل امتنانًا وعرفانًا عميقًا للأزهر الشريف.

ومن بلاد الآتشي في الملايو جاء العلامة الأمير الحبيب عبد الرحمن الزاهر آل شهاب، ورجع فتتلمذ لشيخ الأزهر الإمام الشمس الأنبابي، ورجع إلىٰ بلاده وتقلد الإمارة ورزقه الله تعالىٰ فيها التوفيق، وناهض الاستعمار الهولندي، وجرت له شئون وأحداث هائلة، وهو في كل ذلك عارف بقيمة الأزهر وقدره وفضله.

ومن حضرموت وفد العلامة الحبيب عبد الرحمن بن مصطفىٰ العيدروس إمامًا مُتضلِّعًا، فانعقدت أواصر المحبة والإفادة والاستفادة بينه وبين علماء الأزهر، حتىٰ أمضىٰ بقية عمره في مصر، ودُفِن في أرضها الطاهرة، في جوار المشهد الزينبي الكريم، ومن بعده الإمام الحبيب أحمد بن حسن العطاس، ورغم قصر مدة بقائه في رحاب الأزهر إلا أنه ظل طوال مدته بعد ذلك يرسل طلابه للشمس الأنبابي والسيد أحمد بك الحسيني، حتىٰ دونوا في رحلاتهم المنشورة إجلال الأزهر، وتعظيم قدره.

ومع كل واحد من هؤلاء الرموز عشرات ومئات من العلماء الذين جاءوا ورجعوا، وتقلدوا الوظائف العليا والوسطىٰ والمعتادة، وفاضت علىٰ أيديهم معاني الأمان والاستقرار في المجتمعات، وما رأىٰ الناس منهم عبر قرون عديدة أي أثر لخراب أو شقاء أو دماء، بل لمسوا منهم البصيرة والحكمة، وطهر الأنفس، والجميع يرد أثرهم هذا إلىٰ جميل صنعة الأزهر فيهم، ويعلل نجاحهم هذا بنجاح الأزهر في صناعة عقولهم وتنوير بصائرهم.

ولم يقتصر الأمر عند تلقي الوفود والدارسين، بل أوفد الأزهر علماءه إلىٰ مختلف الجهات، فخرج العلامة الجليل الشيخ محمد عياد الطنطاوي إلىٰ سانت بطرسبورج في روسيا، وهو متقن للروسية، وعكف هناك علىٰ التعليم والإفادة نحو أربعين سنة، واتخذه القيصر مستشارا، وقلده أرفع الأوسمة الروسية، وشهد المستشرقون الروس له بأثره العلمي الجليل، وألف الأستاذ الكبير كراتشكوفيسكي كتابًا مهمًّا عن حياته، ترجم إلىٰ العربية.

بل لقد اندهشت من مقدار العلماء الذين ابتعثهم الأزهر في عام واحد فقط إلىٰ أرجاء المعمورة، ففي العدد الأول من (النشرة الرسمية للجامع الأزهر)، الصادر سنة ١٩٥٥م، بيان بالموظفين المنتدبين أو المعارين من الأزهر للحكومات والهيئات الأجنبية، فذكر البيان المندوبين إلىٰ الرياض، والحجاز، والكويت، والسودان في: وادي حلفا وأم درمان والملكال وجوبا وخلاوي السودان وشجرة غوردن وحفير ميشو ووادي مدني وبور سودان، والصومال، وأرتيريا، وليبيا، ولبنان، والعراق، وسوريا، والملايو، وجامعة ديوبند في الهند، والمركز الثقافي في لندن، وبعثة الأزهر التعليمية في فرنسا، والمعهد الديني في غزة[١]، وأسماء العلماء المبعوثين من الأزهر إلىٰ تلك البقاع كبيرة، وتشتمل علىٰ قامات جليلة، فمنهم الشيخ الشعراوي، والحسيني هاشم وكيل الأزهر بعد ذلك، وعبد اللطيف سرحان، وفهيم عبية الذي صار له أثر جليل في لبنان كما تراه في ترجمته هنا، ومحمد اللافي شرعان، ومحمد الدهمة، وغيرهم من العلماء المتمكنين المتبحرين الذين يصنعون العقول ويخرجون الأجيال فتشهد لهم تلك البلاد بالعلم والحكمة، وتشهد من وراء ذلك لمصر وللأزهر بأنهما يصنعان العلماء الكبار.

وفي سنة ١٩٦٠م قررت مشيخة الأزهر إيفاد السادة أصحاب الفضيلة الشيوخ أحمد إبراهيم مهنا، ومحمد نور الدين شهبة، ومحمود محمد خضر، وعثمان محمود عبد السلام للولايات المتحدة الأمريكية لإرشاد المسلمين ومساعدتهم في مباشرة شئونهم الدينية علىٰ أن يعاملوا معاملة رجال السلك الديبلوماسي المعينين[٢].

---

(١) النشرة الرسمية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية /١/٥٠/.

(٢) النشرة الرسمية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية /٥/٣٥/.

فقد كانت الدولة المصرية تعتبر هذه البعثات جزءًا من أدائها الديبلوماسي خارج أرض الوطن، وتعاملهم معاملة الديبلوماسيين، ومن نظر هنا في ترجمة العلامة الشيخ محمود حب الله في وفيات سنة ١٣٩٤هـ ورأىٰ أثره في الولايات المتحدة، وما كتبته عنه جريدة الواشنطن بوست، رأىٰ ذلك بوضوح.

ولم يزل الأزهر الشريف يجري في هذا المضمار، وينهض إلىٰ صناعة العقول والقامات الكبيرة التي ترجع إلىٰ بلادها، فتستنير الدنيا علىٰ أيديهم، أو تبتعث البعثات الجليلة إلىٰ تلك البلاد، فيشهد الجميع لهذا المعهد العريق أنه صانع للعقول الحكيمة، التي تتدفق بالمعرفة والأمان للناس.

إِضَاءَةٌ
في أن الأزهر الشريف
من أبرز صور تحويل آيات القرآن الكريم إلى برنامج عمل

نهضت الأمة المحمدية إلىٰ تلقي القرآن الكريم، وعكفت علىٰ دراسة المقدمات والإجراءات التي لا بد من إنشائها، حتىٰ تتحقق بها المبادئ القرآنية علىٰ أرض الواقع، وتسري بها قواعده إلىٰ هذا الواقع المُشَخَّص، فصارت الآيات القرآنية علىٰ مرور القرون فوق قمة هرمٍ كامل من خطوات التنفيذ، وبرامج التطبيق، والمؤسسات التي تعمل وتتحرك من أجل تنفيذ المعاني العليا التي جاء القرآن بها، (فانتبه إلىٰ كيفية قيام الأمة بخدمة النص القرآني، وكيف أن طوائف العلماء انكبُّوا علىٰ ملاحظة إشارات القرآن ولَفَتاته، ثم قاموا بتحويل كل آية أو إشارة أو دلالة فيه إلىٰ برنامج عمل، ومنهج تطبيق، ووسَّعوا البحث حول كل قضية جاءت في القرآن، فتولدت العلوم والفنون والآداب، ووجدت الحرف والصنائع.

وتحويل آيات القرآن الكريم إلىٰ برامج عمل قضيةٌ في غاية الأهمية، وآثارها جليلة؛ إذ من خلالها يسري القرآن إلىٰ المجتمع، ويتنزل إلىٰ التطبيق والتنفيذ، كما أنها عَمَلية عِلْمية، تقتضي بحوثًا ودراسات موسعة، حول المجالات والمَحَالِّ التي ينبغي تنزيل آيات القرآن الكريم عليها، وكل هذا يحتاج إلىٰ تفصيل وبيان وليس هذا بموضعه.

والمقصود أنه قد تغلغل القرآن الكريم في علوم الأمة، ومناهجها، ومصادر معرفتها، وهويتها، وسلوكها، وتاريخها، وأورث المسلمين مناهج علمية محررة، بنيت علىٰ أصلين راسخين، أولهما: الوحي، الذي هو القرآن وما نشأ علىٰ ضفافه من علوم، وثانيهما: الواقع وما التحق به من التجربة والاستقراء والتأمل، فأبرزت الأمة علومها المبنية علىٰ مصادرها ومناهجها ونظرتها للكون والحياة، وما استتبعه ذلك من تاريخ وتجربة بشرية راقية)(١).

والآيةُ القرآنيةُ الجليلةُ التي يندرج تحتها الأزهر الشريف ويسعىٰ لتنفيذ مضمونها هي قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾(٢).

---

(١) المدخل إلىٰ أصول التفسير /ص١٦/، ط: الوابل الصيب، القاهرة، سنة ٢٠١٠م.
(٢) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

حيث إنها تأمرُ كلَّ مجتمعٍ بأن ينتدب منه طائفة من النبغاء وأصحاب المواهب، ويبعث بهم إلىٰ المدارس العلمية القائمة علىٰ صنعة التعليم وتخريج العلماء، ثم ترجع هذه الطائفة إلىٰ المجتمع الذي خرجت منه، فتعكف الطائفة علىٰ التعليم والتفقيه، وينغمسون مع الناس في شؤون حياتهم، فيتعلم الناس منهم منهج التفكير، وطريقة التحليل، ويفطن الناس من خلالهم إلىٰ الموازين الشرعية التي يفهمون من خلالها الأحداث والمواقف.

بل دلت الآية الكريمة علىٰ ثلاث مراتب من بناء المجتمع:

(الأولىٰ): خروج طائفة من ذوي الأهلية، وأصحاب النبوغ، وممن حصل عندهم الاستعداد القريب، وممن نشطت هممهم في طلب العلم وتعلقوا به، فيخرجون ويرحلون وينفرون في طلب العلم، وخروجهم في طلب العلم يقتضي وجود المراكز العلمية اللامعة، التي سطعت أنوارها، والتي سرىٰ هنا وهناك أنباء عن جودة مناهج التعليم فيها، وأنها تبلورت فيها صنعة التعليم، وتخرجت منها الأجيال، فظهر لهم الأثر الحسن في بناء المجتمعات، فيستقر في وجدان الشعوب والأمم أن ذلك المركز العلمي هو محط الآمال، وهو الذي نأتمنه علىٰ النبغاء والأذكياء من أولادنا، فيتحقق بذلك قوله تعالىٰ: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ﴾.

(الثانية): أن هذه الوفود التي نفرت من بلدانها في طلب العلم، ونزلت في ساحات المدارس العلمية الكبرىٰ، واندرجت في الجو العلمي القائم والمستحكم فيها، قد أقامت المدة الكافية للتحصيل، حتىٰ إذا تكامل بناؤها العلمي، فإنها ترجع إلىٰ أممها وشعوبها، فتقوم علىٰ أكتافهم حركة تعليمية واسعة داخل شعوبهم، أو يتولىٰ الواحد منهم القضاء أو الإفتاء أو الإمامة أو الولايات العامة، فيقوم بذلك أحسن قيام علىٰ ضوء العلوم التي تلقاها، فتتسع بذلك دوائر تأثيرهم، وتفيض منهم العلوم والمعارف، ويرتفع بذلك المستوىٰ العلمي والمعرفي والثقافي لبلدانهم، فيتحقق بذلك قوله تعالىٰ: ﴿وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ﴾.

(الثالثة): أن ارتفاع المستوىٰ التعليمي في ذلك البلد يؤدي إلىٰ زوال الجهل، وقلة الأمية، وشيوع أنوار العلم، وبناء المؤسسات اللازمة للحضارة، في سائر الميادين، وتحصل عند الناس الرغبة في تحصيل الكمالات النفسية والعقلية والأخلاقية؛ لما يرون من شرف العلم، ورفعة أهله، مما تنشأ معه الدراسات والبحوث التي تحقق دراسات الجدوىٰ في سائر المشاريع والأعمال، وتحفظ المجتمع من أسباب الانهيار، ومن العلل الاجتماعية والإدارية والفلسفية، فيحذرون بذلك أسباب سقوط الحضارات وانهيارها، ويحذرون الآفات التي تصيب الأمم، فتسبب لها الضرر والبؤس في الدنيا والآخرة، ويحذرون أن تقوم الحضارة علىٰ فلسفة أو منظور يكرس قيم الدنيوية والاستهلاكية، ويحجب عن الله ﷻ، فيتحقق

بذلك قوله تعالىٰ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾.

فخروج الطائفة لطلب العلم من المراكز العلمية الكبرىٰ، والموثوق بمصداقيتها العلمية، وجودة مناهج التعليم وبرامجه فيها، يفضي إلىٰ استبحار العلم وشيوعه في بلدانهم بعد عودتهم، مما يفضي إلىٰ بناء مؤسسات الحضارة، التي تدرس كيفية حفظ هذه النهضة من السقوط، من الدراسات التربوية والإدارية، إلىٰ آخر أنماط العلوم التي تستدعي منظومة العلوم الإنسانية والعقلية والتطبيقية.

فالآية الكريمة تلخص الآثار والعوائد المتعاقبة، المترتبة علىٰ الحركة العلمية، وتبرز الآثار الاجتماعية العميقة، البعيدة الأثر، التي تنهض علىٰ ضفاف العلم، مما يلفت نظرنا إلىٰ الآثار الاجتماعية للحركة العلمية، ودور العلم في بناء الأمم والشعوب.

قال القرطبي في: (الجامع لأحكام القرآن): (هذه الآية أصل في وجوب طلب العلم)[1]، قلت: وهي أيضًا أصل في بيان الأثر الاجتماعي المترتب علىٰ تحصيل العلم، وأن تلك الفرقة التي تنفر للتعلم، ترجع إلىٰ قومها بما تزودت به من المناهج والخطط العلمية، والزاد المعرفي، فتفيض منهم العلوم والمعارف علىٰ أممهم وشعوبهم، ولذا قال ابن جزي في: (التسهيل): (فيعلموا قومهم إذا رجعوا إليهم من الرحلة)[2]، وقال الزمخشري في: (الكشاف): (وليجعلوا غرضهم ومرمىٰ همتهم في التفقه إنذار قومهم، وإرشادهم، والنصيحة لهم)[3]، وقال الماوردي في: (النكت والعيون): (وليتفقهوا في أحكام الدين، ومعالم الشرع، ويتحملوا عنه ما يقع به البلاغ، وينذروا به قومهم إذا رجعوا إليهم)[4].

بل إن أجلَّ المفسرين إبانةً عن أثر هؤلاء المتعلمين عند العودة إلىٰ أقوامهم كان هو الإمام الفخر الرازي - رحمه الله -، فقد سلط الضوء علىٰ مقصود التعلم، وأنه في الحقيقة راجع إلىٰ دعوة الخلق وتعليمهم، قال في تفسيره المسمىٰ (مفاتيح الغيب): (دلت الآيةُ علىٰ أنه يجب أن يكون المقصود من التفقه والتعلم دعوة الخلق إلىٰ الحق، وإرشادهم إلىٰ الدين القويم، والصراط المستقيم، لأن الآية تدل علىٰ أنه تعالىٰ أمرهم بالتفقه في الدين لأجل أنهم إذا رجعوا إلىٰ قومهم أنذروهم بالدين الحق، وأولئك يحذرون الجهل والمعصية، ويرغبون في قبول الدين.

فكل من تفقه وتعلم لهذا الغرض، كان علىٰ المنهج القويم، والصراط المستقيم، ومن عدل عنه

---

(١) الجامع لأحكام القرآن /ص٣١٣٢/، ط: دار الشعب، القاهرة.

(٢) التسهيل، لعلوم التنزيل /٢/٨٧/، ط: دار الكتاب العربي، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.

(٣) الكشاف عن حقائق التزيل /ص٥٧١/، من طبعة نفيسة، طبعت في مطبع الليسي، الواقع بمدينة كلكتا، الهند، سنة ١٨٥٦م.

(٤) تفسير الماوردي المسمىٰ: (النكت والعيون) /٢/٢٠٠/، ط: دار الصفوة، سنة ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.

وطلب الدنيا بالدين، كان من الأخسرين أعمالا، الذين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا)(١).

وقال السيد محمد رشيد رضا في: (تفسير المنار): (والآية تدل على وجوب تعميم العلم، والتفقه في الدين، والاستعداد لتعليمه في مواطن الإقامة، وتفقيه الناس فيه على الوجه الذي يصلح به حالهم، ويكونون به هداة لغيرهم، وأن المتخصصين للتفقه بهذه النية، لا يقلون في الدرجة عند الله عن المجاهدين بالمال والنفس، لإعلاء كلمة الله، والدفاع عن الملة والأمة، بل هم أفضل منهم في غير الحال التي يكون فيها الدفاع فرضًا عينيًّا، والدلائل على هذا كثيرة)(٢).

وقال العلامة الطاهر بن عاشور في: (التحرير والتنوير): (وإذ قد كان من مقاصد الإسلام بث علومه وآدابه بين الأمة، وتكوين جماعات قائمة بعلم الدين، وتثقيف أذهان المسلمين، كي تصلح سياسة الأمة على ما قصده الدين منها.

من أجل ذلك عقب التحريض على الجهاد بما يبين أن ليس من المصلحة تمحض المسلمين كلهم لأن يكونوا غزاة أو جندا، وأن ليس حظ القائم بواجب التعليم دون حظ الغازي في سبيل الله، من حيث إن كليهما يقوم بعمل لتأييد الدين، فهذا يؤيده بتوسع سلطانه وتكثير أتباعه، والآخر يؤيده بتثبيت ذلك السلطان، وإعداده لأن يصدر عنه ما يضمن انتظام أمره وطول دوامه.

فإن اتساع الفتوح، وبسالة الأمة لا يكفيان لاستبقاء سلطانها إذا هي خلت من جماعة صالحة من العلماء والساسة وأولي الرأي المهتمين بتدبير ذلك السلطان، لذلك لم يثبت ملك اللمتونيين في الأندلس إلا قليلا حتى تقلص، ولم تثبت دولة التتار إلا بعد أن امتزجوا بعلماء المدن التي فتحوها، ووكلوا أمر الدولة إليهم)(٣).

ومما هو ساطع في تقريب مدلول الآية الكريمة من الأزهر، وأنه هو التطبيق العملي الأبرز الذي قامت من خلاله أمة الإسلام بتنفيذه الأمر في الآية الكريمة: قول الإمام ابن حجر الهيتمي في ثبته: (كل ذلك بالجامع الأزهر الذي ليس على وجه الأرض بقعة جمعت من علماء الأمة وصلحائهم ـ والجهد في طلب العلم وتعلمه وتعليمه، والدأب في ذلك الليل والنهار ـ مثله، بحيث أجمعوا على أنه لم يقع منذ أزمان وإلى الآن أنه خلا عن علم أو ذكر ساعة من ليل أو نهار، وفيه من عدة الدروس والمصنفين والمفتين والعلماء العاملين ما يعجز الوصف عن الإحاطة بهم)(٤).

(١) مفاتيح الغيب /٨/٢٢٠/، ط: دار الغد العربي، القاهرة، سنة ١٤١٢هـ ـ ١٩٩٢م.
(٢) تفسير المنار /العدد ٥٧/٦٣/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة.
(٣) التحرير والتنوير /٦/٥٩/، ط: دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس.
(٤) ثبت الإمام شيخ الإسلام ابن حجر الهيتمي المكي الشافعي /ص٤١٧/، ط: دار الفتح، الأردن، سنة ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م.

والذي يطالع التاريخ، ويطيلُ النظر في أحوال المدارس العلمية الكبرىٰ، ويمعن في دراسة كتاب: (الدارس في تاريخ المدارس) للعلامة عبد القادر النعيمي، ويوسع البحث لقراءة تاريخ المراكز العلمية الكبرىٰ في أمة الإسلام، كالزيتونة، والقرويين، والأموي[1]، والسليمانية[2]، ومدارس العلم في بغداد، وأربطة حضرموت، والمدرسة العثمانية في ليبيا[3]، وسائر المدارس العلمية في الهند وبغداد وشنقيط وغيرها، يجد أن الأزهر الشريف هو أكمل هيئة وصورة حققت الأمة من خلالها تفسير الآية الكريمة علىٰ الوجه الأتم.

وأن الأزهر بأروقته ومبعوثيه، وطول الزمن الذي استحكمت فيه حركته العلمية، حتىٰ جاءته الوفود من الأتراك والهنود والبغداديين والحضارمة والجاويين والشوام والجبرتيين، فضلا عن أبناء سنار ودارفور وكردفان، وأبناء تشاد وأفريقيا الوسطىٰ، وأبناء السنغال وساحل العاج ونيجيريا، فضلا عن أبناء مصر من الصعيد والشرقية والبحيرة وغيرها من البقاع والأعراق والأجناس.

---

(١) أفرد الأديب الأستاذ علي الطنطاوي كتابا عن الجامع الأموي عنوانه: (الجامع الأموي في دمشق، وصف وتأريخ)، ط: وزارة الأوقاف، سوريا، سنة ١٩٦٠م، لكنه لم يتعرض لوصف الحركة العلمية في رحابه سوىٰ في سطور عابرة، قال عبد الرحمن بك سامي في رحلته: (سفر السلام، إلىٰ بلاد الشام)، ط: مطبعة المقتطف، مصر، سنة ١٨٩٢م وهو يتحدث عن دمشق: (أما مدارس المسلمين فمنها ما هو لدرس العلوم الدينية والفقه، ويبلغ طلبته نحو الألف، وجلهم يتلقون العلوم علىٰ الأئمة المدرسين، والعلماء الأعلام في الجامع الأموي وغيره، وفيهم كثير من الرجال النوابغ والعلماء الأفاضل، ممن يطول الشرح بذكرهم).
وانظر مثلا قول بعضهم عنه: (كان الجامع الأموي ملتقىٰ علماء دمشق بالعلماء الأغراب، وكانوا في رحابه يتناظرون بالعلوم المختلفة، التي كانت سائدة آنئذ، وكانت العادة إذا ما جاء عالم غريب أن يقبل علماؤها عليه إلا بعد استماعهم لدرسه في هذا الجامع، فيعرفون من خلال ذلك قدره حق المعرفة، ويطرحون عليه الأسئلة المشكلة لمعرفة مدىٰ علمه، ولم تكن سمعته ولا ألقابه ولا مناصبه لتعفيه من هذا الامتحان، فإن نجح فيه احترموه وأقبلوا عليه وأكرموه، وإلا أعرضوا عنه، فلا يسعه حينئذ إلا الرحيل)، وانظر: المدن والآثار الإسلامية في العالم /ص١٠٣/، ط: دار المعتز للنشر والتوزيع، الأردن، سنة ١٤٢٩هـ - ٢٠٠٩م، ثم رأيت الكتاب الجليل الذي وفَّىٰ الجامعَ الأمويَّ حقَّه، وهو كتاب: الجامع الأموي درة دمشق، لحسن زكي الصواف، ط: دار غار حراء، دمشق، سنة ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٨م، فجعل المجلد الثاني بأكمله لوصف النشاط العلمي فيه، وتراجم أعلامه، فجزاه الله عن البر والوفاء كل خير.

(٢) كان في السليمانية وحدها واحد وعشرون مدرسة، تتلقىٰ الطلاب إذا تخرَّج في الكتاب وحفظ القرآن الكريم، فتعكف علىٰ تدريس علوم العربية والشريعة والمعقول له، وتترقىٰ به من صغار الكتب إلىٰ كبارها في سائر تلك الفنون، ولا تكاد الخريطة المعرفية ولا الكتب الدرسية أن تختلف عما هو معهود في الأزهر سوىٰ في يسير، وانظر: تطور التعليم في كردستان العراق ١٩٠٨م-١٩١٨م/ص٤٥-٦٢/، ط: دار الزمان، و: به رتووكخانة يا نووده م، سنة ٢٠١٧م.

(٣) مدرسة عثمان باشا وسط مدينة طرابلس، من المدارس الإسلامية القديمة المشهورة، أسسها عثمان باشا الساقزلي والي طرابلس سنة ١٠٦٤هـ، لدراسة العلوم وتحفيظ القرآن، وجعل بها مسجدا، و١٦ حجة لسكنىٰ الطلاب، حبس عليها أوقافا، فصارت من المدارس التي لها الفضل الأكبر علىٰ أبناء طرابلس في نشر العلم والمحافظة علىٰ القرآن الكريم، إلىٰ سنة ١٣٨٥هـ، وانظر: معجم البلدان الليبية /ص٣٠٢/، ط: مكتبة النور، طرابلس، ليبيا، سنة ١٣٨٨هـ - ١٩٦٨م.

وأن كل هؤلاء الوافدين يعكفون على التعلم والدراسة، ثم يرجعون إلى بلدانهم فيتولون أرفع المناصب، أو يعكفون على تعليم ما تعلموا، وأن الأمم والشعوب استنارت بفعل هذه الحركة العلمية العجيبة، كل هذا مع اطراد هذه الحركة العلمية على مدى أجيال وقرون.

فإن من تعرَّضَ لرصد ذلك وتأمله، تيقن أن الأزهر الشريف هو أكمل صورة، حولت الأمة من خلالها نص الآية الكريمة إلى برنامج عمل، ومنهج تطبيق، وقامت الأمة بتطبيقه وتنفيذه في هذه الهيئة والمؤسسة العلمية العريقة، والتي هي الأزهر الشريف، فالأزهر الشريف عند من رصد تاريخه وأثره هو التفسير العملي الذي طبقت الأمة من خلاله الآية الكريمة.

وممن لمح ذلك الانطباق العلامة الكبير الشيخ محمود الديناري شيخ الجامع الأحمدي، في تقريره الثاني المرفوع إلى شيخ الجامع الأزهر، والذي اشتمل على وصف تفصيلي لأحوال الدراسة في الجامع الأحمدي وفي الأزهر عموما، حيث قال فيه: (الطريق الثاني ما يسلكه الأزهر والمدارس التي على شاكلته)، ثم تكلم عن غايات طلاب الأزهر إلى أن قال: (نشر علوم الدين بين طبقات الأمة، بواسطة الطلاب الذين ينفرون من أنحاء القرى، ليتفقهوا في الدين، ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم).

وممن لمح ذلك أيضًا العلامة الشيخ عيسى منون، إذ قال: (ومن مزاياه الجليلة أن أبوابه مفتحة لجميع أبناء العالم الإسلامي، من جميع الأقطار، يفدون إليه ليتفقهوا في دينهم، وينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم)[1].

وممن لمح ذلك شيخ الأزهر الإمام الشيخ محمد الأحمدي الظواهري، فقال عن الأزهر في خطبته أمام الملك فؤاد في افتتاح كلية أصول الدين يوم الثلاثاء ٢ ذو الحجة سنة ١٣٥١هـ الموافق ٢٨ مارس، سنة ١٩٣٣م: (فهو قلب الإسلام النابض، وعلمه الخفاق، ومصباحه الوهاج، الذي تعاقبت عليه الأجيال والقرون، وهو يرسل أشعة الإيمان والتقى ومكارم الأخلاق إلى مشارق الأرض ومغاربها، وهو كعبة العلوم الدينية والعربية التي تحج إليها الوفود الإسلامية من جميع القارات، ليتفقهوا في الدين، ولغة القرآن الكريم، وينشروا ذلك في قومهم إذا رجعوا إليهم)[2].

وقال الأستاذ أحمد خيري: (إشارة إلى ميزة الأزهر، من فتحه أبوابه في وجوه القصاد على اختلاف الجنسيات والألوان والألسن، فلكل مسلم مهما كانت بلده حق طلب العلم فيه)[3].

وقد كتب الدكتور محمد محمد شتا زيتون مقالين ماتعين، عنوانهما: (تأثير الأزهر في الخارج، بين

(١) حياة علم من أعلام الإسلام: الشيخ عيسى منون /ص٤٢/.

(٢) كلية أصول الدين /ص٢٧/، ط: مطبعة شبرا ومكتبتها، القاهرة، سنة ١٣٦٠هـ - ١٩٤١م.

(٣) قصيدة الأزهر /هامش ص٩/.

الماضي والحاضر)، نشرا تباعا في (مجلة الأزهر الشريف)، وهما أول عمل بحثي - فيما اطلعت عليه - يرصد أبعاد التأثير الأزهري في فكر العالم وثقافته، وقد أتى الدكتور محمد شتا زيتون في أحد مقاليه بإحصائيات مهمة حول الأزهريين.

إلى أن ختم مقاله بقوله: (هذه الإحصائيات السابقة التي تبين عدد البلاد الإسلامية وغير الإسلامية، وعدد الطلاب القادمين منها حتى هذا العام ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢م خير دليل على التأثير الحقيقي للأزهر في الخارج حيث يعود هؤلاء الطلاب إلى بلادهم بعد تخرجهم منه، أو بعد حصولهم على قدر كبير من التعاليم والمعارف الإسلامية.

فيقومون بنشر هذه التعاليم في بلادهم، في المدارس وفي المساجد وفي الجامعات وفي شتى أنحاء مجتمعاتهم المتعددة.

والكل يكن لهم كل تقدير واحترام، ويهتدي بآرائهم ويسير عليها، لأنهم قد اغترفوا من تعاليم الإسلام في رحاب الأزهر الشريف وتفقهوا في الدين على أيدي علماء الأزهر الأجلاء

وهم الآن يوضحون لقومهم في شتى أنحاء العالم بلغات قومهم حقيقة الإسلام، ويشرحون تعاليمه ومبادئه، ويتحقق فيهم قول الله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُواْ فِي ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُواْ قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾[(١)].

وبعض هؤلاء الطلاب الوافدين إلى الأزهر يكون لهم شأن كبير في بلادهم عند عودتهم إليها حيث يتولون فيها قيادات سياسية، وتعليمية وغيرها من الخدمات الاجتماعية المتعلقة بشئون بلادهم، فيتفوقون فيها ويكون لهم تأثير كبير في بلادهم، ولا شك أنهم يعتبرون لسان الأزهر المعبر في تلك البلاد وصورته المشرقة وصوته المدوي بتعاليم الإسلام، ومنارته المشعة بأهدافه السامية في شتى أرجاء العالم وقد اغترفوا ذلك من تعاليم الإسلام السمحة ومبادئه السامية التي يقوم الأزهر وعلماؤه الأفذاذ على حمايتها ونشرها في أنحاء العالم.

وقد أدت هذه الوفود الطلابية بجوار ذلك إلى توثيق الصلات بين الأزهر وبين سائر الأمم والشعوب العربية والإسلامية في شتى أنحاء العالم، بل إننا نجد أن الصلات التي تقوم بين أبنائه الطلاب من شتى أنحاء العالم تعمل على توثيق الصلات بين الأمم بعضها وبعض)[(٢)].

ولقد مضى زمانٌ مجيدٌ على الأزهر الشريف، أطلَّ فيه على أحوال المسلمين في العالم، وما كاد يترك بقعة في قارات الدنيا إلا وقد ابتعث إليها وفدًا من علمائه، لرصد أحوالهم، وتقدير واقعهم، والنظر

(١) سورة التوبة، الآية ١٢٢.

(٢) مجلة الأزهر /ص١٣٠١/، من العدد الصادر بتاريخ رمضان، سنة ١٤٠٣هـ - الموافق يونيه، سنة ١٩٨٣م.

في شئونهم، والاطلاع علىٰ تفاصيل أحوالهم ومواضع احتياجهم عن كثب.

حتىٰ نزل الشيخ إبراهيم الجبالي مع وفدٍ أزهريٍّ رفيعٍ لرصد أحوال المنبوذين في الهند، ونزل الشيخ عبد الله المشد لرصد أحوال المسلمين في الصومال والقرن الإفريقي.

وأوفد الأزهر بعض دعاته الذين يعملون بالمراكز الإسلامية في أستراليا لبحث أحوال المسلمين في فانواتو، وقد تضمن تقريرهم المرفوع للأزهر أن المسلمين هناك في حاجة ماسة إلىٰ الدعم المادي والمعنوي للمؤسسات الإسلامية وضرورة تزويدهم بالمصاحف الشريفة وترجمات معاني القرآن الكريم والكتب الدينية.

وكانت بعثات الأزهر علىٰ نمطين، ما بين مكلف بمهمة، وما بين مقيم، ومثال المقيم الشيخ عياد الطنطاوي الذي أقام في روسيا حتىٰ مات ودفن هناك، وترك لنا رحلته: (تحفة الأذكيا، في أخبار بلاد روسيا)، ومثال المكلف بمهمة ما كان من الشيخ محمود حب الله، حيث خرج في بعثة أزهرية إلىٰ ست دول أفريقية، ثم بريطانيا، وأمريكا فأقام فيها سنوات، ثم اليابان.

ولابد من أن يحافظ الأزهر علىٰ بقاء هذا المنحىٰ من الدراسات الراصدة، التي تفتح عيون مصر علىٰ ما تمد به يدها إلىٰ الدول من العطاء والإفادة، وأن يكلف أبناءه بكتابة التقارير التي فيها عصارة خبرتهم بأحوال الأمم وطبائع الشعوب، وأن يعمل علىٰ بقاء المراصد الإلكترونية الحديثة التي تساعد علىٰ ذلك.

إِضَاءَةٌ
في أن الأزهر في حقيقته صانع للعقول

ولقد ظلَّ الأزهر الشريف على مدى قرونٍ طوالٍ عاكفًا على صنعة العلم والتعليم، تتداعى إليه عقولُ النجباءِ والعباقرةِ، والشيوخِ والتلامذةِ، والعبّاد والصالحين، من أبناء الأقطار المختلفة، من ديار أهل الإسلام وغيرها، ولم يزل شأن الجامع الأزهر يعلو بالتدريج، ولم تزل شمسه تزداد سطوعا، حتى آل الأمر به في القرن التاسع إلى طفرة جعلته في غاية الجلالة، فعمرت أروقته، وتدفقت فيه العلوم، واحتشد فيه العلماء والعباد.

قال ابن ظهيرة المتوفى سنة ٨٩١هـ في: (الفضائل الباهرة): (في ذكر ما اختصت به مصر والقاهرة وأهلها من محاسن وفضائل)، فذكر أمورًا، ثم قال: (الثالث: جامعها الأزهر بالخصوص؛ فليس في الدنيا الآن ـ فيما أعلم ـ له نظير، ولا ينقطع ذكر الله تعالى عنه طرفة عين في ليل ولا نهار، وفيه أروقة لأصناف من الخلق منقطعين لعبادة الله تعالى، والاشتغال بالعلوم، وتلاوة القرآن، لا يفترون ساعة)[١].

ففاضت من الأزهر الشريف أنوار العلوم والمعارف على القطر المصري كله، والسبب في ذلك أنه يصنع العقول، وينورها بأقباس الحكمة، وأنه وظيفته الأولى هي التعليم، وتدريب الأذهان على طرائق التفكير المستقيم.

وإذا أردنا تحديد المهمة الأولى للأزهر على الحقيقة، فهي أنه صانعٌ للعقول، وبانٍ للإنسان، وتأتي حركة العلم في ذروة أنشطتها ومتطلباتها ومقاصدها لتستهدف صناعة العقول على نحو رفيع، يشهد له الخبراء بالجودة العالية، التي تجعلهم يقدمونه على بقية مدارس العلم، ويشدون الرحال إليه على مدى أجيال وأزمان.

قال الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي: (الأزهر هو محط الرحال، وكعبة الآمال، ومجمع الدين والعلم والأدب، ومفخرة مصر والشرق والعرب، هو قلب الإسلام الخافق، ولسانه الناطق، وعلمه المرفوع، هو تلك الجامعة العظيمة، التي أضفى عليها الزمان ثياب الجلال، وأسبل عليها الخلود ستور الجمال، فحفظت للإسلام مكانته، ورفعت للدين رايته، ومدت على العربية ظلها الممدود، وحملت

(١) الفضائل الباهرة، في محاسن مصر والقاهرة /ص١٩٠/، ط: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ٢٠٠٩م.

لواءها المعقود، وخرجت أئمة الهدى، ومصابيح الحكمة، وشعت منها أشعة النور في كل بقعة ومكان)[1].

وكم في هذه الكلمات المنيرة الرفيعة من اعتزاز بالأزهر الشريف، وإعراب عن مكانته السامية، ومنزلته الجليلة، ولقد لخصت عباراته الآنفة معالم عمل الأزهر على مدى قرون، وكم للأزهر من مآثر لا يكشف عنها سوى المطلعين عن كثب على دقائق صناعة العلم في الأزهر.

ولئن كانت كلمة الشيخ المراغي هي نظرة الأزهر لنفسه ومعرفته بذاته، فاسمع أيضًا إلى نظرة العالم المحيط بنا إلى الأزهر، حيث قال العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري وكيل شيخ الإسلام في الدولة العثمانية: (الأزهر لم تزل ولا تزال وفود الشعوب الإسلامية تؤمه منذ مئات من السنين، ليرتووا من معينه الصافي، ويهدوا قومهم إذا رجعوا إليهم، بما تلقوه هنا من العلوم العالية الإسلامية.

وهكذا كان الأزهر الشريف منار الهداية لجميع الأقطار الإسلامية، حتى أصبح معقدَ آمال العالم الإسلامي كله في شؤون علم الدين، بحيث يعد أنه لا يفرط في أمر هذا المعهد التاريخي العظيم إلا من لا يبالي أن يفرط في معقل الإسلام الوحيد، قام الدين أم قعد)[2].

وهذه كلمة خبير في شئون العلم والتعليم، يقف على رأس رصد واسع لشئون مدارس العلم، حيث عايش صنعة التعليم ومارسها زمنًا في دار الخلافة، ودبج عدة مقالات كاشفات عن تفاصيل حركة التعليم وآدابها وأعرافها هناك، فشهادته شهادة خبير من مدرسة علمية عريقة كانت سوقها عامرة، ولها تاريخ عريق، يخفى كثير منه على أهل ديارنا.

ويشهد بذلك أيضًا أبو التعليم في مصر، العلامة علي مبارك باشا؛ إذ يقول في: (الخطط التوفيقية): (ويغلب على الظنِّ أنَّه أشهرُ بقعةٍ بعد المساجد الثلاثة، فهو الجامعُ الجامع، والأزهرُ الأزهر، والمدرسةُ الكبرى، والبقعةُ النافعة.

به يزول الجهل، وتخلد حياة العلم، وتتأدب النفوس، وتتسع القرائح، وتتنبه الفطن، وتروق الأفكار، وتتفنن الآداب، وتظهر الأسرار، ويكتسب الشرف، ويعظم القدر.

فكم بزغت فيه شموس وأقمار، وغرَّدتْ فيه بلابلُ المعلمين والمتعلمين في العشيِّ والإبكار والأسحار)[3].

(١) الأزهر في ألف عام /١/٢٦٦/، ط٢: عالم الكتب، بيروت، ومكتبة الكليات الأزهرية، القاهرة، سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) مقالات الكوثري /ص٦١٩/، ط: المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، سنة ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

(٣) الخطط التوفيقية /٤/٣٥/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

وهذه كلمةُ خبيرٍ، نظر في تاريخ العمران المصري، وعكف علىٰ رصد جهود المصريين علىٰ امتداد القطر المصري، وهو من كبار رجالات التعليم في مصر، فهو خبير يعرف كيف يزن الأمور، وتوصيفه دقيق يوزن بالذهب، والمدار الذي يدور عليه توصيفه لمناقب الأزهر هو تنوير العقول بالعلم.

ويقول العبقري جمال حمدان في: (شخصية مصر): (كذلك تسجل العصور الوسطىٰ علاقات متواترة بين مصر والسودان الغربي وغرب إفريقيا علىٰ طول محور السافانا، الساحل، السهل، وعبر خطوط الواحات ونيل السودان، وإذا كان طريق الحج السوداني هنا مباشرًا إلىٰ مكة قبلة للدين، فقد كان الأزهر قبلة علم الدين)(١).

وهذا حقٌّ؛ إذ مضت قرون ولا يُعهد في الشرق جامعة علمية لها هذا الامتداد، ويتوافد إليها الطلبة من هذا المحيط الجغرافي الواسع، وكل مدارس العلم الكبرىٰ مهما بلغت ضخامتها فإنها محلية، تخدم إقليمها ومحيطها، ولربما تعدىٰ أثرها إلىٰ بقاع بعيدة، لكن ذلك لا يبلغ في السطوع والظهور مبلغ الأزهر، الذي حفر في وجدان الشعوب والأمم أثرًا عميقًا، احترمت الشعوب أثره، ورغبت في استمراره في أجيالها، علىٰ نحو لم يقع له نظير.

ولا تكاد عبارات العلماء والرحالة والكتاب تنتهي في وصف ذلك، في عصور مختلفة، وعلىٰ أقلام متعددة، وفي كتابات متفرقة.

فقد قال المعلم بطرس البستاني في دائرة معارفه: (ومنذ أيام محمد علي ـ الذي أحيا المعارف والعلوم في القطر المصري ـ أخذت مدرسة جامع الأزهر في استرجاع رونقها القديم، وجعل الطلبة يتقاطرون إليها من كل صقع من جميع المذاهب الإسلامية، فأصبحت مرضعة للعلوم الفقهية وغيرها، وانتشرت تلامذتها البارعون وفوائدها في كل قطر من الممالك العثمانية وغيرها)(٢).

وتمضي عبارات المشارقة والمغاربة في الإعراب عن ذلك، فيقول إدوارد وليم لين في: (المصريون المحدثون): (ويتلقىٰ الذين يعدون أنفسهم لوظيفةٍ دينيةٍ أو علمية دروسهم في الأزهر الشريف، والأزهر جامعة الشرق عامة)(٣).

وقال الأديب الأستاذ علي الطنطاوي في كتابه: (ذكريات): (أما جامعها الأزهر فكان فَحْلَ الجامعات، وكان مثابةَ العلم، وكان كعبةَ الطلاب، وكان يحمل علىٰ عاتقه أمجاد ألف سنة)(٤).

---

(١) شخصية مصر، دراسة في عبقرية المكان /٤/٤٢٤/، ط: دار الهلال، القاهرة، سنة ١٩٩٥م.

(٢) دائرة المعارف /٣/٣١١/، ط: مطبعة المعارف، بيروت، سنة ١٨٧٨م.

(٣) المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم /ص١٤٤/، ترجمة عدلي طاهر نور، ط: مطبعة الرسالة، القاهرة، سنة ١٩٥٠م.

(٤) ذكريات /٧/١٠٥/، ط٥: دار المنارة ودار ابن حزم، جدة، المملكة العربية السعودية، سنة ٢٠٠٧م.

وقال الأستاذ جرجي زيدان: (وإنما يهمنا هنا حال التعليم في مصر في أول القرن التاسع عشر قبل دخول التعليم الحديث، وكان مركز التعليم الإسلامي يومئذ في الأزهر، وكانت هذه المدرسة مبعث نور العرفان لمصر وغيرها من العالم الإسلامي)(١).

وقال الأستاذ محمد منير عبده أغا الدمشقي الأزهري في: (نموذج من الأعمال الخيرية): (إنَّ للأزهر شهرةً ومكانةً في قلوب العالم الإسلامي خصوصًا، وغيره عمومًا، مَلَأَتا الخافقين، فصار مقصداً لطلاب العلم، يؤمونه من أقصىٰ بقاع المعمورة، ويأتون إليه من البلاد النائية)(٢).

وقال مؤرخ ليبيا الأستاذ علي مصطفىٰ المصراتي في كتابه: (أعلام من طرابلس): (الأزهر المعمور، ينبوع العلم والعلماء، ومناط الأمل والرجاء)(٣).

وقال الرحالة عالي بك مدير الديون العمومية بالدولة العثمانية وكان نزوله مصر سنة ١٣٠٤هـ: (وبالرغم من أن جامع الأزهر لا يستحوذ علىٰ فنون معمارية من ناحية البناء، إلا أنه مدرسة كبرىٰ، يدرس بها علماء مصر العلوم، ويوجد بالجامع عدة مئات من الطلاب، ومجموعة من المدرسين والمعلمين، ويستعمل طلاب العلوم هنا قطع الصفيح العادية بدلا من الألواح الخشبية المصنوعة من الحجر الأسود المسماة «آردواز» أو الورق، لكتابة الدروس التي يقرها المعلمون هنا)(٤).

وقال الرحالة كارستن نيبور سنة ١٧٦١م: (ويعتبر الجامع الأزهر أقدم وأوسع وأفخم المساجد الكثيرة المنيفة في القاهرة، ويتلقىٰ عدد كبير من الفقراء يوميا من الجامع الأزهر بالمجان المسكن والمأكل والمشرب، وتقوم هنا جامعة «=أكاديمية» مشهورة للمسلمين، لها أربعة من المفتين للمذاهب الأربعة المسماة بالسنية، المذهب الشافعي والحنفي والحنبلي والمالكي)(٥).

ويمكن لمن يعكف علىٰ كتابات الرحالة الذين عبروا علىٰ مصر أن يرىٰ بجلاء أن الأزهر قد حظي بقدر عظيم من اهتمامهم، ووصفوا مشاهده وأخباره.

وقال العلامة الشيخ آدم الإلوري في: (تاريخ الدعوة إلىٰ الله): (وفضل الأزهر علىٰ الدعوة وبركته

---

(١) تاريخ آداب اللغة العربية /ص١٧/، ط: دار الهلال، القاهرة، (د ت).

(٢) نموذج من الأعمال الخيرية، لإدارة الطباعة المنيرية /ص٤٣/، ط: مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، سنة ١٤٠٩هـ - ١٩٨٨م.

(٣) أعلام من طرابلس /ص٦٦/، ط: طبعة ماجي، طرابلس الغرب، ليبيا، سنة ١٩٥٥م.

(٤) رحلات عثمانية في الجزيرة العربية والهند وآسيا الوسطىٰ ما بين القرنين السادس عشر والعشرين /١/٢٠٧/، ط: دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، سنة ٢٠١٣م.

(٥) رحلة إلىٰ مصر /ص٢٢٨/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠١٢م.

على الإسلام ثابت في الأذهان، وماثل للعيان، لا يحتاج إلى البيان)[١].

وصدق ﷺ، فقد ظل الأزهر منبعًا للعلم، ومحطًّا للأمل، على مدى أجيال، وذاع له ذلك الصيت العلمي الجليل، وسنة الله تعالى في مثل تلك البقاع لا تتخلف.

ولقد أفادت عباراتهم جميعا صورة واضحة ومستقرة للأزهر في أذهان هؤلاء جميعا، وهي القيام بأعباء صنعة التعليم، وتأجيج مشاعل المعرفة، وتنوير وجدان الشعوب وضمائرها، مما رجع على مصر من ثم بوصف الأستاذية، وأنها جاذبة لكل عقل ألمعي فيه استشراف للعلم وتطلع إليه، لتصهره وتنقحه وتجلوه، وتمزجه بالعلم مزجا.

(١) تاريخ الدعوة إلى الله بين الأمس واليوم /ص٢٤٣/، ط٣: مكتبة دار النور، لاجوس، نيجيريا، سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

إِضَاءَةٌ

في أن الأزهر قد صهر عقولا متفاوتة، وطبائع مختلفة، من أمم وشعوب متباعدة، مما صقل تجربة التعليم فيه إلى أبعد حد

ومن الجوانب والزوايا المهجورة في الأزهر تمكُّنه من مخاطبة وفود متعاقبة على مدى قرون جاءت من نطاق مكاني شديد الترامي والاتساع، مع ما يحتمه ذلك من افتراق الطبائع، واختلاف الأعراف، حيث تسابق إليه طلاب العلم من شتى بقاع المعمورة، قال الأستاذ محمد علي غريب: (ومن شتى بقاع الأرض، كان الشباب المسلم يفد على الأزهر، مزودًا بالقليل من المال، والكثير من الإيمان، من الهند، والصين، والملايو، وجاوة، والتركستان، من عشرات الشعوب الإسلامية، التي يكتب كل شعب منها وجوده واسمه على خريطة الدنيا بالجهد والتضحية، كانوا يحضرون إلى القاهرة، ليجلسوا على أرض الأزهر، وليستمعوا إلى شيوخه وهم يصاولون الكلمات والحروف، ابتغاء أن يستخرجوا منها، من الأسرار، ما يملأ بقاع الأرض، ولم يكن الشيوخ أوفر نعمة من طلابهم، فإنهم جميعا سواء في خشونة العيش، وربط الأحجار على البطون، وطعامهم الحقيقي هو العلم)(١).

حتى قال الدكتور ميلاد حنا في كتاب: (الأعمدة السبعة للشخصية المصرية): (ومن خلال العلماء الوافدين من كافة أركان الأرض إلى الأزهر، جاءت معهم مصادر معرفية جديدة، أدت إلى إثراء الفكر القومي المصري)(٢).

ولهذا المعنى مدخل مهم في تجويد عملية التعليم فيه وإتقانها وتحسينها وصقلها، حيث اقتدر علماء الأزهر على استيعاب الطلاب الوافدين من تلك الجهات النائية، والبلدان المتباعدة، ما بين طالب جاء من الملايو، إلى طالب وفد من الهند، إلى طالب ارتحل إليه من أريتريا، إلى طالب من القوقاز، إلى طالب من صحراء الجزائر أو تشاد، أو غير ذلك، ولكل مكان من تلك البلاد الكريمة نمط في المعيشة، وطريقة في التعليم، ومداخل صقلتها تجربتهم المحلية في تنشئة الطالب وبناء عقله، وتكوين مداركه ومداخل استيعابه، فضلا عن اختلاف الأجواء، والمطاعم، والأعراف الاجتماعية المستقرة، وطرق

---

(١) أزهريات /ص٨/.

(٢) الأعمدة السبعة للشخصية المصرية /ص١٠٥/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠١٣م.

التعبير، وكيفيات التعامل، إلىٰ غير ذلك من الفروق المجتمعية، التابعة لاختلاف الأقطار والألوان والألسنة والطبائع والأمزجة.

فإذا بالأزهر الشريف ينجح عبر قرونٍ ممتدةٍ في استيعاب هذه الطبائع والعقول جميعًا، ويقتدر مع تكرار التجربة علىٰ فهم أمثل الطرق وأقربها للتفاهم والتعامل معهم جميعا، واستقامت جسور الفهم والإفهام بينه وبينهم جميعا، والتأمت تلك الطبائع المتفرقة علىٰ منهجه، وطريقة علمائه في التدريس.

وكان يمكن لهذه التجربة ألا تنجح، وأن تأتي الوفود لجيل أو جيلين، فيلمسون صعوبة التواصل، والعسر والمعاناة في الفهم والمعيشة، وتعذر إمكانية الالتئام بينهم وبين العلماء والزملاء القادمين من الصعيد ومن الدلتا ومن مختلف ربوع مصر، فتنحسر الظاهرة سريعا، ويكف الناس بالتدريج عن تحمل مشقة الرحيل إلىٰ الأزهر، لكن الأمر استقام واطرد، واستوىٰ علىٰ سوقه، وتتابعت الأجيال علىٰ ذلك، ونجحت هذه الظاهرة في أن تشق طريقها، وتصنع الواقع التاريخي الأزهري العجيب الذي نرصده اليوم، ونتأمل أسباب نجاحه، لنعيد تكرارها وتوفيرها.

والخلاصة أنه قد امتزجت فيه الطباع المختلفة، والعقول المتباينة، وأنماط المعيشة المتفاوتة، وانصهرت فيه ثقافات الأفراد وطرائق تعليمهم، وقد حكىٰ الحافظ السيد عبد الحي الكتاني في (الإفادات والإنشادات) قال: (كان شيخنا المحدث المسند أبو علي حسين بن محمد بن حسين الحبشي الباعلوي المكي يقول: ينبغي للطالب أن تكون فيه خمس خصال: همة مغربية، وأذواق مصرية، وآداب رومية، وقناعة مكية، وزهادة حضرمية)[1].

فكيف بالأزهر وقد نزل فيه المغاربة، والروم، والمكيون، والحضارم، وغيرهم من أجناس الأرض وشعوبها، فما زال الأزهر ينتقي محاسن ما عند هؤلاء، ثم يكسبهم خلاصة تجربته، وهذا هو الذي أثمر ذوقًا مصريًّا أزهريًّا رفيعًا انطبع به كل الوافدين إلىٰ مصر والأزهر، ومردُّ ذلك كله إلىٰ الذوق السليم الرفيع القادر علىٰ تصفح ذلك كله، وانتقاء الأجود والأرفع والأزكىٰ من كل ذلك، ولذا أرىٰ أن تعبير الحبيب مفتي مكة العلامة الحبيب حسين بن محمد الحبشي بالأذواق المصرية نابع من تجربة صحيحة، وحصافة نظر ورأي.

وعلىٰ النحو السابق كان الأزهر الشريف يصنع بإتقان عقولا كبيرة، قد تكاملت لديها دوائر العلم، فأبصرت تضاريس الشرع، وفهمت مقاصده، وأدركت غاياته، وتشربت نسقه، وانفتحت بصائرها علىٰ الآداب النفسية الرفيعة التي يثمرها هذا الشرع الشريف، ثم خرجت تلك العقول إلىٰ المجتمع وواقعه،

(١) الإفادات والإنشادات، وبعض ما تحمله من لطائف المحاضرات /ص٣٠٢/، ط: دار الحديث الكتانية، طنجة، المملكة المغربية، سنة ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

فيعيشون بين الناس بما تحملوه وعرفوه من تلك المعارف التي تستنير بها العقول، فيجعلون أعمارهم موقوفة على خدمة الناس، وتعليمهم، ورفع وجوه المعاناة عنهم، وإغاثة ملهوفهم، ورفع الضرر عن المكروب منهم، مع حفظ الأوطان، وأمان المجتمعات، وإطلاق الثورات ضد المستعمر والمحتل، والصبر وطول النفس على إصلاح أمور المسلمين مهما تعقدت وتداخلت.

وخرج من الأزهريين من رأس دولة، أو تولى وزارة، أو جلس لتدريس، أو احترف حرفة، أو تصدر بين الناس لإقامة الشعائر، فكانوا كغيرهم من الناس، يصدر منهم الصواب والخطأ، وتختلف طبائعهم البشرية، لكن الأعم الأغلب من شأنهم أن الناس يجدون فيهم الملاذ في أوقات الشدائد والأزمات، حتى استقر في وجدان الناس أنهم أهل نجدة وغوث للناس في الشدائد.

ولم تزل وقائع الدهور وأيام الناس تتجدد، فيرى الناس منهم في كل جيل المواقف الرشيدة الباهرة، التي تجعل الحكايات والمواقف المروية عنهم في التاريخ مستمرة ومتجددة، ويكون الحاضر منها معيارًا على صدق الماضي.

وهذا الملمح مهمٌّ جدًّا، ألا وهو عدم اقتصار تحقيق مجده وصيته الرفيع الحسن على جيل مضى، ثم تجتر الأجيال التالية تاريخًا مسطورًا، دون أن يرى معاصروهم منهم ما يتحققون معه أن المنقول في التاريخ لم يكن مبالغة أو إطراء أو حديث خرافة، حيث إنهم رأوا من أجيالهم التي يعاصرونها من أبناء الأزهر مواقف شامخة، تحفظ الوطن، وتسعى في الرخاء، وتنادي بصناعة الحضارة، فيصير الأزهر أمانة يصنعها كل جيل في زمانه، فتتجدد في كل جيل ثقة المجتمع به.

إِضَاءَةٌ
في ضخامة أعداد الطلاب المنتسبين إلى الأزهر عبر العصور

كان الأزهرُ هو المركزَ العلميَّ الأشهر البراق، الذي تهوي إليه الأفئدة، وتتعلق به آمال ذوي الطموح، ولم تكن له فروع أو معاهد تتبعه، فكان يجتمع في رقعة الجامع الأزهر والمساجد المجاورة له عشرة آلاف طالب تقريبا.

قال الأستاذ يسري السيد: (وقائمة خريجي الأزهر لانبالغ إذا قلنا إنها بعشرات الملايين، وهو العدد الذي لايوجد نظيره في أي جامعة في العالم، فضلا عن تنوع قاعات الدرس فيه من العلوم الشرعية إلى العلوم الإنسانية والطبيعية، وأي إحصاء لعدد الخريجين سوف يستلزم جهودًا جبارة، وستكون المحصلة بالتقريب في أحسن الأحوال، لعدم وجود سجلات حقيقية لطلابه منذ إنشائه وحتى الآن)(١).

ومن أوائل من تصدى لإحصاء ذلك الرحالة الشهير أوليا كاتب جلبي، المتوفى سنة ١٠٩٤هـ تقريبا، في رحلته المسماة: (سياحتنامة مصر)، قال فيه وهو يتكلم عن الأزهر: (وحلقات الدروس كثيرة، والطلبةُ لا عدَّ لهم، ثم إن هناك ـ عدا الأروقة ـ ربوعًا، إذا دخلها المرء تاه في حُجَرها، وهي كذلك تكتظُّ بأعيان العلماء والصالحين، وخلاصة القول أن بالأزهر اثني عشر ألف نفس)(٢).

ونشر رفاعة بك الطهطاوي في مجلة (روضة المدارس) كشفًا تفصيليًّا بعدد المدرسين والطلاب بالأزهر، موزعين على الأروقة والحارات والمذاهب الفقهية، حتى انتهت إلى أن عدد الطلبة تسعة آلاف وأربع مئة وواحد وأربعون، وعدد المدرسين ثلاث مئة وأربعة عشر(٣).

وذكرت مجلة (روضة المدارس أن هذا الإحصاء نشر في صحيفة وادي النيل، وعلقت عليه بقولها: (ورد إلينا هذا الكشف ممن يستند في هذا المعنى إليه، والعهدة فيه عليه، حيث طلبنا منه تفصيله وبيانه، وأحببنا نشره وإعلانه، فيما يتعلق بإحصاء عدد المدرسين والطلبة بمدرسة الجامع الأزهر، ليعلم مقدار

---

(١) من مقال له عنوانه: مشاهير وزعماء تخرجوا من الأزهر من مصر والعالم، نشر بتاريخ ١ أغسطس، سنة ٢٠١٢م.

(٢) سياحتنامة مصر /ص٢٧٣/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م، تحقيق: العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام، والدكتور أحمد السعيد سليمان.

(٣) روضة المدارس /عدد ٢ السنة ٣ /١١ ـ ١٣/، الصادر بتاريخ الاثنين غاية محرم سنة ١٢٨٩هـ.

هذه المدرسة العلمية من حيث النتيجة التعليمية على أهل الديار المصرية وسائر الأقطار الإسلامية).

ثم بعده بسنة نشر في (روضة المدارس) إحصاء آخر بلغ فيه عدد المجاورين عشرة آلاف ومئتين وستة عشر طالبا[1].

وأنا أجزم أن هذا الإحصاء والذي قبله هو أساس ما ساقه العلامة علي مبارك باشا من إحصائية للدارسين والأساتذة في الأزهر سنة ١٢٩٠هـ، فقال في (الخطط التوفيقة): (وكثرت طلبة العلم في المذاهب الأربعة في مدته ومدة خلفائه، حتى بلغ عددهم في سنة تسعين ومئتين وألف هجرية تسعة آلاف وأربع مئة وواحدًا وأربعين طالبًا، منهم شافعية أربعة آلاف وخمس مئة وسبعون، ومالكية ثلاثة آلاف وسبع مئة وعشرة، وحنفية ألف ومئة وأحد وثلاثون، وحنابلة ثلاثون طالبا، وأما عدد المدرسين في المذاهب الأربعة فبلغ ثلاث مئة وأربعة عشر)[2].

وقال في موضع آخر من: (الخطط التوفيقية): (وكل حين يزداد عمارية وشهرة في الآفاق، ويُؤتَى إليه من جميع بلاد الإسلام، لتعلُّم العلوم الشرعية والعقلية والنقلية، من دروسه الدائمة، المتصدر في إقرائها جهابذة العلماء والمحدثين، ما بين مؤلف ومدرس.

فتجد فيه من المجاورين الألوف المؤلفة، من الطوائف المختلفة، كأهل الحجاز واليمن، والسند والهند، والسودان والجاوة، وبغداد والمغرب، والشام والسليمانية، والأتراك والأكراد، خلاف الجم الغفير من البلاد المصرية، بالصعيد والبحيرة والفيوم والشرقية والغربية)، إلى أن قال: (ومن المجاورين الطلبة عشرة آلاف وسبع مئة وثمانون)[3].

وذكر هذا العددَ أيضًا العلامةُ السيد محمد بن جعفر الكتاني في: (الرحلة السامية، إلى الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية)، وهو يسوقه سماعا من شيخ الإسلام وشيخ الأزهر العلامة عبد الرحمن الشربيني.

قال ما نصه: (وأخبرنا أن بالجامع الأزهر في وقته هذا من المدرسين نحو ثلاث مئة مدرس، ومن الطلبة المجاورين نحوا من اثني عشر ألفا، وأن بغير الأزهر مدرسين آخرين غير الثلاث مئة، ولا ينتصب أحد للتدريس بالأزهر إلا بعد اختباره في اثني عشر علما)[4].

---

(١) روضة المدارس /عدد ١٥ السنة الرابعة/ص٤ من الملحق بآخر العدد/، الصادر بتاريخ الثلاثاء، ١٥ شعبان، سنة ١٢٩٠هـ.

(٢) الخطط التوفيقية /١/٢٢١/.

(٣) الخطط التوفيقية /٤/٣٥/.

(٤) الرحلة السامية /ص١٤٠/، ط: دار ابن حزم، ومركز التراث الثقافي المغربي، بيروت، والدار البيضاء، سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م.

قال ستانلي لين بول في: (سيرة القاهرة): (ومنذ ذلك الوقت الذي بني فيه هذا المسجد العظيم، صار ذلك الجامع من أهم الجامعات الإسلامية كافة، يجتمع فيه عدد وفير من الطلاب من جميع أنحاء العالم الإسلامي؛ من ساحل الذهب حتىٰ ولايات الملايو.

ولكل شعبٍ رواقٌ خاصٌّ به، ويتلقىٰ هؤلاء الطلاب علىٰ أيدي الشيوخ دروسًا في مختلف فروع الثقافة العربية القديمة: (علوم) القرآن، والحديث، والتفسير، والفقه، والقواعد، وعلم العروض، والمنطق، والبلاغة، والجبر، وما إلىٰ ذلك.

وإلىٰ عام ١٩٠١م كان يذهب إلىٰ الجامع الأزهر أكثر من تسعة آلاف طالب، يتلقون علومهم علىٰ أيدي مائتين وتسع وثلاثين من الأساتذة)[١].

فهذا رصدٌ وإحصاء مبكر لعدد طلاب الأزهر، المنتظمين للدراسة فيه، وقد خلص صاحبه إلىٰ أن عددهم تسعة آلاف، لكن هذا عدد تقريبي، غير كاشف عن الحجم الحقيقي للطلاب.

وقال المعلم بطرس البستاني في (دائرة المعارف): (وقد عدل عدد الشيوخ المدرسين والطلبة المجاورين بالأروقة في هذه المدرسة سنة ١٨٧٥م فكان عدد الشيوخ ٣٢١ شيخًا، منهم ١٣٧ شافعية، و٩٩ مالكية، و٧٣ حنفية، و٣ حنبلية، ومن المجاورين الطلبة ١٠٧٨٠ في ١٥ حارة و٣٨ رواقا، منهم ٥٦٥١ شافعية، و٣٨٣٦ مالكية، و١٣٧٨ حنفية، و٣٥ حنبلية، وقد زاد عددهم في أواخر سنة ١٨٧٥ نحو ٥٦٤ طالبًا)[٢].

وقال عبد الله النديم سنة ١٨٩٣م في (مجلة الأستاذ): (هذا الجامع المبارك يتفق أن يوجد فيه من عشرة آلاف طالب إلىٰ عشرين ألفا)[٣].

وقال جرجي زيدان سنة ١٩١٤م في (تاريخ آداب اللغة العربية): (وطلبة الأزهر الآن (١٩١٤) يزيد علىٰ عشرة آلاف طالب علىٰ اختلاف الأجناس واللغات، تسعة أعشارهم من المصريين)[٤].

وقال الأستاذ محمد منير عبده آغا الدمشقي في: (نموذج من الأعمال الخيرية): (وفي مصرَ معهدٌ عظيمٌ للطلبة، وهو الجامع الأزهر، ينسب إليه كثير من الطلبة، يبلغ عددهم عشرين ألفا، وله فروع كثيرة في

(١) سيرة القاهرة /ص١٢١/، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠١٢م.
(٢) دائرة المعارف /٣١١/٣/، ط: مطبعة المعارف، بيروت، سنة ١٨٧٨م.
(٣) مجلة الأستاذ /ص٦٠٩/، الجزء السادس والعشرون من السنة الأولىٰ، العدد الصادر بتاريخ الثلاثاء ٢٧ رجب، سنة ١٣١٠هـ، الموافق ١٤ فبراير، سنة ١٨٩٣م.
(٤) تاريخ آداب اللغة العربية /ص١٩/، ط: دار الهلال، القاهرة، (د ت).

الإسكندرية، والزقازيق، ودمياط، ودسوق، وطنطا، وأسيوط، وفيهم علماء نبغاء، وشيوخ فضلاء)[1].

وقد نقل مؤرخ الأزهر الشيخ سليمان رصد الحنفي من إحصائية عموم المدارس بالقطر المصري سنة ١٢٩٢هـ ما خلاصته أن عدد المنتظمين للدراسة في الأزهر الشريف تلك السنة كان عددهم أحد عشر ألفًا ونيفًا[2].

بل حدثني المسند المعتني المدقق الشيخ محمد عبد الله الرشيد حفظه الله في ربيع الأول، من سنة ١٤٣٥هـ في القاهرة حفظها الله، أن العلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة حدثه أنه لما أن كان في الأزهر الشريف، وقع أن تبرع أحد الباشوات من المصريين بحذاءٍ لكل طالب بالأزهر، فتم إحصاء الطلبة لأجل ذلك، فبلغ عددهم عشرين ألفًا بالتمام.

قلت: وكان الشيخ ﷺ قد التحق بالأزهر الشريف سنة ١٣٦٤هـ الموافق ١٩٤٤م، وانتظم في الدراسة في كلية الشريعة إلىٰ سنة ١٣٦٨هـ، الموافق ١٩٤٨م، كما في: (إمداد الفتاح)[3]، فهذا مقدار تعداد المنتظمين للدراسة في الأزهر الشريف خلال تلك المدة.

فهذا الخبر موافق لقول الإمام أبي الفيض محمد بن عبد الكبير الكتاني في رحلته: (اللؤلؤة الفاشية): (وبعده: الجامع الأزهر أدام الله عمارته بدوام ذكره، وهو ملآن من طلبة العلم الشريف المجاورين، ليس فيه موضع خطوة بلا طلبة)[4]، إلىٰ أن قال بعد أسطر: (وعدد الطلبة المتعلمين به من جميع الأقطار ـ علىٰ ما هو محصىٰ في دفاتر الأروقة ـ اثنان وعشرون ألفا، وعدد المدرسين ثلاث مئة وخمسون مُدَرِّسًا)، والإمام أبو الفيض الكتاني يصف ما شاهده في رحلته إلىٰ الحج سنة ١٣٢١هـ، فهذا إحصاء سابق علىٰ ما ذكره العلامة المحدث عبد الفتاح أبو غدة بقرابة نصف قرن من الزمان.

ويعضد ذلك أيضًا ما ورد في رحلة الحبيب حسن بن عبد الله بن عبد الرحمن الكاف، حيث قال: (وسألنا عن عدد الطلبة المجاورين بالأزهر، فقيل إنهم نحو ثمانية وعشرين ألفا)[5]، وقد كان خروجه من حضرموت إلىٰ مصر سنة ١٣٣٠هـ.

---

(١) نموذج من الأعمال الخيرية، لإدارة الطباعة المنيرية /ص٤٤٦/، ط: مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، سنة ١٤٠٩هـ ـ ١٩٨٨م.

(٢) كنز الجوهر، من تاريخ الأزهر /ص٢٠٥/، (د ن)، (د ت).

(٣) إمداد الفتاح، بأسانيد ومرويات الشيخ عبد الفتاح /ص١٤٧/، ط: مكتبة الإمام الشافعي، الرياض، سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

(٤) اللؤلؤة الفاشية، في الرحلة الحجازية /ص١٦١/، ط: مركز التراث الثقافي المغربي الدار البيضاء، ودار ابن حزم بيروت، سنة ١٤٣١هـ ـ ٢٠١٠م.

(٥) رحلة وديوان /ص٩١/، ط: مكتبة تريم الحديثة، تريم، حضرموت، سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

وفي خطاب الرئيس جمال عبد الناصر أمام مجلس الأمة بتاريخ ٢٠ يوليو سنة ١٩٥٧م قال: (كان للأزهر ٢٥ معهداً، أصبحت الآن ٣٧، كان فيه ٢٢١٣٥ طالبًا وفيه الآن ٣١٥٥٦ طالبًا، ولنا الآن في البلاد العربية والإسلامية ٢٠٠ عالم مبعوث)[١].

وقد وقع في كتاب (فيض الملك الوهاب المتعالي): في ترجمة السيد أبي عبد الرحمن زين العابدين بن علوي باحسن جمل الليل[٢] المدني الشافعي ، أنه كان قد توجه إلىٰ مصر المحروسة في زمن عزيز مصر محمد علي باشا، ونزل في ساحته، فقال له محمد علي باشا: (يا سيد!! تفرج علىٰ الأزهر).

فحين نزل إليه وجده مشحونًا بالعلماء، فقال له: مدينة الرسول ـ ﷺ ـ خالية من العلماء الأعلام، ومشايخ الإسلام، ومحتاجة إلىٰ هذا الانتظام، فقال له: خذ من تريده منهم، فأخذ منهم جملة، ورتب لهم الباشا معاشا من عنده[٣].

قلت: وكان من جملة أولئك العلماء الأزهريين الذين انتدبهم محمد علي باشا للتدريس في المدينة المنورة، علىٰ ساكنها أفضل الصلاة والسلام، العلامة السيد رضوان الأزهري، وكان أحد المدرسين بالجامع الأزهر، فأحاله محمد علي باشا إلىٰ المدينة المنورة، وعينه مدرسًا ضمن المدرسين بالمسجد النبوي الشريف لمكانته وبراعته في العلم، وقد اشتغل بالتدريس بالمسجد النبوي الشريف إلىٰ أن توفاه الله بالمدينة المنورة سنة ١٢٥٥هـ ودفن في بقيع الغرقد.

حتىٰ قال محمد أمين الخانجي في (منجم العمران): (ومنذ أيام المرحوم محمد علي الذي أحيا دوارس المعارف والعلوم في القطر المصري أخذ الأزهر حظه من الحسن والرونقة والانتظام، وامتلأ من طلبة العلم من جميع الأقطار الإسلامية من جميع المذاهب، وانتشرت فيه أنواع الفنون الشرعية واللغوية والرياضية، ولا زال سالكًا سلم الترقي في الانتظام إلىٰ الآن)[٤].

وبالجملة فإن تعدادهم يفوق الحصر، حتىٰ إن العلامة المحقق محمد بن الطيب الشرقي المتوفىٰ

---

(١) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر القسم الأول ٢٣ يوليو ١٩٥٢م ـ يناير سنة ١٩٥٨م/ ص٦٨٨/.

(٢) وآل جمل الليل فرع من السادة آل باعلوي الحسينيين الحضارمة، وسبب تلقيبه بذلك أنه كان يُحرم بركعتين بعد صلاة التهجد والوتر، فإذا سلَّم منهما طلع الفجر، كأنما الفجر مربوط بتسليمه من تينك الركعتين، وربما قرأ القرآن في ليلة، ومن ثم سمي جمل الليل، لأنه قامه واتخذه جملا، وانظر: تحفة المحبين والأصحاب، في معرفة ما للمدنيين من الأنساب /ص١٢١/، وألقاب الأسر/ص١٩٩/.

(٣) فيض الملك الوهاب المتعالي، بأنباء أوائل القرن الثالث عشر والتوالي /٥٩٠/١/، ط: للعلامة عبد الستار الدهلوي، ط: مكتبة الأسدي، مكة المكرمة، سنة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

(٤) منجم العمران، في المستدرك علىٰ معجم البلدان /ص٢٢٧/، ط: مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٣٢٥هـ ـ ١٩٠٧م.

سنة ١١٧٠هـ قد قال في: (الرحلة الحجازية): (وأما من لقيناه في الدروس، وحصل لنا به مطلق الاجتماع في الأزهر وغيره، فلا يكاد يحصيه العد، ولا يأتي عليه حصر ولا حد)(١).

وذكر العلامة المتبحر أحمد رافع الطهطاوي في: (القول الإيجابي) أسماء جماعة من الأزهريين من تلامذة الإمام الأكبر شيخ الإسلام الشمس الأنبابي(٢)، ثم عقب بقوله: (وغيرهم من الأساتذة المشتغلين الآن بالتدريس في الأزهر المعمور وغيره، الذين يجل عددهم عن الإحصاء، ويكل القلم عن استيفاء أسمائهم لو أراد الاستقصاء)(٣).

قلت: حتىٰ لقد أصدر مركز الوثائق والبحوث الإسلامية بجامعة الأزهر ثبتًا يتضمن أسماء الرسائل العلمية التي قدمت لنيل درجة التخصص القديم، وذلك طبقًا لقانونيْ سنة ١٩٣٠م، وسنة ١٩٣٣م، ولنيل شهادة العالمية من درجة أستاذ، طبقًا لقانون سنة ١٩٣٦م وما أعقبه من تعديلات تشريعية، إلىٰ صدور قانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م، فبلغ عدد الرسائل في مجمل تلك المراحل والسنوات ٥١٤ رسالة(٤).

وحتىٰ إن الحاصلين علىٰ درجتي الماجستير والدكتوراه من الأزهر في المدة المحصورة ما بين الأعوام ١٩٦١م إلىٰ عام ١٩٧١م قد وصل عددهم ألفًا وثمانيةً وثلاثين عالمًا (١٠٣٨)، موزعين علىٰ سبع كليات، وهذا العدد من واقع سجلات جامعة الأزهر(٥).

بل لقد انتشرت المعاهد الأزهرية في ربوع مصر وقراها ونجوعها، حتىٰ أصدرت الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية كتابًا يرصد انتشار تلك المعاهد الأزهرية في ربوع القطر المصري، عنوانه: (المعاهد الأزهرية: تطورها، ومدىٰ التوسع في إنشائها من سنة ١٣٩٣هـ إلىٰ سنة ١٣٩٧هـ)، جاء في آخره: (لقد غزت المعاهد الأزهرية بجميع مراحلها كثيرًا من المدن والقرىٰ والنجوع، وتسابق أهل الخير والغيورون

---

(١) الرحلة الحجازية /ص٥٦٠/، ط: دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، سنة ٢٠١٤م.

(٢) أنبابة، قرية من قرىٰ الجيزة، لها ذكر مشهور علىٰ رأس الألف الهجري، قال العلامة الحموي في: فوائد الارتحال ونتائج السفر، في أخبار القرن الحادي عشر /١/١١٩/، ط: دار النوادر، دمشق، سنة ١٤٣٢هـ ـ ٢٠١١م: الأنبابي بفتح الهمزة وسكون النون فموحدتان بينهما ألف، نسبة إلىٰ أنبابة، قرية بالبر الغربي بالجيزة من أرض مصر، وقال في /١/٢٤٦/: الأنبابي نسبة لأمبابة، قرية من بحري جيزة مصر، علىٰ شاطئ النيل، انتسب إليها جماعة من المتأخرين، وربما قيل لها: أنبوبة، علىٰ وزن أفعولة، وكأنه لما يزرع فيها من القصب، فالأنبوبة ما بين كل عقدتين من القصب، ومن أشهر المنسوبين إليها الأستاذ الشيخ إسماعيل بن يوسف بن إسماعيل.

(٣) القول الإيجابي، في ترجمة العلامة شمس الدين الأنبابي /ص١٥/، ط: المطبعة العامرة الشرفية، القاهرة، سنة ١٣١٤هـ.

(٤) قائمة توثيق مكتبي للرسائل الجامعية التي أجيزت لنيل درجات الدراسات العليا بكليات: أصول الدين، والشريعة، واللغة العربية /ص: ص، س/، ط: الهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية، القاهرة، سنة ١٩٦٧م.

(٥) انظر كتاب: الدراسات العليا في عشر سنوات، الصادر عن المراقبة العامة للدراسات العليا والبحوث، إدارة البحوث العلمية، ط: الشركة المصرية للطباعة والنشر، سنة ١٩٧٢م.

علىٰ دينهم في سبيل إنشاء تلك المعاهد، أو الإسهام في إنشائها، بالجهود الذاتية المشكورة، حتىٰ بلغت في السنوات الخمس الأخيرة عشرة أمثال ما كانت عليه قبل ذلك)[1].

وقد وصف العلامة الشيخ محمد حسين النجار أحوال الدراسة في معهد أسيوط الأزهري منذ نشأته، وتدرج أحواله العلمية والمالية والإدارية والاجتماعية، فذكر أن طلاب المعهد بلغوا ٣٦٤ طالبًا سنة ١٩٢٢م ثم قفز العدد سنة ١٩٢٣م إلىٰ ١١٧٧ طالبًا في سنواته الدراسية العشر[2].

فهذا تعداد الطلاب في واحد من المعاهد الأزهرية، في مدة زمنية متقدمة، وكم من المعاهد مثله، وكم من أجيال توالت علىٰ تلك المعاهد فتزودت بالعلم، ونالت الشهادة العالية أو العالمية، ثم مضت في طريقها، لتخلفها أجيال أخرىٰ، وهكذا مضىٰ الأزهر عبر الزمان، صانعًا للعلم والمعرفة، مُنتجًا للعلماء المتمكنين.

ولا أظن أن هناك سبيلا لحصر خريجي الأزهر وشيوخه وأبنائه، وخذ عندك مثالًا لذلك، وهو أن جميع المشتغلين بعلوم العربية في مصر ـ وعددهم فوق الحصر ـ متخرجون في الأزهر، وقد ظل هذا الأمر علىٰ مدىٰ قرون، ينفرد فيها الأزهر بتخريج علماء العربية، حتىٰ نشأت دار العلوم، فكان كل المدرسين فيها من الأزهر، وكانت أيضًا لا تقبل إلا طلاب الأزهر، حتىٰ قال الأستاذ أحمد خيري - ﷺ - في كتابه الماتع: (قصيدة الأزهر): (فجميع أساتذة اللغة العربية في مصر وفي كثير من البلدان تخرجوا من الأزهر، أو من دار العلوم، التي تخرج الرعيل الأول من طلبتها علىٰ أساتذتها الأزهريين، فالأزهر هو النبع الصافي الذي يستقي منه طلاب العربية)[3].

وأما أثر تلك المعاهد فقد كانت هي المنابع الوحيدة للتعليم والتنوير والمعرفة في طول القطر المصري وعرضه إلىٰ منتصف القرن التاسع عشر تقريبا، وكانت منابر نور، ومنابع هدىٰ، وكانت تُهدي إلىٰ ربوع مصر وقراها عقولا منيرة، وهمما عظيمة، حتىٰ قال الأستاذ نقولا يوسف: (وهذا اللون من التعليم الذي كانت تلتزمه مناهج المعاهد الدينية المستقلة بالمساجد، ثم الملحقة بالأزهر، كان وحده سائدًا بدمياط إلىٰ ما بعد منتصف القرن التاسع عشر، وكان له الفضل في تخريج ذلك العدد الوافر من شيوخ الدين والفقه واللغة، الذين تفرقوا للتعليم والإرشاد في ربوع البلاد)[4].

(١) المعاهد الأزهرية /ص١٢٦/، ط: مطبعة الأزهر، سنة ١٩٧٨م، ورؤية عصرية، للمعاهد الأزهرية، ط: (د ن)، سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، وأعد فضيلة الشيخ عبد العزيز محمد عيسىٰ، سنة ١٩٧٠م، تقريرا مهما عنوانه: (تقرير مقدم إلىٰ المجلس الأعلىٰ للأزهر، من الإدارة العامة للمعاهد الأزهرية، يوضح الخريطة الحالية لهذه المعاهد، وما تقترحه إدارتها العامة، بالنسبة إلىٰ إنشاء المعاهد الدينية أو ضمها أو الإشراف عليها في المستقبل).

(٢) تاريخ معهد أسيوط الديني منذ نشأته /ص٣٠/.

(٣) قصيدة الأزهر /ص٧٥/، ط: مطبعة السعادة، مصر، سنة ١٣٦٩هـ.

(٤) تاريخ دمياط منذ أقدم العصور /ص٤١٣/، ط: الاتحاد القومي بدمياط، سنة ١٩٥٩م.

وقال فضيلة الدكتور عبد الله أحمد عثمان أبو قرين وهو يتحدث عن حال المعاهد الأزهرية في سوهاج قبل خمسين سنة: (لا تتجاوز ثلاثة معاهد، معهد جرجا، ومعهد طهطا، ومعهد بلصفورة.

وهذه المعاهد ـ علىٰ قلتها ـ فقد خرجت الفقهاء والعلماء، الذين كانت لهم المكانة العلمية، والآثار التي ما زالت باقية فيما تركوه من المؤلفات والكتب الدينية، وفي التأثير في تلاميذهم الذين تلقوا العلم علىٰ أيديهم، والمعروفين الآن بمحافظتهم علىٰ اللغة العربية والعلوم الشرعية، مع حفظ القرآن الكريم)[1].

(١) الموسوعة التاريخية، للبلدان السوهاجية /٣/٥٥٩.

وهذا إحصاء عام:

السنة الدراسية	عدد الطلبة	السنة الدراسية	عدد الطلبة
٣٧٨ هـ	٣٥	١٩٢٠ م	١٣٢٨٠
٨١٨ هـ	٧٥٠	١٩٢١ م	— (٣)
١٢٦٣ هـ	٧٤٠٣	١٩٢٢ م	١١٣١٩
١٢٧٢ هـ	٥٩٤٠ (١)	١٩٢٣ م	١٠٤٦٣
١٢٨٢ هـ	٢٨١٧ (١)	١٩٢٤ م	١٠٧٤٥
١٢٩٢ هـ	٩٢٦٤	١٩٢٥ م	١١١٧٤
١٢٩٣ هـ	١٠٧٨٠	١٩٢٦ م	١١٧٩٧
١٣١٩ هـ	٨٢٥٩	١٩٢٧ م	١٠٦٢٩
١٩٠٢ م	١٠٤٠٣	١٩٢٨ م	١١١٥٧
١٩٠٦ م	٩٠٦٩	١٩٢٩ م	١٠٦٨٠
١٩١٦ م	١٥٣٣٥	١٩٣٠ م	٩٧٢٦
١٩١٧ م	١٤٧٠٩	١٩٣١ م	٩٣٥٤
١٩١٨ م	١٥٨٢٦	١٩٣٢ م	٨٦٧١
١٩١٩ م	— (٢)	١٩٣٣ م	٨٩٤٥

(١) لعل سبب هذا النقص حدوث الثورة العرابية مما دعا الطلبة إلى الهجرة إلى بلادهم

(٢) عطلت فيها الدراسة للاضرابات

(٣) عطلت فيها الدراسة للاضرابات

السنة الدراسية	عدد الطلبة	السنة الدراسية	عدد الطلبة
١٩٣٤ م	٩١٠٧	١٩٤٢ م	١٢٢٠٧
١٩٣٥ م	١٠٤٤٥	١٩٤٣ م	١٢١٧٠
١٩٣٦ م	١٠١٤٦	١٩٤٤ م	١٢٧٠٧
١٩٣٧ م	١٠٨٧٦	١٩٤٥ م	١٣٠٤٩
١٩٣٨ م	١٣١٦٣	١٩٤٦ م	١٣٩٠٧
١٩٣٩ م	١٣٦٧٣	١٩٤٧ م	١٧٥١٤
١٩٤٠ م	١٣٨٢٥	١٩٤٨ م	١٦٤٤٤
١٩٤١ م	١٤٢١٦		

جدول مهمٌّ بإحصاء عدد الطلبة المنتظمين للدراسة في الأزهر الشريف
ابتداء من سنة ٣٧٨هـ إلى سنة ١٩٤٨م

إِضَاءَةٌ

في ذكر سببٍ من الأسباب العجيبة في استمطار التوفيق والفتح من الله على الأزهر وأرض مصر، يرجع إلى ضخامة أعداد الطلاب المنتسبين إليه

ولقد استرعاني هنا أمر عظيم، تعجبت منه، ألا وهو أن تلك الألوف المؤلفة من طلبة العلم، على تعاقب الأجيال، وتطاول الأزمان، ومع توافدهم من الأقطار المختلفة، من الصين شرقا، إلى المحيط غربا، قد ترك كل واحد منهم أبوين كريمين، وأهلًا وأرحامًا وأحبابًا، يشفقون عليه، ويتوجعون لفراقه، ويعقدون الآمال العظام عليه، ويتوجهون إلى الله تعالى بالدعاء له بالعلم والتوفيق، مع ما توجبه الأبوة والأمومة من كمال الحرص على الابن الغائب المغترب، مما إذا ما احتف بالدعاء قُبل.

فيتجلى الله تعالى على الولد بالتوفيق، وييسر له مسالك تحصيل العلم وأسبابه، فينزل التوفيق على ذلك المكان في الأزهر الشريف، ويبسط الله تعالى فيه أسباب التيسير والمعونة والتوفيق والفتح والعلم والفهم، استجابة لذلك الدعاء المبرور المقبول.

فانظر كم من غيوث التوفيق وهواطل المعونة، التي كانت تنعقد وتجري وتتدفق على الأزهر، بمقدار الألوف المؤلفة من الآباء والأمهات، الذين تتصاعد دعواتهم الملحة المتكررة لأبنائهم، المجتمعين في الأزهر.

فكم من أمٍّ ظلت تُلحُّ على الله تعالى بالدعاء شهورًا وسنوات، لولدها العاكف على العلم في الأزهر، وكم من قلبٍ تقيٍّ، وقف في مواقف الخشوع والإنابة، يبتهل إلى الله تعالى في ولده.

بحيث يبقى الأزهر الشريف مثابة وبقعة تنهمر عليها الفيوض الإلهية الجارية والمتدفقة، مما يستجيبه الله تعالى من دعوات الآباء والأمهات والأرحام في بقاع الملايو، أو ديار الهند أو الشام أو حضرموت، أو صحراء أفريقيا، أو الحواضر والمدن والقرى، بألسن كثيرة، ولهجات متنوعة.

وهذا المعنى العجيب مهم في الإلمام بالعوامل المادية والاجتماعية والمعرفية والروحانية الغيبية التي اجتمعت لهذا المعهد العلمي العريق، فجرى فيه ذلك التاريخ العلمي الفريد، وتعلقت به القلوب في مختلف الأقطار والبلدان تعلقًا عميقًا في وجدانهم، يمس قلوبهم، تعطفًا واستمدادًا من الله تعالى لأبنائهم.

والخلاصة أن حركة التعليم في الأزهر كانت محفوفة بعشرات من العوامل التي تصنع الجو العلمي والبيئة العلمية الصانعة للرجال والعقول، ولم تكن مقصورة على الشق التعليمي الجاف، المعزول عن بقية عوامل التنوير والربانية والبصيرة اللائقة بخريجي الأزهر من العلماء المؤتمنين على الشرع الشريف.

إِضَاءَةٌ
في وصف ما كان في الأزهر من التعبد والعُبَّاد والزُهَّاد والصالحين

وأما وصف ما كان في الأزهر من التعبد والتلاوة وذكر الله، واللهج بالتعليم وتقرير العلوم، فحدِّثْ ولا حرج، فلقد انعقدت في سماء هذا الجامع العريق أنوار العبادة والذكر والعلم والعرفان، نتيجة قرون متعاقبة من توارد ألوف من العلماء والأولياء والصالحين وطلبة العلم على النزول في ساحات الأزهر، وعمارة الأوقات بالعلم والذكر والتلاوة، وإحياء الليل بالصلوات والتسبيح، حتى قال العلامة أبو سالم العياشي في: (ماء الموائد): (وبتنا تلك الليلة بالجامع الأزهر؛ لأنها ليلة سبع وعشرين، وفي الحقيقة كل الليالي بذلك المسجد كليلة القدر، لأنه معمور بالذكر والتلاوة والتعليم آناء الليل وأطراف النهار، لا تنقطع منه العبادة ليلًا ولا نهارًا، صيفًا ولا شتاءً، فهو عديم النظير في مساجد الدنيا بأجمعها، حاشا المساجد الثلاثة، لما لها عند الله من أعظم المزايا وأرفعها، وإن خص هو بهذه الفضيلة فغير مستنكر وجود مزية في المفضول ليست في الفاضل)(١).

فكان الأزهر الشريف بجوار الحركة العلمية معمورًا بالصالحين والذاكرين، فكان جوه مشبعا بروح الإيمان، تنتعش فيه الروح الإيمانية، وتزكو فيه معاني العرفان والبر، فإذا به يصنع الرجال العلماء العارفين بالله، قال العلامة علي مبارك باشا في: (الخطط التوفيقية): (فلا يزال الجامع عامرًا بتلاوة القرآن ودراسته، وتلقينه، والاشتغال بأنواع العلوم، والفقه والحديث والتفسير والنحو، ومجالس الوعظ، فيجد الإنسان إذا دخله من الأنس بالله، والارتياح، وترويح النفس، ما لا يجده في غيره)(٢).

بل كان هنا في هذا الطور المعاصر من تاريخ الأزهر جماعات من العباد والزهاد القانتين، من أمثال العلامة الشيخ أحمد حماده النقشبندي وكانت أحواله في الذكر والتعبد في غاية العجب، والعلامة التقي الشيخ صالح الجعفري الذي لزم رواق المغاربة بالأزهر الشريف زيادة على أربعين سنة، مع ولايته وأوراده وعمارته للأزهر بأنفاس الربانية والمحبة لله ولرسوله ﷺ.

---

(١) ماء الموائد /١/٢٢٨/، ط: دار السويدي، أبو ظبي، سنة ٢٠٠٦م.

(٢) الخطط التوفيقية الجديدة، لمصر القاهرة، ومدنها وبلادها القديمة والشهيرة /٤/٣٢/، ط: دار الكتب والوثائق القومية، سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

ولا تزال الأخبار المنثورة هنا وهناك تصف ما قد تدفق في الأزهر وانعقد في أجوائه من تسبيح وتلاوة وتهجد وعبادة، مما يمليه العلم، وتحتمه بيئة تدريس علوم الشريعة.

وحسبك أن الأزهر الشريف بقعةٌ مباركةٌ، معمورةٌ بالعلم والذكر على مدى قرون، وقد شهدت توافد الأولياء والعلماء والصالحين من شتى بقاع المعمورة، وطالما استنارت جدرانه ومناراته وأروقته بأنفاس التسبيح، وأنوار التلاوة، وسجود العلماء وتبتلهم.

ومضى الأمر فيها على ذلك النمط الرفيع على غير انقطاع قرونًا متتالية، والصلوات تقام فيه، ويتردد ما بين جدرانه إسماع العلم، وتكوين العلماء، وتجاذب أنوار الشرع الشريف، وتنوير العقول بمناهج الفهم.

وكم من قلب خاشع لاحت له أنوار الفهم في آية، أو معالم الإعجاز في آيات، فامتلأ خاطره إجلالًا وتمجيدًا لرب العالمين، وكم عقل لاح له نسق الاتساق والامتزاج بين العلوم فرأى مشهدًا كليًّا من تناغم تلك الجزئيات المعرفية حتى ارتسمت أمام عينيه دلائل الصدق والإعجاز في هذا الدين، وتصاعد تكوينها المعرفي العقلي والنقلي لتثبيت اليقين في الغيب الشريف، فغدا بقلب عامر بالإيمان.

وكانت عملية التعليم في رحاب الأزهر معمورة بكثير من الأشخاص والرجال القائمين على خدمة العلماء وطلاب العلم، إطعامًا وسقايةً وخدمةً وقيامًا على المكان وحراسًا ومساعدين وأمناء على الأروقة والمساكن، فيعيش الواحد من هؤلاء عقودًا من العمر مخالطًا للعلماء والصالحين، مواظبًا على صلواته وفرائضه وسننه، كثير الذكر لله تعالى، فلربما كان في هذا الفريق من الناس جملة من الصالحين الأتقياء، ممن يُرى أشعث أغبر ولو أقسم على الله لأبره، وقد صح في الحديث: (إنما تنصرون وترزقون بضعفائكم)[1].

---

(١) ورد عن عدد من الصحابة؛ منهم: سيدنا سعد بن أبي وقاص، وأبو الدرداء ﷺ: أما حديث سعد بن أبي وقاص ﷺ: فأخرجه البخاري في صحيحه /٢/٥٦٢ ح٢٩٣٣ مكنز/، كتاب الجهاد والسير، باب من استعان بالضعفاء والصالحين في الحرب، من حديث مُصْعَبِ بْنِ سَعْدٍ، قَالَ: رَأَىٰ سَعْدٌ ﷺ، أَنَّ لَهُ فَضْلًا عَلَىٰ مَنْ دُونَهُ، فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «هَلْ تُنْصَرُونَ وَتُرْزَقُونَ إِلَّا بِضُعَفَائِكُمْ»

وأما حديث أبي الدرداء: فأخرجه أبو داود في سننه /٢/٤٤٣ ح٢٥٩٦ مكنز/، كتاب الجهاد، باب الانتصار برُذُل الخيل والضعفة، ولفظ أبي داود «ابْغُونِي الضُّعَفَاءَ، فَإِنَّمَا تُرْزَقُونَ وَتُنْصَرُونَ بِضُعَفَائِكُمْ»، وحسنه النووي في خلاصة الأحكام /١/٨٧٣/، والزبيدي في إتحاف السادة المتقين /٦/٢٤٠٢/، والترمذي في جامعه /١/٤٥٥ ح ١٨٠٣ مكنز/، كتاب الجهاد، باب في الاستفتاح بصعاليك المسلمين، قال الترمذي: «حسن صحيح»، والنسائي في سننه (المجتبىٰ) /٢/٥١٧ ح٣١٩١ مكنز/، كتاب الجهاد، باب الِاسْتِنْصَارُ بِالضَّعِيفِ، وأحمد في مسنده /٩/٥٠٨٧ ح ٢٢١٤٥ مكنز/، وابن حبان في صحيحه (بترتيب ابن بلبان)، ذكر استحباب الانتصار بضعفاء المسلمين عند قيام الحرب على ساق /١١/٨٥ح٤٧٦٧/، والحاكم في المستدرك، كتاب الجهاد /٢/١١٦ح ٢٥٠٩/، وقال: «صحيح، ووافقه الذهبي»، جميعهم من طريق جبير بن نفير عن أبي الدرداء به.

وكان الشيخ الصالح المعمر الحاج إبراهيم العشماوي الشهير بالعمدة، وعمره خمس وتسعون سنة يخدم كلية أصول اللغة العربية بالقاهرة، ثم في المعاهد الأزهرية، أيام الشيخ نجا وغيره من الشيوخ والعلماء الكبار، وكان ربيبًا للسيدة التقية الصالحة الحاجة زكية عبد المطلب بدوي، وكانت كلية اللغة العربية آنذاك تعمل بالتدريس على فترتين، فينصرف الطلاب ويبقى هو، وكان يقيم في الغرفة التي تسمى حاليا غرفة الشيخ محمد الطيب النجار، وكان الشيخ عبد الحليم محمود يتعهده ويهش له، فكان يقول: (إذا انصرف طلاب العلم كنت أسجد على الأرض مباشرة بدون حائل، ناويا بذلك أن أتقرب إلى الله بالسجود في موضع أقدام العلماء)، وكان ينشد البردة الشريفة المباركة كل يوم في تلك الغرفة.

وكذلك مدافن المجاورين التي ضمت أجساد ألوف مؤلفة من العلماء والعباد والأولياء والعارفين وطلاب العلم وحفاظ القرآن الكريم، فإنها بُقْعة كريمة كان حريًّا بنا الحفاظ عليها، وإحاطتها بما يحفظ الكرامة والتاريخ للنازلين فيها من المنتقلين من علماء الأزهر، وإذا كانت قرية صغيرة وهي قرية خُرْسي، في محلية بارا، بمحافظة بارا، في ولاية شمال كردفان، قد تأسست فيها خلوة أسسها الشيخ محمد الأحمر، فعكفت على تحفيظ القرآن الكريم، فعمرت حولها المرافق الخادمة لذلك، حتى صاروا يفتخرون بمقبرتها التي تضم ألف حافظ لكتاب الله تعالى ممن تخرجوا في خلوة خُرسي[1].

فكيف بالأزهر الشريف ومدافن المجاورين له، والتي تضم ألوفًا من المحدثين والمفسرين والفقهاء والبيانيين والأصوليين والنحاة، ممن وفدوا إلى رحابه من مختلف آفاق المعمورة، وانقطعوا لخدمة العلم وأخلصوا له، ثم أفضوا إلى رب كريم، ورقدت أجسادهم في جوار الأزهر.

وللأستاذ عزيز بك خانكي مقال مهم عنوانه: (مقابر علمائنا، ووجوب الاهتمام بصيانتها)، جاء فيه: (زر قبر الشيخ الشنقيطي، وقد كان إماما في اللغة، وقبر الزيلعي، وهو من أعلام الفقه، وقبر الجبرتي الذي يعد أبا التاريخ المصري، وقبور المقريزي، والسيوطي، وابن خلدون، والإمام الشاطبي، والقاضي الفاضل، والشيخ الصاوي، والشيخ العدوي، تجدها قبورًا دارسة أو في حكم الدارسة، وتجد بعضها بل الكثير منها وليس عليه شاهد ينبئك باسم المدفون فيها، حتى إنك إذا أردت أن تبحث عن مقبرة واحد منهم ضللت وما اهتديت.

إن في جبانة المجاورين مقبرة معروفة ببستان العلماء، خصصت لدفن علماء الأزهر ومشايخه الأجلاء، الذين توفوا منذ القرن الحادي العشر من الهجرة، فلو أن الحكومة وجهت إليها بعض العناية لسجلت لها مأثرة، ولأحيت ذكرى طائفة من العلماء الأعلام الذين خدموا الدين واللغة والعلم)[2].

---

(١) موسوعة أهل الذكر بالسودان /٣/٨٧٦/.

(٢) شذرات في الأدب واللغة والتاريخ /ص٤٣/، ط: المطبعة العصرية بمصر، القاهرة، سنة ١٩٤٧م.

إِضَاءَةٌ
في تعلُّقِ القُلُوبِ بالأزهر الشريف
وحُبِّها له، حتى رحل بعضُ طُلَّابِ العلم إليه سيرًا على الأقدام

ولقد اشتمل هذا الكتاب علىٰ ذكر رجالٍ أكابر، وشيوخٍ نحارير، وأعمارٍ شريفة، وأسفارٍ ورحلات، ومجاهداتٍ في طلب العلم وتحصيله، وتحمُّلٍ وصبرٍ علىٰ فراق الأهل والأوطان، وتصانيفَ وشروحٍ، وتلمذةٍ ومشيخةٍ، وتوريثٍ للعلم.

ومجالس رفيعة معمورة، كم شهدت من تقريرٍ عَالِمٍ، واستشكال نَابِهٍ، وحلِّ مُعضِلَةٍ، وتنقيح مُدرَكٍ، وتجلية غامضٍ، وحفظ وتعهد، ومعاناة تفهم، وكتابٍ قد خُتِم، وإجازةٍ قد حُرِّرتْ، وهيبةِ وَقْعِ اختبارٍ علميٍّ قد اقترب، ومناقشةٍ علميةٍ قد دَنَتْ فاهتَزَّ لِهَوْلِها وجلالها الجنانُ المِقْدَامُ.

وقاماتٍ علميةٍ شاهقةٍ قد أَفَلَتْ شُمُوسُها، وأخرىٰ تُولَدُ وتَسْتَهِلُّ، وقبلةٍ علميةٍ شامخةٍ انعقدتْ في رحاب الأزهر، أوقع الله تعالىٰ لها في القلوب هيبةً وصبابةً وتعلقا، ونشر به لواء العلوم والمعارف، فتداعىٰ الشيوخُ والطلابُ والدارسون من بقاع الصين، وغابات الهند، وجزائر الملايو، ومجاهل الصحارىٰ الإفريقية، وعمائر المدن الحَضَرية، وأحراش الغابات، ومحاضر شنقيط، وأربطة حضرموت، ومسايد السودان، ومدارس الأتراك.

حتىٰ شُدّت الرحال، وأبحرت السفن، وتموجت المطايا، وأقلعت الطائرات، وهَدَرَت السيارات، وجلجلت القطارات، علىٰ مدىٰ عقود وسنوات، وهي تحدو الآمال من الراغبين في العلوم، وتُقِلُّ قلوبًا هامت بالعلم وطمحت إليه.

حتىٰ إذا ما التقىٰ الماء علىٰ أمرٍ قد قُدِر، وامتزج هؤلاء جميعا في رحاب الأزهر وأروقته، وعمرت المجالس العلمية الموقَّرة الحاشدة، وقامت علىٰ قدمٍ وساق، فلا ينبلج فجرُ يوم مشهودٍ إلا وقد ضجَّ المكان بطنينِ أصواتِ ألوفٍ من نوابغ الطلبة المنخرطين في القراءة، علىٰ حين فترات تتوقف فيها ألسنة العلماء النحارير عن التقرير والإبانة، وهم أعراقٌ مختلفة، وطبائع متنوعة، وألوان وألسنة مفترقة، إلا أن الله تعالىٰ قد جمعهم في ذلك المكان الطاهر علىٰ محبة العلم، والشغف به.

وكان من ثمرة ذلك أن تعلقت به القلوب، وهامت به الأرواح، وطمحت إليه آمال ذوي الهمم العظام، قال العلامة أبو سالم العياشي في: (ماء الموائد): (ولما كان آخر الليل بعثنا بعض إخواننا وأصحابنا، فتقدموا مع من تقدم إلىٰ القاهرة، ليرتادوا لنا منزلا قرب الأزهر، لأن كثيرًا من الحجاج ينزلون بطولون، ليقربوا من الرملة، محل سوق الدواب وما يحتاج إليه من أمور السفر، ومن كان ذا تجارة ينزل بالوكائل، ونحن لا نعدل بقرب الأزهر مكانا)[1]، إلىٰ أن يقول بعد صفحات: (ولم نجد دارًا للكراء بقرب الأزهر، مع شدة رغبتنا في ذلك)[2].

ويقول البيطار في (حلية البشر) في ترجمة العلامة إبراهيم بن مصطفىٰ الرحيباني: (فسافر إلىٰ الديار المصرية، ليجاور في البقعة الشريفة الأزهرية)[3]، مما يكشف عن التقدير البالغ الذي ملأ القلوب تجاه هذا المكان الشريف المعمور بالعلم وذكر الله تعالىٰ علىٰ مدىٰ قرون.

وقال الأستاذ خالد محمد خالد في: (قصتي مع الحياة): (لم يكن الأزهر الشريف مجرد جامع وجامعة؛ بل كان شمسًا جديدة، تدور في فلكها رحلة العلم، والثقافة، والعقل، حاملة ضياءه إلىٰ البلاد القاحلة، وزراعة بذور المدارس والمعاهد والجامعات في الأقطار الجاهلة.

كما كان حارسًا لقيم الدين والدنيا بما يُنجب من العلماء؛ الذين يمثلون بورعهم واستغنائهم وأخلاقهم وشجاعتهم أسمىٰ خصائص القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة.

هذا المحرر العظيم للضمير الإنساني، ولإرادة البشر؛ أفرادًا، وشعوبًا، لا ندري ماذا كان سيكون حال الذين لم تطلُع عليهم شمسه، ولم يُشرق عليهم أمسه.

عندما بدأنا نقرأ تاريخه، أدركنا كم نحن محظوظون حين حملتنا الأقدار إلىٰ رحابه، وقادتنا إلىٰ محرابه، وحين شرعنا للتعرف إلىٰ شيوخه رُحنا نتغنىٰ بقول الشاعر:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

لم تكن هناك فضيلة من فضائل الحياة لم يتحلوا بها، ولاخلق من أخلاق الرجال وأحرار القلوب إلا اتخذوه شعارًا ودثارًا، وكانوا له منارًا)[4].

حتىٰ ظهر في تاريخ الأزهر أمر عجيب، وهو الرحيل إليه سيرًا علىٰ الأقدام من الأصقاع البعيدة،

(١) ماء الموائد /١/٢١٩/، ط: دار السويدي، أبو ظبي، سنة ٢٠٠٦م.

(٢) ماء الموائد /١/٢٢٧/.

(٣) حلية البشر، في تاريخ القرن الثالث عشر /١/٣٥/.

(٤) قصتي مع الحياة /ص١١٩/، ط: دار المقطم، القاهرة، (د ت).

إِضَاءَةٌ
في تعلُّقِ القُلُوبِ بالأزهر الشريف
وحُبِّها له، حتى رحل بعضُ طُلَّابِ العلم إليه سيرًا على الأقدام

ولقد اشتمل هذا الكتاب على ذكر رجالٍ أكابر، وشيوخٍ نحارير، وأعمارٍ شريفة، وأسفارٍ ورحلات، ومجاهداتٍ في طلب العلم وتحصيله، وتحمُّلٍ وصبرٍ على فراق الأهل والأوطان، وتصانيفَ وشروحٍ، وتلمذةٍ ومشيخةٍ، وتوريثٍ للعلم.

ومجالس رفيعة معمورة، كم شهدت من تقريرِ عَالِمٍ، واستشكال نَابِهٍ، وحلِّ مُعضِلَةٍ، وتنقيح مُدرَكٍ، وتجلية غامضٍ، وحفظ وتعهد، ومعاناة تفهم، وكتابٍ قد خُتِم، وإجازةٍ قد حُرِّرتْ، وهيبةِ وَقْعِ اختبارٍ علميٍّ قد اقترب، ومناقشةٍ علميةٍ قد دَنَتْ فاهتزَّ لِهَوْلِها وجلالها الجنانُ المِقْدَامُ.

وقاماتٍ علميةٍ شاهقةٍ قد أَفَلَتْ شُمُوسُها، وأخرى تُولَدُ وتَسْتَهِلُّ، وقبلةٍ علميةٍ شامخةٍ انعقدتْ في رحاب الأزهر، أوقع الله تعالى لها في القلوب هيبةً وصبابةً وتعلقا، ونشر به لواء العلوم والمعارف، فتداعى الشيوخُ والطلابُ والدارسون من بقاع الصين، وغابات الهند، وجزائر الملايو، ومجاهل الصحارى الإفريقية، وعمائر المدن الحَضَرية، وأحراش الغابات، ومحاضر شنقيط، وأربطة حضرموت، ومسايد السودان، ومدارس الأتراك.

حتى شُدَّت الرحال، وأبحرت السفن، وتموجت المطايا، وأقلعت الطائرات، وهَدَرَت السيارات، وجلجلت القطارات، على مدى عقود وسنوات، وهي تحدو الآمال من الراغبين في العلوم، وتُقِلُّ قلوبًا هامت بالعلم وطمحت إليه.

حتى إذا ما التقى الماء على أمرٍ قد قُدِر، وامتزج هؤلاء جميعا في رحاب الأزهر وأروقته، وعمرت المجالس العلمية الموقَّرة الحاشدة، وقامت على قدمٍ وساق، فلا ينبلج فجرُ يومٍ مشهودٍ إلا وقد ضجَّ المكان بطنينِ أصواتِ ألوفٍ من نوابغ الطلبة المنخرطين في القراءة، على حين فترات تتوقف فيها ألسنة العلماء النحارير عن التقرير والإبانة، وهم أعراقٌ مختلفة، وطبائع متنوعة، وألوان وألسنة مفترقة، إلا أن الله تعالى قد جمعهم في ذلك المكان الطاهر على محبة العلم، والشغف به.

وكان من ثمرة ذلك أن تعلقت به القلوب، وهامت به الأرواح، وطمحت إليه آمال ذوي الهمم العظام، قال العلامة أبو سالم العياشي في: (ماء الموائد): (ولما كان آخر الليل بعثنا بعض إخواننا وأصحابنا، فتقدموا مع من تقدم إلىٰ القاهرة، ليرتادوا لنا منزلا قرب الأزهر، لأن كثيرًا من الحجاج ينزلون بطولون، ليقربوا من الرملة، محل سوق الدواب وما يحتاج إليه من أمور السفر، ومن كان ذا تجارة ينزل بالوكائل، ونحن لا نعدل بقرب الأزهر مكانا)[1]، إلىٰ أن يقول بعد صفحات: (ولم نجد دارًا للكراء بقرب الأزهر، مع شدة رغبتنا في ذلك)[2].

ويقول البيطار في (حلية البشر) في ترجمة العلامة إبراهيم بن مصطفىٰ الرحيباني: (فسافر إلىٰ الديار المصرية، ليجاور في البقعة الشريفة الأزهرية)[3]، مما يكشف عن التقدير البالغ الذي ملأ القلوب تجاه هذا المكان الشريف المعمور بالعلم وذكر الله تعالىٰ علىٰ مدىٰ قرون.

وقال الأستاذ خالد محمد خالد في: (قصتي مع الحياة): (لم يكن الأزهر الشريف مجرد جامع وجامعة؛ بل كان شمسًا جديدة، تدور في فلكها رحلة العلم، والثقافة، والعقل، حاملة ضياءه إلىٰ البلاد القاحلة، وزراعة بذور المدارس والمعاهد والجامعات في الأقطار الجاهلة.

كما كان حارسًا لقيم الدين والدنيا بما يُنجب من العلماء؛ الذين يمثلون بورعهم واستغنائهم وأخلاقهم وشجاعتهم أسمىٰ خصائص القدوة الصالحة، والأسوة الحسنة.

هذا المحرر العظيم للضمير الإنساني، ولإرادة البشر؛ أفرادًا، وشعوبًا، لا ندري ماذا كان سيكون حال الذين لم تطلُع عليهم شمسه، ولم يُشرق عليهم أمسه.

عندما بدأنا نقرأ تاريخه، أدركنا كم نحن محظوظون حين حملتنا الأقدار إلىٰ رحابه، وقادتنا إلىٰ محرابه، وحين شرعنا للتعرف إلىٰ شيوخه رُحنا نتغنىٰ بقول الشاعر:

أولئك آبائي فجئني بمثلهم ... إذا جمعتنا يا جرير المجامع

لم تكن هناك فضيلة من فضائل الحياة لم يتحلوا بها، ولا خلق من أخلاق الرجال وأحرار القلوب إلا اتخذوه شعارًا ودثارًا، وكانوا له منارًا)[4].

حتىٰ ظهر في تاريخ الأزهر أمر عجيب، وهو الرحيل إليه سيرًا علىٰ الأقدام من الأصقاع البعيدة،

(١) ماء الموائد /١/٢١٩/، ط: دار السويدي، أبو ظبي، سنة ٢٠٠٦م.
(٢) ماء الموائد /١/٢٢٧/.
(٣) حلية البشر، في تاريخ القرن الثالث عشر /١/٣٥/.
(٤) قصتي مع الحياة /ص١١٩/، ط: دار المقطم، القاهرة، (د ت).

والأقطار النائية، قال العلامة الشيخ عبد الله المشد: (ومن أبناء أريتريا من كانوا يؤثرون الهجرة إلى مصر لتلقي العلم بالأزهر، متحملين في سبيل ذلك كثيرًا من المشاق سيرًا على الأقدام)(١).

وقال العلامة الشيخ عبد الرحمن محمد النجار في كتابه: (رحلة دينية إلى إفريقيا): (وأعرف بعضًا من طلاب العلم في الصومال، حضر إلى مصر ماشيًا على قدميه هذه المسافة الطويلة، وهدفه أن يلحق بالأزهر الشريف، ومن قديمٍ والصوماليون يراسلون الأزهر لاستفتائه في مسائل استغلقت عليهم فهمًا، ويأتيهم الرد عليها)(٢).

ومن أمثلة أولئك الأعلام أيضًا العلامة الشيخ بن مزور الجماعي الأزهري محمد بن نصر، فقد رحل راجلًا ماشيًا من الجزائر إلى مصر، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٥٤هـ.

ومن أمثلة أولئك الذين رحلوا إلى الأزهر الشريف سيرًا على الأقدام الرئيس الجزائري هواري بومدين، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٩٩هـ.

ومن أمثة أولئك الأماجد: الأديب الرحالة الشيخ يرو دورو جاللو، حيث رحل من السنغال في بداية الستينيات من القرن العشرين شد الرحال إلى الأزهر الشريف، مصر، سيرًا على الأقدام للدراسة في الأزهر الشريف، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٤٢٧هـ.

بل بلغ من جلال الأزهر في هذا الباب وشهرته وتعلق الهمم الأبية به أن الناس لم ترحل إليه هو فقط، بل رحل بعض طلاب العلم إلى معاهد فرعية منبثقة عنه وملحقة به.

قال الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدردير في: (قلائد الجيد) وهو يتحدث عن معهد بلصفورة الأزهري في سوهاج، وعن عمق أثره العلمي، واتساع دائرة طلابه وخريجيه من مختلف أنحاء الصعيد، وأن طلاب العلم تقاطروا إليه من بلدان شتى: (وقد حُدِّثْتُ عن واحد منهم اسمه الشيخ عمر، وفد إلى بلصفورة ماشيا من الصومال، وكانت منيته ببلصفورة، وبها دفن، ﷺ)(٣).

ومن أمثلة هؤلاء الأماجد: علامة قنا: العلامة الجليل المحقق الشيخ محمد نور علي أحمد العبادي المالكي الأزهري، وترى ذلك في ترجمته هنا في هذه الجمهرة، في وفيات سنة ١٣٨٩هـ.

والذي يستوقفني في هذه الشريحة النادرة من السادة العلماء الكرام الذين رحلوا للأزهر مشيا على

(١) تقرير عن أحوال المسلمين في بلاد الصومال وأريتريا وعدن والحبشة /ص١١٣/، ط: مطبعة الأزهر، سنة ١٣٧١هـ - ١٩٥١م.

(٢) رحلة دينية إلى أفريقيا /ص١١٥/ للشيخ عبد الرحمن محمد النجار، ط: دار المعارف، سلسلة اقرأ، العدد ٥١٢، يونيو، سنة ١٩٨٥م.

(٣) قلائد الجيد، في تراجم علماء الصعيد /١٦٠/٢/.

الأقدام هو الغوص في ذلك الطور النفسي السابق على الإقدام على الرحيل، وكيف أن الواحد منهم قد خاض شوطًا عصيبًا من معاناة التعلق المقلق، والهمة المضنية، والآمال البعيدة التي ظلت تراوده شهورًا، ولا تبارح خاطره ولا تفارقه.

كل ذلك مع وقوع القرار الجازم عنده بأنه لا مناص من الرحيل للأزهر، ثم ينشب عنده التردد في إمكان تحقيق ذلك وكيفيته، ويظل شهورًا وأيّامًا والنفس تقدم وتحجم، والخاطر يتوثَّب وينعقد، ثم يفتر وينصرف، ويكاد يغلبه اليأس من ذلك كله، وهو يستحضر في خاطره الصحارئ القاحلة والجبال الموحشة التي سوف يجتازها، وما سوف يغالبه في أثناء ذلك من حرٍّ قائظٍ، أو ظمأٍ حارقٍ.

فإذا نجح في مغالبة ذلك كله، وكانت همته همة نجيبة غالبة، وأعدَّ العُدَّة وفارق الأهل والوطن، وشرع في السفر، فحينئذ ينفتح باب آخر من الجهد، ألا وهو مرور الأيام والليالي عليه وهو يسير، فكم استقبل من إشراقة شمس، أو بزوغ أنوار الفجر في الأفق، وكم اعتراه الشجن في لحظات غروب مقبض، وكم استظل من هجير شمس قاسية.

وتتبدل عليه الأيام والليالي، والحر والبرد، والري والظمأ، والأمل واليأس، وينام ويستيقظ، ويمرض ويصح، ويهتدي في الطريق ويضل، ويناجي ربه عند طول الوحدة وشدة الوحشة من العمران والبشر، والمسافات تنطوي، والبلدان تلوح وتتوارئ، ويرد على المدن فيخالط الأسواق وضجيج الباعة، ويتزود ويستجم، فينشط عنده الأمل، ثم يتجدد الاغتراب فيرجع لمثلها.

فلا يزال كذلك، والمعقد الذي لأجله تجشم ذلك كله هو الوصول إلى أرض مصر، للنزول في رحاب الأزهر والأروقة، لشدة ما وقر في جنانه واستقر في وعيه من أن الأزهر يستحق ذلك، وأن الانتساب إليه يوازي عناء ذلك كله.

ولعل باحثًا أزهريًّا نجيبًا ينشط للتنقير والتنقيب عن أحوال الرجال الأجلاء الذين رحلوا إلى الأزهر مشيا، فإن ظفر من ذلك بقدر جيد يستحق الجمع والإفراد أفردهم بكتاب أو جزء لطيف، لجمع أخبار هذه الشريحة الفريدة من الأزهريين.

وكل هذا من أسباب تزايد شهرة القاهرة بالعلم، وأنها صارت مقصدًا لرحلة الراغبين فيه، قال إدوارد وليم لين في: (المصريون المحدثون): (فشهرة علماء هذه المدينة لا تدانيها شهرة، ولا يزال مسجدها الجامع الأزهر يجذب إليه الطلاب من كافة أنحاء العالم الإسلامي)(١).

وقال ستانلي لين بول في: (سيرة القاهرة): (وليس من السهل على المرء أن ينسئ منظر الطلاب

(١) المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم /ص١٤١/، ترجمة عدلي طاهر نور، ط: مطبعة الرسالة، القاهرة، سنة ١٩٥٠م.

وقد التفوا حلقة حول أستاذهم، وأخذوا ينصتون إليه، كأن على رؤوسهم الطير، أو منظرهم وهم يمشون مقبلين مدبرين، يستظهرون ما تعلموه من أستاذهم، والواقع أن هؤلاء يمثلون في أذهاننا ما كانت عليه الثقافة العربية في العصور الوسطى؛ حيث الرغبة الصادقة في العلم؛ التي لا تتحمس في طلبه بقصد الحصول على الجوائز، أو اجتياز الامتحانات، وذلك ما تفتقر إليه الجامعات الغربية)[(١)].

وسبب ذلك فيما أرى هو طبيعة الدراسة العلمية الحرة الناقدة، والجو العلمي الحافل الحاشد، مما يصنع العقل، وتنضج معه الشخصية وتستوي.

حتى قال الأستاذ لويس فانوس - وهو رجل من كبار رجال السياسة والقانون المخضرمين -: (إنني كمسيحي أؤمن بديني، أؤكد أن الدراسة في الأزهر خير دراسة يقوم عليها منهج قديم أو حديث؛ فإن الأزهر هو ذلك المعهد القديم، الذي صان القومية العربية، واللغة العربية، والفقه الإسلامي، الذي لم يترك شيئا من حياة المجتمع إلا نظمه، كالجنايات، والحدود، وشؤون التوثيق، وأحكام الأسرة)[(٢)].

ولأجل ذلك كله قال مؤرخ الأزهر الأستاذ الشيخ سليمان رصد الحنفي الزياتي في: (كنز الجوهر، في تاريخ الأزهر): (فكم نبغ منه البلغاء، وظهرت فيه الأدباء، وترقت منه الفقهاء، وانتشرت منه العلماء، وحدّثت فيه المحدثون، وفسّرت فيه المفسرون، وانتهت فيه الأساتذة، واستنارت منه أفكار التلامذة)[(٣)].

وكنت قد نظمتُ ذلك شعرًا في قصيدة عن الأزهر الشريف، قلت فيها:

(ترى العلمَ يَسْرِي بأنحائه ... وفاضت منابره جوهرا
وأَشْرَقَ دَيْجُور تلك العلوم ... بِبَدْرٍ تَبَدَّى به نَيِّرَا
به يحفظ الله قُرْآنَهُ ... وتسري مَوارِيثُ خَيْرِ الورى
ويُصْنَعُ فيه الرجالُ الهُدَاةُ ... أولو العزم، والنُّورُ فيهمْ سَرَى
وللعلم فيه دَوِيٌّ علا ... وللبحث فيه نقاش يُرى
تُحَرَّرُ فيه مَغَالِيقُهُ ... وأنظاره قد جَرَتْ أَبْحُرَا
وفيه المدارك قد أينعت ... ودَوْحُ المعارف قَدْ أَثْمَرَا
هو الأزهرُ الحرُّ يحيى بنا ... ونحن فِدَاهُ، ولَنْ نُقْهَرَا
يَذُبُّ عن الدين تَحْرِيفَ مَنْ ... تأَوَّلَ بالجهل ثم افترى)

(١) سيرة القاهرة /ص١٢١/، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ٢٠١٢م.
(٢) جريدة الأهرام، العدد الصادر صباح السبت ١٧ شعبان، سنة ١٣٧٧هـ - الموافق ٨ مارس، سنة ١٩٥٨م.
(٣) كنز الجوهر، من تاريخ الأزهر /ص٣/، (د ن)، (د ت).

وقد كانوا ﷺ في الدرجة العليا من التجرد للعلم، والتعلق به، والتشمير في تحصيله، وإيثاره على ما سواه، مع شدة الفاقة، وضيق ذات اليد، وكانوا يرون أن التوصل إلى الدنيا بالعلم من أشد الأمور المسترذلة.

حتى حدثني العلامة المتكلم الشيخ محمد عبد الفضيل القوصي عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر ووزير الأوقاف الأسبق أن جد أبيه، العلامة الشيخ محمد إسماعيل القوصي المالكي ﷺ، وكان قد تتلمذ في الأزهر الشريف لشيخ الإسلام الإمام البرهان الباجوري، وأجيز منه، وبلغ من شدة تعلقه بالأزهر الشريف أن أدخل سبعة من أبنائه إلى الأزهر، فانتظموا للدراسة فيه.

وكان أحدهم حسن الصوت، فسمعه مرة أحد علماء الخلافة العثمانية، فدعاه إلى الرحيل إلى الآستانة، فشدَّ الشيخ الرحال إلى بلده قوص، ليستشير والده، فلما عرض عليه الأمر قال له الوالد: (أتريد أن ترحل إلى الآستانة لِقِطَعٍ من الذهب، أو شيءٍ من المال، وتؤثر الدنيا على العلم، ارجع إلى الجامع الأزهر، وانظر إلى عدد أعمدته، فصلِّ بجوار كل عمودٍ ركعتين، تستغفر الله فيهما من هذا الخاطر).

وقال الأستاذ الشيخ محمود حسن ربيع وقد تحدث عن علاقة أعيان أسرته بالأزهر فقال: (وإذا ما ختم الطفل القرآن أرسل إلى الأزهر، وما كانوا طلاب دنيا، ولا لهم حب في المناصب، فكان غالبهم إذا تفقه في دينه عاد إلى بلاده ينفع الناس بعلمه وكفى)(١).

وقال شيخ المؤلفين الفنان محمد يونس القاضي: (لأن طالب العلم في تلك الأيام الغابرة كان يعتبر نفسه منقطعا عن العالم، ويهب نفسه للعلم، فكان إذا دخل الأزهر يمضي به عشرين عاما لا يخرج منه، ولا يرى شوارع القاهرة، ولا يدري من أنظمتها شيئا)(٢).

ولقد تعاقبوا ﷺ على مثل ذلك المعنى، وكان يعينهم على ذلك جلال ما يرونه من معايشة العلم وأهله، في جو حافل بالمذاكرة والمباحثة والخوض في دوائر العلوم المختلفة، مع شيوخ يملأون العين والقلب جلالا ومهابة، ولم يزل هذا المعنى بخصوصه من أجل سمات الأزهريين، ومن أبرز خصائصهم، وهو علامة بارزة في منهجهم الأصيل، انعكس على نفوسهم فتنزهت عن الأغراض والمطامع والدنيا، وأخلصوا للعلم، قال أحمد خيري باشا في: (قصيدة الأزهر):

(جزى الله قوما أحبوا الكَفاف ... وباتوا يخافون حرَّ اللَّهبْ

وقاموا لَيَالِيَهُمْ قانتين ... وأيامُهُمْ قُضِّيَتْ في نَصَبْ

(١) تاريخ أسرة ربيع بالشرقية /ص٣١/، ط: مطبعة أبي الهول، القاهرة، سنة ١٣٤٧هـ - ١٩٢٨م.

(٢) مجلة: على كيفك /ص٣٤/، العدد الأول، الصادر بتاريخ ١٥ مايو، سنة ١٩٣٨م.

وليس لهم غَيْرُ أسفارِهِمْ | وغيرُ الكراريسِ، نعمَ المُحَبّْ
فلم يُشْغَلوا عن دروسٍ بمالٍ | ولم يَرْقُبُوا للرياح المُهَبّْ
أقاموا منارَ الهُدَىٰ ساطعا | ولم يعْبَأوا بالعَنَا والتعبْ
أعزَّهُمُ الزهدُ بين الورىٰ | وغيرهُمُ ذلَّ لمَّا ارتقبْ
فكَمْ من أميرٍ شديدٍ قويٍّ | ومنه رعيته في رَهَبْ
أخافوه - وهو المنيعُ العزيز - | وألْفَ حسابٍ لهم قد حَسَبْ
أولئك كانوا بنو الأزهر الـ | ـأولىٰ شيدوا مجدَهُ المُنْتَجَبْ
عليهِمْ تَجَلَّىٰ الودودُ بخيرٍ | وسبحانه الله فيما وَهَبْ)[1].

(١) قصيدة الأزهر /ص٤٩.

إِضَاءَةٌ
في طبقات علماء الأزهر وتفاوت درجاتهم ومنازلهم

هذا وعلماء الأزهر الشريف في سائر تلك الأجيال والأعداد إنما هم على طبقات، ويبدأ كتابنا هذا بوفيات سنة ألف وثلاث مئة.

فأول طبقة من المذكورين هنا هم طبقة تلامذة البرهان الباجوري، وقد كان ﷺ مدار العلوم في الأزهر في زمانه، وكان رأس طبقة كاملة، وأستاذ جيل بأكمله، ورغم أن أقرانه وأعيان طبقته وزمانه في غاية الكثرة، لكنه رزق السعادة في علومه وتصانيفه، حتى صار هو رمز جيله، وعنوان طبقته، بحيث ينسب إليه أبناء الطبقات التالية.

حتى يقول العلامة عبد المعطي السقا عن الشيخ عياد الطنطاوي: (أحد أفراد الطبقة الأولى الآخذة عن شيخ الإسلام الشيخ إبراهيم البيجوري شيخ الجامع الأزهر المتوفى سنة ١٢٧٦هـ)[١].

وقد استمر جيل تلامذته، بحيث إن آخر المجازين منه عُمِّر حتى سنة ١٣٩٠هـ، وهو العاقوري، وترجمته هنا في وفيات السنة المذكورة.

وقبل الباجوري كان العلامة الشيخ علي بن أحمد الصعيدي العدوي المنسفيسي المتوفى في رجب سنة ١١٨٩هـ، الموافق مارس ١٧٧٥م، وأصحابه وطلابه من الأزهريين طبقات وأجيال من العلماء، فهو رأس مدرسة وأستاذ طبقة.

قال شيخ العلماء الأزهريين العلامة الأمير الكبير: (وقد بارك الله تعالى في أصحابه طبقة بعد طبقة كما هو مشاهد)[٢].

وقال العلامة الشيخ حجازي العدوي: (وقد بارك الله في أصحابه طبقة بعد طبقة كما هو مشاهد، وعمر حتى انحصر أهل الجامع الأزهر ما بين تلامذته وتلامذة تلامذته، وانتفع الناس بتآليفه الكثيرة)[٣].

---

(١) مجلة المجمع العلمي العربي /ص٣٨٨/ من الجزء «العدد» التاسع للسنة الرابعة / الصادر بتاريخ صفر سنة ١٣٤٢هـ، أيلول سنة ١٩٢٤م.

(٢) ثمر الثمام، شرح غاية الإحكام، في آداب الفهم والإفهام /ص١٢٦/.

(٣) حاشية العلامة الشيخ حجازي العدوي على مجموع الأمير /١/٤٥/، ط: المكتبة الأزهرية للتراث، القاهرة، سنة ٢٠٠٩م.

وقبل العلامة علي العدوي يأتي شيخه العلامة السيد محمد البُلَيْدي المالكي، وأصحابه وتلامذته طبقات من وراء طبقات من العلماء الأزهريين، قال العلامة الأمير في: (سد الأرب) بعد أن ذكر العلامة علي الصعيدي: (ومنهم شيخ الشيوخ، ذو التآليف المفيدة، في الفنون العديدة، أستاذنا السيد محمد البليدي المالكي، وهو من مشايخ شيخنا المتقدم، بل ومن مشايخ مشايخه)[١].

وبعد الباجوري العلامة أحمد محجوب الرفاعي الفيومي، فقد كان رأس طبقة من الأزهريين، وكل من بعده فهم تلامذته أو في طبقتهم.

حتىٰ قال العلامة محمد البشير ظافر في: (اليواقيت الثمينة): (وكيفما قلبت طرفك في علماء الأزهر لا تجد إلا من أخذ عنه، أو عن أحد تلامذته، ويمكنك أن تستثني الشربيني والبشري، ثم تقول: إن كل الأزهريين عيال عليه في العلم)[٢].

والشمس الأنبابي، كان رأس طبقة كذلك، قال تلميذه العلامة أحمد بك الحسيني في (مرشد الأنام): (وقد تربىٰ علىٰ يديه جم غفير متصدرون للتدريس بالأزهر).

وعلماء الأزهر الشريف علىٰ ثلاث طبقات: الأولىٰ طبقة دَرَست الحواشي ودَرَّسَت الحواشي، كالباجوري، والصبان، والأمير، والملوي، والفضالي، والقويسني، وعبد السلام، وأضرابهم، إلىٰ طبقة العلماء النحارير: الوجيه الشربيني، وأحمد رافع الطهطاوي، وبخيت المطيعي وأقرانهم.

وطبقة أخرىٰ في المقابل دَرَسَتْ المذكرات الجامعية ودرّستها، وفي هذه الطبقة ظهر الضعف، وعدم القدرة علىٰ فهم التراث الأزهري.

وتتوسط بينهما طبقة أخرىٰ مهمة، وهي برزخ فاصل ما بين مرحلتين، وهي شريحةٌ لم تبقَ إلا جيلا أو جيلين، ثم انقضتْ.

وهي التي دَرَسَتْ الحواشي، ودرَّست المذكرات؛ إذ طُلب منها تأليفُ شيء من الكتب في تلك العلوم، لما أن تحولت الدراسة إلىٰ الكليات، فجاءت مذكراتهم وكتبهم عصارةً مهمة جدًّا للحواشي وفوائدها، وإن لم تتقيد بأسلوب الحاشية.

فكتب تلك الطبقة مهمةٌ جدًّا للمعاصرين، ويمكن أن نبدأ بتدريسها الآن، حتىٰ يرتقي الطلاب منها إلىٰ الاقتدار علىٰ قراءة الحاشية، بلغتها الدقيقة المركزة، ومن تلك الكتب مذكرة الشيخ أبي النجا في

(١) سد الأرب، من علوم الإسناد والأدب /ص٧/، ط: مطبعة حجازي، مصر، (د ت).
(٢) اليواقيت الثمينة، في أعيان مذهب عالم المدينة /ص٦٣/.

أصول الفقه، ومذكرة الشيخ سليمان خميس في (توضيح العقائد النسفية) وما أشبه، وكم في هذه المذكرات من فوائد نفيسة جدا، وكنت قد بذلت مجهودًا كبيرًا جدًّا في البحث عنها واقتنائها، وبذلت في سبيل شرائها ما بذلت.

ولقد كان هذا المنهاج العلمي كفيلا بصناعة العالم وإعداده، وتزويده وتبصيره بالعلوم، وصقل مواهبه، والاطمئنان إلىٰ أن تحصيله متكامل ليس فيه فجوات.

ومن الأحداث العظام التي وقعت في تلك المدة التي نترجم لأعلامها أن أنشئت الكليات، ونهضت الجامعة الأزهرية، في مشيخة الإمام الأكبر، المرحوم العلامة الشيخ محمد الأحمدي الظواهري، حتىٰ عرف بـ(أبي الجامعة الأزهرية).

فقد حدث تحول ما في فلسفة عملية التعليم، حيث تقسمت العلوم الاثنا عشر ـ التي هي مدار تكوين العالم الأزهري ـ علىٰ الكليات، فأُخِذتْ علوم اللغة ومتعلقاتها وجُعلت كلية اللغة العربية، وأخذت علوم الفقه والأصول ومتعلقاتهما وجعلت كلية الشريعة، وأخذ الحديث والتفسير وعلم الكلام فصارت كلية أصول الدين.

فتفكك العقل الأزهري المكتمل، وصرت ترىٰ مختصا باللغة لا يعرف الأصول، أو أستاذا في الأصول يلحن في اللغة، وما كان هذا مقبولًا ولا متصورًا أبدًا من قبل، ثم حصل الإمعان في ذلك، فصار المختص بقسم التفسير لا يعتني بالحديث، والمختص بالفقه لا يعتني بعلم الأصول، وصار المختص بالبلاغة لا يعتني بالنحو، وسيأتي لهذا مزيد تفصيل في فصل خاص عنوانه (أسباب تراجع حركة العلم في مدارس مصر عمومًا وفي الأزهر الشريف خصوصًا).

وعليه فالأعلام المذكورون هنا في هذه الجمهرة ليسوا علىٰ درجة واحدة في العلم والمعرفة والمنزلة، بل أقدارهم متفاوتة، ومراتبهم في العلم متباينة.

ففيهم الأئمة المتمكنون، والعلماء الكبار المتبحرون، أصحاب التحقيق التام في العلوم، ممن يصح وصف الواحد منهم بأنه أزهري بالمعنىٰ المطابقي.

ومنهم من هو دون ذلك، بحيث لا يُدْفعون عن الانتساب إلىٰ العلم في الجملة، ولكنهم دون الطبقة الأولىٰ، ولم يبلغوا مبلغها، إما لتوهج الموهبة عند الطبقة الأولىٰ وإن استوت في التعلم مع الثانية، وإما لاختلاف نظام التعليم واختلاله، واضطراب دوائر العلوم التي كانت تصنع عقلية الأزهري وتفككها، وإما لحضور العلوم والمعلومات وإتقان طرق تدريسها، لكن غابت معالم الشخصية الأزهرية في السمت والتأثير والجلال، والحضور والاشتباك مع المجتمع، والتصدي للشأن العام ونوازله وأحداثه.

وربما كان السائد عند الأزهريين عبر طبقاتهم وأجيالهم أنهم يتفاوتون في درجات العلم مع اتفاق الجميع في الحد الأدنىٰ من المعرفة، وعدم الخلو من العلوم الاثني عشر علىٰ أقل تقدير، لكن طرأ هنا مؤخرًا من يكون أزهريًّا وربما أخلَّ بمعرفة أحد تلك العلوم.

والعلم المفتقد عند كثير من متأخريهم هو علم أصول الفقه، وهو أجل علومهم، وكان لهم السبق فيه علىٰ مدىٰ قرون من الزمان، والعمل في المدة المقبلة هو إعادة تكوين أجيال الأزهريين الملمين بالعلوم الاثني عشر، مع مهارات إدراك الواقع، والقدرة علىٰ تنزيل النص علىٰ الواقع وإلحاق الواقع بالنص.

والمقصود أن هذا المنهج الأزهري العريق يصنع عالما، لكن تحويل العالم إلىٰ مدرس شأن آخر، فالمدرس هو عالمٌ مع قدر زائد، والقدر الزائد هو الانضباط بقانون التعليم، واحترام خصائص المدرسة التي يدرس علومها لطلابها، فإذا خرج إلىٰ تدريس اختياراته الخاصة أو فكره الخاص كان ناقضًا للشرط.

فالعالم حُرٌّ مطلقُ السراح، والمدرس هو عالم منضبط، التزم التزامات يجمل به الوفاء بها، ويكون الإخلال بها في غاية القبح، ولهذا كانت المدارس العلمية قديما تبالغ في رعاية شرط الواقف لإجراء أرزاقها علىٰ القائمين بالتدريس فيها عند توفر شرط الواقف فيهم.

قال وكيل الأزهر العلامة الشيخ محمد شاكر: (أكثر الناس يخطئون في تفسير المدرس، فيجعلونه مساويا للعالم في المفهوم، ويريدون منهما كل حائز لشهادة العالمية من الجامع الأزهر المعمور وملحقاته.

وهذا الخطأ في تفسير المدرس كان من أكبر العوامل في إفساد نظام التعليم بمرور الزمان؛ فإن كل حائز لشهادة العالمية يستطيع أن يكون مدرسا متىٰ أراد، وأن يشارك المدرسين في رواتبهم متىٰ أجلس أمامه بعض الطلاب بمحض اختياره واختيارهم، وقلما يمكن لرئيس أن يجمع سلطته علىٰ مجموعة هذا شأنها، إلا إذا منحه الله قوة غير محدودة الأطراف.

ونحن لا نسوي بين العالم والمدرس في المعنىٰ، فالعالم هو الحائز لشهادة العالمية من الجامع الأزهر المعمور وملحقاته، والمدرس هو العالم الذي انتخب للتدريس، وصدر أمر الجهة الرئيسية بتعيينه مدرسا في جهة من الجهات، في مقابلة مرتب ينقده شهريا ككل موظف، في مصالح الحكومة وغيرها.

كما لا يكون العالم قاضيا أو إماما في مسجد إلا بتعيين مخصوص في الوظيفة، كذلك لا يكون العالم مدرسا إلا إذا أسندت إليه وظيفة التدريس، ولا يستحق شيئا من راتبها إلا إذا قام بما عهد إليه، من تدريس ما يؤمر بتدريسه، علىٰ الخطة التي ترسم له، ومن المراقبة علىٰ الطلاب في أخلاقهم واشتغالهم بالعلم ونحو ذلك، وهو بهذا المعنىٰ موظف كبقية الموظفين، له ما لهم، وعليه ما عليهم)[1].

(١) تقرير مشيخة علماء الإسكندرية عن أعمالها في سنة ١٣٢٢هـ الدراسية /ص٥٥/، ط: مطبعة المؤيد، مصر، سنة ١٣٢٣هـ.

إِضَاءَةٌ

في أن علماء الأزهر على مدرستين:

المحافظين والإصلاحيين، وأن هناك مدرسة ثالثة تغيب عن كثير من الناس

شاع بين الناس أن علماء الأزهر في الأطوار الأخيرة على إحدى مدرستين:

الأولى مدرسة المحافظين، ويمثلها السادة العلماء: شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ عبد الرحمن الشربيني، وشيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ الشمس الأنبابي، وقطاع كبير من العلماء.

والثانية: مدرسة الإصلاحيين، ويمثلها مفتي الديار المصرية الأستاذ الشيخ محمد عبده، وشيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ محمد مصطفى المراغي، وقطاع من العلماء كذلك.

والذي يظهر أن هناك مدرسة أزهرية ثالثة، ربما كانت أنجح هذه المدارس جميعا، وربما كانت أكثرها خفاءً وغيابًا عن دائرة الرصد والتحليل والمتابعة، وهي المدرسة التي يمكن تسميتها بمدرسة (المحافظ المستنير)، ويمثلها شيخ الأزهر الإمام الشيخ حسن العطار، وتلامذته، وعلى رأسهم الشيخ رفاعة الطهطاوي، والشيخ محمد عياد الطنطاوي، ويمكن لنا أن ندرج في هذه المدرسة أيضًا الشيخ محمد بخيت المطيعي، والشيخ محمد عبد الله دراز، وعدد من العلماء.

ولهذه المدرسة خصائص وسمات، وقواسم تشارك فيها المدرستين السابقتين، لكنها تقدم أطروحة ربما كانت أعمق وأبعد نظرا، وأوسع أفقا، وأكثر قدرة على إقامة الجسور بين الشرع الشريف والواقع، وبين الدين والعصر، وعلى صناعة الحضارة، وإنشاء جسور التواصل بين الحضارات المختلفة.

وقد اعتدنا أن نتناول الشيخ رفاعة الطهطاوي، ونخصص له بحوثًا ودراسات واسعة، ونسلط الأضواء على آثاره وأطروحاته، حتى تضاءلت بجواره شخصية الشيخ حسن العطار، وصرنا إذا ذكرناه فإننا نقدمه على أنه أستاذ رفاعة الطهطاوي، فكأنه لا يمكن تعريفه إلا إذا أضيف إلى رفاعة، مع أن الأمر معكوس، لأن العطار هو رأس المدرسة، وهو صانع الرؤية، وهو الذي رسم الخريطة التي سار فيها رفاعة، فصار رفاعة جزءًا من منظومة ومنظور كلي، لا يمكن إدراك آفاقه من دراسة رفاعة على حدة، معزولا عن السياق الأكبر، والرؤية التي هو أحد مكوناتها.

ومن خصائص مدرسة العطار أنها مدرسة مقبولة من الطرفين، فلا ترفضها مدرسة المحافظين، ولا ترفضها مدرسة الإصلاحيين، بل هي موضع اتفاق من الجميع، ويشهد لها الجميع بأنها معبرة عن الأزهر تعبيرًا صحيحًا مطابقًا، وأنها ذات أطروحة وطنية جليلة وسامية، وأنها داعية إلىٰ الحضارة والتحليق في آفاق العلوم الشرعية والعلوم التطبيقية علىٰ حد سواء، وأنها تُقيم جُسورًا مع الحضارات المختلفة علىٰ نحو دقيق وناجح.

ويرجع ذلك كله إلىٰ إتقان الرؤية والأطروحة في ذاتها، بحيث كلما مضىٰ الزمن ازدادت صقلا وإتقانا، ويشهد الجميع لها ببعد النظر، وبأنها قادرة علىٰ تقديم أجوبة لمشكلات العصر، دون تفلت من هويتنا.

فقد كان الشيخ حسن العطار نمطًا فريدًا في علماء عصره، لأنه تمكن من الإلمام بعلوم الشريعة، ثم تخطىٰ إلىٰ الفلك والهندسة والتشريح، ودرس علوم المنطق والمقولات، وعلم المقولات علم يعتني بأجناس الوجود العليا، كالمكان، والزمان، والجوهر، والعرض، والكيف ـ ومنه محسوس ونفسي ـ، والكم، والفعل، والانفعال، وغيرها.

والبحوث المذكورة مع مزيدٍ من التدقيق فيها، والتمديد لها، تفضي إلىٰ الأصول التي نهضت عليها المخترعات الحديثة.

ولعلك أن تلحظ فارقًا بين عقلية العلامة العطار، وعقلية العلامة الشيخ عبد الرحمن الجبرتي ـ رحمهما الله رحمة واسعة؛ فإن العطار قد تكون تكوينًا عقليًّا، امتزجت فيه علوم المعقول بالعلوم الشرعية، فاستوعب الواقع وأحاط به، أما الجبرتي فقد تقدم في العلوم النقلية من تاريخ وما أشبه، ورغم درايته الواسعة بالتاريخ، إلا أنه مؤرخٌ علىٰ طريقة النقل للحوادث والوقائع والتراجم، ومن المؤرخين من هو يحيط بذلك مع تجريد الحوادث واستخراج المبادئ والكليات التي تؤثر في ذلك كما هو عند ابن خلدون، ومنهم من يغلب عليه سَمْتُ النقل الصرف وإن بالغ في خدمة ذلك وتحريره.

والمقصود أن العطارَ والجبرتيَّ قد اطلعا علىٰ علوم الفرنسيين ومعاملهم، واطلعا علىٰ التجارب الكيميائية والفيزيائية التي يقوم بها الفرنسيون، فاختلف موقف الشيخين تماما، أما الجبرتي فقد كان موقفه موقف المندهش المذهول، العاجز عن التفسير والفهم، وأما موقف العطار فقد كان موقف المحلل، الذي يستوعب ما رأىٰ، وينتقل من صدمة معرفته إلىٰ تأمل أصوله وأسسه، والمقارنة بينه وبين ما عنده من معارف.

وسأورد لك هذين الموقفين لترىٰ، قال العلامة الجبرتي في تاريخه: (ومن أغرب ما رأيته في ذلك المكان، أن بعض المتقيدين أخذ زجاجةً من الزجاجات، الموضوع فيها بعض المياه المستخرجة، فصب

منها في كأس، ثم صب عليها شيئًا من زجاجة أخرىٰ، فغلا الماءان، وصعد منه دخان ملون، حتىٰ انقطع وجفَّ ما في الكأس، وصار حجرًا أصفر، فقلبه علىٰ البرجات حجرًا يابسًا، أخذناه بأيدينا ونظرناه، ثم فعل كذلك بمياه أخرىٰ، فجمد حجرًا أزرق، وبأخرىٰ فجمد حجرًا أحمر ياقوتيًا، وأخذ مرة شيئًا قليلًا جدًا من غبار أبيض، ووضعه علىٰ السندان، وضربه بالمطرقة بلطف، فخرج له صوتٌ هائل، كصوت القرابانة، انزعجنا منه، فضحكوا منا.

وغير ذلك أمور كثيرة، وبراهين حكمية، تتولد من اجتماع العناصر، وملاقاة الطبائع، ومثل الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجة، فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنىٰ شيء، ويظهر له صوت وطقطقة، فإذا مسك عَلَّاقتها شخصٌ، ولو خيطًا لطيفًا متصلًا بها، ولمس آخر الزجاجة الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرىٰ، ارتج بدنه، وارتعد جسمه، وطقطقت عظام أكتافه وسواعده في الحال برجة سريعة، ومن لمس هذا اللامس أو شيئًا من ثيابه، أو شيئًا متصلًا به حصل ذلك له، ولو كانوا ألفًا أو أكثر، ولهم فيه أمور وأحوال، وتراكيب غريبة، تنتج منها نتائج، لا تسعها عقول أمثالنا)(١).

فانظر كيف أن الشيخ قد غاب عن تتبع ما تطفر به عقول البشر، من متابعة قوانين الأكوان، ورصدها رصدًا دقيقًا، ومحاولة الاستيعاب لتلك القوانين وتطويعها، والاقتدار علىٰ تكرارها عند الحاجة، غاب العلامة الجبرتي عن ذلك كله، ولم يكن له من واقع ثقافته ومعارفه ما يوقفه علىٰ أسباب ذلك إذا رآه، فحصل أن هاله ما رأىٰ، ووقع لذهنه ذهول وصدْمةٌ معرفية، أعجزته عن محاولة الاستيعاب والتفكير.

أما العطار فلربما غاب عنه ذلك التطور كما غاب عنه العلامة الجبرتي، لكنه كان يدرس العلوم العقلية، ويفهمها فهمًا تامًا، فلما أن رأىٰ تجارب الفرنسيين أدرك فورًا أنها خطوة في سلم التطور، تالية للحدِّ الذي انتهىٰ هو إلىٰ معرفته، وأنها قامت علىٰ إخراج مسائلَ من علم المقولات من طور الدراسة النظرية، إلىٰ طور التجربة والتنفيذ والتطبيق، ومن القوة إلىٰ الفعل، وعرف فورًا أن الفارق بين علومنا وعلوم الفرنسيين ليس بالبعد الذي يتصوره الجبرتي وأمثاله، بل هي خطوةٌ يمكن استدراكها والنهوض لتجاوزها، وأدرك الشيخ أنه حديثُ عهدٍ بتلك التجارب، بل كان بالأمس القريب يدرس لطلابه قواعد مشابهة، إلا أنه درَّسها لهم نظرًا، ثم فوجئ اليوم بأن أناسًا طوروها، وجعلوها مَيْكَنَةً، أو اختراعًا ملموسًا، يمكن علىٰ أساسه إنتاجُ الآلة الحربية أو الصناعية أو غير ذلك.

وإذا ما أردت أن تقف علىٰ تصوير العطار لما رآه في معامل الفرنسيين، وأن تضع كلامه في مقابل كلام الجبرتي، وترىٰ الفارق بين العقليتين، فانظر كلام العطار في أواخر (حاشيته علىٰ شرح الجلال المحلي، علىٰ متن جمع الجوامع للإمام المجتهد التاج السبكي)، حيث قال هناك ما نصه: (وأقول: مسئلة

(١) تاريخ الجبرتي /٣/٤٨/.

إِضَاءَةٌ
في أن الأستاذ هو عماد نجاح عملية التعليم في الأزهر

تضافرت عدة أسباب على تفرد البيئة الأزهرية ونجاحها واستمرارها في صناعة العلم والتعليم، حيث التعليم في مختلف معاهده لا يتوقف على الكتاب وحده، ولا على الأستاذ وحده.

وكان سماحة العلامة الجليل الشيخ علي جمعة مفتي الديار المصرية سابقًا يذكر كثيرًا أن العمليةَ التعليميةَ مسألةٌ مركبةٌ معقدةٌ، يتوقف نجاحها على تضافر عوامل متعددة، حتى يتحقق المقصود منها، وليس نجاحها وفسادها بالأمر المتوقف على الكتاب المدروس وحده، بل لا بد فيها من خمسة أمور: الأستاذ، والتلميذ، والكتاب، والمنهج، والبيئة العلمية، فإذا اجتمعت الخمسة تخرّج بها العالم الذي حفظ قواعد العلم مع سريان الملكة العلمية ـ التي يقتدر بها على التصرف في مسائل العلم، مع تطويعها والتطبيق عليها ـ إلى طبعه.

وإذا ما أردت واحدًا بعينه من تلك العوامل تدور عليه عملية التعليم، ويتوقف نجاحها عليه فهو المعلم؛ لأنه كفيل باستيعاب أسباب الصعوبة والعسر في تحصيل المسائل وفهمها، ومن ثم فهو كفيل بتذليل تلك العقبات.

فالأستاذ هو عماد نجاح عملية التعليم في أي حركة علمية، حتى قال الدكتور جوزيف نسيم يوسف في: (نشأة الجامعات): (فكلما ارتفعت مكانة الأساتذة من الناحية العلمية، كلما ارتفع شأن المعهد الذي يدرسون فيه، وكلما ازداد إقبال الطلاب عليه من كل حدب وصوب)[1].

وقد ساق الإمام النووي في مقدمة (المجموع) فصلا نفيسا في آداب المعلم، قال: (فينبغي أن لا يزال مجتهدًا في الاشتغال بالعلم قراءةً وإقراءً، ومطالعةً وتعليقًا، ومذاكرةً وتصنيفًا)، وقال أيضا: (وينبغي أن يعتني بالتصنيف إذا تأهل له، فبه يطلع على حقائق العلم ودقائقه، ويثبت معه؛ لأنه يضطره إلى كثرة التفتيش والمطالعة، والتحقيق والمراجعة، والاطلاع على مختلف كلام الأئمة، ومتفقه، وواضحه من مشكله، وصحيحه من ضعيفه، وجزله من ركيكه، وما لا اعتراض عليه من غيره، وبه يتصف المحقق بصفة المجتهد)[2].

(١) نشأة الجامعات في العصور الوسطى /ص١٢٦/.
(٢) المجموع شرح المهذب /١/٢٩/.

ومعنىٰ هذا أن الأستاذ امتلك العقل الناقد، القادر علىٰ ضبط أصول العلم وفروعه، وتمييز الصحيح من الضعيف، والجزل من الركيك، وما عليه اعتراض من غيره، فيسري ذلك كله من الأستاذ إلىٰ التلميذ، فتقوىٰ ملكة الفكر عنده، وتستقيم له منهجية الفهم.

ومن المفترض في المعلم أن يكون عارفًا بالأطوار والتقلبات النفسية والعقلية التي تعتري الطالب، بصيرًا بأقدارهم من الفهم، ملتفتًا إلىٰ تفاوت استعدادهم.

وأن يكون خبيرًا متمرسًا بكيفية التعامل معها، وابتكار الأساليب الملائمة لتطويع ذلك العقل وفتح مسالك التفهم له، فهي عمليةٌ فنيةٌ تحتاج إلىٰ موهوبٍ صاحبِ بصيرة.

ثم أن يكون قادرًا علىٰ إنشاء البيئة العلمية وتكوينها، باجتذاب من يأنس فيهم الصلاحية، والتأهل للولوج في المعارف، وأن يكون قادرًا علىٰ اختيار الكتاب الدرسي المناسب وانتقاء أفضل الطرق في شرحه وتقريبه إلىٰ الأفهام، فلا يضر حينها أن يكون الكتاب عسيرًا مستغلقًا.

قال النووي: (وينبغي أن يحرضهم علىٰ الاشتغال في كل وقت، ويطالبهم في أوقات بإعادة محفوظاتهم، ويسألهم عما ذكره لهم من المهمات)[1].

وقد لخص المناوي في: (فيض القدير) آداب الأستاذ وطريقة تدريسه فقال: (فخيارهم من يستعمل سهولة الإلقاء، بنصح وتلطف، ومزيد بيان، وساطع برهان، ويبذل جهده لتقريب المعنىٰ لفهم الطالب، ولا يفجأه بالمسائل الصعبة، بل يقرر له ما يحتمله ذهنه، ويضبطه حفظه، ويوضح لمتوقف الذهن العبارة، ويحتسب إعادة الشرح له وتكراره.

ويبدأ بتصوير المسائل وتوضيحها، ثم يذكر الدلائل وتوجيهها، ويقتصر علىٰ تصوير المسألة وتمثيلها، لمن لم يتأهل لفهم مأخذها ودليلها.

ويذكر الأدلة موضحة منقحة لممتحنها، ويبين له معاني أسرار حكمها وعللها، وما يتعلق بها من فرع وأصل، ومن وهم فيها في حكم أو تخريج أو نقل، بعبارة جلية، عرية عن التعقيد والإبهام، سليمة عن تنقيص أحد من الأعلام، مبينًا مأخذ الحكمين، والفرق بين المسألتين، وبذلك يزول التعقد من البين)[2].

والمعلم أو الشيخ أو الأستاذ هو الركن الأعظم الذي لأجله قصد الناس الجامع الأزهر، ورحلوا إليه، حيث اشتمل الأزهر علىٰ شيوخ نحارير، وأساتذة عباقرة، وعلماء متبحرين، تكاملت عندهم دوائر

(١) المجموع شرح المهذب /١/٣٣/.

(٢) فيض القدير /٤/١٢٧/، ط: المكتبة التجارية الكبرىٰ، مصر، سنة ١٣٥٦هـ.

العلم، وامتلكوا مفاتيحه وأدواته، وتأدبوا بآدابه، وتجملوا بشمائله.

وكان العلامة الشيخ محمد المبارك عبد الله قد عقد مقارنة بين الأزهر الشريف وبين المعهد العلمي في أم درمان ـ وهو مقتبس في نظم تعليمه وكتبه من الأزهر الشريف ـ فخلص إلىٰ أن المزية الكبرىٰ للأزهر في شيوخه ورجاله الأجلاء، قال: (ولكن أليس في المعهد من العلم ما يكفي طلاب الفقه في الدين، والمنهج واحد، والكتب المقررة هنا هي الكتب المقررة هناك، وقد اقتبس الشيخ أبو القاسم هذا النظام من نظام الأزهر، بوساطة الشيخ محمد شاكر وكيل الأزهر، الذي كان قاضيا للقضاة بالسودان، كما سمعنا ذلك من مشايخنا أكثر من مرة، في معرض الحديث عن نشأة المعهد والثناء عليه.

علىٰ كل حال طلب الزيادة علىٰ العلم الواجب إن لم يكن واجبًا عينيًا فهو واجب كفائي أو مندوب إليه، وقد كان الصحابة والسلف الصالح رضوان الله عليهم يرحلون طلبًا لتفسير آية من كتاب الله، أو رواية حديث من أحاديث رسوله ﷺ إلىٰ أقاصي البلاد.

فضلا عن أنه لا يمكن أن يكون المعهد كالأزهر، وهذه الكتب المقررة كلها أو أكثرها من تأليف علماء الأزهر، والمسألة ليست مسألة مماثلة في المقررات والكتب، وإنما هي مسألة رجال يشرحون هذه الكتب، ويبينون ما غمض منها)(١).

وكان طلبة الأزهر نُقَّادًا يميزون بين العالم المتمكن المحقق وغيره، ولا ينقادون إلا لمن ثبت لهم فضله وعلمه وتمحيصه، ومن أمثلة ذلك ما وقع للعلامة الشيخ يوسف الدجوي، قال عبد الرافع الدجوي عنه: (اختارته المشيخة لتدريس شرح ابن عقيل بدل عالم كبير نقل إلىٰ الإسكندرية، وجاءوا للطلبة بعالم يقرأ، فلم يرقهم تدريسه، وعطل الدرس أياما، لأنهم تربوا علىٰ شيخهم من أول الكتاب في النحو.

فاختارته المشيخة لهذا الدرس الحافل، الذي كان طالبوه ثلاث مئة أو يزيدون، فلما رأوا من أول يوم أن الشيخ يقرر القواعد بلسان واضعيها، ويرفع إشكالات المسائل بلسان قائليها، ويصور المعاني بألفاظ يقربها من أذهان سامعيها، أحبوا الشيخ حبًّا جمًّا، وتعلقوا به تعلق الابن البار بأبيه الرحيم.

ولمزية الشيخ في تحقيق المسائل العلمية، وقدرته الفائقة علىٰ إيصال المعلومات إلىٰ أذهانهم بأيسر الطرق، وأوضح عبارة، شغف به الطلاب، ورغبوا إليه أن يقرأ لهم كتبًا أخرىٰ، فقرأ لهم شرح السعد بعد المغرب، وكذلك قرأ غيره من الكتب في أوقات مختلفة، كالعزية في الصرف، والعصام علىٰ السمرقندية، فأبدع في الشرح أيما إبداع)(٢).

(١) مع التعليم الديني في السودان /١/٢١/.

(٢) الغيث المروي، في ترجمة الأستاذ الإمام الدجوي /ص١١/، ط: مطبعة اللواء، القاهرة، مصر، سنة ١٣٦٥هـ ـ ١٩٤٦م.

وكان من دأب علماء الأزهر شدة العناية بطلابه، والإقبال عليهم، وبذل الجهد والوقت والعمر في خدمتهم، وصقل مهارتهم، وتثقيف عقولهم، وتوريثهم مداخل المسائل، ومناهج العلم، والنظر إليهم بعين العناية، إذ هم المقصود الأول من عملية التعليم في الأزهر.

وبقدر ما يبذل العلماء من المجهود في تأهيلهم وإعدادهم وتنوير عقولهم بالمعرفة، فإنَّ هدفَ الأزهر يتحقق، قال شيخ علماء العربية بالأزهر في زمانه العلامة الشيخ محمد محيي الدين عبد الحميد: (إذ كان أبناء الأزهر هم إخواننا الذين نشأنا بينهم، وَوَقَفْنا حياتنا على خدمة صالحهم، والتماس الخير لهم)[1].

فالغاية التي يتأهل لها أي عالم أزهري هي أن يقف عمره على خدمة أبناء الأزهر وصقلهم وتقريب العلوم والمعارف إليهم، وتكميلهم بصور الإعداد التي تمكنهم من القيام بمهتهم الأزهرية على أكمل وجه، تستنير به الدنيا أمام أعين الناس، وتنحسر به من أمامهم كل صور الانحراف في فهم هذا الدين.

(١) دروس التصريف /ص٣/، ط: المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، سنة ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

إِضَاءَةٌ

في تراكم مهارات التدريس في الأزهر ومعالم العملية التعليمية فيه

وكان لهؤلاء العلماء سجلٌ تراكميٌ من مهارات التدريس، وطرق التفهيم، ومراعاة الفروق الفردية، وتنويع مداخل الفهم، وتفادي الطرق التي أثبتت عدم جدواها عبر أجيال متعاقبة من الطلاب، وبسبب الممارسة الممتدة فقد كانت تتبلور عندهم صنعة التعليم، ويصير لهم فيها تفنن، ويستعينون على ذلك بمختلف الوسائل التوضيحية، من تصوير المسائل وبيان تفريعاتها واستثناءاتها وطرق التعبير الدقيق عنها.

والدراسة في الأزهر تدور بكل مهاراتها وعلومها على محور مركزي عظيم ألا وهو مفهوم الصحبة، قال الدكتور جورج مقدسي: (وكانت العلاقة بين الأستاذ وتلميذه تفوق في الأهمية الموضع الذي يتم فيه التدريس، سواء مثل ذلك في دار المدرس أو في حانوته أو متجر أحد التجار أو خان، أو مستشفى، أو حتى الصحراء، لأن مكان التدريس يتغير بتغير الزمن، أما العلاقة بين الأستاذ والتلميذ فإنها تظل باقية)(١).

إلى أن قال: (وبدون نظام الصحبة يصبح من العسير أن نفهم كيف كان النشاط التعليمي يجري في العهد الأول).

إلى أن قال: (لم يكن كل من يتلقى العلم على أستاذ ما صاحبًا له، وإنما كان يعد من أصحابه فقط من كانوا يلازمونه باستمرار).

ومثال ذلك في تاريخ الأزهر لا ينحصر، بل تاريخ الأزهر في الحقيقة قائم على ذلك، وخير مثال له هو العلامة الشيخ عبد المجيد الشرنوبي في صحبته التامة للعلامة الشيخ حسن العدوي الحمزاوي، كما تراه مفصلا هنا في ترجمة الشرنوبي في وفيات سنة ١٣٤٨هـ.

وعلى أساس قضية الصحبة تفرعت أمور السند رواية ودراية وتزكية، وقد توسعت في شرح ذلك في كتاب (إحياء علوم الحديث)، وخلاصة ما هناك: أن سند الرواية نقلٌ محضٌ، وتداولٌ للأقوال، والأفعال، والهيئات، المروية عمن يحتج به في الشرع، وهو سلسلة الرجال التي تحملت تلك العلوم روايةً

(١) نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب /ص٢١٧/، ط: مدارات لأبحاث والنشر، مصر، سنة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.

وسماعًا، فأدتها، فاشْتُرِطَتْ في هؤلاء الرجال شروطٌ لائقةٌ بضبط النقل، وضمان صحة الرواية.

وأما سند الدراية فالأصل فيه أن نصوص الشرع قد نقلت مع طرائق فهمها، بل ما نشأت علوم النقل إلا لتصحيح الرواية، وصون مصادر الشرع، ومن بعد استقرار قضية الثبوت تبدأ مرحلة أخرىٰ، وطور آخر، من خدمة الشرع الشريف، وهي مرحلة الفهم، والتحليل، وإدراك المقاصد الشرعية، واستخراج المضامين والمعاني الكامنة في تلك المرويات والنقول.

ومن أجل الفهم والتحليل أنشأ علماء الإسلام أدوات أخرىٰ، وحرروا مناهجَ علميةً دقيقةً ومنضبطةً، تضمن فهمًا معتبرًا لنصوص الشرع الشريف، وأبوا أن يُسَلِّموا لعالمٍ علمَه حتىٰ يتخرج علىٰ عالمٍ معتبرٍ، يجالسه، ويباحثه، ويدارسه، ويتلقىٰ عنه أصول الفهم، ويرث عنه الخلفيات، والمداخل، والتصورات الكلية للعلوم والقواعد، وكيفية تطبيق القواعد، وتنزيلها علىٰ فروعها وصورها الجزئية، إلىٰ غير ذلك من الأدوات التي يمارس بها النظر، ويزاول بها الاستنباط.

ثم إنَّ سند التزكية ينقل أحواله الشريفة، وخصاله وأخلاقه المنيفة، ويعتني بمسالك تربية النفس، والتأدب الظاهر والباطن، وتهذيب النفس وترويضها حتىٰ تتخلق بأخلاقه، مما لا يحصل للنفس من مجرد سماعها أخبار الأخلاق والشمائل.

والأصل في سند الدراية أيضا، أن العبارات، والألفاظ، والأقوال المعبرة عن العلوم، متىٰ وقعت منفصلةً عن الانفعال البشريِّ المصاحب لها، وقعت معزولةً عن الأسباب المعينة علىٰ الفهم، المرشحةِ للمقاصد المرادة من بين عشرات الاحتمالات الواردة علىٰ التركيب اللفظي، فإن الكلمة من العلم تخرج من فم العالم محتفة بعشرات القرائن المعينة علىٰ الفهم، من نبر الصوت، وحركة اليد، وملامح الوجه، فإن تجردت من كل ذلك، ونقلت إلىٰ الخط، وأودعت الكتاب، انقطعت عن تلك القرائن، ووقعت باردة جامدة، تحتمل معاني وصورًا بحسب اتساع التركيب.

ومن هنا وقع الاحتياج إلىٰ الأستاذ، فنشأ مفهوم الأستاذية، والتلمذة، والصحبة، والقراءة، والإجازة، والتخريج، والمعيد، وغير ذلك من الوظائف العلمية المترتبة علىٰ ذلك الأصل.

ولعل هذا الأمر هو العصب والأساس في نظام التعليم الأزهري، وبدونه فإن عملية التعليم فيه تفقد سرها ورونقها وأصالتها.

قال جورج مقدسي: (وقد حافظ التعليم في الإسلام علىٰ طابعه الشخصي، المتمثل في علاقة الصحبة بين الأستاذ والتلميذ، وكان وجود هيئة من المدرسين أمرًا غريبًا، لا يتفق بطبيعته ونظامًا تعليميًّا لم تنشأ فيه الجامعة، وكما لم تكن هناك هيئات تدريسية كذلك لم توجد درجات علمية بالمعنىٰ الغربي

لهذا المصطلح، فلم يكن بوسع الطالب المسلم ـ علىٰ عكس نظيره الغربي ـ أن يتطلع إلىٰ الوقت الذي يحصل فيه علىٰ درجة الدكتوراه، وينتهي بذلك كفاحه للوصول إلىٰ القمة، وإنما كان عليه أن يبرهن علىٰ كفاءته في كل حين، وإذا أراد أن يمارس مهنة علمية ناجحة كان عليه أن يصعد إلىٰ القمة أولا، ثم يحافظ علىٰ وضعه ومكانته فيها)[1].

وقد سرىٰ هذا النظام التعليمي إلىٰ مدارس العلم الكبرىٰ في أوربا، مثل كيمبردج وأوكسفورد، واستقر عندهم هذا النظام التعليمي باسم (tutorial system)، أو نظام (one one one)، والذي يعني مدرس واحد لطالب واحد، ولا يزيد عن ثلاثة، وقد أكد لي سماحة العلامة الجليل الشيخ علي جمعة أنه سأل قيادات التعليم هناك فأخبروه أن هذا النظام التعليمي مقتبس من الأزهر.

ومما يؤكد ذلك أن دانييل هانيبرج تحدث في كتابه عن التربية الإسلامية الصادر في ميونخ سنة ١٨٥٠م عن الإجازة في التعليم الإسلامي، فقال: (إنني أفترض أن درجة الليسانس الموجودة عندنا نشأت من هذا النظام الإسلامي الذي يعني الإجازة).

وقد نقل هذا جورج مقدسي ثم قال: (وقد ظلت الإجازة طوال تاريخها وحتىٰ العصر الحديث تفويضًا شخصيًا يصدر بسلطة العالم المجيز إلىٰ المجاز من جديد)[2]، إلىٰ أن قال: (وعلاوة علىٰ ذلك، فإن المعاهد التي كان يدرس فيها العلماء كانت منشآت مستقلة تماما عن الحاكم، ولم تكن بحاجة إلىٰ موافقته لكي يتم إنشاؤها، والواقع أن الحاكم لم يكن له دخل في مسألة الإجازة حتىٰ لو كان هو مؤسس المعهد التعليمي، فالتعليم الإسلامي شأنه في ذلك شأن الفقه الإسلامي، ذو طابع استقلالي وفردي أساسا).

وأقول إن هذا المعنىٰ هو عصب عملية التعليم في الأزهر، حيث قامت عملية التعليم فيه عبر تاريخها علىٰ المرافقة والملازمة والصحبة التامة، التي تكفل سريان عصارة من عند الأستاذ من علوم ومعارف ومنهجية بحث وطريقة تفكير إلىٰ تلامذته الملازمين له، ويسري مع كل ذلك أدب وفهم وسمت، وإخبات وتقوىٰ، فكنت ترىٰ في تعبير الأزهريين كثيرًا قول الواحد منهم عن شيخه: (نفعني الله بحاله وقاله).

وإذا اختلت هذه الطريقة العريقة في التعليم، واختزلت في تدريس عبارات أو مذكرات، وانتزع الطالب من مثل هذا المحضن، فإن عملية التعليم الأزهرية الرصينة تفقد بريقها وروحها، وتخبو.

❁ **فأول مَعْلمٍ** من معالم ذلك النظام التعليمي أنه نظامٌ حرٌّ مفتوحٌ، يتيح لطالب العلم أن يعبر علىٰ

(١) نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب /ص٢٢٣/.
(٢) نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب /ص٤١٧/.

خيارات متاحة أمامه، لينتقي الكتب والأساتذة، وينظر ما يلائم طبعه وذهنه، ويجد فيه القدرة على التواصل.

قال إبراهيم الهلباوي - ﷺ - في مذكراته: (وأعتقد أن الدراسة في الأزهر في ذلك الوقت هي أحسن الدراسات، وأنفعها على الإطلاق، ففيها تطلق الحرية في المذاهب والكتب والأساتذة، وتلك أمثل الطرق لتكوين الإنسان، وتنمية عقله، وتوسيع ثقافته.

وقد اتضح أنها هي طريقة أكبر جامعات أوربا، وأنها الوسيلة للتكوين الحقيقي، والتربية الاستقلالية، وكذلك كان طلبة الأزهر في ذلك الحين، فهم يحسنون فهم ما يتلقونه، ويقلبون الرأي على كل وجوهه، ويناقشون أساتذتهم، ويقنعون ويقتنعون)[1].

فهذا وصف دقيق لطبيعة الدراسة العلمية في الأزهر، وبيان لمعالم صنعة العلم فيه، ولا تزال طريقة التدريس في الأزهر في حاجة إلى توصيف دقيق وجزئي وشامل، ينقل بأمانة ما يجري في المجالس العلمية في رحاب الأزهر من مسالك متقنة في ذلك الصدد.

وقال الشيخ عبد الحميد السائح في مذكراته: (وكان النظام في الأزهر يقضي بأن يختار الطالب لنفسه الأستاذ الذي يدرس عليه، والعلم الذي يدرسه، وهو أشبه ما يكون بنظام الساعات المعتمدة الذي تطبقه الجامعات حديثًا، وقد أفادني هذا النظام كثيرًا في حرية التعلم والتعليم)[2].

◈ **والمَعْلَمُ الثاني:** هو ترتيب العقل العلمي من خلال العلوم المنتقاة الصانعة لعدد من الدوائر العلمية والبصائر المعرفية، ومن خلال خريطة معرفية متقنة ومدروسة، تبني طريقة التفكير القادرة على فهم الوحي، وإدراك مقاصده، مما يدل على أن النظام التعليمي الحر المذكور في المعلم السابق لم يكن قائمًا على فراغ أو سراب، بل كان منطلقًا من خريطة علمية دقيقة، ومنهج محكم.

◈ **والمَعْلَم الثالث:** هو مهارات التدريس التي نضجت وتبلورت وتراكمت على أيدي العلماء نتيجة اتساع العملية التعليمية زمانا وإنسانا، قال الشيخ محمد المبارك عبد الله: (لأن مشايخنا رحمهم الله تعالى وجزاهم عنا أحسن الجزاء كانوا يعيدون ويزيدون، ويصورون لنا المتون أولا حتى نتصورها، ونفرغ منها، ثم يقرأون الشروح بعد ذلك، ويبسطون المسائل باللغة العامية، ويمثلون للكلي بالجزئي، وللمعقول بما يقربه من الحس.

ونحن نذاكر الدروس قبل الحضور عليهم، ونعيدها على كبار الطلاب، ولنا رغبة صادقة في تحصيل

---

(١) مذكرات إبراهيم الهلباوي /ص٥١/، تحقيق دكتور عصام ضياء الدين، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب.

(٢) فلسطين: لا صلاة تحت الحراب، مذكرات عبد الحميد السائح /ص٩/ ط: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، بيروت، سنة ١٩٩٤م.

العلم، حتىٰ إن من إخواننا من يبكي إذا لم يفتح عليه بفهم المسئلة، ولا تطيب نفسه إلا إذا فهمها.

وإن أنس لا أنسىٰ طرائق مشايخنا رحمهم الله وأجزل مثوبتهم، وأساليبهم في التدريس، وحركاتهم المعبرة، ووسائلهم المختلفة لشرح الدروس، وإيضاح ما غمض من المسائل، ونكاتهم معنا)[١].

ولقد كانت مجالس الدرس والتقرير عندهم حافلة بعصارة المهارات التعليمية، المتوارثة عند العلماء عبر طبقاتهم، مما تفتحت عليه أعينهم في مجالس شيوخهم، من التلطف في طرائق التفهيم، وتقريب المعاني، واستعمال الأدوات والقواعد، وحسن تقرير المعاني الدقيقة، والمسائل الشائكة، وترقية الطالب من طبقة إلىٰ طبقة، حتىٰ تتكامل علومه ومعارفه، وتنمو بالتدريج، مع حسن استعمالها، واستحضارها، وتطبيقها وتنزيلها، وكيفية تركيب بعضها مع بعض، وطرائق الأسئلة، واختبار المواهب، فكانت مجالس الأزهريين - ﷺ - حافلة بتلك المسالك في تقرير العلوم.

قال الأستاذ محمد عبد الجواد في كتابه الماتع: (مذكرات مجاور في الجامع الأحمدي) عن شيخه محمد الحبيشي: (إن وقفته وطوله، وحسن صوته العالي، ونغمه الرخيم، ورغبة الطلاب وشوقهم لسماع ما يقول، والأمثلة الواقعية التي يذكرها، والحكايات الشائقة التي يدمجها في درسه، أو يدمج فيها درسه، كل ذلك يدعو الطلاب للإصغاء، فيسمعون كل كلمة يلفظها، وكل عبارة يلقيها.

هلا سمعت معارضته للعبارة: «قاعدةٌ نحوية: كل الضمائر مبنية»، فيقول هو: «قاعدة حبيشية: كل الحروف مبنية»، وما أسهل حفظها، والتمثيل بها، كأنها أصل من أصول النحو.

سل أي طالب عاصره، يذكر لك كيف كان يدرس أقسام الكلمة: «الاسم، والفعل، والحرف»، فيختار طالبًا يسميه: «الاسم»، وثانيا يدعوه: «الفعل»، وآخر هو: «الحرف»، ثم يوزع علىٰ كل واحد علاماته، ويعود فيسأل كلًّا منهم عن صفاته)[٢].

ولقد طال تعجبي من هذا المنحىٰ التعليمي، الذي تَفَتَّقَتْ عنه قريحة ذلك العالم الأزهري الأحمدي، وكيف وقع نظيرها عند واحد من أجل علماء الإسلام في الغرب الإفريقي، وهو العلامة الشيخ محمد بن أحمد البيغوري الفلاني ت١٣٣١هـ، فقد نقل العلامة الشيخ آدم عبد الله الآلوري في كتابه الماتع: (لمحات البلّور، في مشاهير علماء إلور) أن الشيخ بيغوري الفلاني كان يقول: (الإعراب رجلٌ، اشترىٰ أمةً، وهي الكلمة، مع ابنها، وهو الحرف، فتسرىٰ بها، فولدت منه ولدين، هما: الاسم والفعل، فمات الإعراب عن أربعة أحوال: الرفع، والنصب، والجر، والجزم، فقسما الميراث، أخذ الاسم الرفع، ونازعه الفعل، وأخذ قسطًا منه، ثم أخذ الاسم النصب، ونازعه الفعل أيضا، وأخذ منه قسطا، وانفرد

(١) مع التعليم الديني في السودان /١/٧/.
(٢) مذكرات مجاور في الجامع الأحمدي /ص١٨٤/، ط: دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٣٦٦هـ - ١٩٤٧م.

الاسم بالجر، وانفرد الفعل بالجزم، ولم يتنازعا فيهما، وكان الأمر بينهما كذلك، فبقي الحرف، فلم يرث، ولم يورث، بل صار حرًّا؛ لأنه أخوهما للأم، ولم يبق رقيقًا لأحد)(١).

◉ **والمعلم الرابع**: هو مراعاة الفروق الفردية، بحيث يستوعب علماء الأزهر تفاوت العقول والبدائه، واختلاف مقدرة التحصيل وسرعته عندها، فلا يحملون الطلاب جميعا مع تباين أعراقهم وبيئاتهم على نسق واحد في التعليم، بل يهتدون سريعا ـ لشدة ممارستهم وطول تجربتهم ـ إلى ما يلائم كل طبع، ولأجل ذلك فقد نوعوا حلقات التدريس في المستوى الواحد، بل يجلس عدد من العلماء لتدريس الكتاب نفسه للمستوى نفسه، بحيث يجلس كل طالب إلى الأستاذ الذي ينسجم مع مداخله في التعليم، ويلائم طبعه.

قال الإمام النووي: (وينبغي أن يكون باذلا وسعه في تفهيمهم، وتقريب الفائدة إلى أذهانهم، حريصا على هدايتهم، ويفهم كل واحد بحسب فهمه وحفظه، فلا يعطيه ما لا يحتمله، ولا يقصر به عما يحتمله، بلا مشقة، ويخاطب كل واحد على قدر درجته، وبحسب فهمه وهمته، فيكتفي بالإشارة لمن يفهمها فهما محققا، ويوضح العبارة لغيره، ويكررها لمن لا يحفظها إلا بتكرار، ويذكر الأحكام موضحة بالأمثلة، من غير دليل لمن لم ينحفظ له الدليل، فإن جهل دليل بعضها ذكره له، ويذكر الدلائل لمحتملها)(٢).

وكل ذلك تراه هنا في هذه الجمهرة في تصرفات الأزهريين عند التدريس، وتجده مشروحًا بالتفصيل في ترجمة الشيخ مصطفى السفطي بن مصطفى الفاكهاني السفطي بن علي السفطي بن أحمد شلبي، وترجمته في وفيات سنة ١٣٢٧هـ.

◉ **والمعلم الخامس**: هو التدريب وتحويل القواعد إلى ممارسة، واختبار المهارات، واستنفار العقول للتفكير، وتنزيل قواعد العلوم المختلفة على محالها، وكيفية استدعاء كل قاعدة لاستخدامها في موضعها الملائم، والبصر العميق بالواقع، ومكوناته، وما يستلزمه اختلاف المحل من تغير في الأحكام العلمية.

◉ **والمعلم السادس**: اشتعال المنافسة بين طلاب العلم، مما يشحذ الأذهان، ويشعل الهمم، حتى قال العلامة محمد عبد الجواد القاياتي: (وهذه الخصلة فيهم تشبه ما يقع بين مجاوري الجامع الأحمدي بطنطا ومجاوري الجامع الأزهر بمصر، فإن الأول متى وجدوا أزهريا بدؤوه بالسؤال، وطالبوه بالجواب، لا على وجه التخلص، بل على وجه الاقتضاب، ولا يخفى ما بين المقامين عند أهل البلاغة والبراعة، ولو أنهم صبروا حتى تخرج إليهم مقالات المسؤول عفوًا لكان خيرًا لهم، ولسان المرء ترجمان

(١) لمحات البلور، في مشاهير علماء إلور /ص٤٨/، ط: المطبعة النموذجية، القاهرة.

(٢) المجموع شرح المهذب /١/٣١/.

عقله، وعنوان نبله وفضله)[١].

المعلم السابع: اتساق ترتيب مجالس التدريس، بحيث استقر عندهم نظام تلقائي في هيئات جلوس العلماء ومواضع جلوسهم، وممن أشار إلىٰ ذلك الشيخ النيفر، في ترجمة الوزير الأكبر أبي عبد الله محمد العزيز بن محمد الحبيب بن محمد الطيب بوعتور، فقال: (وقد كانت تلامذة الجامع الأعظم علىٰ جانب من إجلال العلم وإعظام شيوخهم، فلم يكونوا ليجسر أحدهم علىٰ التصدر للإقراء بداخل الجامع بمجرد الإذن لهم في الإقراء، إلا بعد مدة، ريثما يشتهر اضطلاعه، فكانوا إذا أذن لهم شيوخهم في الإقراء ورأوهم أهلا للتصدر يلجئون إلىٰ مثل المجنبات بصحن الجامع، ومقصورة النواورية، والمقصورة العالية، فكان صاحب الترجمة ممن أقرأ في المجنبة الشرقية، هضما لنفسه عن مساواة شيوخه في التصدر بداخل الجامع، وهو فرق يساوي ما عليه علماء القرويين بفاس، وعلماء الأزهر بمصر، من تميز علمائهم الجلة بالجلوس علىٰ الكراسي، دون الصغار والمتوسطين)[٢].

المعلم الثامن: التنقيح المستمر لعملية التعليم، وملاحظة مواضع الضعف، والتغذية المرتجعة، والاستفادة من الممارسة الفعلية للتدريس في كشف ما يطرأ من وجوه الخلل أو الضعف عند الطلاب، مع إعادة النظر في مشتملات التدريس لتطويعها وتنقيحها بإضافة ما يحتاج إلىٰ إضافة، أو تعديل ما يحتاج إلىٰ تعديل، أو تغيير ما يحتاج إلىٰ تغيير، وقد ورد في محاضر مجلس الأزهر الأعلىٰ ما نصه: (مما لوحظ في أوراق الإجابات أن كثيرًا من الطلاب لا يراعون قواعد الإملاء في كتاباتهم، ومع أن كتابة الطلاب في الموضوع قد تكون جيدة، فإن الورقة يحصل لها تشويه بسبب كثرة العلامات الموضوعة من المصححين علىٰ الغلطات الإملائية، إلا أنا لم نؤاخذه عليها في غير علمي الإملاء والخط، فلذلك قد يشاهد في بعض الأوراق كثرة العلامات ومع ذلك قد نالت درجة عالية، فمن اللازم معالجة هذا الداء بعناية سريعة، ونرىٰ مع الموافقة أخذ معلومات رؤساء المعاهد وملاحظاتهم في دراسة هذه المادة وحالة مدرسيها وكفاءتهم، حتىٰ ينظر المجلس بعد ذلك في الطريقة المفيدة لعلاج هذا الداء، وتخليص طلاب العلم من شره، وسوء عاقبته)[٣].

وإذا كان هو مقدار اليقظة والالتفات إلىٰ العيوب الطارئة علىٰ عملية التعليم حتىٰ آلت إلىٰ ملاحظة عيوب الكتاب والإملاء، مع الإقرار بجودة المحتوىٰ العلمي الذي يكتبونه، فكيف بما كان ينقدح للعلماء ويلاحظونه أثناء التدريس من وجود قصور في إلمام الطلاب بعلم من العلوم الأصيلة التي هي أساس محتوىٰ عقلية الطالب الأزهري كعلم أصول الفقه، أو علم الكلام، أو علوم الحديث، أو علوم العربية،

(١) نفحة البشام، في رحلة الشام /ص١٤١/.

(٢) عنوان الأريب، عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب /٢/١٠٠٨/، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة ١٩٩٦م.

(٣) مجلس الأزهر الأعلى /٢/٢٠٣/.

وانظر إلىٰ طريقة المعالجة عندهم، حيث رجعوا إلىٰ ملاحظة طرق تدريس المادة، وحالة المدرسين، وكفاءتهم، ومهارات عرضهم وتوصيلهم، مما يعني أن التجربة التعليمية كانت تصحح نفسها، وتولي اليقظة التامة والعناية الفائقة لكل ما تسفر الممارسة الفعلية عن ملاحظته من وجوه القصور أو الخلل.

وما زال هذا التاريخ العريق من أساليب التدريس في الأزهر ومهاراته مطمورا، مهجورا، لم تُكتَبْ عنه كلمة، ولم تُجمع أطرافه، ولم يوثَّقْ.

◉ **المعلم التاسع:** أن ذلك كله قد أفضىٰ إلىٰ أن هذه الخطة التعليمية المتقنة المتوقدة الفاعلة الدائمة التنقيح والتحديث، قد نضحت وأثرت في طرق التدريس المستقرة في كبريات مدارس العلم المزاحمة للأزهر الشريف في سطوعه ومكانته، كالزيتونة مثلا.

حتىٰ قال الفاضل بن عاشور: (وكان للطباعة في القرن الثالث عشر، ولاسيما في النصف الأخير منه، أثر في سرعة إيصال الكتب وبسط شهرتها، فعرفت كتب الشيخ الخضري، والشيخ علي الصعيدي، والشيخ الباجوري، والشيخ العطار، وشاعت في مناهج الدراسة الزيتونية، فقوي بذلك تشابه المناهج بين الزيتونة والأزهر، حتىٰ لم يبْقَ فرقٌ يُذْكر لا في المناهج ولا في صورة التكوين العلمي للخريجين.

ففي الربع الأخير من القرن الماضي كان شيخ الإسلام سالم بو حاجب يدرس «الأشموني» بجامع الزيتونة درسًا اشتهر، وشُدَّت له الرحال، وكان يتتبع «حاشية الصبان»، ويكثر البحث فيها، ويكتب بحوثه وتقريراته أو يكتبها طلبته.

وكان الشيخ الأنبابي في تلك الأيام نفسها يدرس «الأشموني» بالجامع الأزهر، ويكتب علىٰ «حاشية الصبان»، وكان بعض الطلبة يتردد بين الدرسين، مثل: الشيخ مصطفىٰ بن خليل، الآتي ذكره، فكانت المباحث التي تثار في أحد الدرسين يبلغ صداها إلىٰ الآخر، حتىٰ إنه لما طبعت تقريرات الشيخ الأنبابي علىٰ الصبان قضىٰ الشيخ سالم العجب من توارد الخواطر، حتىٰ عدل عن طبع تقريراته؛ إذ أصبح غالبها مستغنىٰ عنه بما طبع من تقريرات شيخ الإسلام المصري، سمعت ذلك من كثير من أساتذتنا تلاميذ الشيخ سالم)(١).

◉ **المعلم العاشر:** التفقد الدائم لمستوىٰ المتخرجين، ومدىٰ جودة تحصيلهم وكفاءتهم للمهام المنوط بهم القيام بها، فكان ينظر في جودة خريجيه، ومدىٰ قوتهم العلمية والمهارية والوجدانية، وما يطرأ هنا أو هناك من ضعف في مستوىٰ المتخرجين، وكيف يتم تدارك هذا الضعف، حتىٰ جاء في قرارات مجلس الأزهر الأعلىٰ: (لفت نظر المعاهد إلىٰ ما اتضح من ضعف طلبة الشهادة الثانوية في فنون الفقه

(١) من بحث جليل عنوانه: (امتزاج الأزهر بالزيتونة)، في المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية ٢٢ من ذي الحجة ١٣٨٩هـ = ٢٨ فبراير ١٩٧٠م.

والحديث والمصطلح، وطلبة الشهادة الأولية في علوم الحساب والصرف والحديث، ولفت معهد دسوق بوجه خاص إلىٰ العناية بتدريس مقرر البيان بأكمله طبقًا للنموذج الذي قرره المجلس لهذا الفن)[1].

وكان الأزهر يعتني بتجويد طرق التدريس، ومراعاة معايير ذلك، ويفتش عن ذلك، حتىٰ إن علي عمر بك، أحد مساعدي التفتيش بنظارة المعارف العمومية، ألف كتابًا عنوانه: (هداية المدرس للنظام المدرسي وطرق التدريس).

فرفع مدير عموم الأوقاف مذكرة لمجلس الأزهر الأعلىٰ يبدي إعجابه الكبير بالكتاب، وأنه راقه كثيرا، لما اشتمل عليه من المباحث المفيدة، والأغراض السامية، وما يجب الأخذ به في تكوين العادات الفاضلة في نفوس الطلبة، وتربية الأخلاق الحسنة فيهم، وما يرشد المدرسين إلىٰ أحسن الأساليب وأمثلها لتعليم العلوم.

وتضمن المذكرة أنه يحسن بالمعاهد الأزهرية وهي في إبان نهضتها الأخذ بذلك، والسير علىٰ منواله، وأن مؤلفه رغبة منه في تعميم النفع به لطلاب المعاهد الأزهرية خصوصًا قد قبل أن يقدم مئة نسخة هدية منه، ثم قرر مجلس الأزهر الأعلىٰ في جلسته المنعقدة بتاريخ الأربعاء ٦ ذو الحجة سنة ١٣٣١هـ الموافق ٥ نوفمبر سنة ١٩١٣م زيادة علىٰ ذلك شراء أربع مئة نسخة منه، توزع علىٰ إدارة كل معهد ومكتبته[2].

۞ **المعلم الحادي عشر:** نظرتهم للامتحان، ومدىٰ أهميته، دون أن يتغول علىٰ عملية التعليم ويصبح هو مقصودها، فيدمر فلسفتها، وإصرار علماء الأزهر علىٰ أهمية الامتحان وإنفاذه، رغم أن بعض الأزهريين تضرروا منه، وأنت ترىٰ ذلك في قولهم: (جرىٰ العمل علىٰ هذا، مع الحيطة لمصلحة الطالب، فلم نبلغ به حد الشدة، حذر أن يقال: «إنهم وزنوه بميزان الذهب»، وليس لهم بذلك يدان، ولم ننزل به إلىٰ حد الضعف، حذر أن يقال إنهم قصروا في تنفيذ قواعد الامتحان، بل كنا إلىٰ جهة السهولة أقرب، لأننا بالتجربة وجدنا الأزهريين يفهمون أكثر مما يحصلون، فلو طلبنا منهم أن يكون تحصيلهم في درجة فهمهم تمامًا بغاية الدقة والضبط لأوقعناهم في الحرج والمشقة، وأرهقناهم من أمرهم عسرًا.

إن الأزهريين لا يميلون إلىٰ الامتحان في التحصيل، ولم يكن أمر التحصيل فيما مضىٰ كما هو الآن، فلما علموا بوجوب التحصيل أدركهم الخوف والفزع، فقدرنا ذلك قدره في الامتحان، ولم نخرج عن الجادة المشروعة)[3].

(١) مجلس الأزهر الأعلىٰ /١/٢١٦/.
(٢) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٢/٢٩٩/.
(٣) مجلس الأزهر الأعلىٰ /١/١٩٢/.

ويتبين من ذلك كله أن نظام التعليم في الأزهر وأن ترتيب شئون إدارة الأزهر، وهيكلة مؤسساته قد مرت بأطوار متعددة، وأن نظام الامتحان في الجامع الأزهر على وجه الخصوص قد مرَّ بأطوارٍ كثيرة، كانت غايتها جميعا أن تكشف عن مدى الأهلية والتحصيل والكفاءة في الطالب المتقدم، وجاء في قرارات مجلس الأزهر الأعلى: (وكان انتخاب التعيينات المذكورة من دفتر أعده لهذا الغرض المرحوم الشيخ المهدي أيام كان شيخًا للجامع الأزهر، واقتفى أثره المشايخ من بعده)[(١)].

قال العلامة الشيخ عبد الفتاح أبو غدة: (وكانت الطريقة المتبعة في الأزهر آنذاك، أن تُعين للمتقدمين لنيل هذه الشهادة موضوعات علمية ذات أهمية في بابها، فيعتني الطالب أشد العناية تحضيرًا واستعدادًا للجواب عما يسأل عنه فيها، وكان الامتحان شفهيًّا أيضا، بحضور لجنة من أكابر شيوخ العلم في الأزهر، وكانت الموضوعات تُختار من ستة عشر علمًا، وهي تتناول علوم الشريعة من الأصول والفقه والتفسير والحديث والتوحيد وما إلى ذلك، وعلوم اللغة العربية من المعاني والبيان والبديع والنحو والصرف والوضع والعروض والقافية، والعلوم العقلية من المنطق والحكمة وما إلى ذلك، من أدب البحث والمناظرة والأخلاق

وكان الطلبة المتقدمون إلى نيل هذه الشهادة، لابد أن يستعينوا على دراسة ما عرف عندهم باسم «التعيين»، بشيخ كبير من كبار علماء الأزهر المتمكنين المتقنين، ليقرأ لهم هذا «التعيين» من جميع وجوهه العلمية، ويدربهم على تسديد الأجوبة للأسئلة التي يمكن أن يسأل عنها الطالب في لجنة الامتحان، لكشف فهمه من حفظه، ومعرفة ذكائه وقدرته في الجَوَلان العلمي، ودقاق المسائل وصعابها)[(٢)].

وجاء في قرارات مجلس الأزهر الأعلى في جلسته المنعقدة بتاريخ السبت ١٧ شوال سنة ١٣٣٠هـ ما نصه: (إن الامتحان هو غاية التعليم، وهو الحد الذي ينتهي إليه عمل العامل)[(٣)]، ثم يقول بعدها بصفحات: (ولئن كان الامتحان من تتمة الأعمال الواجبة)[(٤)].

وأود التنبيه هنا إلى أمر في غاية الأهمية، ألا وهو أن فلسفة عملية التعليم في الأزهر كانت تدور بكل آلاتها وأدواتها وأنشطتها ومؤلفاتها ومجالس تدريسها حول مقصود عظيم ألا وهو صناعة العالم، فتحولت في الزمان الأخير إلى أن صار مقصودها هو اجتياز الامتحان.

---

(١) مجلس الأزهر الأعلى /١/١٨٣/ وفي الصفحات التي بعدها وصف تفصيلي لإجراءات امتحان العالمية يحسن النظر فيه وتأمله.

(٢) تراجم ستة من فقهاء العالم الإسلامي في القرن الرابع عشر وآثارهم الفقهية /ص٢٢٦/، ط: مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٧م.

(٣) مجلس الأزهر الأعلى /١/١٨٢/.

(٤) مجلس الأزهر الأعلى /١/١٨٨/.

وقد أسفر ذلك كله عن استقرار عدد من مكونات المنهج الأزهري وهي:

♦ **المكوَّنُ الأول: اتصال سنده، روايةً، ودرايةً، وتزكية:** فمن خصائص المنهج الأزهري أن علومَه ومعارفة متوارَثَةٌ منقولة، متصلةُ الإسنادِ، يتلقاها كلُّ جيلٍ عن الجيل الذي قبله، بإسنادٍ موصول، وفهم متسلسل، ولا يتصدر أحدٌ من أبناء ذلك المنهج إلا بعد التلقي والصحبة الطويلة للعلماء، إلىٰ أن يقع منهم الإذنُ والإجازة له بالرواية، وبالتدريس، والتأليف، وتعليم العلم، وإذا سألت أحدهم عن مشايخه، ذكر لك عددًا منهم، وإذا سألته: كم صحبت شيخك أو شيوخك؟ ذكر لك أنه صحبهم زمانا طويلا، حتىٰ فهم ووعىٰ عنهم منهج الفهم، ومداخل المعرفة.

بخلاف المناهج الأخرىٰ؛ فإنها مقطوعة مبتورة، يتصدر فيها أحدهم دون مصاحبةٍ للعلماء، وإذا سألت أحدهم: كم صحبت شيخك؟؟ ذكر لك أنه لقيه مرة، أو صحبه ساعات معدودات، فأنىٰ يتحصل له العلم، وأنىٰ يوثق بفهمه؟

♦ **المكون الثاني: العناية بتحصيل علوم الآلة:** فهو منهجٌ يعتني بتربية أبنائه علىٰ الإلمام، والاستيعاب، والتضلع من علوم الآلة، من النحو، والصرف، والاشتقاق، والبلاغة بفنونها، وأصول الفقه، وعلوم الحديث، وعلم المنطق والكلام، وغير ذلك من العلوم التي توصل إلىٰ الدوائر الأربع، التي شرحناها مرارا هنا في هذه الجمهرة، والتي هي: دائرة الفهم والإفهام، ودائرة التثبت والتوثيق، ودائرة الحجية والتحليل، ودائرة بناء الإنسان، مما يعين المتعلم، وتؤهله، وتمكنه من الخوض في فهم الكتاب والسنة، عن معرفة ودراية وبصيرة، مع السير في كل تلك العلوم علىٰ منهج معتمد، يرتقي به الطالب من المقدمات إلىٰ الدقائق.

وكأن المكون الأول والذي هو طول الزمان في مرافقة العلماء، قد نتج عنه المكون الثاني، حيث أثمرَتْ المصاحبةُ الطويلةُ تلقينًا للعلوم، ونقلا للفهوم.

♦ **المكون الثالث: الإلمام والإحاطة بمقاصد الشريعة:** وقد نتج من طول مصاحبة العلماء، ومن تحصيل علوم الآلة، أن تفتحت البصيرةُ علىٰ إدراكِ مقاصد الشرع الشريف، وأن دين الله تعالىٰ جاء من أجل تحقيق عبادة الله جلَّ شأنه، وتزكية النفس وتطهيرها، وعمارة الأرض، وهداية الأمم، ووراثة النبيين، وبناء الإنسان علىٰ الربانية والبصيرة، والإنابة إلىٰ الدار الآخرة، وتحصيل مكارم الأخلاق، وبناء الحضارة، وصناعة النهضة، حتىٰ تكون الأمة المحمدية رحمة للعالمين، كما كان النبي ﷺ رحمة للعالمين.

وعندما يحصُلُ لطالبِ العلم حظٌّ من إدراكِ مقاصد الشريعة، فإنَّ فهمَه لدينِ الله تعالىٰ يَتَّسعُ، ونظره في الفروع الفقهية والمسائل الجزئية يستنير، ويخرج من التشنج والغلظة، ويعلم الجاهل والمخالف برفق، ويتخلق بالخلق النبوي العظيم.

وأما المناهج الأخرىٰ فإنها لا تعرف مقاصد الشريعة، ولا تدريها، ولا يرد شيء من ذكر المقاصد الشرعية في كلامها، ولا يظهر في فهمها وتطبيقاتها.

❖ **المكون الرابع: تنزيل القرآن الكريم علىٰ مواضعه:** فإنه ينتج من ملازمة العلماء، ومن معرفة علوم الآلة، ومن الإلمام بمقاصد الشريعة أثرٌ مهمٌّ جدا، وهو أن يتمكن صاحب ذلك المنهج من قراءة القرآن، فينزل آياته الكريمة علىٰ مواضعها، فلا ينطلق إلىٰ آية نزلت في الكافرين فينزلها علىٰ المؤمنين، ولا لآية نزلت في المؤمنين فينزلها علىٰ الكافرين، ولا ينطلق لآية نزلت في أمر عام فينزلها علىٰ خاص، ولا لآية نزلت في خاص فينزلها علىٰ عام، وهكذا، بل يكون شأنه حسن التفهم للقرآن الكريم، وحسن تنزيل القرآن علىٰ الواقع دون لبس أو اشتباه، بخلاف عدد من المناهج التي تخوض في فهم القرآن دون أدنىٰ بصيرة، فتنتج فهما مشوها.

❖ **المكون الخامس: تعظيم شأن الأمة المحمدية:** وينتج من كل ما سبق أنَّ طالب العلم يُدْرِكُ عظمة شأن الأمة المحمدية، وأنها وِعَاءُ الإسلام، وأنها أمة علم، وهداية، ومرحمة، ووراثة للنبيين، وأنها أمة بلاغ عن الله، وأنها مؤتمنة علىٰ الشرع الشريف، وأن لها وظيفة بين الأمم، وأن وظيفتها هي الهداية وتبليغ الشرع إلىٰ الأمم، وأنها ينبغي أن تشارك في صناعة ثقافة العالم مشاركة مؤثرة، لافتة للنظر، بحيث تكون الأمة دالة علىٰ الله بعلومها، وفنونها، وآدابها، وقيمها، ومعارفها، في مجالات العلوم المختلفة، الإنسانية، والتجريبية، والعقلية، وغيرها.

فإذا أدرك الإنسان ذلك عظَّم شأن الأمة، ولم يَعْتَدِ عليها بتفسيق، ولا تشريك، ولا تبديع، ولا بغضاء، ولا شحناء للمسلمين.

وقد ظل المنهج الأزهري يعلم الناس ذلك، ويستوعب الوافدين من مختلف الأقطار والأمصار، ولا يصدر عنه تحامل ولا تفسيق، بل يفيض علما وهداية.

❖ **المكون السادس: حَمْلُ همِّ الهداية العامة:** فإذا أحاط طالب العلم بذلك كله التفت إلىٰ أن مخاطبة العالمين بمحاسن الشرع الشريف من أوجب الواجبات، وأن المنهج النبوي الشريف كان مفعما بالحرص علىٰ هداية الخلائق أجمعين، وإيصال أنوار الهداية إلىٰ كل إنسان، مع كمال الحرص والشفقة علىٰ الخلق، والرحمة بهم، فمن أهم سِمات المنهج الأزهري أن يغرس في نفوس أبنائه هذا المعنىٰ الجليل، بخلاف المناهج الأخرىٰ التي ليس في خطابها أي التفات إلىٰ حقوق الأمم علينا.

❖ **المكون السابع: المكونات الكاملة للعلم:** فإن المنهج الأزهري ظل علىٰ مدىٰ قرون طويلة وهو يربي أبنائه علىٰ أن العلم مركب من ثلاثة أمور، أولها: المصادر والأدلة، من الكتاب والسنة والإجماع

والقياس، ثانيها: المنهج المعتمد والمنضبط في فهم النصوص، وكيفية تحليلها، واستخراج معانيها، ثالثها: المواصفات والملكات والمواهب التي لابد من توافرها في الشخص القائم بالتبحر والتخصص في علوم الشريعة، فالمصادر وحدها لا تصنع العلم ولا الهداية، حتىٰ يصحبها منهج معتمد في الفهم، يقوم به شخص مؤهل.

أما المناهج الأخرىٰ فقد مزقت العلم، وجعلته أشلاء، وصار الواحد منهم لا يفهم من العلم إلا كلمة الدليل، دون معرفة بوجه الدلالة، ولا بكيفية جمع الأدلة الواردة في كل مسألة، ثم كيفية مزجها وتركيبها، ثم كيفية فهمهما وتحليلها، مع مراعاة حال الشخص القائم بالفهم، والتثبت من أن مواهبه وملكاته وقدراته مواتية لكل ذلك.

كما أنه من المكونات الكاملة للعلم أن يجمع صاحبه بين العلوم النقلية والعلوم العقلية، حتىٰ يبصر بعينين، ويقتدر علىٰ التواصل والفهم والاستيعاب للنماذج المعرفية التي تتكون منها ثقافة العالم، فيستطيع توصيل معالم هذا الدين إلىٰ العالمين.

◆ **المكون الثامن: الاستفادة من تراث الأمة، والانفتاح عليه، والتواصل معه، والبناء عليه:** فإن من أهم خصائص المنهج الأزهري أنه منهج مستوعب لتراث الأمة في العلوم والمجالات المختلفة، متواصل مع ذلك التراث، يعرف له أصالته وقيمته، ويعرف كيف ينتقي منه كل مفيد وجليل، ويعرف كيف يبني عليه، وكيف يضيف إليه، بخلاف عدد من المناهج الأخرىٰ، التي تصنع قطيعة وهجرا وتضليلا لتراث أمة الإسلام.

وقد أفضىٰ كل ما سبق من المعالم والمكونات إلىٰ استقرار الأركان الثلاثة التي لابد منها لكل أزهري، وهو أنه أشعري أو ماتريدي في الاعتقاد، ومذهبي في الفقه، وصوفي في المشرب والأخلاق.

وكل هذا ناتج من نضج تجربة التدريس عبر قرون ممتدة، وأجيال متتالية، وطبائع متفاوتة، مما أعان علىٰ الانتقاء والاختيار، حتىٰ استقر الأمر علىٰ ما سبق.

إِضَاءَةٌ
في المقارنة والموازنة بين منهجية التدريس في الأزهر، ومنهجيات التدريس المتبوعة في المدارس العلمية المناظرة للأزهر كالزيتونة والقرويين

من أهم البحوث التي ينبغي على الأزهريين العناية بها: النظر في خصائص نُظُم التدريس في الأزهر، ومقارنتها بنظم التدريس في المدارس العلمية الكبيرة المناظرة للأزهر كالزيتونة والقرويين والسليمانية وأربطة حضرموت ومدارس الشام، للكشف عن ما تفردت به كل مدرسة من خصائص.

حيث اتفقت تلك المدارس كلها في منهجية التعليم ومفرداته، واختيار دوائر العلوم التي تقوم على تدريسها، ثم جرى تفاوت في اختيار الكتب المعبرة عن ذلك كله، وفق ما هو رائج في كل قطر من الكتب والمؤلفات، المتداولة والمعهودة عند أهله، ثم هناك تفاوت آخر أدق في منهجية التدريس وطرائقه، والمداخل التي تجري عليها كل مدرسة في تقريب مسائل العلم وبحوثه من العقول.

قال الدكتور أبو القاسم سعد الله في: (تاريخ الجزائر الثقافي): (لم يكن للجزائر جامعة إسلامية كالأزهر والقرويين والزيتونة، غير أن دروس جوامعها الكبير كانت تضاهي، بل قد تفوق أحيانا، دروس الجامع الأموي بدمشق، والحرمين الشريفين)[1].

قلت: فهو هنا يشرع في موازنة بين منهجية التدريس في جوامع الجزائر، وما يناظرها في الجامع الأموي والحرمين، وهذه المقارنة في صميم هذا المبحث الذي أتكلم فيه، حيث إنها مقارنة جانبية بين عدد من المدارس العلمية، ومحاولة نصب ميزان عادل دقيق يبين نقاط الاتفاق والافتراق، ونقاط الرجحان في كل.

ولذا فقد أكمل هو حديثه مبينًا نقاط المقارنة فقال: (لتنوع الدراسات فيها، وتردد الأساتذة عليها من مختلف أنحاء العالم الإسلامي).

فهاتان جهتان للموازنة بين بعض مدارس العلم، والتوسع في هذا الباب يفضي إلى النزول بالموازنة

(١) تاريخ الجزائر الثقافي /١/٢٧٣/، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة ١٩٩٨م.

من معالم التدريس الكبرىٰ إلىٰ دقائق منهجيات التعليم، مما تنكشف به أمور نفيسة وجليلة.

وممن جرىٰ في هذا الميدان، وخطا خطوة في الموازنة بين منهجية التعليم في الأزهر ومثيلاتها في المدارس: العلامة الشيخ محمد بيرم الخامس بن مصطفىٰ بن محمد بيرم الثالث الحنفي التونسي، من كبار علماء الزيتونة، وشيخ السادة الأحناف بتونس، والمتوفىٰ بمصر سنة ١٣٠٧هـ، حيث كتب رسالة اسمها: (الكشف الأبهر، في الموازنة بين تعليم المدارس والأزهر، وأثرها في الإصلاحات التعليمية بالأزهر الشريف)، إلا أن المنحىٰ الذي يرمي إليه هو أهمية دخول بقية العلوم الحديثة إلىٰ دوائر التعليم في الأزهر، جريا علىٰ سابق العهد القديم للأزهر في العناية بتدريس تلك العلوم بجوار العلوم الدينية.

وقد تقدم ذكر شهادة العلامة الجليل مصطفىٰ بن خليل، وهو يسجل تردده ما بين الأزهر والزيتونة، وكيف أنه كان يحضر تقرير العلامة الشمس الأنبابي لحاشية الصبان علىٰ شرح الأشموني علىٰ الألفية، ويقيد تقريرات العلامة الأنبابي ويحملها إلىٰ علامة الزيتونة الشيخ سالم بوحاجب، فكان يعجب من التوافق، ولما طبعت عدل الشيخ سالم بوحاجب عن طبع تقريراته؛ إذ أصبح غالبها مستغنىً عنه بتقريرات شيخ الإسلام المصري.

وأقول: إن هذه اللمحة مهمة، وينبغي جمعها وأمثالها، مما يتعلق بالمقارنة بين نظم التعليم وطرائقه عند الأزهر وعند المدارس العلمية المشابهة له، حتىٰ تتضح لنا بجلاء الفوارق الدقيقة بين نظم التعليم في تلك المدارس الكبيرة.

وممن تصدىٰ هنا مؤخرًا لشيء من ذلك هو العلامة المحدث السيد عبد الله بن الصديق الغماري، حيث أورد في بعض كتبه مقارنة بين منهجية التعليم في الأزهر، ومنهجية التعليم في جامع القرويين العريق في فاس.

وقد تسنىٰ للغماري أن يتلقىٰ العلم في القرويين، كما تسنىٰ له أن يتلقىٰ العلم في الأزهر، وأن ينال العالمية منه، وأن يجلس للتدريس فيه، فذهب في مقارنته تلك إلىٰ ترجيح منهجية التعليم في القرويين.

وعلل ذلك بقوله: (مما لاحظته أن علماء المغاربة أعلم بالفقه المالكي وأعرف بقواعده وأوسع اطلاعا علىٰ كتبه من علماء مصر.

بل مما لاحظته بوجه عام أن العالم المغربي يعطي الدرس حقه من البحث والاطلاع علىٰ الكتب المتصلة به، ما لا يوجد مثله عند العالم الأزهري الذي لا يتجاوز في درسه حل عبارة المتن والشرح.

فطريقة المغاربة في التدريس تعطي الطالب ملكة الفهم، وتعلمه كيفية البحث في كتب العلم وقواعده، وطريقة الأزهريين تعطي الطالب ملكة الفهم فقط.

نعم، كان الشيخ محمود الإمام على طريقة المغاربة، حضرنا عليه تهذيب السعد بشرح الخبيصي، فكان لا يدع شيئا يتصل بالكتاب وشروحه وحواشيه، وبالعلم وقواعده، إلا أتى به وناقشه وقرره، وبهذه الطريقة حضرت ثلاث سنوات بفاس، حصلت فيها ما يمكن تحصيله في عشر سنين)[1].

وأقول: على هذا الكلام تعليقات:

❁ **أولها**: الذي ظهر لي بعد طول تأمل أن الطريقة التي أشاد بها السيد عبد الله بن الصديق، وجعلها طريقة المغاربة، وفضلهم لأجلها على الأزهريين، إنما هي في الحقيقة الطريقة التي كانت تناسب طبع السيد الغماري، وتلائم ذوقه، حتى قال في: (سبيل التوفيق): (وطريقة المغاربة في الدرس عموما أن الشيخ يطالع الدرس في بيته، ويجمع ما قيل فيه من أقوال وشروح وحواش في ذهنه، فإذا جاء إلى الدرس ألقى على الطلبة من حفظه جميع ما طالعه وحفظه في بيته، وبعد الانتهاء من ذلك يأمر طالبًا يكون أمامه بيده الملزمة أن يقرأ في الملزمة ما قرره الشيخ، والطلبة كلهم بيدهم الملزمة كذلك، والشيخ يسمع، فيوضح لهم ما غمض، أو يبين ما فيها من تصحيف، أو نحو ذلك، وقد درست طلبتي في الأزهر على هذه الطريقة)[2].

فكأن طبعه ﷺ كان ميالا إلى ذلك النهج، يستعذبه ويهش له، فأيما طريقة أخرى للتدريس تغاير ذلك فإنه ينصرف عنها وإن كانت نافعة في ذاتها.

❁ **ثانيها**: وقد وجد من العلماء الأزهريين عبر الأجيال إلى طبقة شيوخ الغماري من وُصفت طريقته في التدريس بتلك المهارات بعينها، التي جعلها العلامة الغماري طريقة للمغاربة، قال الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه: (حياة مجاهد في الإصلاح) عن شيخه العلامة الشيخ محمد الشافعي الظواهري المتوفى سنة ١٩٤٣م: (وكان الشيخ محمد الشافعي شديد الذكاء، كثير الحفظ، يجتهد في مطالعة دروسه قبل إلقائها على الطلبة، حتى يلم بكل ما يتعلق بها من شروح وحواش وتقارير، ويمثل هذه الطريقة الأزهرية القديمة أقوى تمثيل)[3].

❁ **ثالثها**: الشيخ عبد المتعال الصعيدي من جيل شيوخ الغماري، بل كان ضمن اللجنة التي امتحنت الغماري عندما تقدم لنيل العالمية من الأزهر، فهذا هو الشيخ محمد الشافعي الظواهري، والشيخ محمود

(١) بدع التفاسير /ص١٧٢/، ط٢: مكتبة القاهرة، مصر، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٤م.

(٢) سبيل التوفيق، في ترجمة عبد الله بن الصديق /ص٦٣/.

(٣) حياة مجاهد في الإصلاح /ص٣٣/، مخطوط، وكلية أصول الدين وعميدها الجليل /ص٧٤/، وفهرس مخطوطات مكتبة الأزهر الشريف /١٩/١٥/.

الإمام الذي أقر له الغماري بأنه كان علىٰ هذا النمط، وأنت تجد مثل ذلك في الشمس الأنبابي كما سبق في كلام العلامة ابن خليل التونسي، وتجد مثله في دروس الشيخ بخيت المطيعي بشهادة الغماري نفسه وأشقائه، وتجد مثل ذلك في الشيخ أحمد أبي خطوة وعشرات سواهم.

بل إن شيخ الأزهر الإمام الشيخ عبد الرحمن الشربيني قد جاءت حواشيه وتقريراته وتدقيقاته فائقة علىٰ تحريرات العلامة عبد الحكيم السيالكوتي، علامة الهند في زمانه في العلوم العقلية وغيرها، مما أشاع عند الهنود قبل غيرهم أن حواشي الشربيني محل تقدير وتقديم، لما اشتملت عليه من تدقيق، خصوصًا تقريره علىٰ شرح المطول وحاشيتي السيد الجرجاني وعبد الحكيم، المسماة بـ(فيض الفتاح)، حتىٰ إن جمال الدين الأفغاني ورد علىٰ مجلس درس الشيخ، وأورد عليه أسئلةً وإشكالات ومناقشات، فنثر عليه الشربيني من درر المباحث العالية الدقيقة، فكان الأفغاني بعدها يقول: إنه لم ير بمصر حبرًا مثله.

وتجد مثل هذا في عشرات ومئات من السادة الأزهريين الأجلاء، كما تجد في الأزهريين أيضًا من كان لا يزيد علىٰ حل المتن، وفك عبارته، وتدريس الكتاب في ذاته، ولربما أجاد في ذلك وأفاد، وانتفع به الطلاب، لكنه مستوىٰ من التدريس لا يرقىٰ إلىٰ هذه الدرجة العليا، التي تفك عبارة الكتاب وتشرحه، وتشرح من ورائه بحوث العلم، ونظرياته، وتقاطع أنظار العلماء في تدقيق بحوثه، وفي كيفية صياغة مسائله الصياغة العلمية الدقيقة السالمة من الإيراد والإشكال، وهم في كل ذلك يستخدمون قواعد العلوم المختلفة بكل مهارة وإتقان ودقة.

وصنعة التعليم تحتاج إلىٰ أولئك جميعًا، ولا يمكن أن تنهض أبدًا علىٰ أهل التدقيق البالغ وحدهم، بل لابد من وجود شرائح من العلماء يحسنون الدخول إلىٰ كل شريحة من طلبة العلم بما يليق بحالها، حتىٰ إن أحد إخوة العلامة السيد عبد الله الغماري كان يقر أن انتفاعه الأكبر خلال دراسته في الأزهر كان علىٰ يد واحد من العلماء سلك طريقة مغايرة تماما للطريقة التي يمتدحها السيد عبد الله، فيقول العلامة المحدث السيد عبد العزيز الصديق الغماري: (وقرأتُ الجوهرة بشرح اللقاني علىٰ الشيخ عبد السلام غنيم الدمياطي، في داره، وانتفاعي الأعظم كان بهذا الشيخ؛ فإنني لزمته مدة أربع سنوات، وكنت أقرأ عليه في بيته، وبدأت القراءة عليه قبل ذهابي إلىٰ الأزهر، وكان يعجبني تقريره وشرحه، لأنه كان ضريرا، وكان يملي شرح المتن الذي أقرؤه بما يظهر له، ثم أقرأ عليه الشرح، فآخذ منه معنىٰ المتن إجمالًا، ثم يفصل ويبين مع قراءة الشرح، ولم أنتفع بأحد كما انتفعت به)[1].

فأنت ترىٰ هنا أن الطريقة التي عادت بالنفع، وانفتحت بها مسائل العلم، ونالت الإعجاب الأكبر

(١) تعريف المؤتسي، بأحوال نفسي /ص٣٣.

من أحد علماء البيت الغماري نفسه، كانت هي الطريقة التي لا تكر على طالب العلم بحشد كل ما قيل في المسألة من تدقيقات الشراح وأصحاب الحواشي، وإن كان هذا أيضًا شديد الأهمية في مستوى رفيع من مستويات التدريس، عند من تواتي مواهبه، ويصبر على هذا النمط الصعب من التدقيق.

كما أنك تجد حتما في علماء القرويين من هو من الدرجة الوسطى أو الدنيا من العلماء، ولا يزيد في مجلس تدريسه على فك عبارات الكتاب، دون القفز إلى الأفق الرفيع الذي يصفه العلامة الغماري، فالعبرة هنا بأن ننظر إلى المدرستين ونرى حال الغالب على العلماء فيها، والذي نجزم به أن الغالب على الطبقة الأولى من علماء كل جيل في الأزهر هو إعطاء الدرس حقه من البحث والاطلاع على الكتب المتصلة به، مما يمنح الطالب فهم الكتاب الذي يدرسه، والقفز إلى ما ورائها من مناهج العلم وعلله ودلائله، والقدرة على تطبيقه.

والحكم على منهجية مدرسة من المدارس العلمية يحتاج أولا إلى شيء من الاستقراء لطرائق الأفراد في التدريس، حتى يسفر الأمر عن ظهور الغالب من أحوال العلماء، فيصير هو السمة العامة لتلك المدرسة، ولا يمنع هذا وجود آخرين من العلماء في تلك المدرسة بعينها ليسوا على هذا النمط.

❁ **رابعها**: من الغريب أن ابن خلدون مثلا يسجل شهادة يوازن فيها بين منهجية التعليم في الزيتونة، ومنهجية التعليم في القرويين، فيقدم منهجية الزيتونة، وينتقد منهجية القرويين بنقيض ما يقول به اليوم العلامة الغماري تماما، فيقول: (كانت مدة التلمذة في تونس خمسة أعوام، وفي فاس ست عشرة سنة، وكانت المنفعة في أهل تونس كثيرة، والتقدم ظاهرا، وأهل فاس على خلاف ذلك.

وسببه أن علماء تونس جرت عادتهم أن يسلكوا بالتلامذة مسلك التعقل والتفهم لما تحفظوه، حتى إذا انقضت مدة التعلم خرج التلميذ ومعه محصول معقول مفهوم، يرشده إلى تحصيل ما لم يكن قد حصل له، ولا يعجز إلا عن بعض الأشياء، بحيث متى ردد فكره أو شارك بعض إخوانه فيما خفي عليه واستصعب، تجلى له وانقاد.

وأما أهل فاس فكانت عادتهم أن يأخذوا التلامذة بحفظ الكتب الطويلة، والعبارات العويصة، واللغات الحوشية، دون تعقل، إلا أن يكون التعقل قهريا، بديهيا، أو شبيها به)(١).

وربما قيل إن هذا قد تغير من زمن ابن خلدون إلى زمن الغماري، إلا أن هذا بعينه من جملة الأمور التي لا يمكن الجزم فيها إلا باستقراء واسع لا يعتمد على انطباع فرد أو أفراد.

(١) نقله العلامة الحسين المرصفي في: الوسيلة الأدبية /١/٢٣١/.

خامسها: جودة التعليم في مدرسة من مدارس العلم هي أساس إقبال طلاب العلم من الآفاق، وكلما أتقنت مدرسة من المدارس في تزويد طالب العلم بمسائل العلم ومناهجه والقدرة على تطبيقه وتنزيله على محالِّه ومجالاته كان لها التقديم والسبق، والشواهد مطبقة على تقديم الأزهر في ذلك، من الوافدين من مختلف البقاع، وكلهم وافد إليه من مدرسة لها تاريخ ومنهجية واختيار.

إِضَاءَةٌ

في تحليل العقلية الأزهرية ومكوناتها وآلات التفكير وكيفية صناعة العقول عندها

ثم إنه من المطالب الشريفة الجليلة فهم العقلية الأزهرية بتمامها، ومناهجها، ومفاتيحها، وخلفياتها، ومسالك أعيانها في الاهتداء إلىٰ البحوث والمسائل، وبكل أدواتها، وآلاتها، التي تستعين بها تلك العقلية في فهم العبارة، وتحليلها، وإدراك مضامينها.

ولا شك في أن عقلية الأزهري ـ بمعناه المُطَابَقي ـ قائمة علىٰ جملة من علوم الآلة، وعلىٰ حس لغوي رفيع وعميق، نابع من الإكباب علىٰ علوم اللسان، من نحو، وتصريف، ومعان، وبديع، وبيان، مع شذرات من علم الوضع، وتحريرات الأصوليين في بحوث اللغة، فلا يتصور وجود أزهري خال من تلك العلوم.

كانت العقلية الأزهرية قائمة علىٰ التوازن بين الحفظ والفهم، وبين المعقول والمنقول، والفروع والأصول، وكانت تلح علىٰ الخوض في دوائر العلوم الأزهرية علىٰ اختلاف مجالاتها، وكانت تلك العقلية تعتني بالتصوير، والتكييف، والحكم، والتدليل، والتعليل.

فكان الواحد من علماء الأزهر إذا قرئ عليه المتن يحرص علىٰ لفت النظر إلىٰ الخطوات المنهجية التي يطرقها الماتن وينتهجها، فإذا قرأ السارد قوله: (فإذا قال لامرأته.. الخ) يعلق الشيخ قائلا: (سيصور المسألة)، فيقرأ السارد: (فهو خلع)، فيعلق الشيخ قائلا: (هذا انتقال من التصوير إلىٰ التكييف)، فيقرأ السارد: (وقد اختلف فيه: هل هو طلاق أو فسخ؟.. الخ)، فيعلق الشيخ قائلا: (انتقل إلىٰ الحكم)، فيقرأ السارد: (لقوله تعالىٰ:... الخ)، فيقول الشيخ: (سوف يدلل)، فيقرأ السارد: (من حيث.... الخ)، فيقول الشيخ: (سوف يعلل).

وهكذا تأتي التعليقات الكاشفة عن وعي عميقٍ متوارث منقول، بمسالك السابقين في صياغة العلم، بما تحصل من خلاله الإبانةُ عن وعي الأجيال بمسالك سابقيها في التعبير، وكيفية الانتقال من فكرةٍ إلىٰ فكرةٍ، وتنبيه الأذهان إلىٰ كيفية الفهم عنهم في طرائق تعبيرهم، بحيث إذا ما غابت تلك المفاتيح، وتوقفت عملية تلقينها ونقلها، صار بعدها التراث مستغلقًا كالجلاميد، تقرأه الأذهان الخوالي،

فيبدو لها خاويًا، صلدًا، مستبهمًا، غير قابلٍ للفهم، بينما هو عند توريث المفاتيح يبدو شديد الثراء، حافلًا، معطاءً، فياضًا بالمعاني، الكاشفة عن عمق فكرتهم، وعبقرية تعبيرهم، ومدى انضباط الهيئة الدقيقة لنقل العلم عندهم.

فكانت تلك العقليةُ الرصينةُ تعتني عنايةً شديدةً بالتعليل والتدليل، وكانت تعتني في التعليل بالعلل الثواني والثوالث، وكانت تعتني في التدليل بجهة الدلالة، وكانت لها أدوات تستعين بها في فهم العبارات الواردة في كتب التراث الرصين الدقيق المركز، كمثل تحديد مرجع الضمير، ومرجع اسم الإشارة، والعود على مضمون ما سبق، وأن الحروف تتعاور، وأن الإضافة لأدنى ملابسة، وأن الزيادة في المبنى تدل على الزيادة في المعنى، إلى غير ذلك من أدوات الفهم عندهم.

قال العلامة الشيخ محمد أحمد عرفة في كتاب: (النحو والنحاة): (كان شيوخنا في الأزهر - ﷺ - يُعنَون في دروسهم بفهم نصوص الكتب، وكانوا يجعلون لها حظًّا كبيرًا من الزمن، ربما طغى على حظ العلم نفسه.

وكنا إذا حاورناهم في ذلك قالوا: إنَّ صناعةَ فهم النصوص تجدي عليكم عند استقلالكم بالعمل، وتجعلكم تقفون على أرجلكم، وتأخذون العلوم من معادنها، ولكننا إذا حفظناكم العلوم دون أن نعلمكم هذه الصناعة بقيتم عاجزين عن أن تأخذوا العلم إلا من معلم، ولم تقدروا على الاستقلال بأنفسكم، وكسب العلم دون الاستعانة بأحد، وكانوا يجدون ونجد معهم في سبيل ذلك عنتًا ومشقةً، ولكننا ما لبثنا أن وجدنا جدوى ذلك في أنفسنا؛ إذ صرنا نحصل العلوم من الكتب بأنفسنا، ولا نقتصر من العلوم على ما يدرس بالأزهر، بل جاوزناه إلى علوم قديمة، وأخرى حديثة، كان فيها إرضاء نهمنا العلمي، وحاجتنا الفكرية)(١).

إلى أن قال: (رحم الله شيوخ الأزهر، فقد كانوا أعلم بما يحتاج إليه الباحث في حياته العلمية، وأعلم بأن فهم النصوص هو الأمر الذي يجب أن يبدأ به الباحث، وهو أول خطوة يجب أن يخطوها).

وقد قال الإمام النووي - ﷺ - في: (شرح صحيح مسلم): (مذاكرةُ حاذقٍ في الفن ساعة أنفع من المطالعة والحفظ ساعات بل أياما)(٢).

فكيف بالعكوف على التلقي والمباحثة والمدارسة والمذاكرة والمناقشة لإمامٍ حاذقٍ، وشيخٍ بصيرٍ، كما كان يقع من علماء الأزهر لطلابهم، وكأني بعبارة الإمام النووي - ﷺ - تلخص طبيعة الحركة العلمية في الأزهر الشريف؛ إذ تشتمل مذاكرة الحاذق بالفن على توريثٍ للملكات والمفاتيح، وتبصيرٍ بالمداخل

(١) النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة /ص٧٠/، ط: مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٣٧م.
(٢) شرح النووي على صحيح مسلم /٤٨/١/، ط٢: دار إحياء التراث العربي، بيروت، سنة ١٣٩٢هـ.

والمناهج، التي تصنع عقل طالب العلم، وتضبط أداءه على أداء المحققين من الشيوخ.

وقد أسفر هذا النمط في بناء العقول عن صناعة عقلية فارقة ناقدة، متمكنة من أدوات العلم، ومفاتيح الفهم، وأنهم لا يلقون بالا ولا اهتماما للحفظ والسرد، بل عنايتهم الكبرى منصرفة إلى تحقيق الفهم، حتى قال العلامة علي باشا مبارك وهو يصف طريقة التدريس في الأزهر: (وأكثر اعتنائهم بفهم العبارات وحل التراكيب، والمناقشات والاعتراضات والجواب، والإطلاق والتقييد، والمنطوق والمفهوم، وغير ذلك، من غير اعتناء بالحفظ، فتجد كثيرًا منهم جبلًا في الفهم في الكراس، وإذا سئل من خارج فقلّ أن يجيب لعدم استحضاره)[١].

ولقد كان هذا دأبًا لكل مدرسة علمية جادة في المشرق والمغرب، فانظر مثلا إلى تصرف العلامة الصوفي الزاهد الجليل الشيخ أحمد ناظرين المتوفى سنة ١٣٧٠هـ، والمدرس في المدرسة الصولتية، ثم مدرسة الفلاح الشهيرة، ثم في الحرم المكي الشريف[٢]، قال عنه صاحب (تاج الأعراس): (ومن حسن أسلوبه في التقرير أنه إذا قرأ عبارة قال: «هذه جملة على اسمها ـ أي مجملة ـ، ثم طرح الكراس من يده، وقال: لابد نفكك كلماتها واحدة بعد واحدة، لاجل نشوف إيش حطوا لنا في وسطها»، ثم يأخذ في تحليلها باللغة العامية التي لا يدور حولها إشكال)[٣].

ولقد كانت علوم اللغة من أهم أدوات الأزهريِّ على الإطلاق، فهي المفتاح والعكاز الذي ينطلق منه إلى غيره من العلوم، وما كان الأزهري يخلو قط من علوم اللغة على اختلاف دوائرها، من النحو والصرف والبيان والبديع والمعاني والاشتقاق، لأن علوم الإسلام جميعا فائضة ومنبثقة من القرآن الكريم، والذي هو النص العربي الحكيم المعجز.

فلا بد من شفوف النظر ورهافة الحس بالتعبير العربي، وإدراك خصائصه وأسرار تركيبه ووجوه دلالاته، فمن لم يكن له حظ وافر من علوم العربية فليس بأزهري، وكذلك علم أصول الفقه، فإنه من أجل العلوم الأزهرية الأصيلة التي برع فيها الأزهريون براعة منقطعة النظير، ولهم مع هذا العلم تاريخ عريق جدير بأن يفرد بالتأليف.

قال إمام الحرمين ـ ﷺ ـ في: (البرهان): (وأما الألفاظ فلا بد من الاعتناء بها؛ فإن الشريعةَ عربيةٌ، ولن يستكمل المرء خلال الاستقلال، بالنظر في الشرع، ما لم يكن ريَّانًا من النحو واللغة.

---

(١) الخطط التوفيقية /٤/٦٣/.

(٢) وكان من قواعد مشيخة الحرم المكي أنها لا تأذن لأحد في التدريس في الحرم إلا بعد أن تختبره في اثني عشر علما وينجح فيها، وانظر تاج الأعراس /٢/٦٧٦/.

(٣) تاج الأعراس، في مناقب الحبيب القطب صالح بن عبد الله العطاس /٢/٦٤٠/.

ولكن لما كان هذا النوع فنًّا مجموعًا، يُنتحىٰ ويُقْصَد، لم يُكْثِرْ منه الأصوليون مع مسيس الحاجة إليه، وأحالوا مظانَّ الحاجة علىٰ ذلك الفن، واعتنوا في فنهم بما أغفله أئمة العربية، واشتد اعتناؤهم بذكر ما اجتمع فيه: إغفالُ أئمة اللسان، وظهورُ مقصد الشرع، وهذا كالكلام علىٰ الأوامر والنواهي، والعموم والخصوص، وقضايا الاستثناء، وما يتصل بهذه الأبواب، ولا يذكرون ما ينصه أهل اللسان، إلا علىٰ قدر الحاجة الماسة، التي لا عدول عنها)[1].

ومن ثم فقد تشيَّد الجسرُ الواصل ما بين علوم اللغة وعلم أصول الفقه، وبهما ينسجم ويلتئم مدخل الفهم للوحيين الشريفين ولعبارات العلماء وكتبهم ومناهجهم عمومًا، وقد قال شيخنا العلامة الجليل الشيخ علي جمعة عن كتاب أصول الفقه للعلامة محمد أبو النور زهير: (فكتابه هذا مدخل لجميع كتب التراث في ذلك العلم، ولا أغالي إن قلت: وفي غيره من العلوم)[2].

ومن هنا أولع الأزهريون ولعًا زائدًا باللغة والأصول والمنطق، ودققوا فيها تدقيقًا تامًّا، وبها انفتحت خزائن المعاني والعلوم، ومن لم يكن علىٰ دراية عظيمة بعلوم اللسان العربي وعلم أصول الفقه فليس بأزهري وإن حفظ من الكتب أمثال الجبال، وإن حصَّل من الشهادات الأزهرية أكداسا كالتلال.

إنَّ حركة الأزهر الشريف في بناء العقول كانت حركةً علميةً شديدة الرصانة والعمق، ولها آليات ومناهج موزونة بموازين دقيقة، في صناعة العلم، وإنتاج العلماء، علىٰ نحوٍ بالغ الجودة والإتقان، من ورائه خبرةُ عقودٍ متراكمةٍ، من الاحتكاك بالطباع والعقول والفهوم والأمزجة، أثمر عند الشيوخ الأزهريين اصطناعَ أساليب مقننة، ومسالك محددة، في كيفية استفتاح العقول، وتلقيح الفهوم بالمعارف، حتىٰ نشأ ونما بذلك إسنادٌ علميٌّ عريقٌ، حافلٌ بالخبرات المتراكمة في صنعةِ التعليم، ونقلِ العلوم من جيل إلىٰ جيل، مع ما يحيط بتلك العلوم من حَرَمٍ معرفي، تتربع فيه القواعدُ والمسائل والمناهج علىٰ قمة جبلٍ من المسالك والأساليب الموفقة في توريث العلم ونقله.

ولقد كانت تلك المجالس العلمية الأزهرية تحفل بالبحوث والمناقشات، التي تتفَتَّح فيها أذهانُ أذكياء الطلبة، وتسأل وتستفهم، وتستكشف وتستوضح، وتناقش وتعلل، وتستجلي، وتعرض الأفهام اللائحة لهم علىٰ الأساتذة.

وللأساتذة في كل ذلك صيال وإقبال، وتدقيق وتحرير، وحرص علىٰ التفهيم، واستماع لما يجري بين الطلبة من تشقيق للمسائل، بحيث يشرف العلماء علىٰ الطلبة، وهم يستحضرون الأدوات التي حفظوها، من العلوم المختلفة، ويرقبون الطلبة وهم يقومون بإجراء الأدوات واستحضارها وإعمالها في المسائل.

(١) البرهان /١/١٦٩/، ط: مطابع الدوحة الحديثة، قطر، سنة ١٣٩٩هـ، تحقيق: العلامة عبد العظيم الديب.
(٢) من مقدمة فضيلته لكتاب: أصول الفقه للعلامة الشيخ أبو النور زهير /١/٤/.

ويرون العقول وهي تُقْدِم ـ وجلةً خائفةً ـ على التفكير، وأدواتُ العلوم وقواعدها تهتزُّ وتضطرب وتَمِيدُ في أيديهم، وهم يُقْدِمون ويُحْجِمون، ويَضْرِبون بأدوات العلوم في المسائل، ثم يتراجعون مشفقين من الزلل.

ولا يزال الأستاذ يصبر حتى يستقيم منهج الفكر للطالب، ويَمْرُن على استحضارها، وتنزيلها على مسائلها، ويكتسب جرأة موزونة في استحضار القواعد المتفرقة من المنطق والبلاغة والنحو والأصول، ويمارس مزجها وإعمالها، ويراقب النتائج المتحصلة لهم من جراء ذلك.

ثم ينفسح لهم باب آخر من النظر العلمي في غاية العجب، وهو الاقتدار على عرض نتائج الأفهام التي استنبطوها على كليات العلم ومسائله، حتى تحصل الطمأنينة إلى أن ما استُخرِج مُتَسِقٌ مع بقية بحوث العلم، غير منافرٍ لها، ولا مصادمٍ لشيء منها.

ثم ينتقل الشيوخ بطلابهم إلى النظر في كيفية التعبير الدقيق، عن تلك المعاني والنتائج، حتى تأتي العبارة مستوعبة للمعنى على نحو مطابق، لا فضول فيه ولا حشو، بحيث لا يوهم خلاف المعاني المرادة، ولا تكون الألفاظ فضفاضة قلقة، تزِلُّ معها أفهام السامعين في إدراك المعنى المقصود، فكان يحملهم هذا الهاجس من دقة الصياغة في إيصال المعنى بعينه دون إيهام، على الصياغة الموزونة الدقيقة، التي تراعى فيها طرق الدلالة، ومدلولات الألفاظ والتراكيب.

قلت: ولقد كان يسري إلى طالب العلم من خلال ذلك كله نَفَسٌ رفيع، وإلمامٌ عام، من الفهم الإجمالي الذي يستشف به مقاصد الشرع الشريف، ويدرك به كلياته ونظرياته الكبرى، ودوائر علومه ومعارفه، فلا يحصل له استغراق في الفروع والجزئيات، حتى تتضخم في نظره، وتنقلب هي بذاتها إلى مقاصد، يُخْتَزَل فيها الدين كله.

بل إن العملية التعليمية السابقة كانت كفيلة بالكشف عن حقائق هذا الدين، وكيف تنحدر الفروع فيه من أصولها، والجزئيات من كلياتها، كما تنبثق أوراق الشجرة عن أصلها وجذعها، من خلال فروعها وأغصانها، فالجذع مقاصد الدين وغاياته، والأوراق المسائل والأحكام الجزئية، والأغصان المناهج والأدوات العلمية، بحيث لا تغيب المقاصد، ولا تتضخم الفروع.

فيتخرج طالب العلم بهذا النسق التعليمي وقد فهم عن الله تعالى، واتسع مشهده ليرى كيف تنتظم الأحكام والفروع الفقهية في الرصف والبناء والتحصيل للكليات والمقاصد.

قال العلامة الشيخ محمود الديناري: (إن أكبر خصيصة للتعليم الأزهري هي تحكيم العقل، والإرباء بالنفس عن ذل التقليد، وإجادة تحصيل معاني كتاب الله، والتوسع في الاطلاع على السنة الشريفة،

والتبصر في أحكام الشريعة أصولا وفروعا، والاستعانة على ذلك بالمذاكرات مع الزملاء، والتلقي عن الأساتذة، بطريق المشاركة في تقرير المسائل على وجهها)[١].

ولقد انطوت تلك المهارات العلمية، والمسالك الفنية العميقة في تكوين العلماء، بانطواء مجالس التعليم، عند نشأة الكليات، واستشعر العلماء أنَّ عددًا من المناقشات والمباحثات والتنقيحات، والتبصير بالمعاني والدلالات، وتدريب الطلبة على مسالك الفهم، وتوريث العلم لهم بتمامه، قد بدأ يزول ويُفتقد، فاجتهدوا في نقل طرف من ذلك إلى الورق، فصارت طبقة الشيخ عبد المتعال الصعيدي، والشيخ محيي الدين عبد الحميد وأضرابهم، يخرجون الكتب مشتملة على شرح المعنى الإجمالي، وتلخيص القواعد، والتمرينات والتطبيقات والتدريبات، عسى أن ينهض ذلك ولو بطرف مما ألفوا جريانه في مجالس العلم.

وقد كانت تلك المسالك الدقيقة تطبع صاحبها بطابعٍ معرفيٍّ له سمتٌ خاصٌّ، حتى صار من ينبغ في العلم في المشرق والمغرب يجري تشبيهه بالأزهريين وإن لم يكن منتظما للدراسة في صفوف الأزهر، حتى قال الأستاذ الأديب علي مصطفى المصراتي: (وعلمت أن الشاعر ابن زكري ت١٣٣٦هـ لم يكن أزهريا، ولكني عجبت من هذه الظاهرة عندما وجدته ينظم في النحو منظومة يعارض بها ابن معطي وابن مالك، فهو أزهري وإن لم يذهب إلى الأزهر)[٢].

ونظيره ما وقع لعالم قرية طبقة: العلامة المعمر مئة سنة الشيخ محمد الأزهري، حيث لقبه شيخه الإمام محمد بن علي السنوسي بالأزهري لنبوغه، رغم أنه لم يدخل الأزهر، قال العلامة الشيخ الطاهر الزاوي: (ولم تكن له رحلة للعلم، وكان يُضرب بعلمه المثل، فيقال: «عالم طبقة»، ولنباهته في العلم سماه الأستاذ محمد بن علي السنوسي «الأزهري» وإن كان لم يذهب إلى الأزهر)[٣]، وقال ناصر الدين محمد الشريف: (وشهر بالأزهري لعلمه وغزارة فقهه)[٤].

مما يدل على استقرار العرف العلمي عند علماء المشارق والمغارب، أن الأزهر هو معقل العلم، ومظنة صناعة النبوغ، فمهما نبغ عندهم عالم فإنه يذكرهم بالأزهر ونبوغه.

والخلاصة أن وظيفة الأزهر في الأساس هي الحفاظ على العقلية العلمية الخادمة للوحي الشريف، في دوائرها ومجالاتها العلمية المختلفة، والعكوف على تحويلها إلى رجال مؤهلين، قد استوت عقولهم وملكاتهم ومواهبهم وتشبعت بتلك العلوم والمناهج، ليقتدروا هم بدورهم على تحويل علومهم إلى مواقف

(١) الجامع الأحمدي شقيق الجامع الأزهر /ص٦٣٨/.
(٢) أعلام من طرابلس /ص١٨٠/، ط: مطبعة ماجي، طرابلس، سنة ١٩٥٥م.
(٣) أعلام ليبيا /ص٣٦٧/، ط٣: دار المدار الإسلامي، بيروت، سنة ٢٠٠٤م، والجواهر الإكليلية، في أعيان علماء ليبيا من المالكية /ص٣٢٥ ـ ٣٢٧/، ط: دار البيارق، الأردن، سنة ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.
(٤) الجواهر الإكليلية، في أعيان علماء ليبيا من المالكية /ص٣٢٥/.

مشهودة، تنير العقول، وتثبت اليقين، وتفند الأوهام والشكوك، وتظهر الشجاعة والجراءة في مواقف الخوف والفزع.

قال الأستاذ الشيخ محمد المهدي محمود علي: (إن مهمة الأزهر لم تكن تخريج مدرسين ومعلمين فقط، وإنما تنتظم ـ في أول ما تنتظم ـ أمرين، هما أهم ما يجب أن يناط بالأزهر، بل هما أساس رسالته، والعنصر الأول الذي يحقق وجوده ومعناه:

أولهما: تخريج علماء مبرِّزين، أرباب بحث واجتهاد سليم، وابتكار مفيد، ونقد سليم في جميع نواحي الفكر الإسلامي، ومن هؤلاء نرى الأئمة، والمصادر التشريعية والأخلاقية الكبرى، الذين يرجع إليهم في معرفة ما هو من الإسلام وما ليس من الإسلام.

وثاني المهمتين: تخريج دعاة ومرشدين، أقوياء في العلم والإدراك والتدين، لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن الدعوة إلى الله، وتقرير الحق والتضحية في سبيله رائدهم، وتهذيب النفوس وتقويمها هدفهم، وإصلاح البشرية وتوجيهها إلى ما يسعدها أقصى ما يبتغون)[١].

قال الأستاذ لبيب الرياشي في مقال له في مجلة الرسالة سنة ١٩٣٦م: (على أن ينتخب الأزهر طلابًا من أولي الشعور الخصب، وأولي العزم، والذكاء العميق، والتحسس الضميري، عشاق التضحية، وعشاق الحق، يثقفهم ثقافة كاملة شاملة.

ينتخب الأزهر طلابه من الشبان، ممن اكتملت صفاتهم تلك، ليتعلموا مع علم الدين وشرعة الرسول وسنته وسيرته واللغة العربية: اللغات الحية العالمية، ويدرسوا الأديان العالمية، وتاريخها وفلسفتها وأساطيرها)[٢].

والشاهد أن هذه نبذة يسيرة من مسالك الأزهر في صناعة العقول، وتنويرها بأنوار العلم، وقد توسعت في تقرير هذا المبحث وشرحه، في أوائل الكتاب الذي سميته: (المقتطف من فوائد الحواشي)، ونسأله الله تعالى كمال الإعانة على الإبانة عن الكنوز المعرفية الثمينة المدخرة في مناجم الأزهر الشريف.

(١) المصابيح المباركة: القرآن الكريم، شهر مضان، الأزهر الشريف /ص٤٣/، ط: مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة.
(٢) مجلة الرسالة /العدد ١٤٨/ص٧٤٠/، الصادر بتاريخ ١٣ صفر، سنة ١٣٥٥هـ ـ ٤ مايو، سنة ١٩٣٦م.

إضَاءَةٌ
في ماهية المنهج الأزهري

ولابد هنا من الخوض في المنهج الأزهري وماهيته ومكوناته ومعالمه وغاياته، وهذا شأن دقيق، يحتاج إلىٰ استقراء تاريخ التعليم في الأزهر بالكلية، وتراجم علمائه لملاحظة تفاصيل دراستهم وحياتهم العلمية وعلاقتهم بشيوخهم، مع دوائر العلوم التي يجري تدريسها لمنح العالمية فيها، ومشتملات تلك الكتب وفحواها واختياراتها، مما استقر اختيار الأزهر عليه، عبر تجربة تعليمية طويلة وعريقة وممتدة علىٰ مدىٰ قرون، قام فيها الأزهر بانتقاء واستصلاح واستخلاص مناهجه من خلال عشرات التجارب التعليمية الطويلة الأمد، والتي جُرِّبتْ فيها مناهج التدريس والكتب وطرائق التعليم، علىٰ عقول كثيرة جدا، جاءت من بيئات مختلفة، ذات مداخل معرفية متنوعة، من أقصىٰ الملايو والهند والصين، إلىٰ أقصىٰ الغرب الأفريقي، مرورًا بالحضارم والأكراد والأتراك والجبرت والشوام، مما أوجد أمامنا ثراءً في اختبار العلوم والكتب وطرق التعليم، التي يمكن أن تثبت نجاحًا في توصيل العلوم وصناعة العقول، رغم هذا التنوع في الأجناس والبيئات الاجتماعية والثقافية التي يَفِدُ منها أولئك الدارسون، مع مراعاة الفروق الفردية التي توجب اتساعا في إجراءات التعليم لتغطية الخريطة الذهنية الواسعة بقدر اتساع مداخل الفهم وتفاوتها عند الدارسين.

فلم تزل تلك التجربة تنضج بصبرٍ وأناةٍ، ويتم اختبار عشرات المقررات الدراسية والكتب والمؤلفات، مع مراقبة مدىٰ نجاحها في تحقيق مقصود عملية التعليم وصناعة العالم المتخرج علىٰ النحو المراد، والذين كانوا يقومون بتلك التجربة طبقات متعاقبة من عباقرة العلم والتعليم، المتبحرين في علومهم، المنقطعين لها، المتمكنين منها، المحيطين بغايات تلك العلوم ومقاصدها، المنتبهين إلىٰ المقاييس والمعايير التي يثبت من خلالها أن ذلك الدارس، قد حصل تلك العلوم، من خلال تلك الكتب، علىٰ ذلك النحو المقصود، ويمكن عند اعتصار ذلك كله تجريد معنىً كلي يسمىٰ المنهج الأزهري.

وقد أسفر هذا عن وجود عدد من الاختيارات العلمية، التي أطبقت تلك التجربة العلمية التعليمية الفريدة علىٰ صحة نتائجها وإجراءاتها، فصار المنهج الأزهري قائما علىٰ أربع دوائر معرفية، كل دائرة منها مخدومة بعدد من العلوم:

◉ **الدائرة الأولى: دائرة الفهم والإفهام**، وتحتها علم النحو، وعلم الصرف، وعلم المعاني، وعلم البديع، وعلم البيان، وعلم الاشتقاق، ويتم تدريس كتبها المنتقاة على مستوى المبتدئ ثم المتوسط ثم المنتهي، مع الحرص على وضوح غرضها، وأنه يصنع ملكة ويفتح عينًا في الذهن يقتدر الدارس من خلالها على فهم التركيب العربي الفصيح، ومعرفة فلسفته، ونسقه، ومعهود خطابه، تمهيدًا لاقتداره على فهم التركيب العربي المعجز، والذي هو القرآن الكريم، ثم السنة المشرفة.

وكان من أجل المطالب عندهم حشد أدوات العلوم التي تعين الطالب الأزهري على الفهم، فيؤلف العلامة الجليل عمر بن علي بن يحيى الطحلاوي ت١١٨١هـ متنًا لطيفًا في ورقات سماه: (غاية الإحكام، في آداب الفهم والإفهام)، ثم يدفعه إلى العلامة الأمير الكبير طالبًا منه أن يشرحه، فكتب عليه الأمير شرحًا لطيفًا اسمه: (ثمر الثُّمام، شرح غاية الإحكام، في آداب الفهم والإفهام).

فامتزج من مجموع الكتابين تمهيد مسالك المعرفة، وبرزت هذه الثمرة الأزهرية الجليلة، التي تجعل قضية الفهم والإفهام مدار عمل طائفة من العلوم الأزهرية، وأنها تتناسق وتتجاور وتمتزج، حتى ينقدح من مجموعها عند طالب العلم حس رفيع بكيفية استخراج المعاني من الألفاظ، ووجوه دلالة الألفاظ على المعاني، ومستويات تلك الدلالة.

وكتب شيخ الأزهر الشيخ محمد الأحمدي الظواهري كتابًا اسمه: (الكلمة الأولى في علم آداب الفهم)، وهو علم اخترعه وجعله بمثابة ميزان دقيق، أو قانون كلي لرفع الخلاف القائم بين المتأخرين في فهم آراء المتقدمين.

قال العلامة عمر الطحلاوي في (غاية الإفهام): (وقد يصعب فهم الكلام من المبالغة في اختصاره، فالذي يعين على فهمه مطالعة المبسوطات، ولا يقتصر على مطالعة مصنَّفٍ أو مصنفين مثلا، فقد يهمل بعض المصنفين قيود المسائل، فلابد من الإكثار من مطالعة المصنفات التي لا يجتمع مثلها لكثرتها على ترك شيء من القيود، فمن استعمل هذا كله حين المطالعة، خرجت له المعاني التي تحت الألفاظ طائعة)[1].

حتى يقول بعد صفحة: (ومما يعين على فهم صعب المسائل استحضار الأصول التي تتفرع منها، ومن عادة شيخنا ـ حفظه الله تعالى ـ إذا أراد أن يقرر كلاما صعبًا أن يقول: «أقدم لكم مقدمة»، أو «هذا الكلام لا يتبين إلا بتقديم مقدمة»).

وهو يقصد بشيخه المذكور العلامة الإمام الشيخ نور الدين علي بن أحمد الصعيدي العدوي

(١) غاية الإحكام، في آداب الفهم والإفهام /ص٦٦/، (المطبوع في صدر كتاب: ثمر الثمام، شرح غاية الإحكام، في آداب الفهم والإفهام)، ط: دار المنهاج، جدة، سنة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

المنسفيسي، شيخ العلماء الأزهريين في زمانه.

ثم انتقل بعد الفهم إلىٰ الإفهام، فقال بعدها مباشرة: (فإذا فهمتَ المعاني وأردت تفهيم غيرك فآداب ذلك أن تبين المعاني الداخلة تحت الألفاظ، ثم المعاني الدقيقة، بما عرفته من الآداب، ولا تتبع الأقوال، فمن تتبعها لم يأت منه فائدة).

حتىٰ يقول في آخر الكتاب: (ولكن جملة القول: أن آداب الفهم: التدبر والتأمل، وآداب التفهيم: التفكير والتذكير)(١).

فهذه ثمرات من حرص الأزهريين علىٰ قضية الفهم والإفهام، تبين لك أن هذا أحد المقاصد العليا لعملية التعليم عندهم، وأنهم لأجل تحقيقها وصقلها في العقول كانوا يحشدون لذلك عددًا من العلوم، ويراعون عند تدريسها أن تؤدي بالعقول إلىٰ هذا المقصد.

قال العلامة الشيخ محمد أحمد عرفة المتوفىٰ سنة ١٣٩٢هـ، الموافق سنة ١٩٧٣م، في كتاب: (النحو والنحاة): (كان شيوخنا في الأزهر - ﷺ - يعنون في دروسهم بفهم نصوص الكتب، وكانوا يجعلون لها حظًّا كبيرًا من الزمن، ربما طغىٰ علىٰ حظ العلم نفسه، وكنَّا إذا حاورناهم في ذلك قالوا: إنَّ صناعةَ فهم النصوص تجدي عليكم عند استقلالكم بالعمل، وتجعلكم تقفون علىٰ أرجلكم، وتأخذون العلوم من معادنها، ولكننا إذا حفظناكم العلوم دون أن نعلمكم هذه الصناعة بقيتم عاجزين عن أن تأخذوا العلم إلا من معلم، ولم تقدروا علىٰ الاستقلال بأنفسكم، وكسب العلم دون الاستعانة بأحد، وكانوا يَجِدُون ونَجِدُ معهم في سبيل ذلك عنتًا ومشقةً)(٢).

وكلامه هذا يبين أن المنهج الأزهري كان يعتني بالمناهج دون المسائل، وكان يعتني بصناعة العقول، وكان يعتني بقضية الفهم والتفهيم.

۞ **الدائرة الثانية: دائرة التوثيق والثبوت**، وتحتها الحديث، وعلوم المصطلح والرجال والجرح والتعديل، وعلم السيرة النبوية، والتاريخ، وعلم آداب البحث والمناظرة، مما يتوصل الدارس من خلاله إلىٰ الإلمام بالجهد الخارق الذي قامت به أمة الإسلام في تلك العلوم الفريدة، صيانة للوحي الشريف، وضمانًا لسريانه من جيل إلىٰ جيل مصونًا محفوظًا، لا تتسرب إليه أفهام البشر ولا تصوراتهم.

۞ **الدائرة الثالثة: دائرة الحجية والتحليل**، وتحتها علم الكلام، وعلم المنطق، وعلم أصول الفقه، وعلم المقولات العشر، مما يقتدر معه الباحث من معرفة الحجج في دين الله، ومراتب تلك

(١) غاية الإحكام /ص٦٩/.
(٢) النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة /ص٧٠/.

الحجج، وأنواعها العقلية والنقلية، ومستويات دلالاتها على مقاصدها وتوصيلها إلى نتائجها، وكيفية الاستفادة منها.

◈ **الدائرة الرابعة: دائرة بناء الإنسان،** ومعرفة الأحكام والآثار والشرعية المترتبة على تصرفاته الظاهرة والباطنة، فالظاهرة في علم الفقه وربطه بمقاصده التربوية، والباطنة في مقاصد العقائد وعلم التزكية والسلوك والأخلاق.

وقد أسفر ذلك كله عن وجود منهج أزهري، من معالمه أنه يحافظ على اتصال السند العلمي رواية ودراية وتزكية، ومنها أنه يحافظ على معرفة العلوم في آلاتها وغاياتها، ومنها إدراكه لمقاصد الدين وغايات الشرع، ومنها حسن تنزيله للوحي الشريف على الواقع.

هذا إذا أردنا الحديث عن دوائر العلوم الأزهرية الأصلية التي هي مدار منح شهادة العالمية، وإلا فالعلوم المذكورة بدوائرها المذكورة كلها دائرة واحدة من ثلاث دوائر، بها تنتظم العقلية العلمية وتستوفي أدوات النظر العلمي الراجح المنتج، وهي دائرة العلوم الخادمة للنص، ودائرة علوم الواقع، ودائرة العلوم الرابطة، أما علوم الواقع فهي منظومات ودوائر ومجالات من العلوم التطبيقية، لابد منها لصناعة الحضارة.

وقد ظل الأزهر يدرس تلك العلوم إلى زمان قريب، قال جرانجية: (ففي القاهرة كلية عظيمة اسمها الأزهر، يدرس فيها المنطق والفلك والتاريخ، بها رؤساء المذاهب الأربعة، لهم الهيمنة والنفوذ، ورغم أن الأزهر يخضع للسلطان العثماني، إلا أنه له استقلاله في الإدارة الداخلية)[1].

---

(١) مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر /ص٢٧٤/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة تاريخ المصريين: ٥٢، سنة ١٩٩٢م.

المنسفيسي، شيخ العلماء الأزهريين في زمانه.

ثم انتقل بعد الفهم إلىٰ الإفهام، فقال بعدها مباشرة: (فإذا فهمتَ المعاني وأردت تفهيم غيرك فآداب ذلك أن تبين المعاني الداخلة تحت الألفاظ، ثم المعاني الدقيقة، بما عرفته من الآداب، ولا تتبع الأقوال، فمن تتبعها لم يأت منه فائدة).

حتىٰ يقول في آخر الكتاب: (ولكن جملة القول: أن آداب الفهم: التدبر والتأمل، وآداب التفهيم: التفكير والتذكير)[1].

فهذه ثمرات من حرص الأزهريين علىٰ قضية الفهم والإفهام، تبين لك أن هذا أحد المقاصد العليا لعملية التعليم عندهم، وأنهم لأجل تحقيقها وصقلها في العقول كانوا يحشدون لذلك عددًا من العلوم، ويراعون عند تدريسها أن تؤدي بالعقول إلىٰ هذا المقصد.

قال العلامة الشيخ محمد أحمد عرفة المتوفىٰ سنة ١٣٩٢هـ، الموافق سنة ١٩٧٣م، في كتاب: (النحو والنحاة): (كان شيوخنا في الأزهر - ﷺ - يعنون في دروسهم بفهم نصوص الكتب، وكانوا يجعلون لها حظًّا كبيرًا من الزمن، ربما طغىٰ علىٰ حظ العلم نفسه، وكنَّا إذا حاورناهم في ذلك قالوا: إنَّ صناعةَ فهم النصوص تجدي عليكم عند استقلالكم بالعمل، وتجعلكم تقفون علىٰ أرجلكم، وتأخذون العلوم من معادنها، ولكننا إذا حفظناكم العلوم دون أن نعلمكم هذه الصناعة بقيتم عاجزين عن أن تأخذوا العلم إلا من معلم، ولم تقدروا علىٰ الاستقلال بأنفسكم، وكسب العلم دون الاستعانة بأحد، وكانوا يَجِدُون ونَجِدُ معهم في سبيل ذلك عنتًا ومشقةً)[2].

وكلامه هذا يبين أن المنهج الأزهري كان يعتني بالمناهج دون المسائل، وكان يعتني بصناعة العقول، وكان يعتني بقضية الفهم والتفهيم.

◉ **الدائرة الثانية: دائرة التوثيق والثبوت**، وتحتها الحديث، وعلوم المصطلح والرجال والجرح والتعديل، وعلم السيرة النبوية، والتاريخ، وعلم آداب البحث والمناظرة، مما يتوصل الدارس من خلاله إلىٰ الإلمام بالجهد الخارق الذي قامت به أمة الإسلام في تلك العلوم الفريدة، صيانة للوحي الشريف، وضمانًا لسريانه من جيل إلىٰ جيل مصونًا محفوظًا، لا تتسرب إليه أفهام البشر ولا تصوراتهم.

◉ **الدائرة الثالثة: دائرة الحجية والتحليل**، وتحتها علم الكلام، وعلم المنطق، وعلم أصول الفقه، وعلم المقولات العشر، مما يقتدر معه الباحث من معرفة الحجج في دين الله، ومراتب تلك

(١) غاية الإحكام /ص٦٩/.
(٢) النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة /ص٧٠/.

الحجج، وأنواعها العقلية والنقلية، ومستويات دلالاتها على مقاصدها وتوصيلها إلى نتائجها، وكيفية الاستفادة منها.

◈ **الدائرة الرابعة: دائرة بناء الإنسان،** ومعرفة الأحكام والآثار والشرعية المترتبة على تصرفاته الظاهرة والباطنة، فالظاهرة في علم الفقه وربطه بمقاصده التربوية، والباطنة في مقاصد العقائد وعلم التزكية والسلوك والأخلاق.

وقد أسفر ذلك كله عن وجود منهج أزهري، من معالمه أنه يحافظ على اتصال السند العلمي رواية ودراية وتزكية، ومنها أنه يحافظ على معرفة العلوم في آلاتها وغاياتها، ومنها إدراكه لمقاصد الدين وغايات الشرع، ومنها حسن تنزيله للوحي الشريف على الواقع.

هذا إذا أردنا الحديث عن دوائر العلوم الأزهرية الأصلية التي هي مدار منح شهادة العالمية، وإلا فالعلوم المذكورة بدوائرها المذكورة كلها دائرة واحدة من ثلاث دوائر، بها تنتظم العقلية العلمية وتستوفي أدوات النظر العلمي الراجح المنتج، وهي دائرة العلوم الخادمة للنص، ودائرة علوم الواقع، ودائرة العلوم الرابطة، أما علوم الواقع فهي منظومات ودوائر ومجالات من العلوم التطبيقية، لابد منها لصناعة الحضارة.

وقد ظل الأزهر يدرس تلك العلوم إلى زمان قريب، قال جرانجية: (ففي القاهرة كلية عظيمة اسمها الأزهر، يدرس فيها المنطق والفلك والتاريخ، بها رؤساء المذاهب الأربعة، لهم الهيمنة والنفوذ، ورغم أن الأزهر يخضع للسلطان العثماني، إلا أنه له استقلاله في الإدارة الداخلية)[1].

(١) مصر في كتابات الرحالة والقناصل الفرنسيين في القرن الثامن عشر /ص٢٧٤/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سلسلة تاريخ المصريين: ٥٢، سنة ١٩٩٢م.

إِضَاءَةٌ

في الفرق بين المنهج الأزهري وبين الكتب والمقررات الدراسية، وأن المقررات والكتب لابد من تغييرها كل حين حتى تظل قادرة على توصيل المنهج

هناك فارق مهمٌ ودقيقٌ بين منهج الأزهر، وبين المقررات والكتب الدراسية المتداولة للتدريس في رحابه.

أما المنهج فهو: أمرٌ كليٌّ، ومبادئ عليا، وطريقة تفكير منيرة، وإطار يضبط التفكير من الشطط، ويعلمه الاستقامة في استنباطه وفهمه، وأدوات تعين على تحقيق ذلك كله، وهذا المنهج مرتبط بالوحيين الشريفين، كاشف عن مقاصدهما، ويتدرب عقل طالب العلم عليه من خلال مداخل ومقدمات علمية، تمكنه من اعتصار المنهج واستخلاصه من مختلف الجزئيات من الكتب والمقررات الدراسية التي يجري تدريسها للطالب.

ولهذا المنهج معالم، منها ترتيب عقل طالب العلم وتنسيق طريقة تفكيره، والتدريب على معرفة مراتب الأدلة النقلية والعقلية، والتمرس بكيفية استخراج جهات الدلالة، ومعرفة الفرق بين القطعي والظني، والمحكم والمتشابه، والفرق بين المناهج والمسائل، والفهم والتفسير والتطبيق، ويمكن الوصول إلى ذلك بالتدريب على ربط خطاب التكليف بخطاب الوضع في كل مسألة، والمهارة في معرفة قوانين اللسان العربي للتمكن من فهم النص المعجز الذي هو القرآن، وأن الوصول إلى ذلك كله لابد فيه من صنعة دقيقة ومهارات لا يمكن الوصول إليها إلا بالتدريب على يد أستاذ خبير متقن، وأن تشغيل كل ذلك من خلال العلوم الأزهرية يجعلنا نرى بوضوح مقاصد الشرع الشريف، ويوصلنا حتمًا إلى حفظ الأنفس والعقول والأديان والأموال والأعراض، والتحلي بمكارم الأخلاق الرفيعة، وإدراك أن الرحمة هي سر الشريعة ومدارها، وأن الإنسان كلما ازداد علمًا وتبحرًا في مواريث النبوة ازداد نبلًا وأخلاقًا وأدبًا وذوقًا وحكمة، وأن هذا الدين يملأ صدور الناس وضوحًا وراحةً وجمعا للشمل، وأنه لا يمكن بحال أن يُلقي بالناس في الحيرة والرعب والانقسام والصدام، وأن هذا المنهج يوصلنا حتمًا إلى حب الأوطان، والتفاني في حمايتها وأمانها، وأن هذا المنهج يجعلنا نرى دين الله صافيًا كأصله، نقيا كجوهره، ويجعلنا نزيل عنه كل ما يعلق به من الأفهام المنحرفة والمناهج المضطربة، فهذه هي أبعاد منهج الأزهر وتضاريسه ومعالمه.

أما المقررات فهي الكتب التي تجتهد في توصيل هذا المنهج والتعبير عنه، وتجتهد في تقديم عدد من المسائل والبحوث العلمية التي تبني عند الطالب المقدرة على الوصول إلى هذا المنهج.

وهذا المنهج هو أساس تميز الأزهر عن بقية مدارس العلم التي تدرس علوم الإسلام، وهو الذي عكف الأزهر على توصيله إلى العقول الوافدة إليه، فظلت على مدى ألف سنة تتلقى العلم فيه، وترجع إلى بلادها، فلا تتسبب في إراقة الدماء، ولا تدمير الأوطان ومعاداتها، ولا الانشقاق والصدام بين الناس، بل كانت حصيلة أدائهم وعملهم تؤدي إلى عموم الأمان، ونزع الثارات والأحقاد من بين الناس، وتنوير العقول بحب العلم والشغف به، والدفاع عن الأوطان وحفظ كرامتها ومكانتها.

فصار عندنا منهج للأزهر، يتم تدريسه وتوريثه من خلال مقررات دراسية، والمقررات الدراسية من الكتب وغيرها هي وعاء ذلك المنهج، وتظل صالحة للتدريس ما دامت قادرة على توصيل ذلك المنهج للعقول، فإذا حصل عارض جعلها مثار تشويش للمنهج العلمي في الذهن جرى تغييرها واستبدالها، والعدول عنها إلى غيرها من الكتب والمقررات التي تصلح للتوصيل.

ويتم التغيير انتقاءً واستبدالا في كل مدة زمنية بما يحقق توصيل ذلك المنهج إلى العقول، وبما يساعد المنهج على صناعة العالم الأزهري المتمكن، فالمنهج الأزهري ثابت؛ لأنه خلاصة تجربة ممتدة، نضجت وتبلورت على مدى قرون، والمقررات الدراسية متغيرة، ومعيار تغيرها مدى التناسب بينها وبين قوى الطالب، ومدى التناسب مع طبيعة المجتمع، ومدى الاستيعاب لأسئلة العصر ومشكلاته وفلسفاته، ومدى الوفاء بخدمة ذلك المنهج وتحويله إلى علم يتدفق للعقول ويصنع فيها البصائر المعرفية.

وخذ عندك نموذجًا لذلك في قول وكيل الأزهر العلامة الشيخ محمد شاكر في: (تقرير مشيخة علماء الإسكندرية عن أعمالها في سنة ١٣٢٢هـ الدراسية): (جرت العادة في الجامع الأزهر وغيره بتدريس شرح الطائي أو منلا مسكين على متن الكنز للحنفيين، بعد قراءة شرح مراقي الفلاح، وكلاهما لا تناسب بينه وبين قوى الطلاب، أما الأول فاختصاره الشديد يكاد يلحقه بالألغاز، وأما الثاني فمن كتب الخلاف، التي لا تليق بالمبتدي، وربما نقل في المسألة الواحدة رأي الإمام أبي حنيفة، ورأي أبي يوسف، ورأي محمد، ورأي زفر، ورأي الإمام مالك، ورأي الإمام الشافعي، وربما زاد ابن أبي ليلى وغيره، ولذلك رأينا أن نستبدل بهما متن القدوري، وهو كتاب سهل المأخذ، سهل التعبير، يكاد لا يحتاج إلى شرح يفسره)[1].

بل ورد في قرارات مجلس الأزهر الأعلى في جلسته المنعقدة بتاريخ الأحد ٣ رجب سنة ١٣٣١هـ

(١) تقرير مشيخة علماء الإسكندرية، عن أعمالها في سنة ١٣٢٢هـ الدراسية /ص٣٣/، ط: مطبعة المؤيد، مصر، سنة ١٣٢٣هـ.

الموافق ٨ يونيه سنة ١٩١٣م عرض مطول للمذكرة المقدمة من شيخي معهدي الإسكندرية وطنطا بأسماء الكتب المقترح إعادة تقسيمها على السنوات، أو الكتب المقترح تبديلها بكتب أخرى أنسب[(١)].

بل رفع معهد طنطا مذكرة لمجلس الأزهر الأعلى في جلسته المنعقدة بتاريخ الثلاثاء ١٣ المحرم سنة ١٣٣٣هـ، الموافق أول ديسمبر سنة ١٩١٤م اقتراحًا بتشكيل لجنة من ممثلي المعاهد الكبرى في آخر كل عام دراسي لفحص مناهج التعليم والمقررات والكتب واقتراح ما عسى أن تُظهِرَ حالة الدراسة لزوم تعديله[(٢)].

مما يدل على أن الممارسة الفعلية للتدريس ترصد على الدوام ما يطرأ على الطلاب وتكوينهم التعليمي السابق وواقع زمانهم وما يطرأ فيه من إشكالات وسؤالات وفلسفات، مما يلزم أن يحصل بإزائه تعديل مستمر في الكتب والمقررات، بحيث تحافظ على وصول المنهج الأزهري الرصين إلى عقولهم، وفق المداخل التي يحتمها زمانهم، مما يجعل حالة التعليم الأزهري مهما تعددت الكتب الدراسية الرصينة المعتمدة فإنها تراعي وصول بصائر علمية محددة إلى عقول الطلاب، تمكنهم من فهم تضاريس علوم الشرع مع الاقتدار على إقامة الجسور بين تلك العلوم وبين الواقع بكل سؤالاته وإشكالاته.

فهذا الكلام مهمٌّ جدًّا في التفرقة بين المنهج العلمي المستقر، وبين التفقد المستمر لوفاء الكتب في كل مدة زمنية بتحقيق مقاصد ذلك المنهج، ويمكن الانفتاح على تراث علمي واسع بحيث تتخير لكل مرحلة زمنية ما يناسبها من الكتب التي يتحقق فيها شرطان: أولهما الوفاء بذلك المنهج والائتمان التام على حفظ معالمه ومقاصده ودوائر علومه ومهارات معارفه، وثانيهما: المناسبة لقوى الطلاب، ومشكلات العصر، حتى يتولد من رحم ذلك كله العالم الأزهري، المستوعب لأصول الشريعة، والمستوعب للواقع بعوالمه وتعقيده، والقادر على الربط بينهما.

والحاصل أن تلك الدوائر تعبر عن التكوين العلمي المتكامل الذي كانت تتجاور وتتعاضد فيه تلك المنظومة من العلوم، فتصنع في فؤاد طالب العلم وجنانه عيونًا متعددة يبصر بها تضاريس الشريعة ومقاصدها على ما هي عليه، وكانوا يعبرون عن تلك العلوم بعلوم الأزهر، ومن ذلك قول العلامة الشيخ جاد الرب رمضان في سيرته الذاتية ـ وسيأتي ذلك في ترجمته في وفيات سنة ١٤١٥هـ ـ: (ثم عُيِّنْت مدرسًا في معهد طنطا في أبريل، سنة ١٩٣٦م، وتناولتْ الدراسة في ذلك المعهد أغلب علوم الأزهر في ذلك العهد).

وانظر مثلًا ما ورد في قرارات مجلس الأزهر الأعلى في جلسته المنعقدة بتاريخ السبت ٦ شعبان

(١) مجلس الأزهر الأعلى: مجموعة محاضر وقرارات المجلس عن سنة ١٣٣١هـ /ص١٦٦ ـ ١٦٨/.
(٢) مجلس الأزهر الأعلى: مجموعة محاضر وقرارات المجلس لسنة ١٣٣٣هـ ١٩١٤م /١٩١٥م /٦/٣/.

سنة ١٣٣٠هـ من قولهم: (أما فن الصرف فلا عذر فيه للمعاهد؛ فإن مقرراته وكتبه مناسبة لحالة الطلاب، فلم يبق إلا أنه يلزم لفت المعاهد إلىٰ العناية بتدريسه، فإن المدرسين لا يزالون يعتبرونه من متممات النحو وذيوله، فلا يعدلون بين العلمين في قسمة الوقت بينهما بنسبة صحيحة)(١).

وهذا ما يعرف اليوم بالوزن الزمني، حيث لا يعدل المدرسون بين العلوم فيعطون كل علم ما يستحقه، ويمكن فيه تدريسه وتوصيله، فيحذر علماء الأزهر هنا من هذا الخلل.

وهنا يظهر بوضوح ذلك الفارق بين المنهج العلمي الأزهري وبين المقررات والكتب الدراسية، حيث يتضح من خلال العبارة السابقة أن من معالم المنهج الأزهري: العناية التامة بعلوم اللسان العربي، من خلال دوائر علوم اللسان المختلفة، في النحو والصرف والبيان والبديع والمعاني والاشتقاق والوضع، مع أهمية السير في تلك العلوم كلها دون إخلال بشيء منها، ومرعاة تقسيم الوقت بين تلك العلوم بنسبة صحيحة، وعدم تهميش بعضها أو تجاهله، ومدىٰ مناسبة المقررات والكتب لحالة الطلاب، فهذه معالم المنهج، ثم تبقىٰ الكتب والمقررات محل نظر ومتابعة كل حين، للنظر في مدىٰ ملاءمتها لحالة الطلاب، وقدرتها علىٰ توصيل ذلك المنهج إلىٰ الأذهان، وصناعة العقول من خلال تلك المعالم.

وانظر أيضًا ما جاء في جلسة مجلس الأزهر الأعلىٰ المنعقدة يوم السبت ١٧ شوال، سنة ١٣٣٠هـ، حيث ورد فيه ما نصه: (تداول المجلس في اختيار الكتاب الذي يحسن تقريره من فن الصرف علىٰ طلبة السنة الثانية النظامية، وكان نظر ذلك مؤجلا من جلسة ٢٥ رمضان سنة ١٣٣٠هـ، فقرر المجلس قبل البت في اختيار الكتاب أن تؤلف لجنة من حضرات أصحاب الفضيلة شيخ معهد الإسكندرية، وشيخ معهد طنطا، ووكيل الجامع الأزهر، تحت رياسة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ بكري الصدفي شيخ السادة الحنفية، وأن ترفع اللجنة رأيها إلىٰ المجلس في اختيار إحدىٰ الرسالتين: عنوان الظرف، أو متن العزي»، أو سواهما، مما يقع اختيار اللجنة عليه)(٢).

وانظر التعديل الواسع في اختيار الكتب أو استبدالها بغيرها أو إعادة توزيعها علىٰ سنوات الدراسة بحيث تحقق المقصود من عملية التعليم وصناعة العقل في مجلس الأزهر الأعلىٰ المنعقد بتاريخ الأحد ٣ رجب، سنة ١٣٣١هـ، الموافق ٨ يونيو سنة ١٩١٣م(٣).

فهناك عدد من المقاصد العلمية التي ينبغي الوصول بالطالب إليها في فن الصرف مثلا، وفق عدد من المعايير، لتُحقق مستوىٰ معينًا لا يقل الطالب عنه، ووفق هذه المعايير وتلك الخريطة يتم اختيار

(١) مجلس الأزهر الأعلىٰ /١/١٣٢/.
(٢) مجلس الأزهر الأعلىٰ /١/١٩٢/.
(٣) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٢/١٦٦ - ١٦٨/، و/٢/١٨٧/.

الكتاب الأوفق، والأجدىٰ في تحقيق تلك المقاصد، فتلك المقاصد وهذه الخريطة هي المنهج، والكتب والمؤلفات والمقررات وسائل للتوصل إليه.

وبعد كل ما سبق إليك ما هو أشد صراحة ووضوحًا في تقرير ذلك، فقد رفع الأستاذ الشيخ الجليل محمد صادق عزام تقريرًا إلىٰ مجلس الأزهر الأعلىٰ، في جلسته المنعقدة بتاريخ السبت ١٩ ربيع الأول سنة ١٣٣٥هـ الموافق ١٣ يناير سنة ١٩١٧م متضمنًا نتيجة تفتيشه علىٰ القسم الثانوي النظامي للجامع الأزهر، فورد ما نصه:

(إن الأساس الذي يبتنىٰ عليه اختيار كتب الدراسة ووضع مناهجها هو مراعاة مصلحة الطالب، بما يضمن له الوصول إلىٰ الغاية التي من أجلها يتعلم العلم، والتي ينتظرها منه القائمون بتربيته تربية علمية نظامية، ومن يكون بصدد هذا يرىٰ أن مصلحة الطالب تتطلب أن يُسلك به فيما يُختار له من الكتب مسلكًا وسطًا، ليس هو بالصعب الذي تغوص فيه قدماه فلا يصل إلىٰ الغرض، ولا هو بالسهل الذي يمر منه مرورا، بدون أن ينعم نظره فيه، ويقف علىٰ حقيقته.

ولتحقيق تلك الغاية بتيسير سبيلها الأمثل يجب أن يراعىٰ في انتقاء مواد العلوم أمران:

أولهما ما يقصد به إفهام الطالب مسائل العلم وفروعها، مع استزادة من الأمثلة، وإفاضة في البحث والمناقشة، علىٰ وجه يثقف ذهنه، وينمي مداركه، ويعوده الاستقلال بالفهم، ومعرفة مواقع الكلام ومغازيه.

والحقيق بأن يختار من الكتب في هذه الحالة الكتب التي من شأنها البحث والمناقشة، لدقة معانيها، وبعد مراميها، مما يحتاج إلىٰ إجالة فكر، وفضل تأمل، مراعىٰ في ذلك العلم: أهمية العلم صاحب المادة، وألزميته للطالب، من حيث أولوية القصد كعلوم التوحيد والمنطق والمعاني مثلا، من الدينية والرياضية والعربية.

ثاني الأمرين: ما يقصد به إطلاع الطالب علىٰ حقيقة العلم، وإحاطته بمسائله، وفهم أحكامه، حتىٰ يكون لديه إلمام به، ومكنة من سهولة الرجوع إليه عند الحاجة، والمناسب حينئذ أن يختار من الكتب ما كان أخصرها عبارة، وأيسرها منالا، وأجمعها أقساما، وأحسنها ترتيبا.

والأجدر بعلوم المصطلح والوضع وآداب البحث أن تجعل في هذه المرتبة الثانية، وأن يخص بالاختيار من موادها ما كان موجزًا واضحًا وافيًا بالأقسام وحسن الترتيب، وعلىٰ ذلك فكتاب نخبة الفكر في المصطلح، وكتاب شرح السمرقندي علىٰ الرسالة العضدية في الوضع، وكتاب الرسالة الولدية في آداب البحث، كتب لا يتفق تقريرها مع مصلحة طالب نظامي؛ لأنها وإن كانت في ذاتها صغيرة الحجم إلا

أن مؤلفيها نأوا بها عن مرام ذلك الطالب النظامي، الذي قدر له في كل علم من هذه العلوم ثمان وعشرون حصة يأخذها في عام واحد من أعوام دراسته.

نعم نأوا بها عن المرام، لما فيها من دقة الأسلوب، وخفاء المعنىٰ، وتفرق في الأقسام، مما لو أضيف إلىٰ ما كلف به الطالب في باقي علوم سنته لكان ثقلا عليه يخشىٰ ضرره.

وقد لاحظت هذا المعنىٰ في تلك الكتب ففاوضت حضرات الأساتذة مدرسيها وحضرات الأساتذة المراقبين في شأنها، فوافقوا علىٰ أنها صعبة المنال بالنسبة لطلابها، واستحسنوا إبدالها بما هو أيسر منها، وأوفق لمصلحة الطلبة.

وبناء عليه؛ أقترح علىٰ هيئة المجلس الموقرة: أن تلغي من بين المواد المقررة لطلبة السنة الأولىٰ من القسم الثانوي النظامي: كتاب نخبة الفكر في علم المصطلح، وكتاب شرح السمرقندي علىٰ الرسالة العضدية في علم الوضع، وكتاب الرسالة الولدية في علم آداب البحث، وأن تستعيض عن الأول: بكتاب رسالة مصطلح الحديث لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغني محمود؛ وعن الثاني: بكتاب خلاصة الوضع لفضيلة الأستاذ الشيخ يوسف الدجوي، وعن الثالث: بكتاب آداب البحث لفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغني محمود؛ لأن هذه الكتب قد امتازت بحسن الأسلوب وسهولة المأخذ، وبعناية مؤلفيها بصوغ معانيها الكثيرة في ألفاظ يسيرة، جامعة للأقسام وافية بالمرام، هذا ما اعتقدته صالحا، فوجب عرضه علىٰ المجلس، وهو صاحب النظر الأصح، وله الرأي الأعلىٰ)(١).

وكأني بهذا التقرير العلمي المفصل العميق قد كشف بوضوح عما كان حاضرًا في ذهن كاتبه من وجود منهج علمي أصيل، يُراد توصيله إلىٰ عقل الطالب، لتنمية مهارات وملكات معينة، بغرض بناء الشخصية العلمية الناقدة، التي تستقل بالفهم، وتقوىٰ علىٰ الجدل، وتدرك مغازي الكلام، وتميز بين الحقائق والوهميات، ثم إن عملية التعليم تجتهد في توصيل ذلك إلىٰ عقول الطلاب بكل سبيل، وتستصلح من الكتب ما تراه صالحًا لذلك بحسب أحوال الطلبة والزمان، مع الاطمئنان إلىٰ الوفاء بمعالم المنهج.

حتىٰ يرد في قانون نمرة ١٠ ما نصه: (المادة العشرون بعد المئة: تمنع قراءة التقارير بالجامع الأزهر والمعاهد الأخرىٰ منعًا باتًا، ولا تجوز قراءة الحواشي إلا في القسمين الثانوي والعالي، بعد إقرار المجلس الأعلىٰ)(٢).

(١) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٤/١٦٣/.

(٢) قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م /ص٣٦/، ط: المطبعة الأميرية بمصر، سنة ١٩١١م.

ومن أجود ما رأيت من البحوث حول الحواشي دراسة أعدتها الدكتورة هانم عبد الرحيم إبراهيم، عنوانها: (ظاهرة كتب الحواشي في التراث العربي دراسة ببليوجرافية)، درست فيها نحو ألف وست مائة حاشية دراسة ببليوجرافية، ورتبتها زمنيا وموضوعيا، فأتت بفوائد جمة(١).

قال الإمام النووي عما ينبغي أن يسلكه الأستاذ مع التلميذ: (ولا يُلْقي إليه شيئا لم يتأهل له، لئلا يفسد عليه حاله)(٢).

وهذا مفيد إذا تم على وجهه، بحيث تقوم المراحل السابقة على إمداد الطالب بأدوات الفهم، ونقش التصور الصحيح للعلوم وموضوعاتها في ذهنه، حتى إذا وصل إلى القسمين الثانوي والعالي بحسب ترتيب ذلك الزمان كان مقتدرًا على فك العبارة، والخوض في هذه الدقائق.

(١) ظاهرة كتب الحواشي في التراث العربي، ط: (د ن)، سنة ٢٠٠٦م.
(٢) المجموع شرح المهذب /١/٣١/.

إِضَاءَةٌ
في كيفية اختيار الأزهر الشريف لمناهجه وكتبه

وقد استقر الأزهر الشريف علىٰ مناهج علمية معينة، واختار لنفسه اختيارات علمية، جرىٰ عليها في التعليم والتدريس، وحافظ من خلالها علىٰ المعتمد عند أهل السنة والجماعة في أبواب الاعتقاد، والفقه، والتربية، والحديث الشريف، ثم في سائر العلوم والفنون والتصانيف.

ويحتاج البعض إلىٰ تعليل وإبانة عن أسباب ذلك، حتىٰ يتردد في الخواطر سؤال: لماذا اختار الأزهر الشريف مثلا المذاهب الأربعة، وعكف علىٰ تدريسها علىٰ مدىٰ قرون، ولماذا لم يتخير لنفسه اختيارات فقهية عامة، يجتمع عليها أهل المذاهب الأربعة وسواهم، ولماذا اختار عقيدة أهل السنة والجماعة من السادة الأشاعرة والماتريدية، ولم ينتقِ لنفسه مبادئ عامة يتفق عليها عموم المسلمين؟ والحقيقة أن هذا سؤالٌ ملحٌّ، تكرر كثيرًا في الآونة الأخيرة، وهو يحتاج إلىٰ كشفٍ وتبيين، ويحتاج إلىٰ غوصٍ في أعماق العقلية الأزهرية، ويحتاج إلىٰ استقراءٍ لأطواره التاريخية، ومناهج التعليم المعتمدة فيه، حتىٰ تنكشف المعايير والأسباب التي علىٰ أساسها تخير الأزهر الشريف ما تخير، والتي علىٰ أساسها تواردتْ أجيالُ العلماء فيه علىٰ انتقاء منهجٍ بعينه، أو كتابٍ بعينه.

ومن المرتكزات العميقة الراسخة في أعماق العقلية الأزهرية، ومن المكونات الأصيلة التي شكلت عقلية الأزهري: الاحترام العميق لاختيار الأمة المحمدية؛ فالأمة المحمدية في نظر الأزهري معيارٌ ومؤشرٌ من المعايير الكبرىٰ التي يقبل علىٰ أساسها أو يرد، وأصل ذلك يرجع إلىٰ استحضار عدد من المبادئ الشرعية؛ فالأمة المحمدية خير أمة أخرجت للناس، والسبب في خيريتها أنها تؤمن بالله وتأمر بالمعروف وتنهىٰ عن المنكر، فهي أمة علم ومعرفة وتمييز بين الحق والباطل، وبين المعروف والمنكر، ثم هي أمة قائمة بالبلاغ عن الله وحمل أمانة الدين، ثم هي أمة شهادة علىٰ الأمم بموجب وسطيتها، ثم هي من وراء ذلك كله أمة توثيقٍ ونقدٍ وتحريرٍ ومراجعة وتثبت، تقبل وترد عن بصيرة، والأصل في ذلك كله كثرة العلم، واستحكام الآلات العلمية عند أبنائها، وشدة غيرتها علىٰ حفظ مصادر الشرع وصونها، والإدراك التام لوظيفتها في الائتمان علىٰ الوحيين الشريفين، مع خدمة نصوص الوحيين، نقلا، وضبطًا، وتلقينًا، واستنباطًا واستخراجًا للعلوم الكامنة فيهما، من العقائد والفروع والآداب والقيم والمفاهيم إلىٰ غير ذلك من العلوم والمعارف.

ثم قامت الأمة المحمدية عبر تاريخها العلمي الممتد بتخريج العلماء المجتهدين، والأئمة الأكابر، الراسخين في مختلف الفنون العلمية، أصلًا وفرعًا، ولغةً، ونحوًا وصرفًا، وحديثًا وفقهًا، معقولًا ومنقولًا، ثم إن هذه الأمة المحمدية شرعت تستعرض ما يطرح فيها من فكر وعلم ومناهج؛ فنظرت من خلال عيونها المتمثلة في عشرات المدارس العلمية، وعشرات الألوف من الأئمة والمجتهدين عبر طبقات متتالية ومتتابعة، وعبر دائرة زمنية واسعة، فذهبت تنقد وتنتقي وتختار، فتشكلت بذلك عند الأمة المحمدية منهجية، وحركة علمية نقدية انتقائية، اختارت الأمة من خلالها الأكفأ والأضبط، والأقرب إلىٰ تحقيق المقاصد الشرعية، في المذاهب والمناهج والأفكار والأشخاص والكتب.

وهذه الحركة العلمية النقدية هي التي استقرت وتحررت، وعرفت عند العلماء بقضية (التلقي بالقبول)؛ فالتلقي بالقبول ليس معناه مجرد الذيوع والشيوع والاشتهار، بل هو حركة علمية نقدية انتقائية قائمة علىٰ موازين دقيقة، تقتضي أن تنكب الأمة المحمدية من خلال عيونها المستبصرة الغيورة علىٰ الدين، ومن خلال عقولها المفكرة، المتمثلة في المدارس العلمية الكبرىٰ، كالأزهر الشريف، وجامع الزيتونة، وجامع القرويين، وأربطة حضرموت، والجامع الأموي، وعشرات المدارس المشابهة، من استعراض المناهج والأفكار والمؤلفات والكتب والأشخاص، فتنظر أيها أهدىٰ سبيلا، وأقوم قيلا، وأقوىٰ دليلا، ولتنظر أيها أشدُّ إحكامًا وانضباطًا وإتقانًا، فتختاره وتعتمده، وما لا تختاره فإنها تحفظه للتاريخ من باب الأمانة في الحفاظ علىٰ أطوار الفكر العلمي بمختلف نتائجه.

وقد وقع ذلك في باب الفقه، فنظرت الأمة المحمدية من خلال المئات والألوف من الأئمة المجتهدين المنتشرين في المشارق والمغارب في المذاهب الفقهية التي أنتجها الأئمة، والتي جاوزت التسعين مذهبًا فقهيا، فإذا بالمذهب الأربعة أشد تلك المذاهب إحكامًا وانضباطًا، وتحقيقًا للمقاصد الشرعية، وتحريرًا لأصول الاستنباط، ودقة في صناعة الفروع الفقهية، واتساقًا للفروع مع الأصول، فاختارت الأمة تلك المذاهب الأربعة، وأطبق العلماء من بعد علىٰ الانتساب إليها دون غيرها، حتىٰ بقيت المذاهب الأربعة وذهبت بقية تلك المذاهب، فلم يقع لمذهب الأوزاعي ولا لمذهب ابن جرير عشر معشار ما وقع للمذاهب الأربعة من الحفاوة والتلقي، والتدليل والتعليل، واستفاضة الأئمة والتصانيف الخادمة للمذهب.

ووقع مثل ذلك في باب الحديث الشريف، فنظرت الأمة المحمدية من خلال عيونها وعقولها، المتمثلة في عشرات الألوف من المحدثين النقاد، والحفاظ المتقنين الضابطين، وخبراء الرجال والجرح والتعديل في سائر التصانيف الحديثية، من الصحاح والسنن والمسانيد والأجزاء والفوائد والأمالي والمعاجم والمشيخات، فجزموا بأن الكتب الستة أدقها صنعة، وأرجحها انتقاءً واختيارًا، فاختارت الأمة المحمدية تلك الكتب الستة واعتمدتها، وأقبلت عليها شرحا، وترجمة للرواة، واستنباطًا للشروط، إلىٰ غير ذلك من وجوه الخدمة التي قامت بها الأمة المحمدية مع الكتب الستة، ولم يقع منها عشر ذلك مع

غير الكتب الستة من التصانيف الحديثية المعتبرة.

فصارت المذاهب الفقهية الأربعة شعارًا للأمة المحمدية في باب الفقه، كما صارت الكتب الستة شعارًا للأمة المحمدية في باب الحديث.

وقد وقع مثل ذلك أيضًا في باب العقائد، فقد نظرت الأمة المحمدية في المناهج المطروحة في باب الاعتقاد، فإذا بمنهج السادة الأشاعرة هو أوفىٰ تلك المناهج استيعابا لعقائد الصحابة والتابعين، وغيرة عليها، وخدمة لها، ومناضلة عنها، وإقامة للأدلة العقلية والنقلية علىٰ أحقيتها، ونصبا للميادين الجدلية في الدفاع عنها، ورد شبه خصومها، فنظرت الأمة المحمدية من خلال أجيال متتابعة من الأئمة والعلماء المتبحرين في مختلف الفنون الشرعية، في: سائر المناهج الاعتقادية المطروحة، فرأت أن منهج الإمامين الأشعري ـ ومعه الماتريدي ـ هو المعبر عن عقائد السلف، وهو الحافظ لها، فشاع في المشارق والمغارب اختياره وانتقاؤه وتقديمه علىٰ غيره.

فصار منهج السادة الأشاعرة شعارًا للأمة المحمدية في باب الاعتقاد، كما صارت المذاهب الأربعة شعارًا لها في باب الفقه، كما صارت الكتب الستة شعارًا لها في باب الحديث.

فالتلقي بالقبول حركة علمية نقدية انتقائية، تنظر الأمة من خلاله في المناهج والمذاهب والأفكار والأشخاص والتآليف، فتنتقي الأمة المحمدية وتستبقي به: الأضبط، والأكفأ، والأوفق، من المناهج والمذاهب والعلوم والتصانيف، وقد توسعتُ في شرح ذلك كله والاستشهاد له والتدليل عليه في كتاب مستقل أسميته: (التلقي بالقبول معيار صناعة العلم عند الأمة المحمدية).

وقد استحضر العقل العلمي الأزهري ذلك كله، فاحترم إرادة الأمة وانتقاءها واختيارها، وحصلت عند العقل الأزهري الثقة والاطمئنان إلىٰ علوم هذه الأمة وطرائقها المعتمدة في القبول والرد، لأنه من المكونات الراسخة في أعماق المنهج الأزهري: شدة تعظيم شأن الأمة المحمدية والمعرفة التامة بقدرها وجلالتها، فإذا به يتفقد ما اختارته الأمة واستقرت عليه، فيختاره ويعتمده.

ومن ذلك مثلا أن المذهب الأشعري في أبواب الاعتقاد هو المنهج المعتمد، الذي أطبقت مدارس العلم علىٰ اختياره وتدريسه، وانتسب إليه الأكابر من علماء الأقطار، عبر أزمان متطاولة، مع استحكام حركة النقد والتدقيق والمراجعة لفروع المسائل وأصولها ومناهجها، مما أفضىٰ إلىٰ استقرار هذه اللبنة من مكونات المنهج العلمي الرصين، وقد انتسب إلىٰ المذهب الأشعري ما لا يحصىٰ من العلماء:

- فمن أهل التفسير وعلوم القرآن: الجصاص، وأبو عمرو الداني، والقرطبي، وإلكيا الهراسي، وابن العربي، والفخر الرازي، وابن عطية، والمحلي، والبيضاوي، والثعالبي، وأبو حيان، وابن الجزري،

والسمرقندي، والواحدي، وأبو المظفر ابن السمعاني، والخازن، والزركشي، والسيوطي، والآلوسي، والزرقاني، والنسفي، والقاسمي، وابن عاشور، ومحمد عبد الله دراز، وأحمد السيد الكومي، ومحمد متولي الشعراوي، وغيرهم كثير.

❁ ومن أهل الحديث وعلومه: الدارقطني، والحاكم، والبيهقي، والخطيب البغدادي، وابن عساكر، والخطابي، وأبو نعيم الأصبهاني، والسمعاني، وابن القطان، والقاضي عياض، وابن الصلاح، والمنذري، والنووي، والهيثمي، والمزي، وابن حجر، وابن المنير، وابن بطال، وغالب شراح الصحيحين، وشراح السنن، والعراقي وابنه الولي أبو زرعة، وابن جماعة، والعيني، والعلائي، وابن الملقن، وابن دقيق العيد، وابن ناصر الدين الدمشقي، وابن كثير، وابن الزملكاني، والزيلعي، والسيوطي، وابن علان، والسخاوي، والمناوي، وعلي القاري، والبيقوني، واللكنوي، والزبيدي، وبدر الدين الحسني، ومحمد ابن جعفر الكتاني، ومحمد عبد الحي الكتاني، وغيرهم كثير.

❁ ومن أهل الفقه وأصوله: فمن الحنفية: ابن نجيم، والكاساني، والسرخسي، والزيلعي، والحصكفي، والميرغناني، والكمال بن الهمام، والشرنبلالي، وابن أمير الحاج، والبزدوي، والخادمي، وعبد العزيز البخاري، وابن عابدين، والطحطاوي، وغالب علماء الهند والباكستان والشام وغيرهم كثير.

ومن المالكية: ابن رشد، والقرافي، والشاطبي، وابن الحاجب، وخليل، والدردير، والدسوقي، وزروق، واللقاني، والزرقاني، والنفراوي، وابن جزي، والعدوي، وابن الحاج، والسنوسي، وعليش، وغالب الشناقطة وعلماء المغرب العربي وغيرهم كثير.

ومن الشافعية: أبو محمد الجويني، وابنه إمام الحرمين، وفخر الدين الرازي، وحجة الإسلام الغزالي، وسيف الدين الآمدي، وأبو إسحاق الشيرازي، والإسفراييني، والباقلاني، والمتولي، والسمعاني، وأبو عمرو ابن الصلاح، ومحيي الدين النووي، والرافعي، وسلطان العلماء العز بن عبد السلام، وشيخ الإسلام ابن دقيق العيد، وابن الرفعة، والأذرعي، والإسنوي، والتقي السبكي، وابنه الإمام تاج الدين السبكي، وناصر الدين البيضاوي، وتقي الدين الحصني، وشيخ الإسلام زكريا الأنصاري، وابن حجر الهيتمي، والرملي، والشربيني، والمحلي، وابن المقري، والبجيرمي، والبيجوري، وابن القاسم العبادي، وقليوبي، وعميرة، وابن قاسم الغزي، وابن النقيب، وحسن العطار، والبناني، والدمياطي، وآل الأهدل، والشمس الأنبابي، وأحمد بك الحسيني شارح كتاب الأم، وغيرهم كثير.

❁ ومن أهل التواريخ والسير والتراجم: القاضي عياض، والمحب الطبري، وابن عساكر، والخطيب البغدادي، وأبو نعيم الأصبهاني، وابن حجر، والمزي، والسهيلي، والصالحي، والسيوطي، وابن الأثير،

وابن خلدون، والتلمساني، والقسطلاني، والصفدي، وابن خلكان، وابن قاضي شهبة، وابن ناصر الدين وغيرهم كثير.

❁ ومن أهل اللغة: الجرجاني، والقزويني، وأبو البركات الأنباري، والسيوطي، وابن مالك، وابن عقيل، وابن هشام، وابن منظور، والفيروزآبادي، والزبيدي، وابن الحاجب، وخالد الأزهري، وأبو حيان، وابن الأثير، والحموي، وابن فارس، والكفوي، وابن آجروم، والحطاب، والأهدل، وغيرهم كثير.

ومن القادة: نور الدين الشهيد، وصلاح الدين الأيوبي، والمظفر قطز، والظاهر بيبرس، وسلاطين الأيوبيين والمماليك، والسلطان محمد الفاتح وسلاطين العثمانيين، ونظام الملك، وغيرهم كثير، وكذا كثير ومن الزعماء المعاصرين في مصر والشام والمغرب العربي والسودان والعراق والهند والباكستان وغيرها من البلدان هم من الأشاعرة أو الماتريدية، حتىٰ أصدر الملك محمد السادس قبل سنوات قليلة ظهيرًا ملكيًا ينص علىٰ الالتزام بأصول المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية وثوابت الأمة، وكذلك كل من تولوا مشيخة الأزهر الشريف من العلماء الأكابر، فقد كانوا من السادة الأشاعرة.

وكذلك السواد الأعظم من أهل مصر وليبيا والشمال الأفريقي عموما كلهم أشاعرة متمذهبون بمذهب، وأما غرب أفريقيا وجنوبها فحدث ولا حرج، وكذلك عموم الشام وحضرموت والملايو والعراق وتركيا وشمال القوقاز والهنود وغيرهم، قال شيخ السادة آل باعلوي الحبيب أحمد بن حسن العطاس مثلا: (فأهل حضرموت بحمد الله تعالى أشرافهم ومشايخهم وعوامهم وجميع من في ذلك الإقليم سنيون أشعريون شافعيون، محبون لأهل البيت والعلماء والصلحاء والأولياء)[1].

ولو أردنا أن نعدد لطال بنا المقام، ومن أراد المزيد فعليه بكتب التراجم والسير والتاريخ، فرصد العقل الأزهري ذلك كله، وجعله أحد المعايير والمؤشرات والمرجحات، التي اختار بها مكونات منهجه.

فأسفر إحكام المنهج المعرفي وتكامله علىٰ هذا النحو عن اختيارات عليا، قد استقر عليها المنهج الأزهري، وانتقاها عن بصيرة، فانتهىٰ إلىٰ أن اعتمد منهج السادة الأشاعرة والماتريدية في فني الأصول والعقائد، واعتمد المذاهب الأربعة في الفقه والفروع، واعتمد مشارب التربية والسلوك والتصوف في باب الأخلاق.

(١) السفينة المجموعة في أنساب بعض القاطنين في حضرموت ومساكنهم /ص٩٩/، ط: دار حضرموت للدراسات والنشر، حضرموت، المكلا، اليمن، سنة ١٤٣٥هـ - ٢٠١٤م.

إِضَاءَةٌ
في مُعْتَمد المدرسة الأزهرية
ابتداءً من الشأن العام والمسائل الكبرى نزولا إلى دقائق مسائل العلوم وفروعها

المعتمد في أي مذهب هو نتاج إجراء قواعد العلم وتنزيلها على وقائعها ومحالها على يد مؤهل، مما يثمر نتيجةً أو نتائج متعددة، فيجري اختيار أدقها وأليقها، وأشدها مناسبة وملائمة للوقائع والمكلفين، وفق معايير وموازين دقيقة، تراعي قواعد الترجيح، وتحقق مقاصد الشريعة، وتناسب وقائع الناس وأيامهم وأزمانهم، فتسمى هذه الاختيارات بمعتمد المذهب.

فالمعتمد هو نتيجة صنعة علمية تالية للاستنباط، بحيث إذا ما وقع الاستنباط على وجهه مع حضور أدواته العلمية، وأتم المجتهد أو العالم المتمكن صنعته وانتهى إلى نتائجه، فإنه ينهض بأعباء صنعة علمية أخرى يرى فيها أي تلك النتائج أليق بحال الناس، وتحقيق مقصد الشرع الشريف، فيكون المعتمد هو المُنْتَقَى المختار من بين ذلك كله.

والأزهر الشريف له اختيارٌ ومعتمد في مختلف المسائل، نتج من تجربة تاريخية ممتدة، طابق فيها الأزهر أقوال العلماء بوقائع المكلفين، فلاحت له أقوال بعينها، كانت أنجع وأنفع، وقد شهد الأزهر ثورات، وعايش أنظمة حكم مختلفة، وعايش المجتمع المصري في همومه وأزماته وأحداثه الكبرى، واستقبل طلاب العلم من مختلف الأقطار، وجرب مسالك التعليم واختبرها حتى عرف المنتج منها وغير المنتج، وتصدى للفتوى بكل ما تقتضيه من خبرة بأحوال المكلفين وعوارضهم، وخاض الأزهر في غمار ذلك تجارب متعددة على مدى عقود وقرون، فتبلورت له اختيارات خاصة به في أربعة جوانب: الأول: الأشخاص، والثاني: الأفكار والمناهج، والثالث: الكتب، والرابع: المسائل: وبعضها مسائل كبيرة مما يتعلق بفقه الأمة، وما يلتحق بذلك من الشئون الدولية والإقليمية، والوطنية، وبعضها اختيارات في بحوث فكرية أو فلسفية أو اجتماعية، وبعضها فروع فقهية جزئية مما يتعلق بفقه الأفراد، فنتج من ذلك كله وجود معتمد للأزهر في تلك المجالات على اختلاف دوائرها واتساع ميادينها، صار هو معتمد المدرسة الأزهرية.

ونظير ذلك ما قاله السفير الدكتور عبد الهادي التازي في جمهرته الجليلة: (جامع القرويين): (وقد

كان لعلمائها طريق خاص بهم في التأليف، غير ما كان معروفًا لزملائهم في المشرق، وهذه ناحية أخرى تعطي فكرة عن تميز الشخصية المغربية، على نحو ما تميزت به في اختيار المذهب المالكي، وفي اختيار العقيدة الأشعرية، واختيار تلاوة ورش، ورواية ابن سعادة، وابتكارهم للعمل الفاسي)[1].

بل يتحدث بعدها عن معتمدٍ طريف درج عليه جامع القرويين، وهو اختيار اللون الأبيض في الملابس الجامعية، فيقول: (وقد كان للملابس الجامعية البيضاء التي تعود علماء القرويين ارتداءها قصة وطنية رائعة، فيها تعبير عن أمجاد للإسلام أيام عزته، ولذلك نجد التقاليد المغربية تتمسك باللون الأبيض في أفراحها وأتراحها، مقتدية في ذلك بالظهير الذي أصدره بنو مرين منذ قرون).

إلى أن يقول بعد سطور: (عليها كان المغرب يعتمد في تكوين مختلف أطره، وبها تخرج كبار العلماء ورجال القضاء، ممن زاولوا عملهم في مدينة فاس، أو في مدن أخرى، من المغرب وأفريقية والأندلس، ومنها صدر السفراء إلى أقاصي البلاد، فكانوا مثلا في الإخلاص والصراحة والنصح).

فقد تضمنت هذه السطور تلخيصا لعدد من المعتمدات التي استقر عليها الاختيار العلمي الحر النزيه المدقق لجامع القرويين العريق، وفق موازين علمية رصينة وقائمة، أفضت بهذا المعهد العلمي العريق إلى أن يستقر على اختيارات له صارت دستورًا متبعًا، تنتظم على أساسه حركة العلم.

وكذلك كان شأن الأزهر الشريف، وأجزم أن الشأن كان كذلك في جامع الزيتونة الجليل في تونس، بل وكذلك سائر المدارس العلمية المتوسطة والصغيرة، فضلا عن مدارس العلم الكبرى التي عمرت فيها صناعة العلم قرونًا من الزمان.

بل الحال كذلك في الجامعات العلمية الكبرى في أوكسفورد، وييل، وبولونيا، وغيرها من كبريات جامعات الدنيا، فإن استمرار سريان حركة العلم فيها على مدى أجيال قد أفضى إلى وجود أعراف علمية، واختيارات، وطرائق معهودة، في التدريس والتأليف والمناهج والمسائل، وبمثل هذه الأمور تمتاز المدارس وتتنافس، ويجد فيها الدارس والباحث حركة علمية هادرة وجارفة، يصطبغ بها، ويسعد بذلك، وتصنع جوانب عميقة من نفسيته وعقله.

❁ فأما في جانب الأشخاص فقد اعتمد الأزهر عشرات ومئات من أئمة العلم المتقنين، كحسن العطار، والصبان، والملوي، والقويسني، والدردير، والباجوري، والفضالي، والحفني، والأنبابي، وبخيت المطيعي، وأحمد رافع الطهطاوي، وغيرهم كثير، ممن تركوا علما نافعا محررا، وصاروا لبنة من التكوين الأزهري.

(١) جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس /١/١٤.

وظهر في المقابل عبر التاريخ عدد من الشخصيات التي انفردت باختيارات غريبة في المسائل الشرعية، ماتت بموتهم، فلم يتوقف الأزهر الشريف عندهم، ولم يعتمد أقوالهم، وطواها وطواهم النسيان، مما يظهر معه الفارق بين الشخصيات العلمية المستقرة المعتمدة، كشيخ الإسلام زكريا، والبرهان الباجوري، والأنبابي، وبين الشخصيات القلقة، ذات الأطروحات المضطربة.

۞ وأما في جانب الأفكار والمناهج فقد اعتمد الأزهر المذاهب الفقهية الأربعة، واصطفاها، وجعلها مدار عملية التدريس فيه، واعتمد منهج السادة الأشاعرة في مسائل الاعتقاد، واعتمد مشرب التصوف الصافي، عن بحث وفقه وتمحيص، ونظر عال في الأدلة، وفهم عميق لمقاصد الشرع، مما أسفرت معه المناهج المضبوطة.

۞ وأما في جانب الكتب فقد اعتمد الأزهر الكتب الستة في الحديث، واعتمد تفسير البيضاوي والنسفي للتدريس، واعتمد في النحو ألفية ابن مالك، دون ألفية ابن معطي، ودون ألفية السيوطي النحوية، وألفيات أخرى ألفها علماء أجلاء هنا وهناك، ردد الأزهر النظر فيها، لكنه اعتمد ألفية ابن مالك دون غيرها، لأنه مارس تدريسها على مدى قرون من الزمان، وتكاثرت حولها الشروح، والتقريرات، وعبرت عليها أجيال من الطلاب حفظًا وشرحًا وتدريسًا وممارسةً وامتحانًا، فأظهرت الأيام أن ألفية ابن مالك أشد تحقيقًا لمقاصد الأزهريين في تدريس النحو وتعليمه.

وهكذا جرى الأمر في الأزهر في اختيار الكتب التي يدرسها في الفقه والأصول والقراءات والبلاغة والصرف والمنطق، من المتون والشروح والحواشي، حتى استقر معتمد الأزهر في الكتب، وصار الأزهر في كل فترة يعيد النظر في تلك الكتب، وينظر في اختلاف الأزمان والأعراف والعقول والطبائع، فيستبدل كتبا بكتب أخرى، حتى تظل عملية التحديث قائمة ولا يعتريها جمود.

ويفضي هذا الأمر أيضًا إلى وجود كتب غير معتمدة عند الأزهر الشريف، ومنها على سبيل المثال كتب الشاطبي، كالموافقات والاعتصام، لحيثيات أشار إليها العلامة المتقن الشيخ محمد علي البراد السكندري، كما تراه مبسوطًا في ترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٤١هـ، ومنها (فقه السنة) للشيخ سيد سابق، كما ترى تفصيله في ترجمته هنا في وفيات سنة ١٤٢٠هـ.

وقد أخرج الأزهر كتابًا مهمًا في هذا الجانب، رغم الأخطاء الواقعة فيه، اسمه: (المناهج الأزهرية: قائمة بالكتب المعتمدة في الأزهر الشريف)، أورد فيه الكتب المعتمدة في آداب البحث والمناظرة، ثم أصول الفقه، ثم البلاغة، إلى غير ذلك من العلوم[1].

(١) المناهج الأزهرية: قائمة بالكتب المعتمدة في الأزهر الشريف، ط: الأزهر الشريف، وسقيفة الصفا العلمية، لبنان، ماليزيا، سنة ١٤٣٧هـ - ٢٠١٦م.

وهو خطوة على طريق إخراج جمهرة كاملة في معتمدات الأزهر في مختلف المحاور، مما يبرز دليلا إرشاديا لما يقول به الأزهر الشريف في مختلف الأمور.

◉ وأما في جانب المسائل فقد ظهر للأزهر معتمد في القضايا الكبرى، فانحاز للوطن ولقضية الوطنية، عن بحث وفقه واجتهاد وتبحر، حتى جزم بإجلال قضية الوطن وأنها نابعة من عين الشريعة، معبرة عن الفطرة السليمة والطبع الكريم، فكانوا هم على رأس من افتدوا الوطن بأنفسهم، وقادوا حركة الشعوب لطرد المستعمرين، وكذلك صار لهم معتمد في منهجية التعامل مع المخالف، وفي منهجية فهم الواقع وتكييفه وكيفية التعامل معه وغير ذلك.

وتبلور للأزهر كذلك معتمد استقرَّ عليه في عددٍ من الفروع الفقهية، فاختار الأزهريون إخراج زكاة الفطر بالمال، بعد النظر الموسع في الخلاف العالي والنازل لمدارك الفقهاء في هذا الباب، إلا أنهم انتهوا إلى اختيار القول بجوازه واعتماده وجعلوا الفتيا عليه، وفعلوا مثل ذلك في البيوع والعقود، واختاروا القول ببيع التعاطي، واختاروا القول بطهارة العاج وألفوا فيه كتبا، واختاروا القول بجواز التوسل وألفوا فيه كتبا، واختاروا أن الطلاق إدراك وإملاك، وعند عدم الإدراك فإنه لا يقع بالاتفاق، وعند عدم الإملاك فقولان، ونحن نختار عدم الوقوع، واختاروا أن الصور الفوتوغرافية جائزة، وألف فيها الإمام الشيخ بخيت المطيعي مفتي الديار سابقًا، واختاروا أن علاقة العلماء بالحكام تعتريها الأحكام التكليفية الخمسة بحسب اختلاف الأحوال والأشخاص، واختاروا اختيارًا دقيقًا في علاقة القوانين بالفقه والشريعة، وفي مؤتمر الخلافة سنة ١٩٢٦م اختاروا أن الخلافة الشرعية المستجمعة لشروطها ـ المبينة في تقرير اللجنة العلمية (الذي أقره المؤتمر في الجلسة الرابعة) والتي من أهمها الدفاع عن حوزة الدين في جميع بلاد المسلمين، وتنفيذ أحكام الشريعة الغراء فيها ـ لا يمكن تحققها بالنسبة للحالة التي عليها المسلمون الآن، مع أهمية بيان أن مسألة الخلافة بحسب أصلها مسألة فقهية من فروع الفقه، وليست من مسائل الأصول والاعتقاد، ولكن لما كثر فيها القال والقيل أخذ المتكلمون على عهدتهم الكلام فيها بحثًا طويلًا وألفوا فيها كتبًا خاصة كإمام الحرمين وغيره، إلى غير ذلك من المسائل والفروع والبحوث.

وهم في كل ذلك يربطون خطاب التكليف بخطاب الوضع، ويفرقون بين مقام الفتيا ومقام التدريس، فمقام التدريس يعتمد المذاهب الأربعة، ويدرس فروعها، وقواعدها، وأصولها، وفروقها، لتوريث مناهج تفكير أئمة المذاهب، وتكوين العقول القادرة على فهم أصول المذاهب ومناهج الاستنباط فيها والتخريج عليها، وأما مقام الفتوى فأمر آخر، حيث إنه ينخل المذاهب الأربعة نخلا، وينتقي، ويتخير، وفق صنعة دقيقة، تجعل المذاهب الأربعة كالمذهب الواحد، ثم ينتقي منه ما يسعف الناس، ويرفع عنهم الحرج، ويبقيهم في حمى الشرع الشريف، فإن ضاقت المذاهب الأربعة فالمذاهب الثمانية، فإن ضاقت فالفقه الوسيع، وإلا فالاجتهاد من النصوص مع مراعاة علم الأصول ومقاصد الشريعة ومواضع

الإجماع وتحقيق المصلحة ودلالات الألفاظ.

والقصد أن الأزهر لم يقتصر على حفظ مسائل العلوم وترديدها وتلقينها للأجيال فقط، بل استدعى أدوات العلوم وقواعدها ومناهجها للنظر في النوازل والأحداث والكروب التي تنزل بالناس، فأسعفته تلك القواعد في صناعة اختيار خرج به للناس، فجربه الناس وساروا فيه إلى منتهاه، فوجدوا عاقبته رشدًا، وأدركوا أنه كان نابعًا عن بصيرة وحكمة، وعقول ترى المآلات، وتقبس من الحكمة، وحينئذ جزم الناس أن للعلم أثرًا يسعف الناس في أوقات الشدة والحرج.

وفائدة هذا الباب الذي يلفت الأنظار إلى معتمدات المدرسة العلمية الأزهرية هو إسعاف أبنائه عند نسجهم لمواقفهم في أزمانهم ونوازلهم، حتى لا يرجع كل واحد منهم للاعتماد على اختياره الساذج، وتقديره الشخصي للأمور، فتضطرب كلمتهم، ويدب الشجار بينهم، وكل منهم يشير على الناس بطريق، فيندفع الناس فيما أشاروا عليهم به، اعتمادًا على الموروث القديم من الثقة، فيصطدمون بعواقب مسدودة، تكشف عن قصر نظر، وانطماس بصيرة.

ولا يعني هذا قصر الناس على رأي واحد، بل الأمر واسع في توليد الآراء، وجمع حصيلة العقول والأنظار والأفكار عند توفر الأهلية، ثم تأتي بعد ذلك مواقف حاسمة، وأحداث عاصفة، لا تحتمل ترددًا، ولا شتاتًا، فحينئذ يبرز الاحتياج إلى معتمد نثق فيه ونطمئن إليه.

وخذ مثالًا للمعتمد عند المدرسة الأزهرية في إدارة الأزمات والخلافات، وهو ذلك الموقف الجليل الذي جرى بين شيخ الأزهر الإمام الشيخ حسن القويسني وبين الشيخ الأمير، ترى فيه سموَّ أخلاق العلماء، ويبرز منهجية الأزهر ومعتمده في إدارة الأزمات والمواقف، وكيفية استدعاء قواعد العلوم ومقاصدها لتخريج النوازل والأحداث عليها، فقد ذكر الشيخ محمد سليمان في كتابه (من أخلاق العلماء) نقلا عن شيخه المرحوم الشيخ عبد المجيد اللبان أنه: (كانت هناك جفوة بين الشيخ الإمام والشيخ الأمير، وبلغت الجفوة الحاكم، وكان الشيخ الأمير عنده فسأله عن الجفوة وأخبَرَه أن الشيخ القويسني حدَّثه عنها، فقال الشيخ الأمير: ليس بيننا إلا الخير، وما أظن الشيخ القويسني حدَّثك بشيء من هذا، وأثنى على الشيخ القويسني ثناء جَمًّا، ولما انصرف من عند الحاكم ذهب إلى دار الشيخ القويسني وحدثه بما قاله الحاكم وما أجابه به، فقال له الإمام: صدقت في ظَنِّك، ما قلتُ للحاكم شيئًا، فقال الشيخ الأمير: «هكذا أهل العلم يسوون ما بينهم في خاصتهم، وأما مظهرهم فيجب أن يكون قدوة في التآلف والخير، وإمساكًا على عروة الإسلام، وحفظًا لكرامة العلم»، وزال بهذا ما بينهما من جفاء)[1].

وأقول: إذا اطلعت الأجيال الأزهرية الناشئة على مثل هذا الموقف، ورأوا ما فيه من النبل والسمو

(١) من أخلاق العلماء /ص٣٩.

والوقار، مع الفطنة لما وراء الأمور، وحفظ صورة المؤسسة العلمية، والغيرة على مظهرها الكريم، فإنهم يرون معتمد المدرسة ومسلكها المعهود في مثل هذه الأمور، ويسلك الواحد منهم المسلك نفسه في إدارة الخلافات التي ربما تنشب بينه وبين زملائه ورفاقه في جيله هو من الأزهريين.

وإذا طرأ نزاع أو خلاف بينهم لم يتشتت الواحد منهم أو يتحير، ولم يرجع إلى الاعتماد على تقديره الشخصي المنفعل الطائش، بل يرى أمامه العلامة الإرشادية التي يهتدي بها، وينسج على منوالها، إلى أن يتكامل تكوينه، ويقتدر على نصب الموازين التي يزن بها أحداث زمانه، فتفيض عنه المواقف الجليلة التي تنضح بالحكمة، ويحفظها التاريخ، ويهتدي بها من يأتي من بعده، وتمضي سلسلة أهل العلم على المنهج القويم في إدارة الأمور.

إِضَاءَةٌ

في أن علوم الأزهر ترجع إلى محورين: علوم أصلية وهي العلوم الاثنا عشر، وهي مناط استحقاق الدارس للعالمية واكتمال صفته الأزهرية، وعلوم مكملة لمن أرادها وسما إليها

للأزهر الشريف علوم أصلية، هي مدار عمله وتدريسه، وهي أركان تخريج علمائه، وعليها المعول في تكوين ملكة الطالب ومقدرته علىٰ فهم النص العربي الفصيح العالي، حتىٰ يكون أمينا علىٰ فهم القرآن الكريم والسنة المشرفة، لتأمين طريقة استنباطه للمعاني والعلوم والدلالات المودعة فيهما، وله أيضًا علوم إضافية زائدة علىٰ ذلك، لمن أرادها ومال إليها.

والعلوم الأصلية في الأزهر هي التي كان الطالب ينال العالمية فيها، فلا يسمىٰ عالمًا أزهريًّا إلا إذا أتقن تلك العلوم، وهي اثنا عشر علمًا معروفة، وإذا أخل بعلم منها فإنه لا ينال العالمية أصلًا، فليس واردًا أن يكون متقنًا لعلم الأصول ثم يكون ضعيفًا في النحو أو الصرف أو علوم البلاغة، وليس واردًا ولا مقبولًا أن يكون متقنًا لعلوم البلاغة جاهلًا بعلم الأصول، بل كانت العلوم الأصلية والركيزة الأساسية التي هي متطلبات التعليم الأزهري هي تلك العلوم التي تتضافر علىٰ أن تقيم في ذهن الطالب الأزهري الحد الأدنىٰ من المعارف التي تؤهله لفهم الوحيين الشريفين.

وتبقىٰ من وراء ذلك علوم أخرىٰ إضافية، لذوي المهارات والاهتمامات الخاصة، تسمو إليها همم بعض النوابغ، وتتألق فيها مواهبهم، وتجود بها عقولهم، كعلم الفلك، وعلوم الهندسة، وعلم الطب، إلىٰ غير ذلك من العلوم.

وكان يعبر عن ذلك قديما بجعل العلوم قسمين: علوم يتداول تدريسها، وعلوم لا يتداول تدريسها، والعلوم التي يتداول تدريسها مقاصد ووسائل، والعلوم التي لا يتداول تدريسها تكون من المرجحات لتقديم بعض أهل الدرجة الواحدة، فورد في قانون الجامع الأزهر الصادر سنة ١٣١٤هـ الموافق سنة ١٨٩٦م ما نصه: (العلوم التي تدرس في الأزهر تنقسم إلىٰ قسمين: مقاصد ووسائل، فأما المقاصد فهي علم الكلام وعلم الأخلاق الدينية، والفقه وأصوله، وتفسير القرآن والحديث، وأما الوسائل فالنحو والصرف، والمعاني والبيان والبديع، والمنطق ومصطلح الحديث، والحساب والجبر والعروض والقافية.

أما تحصيل العلوم الغير متداول تدريسها الآن بالأزهر كتاريخ الإسلام وصناعة الإنشا قولًا وكتابة (وهي من علوم المقاصد) وكاللغة متنًا وأدبًا، ومبادئ الهندسة وتقويم البلدان «وهي من الوسائل» وخلافها من العلوم العقلية والنقلية فيكون من المرجحات المميزات الموجبة لتقديم بعض أهل الدرجة الواحدة على البعض)[1].

وقد ورد في محاضر مجلس شورى القوانين سنة ١٩١١م ذكر ذلك بتفصيل حسن نصه: (أما العلوم التي تدرس بالجامعة الأزهرية فهي العلوم الدينية وعلوم اللغة العربية، يضاف إليها ما يلزم من العلوم والفنون الأخرى التي تلزم لمثل هذه الجامعة، مما يكون فيه لطلابها عون على التضلع من علومهم الأصلية التي هي المقصد الأول من وجودها)[2].

وقال حضرة الأستاذ إسماعيل علي مدرس علم تقويم البلدان بالجامع الأزهر الشريف سنة ١٩٠٣م وهو يتحدث عن القاهرة: (الجامع الأزهر، أول جامع إسلامي بني بها، وقد كانت تدرس فيه زيادة على العلوم العقلية والنقلية كافة العلوم الرياضية، وعلم تقويم البلدان، وعلم الطب، وعلم الهيئة والحكمة «الفلسفة» الإسلامية، حتى لما علا اسمه، واشتهر صيته، أمه كثير من الطلاب من سائر الجهات الإسلامية، فنبغ به كثير من فحول العلماء، ومشاهير الأدباء والحكماء، ولم يزل لغاية الآن منبعا للعلوم الإسلامية، والآداب الشرقية، وله شهرة في كافة الجهات، لا سيما في العلوم الدينية والفنون اللغوية)[3].

وقد جاء في المشروع المقدم لصاحب العطوفة محمد سعيد باشا تعليقًا على أفراد من الأزهريين ضاق أفقهم وذهبوا إلى معاداة العلوم التطبيقية، مع أن الأزهر ظل على مدى قرون يعتني بها، فورد في مشروع سعيد باشا ما نصه: (قالوا ذلك حوالي سنتي ١٣١٢هـ و١٣١٤هـ و١٨٩٥م و١٨٩٦م، وما دروا أنه لم يكن بينهم وبين زمن زهو العلوم العقلية بجامعتهم إلا ثلاثين عامًا، وأن منهم من حضر ذلك العهد الزاهر الزاهي.

ففي سنة ١٢٨٢هـ أرادت الحكومة أن تعرف عدد علماء الجامع الأزهر وعدد طلبته والعلوم التي تدرس فيه، لتبعث بذلك إلى لجنة المعرض «معرض باريس»، فكتبت المحافظة إلى المشيخة تطلب هذا البيان بتاريخ ١٢ رمضان سنة ١٢٨٣هـ «١٨ يناير سنة ١٨٦٧م»، نمرة ٦٨٣ سايرة، وأجابتها المشيخة بخطاب تاريخه ١٤ شوال سنة ١٢٨٣هـ «١٩ فبراير سنة ١٨٦٧م نمرة ١٩١» تقول فيه:

علماء الأزهر الشافعية ١٠١، والأحناف ٤٢، والمالكية ٧٧، والحنابلة عالم واحد، وجملتهم ٢٢١

(١) قاموس الإدارة والقضا /١/٨٠/.

(٢) مجلس شورى القوانين مجموعة محاضر دور انعقاد ١٩١٠ - ١٩١١م/ص٢٦٥/، ط: المطبعة الأميرية بمصر، سنة ١٩١١م.

(٣) النخبة الأزهرية، في تخطيط الكرة الأرضية /ص١٧٣/، ط: مطبعة أندريا كوستا جليولا، مصر، سنة ١٩٠٣م.

عالمًا، وجملة الطلبة بجميع الأروقة ٤٧١٢، وأما العلوم التي تدرس به فهي:

الفقه، الأصول، التفسير، الحديث رواية ودراية، التوحيد، النحو، الصرف، المعاني، البيان، البديع، اللغة، الوضع، العروض، القافية، الحكمة الفلسفية، التصوف، المنطق، الحساب، الجبر والمقابلة، الفلك، الهيئة.

ثم قالت: «هذه هي العلوم المتداولة في الأزهر، يقرؤها هؤلاء العلماء لطلبتهم بحسب مراتبهم، وما عداها كالهندسة، والطبيعة، والموسيقىٰ، والتاريخ، وغيرها، يقرؤنها لمن لهم اقتدار علىٰ تناولها، إلا أن المشتغل بها قليل، لعدم رغبة الطلبة فيها»[(١)].

وقد ورد في قانون الأزهر الصادر سنة ١٣١٤هـ الموافق سنة ١٨٩٦م في الباب الثالث المتعلق بالتعليم وأحكام عامة تتعلق به، في الفصل الأول المتعلق بالعلوم التي تدرس في الأزهر: (١٧ ـ العلوم التي تدرس في الجامع الأزهر تنقسم إلىٰ قسمين: مقاصد ووسائل، فأما المقاصد فهي علم الكلام وعلم الأخلاق الدينية والفقه وأصوله وتفسير القرآن والحديث، وأما الوسائل فالنحو والصرف والمعاني والبيان والبديع والمنطق ومصطلح الحديث والحساب والجبر والعروض والقافية.

١٨ ـ أما تحصيل العلوم الغير متداول تدريسها الآن بالأزهر، كتاريخ الإسلام، وصناعة الإنشاء قولا وكتابة، (وهي من علوم المقاصد)، وكاللغة متنًا وأدبًا، ومبادئ الهندسة، وتقويم البلدان (وهي من الوسائل)، وخلافها من العلوم العقلية والنقلية، فيكون من المرجحات المميزات الموجبة لتقديم بعض أهل الدرجة الواحدة علىٰ بعض.

١٩ ـ العلوم التي يقصد من تعليمها العمل بها كعلوم البلاغة يجب علىٰ مدرسيها تمرين الطلبة علىٰ تطبيق العلم علىٰ العمل.

٢٠ ـ يخصص لعلوم المقاصد أوسع أوقات الدروس ولا يصرف في الوسائل من زمن الدراسة ما يساوي الزمن الذي يصرفه في المقاصد.

٢١ ـ لا يتقيد طلب العلم في الجامع الأزهر بكتب معينة فيجوز أن يكون التدريس في أي الكتب بشرط أن يصدق عليه مجلس الإدارة.

٢٢ ـ تمنع قراءة الحواشي والتقارير منعًا باتًا في جميع العلوم في الأربع سنوات الأولىٰ ويُكتفىٰ بالمتون والشروح الواضحة وبعد الأربع سنوات تخير الطلبة والأساتذة في النظر في الحواشي وعدم النظر فيها، أما التقارير فلا يجوز استعمالها إلا بقرار من مجلس الإدارة.

(١) مشروع مقدم لصاحب العطوفة محمد سعيد باشا قائمقام الحضرة الخديوية ورئيس النظار /ص٨٦/.

٢٣ ـ لا يباح للطالب أن يشتغل بعلم من علوم المقاصد قبل أن يستحصل من وسائله علىٰ ما يمكنه من فهمه، وعلىٰ كل طالب من مذهب من المذاهب أن يتلقىٰ أصول مذهبه)(١).

فأفاد هذا الكلام أن العلوم الأصلية التي هي مناط تخريج الطالب وأهليته للعالمية من الأزهر هي العلوم المنصوص عليها، ثم يتاح المجال لمن أراد السباحة في بقية العلوم، ومن أجل هذا وصلت العلوم التي يتم تدريسها في الأزهر في بعض الأزمان إلىٰ ثلاثين علمًا، وكان خبراؤها وشيوخها متوفرين، يسعفون من أراد.

ولقد كان المعتاد في المتخرجين في الأزهر أن يتقنوا علومه الأصلية ويتبحروا فيها، لا يخلُّ بذلك أحد منهم، ثم لا يخلو جيل من أجيال من ذوي المهارة وسعة الاطلاع علىٰ بقية العلوم.

فممن نبغ في تلك العلوم مثلًا شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ أحمد الدمنهوري المتوفىٰ عاشر شهر رجب، سنة ١١٩٢هـ، الموافق ٤ أغسطس ١٧٧٨م، كما بسط هو ذلك في ثبته (اللطائف النورية، والمنح الدمنهورية)، وهو مخطوط في المكتبة الأزهرية، وقد طالعته قديمًا، قال رفاعة بك الطهطاوي ﷺ في: (مناهج الألباب): (لا سيما وأن هذه العلوم الحكمية العملية التي يظهر الآن أنها أجنبية، هي علومٌ إسلامية، نقلها الأجانب إلىٰ لغاتهم من الكتب العربية، ولم تزل كتبها إلىٰ الآن في خزائن ملوك الإسلام كالذخيرة، بل لا زال يتشبث بقراءتها ودراستها من أهل أوربا حكماء الأزمنة الأخيرة، فإن من اطلع علىٰ سند شيخ الجامع الأزهر الشيخ أحمد الدمنهوري، الذي كانت مشيخته قبل شيخ الإسلام أحمد العروسي الكبير، جد شيخ شيوخ الجامع الأزهر الآن، السيد المصطفوي، العلم الشهير، رأىٰ أنه قد أحاط من دوائر هذه العلوم بكثير، وأن له فيها المؤلفات الجمة، وأن تلقيها إلىٰ أيامه كان عند أهل الجامع الأزهر من الأمور المهمة)(٢).

إلىٰ أن قال: (فانظر إلىٰ هذا الإمام، الذي كان شيخ مشايخ الجامع الأزهر، وكان له في العلوم الطبية والرياضية وعلم الهيئة الحظ الأوفر، مما تلقاه عن أشياخه الأعلام، فضلًا عن كون أشياخه كانوا أزهرية، ولم يفتهم الوقوف علىٰ حقائق هذه العلوم النافعة في الوطنية)(٣).

وأقول: لم يزل أهل العلم عبر الزمان يشترطون في كل من يتصدر للناس ويتعرض للشأن العام أن يُلِمَّ بحظٍّ من العلوم التي تجعله يدرك ما يدور بين الناس من نوازل عصرهم وأسئلته وإشكالاته، حتىٰ

(١) جريدة الإسلام /عدد ٨ السنة الثالثة /ص١٩٥/، الصادر بتاريخ ربيع الثاني سنة ١٣١٤هـ، الموافق سبتمبر سنة ١٨٩٦م.

(٢) مناهج الألباب المصرية، في مباهج الآداب العصرية /ص٣٧٢/، ط: الجوائب، سنة ١٣٣٠هـ.

(٣) مناهج الألباب /ص٣٧٥/، من طبعة الجوائب، وهو في /ص٤٨٨/، من طبعة سلسلة: (في الفكر النهضوي الإسلامي)، الصادرة عن مكتبة الإسكندرية، ط: دار الكتاب المصري، القاهرة، ودار الكتاب اللبناني، بيروت، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

لا تقتصر علومه على العلوم الشرعية البحتة، معزولة عما يجري بين الناس من شئون، وقديمًا قال الحافظ الخطيب البغدادي في: (الفقيه والمتفقه): (لأنَّ الفقِيه يحتَاجُ أَن يتعلَّق بطَرَف مِن مَعرفةِ كلِّ شَيءٍ من أمورِ الدُّنيا والآخرة، وإلى معرفة الجد والهزل، والخلاف والضد، والنفع والضر، وأمور الناس الجارية بينهم، والعادات المعروفة منهم، فمن شرط المفتي النظر في جميع ما ذكرناه، ولن يدرك ذلك إلا بملاقاة الرجال، والاجتماع مع أهل النحل والمقالات المختلفة، ومساءلتهم، وكثرة المذاكرة لهم، وجمع الكتب، ودرسها، ودوام مطالعتها)[1].

فكان علماء الأزهر أطيافًا وطبقات، فمنهم العاكف على تدريس العلوم التي أتقنها، وهو لا يبالي بشيء مما يتلاطم بين الناس من أحداث، ومنهم من اتسع خاطره، وذهب يسخر قواعد علوم الشريعة التي تبحر فيها لحل إشكالات الناس، وإسعافهم، مما يلزمه معه أن يحيط بأيام الناس وتعاقداتهم وبيوعهم وأفكارهم، حتى يتمكن من النهوض بما يفزع الناس إليه فيه، مفتيًا كان أو قاضيًا أو إمامًا جليل الشأن متصديًا للشأن العام.

(١) الفقيه والمتفقه /٢/٣٣٤، ط: دار ابن الجوزي، المملكة العربية السعودية، سنة ١٤١٧هـ - ١٩٩٦م.

إضَاءَةٌ
في معالم عناية الأزهر بالتفسير وعلوم القرآن

وأما إقراء القرآن الكريم، وأسانيده، والتفسير، وعلوم القرآن، وأصول التفسير، وعلوم القراءات، والتجويد، وفنون الأداء، وما يلتحق بذلك، فهي رأس العلوم الأزهرية وأصلها وأساسها، إجلالا للقرآن الكريم، وقياما منهم بخدمة تلاوته وفنون أدائه وعلومه، ونظرًا إلىٰ أن كل علوم الأزهر في الحقيقة دائرة في فلك خدمة النص القرآني، وحشد العلوم التي تعين علىٰ فهمه واستنباطه، وصناعة العلماء المؤتمنين علىٰ تأويله واستخراج فقهه وعلومه.

وما زال الأزهر وشيوخه يعتنون العناية الكبرىٰ بالإقراء، والتجويد، والقراءات، وعلوم القرآن، حتىٰ دارت أسانيد القرآن في الأعم الأغلب عليهم، واشتهروا في الآفاق بإتقان تلك العلوم، وفزع إليهم علماء الأقطار في تحرير المشكلات والدقائق التي تطرأ في ذلك، حتىٰ إن علماء إستانبول ـ وهي دار الخلافة ـ كانوا عندما يحزبهم الأمر في تلك العلوم يحتكمون إلىٰ العلماء المصريين الأزهريين، كما حدث مع الشيخ البقري، الذي وردت إليه سنة ١١٤٠هـ سؤالات حول مشكلات في القراءات، وجهها علماء القسطنطينية، فأجاب عنها في كتابه: (مشكلات، في القراءات)(١).

قال عبد الله النديم: (ولتقدم أهل الأزهر علىٰ أهل المدارس في الإنشاء سبب واحد، هو حفظ الأزهريين للقرآن الكريم في الصغر، فذهن الواحد منهم محشو بمادة البلاغة، وقاموس الفصاحة، وأبدع أسلوب إنشائي وقف الفصحاء والبلغاء بين يديه، وقد ألقموا الحجارة في معارضته، فما بلغ بليغ أدنىٰ مرتبة من مراتب الإنشاء في جانبه، ولا أفصح فصيح عن معنىٰ بديع يضارع به ركنا من البلاغة التي صحبته من الفاتحة إلىٰ الختام)(٢).

وقال العلامة الشيخ محمد رحمت الله الهندي: (والقرآن في كل طبقة كما كان محفوظًا في الصحائف فكذا كان محفوظًا في صدور أكثر المسلمين، ومن كان شاكًا في هذا الباب فليجرب في هذا الزمان أيضًا، لأنه لو رأىٰ المجرب في الجامع الأزهر فقط من جوامع مصر، وجد في كل وقت أكثر من

(١) الثقافة التركية في مصر: جوانب من التفاعل الحضاري بين المصريين والأتراك /ص١٨٤/.

(٢) مجلة الأستاذ /ص١٧٧/، الجزء الثامن، من السنة الأولىٰ، العدد الصادر بتاريخ الثلاثاء، ٢٠ ربيع الأول، سنة ١٣١٠هـ، الموافق ١١ أكتوبر، سنة ١٨٩٢م.

ألف شخص يكونون حافظين للقرآن كله على سبيل التجويد التام، ووجد كل قرية صغيرة من قرى الإسلام من مصر لا تخلو عن الحفاظ)[١].

وقال المستشرق الشهير فيليب حتى: (وما يزال القرآن في الأزهر ـ وهو أعظم جامعة إسلامية في العالم ـ أساسًا لمنهاج الدراسة والتهذيب)[٢].

وقد فاض ذلك من الأزهر الشريف على أبناء القطر المصري بأكمله، فظل على مدى قرون والناشئة فيه لا يبدأون سلم التعليم إلا بحفظ القرآن الكريم، قال لبيب السعيد: (وظل حفظ القرآن في مصر ـ إلى وقتٍ قريبٍ ـ هو رأس الواجبات التي يُكَلَّفُها النشء، في المرحلة التعليمية الأولى، فكانت المادة الرئيسية الغالبة في سائر الكتاتيب والمدارس الأولية هي حفظ القرآن مُجَوَّدًا، وكانت المواد الدراسية الأخرى ـ فوق كونها ثانوية ـ تقصد إلى خدمة هذا الحفظ.

والذين كانوا يختمون القرآن في هذه المدارس والكتاتيب كانوا بمثابة شَتَلات صالحة تُنقل إلى أرض الأزهر فيزكو نباتها.

ولم تكن أبواب مدارس المعلمين الأولى، والأزهر ومعاهده، ودار العلوم وتجهيزيتها، ومدرسة القضاء الشرعي تفتح أبوابها لغير حافظي القرآن المجودين)[٣].

وأسانيد قراء القرآن الكريم تنشعب في سائر الشعوب والأمم إلى كثرة كاثرة لا تنحصر، لما نهضت فيه الأقطار للقيام بخدمة القرآن الكريم وتلاوته، لكن سلاسلها جميعا ترجع إلى مصر وقراء مصر وقراء الأزهر الشريف، قال فضيلة الشيخ أيمن سويد: (قراء مصر هم أساتذة القراءة على مر العصور في العالم، ولو نظرنا مثلًا إلى أسانيد تركيا ـ وتركيا فيها القراء والأسانيد ـ لوجدت أن أسانيد تركيا ترجع إلى رجلين مصريين، الأول: أحمد المسيري المصري، والثاني: علي المنصوري رحم الله الجميع، وهذان الشيخان ـ من شيوخ مصر ـ اللذان رحلا إلى تركيا لتعليم القرآن.

ولو نظرنا إلى أسانيد الهند وباكستان لوجدنا أنها ترجع إلى أحد مشايخ مصر، وهو محمد المنوفي.

أمَّا لو جئنا إلى القراء الكبار فلا شك أن كل الناس تستمع إلى عبد الباسط والحصري والمنشاوي ومحمود البنا ومصطفى إسماعيل، وغيرهم من القراء الكبار، الذين أطربوا الدنيا، وملأوها قرآنا،

(١) إظهار الحق /٢/٥٩٧/.

(٢) العرب: تاريخ موجز /ص٥١/، ط٦: دار العلم للملايين، بيروت، سنة ١٩٩١م.

(٣) الجمع الصوتي الأول للقرآن الكريم، أو المصحف المرتل /ص٣٥٨/، ط: دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة، سنة ١٣٨٧هـ ـ ١٩٦٧م، وللأستاذ محمد عبد الجواد كتاب مهم جدا اسمه: (في كُتّاب القرية)، ط: مطبعة المعارف ومكتبتها بمصر، سنة ١٣٥٨هـ ـ ١٩٣٩م، وهو دراسة مهمة عن ظاهرة الكتاب، وأعرافها، ونظم التعليم فيها.

فرحمهم الله أجمعين، وبارك في القراء الموجودين).

وقد نقل هذا عنه فضيلة الشيخ حسن مصطفى أحمد الوراقي ثم عقب بقوله: (أقول: كذلك غالب أسانيد الهند وباكستان وأفغانستان وجنوب أفريقيا وغيرها من البلاد ترجع إلى الشيخ إبراهيم سعد المصري، وهو عن حسن الجريسي الكبير المصري، وهو عن الدري التهامي ومحمد المتولي المصريين)[1].

وقد عكف الأزهريون على إبداعات جليلة في هذه الفنون الشريفة، ووقع ذلك عندهم على فنون: الفن الأول: التفسير، الفن الثاني: علوم القرآن وأصول التفسير، الفن الثالث: الدخيل على التفسير، الفن الرابع: مناهج المفسرين، الفن الخامس: القراءات، الفن السادس: التجويد ورسم المصحف، الفن السابع: الدفاع عن القرآن الكريم ورد الشبهات، الفن الثامن: ربط القرآن الكريم بالعلوم الحديثة، الفن التاسع: ترجمات القرآن، الفن العاشر: إنشاء الهيئات الخاصة الخادمة للقرآن الكريم، الفن الحادي عشر: مجالس التفسير.

◉ أما **الفن الأول** والذي هو التفسير: فحدث ولا حرج عن جهود الأزهريين في ذلك، وقد دبجوا عددًا من التفاسير للقرآن الكريم، سواء كانت تفاسير كاملة، أو تفاسير موضوعية لقضايا محددة، أو تفاسير لسور محددة، إلى غير ذلك من صور خدمتهم لتفسير القرآن الكريم.

أما التفاسير الكاملة فقد كتب فيها منهم عدد لا ينحصر من السادة العلماء، فمنهم العلامة الخطيب الشربيني، حيث جمع تفسيره (السراج المنير، في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير)، فكان متداولًا لإقراء التفسير في الأزهر، والعلامة محمد بن أحمد الخربتاوي ت بعد ١٢١٧هـ له تفسير اسمه: (فتح الرحمن، بتفسير القرآن)، والشيخ أحمد المراغي له: (تفسير المراغي)، والشيخ محمد محمود حجازي في: (التفسير الواضح)، والشيخ محمد سيد طنطاوي في (الوسيط)، وعمدة المفسرين الشيخ محمد متولي الشعراوي في تفسيره.

وأما كتابة الحواشي على تفاسير معتمدة، فقد كتب في ذلك منهم عدد كبير جدًّا من العلماء، كحاشية العلامة البرهان السقا ت١٢٩٨هـ على تفسير أبي السعود، وحاشية العلامة أحمد الصاوي ت١٢٤١هـ على تفسير الجلالين، وكانت متداولة عند الأزهريين في إقراء التفسير، وحاشية العلامة علي ابن شلبي الشبيني على الجلالين ت بعد ١١٩٥هـ واسمها: (ضوء النيرين، لفهم تفسير الجلالين)، وحاشية العلامة سليمان بن عمر الجمل ت ١٢٠٤هـ على الجلالين واسمها: (الفتوحات الإلهية، بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية)، وكانت معتمدة ومتداولة عند الأزهريين في دروس التفسير، وحاشية

(١) تحفة الإخوان، بما علا من أسانيد قراء هذا الزمان /ص٢٦٠/، ط: مؤسسة قرطبة، القاهرة، مصر، سنة ١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م.

العلامة عبد الله بن محمد الشافعي النبراوي ت١٢٧٥هـ على الجلالين، واسمها: (قرة العين ونزهة الفؤاد)، وحاشية العلامة عطية الله بن عطية الأجهوري الشافعي ت١١٩٠هـ على الجلالين، واسمها: (الكوكبين النيرين، في حل ألفاظ الجلالين)، وحاشية العلامة الشيخ إبراهيم بصيلة ت١٣٥٢هـ على تفسير النسفي واسمها: (الكنز الجليل، على مدارك التنزيل وحقائق التأويل)، ألفها لما شرع في إقراء تفسير النسفي لطلبته في الجامع الأزهر سنة ١٣٣١هـ، وتقع هذه الحاشية في ألفي ورقة، مخطوط.

وأما جهودهم في التفسير الموضوعي فكتابات كثيرة جدًا؛ منها: حيث كتب العلامة المفسر الشيخ عبد العزيز الدردير عددًا كبيرًا من المؤلفات في التفسير الموضوعي، وكتب العلامة الشيخ محمد الحسيني ابن إبراهيم الظواهري المتوفى سنة ١٩٤٦م ككتابه القيم: (القول السديد في تفسير آيات النسخ والطلاق والربا من القرآن المجيد)، وهو مطبوع، ومنها كتاب: (مذكرة في التفسير الموضوعي فائدته وحاجة العصر إليه) للعلامة الدكتور أحمد السيد الكومي ﷺ.

وأما جهودهم في تفسير سورة معينة من القرآن؛ فمن ذلك: (تفسير سورة الفاتحة) للسيد مصطفى البكري ت١١٦٢هـ، و(تفسير سورة القدر) للعلامة الأمير الكبير، و(تفسير سورة الإخلاص) للشيخ مصطفى الجندي ت١٢٦٤هـ، و(كلمات معدودات، في تفسير سورة المرسلات) للعلامة محمود ابن أحمد الغمرواي.

وأما جهودهم في تفسير آية معينة؛ فمن ذلك: (رسالة في تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ مِن رَّسُولٖ وَلَا نَبِيٍّ﴾[1])، لشيخ الأزهر الإمام مصطفى العروسي ت١٢٦٣هـ، و(السر القدسي، في تفسير آية الكرسي) لسبط ناصر الدين الطبلاوي ت١٠١٤هـ، و(القول الصحيح، في آيات المسيح) للعلامة عبد الرحمن الخضري ت١٩٢٤م، و(القول المسترضى، في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَسَوۡفَ يُعۡطِيكَ رَبُّكَ فَتَرۡضَىٰٓ﴾[2])، للعلامة منصور الطبلاوي، مخطوط.

الفن الثاني: علوم القرآن وأصول التفسير: فقد شهد الأزهر عددًا من المبدعين في علوم القرآن، ومن أهم ما كتب على يد الأزهريين في الفترة المتأخرة: ما كتبه العلامة عطية الأجهوري ت١١٩٠هـ في: (إرشاد الرحمن، لأسباب النزول والنسخ والمتشابه وتجويد القرآن)، وكتب العلامة الشيخ محمد الخضري ت١٢٨٧هـ رسالة في مبادئ التفسير.

وكتب العلامة الكبير الشيخ محمد حسنين مخلوف العدوي المالكي المتوفى ١٣٥٥هـ: (المدخل

(١) سورة الحج، الآية ٥٢.
(٢) سورة الضحى، الآية ٥.

المنير في مقدمة علم التفسير)، وله (عنوان البيان في علوم التبيان) وكلاهما مطبوع.

وكتب العلامة الشيخ الفقيه المفسر محمود أبو دقيقة (مذكرة في أصول القرآن) سلك فيها مسلك التوسط، وقد كان هذا البحث مقررًا على تخصص الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين.

ثم جاء بعده المغفور له العلامة الشيخ محمد علي سلامة من كبار العلماء بالأزهر، فألف كتابًا حافلًا ـ كما قال عنه العلامة الزرقاني ـ سماه: «منهج الفرقان في علوم القرآن» وقد طُبع في مجلدين، وقد سلك فيه مؤلفه مسلكًا وسطًا، وقد اشتمل على الكثير من أنواع علوم القرآن، قال عنه الدكتور محمد عبد المنعم القيعي: «هذب فيه بعض مباحث علوم القرآن من «الإتقان» و«البرهان»، وأوضح العبارة للطلاب بأسلوب السهل الممتنع».

ثم قام العلامة الشيخ المحقق محمد عبد العظيم الزرقاني المتوفى سنة ١٣٦٧هـ بعمل عظيم النفع من خلال كتابه: (مناهل العرفان في علوم القرآن)، وهو مطبوع في مجلدين غير مرة، وقد ذكر ﷺ في أوائل كتابه أن من أجل مقاصده: (أن تكون كتابتي من النسق الأزهري الجديد في تفكيره وفي تعبيره بحيث يتيسر فهمه وهضمه للقراء من أبناء هذا الجيل سواء منهم المحقق الأزهري والمثقف المدني فإن لكل زمان لغة ولسانًا ومنطقًا وبرهانًا).

وكتب العلامة الدكتور محمد عبد الله دراز: (مدخل إلى القرآن الكريم حقائق تاريخية) وهو مطبوع في وزارة الأوقاف والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية سنة ١٩٩٤م، وكتابه العظيم: (النبأ العظيم)، قال الدكتور عبد العظيم المطعني في تقديمه للكتاب: «وكتابه «النبأ العظيم» واحد مما دبَّجَهُ قلمه القدير، وأفرزته قريحته الصافية، وهو موقوف على بيان وجوه جديدة من وجوه «الإعجاز القرآني البياني واللغوي والعقلي»، وما ورد في هذا الكتاب من إعجاز القرآن، وإثبات أنه كلام الله، لو لم يكن في موضوع الإعجاز كتاب غيره لا سابق عليه ولا لاحق له لكان كتابه كافيًا في هذا المجال الحيوي، ولقامت به الحجة لله قوية على منكري سماوية القرآن من قُدَامى ومُحدَثين، فقد أثبت ـ ﷺ ـ أن هذا القرآن يستحيل عقلًا وعلمًا وواقعًا أن يكون له مصدر غير الله ﷻ).

وكتب العلامة عبد المتعال الصعيدي (مفاتيح كنوز القرآن)، وكتب العلامة عبد الله بن محمد ابن الصديق الغماري الأزهري كتابه الماتع (جواهر البيان في تناسب سور القرآن).

وكتب العلامة الجليل إبراهيم خليفة كتابه: (منة المنان، في علوم القرآن)، وله أيضا: (الإحسان في علوم القرآن).

وكتب العلامة الشيخ محمد عبد المنعم القيعي كتابه: (الأصلان، في علوم القرآن).

وكتب العلامة الشيخ علي محمد نصر فراج عميد كلية أصول الدين بأسيوط سابقًا عدة مؤلفات منها: (الإتقان، في علوم القرآن)، ومنها (شقائق النعمان، في علوم القرآن).

❁ **الفن الثالث:** الدخيل على التفسير: فقد ألف فيه العلامة السيد عبد الله الصديق الغماري كتابه (بدع التفاسير)، وألف الدكتور محمد أبو شهبة كتابه (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير)، وألف العلامة الدكتور إبراهيم خليفة كتابه: (الدخيل في التفسير)، ثم كثرت الكتابات في هذا عند أساتذة قسم التفسير بكليات أصول الدين، حيث اعتنى العلامة الشيخ أحمد الكومي بهذا النمط من الدراسات، فكان من أهم أعماله أنه اقترح إدخال الدخيل مادة أساسية تدرَّس على الطلاب في كلية أصول الدين بالأزهر الشريف، واجتهد في أن توزع جميع سور القرآن الكريم على الطلاب ليسجلوا بحوثهم في (الماجستير) و(الدكتوراه) وبهذا خدم التفسير خدمة جليلة.

❁ **الفن الرابع:** مناهج المفسرين: فقد ألف فيه الأستاذ الدكتور محمد حسين الذهبي كتابه الماتع: (التفسير والمفسرون)، وألف الأستاذ الدكتور علي محمد نصر فراج كتابه: (الدر الثمين، في مناهج المفسرين)، وللدكتور إبراهيم خليفة كتابه الجليل: (دراسات في مناهج المفسرين)، وللعلامة الدكتور عبد الغفور محمود مصطفى جعفر (دراسات في علوم القرآن ومناهج المفسرين)، وله أيضًا كتاب: (مناهج المفسرين)، وكتب الدكتور محمد سالم محيسن: (طبقات المفسرين ومناهجهم)، وهو مطبوع، وكتب الدكتور منيع عبد الحليم محمود: (مناهج المفسرين)، طبع أواخر السبعينات، وكتب الأستاذ الدكتور محمود النقراشي السيد علي: (مناهج المفسرين من العصر الأول إلى العصر الحديث).

❁ **الفن الخامس:** القراءات، فكتب العلامة ناصر الدين الطبلاوي ت٩٦٦هـ (الشمعة المضية، بنشر القراءات السبع المرضية)، وألف العلامة الشهاب أحمد بن محمد الدمياطي ت ١١١٧هـ كتابه المشهور: (إتحاف فضلاء البشر، في القراءات الأربعة عشر)، وكتب العلامة محمد بن حسن المنير السمنودي ت١١٩٩هـ (القواعد المحررة المنثورة، في أصول القراءات العشرة المشهورة)، وله أيضًا (إتحاف حملة القرآن، برواية سيدي عثمان عن الإمام نافع من طريق الشاطبية)، وكتب العلامة حسن ابن علي بن أحمد المدابغي الشافعي الأزهري (إتحاف فضلاء الأمة المحمدية، ببيان جمع القراءات السبع من طريق التيسير والشاطبية)، وله أيضا: (فتح الرحمن، ببيان روايات القرآن)، جمع فيه روايات القراءة السبعة من طريقي التيسير والشاطبية، وكتب العلامة علي بن سليمان المنصوري ت١١٣٤هـ (إرشاد الطلبة، إلى شواهد الطيبة)، وكتب العلامة شمس الدين محمد بن أحمد الشوبري ت١٠٦٩هـ (أنوار الطلعة، في

مذاهب القراء السبعة)، وكتب العلامة شمس الدين أبو السعود محمد الدمياطي الشافعي ت بعد ١٠٩٢هـ (أسئلة وأجوبة في القراءات)، وكتب الإمام أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري (بغية الفقير، لما للطيبة من التكبير)، وكتب العلامة أبو السعود محمد الدمياطي الشافعي (بيان الصحيح المعتمد المقروء به من طريق الحرز للإمام حمزة عند الوقف)، وكتب العلامة الشيخ علي بن عمر الميهي الأزهري الشافعي الضرير (تنبيه الصغار، على ما خفي على بعض الأفكار)، وهو تعليق واف برواية الإمام حفص عن الإمام عاصم الكوفي من طريق الشاطبية، وألف العلامة محمد بن حسن المنير السمنودي (شرح الدرة المضية، في قراءات الأئمة الثلاثة المرضية)، وألف العلامة رضوان المخللاتي (شفاء الصدور، بذكر قراءات الأئمة السبعة البدور)، وللعلامة الشيخ حسن خلف الحسيني: (إتحاف البرية، في تحرير الشاطبية).

وحسبك مؤلفات الإمام المتولي شيخ القراء على الإطلاق، وقد كان لمعهد القراءات التابع للأزهر الشريف دور كبير في تحرير التآليف المتعلقة بهذا الفن الشريف.

◉ **الفن السادس:** التجويد، وقد ألف فيه العلامة زين الدين أبو محمد عبد الدائم بن علي القاهري الحديدي الأزهري الشافعي ت٨٧٠هـ (الطرازات المعلمة، في شرح المقدمة)، وألف العلامة الشيخ خالد الأزهري الجرجاوي ت٩٠٥هـ (الحواشي الأزهرية، في حل ألفاظ المقدمة الجزرية)، وألف العلامة ناصر الدين محمد بن سالم الطبلاوي (مرشدة المشتغلين، في أحكام النون الساكنة والتنوين)، وألف العلامة زكي الدين منصور بن عيسى بن غازي السمنودي الأنصاري المصري (تحفة الطالبين، في تجويد كتاب رب العالمين)، وكتب العلامة عبد الرحمن النحراوي الأجهوري المقرئ ت١٢١٠هـ حاشية على شرح الجزرية اسمها: (النكات الحسان، على شرح شيخ الإسلام لمقدمة تجويد القرآن)، وللعلامة محمد بن أحمد بن زهوان الأجهوري ت بعد ١١٦٦هـ (الرعاية للإحسان، في تجويد القرآن)، وألف العلامة محمد بن قاسم البقري الشناوي ت١١١١هـ (العمدة السنية، في أحكام النون الساكنة والتنوين والمد والقصر ولام الفعل واللام القمرية والشمسية)، وله أيضا: (غنية الطالبين، ومنية الراغبين) في علم التجويد، وألف العلامة نور الدين علي بن عبد الله الأزهري السنهوري ت٨٨٩هـ (الفوائد السنهورية، في شرح الجزرية)، وألف العلامة محمد مكي نصر كتابه الجامع المحرر (نهاية القول المفيد، في علم التجويد).

وكذلك كتاباتهم في رسم المصحف: فكتب العلامة محمد بن عبد الرحمن النابلي الفلكي المصري ت بعد ١٢٨٥هـ (عمدة العرفان، في مرسوم القرآن)، وكتب العلامة المتولي منظومته (رسالة في رسم المصحف)، والعلامة الشيخ رضوان المخللاتي ت١٣١١هـ (إرشاد القراء والكاتبين، إلى معرفة رسم الكتاب المبين).

◉ **الفن السابع:** الدفاع عن القرآن الكريم ضد حملات المشككين: كتب العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي المتوفىٰ ١٣٥٤هـ كتابًا قيمًا بعنوان: (حسن البيان في إزالة بعض شبه وردت علىٰ القرآن)، وكتب أيضا: (الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن)، وهما مطبوعان.

وكتب العلامة الفقيه المفسر يوسف الدجوي المتوفىٰ ١٣٦٥هـ كتابه القيم: (الجواب المنيف في الرد علىٰ مدعي التحريف في الكتاب الشريف)، يرد فيه علىٰ مفتريات كتاب (هل من تحريف في الكتاب الشريف) الذي ألَّفه القس كولديساك الإنجيلي، وقد شحنه العلامة الدجوي بالنصوص الواضحة، والحجج الدامغة التي تبطل كل شبهة ادعاها القس كولديساك الإنجيلي، وصدَّره بفاتحة أوضح فيها سبب تأليف كتابه، ونعىٰ علىٰ حكام المسلمين وأغنيائهم وعلمائهم ما هم فيه من التواني عن نصرة الإسلام، وقد طبع بمطبعة النهضة الأوربية سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م، وعدد صفحاته ٢٧٧ صفحة.

ومنهم الإمام الأكبر وشيخ الجامع الأزهر العلامة الكبير محمد الخضر حسين، حيث ألقىٰ الدكتور طه حسين في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة أكسفورد سنة ١٣٤٧هـ محاضرة عنوانها: «ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن» نشرتها مجلة الرابطة الشرقية جاء فيها: «إن ضمير الغائب يجب أن يعود إلىٰ مذكور يتقدمه لفظًا ورتبة، يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث وفي الإفراد والتثنية والجمع، وأن ما ورد علىٰ خلاف ذلك تأولوه بتكلف»، وأوضح هذا بأمثلة من القرآن، وقد رد عليه الأستاذ محمد الخضر حسين في كتابه القيم: «بلاغة القرآن» برد شافٍ كافٍ.

وكتب مقالًا في مجلة (نور الإسلام)[1] في نقد كتاب: (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) من تأليف محمد أبي زيد الدمنهوري، المطبوع بمطبعة الحلبي سنة ١٣٤٩هـ، فقال في الرد عليه: (ومن هؤلاء النفر شخص سولت له نفسه أن يخوض في آيات الله كالذين خاضوا فيها علىٰ عماية، فكتب جملًا قصيرة قذف فيها شيئًا من وساوسه، وسماها: تفسيرًا، بل تناهىٰ في الافتتان بها فسماها: «الهداية والعرفان» والذي يقرأ هذه الجمل لا يرتاب في أن صاحبها جامد علىٰ المحسوسات، جاحد لكثيرٍ مما أخبر به القرآن، منكرٌ لأحكام قررها القرآن والسنة، وأجمع عليها الصحابة وأئمة الإسلام من بعدهم جيلًا بعد جيل، ولكنه يريد أن يدل علىٰ إنكاره بما يرتكبه في الآيات من سوء التأويل).

وقال عنه الدكتور محمد محمد أبو شهبة: (ومن هؤلاء الذين حملوا شرف الدفاع عن القرآن الكريم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين ـ ﵀ ـ أحد شيوخ الجامع الأزهر الشريف في العصر الأخير، فقد ألَّف كتابًا قيمًا في الرد علىٰ الدكتور طه حسين فيما ذكره في كتابه: «الشعر الجاهلي» من شبهات علىٰ القرآن الكريم، وقد فند شبهاته التي أوردها مع العفة في القول، والأصالة في النقد، كما هو شأن العلماء الراسخين)[2].

---

(١) راجع: مجلة نور الإسلام العدد الثاني من المجلد الثاني، الصادر في صفر ١٣٥٠هـ.

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم /ص٤٣/.

ثم كتب وكيل كلية الشريعة العلامة الشيخ محمد أحمد عرفة كتابه القيم (نقض مطاعن في القرآن الكريم)، وهو رد ـ أيضًا ـ على محاضرة ألقاها الدكتور طه حسين في كلية الآداب بالجامعة المصرية، وفيها الكثير من الشبهات حول القرآن الكريم ففندها بأسلوب علمي رصين، قال عنه الشيخ أبو شهبة: «صغير الحجم، ولكنه جم الفائدة».

وكتب العلامة المفسر أحمد السيد الكومي والدكتور محمد أحمد يوسف القاسم: «فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم»[1] وقد قالا في مقدمته: «فهذه جولة مع علوم القرآن الكريم، توخينا فيها أن تكون جامعة بين إثبات سلامة القرآن الكريم ودفع شُبَه المستشرقين وأمثالهم من هذه الناحية)، وقد تناولا الكثير من الشبهات التي أثارها بعض المستشرقين كجولد تسيهر أو بعض الشيعة حول إثبات ونفي آيات من القرآن الكريم، وكذا ما أُثير حول القراءات والرسم وغير ذلك وهو كتاب قيم لأنه صادر عن قيمتين عظيمتين من مفسري الأزهر الشريف.

وكتب الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي: (رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم) يرد فيه على تشكيكات المستشرق جولدتسيهر.

وكتب الدكتور محمد حسن حسن جبل: (وثاقة نقل النص القرآني من رسول الله ﷺ إلى أمته)، وهو مطبوع، وهو من أجود ما كُتب حول إثبات النص القرآني وإثبات وصول نقل القرآن من سيدنا رسول الله ﷺ إلى أمته، والكتاب في الحقيقة عبارة عن ردود قوية ومناقشة علمية رصينة لآراء المستشرق اليهودي إجناتس جولد تسيهر في كتابه: (مذاهب التفسير).

وكتب فضيلة المقرئ الشيخ محمد الصادق قمحاوي: (شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردّها)

وقد ظل العلامة الدكتور عبد الجليل شلبي المتوفى ١٤١٥هـ/١٩٩٥م يكتب مقالًا يوميًا بجريدة الجمهورية بعنوان: «قرآن وسنة» يناقش فيه الشبهات والمفتريات حول الإسلام وقضايا الأمة الإسلامية وفق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

❁ **الفن الثامن:** ربط القرآن الكريم بالعلوم الحديثة، وممن كتب في هذا الباب الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الكبير المسمى بـ(الجواهر في تفسير القرآن الكريم) في خمسة وعشرين مجلدا.

ومنهم الإمام الشيخ محمد بخيت المطيعي، فقد اتفق أنه لما كان يقرأ درس التفسير وصل إلى سورة الأنعام، مكث يقرأ سبع عشرة ليلة في قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ

(١) وهو مطبوع في دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٧٤م، وطبع غير مرة.

❁ **الفن السابع:** الدفاع عن القرآن الكريم ضد حملات المشككين: كتب العلامة الشيخ محمد بخيت المطيعي المتوفى ١٣٥٤هـ كتابًا قيمًا بعنوان: (حسن البيان في إزالة بعض شبه وردت على القرآن)، وكتب أيضا: (الكلمات الحسان في الحروف السبعة وجمع القرآن)، وهما مطبوعان.

وكتب العلامة الفقيه المفسر يوسف الدجوي المتوفى ١٣٦٥هـ كتابه القيم: (الجواب المنيف في الرد على مدعي التحريف في الكتاب الشريف)، يرد فيه على مفتريات كتاب (هل من تحريف في الكتاب الشريف) الذي ألَّفه القس كولديساك الإنجيلي، وقد شحنه العلامة الدجوي بالنصوص الواضحة، والحجج الدامغة التي تبطل كل شبهة ادعاها القس كولديساك الإنجيلي، وصدَّره بفاتحة أوضح فيها سبب تأليف كتابه، ونعى على حكام المسلمين وأغنيائهم وعلمائهم ما هم فيه من التواني عن نصرة الإسلام، وقد طبع بمطبعة النهضة الأوربية سنة ١٣٣١هـ/١٩١٣م، وعدد صفحاته ٢٧٧ صفحة.

ومنهم الإمام الأكبر وشيخ الجامع الأزهر العلامة الكبير محمد الخضر حسين، حيث ألقى الدكتور طه حسين في مؤتمر المستشرقين السابع عشر بجامعة أكسفورد سنة ١٣٤٧هـ محاضرة عنوانها: «ضمير الغائب واستعماله اسم إشارة في القرآن» نشرتها مجلة الرابطة الشرقية جاء فيها: «إن ضمير الغائب يجب أن يعود إلى مذكور يتقدمه لفظًا ورتبة، يطابق هذا المذكور في التذكير والتأنيث وفي الإفراد والتثنية والجمع، وأن ما ورد على خلاف ذلك تأولوه بتكلف»، وأوضح هذا بأمثلة من القرآن، وقد رد عليه الأستاذ محمد الخضر حسين في كتابه القيم: «بلاغة القرآن» برد شافٍ كافٍ.

وكتب مقالًا في مجلة (نور الإسلام)[1] في نقد كتاب: (الهداية والعرفان في تفسير القرآن بالقرآن) من تأليف محمد أبي زيد الدمنهوري، المطبوع بمطبعة الحلبي سنة ١٣٤٩هـ، فقال في الرد عليه: (ومن هؤلاء النفر شخص سولت له نفسه أن يخوض في آيات الله كالذين خاضوا فيها على عماية، فكتب جملًا قصيرة قذف فيها شيئًا من وساوسه، وسماها: تفسيرًا، بل تناهى في الافتتان بها فسماها: «الهداية والعرفان» والذي يقرأ هذه الجمل لا يرتاب في أن صاحبها جامد على المحسوسات، جاحد لكثيرٍ مما أخبر به القرآن، منكرٌ لأحكام قررها القرآن والسنة، وأجمع عليها الصحابة وأئمة الإسلام من بعدهم جيلًا بعد جيل، ولكنه يريد أن يدل على إنكاره بما يرتكبه في الآيات من سوء التأويل).

وقال عنه الدكتور محمد محمد أبو شهبة: (ومن هؤلاء الذين حملوا شرف الدفاع عن القرآن الكريم الأستاذ الأكبر الشيخ محمد الخضر حسين - ﷺ - أحد شيوخ الجامع الأزهر الشريف في العصر الأخير، فقد ألَّف كتابًا قيمًا في الرد على الدكتور طه حسين فيما ذكره في كتابه: «الشعر الجاهلي» من شبهات على القرآن الكريم، وقد فند شبهاته التي أوردها مع العفة في القول، والأصالة في النقد، كما هو شأن العلماء الراسخين)[2].

(١) راجع: مجلة نور الإسلام العدد الثاني من المجلد الثاني، الصادر في صفر ١٣٥٠هـ.

(٢) المدخل لدراسة القرآن الكريم /ص٤٣/.

ثم كتب وكيل كلية الشريعة العلامة الشيخ محمد أحمد عرفة كتابه القيم (نقض مطاعن في القرآن الكريم)، وهو رد - أيضًا - علىٰ محاضرة ألقاها الدكتور طه حسين في كلية الآداب بالجامعة المصرية، وفيها الكثير من الشبهات حول القرآن الكريم ففندها بأسلوب علمي رصين، قال عنه الشيخ أبو شهبة: «صغير الحجم، ولكنه جم الفائدة».

وكتب العلامة المفسر أحمد السيد الكومي والدكتور محمد أحمد يوسف القاسم: «فصل الخطاب في سلامة القرآن الكريم»[1] وقد قالا في مقدمته: «فهذه جولة مع علوم القرآن الكريم، توخينا فيها أن تكون جامعة بين إثبات سلامة القرآن الكريم ودفع شُبَه المستشرقين وأمثالهم من هذه الناحية)، وقد تناولا الكثير من الشبهات التي أثارها بعض المستشرقين كجولد تسيهر أو بعض الشيعة حول إثبات ونفي آيات من القرآن الكريم، وكذا ما أُثير حول القراءات والرسم وغير ذلك وهو كتاب قيم لأنه صادر عن قيمتين عظيمتين من مفسري الأزهر الشريف.

وكتب الدكتور عبد الفتاح إسماعيل شلبي: (رسم المصحف العثماني وأوهام المستشرقين في قراءات القرآن الكريم) يرد فيه علىٰ تشكيكات المستشرق جولدتسيهر.

وكتب الدكتور محمد حسن حسن جبل: (وثاقة نقل النص القرآني من رسول الله ﷺ إلىٰ أمته)، وهو مطبوع، وهو من أجود ما كُتب حول إثبات النص القرآني وإثبات وصول نقل القرآن من سيدنا رسول الله ﷺ إلىٰ أمته، والكتاب في الحقيقة عبارة عن ردود قوية ومناقشة علمية رصينة لآراء المستشرق اليهودي إجناتس جولد تسيهر في كتابه: (مذاهب التفسير).

وكتب فضيلة المقرئ الشيخ محمد الصادق قمحاوي: (شبهات مزعومة حول القرآن الكريم وردّها)

وقد ظل العلامة الدكتور عبد الجليل شلبي المتوفىٰ ١٤١٥هـ/١٩٩٥م يكتب مقالًا يوميًا بجريدة الجمهورية بعنوان: «قرآن وسنة» يناقش فيه الشبهات والمفتريات حول الإسلام وقضايا الأمة الإسلامية وفق القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة.

۞ **الفن الثامن:** ربط القرآن الكريم بالعلوم الحديثة، وممن كتب في هذا الباب الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره الكبير المسمىٰ بـ(الجواهر في تفسير القرآن الكريم) في خمسة وعشرين مجلدا.

ومنهم الإمام الشيخ محمد بخيت المطيعي، فقد اتفق أنه لما كان يقرأ درس التفسير وصل إلىٰ سورة الأنعام، مكث يقرأ سبع عشرة ليلة في قوله تعالىٰ: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ

(١) وهو مطبوع في دار إحياء الكتب العربية بمصر سنة ١٩٧٤م، وطبع غير مرة.

وَٱلنُّورَۖ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡ يَعۡدِلُونَ﴾[1]، ويتكلم على هيئة الأفلاك والأرض، وينقل مذاهب الفلاسفة المتقدمين، ومذاهب الإفرنج، ويجمع بين ذلك، فطلب منه الطلبة أن يكتب لهم ذلك، فما كانت إلا أيامٌ قلائلُ، حتى أظهر لهم كتابه: (توفيق الرحمن، للتوفيق بين ما قاله علماء الهيئة وما جاء في الأحاديث الصحيحة وآيات القرآن).

◈ **الفن التاسع:** ترجمات القرآن الكريم إلى اللغات المختلفة، وقد أثيرت هذه القضية في الأزهر سنة ١٩٢٩م، حيث تولى الإمام المراغي الدعوة إلى قضية ترجمة القرآن وفق ضوابط اجتهد فيها، وكتب في ذلك بحثا، وتابعه محمد فريد وجدي، وتحمس لهذه القضية، وكتب بحثه: (الأدلة العلمية، على جواز ترجمة القرآن إلى اللغات الأجنبية)، فخضعت لتفصيل وتأصيل وتدقيق عند علماء الأزهر، وكثرت فيها المؤلفات والمقالات، فكتب العلامة الشيخ محمد حسنين مخلوف كتابه: (رسالة في حكم ترجمة القرآن الكريم وقراءته وكتابته بغير اللغة العربية)، وكتب وكيل الأزهر العلامة الشيخ محمد شاكر كتابه: (القول الفصل في ترجمة القرآن الكريم إلى اللغات الأعجمية)، وكتب شيخ الإسلام مصطفى صبري كتابه: (مسئلة ترجمة القرآن الكريم)، ينتهي إلى منع ترجمة الألفاظ وجواز ترجمة التفسير، ورفعت فتوى إلى هيئة كبار العلماء، فصدر عنهم بيان ينتهي أيضًا إلى منع ترجمة الألفاظ وجواز ترجمة التفسير، وعليه توقيع السادة العلماء: محمود الديناري، وعبد المجيد اللبان، وإبراهيم حمروش (شيخ الأزهر لاحقا)، ومحمد مأمون الشناوي (شيخ الأزهر لاحقا)، وعبد المجيد سليم (شيخ الأزهر لاحقا)، ويوسف الدجوي، وعبد المعطي الشرشيمي، وعبد الرحمن قراعة (مفتي الديار المصرية لاحقا)، وغيرهم كثير من العلماء، وصدق الشيخ المراغي على ما وصلوا إليه.

فخالفت هيئة كبار العلماء رأي شيخ الأزهر فنزل على رأيهم، إعمالا للمؤسسية، وبناء توجهات المؤسسة على خبرات المجموع.

لكن خرج بعد ذلك كله الشيخ محمد مصطفى الشاطر قاضي محكمة شبين الكوم الشرعية فذهب في كتابه: (القول السديد، في حكم ترجمة القرآن المجيد)، إلى منع ترجمة الألفاظ والمعاني، ويجيز ترجمة تفاسيره فقط، فيما فهمه المفسرون على وجه التحقيق، فرد عليه حضرة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن الجزيري في كتابه: (أحسن البيان، في الرد على منع ترجمة تفسير القرآن).

وليست هذه الكتابات عبثًا ولا ترفًا، بل هي نقاشٌ علميٌّ ثريٌّ، وتقعيد وتأصيل لهذه القضية الجليلة الأثر، وقد جمع الدكتور حسن معايرجي كتابا مهما عنوانه: (الهيئة العالمية للقرآن الكريم: ضرورة الدعوة

(١) سورة الأنعام، الآية ١.

والتبليغ)، فأحصىٰ فيه ترجمات القرآن الكريم إلىٰ مختلف الألسن واللغات، وأنه ترجم إلىٰ ما يزيد علىٰ مئة وثلاثين لغة، ومنها لغات ترجم إليها القرآن الكريم مرة، أو عشرات المرات، فإن ترجمات القرآن الكريم إلىٰ الإنجليزية وحدها تزيد علىٰ المئتين والثمانين ترجمة.

فكان لابد من وجود تأصيل علمي عميق لهذه القضية، يخوض في خباياها، ويضع لها الموازين العلمية الضابطة، إجلالا لكلام الله ﷻ، ومَنْ أولىٰ مِنْ علماء الأزهر بالنظر في تمحيص هذه القضية، لاسيما وأن هناك عددًا كبيرًا من الترجمات قد شهدت صورًا من الانحراف في الترجمة، مما يقتضي وجود عمل علمي دائم مستمر يضمن نقل معاني القرآن إلىٰ اللغات الأخرىٰ بصورة أمينة.

۞ **الفن العاشر:** مما تفرد به الأزهر في خدمة القرآن الكريم أنه أنشأ هيئات ومؤسسات خاصة ومتنوعة، تعكف علىٰ خدمة القرآن الكريم، مثل مشيخة عموم المقارئ المصرية، ومثل لجنة مراجعة المصحف الشريف، وغير ذلك.

۞ **الفن الحادي عشر:** مجالس التفسير: لم يكن الأزهر يخلو في وقت من الأوقات من مجالس معمورة لتفسير القرآن الكريم، سواء كان هذا من خلال مجالس تدريس علم التفسير وإقراء كتبه في رحاب الأزهر، مما هو جزء من عملية التعليم فيه، أو من خلال تصدر علماء الأزهر في مختلف المدن والقرىٰ لتفسير آيات من كتاب الله، تستنير بها العقول، وتسري بها أقباس الحكمة من كلام الله ﷻ إلىٰ النفوس، وربما ظهر في خلال ذلك عالم مشهور، آتاه الله طلاوة وعذوبة وتفردًا في الإبانة عن معاني كتاب الله، بحيث يصير مقصداً للناس، ويرتفع له ذكر وشأن في هذا الميدان.

فمن ذلك مثلا أن العلامة الشيخ الفقيه المفسر عبد الرحمن قراعة كان يتصدر علىٰ مدىٰ سنوات لمجلس التفسير هناك في صعيد مصر، قال الدكتور محمد كامل الفقي: (عُيِّنَ مفتيًا شرعيًا بمدينة سوهاج، فمكث بها عدة سنين عقد في أثنائها بأحد مساجدها درس التفسير الذي كان يلقيه بطريقة جذابة مشوقة، وأَمَّه كثيرٌ من رجال العلم والأدب)[1].

ثم كان للإمام الأكبر وشيخ الجامع الأزهر الشريف العلامة الشيخ محمد مصطفىٰ المراغي دروس رائقة في تفسير القرآن الكريم، قال العلامة الدكتور محمد رجب البيومي: (أما دروس المراغي في تفسير القرآن فكانت مواسم عالمية في شهر الصيام لمدارسة القرآن الكريم، حيث كانت الإذاعة المصرية تنقل هذه الدروس إلىٰ شتىٰ ممالك الإسلام وبقاعه، وكان للإمام من جودة الإلقاء وقوة الإخبار، وسهولة

(١) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة /٣/١٩١.

الوصف، وصدق النظر، وبراعة الاستشفاف، وجمال التعبير، بحيث كان مطمح العلماء، وموضع احتذائهم، وما عُرف به محمد عبده من جذب الجمهور المثقف إلىٰ مدارسة كتاب الله ـ تعالىٰ ـ عُرف به المراغي، وليت أعماله الإدارية لم تُحل بينه وبين هذا التفسير في كل أسبوع لا في شهر رمضان فحسب، إذن لغنمت المكتبة القرآنية من دروس الأستاذ ما يضيف إليها الطارف المفيد)(١).

وكان للعلامة المحقق يوسف الدجوي المتوفىٰ سنة ١٩٤٦م مجلس حافل لتفسير القرآن الكريم بجانب درسه في الأصول (فاتسعت حلقة درسه، وحضر الطلاب بأوراقهم ليسجلوا ما يفتح الله به علىٰ الشيخ من آيات، وقد جمع ابن أخيه الشيخ عبد الرافع الدجوي نحوًا من أربعين كراسة تمتلئ بشروح الأستاذ لآيات الكتاب مما قاله في عام واحد، وقد حرر الشيخ باب التفسير في مجلة الأزهر حينًا من الدهر)(٢).

ثم مجلس التفسير الحافل، الذي نفع الله به عموم الناس في المشرق والمغرب للإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي، قال الدكتور الطناحي: (وقد استطاع الشيخ علىٰ هذا المدىٰ الطويل أن يأخذ العامة وأوساط الناس إلىٰ قضايا التذوق والبلاغة والأدب، وخاض بهم لجج هذه العلوم، واستكثر من شواهد الشعر والأمثال وكلام الفصحاء)، إلىٰ أن يقول: (إن الشيخ الشعراوي نجح فيما عجز عنه غيره، فإننا علىٰ كثرة ما كتبنا عن الإعجاز القرآني، وعبقرية اللغة العربية، لم نستطع أن ننزل بهذه القضايا إلىٰ عامة الناس، وظلت هذه القضايا دائرة بيننا، يدخل اللاحق علىٰ السابق، وكأننا نحدث بعضنا بعضا)(٣).

وغير هؤلاء كثير من علماء التفسير، الذين اقتبسوا من علوم الأزهر مفاتيح فهم الوحيين، وآتاهم الله تعالىٰ رزقًا حسنًا في تقريب معاني القرآن لأبناء كل زمن بما يلائم السقف المعرفي لزمنهم.

وختاما فهذه شذرات من معالم علم التفسير وعلوم القرآن في رحاب الأزهر، وكيف نهض الأزهريون لخدمة هذه الفنون الجليلة بوجوه متعددة من الخدمة، تجعل الأزهر الشريف في صدارة مؤسسات العلم التي تضرب بالسهم الأوفر في خدمة القرآن وعلومه(٤).

---

(١) النهضة الإسلامية في ضوء سير أعلامها المعاصرين (٤٢٨/١) بتصرف يسير جدًا.

(٢) راجع ترجمته في النهضة الإسلامية في ضوء سير أعلامها المعاصرين /ص١٤٥/.

(٣) مقالات العلامة الدكتور محمود محمد الطناحي /٢٨١/١/، ط: دار البشائر الإسلامية، بيروت، سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠٢م.

(٤) وقد نهض صديقنا الفاضل الشيخ إبراهيم شعبان المرشدي الأزهري إلىٰ جمع كتاب مستقل عنوانه: (المفسرون في رحاب الأزهر الشريف)، يتتبع فيه جهود متأخري الأزهريين في التفسير وعلوم القرآن، وهو حلقة ضمن سلسلة أشرت علىٰ عدد من الباحثين بها، لإبراز جهود علماء الأزهر في مختلف العلوم الشرعية والعقلية واللغوية، وقد طبع كتابه هنا مؤخرا في: دار كشيدة، مصر، سنة ١٤٣٨هـ ـ ٢٠١٧م.

إِضَاءَةٌ
في معالم عناية الأزهر بعلوم الحديث النبوي

شهد الحديث الشريف وعلومه في رحاب الأزهر الشريف نشاطًا فائقًا، حيث أسفرت الحركة العلمية الدائبة في رحاب الأزهر عن تقديم فنون متعددة ومؤلفات واسعة في خدمة هذا العلم الشريف خلال تلك الحقبة، حتىٰ تنوعت أطروحاته وتآليف علمائه إلىٰ نحو من ثمانية فنون:

❁ **الفن الأول:** وهو شرح الكتب الحديثية الكبرىٰ؛ فقد قاموا بهذا في أثناء مجالس الإقراء، وقاموا بهذا تصنيفًا، وتدوينًا، وكتابةً، فقام الإمام الكبير شيخ الإسلام الشيخ علي الصعيدي العدوي بإقراء صحيح الإمام البخاري ﷺ في مدة عشر سنوات، وكان لا يترك شاذةً ولا فاذةً تتعلق ببحوث الصحيح فقهًا، وعربيةً، وأحكامًا إلا تطرق إليه، وممن تلقاه عنه في مدة تلك السنوات الإمام الأمير الكبير ت١٢٣٢هـ، صاحب الثبت المسمىٰ بـ(سد الأرب من علوم الإسناد والأدب).

ثم قام العلامة الكبير الشيخ حسن العِدْوي الحمزاوي بشرح صحيح الإمام البخاري في كتابٍ كبيرٍ في عشرة مجلدات، وشرحه مطبوعٌ طبعة حجرٍ قديمة، وقد اطلعت عليه.

ثم قام العلامة الكبير الشيخ عبد ربه سليمان ﷺ بشرح كتاب (جامع الأصول) للإمام ابن الأثير ﷺ، وطُبع من شرحه مجلدٌ قدّم له جماعةٌ من كبار علماء الأزهر كان علىٰ رأسهم مسند العصر علىٰ الإطلاق الإمام الكبير الشيخ أحمد رافع الطهطاوي.

ثم العلامة الشيخ محمود خطاب السبكي ت١٣٥٢هـ في شرحه الواسع علىٰ سنن أبي داود، والمسمىٰ: (المنهل العذب المورود، في شرح سنن أبي داود)، وأكمله من بعده ابنه الشيخ أمين ت ١٣٨٧هـ.

ثم قام العلامة الأزهري الجليل الشيخ محمد بن محمد بن محمد بن صالح الخانجي البوسنوي ت١٣٦٣هـ، صاحب (الجوهر الأسنىٰ، في تراجم علماء البوسنة) بكتابة شرح علىٰ (تيسير الوصول، إلىٰ جامع الأصول) لابن الديبع الشيباني، كتب منه مجلدين، وله شرح على سنن ابن ماجه، كتب منه قطعة يسيرة، اسمه: (إظهار البهاجة، بشرح سنن ابن ماجه)، وله إجازة من مسند مصر، العلامة السيد أحمد رافع الطهطاوي، وإجازة من العلامة محمد زاهد الكوثري، وكان ﷺ محدثًا فاضلًا معتنيًا، حتىٰ إن العلامة الشيخ حسنين مخلوف كان يسأله فيما يحتاجه من الحديث، وطلب منه أن يخرج أحاديث كتاب من كتبه.

ثم قام العلامة الكبير الشيخ أحمد عبد الرحمن البنا الساعاتي بالإكباب على مسند الإمام أحمد، حتى أنفق وقضى في خدمة المسند عمره فأعاد ترتيبه على الأبواب الفقهية في كتاب (بلوغ الأماني)، ثم إنه قد شرح ترتيبه هذا بشرحٍ سماه (الفتح الرباني من أسرار بلوغ الأماني من ترتيب مسند أحمد بن حنبل الشيباني).

ثم قام العلامة الكبير الجليل شيخ مشايخنا الشيخ موسى شاهين لاشين بالإكباب على صحيح الإمام أبي الحسين مسلم بن الحجاج القشيري فشرح الصحيح، وأكب على شرحه نحوًا من عشرين سنةً، ثم أخرج لنا كتابه الماتع العجاب المسمى بـ(فتح المنعم، في شرح صحيح الإمام مسلم)، وقد طبع مرةً، ثم طبع مرةً أخرى في دار الشروق طبعةً ناصعةً، بهيةً، تليق بصحيح مسلمٍ، وبشرحه.

ثم قام الإمام المحدث الشيخ محمد محمد أبو شهبة ﷺ بشرح صحيح الإمام البخاري في كتاب (توفيق الباري، بشرح صحيح البخاري)، وقد أتم منه خمسة عشر مجلدًا إلا أنه لم يُطبع.

ثم قام بعده شيخنا العلامة المحدث الشيخ أحمد عمر هاشم بشرح صحيح الإمام البخاري في كتابه (فيض الباري، في شرح صحيح البخاري) وقد تم الكتاب وطبع في خمسة عشر مجلدًا.

ثم قام شيخنا العلامة المحدث الشيخ محمد زكي الدين أبو القاسم ـ متّعه الله تعالى بالصحة والعافية ـ، فأكب على الأحاديث المتفق عليها بين الصحيحين، وشرحها في كتابٍ عجابٍ اسمه (جامع البيان، في شرح ما اتفق عليه الشيخان)، وقد طُبع في خمسة عشر مجلدًا.

إلى غير ذلك من كبار الأزهريين الذين أكبوا على شرح الكتب الحديثية الكبرى، والإبانة، والإعراب عما اشتملت عليه من الفقه، والعربية، والبحوث العلمية الدقيقة.

◉ **الفن الثاني**، وهو باب علوم الاصطلاح، فقد ألّف العلامة الكبير الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني صاحب كتاب (مناهل العرفان، في علوم القرآن)، ألّف كتابه المسمى بـ(المنهل الحديث، في علوم الحديث)، وقد طُبع.

ثم جاء بعده العلامة الكبير الشيخ أحمد علي أحمدين، وشرح كتاب (نُخبة الفكر) للحافظ ابن حجر في شرحه المشهور المسمى بـ(ضوء القمر، على نخبة الفكر)، وقد طُبع قديمًا في دار المعارف، ثم طبع غير مرة.

ثم جاء العلامة الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف، وألّف كتابه (المختصر، في علم رجال الأثر)، ثم ثنى بكتابه (المعتصر، في علوم الأثر).

ثم جاء العلامة الشيخ مصطفىٰ أمين التازي شيخ مشايخنا، وألّف كتابه الجليل المسمىٰ بـ(مقاصد الحديث، في القديم والحديث)، وهو مطبوع.

ثم جاء العلامة الكبير الشيخ محمد محمد السماحي رحمه الله تعالىٰ رحمةً واسعةً، وألّف كتابه العجيب الذي ليس له من شبيهٍ ولا نظير، والمسمىٰ بـ(المنهج الحديث، في علوم الحديث)، وقد خرج في أربعة أجزاء، ومن تلامذة هذا العَلَم: العلامةُ الكبير شيخنا المحدث الشيخ نور الدين عتر، ولما أن شرفت بزيارته أبدىٰ حسرةً، وحزنًا، وألمًا، علىٰ الإهمال في طباعة كتاب (المنهج الحديث) للعلامة الشيخ محمد السماحي، وأخبرني أن هذا الكتاب من الكتب المتقنة المحبوكة التي حررت علوم الحديث أتم تحرير، بل وأزعم ـ والله تعالىٰ أعلم نتيجة نظري ومقارنتي في كتب الاصطلاح ـ أن هذا الكتاب كتاب الشيخ السماحي يُقَدَّم علىٰ كتاب (توجيه النظر، في علوم الأثر) للشيخ طاهر الجزائري.

ثم من بعد الشيخ السماحي، جاء العلامة الكبير الشيخ محمد محمد أبو شهبة، وألف كتابه الماتع المسمىٰ بـ(الوسيط في علوم ومصطلح الحديث)، وقد طبع في مجلد، وأرىٰ أنه يوضع جنبًا إلىٰ جنب مع كتاب (تدريب الراوي)، ومع كتاب (فتح المغيث).

ثم كذلك أستاذنا وشيخنا العلامة الشيخ محمد محمود أحمد بكار في كتابه المسمىٰ (بلوغ الآمال، من مصطلح الحديث وعلوم الرجال)، في مجلدين كبيرين.

ولو ذهبتَ تستقصي ما كتبه العلماء والمدرسون الأزهريون في علوم الاصطلاح من الثلاثينات إلىٰ الآن فقط في مدة ستين أو سبعين سنة، لرأيت ما لا يقلّ عن أربع مئة أو خمس مئة عنوان وكتاب، مؤَلَّفٍ في باب الاصطلاح وعلوم الحديث، فكأن المدرسة الأزهرية قد بذلت وقامت بجهدٍ خارقٍ في تحرير علوم الاصطلاح، بما لا يوجد عند مدرسة أخرىٰ في العالم.

❁ **الفن الثالث:** باب مناهج المحدثين، وهو بابٌ من العلم ظل ميتًا من بعد قرون الأقدمين من أهل الحديث والنقد، حتىٰ نهض بلوائه الأزهريون، وذلك أن كلمة مناهج المحدثين هي المُعادل والمُعَبِّر، عن الكلمة التي كانت تسمىٰ قديمًا بشروط الأئمة.

ومن المعاصرين الأزهريين المحدثين شيخ مشايخنا العلامة الكبير الشيخ محمد محمد أبو زهو، في كتابه الجليل المسمىٰ (الحديث والمحدثون).

ثم كذلك أستاذنا وشيخنا العلامة المحدث الورع، النحوي الحُجة العابد، العلامة الشيخ أحمد محرم الشيخ ناجي ـ متعه الله بالصحة والعافية ـ في كتابه المسمىٰ بـ(الضوء اللامع المبين، عن مناهج

المحدثين) في مجلدين انتهىٰ فيهما إلىٰ مناهج المحدثين إلىٰ القرن الرابع، وأخبرني غير مرة أنه يحضره من العلم ما لو أراد أن يتم به مناهج المحدثين إلىٰ العصر الحاضر لفعل، وأنه لو فعل لخرج الكتاب في عشرة أجزاء.

وكذلك كتاب شيخنا العلامة الشيخ أحمد عمر هاشم في مناهج المحدثين، وغيرهم كثير ممن ألف في هذا الباب.

۞ **الفن الرابع**، وهو: (الكتابات في باب تخريج الحديث)، وقد ألَّف في ذلك شيخنا العلامة الشيخ: عبد الموجود عبد اللطيف كتابه (كشف اللثام، عن أسرار تخريج أحاديث خير الأنام) وقد طبع في مجلدين.

وألَّف من بعده العلامة المحدث الشيخ: عبد المُهدي عبد القادر كتابه في «طرق تخريج الحديث»، ويذكر في أوله أنه أول من ألَّف في هذا الباب، وأنه لم يطلع علىٰ كتابٍ سابقٍ في هذا الباب، وإن كان قد وقع في الكتب المخطوطة كتاب الحافظ السيد أحمد بن الصديق الغماري «حصول التفريج، بأصول التخريج» كتب منه قطعةً في نحو تسعين صفحة، وأتىٰ فيه بفوائد حديثية نادرة إلا أنه ما طبع إلا من نحو خمس أو عشر سنوات تقريبًا، فكأن كتاب العلامة الشيخ عبد المهدي عبد القادر هو بالفعل أول ما أُلِّف ـ وتم تداوله ـ في هذا الباب، وهذا إذا ما تمَّ وصحَّ فهو سبقٌ لعلماء الأزهر في باب التخريج.

۞ **الفن الخامس**: عقد المجالس لقراءة كتب الحديث الشريف، ونحن إذا ما وافينا هذا الباب، فحدِّث عن البحر ولا حرج، فمن ذلك علىٰ سبيل المثال من غير ترتيب: العلامة الكبير الشيخ يوسف الدِّجوي المتوفىٰ سنة خمس وستين وثلاث مئة وألف من الهجرة، فقد كان يعقد مجلس إقراء صحيح البخاري هنا، في الجامع الأزهر، كما وصف مجلسه هذا العلامة الشيخ أبو الحسن زيد الفاروقي في كتابه المسمىٰ بـ«مقامات خير»، وهو كتاب منشور بالأُردية ولم يُترجم إلىٰ العربية، وقد أمدني بعض العلماء الباحثين جزاه الله خيرًا بالنص المترجم المكتوب عن الشيخ يوسف الدِّجوي، وتشرَّفت بنقله في كتابي «أسانيد المصريين»، حيث وصف الشيخ أبو الحسن زيد الفاروقي مجلس إقراء صحيح البخاري للعلامة الشيخ يوسف الدجوي، وأنه كان يزدحم الجامع الأزهر بالحاضرين للدرس، وكان الشيخ الدجوي يتكلم علىٰ الرجال ويُبين ما يتعلق ببحوثهم، ثم يتكلم عن الفقه والعربية، ثم إن الشيخ أحمد الهواري المغربي في رحلته المسماة بـ«رحلة الحج والسياحة» يصف حضوره لمجلس الشيخ يوسف الدجوي وأن الحاضرين فيه يقدرون بخمس مئة علىٰ الأقل.

ومن ذلك أن العلامة الكبير الشيخ حسُّونة النواوي، وقد جاءه الأمر السلطاني بعقد مجمع علمي أزهري حديثيٍّ للنظر في نسخ صحيح البخاري بغرض مقابلتها وضبطها لطبع الصحيح.

فجمع الشيخ حسونة النواوي واحدًا وثلاثين عالمًا من كِبار علماء الأزهر، وجمعوا النسخ الخطية لصحيح البخاري وجلسوا يُقابلون ويضبطون ويُحَرِّرون الفروقات الواقعة في النُّسخ، حتىٰ أخرجوا الطبعة المعتمدة التي طُبِعَت سنة ١٣١١هـ من الصحيح، والتي عُرفت بالطبعة السلطانية، والتي هي أوثق وأدق نسخ صحيح البخاري علىٰ الإطلاق، لأنها اعتمدت علىٰ نسخة الحافظ شرف الدين اليونيني، والتي كانت تُعتبر رأس النُّسخ الخطية للصحيح.

ومن ثَم فقد صارت النسخة السلطانية رأس النُّسخ المطبوعة في الصحيح، إلا ما بحثه وحرر فيه مسند العصر شيخ مشايخنا الشيخ محمد عبد الحي الكتاني من رواية صحيح البخاري بنسخة ابن سعادة التي أنشأها الحافظ أبو علي الصدفي وأنها قد تَفْضُل أو تُقَدَّم علىٰ نسخة الشرف اليونيني، وله في ذلك جزء اسمه (التنويه والإشادة، برواية صحيح البخاري من نسخة ابن سعادة) وقد تحصَّلت عليها.

والإمام الكبير الشيخ سَلِيم البشري، شيخ الإسلام وشيخ الجامع الأزهر، أكبَّ ثلاثين سنة علىٰ إقراء كتب الحديث، وكان يُخَصِّص البخاري بالعناية، ومِمَّن حضره عليه الشيخ محمد المَكّاوي، وذَكَر أنه عَرَض صحيح البخاري علىٰ العلامة الشيخ سليم البشري علىٰ مدىٰ سنوات وقابله عليه، وأن المكّاوي كان شديد الاشتغال بصحيح البخاري حتىٰ إنَّه استدرك مواضع يُمكن أن تُحصىٰ وتُستدرك علىٰ الطبعة السلطانية، وعمل جدولًا فيه المواضع التي تُستدرك.

وظل هذا الجدول محفوظًا في دار الكتب المصرية مجهولًا إلىٰ أن جاء الشيخ عبد الغني عبد الخالق شيخ مشايخنا ونظر في دار الكتب، وأشار في كتابٍ له عن البخاري إلىٰ تقرير الشيخ محمد المَكّاوي، فسعىٰ سماحة المفتي العلامة الشيخ علي جمعة حتىٰ استخرج تقرير الشيخ محمد المَكّاوي وطَبَعه مُلحقًا بكتابه الذي ألَّفه عن صحيح الإمام البخاري.

وكذلك العلامة الكبير الشيخ أحمد محجوب الرِّفاعي الفيومي، حضر صحيح الإمام البخاري علىٰ الشيخ الكبير شيخ الإسلام مصطفىٰ المبَلِّط، الذي حضر صحيح البخاري علىٰ شيخ الإسلام الشيخ محمد علي الشنواني، المتوفىٰ سنة ١٢٤٦، وصاحب الثَّبَت المشهور المسمىٰ بـ(الدرر السنية، فيما علا من الأسانيد الشنوانية)، فلم يكتف الشيخ أحمد محجوب الرفاعي بتحمل البخاري، بل عكف علىٰ إقراء صحيح البخاري سنوات، وكلما ختمه استفتحه، وكان ممن حضر عليه العلامة الكبير الشيخ طه ابن يوسف الشَّعْبِيني، والشيخ أحمد محجوب الرفاعي حضر «صحيح مسلم» علىٰ الشيخ محمد عليش شارح مختصر خليل بأسانيده، وأقرأ «صحيح مسلم» بموجب ذلك السماع، وممن حضر عليه الشيخ أحمد نصر

العدوي المالكي.

ثم جاءت الدُّرة الكبرىٰ في حياة الشيخ أحمد محجوب الرفاعي، حيث شُغِفَ شغفًا عجيبًا بسنن الإمام الترمذي، واقتنىٰ الطبعة البولاقية، وجمع النُّسخ الخطية، وأكبَّ في مَجْمع من علماء الأزهر علىٰ سَرد سُنن الترمذي وعلىٰ النظر في الشروح وعلىٰ تحرير أحكام الترمذي علىٰ الأسانيد، وأنه هل قال حسن، أو حسن صحيح، أو حسن صحيح غريب، وعلىٰ مطابقة أحكامه بما ينقله المِزِّي في تحفة الأشراف، وعلىٰ تحرير النسخ الخطية والمطبوعة، وسَجَّل خُلاصات ذلك علىٰ هامش نسخته من الطبعة البولاقية.

فلما أن جاء العلامة المحدث الشيخ أحمد شاكر، والذي هو أكثرُ أهل العصر اشتغالًا بالترمذي خَضَع لنسخة الشيخ المحجوب الرفاعي خضوعًا تامًّا، ويقول: وقعت لي نسخة الشيخ أحمد الرفاعي من سُنن الترمذي، وهي نسخة جليلةٌ نفيسةٌ، اعتنىٰ بها صاحبها عناية قراءةٍ ودَرْسٍ.

ثم من شدة إتقان النسخة جعلها الشيخ أحمد شاكر أصلًا يَرجع إليه في ضبط نسخته من السنن، ونَزَّلها مَنزلة المخطوط، بل جعلها تُقَدَّم علىٰ المخطوط في الضبط.

ثم العلامة الشيخ أحمد بك الحسيني شارح كتاب (الأم)، كان يَعْقِد المجالس الحديثية في بيته ويستضيف مُسند العصر الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، وكان يَجمع له كبار علماء الأزهر لسماع الأحاديث المسلسلة وقراءة كُتُب الحديث وتداول الإجازة، حتىٰ لقد رأيت أوراقًا بخط الشيخ عبد الحي الكتاني هي مَحْضَر سماعٍ لمجلسٍ انعقد في بيت أحمد بك الحسيني، فتصفحت الأسماء فإذا أسماء كالجبال، كبار علماء الأزهر من علماء المَقولات والوضع والمنطق والكلام والأصول والفقه، كلهم يجتمعون في بيت واحد يقرأون كتب السنة ويتداولونها.

وهكذا مضت مجالس إقراء الحديث، وإسماع الكتب الحديثية المسندة، وتداول الإسناد، والمحافظة علىٰ الإجازة، إلىٰ غير ذلك من الفنون الحديثية التي اعتنىٰ بها الأزهر الشريف.

الفن السادس: (التصحيح والتضعيف): وعلىٰ رأس المشتغلين بالتصحيح والتضعيف والعلل من الأزهريين شيخ الإسلام الحافظ محمد مرتضىٰ الزبيدي في شرحه علىٰ إحياء علوم الدين، «إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين»، وما ترك حديثًا من أحاديث الإحياء إلا توسع في تخريجه، وهو ثمرة أزهرية ناضجة حافلة بالأسانيد والطرق والتصحيح والتضعيف والعِلل والتخريج والعزو، ومؤلفاته في باب العلل والتخريج والطرق تزيد علىٰ الأربعين كتابًا من جملة كتبه.

ثم العلامة الشيخ أحمد شاكر الذي يأخذونه معزولًا عن سياقه الأزهري، وهو العالم الأزهري المحدث المتمكن الحجة البصير بالعلل، الخبير المنقطع النظير بالجرح والتعديل وفنون الصنعة الحديثية.

والعلامة المحدث الشيخ عبد الله الصديق الغماري، والعلامة محمد بن محمد الخانجي البوسنوي وهو من علماء الأزهر، وقد كان محدثًا نقادًا، عارفًا بالتصحيح والتضعيف، والعلامة الشيخ الحسيني عبد المجيد هاشم في إكماله لتخريج أحاديث المسند، والعلامة المحدث محمد الحافظ بن عبد اللطيف التيجاني ت١٣٩٨هـ، وله (تخريج أحاديث اللمع لأبي نصر الطوسي)، وله: (تعقبات على استدراكات الذهبي على الحاكم)، وله غير ذلك من الأعمال الحديثية، والعلامة المحدث الشيخ نور الدين عتر، وخدمته لشرح العلل لابن رجب في غاية الجودة، وشيخنا العلامة المحدث الشيخ أحمد مَعْبد عبد الكريم، وهو من هو في الجرح والتعديل، والعلل، ونقد الأسانيد، ثم عشرات من العلماء الأزهريين المتخصصين في الحديث، والمشهود لهم بغزارة العلم، والخبرة بالرجال، والدراية بمسالك التصحيح والتضعيف، والقائمين بتدريس ذلك كله في كليات جامعة الأزهر الشريف.

۞ **الفن السابع**: (إخراج الكتب الجوامع في الحديث)، كما فعل الإمام السيوطي ﷺ في (الجامع الصغير)، وكما فعل الشيخ النَّبْهاني في (الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير)، وكما قام الشيخ منصور علي ناصف، العالم الأزهري المحترم الجليل، فأخرج كتابه (التاج الجامع للأصول)، وهذا كتاب حديثي جامع، وهو صنعة يد عالم أزهري.

وكذلك (الموسوعة الحديثية) للعلامة الشيخ الحسيني عبد المجيد هاشم في أربعة عشر مجلدًا، مات وتركها مخطوطة.

وكذلك كتاب (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم)، للعلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، وقد كان عالمًا محدِّثًا أزهريًا وكان يُدرِّس الحديث في كلية أصول الدين أيام أن كانت في مسجد الخازندارة في شبرا في أول نشأة كلية أصول الدين.

۞ **الفن الثامن**: الإكباب على تحقيق الأصول الحديثية وإخراج عيون كتب الحديث المخطوطة إلى حيز المطبوع، ومن أعيان هذا الفن: العلامة الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف الأستاذ بكلية أصول الدين، وشيخ مشايخنا، والعلامة المحقق الشيخ السيد أحمد صقر، من كبار علماء الأزهر، ومن كبار علماء كلية أصول الدين، وغيرهما كثير[1].

(١) وهذا الفصل الذي بين يديك من تتبع أحوال الحديث الشريف وعلومه عند متأخري الأزهريين هو خلاصة كتاب وجيز=

العدوي المالكي.

ثم جاءت الدُّرة الكبرىٰ في حياة الشيخ أحمد محجوب الرفاعي، حيث شُغِفَ شغفًا عجيبًا بسنن الإمام الترمذي، واقتنىٰ الطبعة البولاقية، وجمع النُّسخ الخطية، وأكبَّ في مَجْمع من علماء الأزهر علىٰ سَرد سُنن الترمذي وعلىٰ النظر في الشروح وعلىٰ تحرير أحكام الترمذي علىٰ الأسانيد، وأنه هل قال حسن، أو حسن صحيح، أو حسن صحيح غريب، وعلىٰ مطابقة أحكامه بما ينقله المِزِّي في تحفة الأشراف، وعلىٰ تحرير النسخ الخطية والمطبوعة، وسَجَّل خُلاصات ذلك علىٰ هامش نسخته من الطبعة البولاقية.

فلما أن جاء العلامة المحدث الشيخ أحمد شاكر، والذي هو أكثرُ أهل العصر اشتغالًا بالترمذي خَضَع لنسخة الشيخ المحجوب الرفاعي خضوعًا تامًّا، ويقول: وقعت لي نسخة الشيخ أحمد الرفاعي من سُنن الترمذي، وهي نسخة جليلةٌ نفيسةٌ، اعتنىٰ بها صاحبها عناية قراءةٍ ودَرْسٍ.

ثم من شدة إتقان النسخة جعلها الشيخ أحمد شاكر أصلًا يَرجع إليه في ضبط نسخته من السنن، ونَزَّلها مَنزلة المخطوط، بل جعلها تُقَدَّم علىٰ المخطوط في الضبط.

ثم العلامة الشيخ أحمد بك الحسيني شارح كتاب (الأم)، كان يَعْقِد المجالس الحديثية في بيته ويستضيف مُسند العصر الشيخ محمد عبد الحي الكتاني، وكان يَجمع له كبار علماء الأزهر لسماع الأحاديث المسلسلة وقراءة كُتُب الحديث وتداول الإجازة، حتىٰ لقد رأيت أوراقًا بخط الشيخ عبد الحي الكتاني هي مَحْضَر سماعٍ لمجلسٍ انعقد في بيت أحمد بك الحسيني، فتصفحت الأسماء فإذا أسماء كالجبال، كبار علماء الأزهر من علماء المَعقولات والوضع والمنطق والكلام والأصول والفقه، كلهم يجتمعون في بيت واحد يقرأون كتب السنة ويتداولونها.

وهكذا مضت مجالس إقراء الحديث، وإسماع الكتب الحديثية المسندة، وتداول الإسناد، والمحافظة علىٰ الإجازة، إلىٰ غير ذلك من الفنون الحديثية التي اعتنىٰ بها الأزهر الشريف.

❁ **الفن السادس: (التصحيح والتضعيف)**: وعلىٰ رأس المشتغلين بالتصحيح والتضعيف والعلل من الأزهريين شيخ الإسلام الحافظ محمد مرتضىٰ الزبيدي في شرحه علىٰ إحياء علوم الدين، «إتحاف السادة المتقين في شرح إحياء علوم الدين»، وما ترك حديثًا من أحاديث الإحياء إلا توسع في تخريجه، وهو ثمرة أزهرية ناضجة حافلة بالأسانيد والطرق والتصحيح والتضعيف والعِلل والتخريج والعزو، ومؤلفاته في باب العلل والتخريج والطرق تزيد علىٰ الأربعين كتابًا من جملة كتبه.

ثم العلامة الشيخ أحمد شاكر الذي يأخذونه معزولًا عن سياقه الأزهري، وهو العالم الأزهري المحدث المتمكن الحجة البصير بالعلل، الخبير المنقطع النظير بالجرح والتعديل وفنون الصنعة الحديثية.

والعلامة المحدث الشيخ عبد الله الصديق الغماري، والعلامة محمد بن محمد الخانجي البوسنوي وهو من علماء الأزهر، وقد كان محدثًا نقادًا، عارفًا بالتصحيح والتضعيف، والعلامة الشيخ الحسيني عبد المجيد هاشم في إكماله لتخريج أحاديث المسند، والعلامة المحدث محمد الحافظ بن عبد اللطيف التيجاني ت١٣٩٨هـ، وله (تخريج أحاديث اللمع لأبي نصر الطوسي)، وله: (تعقبات على استدراكات الذهبي على الحاكم)، وله غير ذلك من الأعمال الحديثية، والعلامة المحدث الشيخ نور الدين عتر، وخدمته لشرح العلل لابن رجب في غاية الجودة، وشيخنا العلامة المحدث الشيخ أحمد مَعْبِد عبد الكريم، وهو من هو في الجرح والتعديل، والعلل، ونقد الأسانيد، ثم عشرات من العلماء الأزهريين المتخصصين في الحديث، والمشهود لهم بغزارة العلم، والخبرة بالرجال، والدراية بمسالك التصحيح والتضعيف، والقائمين بتدريس ذلك كله في كليات جامعة الأزهر الشريف.

❊ **الفن السابع:** (إخراج الكتب الجوامع في الحديث)، كما فعل الإمام السيوطي ﷺ في (الجامع الصغير)، وكما فعل الشيخ النَّبْهاني في (الفتح الكبير في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير)، وكما قام الشيخ منصور علي ناصف، العالم الأزهري المحترم الجليل، فأخرج كتابه (التاج الجامع للأصول)، وهذا كتاب حديثي جامع، وهو صنعة يد عالم أزهري.

وكذلك (الموسوعة الحديثية) للعلامة الشيخ الحسيني عبد المجيد هاشم في أربعة عشر مجلدًا، مات وتركها مخطوطة.

وكذلك كتاب (زاد المسلم فيما اتفق عليه البخاري ومسلم)، للعلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي، وقد كان عالمًا محدِّثًا أزهريًّا وكان يُدرِّس الحديث في كلية أصول الدين أيام أن كانت في مسجد الخازندارة في شبرا في أول نشأة كلية أصول الدين.

❊ **الفن الثامن:** الإكباب على تحقيق الأصول الحديثية وإخراج عيون كتب الحديث المخطوطة إلى حيز المطبوع، ومن أعيان هذا الفن: العلامة الشيخ عبد الوهاب عبد اللطيف الأستاذ بكلية أصول الدين، وشيخ مشايخنا، والعلامة المحقق الشيخ السيد أحمد صقر، من كبار علماء الأزهر، ومن كبار علماء كلية أصول الدين، وغيرهما كثير[1].

(١) وهذا الفصل الذي بين يديك من تتبع أحوال الحديث الشريف وعلومه عند متأخري الأزهريين هو خلاصة كتاب وجيز=

إِضَاءَةٌ
في معالم عناية الأزهر بعلوم اللسان العربي، من النحو والصرف والبلاغة وغيرها

أما اللغة وعلومها والنقد الأدبي وقضاياه فلا تكاد توجد مدرسة علمية علىٰ وجه البسيطة نهضت بخدمة علوم اللسان العربي، وتفننت فيه، وبلغت غاية المرمىٰ في تحرير تلك العلوم، والتدقيق في بحوثها، والتفنن في التأليف فيها، كالذي نهض به الأزهر الشريف، قال الأستاذ عبد الله النديم في (مجلة الأستاذ): (فلم يبق في الشرق مدرسة تحفظ فيها العلوم العربية إلا الأزهر الشريف، فرحل إليه الناس من سائر الأجناس، وقصدوه للتعلم والاستفادة قرونا)[1]، إلىٰ أن قال: (ولولا وجود الأزهر بمصر لعدمت اللغة العربية في تلك الفترة).

۞ وقد شهد الأزهر فيها سجالا واشتباكًا كبيرين، ضمن ظواهر أربعة مهمة، تشكل أذرع التحول وآلياته في تلك الحقبة، وهي: قضية العامية، وقضية تطوير النحو، وقضية المناهج الأدبية الغربية، وقضية البلاغة العربية، ولم يكن الأزهر وحده هو الطرف الفاعل والمؤثر في ذلك، حيث انخرط في هذه المعركة عدد من الأطراف، منها الأزهر، ومدرسة دار العلوم، ومجمع اللغة العربية، والمستشرقون، وعدد من الكتاب والباحثين والمفكرين، وشهد هذا المجال أطروحات واندفاعات وأفكارًا متشابكة، لا سيما وقد دخل الاحتلال الإنجليزي إلىٰ مصر في تلك الفترة، فقد وقعت مصر تحت الاحتلال سنة ١٨٨٢م، الموافق سنة ١٣٠٠هـ.

۞ أما قضية العامية فقد دعا إليها المستشرق الألماني ولهلم سبيتا، وألف سنة ١٨٨٠م كتابه: (قواعد اللغة العربية العامية في مصر)، وبعده كارل فولرس في كتابه: (اللهجة العربية الحديثة)، وبعده

= من جمع كاتب هذه السطور، عنوانه: (الحديث والمحدثون في الأزهر الشريف)، ط: كشيدة للنشر والتوزيع، القاهرة، سنة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٤م، وقد كان في أصله محاضرة ألقيتها تحت نفس العنوان في قاعة محمد عبده بالأزهر، يوم الأربعاء، ٢٢ جمادىٰ الثانية، سنة ١٤٣٢هـ، وتحولت بعد ذلك إلىٰ كتاب مطبوع، ثم التقط تلميذنا الفاضل الشيخ إبراهيم شعبان المرشدي الأزهري هذه الباكورة، وعكف علىٰ تتبعها واستقصائها، فأخرج كتابا مسهبا عنوانه: (المحدثون في رحاب الأزهر الشريف)، طبع أيضا في كشيدة للنشر والتوزيع، سنة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٦م.

(١) مجلة الأستاذ /ص١٧٥/، الجزء الثامن، من السنة الأولىٰ، العدد الصادر بتاريخ الثلاثاء، ٢٠ ربيع الأول، سنة ١٣١٠هـ، الموافق ١١ أكتوبر، سنة ١٨٩٢م.

المستشرق الإنجليزي سلون ولمور في كتابه: (العربية المحلية في مصر)، وبعدهم السير وليم ويلكوكس، وهو أشدهم وأعنفهم هجومًا على اللغة العربية، وقد ربط كل تخلف وتدهور يعانيه المصريون بلغتهم العربية، وتبعه على ذلك عدد من المثقفين من أمثال الأستاذ محمد عثمان جلال، وإسكندر معلوف، وعبد العزيز فهمي باشا، وكان في مقابل هؤلاء خليل اليازجي، وحافظ إبراهيم، ومصطفى صادق الرافعي، وعباس العقاد، وقد رصدت تلك الظاهرة بكل أطوارها وتداعياتها الدكتورة: نفوسة زكريا في كتابها: (تاريخ الدعوة إلى العامية في مصر)، ثم العلامة محمود محمد شاكر في (أباطيل وأسمار)، وللعلامة أبي عبد الرحمن بن عقيل الظاهري أيضًا كتاب: (معركة العامية) وهو مطبوع.

● وأما قضية النحو العربي فقد هاجمه بشدة جرجس الخوري المقدسي سنة ١٩٠٤م، وقاسم أمين الذي دعا إلى تسكين أواخر الكلام العربي، وتابعه الدكتور إبراهيم أنيس الذي تحمس لقضية تسكين أواخر الكلم، وكتب إبراهيم مصطفى سنة ١٩٣٧م كتابه: (إحياء النحو)، وتابعه عبد الرحمن أيوب وغيره، وقدم شوقي ضيف مقترحات إلى مجمع اللغة العربية بشأن تجديد النحو، وفي سنة ١٩٣٨م قامت وزارة المعارف بدراسات موسعة حول قضية تجديد النحو، جاءت بعدها محاولة أخرى وزارة التربية والتعليم سنة ١٩٥٧م، وفي تلك الفترة قام مجمع اللغة العربية بدراسة مقترحات وزارة المعارف، ومقترحات شوقي ضيف، وأصدر فيها قرارات، قبل فيها بعض مقترحاتهم ورفض البعض الآخر، بالإضافة إلى محاولات لبعض علماء الأزهر، مثل العلامة الشيخ محمد أحمد عرفة، فقد رد على كتاب: (إحياء النحو) لإبراهيم مصطفى في كتاب مهم اسمه: (النحو والنحاة بين الأزهر والجامعة)، وقد طبع قديمًا في مطبعة السعادة.

ومثل الشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه: (النحو الجديد)، إضافة إلى دراسات وبحوث لعلماء كلية دار العلوم.

ثم اطلعتُ بعد ذلك على كتاب اسمه: (النحو العربي بين الأصالة والتجديد، دراسة وصفية نقدية لبعض الآراء النحوية) للدكتور عبد المجيد عيساني، وفيه أيضًا رصد وتتبع لمحاولات تجديد النحو، وقد اطلعت هنا مؤخرًا أيضًا على كتاب اسمه: (قضايا اللغة العربية في العصر الحديث) تأليف الدكتورة سمر روحي الفيصل، وقد طبع في مركز الشيخ زايد للتراث.

ثم رأيت بعد ذلك مقالًا جيدًا للدكتور حسن العايب، الأستاذ في جامعة منتوري في قسنطينة، وعنوان مقاله: (إسهامات المجامع اللغوية العربية في تيسير النحو، دراسة نقدية في ضوء التراث النحوي العربي)، وهو منشور في مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، الصادرة عن كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة الأمير عبد القادر[1].

(١) مجلة الآداب والعلوم الإنسانية، العدد الخامس، الصادر في ربيع الثاني، سنة ١٤٢٦هـ، الموافق مايو سنة ٢٠٠٥م /ص٣٩٧.

۞ وأما قضية المناهج الغربية في النقد الأدبي فقد تبلورت على يد مرجليوث، في مقال له حول الشعر العربي، مال فيه إلى قضية الانتحال، والتقطها منه الدكتور طه حسين، فتبناها في محاضراته وكتبه، وبناء عليها ألف كتابه: (في الأدب الجاهلي) الذي أصدره سنة ١٩٢٤م، وكتابه عن المتنبي، وناقشه في ذلك الشيخ محمود شاكر في كتابه: (مع المتنبي)، وفي كتابه: (نمط صعب، ونمط مخيف)، وفي كتابه: (رسالة في الطريق إلى ثقافتنا)، وفي كتابه: (أباطيل وأسمار) وغيرها من كتبه.

وهناك طبقة مزجت النقد العربي بالمناهج النقدية الغربية، من أمثال جورجي زيدان، والأستاذ العقاد في كتاب: (الديوان في الأدب والنقد)، وكان في مقابله الأستاذ مصطفى صادق الرافعي في كتابه: (على السَّفُّود).

وللشاعر الأستاذ العوضي الوكيل كتاب مستقل حول قضية السفود، وهو مطبوع، إلا أن العوضي الوكيل من مدرسة العقاد، وله كتابٌ عنه.

وقد انتصر للعقاد أيضًا سيد قطب في عدة مقالات له، هاجم فيها الرافعي، فرد عليه العلامة الأديب الكبير محمود محمد شاكر في عدة مقالات انتصر فيها للرافعي، وأتى فيها بفوائد وقواعد نفيسة في الأدب والنقد.

ولعل أجل ما أنتجه الأزهر في النقد الأدبي في تلك الحقبة هو كتاب (الوسيلة الأدبية) للمرصفي؛ فإنه رأس المدرسة النقدية المعاصرة، وهو بحاجة إلى كتابات تصف ذلك وتبرزه.

۞ وأما قضية البلاغة العربية فقد كتب فيها أمين الخولي عدة كتابات، منها: (البلاغة العربية وعلم النفس)، ورد عليه الأستاذ علي العماري، وانتصر لكل واحد فريق، واشتد الجدل والنقد على صفحات المجلات المعتنية، حتى أفردت له الكتب.

وبقي لنا هنا أن نرصد شذرات من جهود الأزهريين في خدمة علوم اللسان العربي، حيث إن علوم اللسان العربي عند الأزهريين هي فنونهم الأولى، التي اعتنوا بها عناية بالغة، وحرروا فيها تحريرات فائقة، وتفننوا في خدمتها نظمًا وشرحًا واختصارًا وتقريرًا وتطبيقًا وتمثيلًا، ولهم فيها جهود عجيبة، واعتنوا في هذه العلوم بمتن الآجرومية، ومتن الأزهرية، وكتب ابن هشام، وألفية ابن مالك، ومتن التلخيص في البلاغة، ومتن السمرقندية في الاستعارات، والرسالة البيانية للصبان في الباب نفسه، ومتن الدردير في المجاز والتشبيه والكناية، وغير ذلك من الكتب والمتون، كما ستأتي الإشارة إلى شذرة منه.

وتأتي عناية الأزهريين بعلوم اللسان في عدة فنون:

۞ **الفن الأول**: النظم ووضع المتون، فنظم العلامة الشبراوي منظومة رائجة في النحو، وعليها

شروح لعدد من الأزهريين، ونظم العلامة عبد العزيز الفرغلي الأنصاري ت١٢١٦هـ قطر الندى، ونظم رفاعة بك الطهطاوي متن الآجرومية في: (جمال الآجرومية)، ونظم العلامة الجليل الشيخ محمود أحمد هاشم متنًا لطيفًا في البلاغة اسمه: (متن المصباح في علوم البلاغة)، ونظم الأستاذ الدكتور حسن إسماعيل عبد الرازق ألفية في علوم البلاغة اسمها: (لآلئ التبيان، في المعاني والبديع والبيان)، ونظم العلامة محمد الأمير ابن العلامة محمد حسين الخزرجي العمراني ألفية نحوية عنوانها: (خزائن القواعد النحوية، وصائدة الشوارد العربية)، ونظم العالم الجليل الشيخ محمد خليل الخطيب ألفية في الصرف اسمها: (الجامعة الصرفية، أو ألفية الخطيب وشرحها في فن الصرف).

ونظم العالم الجليل الشيخ محمد عثمان الصاوي السيوطي الأزهري ثلاث ألفيات، ألفية في النحو، وأخرى في الصرف، وأخرى في البلاغة.

ونظم الشيخ علي صالح الأزهري متنًا لطيفًا في علوم البلاغة، ونظم الشيخ حسن أفندي توفيق العدل منظومة في النحو على غرار ألفية ابن مالك، ونظم العلامة محمد بن مجاهد أبي النجا ت١٢٧٠هـ تقريبًا منظومة في النحو، وله شرح عليها، ونظم العلامة الشيخ محمد صالح الجارم الرشيدي منظومة في النحو سماها (الرشيدية)، على لسان ولده محمد مأمون الجارم، ونظم الشيخ محمد بن أحمد البهوتي الخلوتي أرجوزة في علم الوضع، مخطوطة في المكتبة الأزهرية.

ونظم حسن العطار منظومة في علم الوضع مستمدة من شرح العصام على العضدية، ثم شرح العطار نظمه هذا.

ونظم العلامة علي بن حسن الأزهري الشافعي السنهوري ت٩١٣هـ متن الآجرومية في نظم سماه (العلوية، في نظم الآجرومية)، ثم شرح نظمه هذا في (التحفة البهية)، ونظم العلامة عمر بن محمد ابن أبي بكر الدمياطي الفارسكوري منظومة كبيرة في النحو اسمها: (جوامع الإعراب، وهوامع الآداب).

ونظم العلامة الشهاب أحمد بن أحمد السجاعي منظومة مشهورة في المجاز، تداوله الأزهريون، وعليه شروح، وله هو شرح عليه سماه: (الإعواز، في بيان علاقات المجاز)، وللعلامة أبي النجا حاشية على شرح السجاعي هذا على منظومته.

ونظم السجاعي أيضًا نظمًا في بحور الشعر، وللعلامة الأمير شرح عليه، ونظم الشبراوي نظمًا لطيفًا في بحور العروض أيضًا، ونظم العلامة الصبان نظمه المهم (الكافية الشافية، في علمي العروض والقافية)، وله شرح على هذا النظم، ونظم العلامة الأجهوري نظمًا لطيفًا في أجزاء البحور، ونظم الشيخ علي الطحان الأزهري ت بعد ١٢٠٧هـ منظومة عنوانها (منظومة كافية، في علمي العروض والقافية)، ونظم العلامة الشهاب أحمد السجاعي نظمًا رائقًا في أنواع المجاز، ثم شرحه في: (الإحراز، في أنواع

المجاز)، وللعلامة أبي النجا حاشية على الإحراز، وللعلامة العطار منظومة في النحو من بحر الطويل، شرحها العلامة هارون عبد الرازق، ثم ألف العلامة محمد بن حسين الخزرجي الأنصاري حاشية على شرح الشيخ هارون على منظومة العطار.

وللعلامة الشيخ حسن قويدر الخليلي شرح آخر على منظومة النحو لشيخه الإمام حسن العطار، كما هو في ترجمة الشيخ حسن قويدر من كتاب (حلية البشر) للبيطار، قال السندوبي وهو يتكلم عن مؤلفات الشيخ قويدر: (شرح منظومة العطار، هي منظومة في النحو لشيخه الشيخ حسن العطار، معروفة بشرحها لدى طلبة الأزهر)[1].

ونظم العلامة عبد الهادي نجا الأبياري منظومة اسمها: (حديقة البيان)، ثم شرح منظومته، ثم اختصر شرحه هذا.

ولهم كذلك عمل في المتون عموما، بما هو أوسع من النظم: وأذكر لك هنا شيئا من ذلك، ففي علم الاشتقاق مثلا: (إتحاف الرفاق، ببيان الاشتقاق) للعلامة الشمس محمد بن الجوهري، وللخفاجي شرح على هذا المتن.

وفي علم الوضع مثلا رسالة (زهرة الأفهام، في تحقيق الوضع وماله من الأقسام) للعلامة ابن الجوهري، وللعلامة زين بن أحمد المرصفي ت١٣٠٠هـ شرح عليها، وألف الشمس الأنبابي رسالة أيضًا في الوضع، سوى شروحهم على متون أخرى كثيرة في هذا الفن الدقيق.

وفي باب الاستعارات وضع العلامة أحمد السحيمي القلعاوي ت١١٧٨هـ متنًا لطيفًا سماه: (البرق)، ثم شرحه في: (الأرق، بشرح البرق).

ومن ذلك الرسالة البيانية للعلامة الصبان ت١٢٠٦هـ في الاستعارات وما يتعلق بها، وعليها شروح وحواش، منها حاشية الإمام الأنبابي، وحاشية العلامة الشيخ عليش ت١٢٩٩هـ، وحاشية العلامة الشيخ مخلوف المنياوي ت١٢٩٥هـ.

ومن ذلك رسالةٌ دقيقةٌ في المجاز للعلامة الجليل السيد علي بن عبد البر الونائي، وله شرح عليها اسمه: (الإعجاز، في المجاز).

ومن ذلك رسالة (تحفة الإخوان، في علم البيان)، للإمام الدردير ت١٢٠١هـ، متن لطيف في بيان المجاز والتشبيه والكناية على سبيل الاختصار، متن ما أحسنه وما أجمله على وجازته.

وقد اعتنى به الأزهريون وخدموه، وأول من شرحه هو الدردير نفسه، وللعلامة حجازي ابن

(١) أعيان البيان /ص١٧ ـ ٢٦/.

عبد المطلب المالكي حاشية على شرح الدردير هذا على رسالته، ووضع الأنبابي حاشية على رسالة الدردير، ووضع العلامة إبراهيم الجارم حاشية أخرى عليه، ووضع العلامة الصاوي حاشية أخرى عليه، مشهورة ومتداولة.

ومن ذلك في علم العروض مثلا: (متن في علمي العروض والقوافي)، للشيخ سلامة بن حسن، كان حيا سنة ١٣٠٧هـ، وقد جعله منحصرًا في مقدمة وبابين وخاتمة.

❁ **الفن الثاني:** وضع الكتب الميسرة في النحو وغيره، فمن ذلك رسالة الأنبابي في مبادئ النحو العشرة، ومن ذلك (الرسالة البهية، في مسائل علم العربية) في النحو، على هيئة سؤال وجواب، للشيخ عبد الهادي العدوي، كان موقوفًا في الأزهر سنة ١٣٣٧هـ، ومن ذلك: (دروس النحو لطلاب السنة الأولى بالمعاهد الدينية) للشيخ عبد المتعال الصعيدي، ومن ذلك (رسالة في النحو) للشيخ عبد العزيز بن متولي الطبلاوي ت بعد سنة ١٣٣٢هـ، لطلبة السنة الأولى من القسم الأول الأزهري، جمعها من شرح الكفراوي، وكذلك كتاب: (علوم البلاغة) للشيخ أبي الوفا المراغي.

❁ **الفن الثالث:** شروح الأزهريين على الكتب الصغار والكبار في اللغة والنحو والصرف وعلوم البلاغة.

* فمن شروحهم في اللغة: (تفريح النفوس، في حواشي القاموس) لعبد الهادي نجا الأبياري ت١٣٠٥هـ.

* ومن شروحهم في علم الوضع: حواشيهم وتقريراتهم الكثيرة على الرسالة العضدية وشروحها، كشرح جمال الدين عبد الله بن عامر الشبراوي على الرسالة العضدية، وكتعليقات الأنبابي على رسالة الوضع، وتقرير الشربيني على رسالة الوضع العضدية، وتقرير العدوي على العضدية، وتقييدات حسن العطار على شرح العصام على رسالة الوضع، وحاشية مصطفى الصفوي القلعاوي ت١٢٣٠هـ على شرح السمرقندي على الرسالة العضدية، وحاشية محمد بن سالم الحفني على شرح السمرقندي كذلك، وحاشية محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ت١٢٣٠هـ على شرح السمرقندي كذلك، وحاشية شيخ الأزهر أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري على شرح السمرقندي كذلك، وكذلك شرح العلامة عبد الرحمن ابن حسن الأجهوري ت١١٩٨هـ على رسالة (تشنيف السمع ببعض لطائف الوضع) للإمام عبد الرحمن ابن مصطفى العيدروس.

* ومن شروحهم في علم الصرف: كتاب (فتح الخبير اللطيف، شرح نظم الترصيف، في علم التصريف) للإمام الباجوري.

❋ ومن شروحهم لكتب النحو الصغار: شرح مؤرخ الأزهر بحق العلامة الجليل الشيخ فايد ابن مبارك الأبياري المتوفىٰ بعد سنة ١٠٨٣هـ علىٰ الآجرومية، وشرح العلامة البرهان أبي الإمداد اللقاني علىٰ الآجرومية، وشرح العلامة إبراهيم الحجازي السنديوني ت١٢٢٣هـ تقريبا علىٰ الآجرومية، وكذلك (الكلمات الجلالية، في بيان المراد من الآجرومية) للعلامة علي بن عبد البر الونائي ت١٢١٢هـ، وكذلك (تشييد المباني، لتوضيح ما حوته المقدمة الآجرومية من الحقائق والمعاني) للسيد عبد الله الصديق الغماري، ولعله أوسع شروحها، وشرح الكفراوي علىٰ الآجرومية، وكان متداولًا معتمدًا في التدريس، وللعلامة الشيخ إسماعيل الحامدي حاشية عليه، وللعلامة حسن بن عمر الصعيدي الفيشاوي الشافعي حاشية علىٰ شرح الكفراوي أيضًا.

وشرح الشيخ خالد علىٰ الآجرومية، وللعلامة الشيخ محمد مجاهد الطندتائي أبي النجا ت١٢٧٠هـ تقريبا حاشية عليه، وكانت هذه الحاشية متداولة عند الأزهريين، وحاشية أخرىٰ لعبد البر بن عبد الله الأجهوري ت١٠٧٠هـ علىٰ شرح الشيخ خالد، وحاشية أخرىٰ للشيخ علي بن علي بن حسن الحلواني علىٰ شرح الشيخ خالد كذلك، وحاشية أخرىٰ للعلامة حسن المدابغي علىٰ شرح الشيخ خالد، وحاشية أخرىٰ للعلامة أبي حامد عبد المعطي الوفائي الأزهري الضرير وقد سماها: (الدرة السنية، علىٰ حل ألفاظ الشيخ خالد والآجرومية) وكانت متداولة.

وشرح الإمام أبي عبد الله محمد بن عبد الله الخراشي المالكي ت١١٠١هـ علىٰ الآجرومية، وله حاشية علىٰ شرحه هذا.

وكذلك (نور السجية، في حل ألفاظ الآجرومية) للخطيب الشربيني، و(إضاءة البدور الجلية، علىٰ ألفاظ الآجرومية)، لمحمد رحمة الله الخطيب، و(التحفة البرية، في حل ألفاظ الآجرومية) لإسماعيل الشنواني، و(إعراب الآجرومية) لعبد المعطي البرلسي المالكي، و(إعراب الآجرومية) لإبراهيم ابن محمد بن سليمان البحيري المالكي الأزهري ت٩١٦هـ، و(التحفة البهية، علىٰ نظم الآجرومية) شرح فيه العلامة ابن الجوهري نظم الآجرومية للعمريطي، وتقرير الأنبابي علىٰ حاشية أبي النجا علىٰ شرح الشيخ خالد علىٰ الآجرومية، وتقرير الكفراوي علىٰ حاشية أبي النجا كذلك، وشرح العلامة محمد بن أحمد الخربتاوي ت بعد ١٢١٧هـ علىٰ الأزهرية، واسمه: (الجواهر الزكية، لحل وبيان ما خفي من الأزهرية)، وكذلك شرح العلامة يوسف بن سالم الحفني علىٰ الأزهرية، وكذلك شرح الشيخ خالد علىٰ الأزهرية، وقد كان متداولًا معتمدًا عندهم، وللعلامة الغنيمي حاشية عليه، وللعلامة القليوبي حاشية عليه، وشرح العلامة الأمير علىٰ الأزهرية، وللعطار حاشية علىٰ شرحه هذا، وحاشية الشنواني ت١٠١٩هـ علىٰ شرح المقدمة الأزهرية، وحاشية الإمام حسن العطار علىٰ شرح الأزهرية، وللعلامة الأنبابي تقرير عليها، وللشيخ سيد الشرشيمي تقرير آخر عليها.

❊ ومن شروحهم لكتب النحو المتوسطة: حاشية العلامة السجاعي على قطر الندى، وهي حاشية متداولة، وللعلامة الأنبابي تقرير عليها، وحاشية العلامة الأمير على شرح شذور الذهب، وللعلامة الأنبابي تقرير عليها، وللعلامة سيد الشرشيمي الصغير الشرقاوي الشافعي تقرير آخر عليها، وحاشية محمد بن عرفة الدسوقي على شذور الذهب، وحاشية الشيخ يوسف الفيشي على شذور الذهب، وله أيضًا حاشية على القطر، وحاشية أحمد بن الطبلاوي ت١٠٨٠هـ على شرح القطر، وحاشية العلامة محمد عبادة العدوي على شرح الشذور، وأنا قد سمعت شيوخنا الأزهريين يحضون على هذه الحاشية.

ثم جاء تلميذ تلاميذه العلامة علي إسماعيل العياط العدوي فوجد أن حاشية عبادة لا تناسب حال الطلاب، فألف شرحه المسمى: (الدر المنثور، على شرح الشذور)، وكذلك شرح الشيخ محمد عيسى عسكر على أنموذج الزمخشري، المسمى بـ(الفيرزوج).

❊ ثم تأتي شروح الأزهريين وحواشيهم على كتب النحو الكبار ومتونه: وفي هذا الباب نزلت عندهم ألفية ابن مالك على وجه الخصوص منزلة عليا، فاعتمدوها، وجعلوها مدار عملية التدريس في النحو والصرف، وألفوا حولها الكثير من الشروح والحواشي والتقارير، وقد صارت لعموم استعمالها دستورًا لعلم النحو، حتى إن من عدل عن شرحها الشرح المباشر قد جعلها إمامًا له فحاكاها في ترتيب أبواب النحو ومسائله، كما فعل الشيخ طنطاوي جوهري في: (الفرائد الجوهرية، في الطرف النحوية)، وكما فعل الحسين المرصفي في: (الوسيلة الأدبية).

بل صرح العلامة الأستاذ حسين المرصفي في (الوسيلة الأدبية) بكلام عجيب عن ألفية ابن مالك فقال: (وقد آن أن نمضي معك في تقرير المسائل النحوية على ترتيب الخلاصة، لحسنه، وعموم استعمالها، والانتفاع بها شرقًا وغربًا، منذ نظمها ابن مالك ﷺ، فلقد كان صادق النية، صحيح العزم، شديد الاجتهاد في تأييد الإسلام ونفع المسلمين، حتى إن الناس بعده أكثروا من نظم ألفيات مختلفة، وزادوا فيها على الخلاصة، ولم يُلْتَفت إليها)[1].

وكتب الأستاذ فؤاد قنديل سنة ١٩٥٥م مقالا في جريدة (أخبار دمياط) عنوانه (نظرات في العلوم الأزهرية) يقول فيه عن الألفية: (ومن عجب أنه منذ نحو مئة عام كانت توزع الألفية على تلاميذ المدارس الابتدائية ليحفظوها عن ظهر قلب)[2].

وأما جهودهم حولها فقد كتب جماعات من علماء الأزهر في شرح الألفية مباشرة: مثل شرح العلامة الشيخ ياسين العليمي ت١٠٦١هـ على الألفية، وشرح الشيخ طنطاوي جوهري المسمى: (الفرائد

(١) الوسيلة الأدبية، للعلوم العربية /١/٢٣٥/، ط: مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، سنة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.
(٢) أخبار دمياط /عدد ٢٦١ السنة السادسة /ص٣/، الصادر بتاريخ ٢ رمضان، سنة ١٣٧٤هـ الموافق ٢٥ أبريل سنة ١٩٥٥م.

الجوهرية، في الطرف النحوية)، وشرح الشيخ أحمد علي السندوبي ت١٠٩٧هـ علىٰ الألفية.

وكتب جماعات من العلماء الحواشي والتقارير علىٰ شروح الألفية:

فمن ذلك: شرح الأشموني علىٰ الألفية، ولهم علىٰ هذا الشرح عدد من الحواشي، فمنها حاشية أبي السعود أحمد بن عمر الأسقاطي الحنفي ت١١٥٩هـ وسماها: (تنوير الحالك، علىٰ منهج السالك للأشموني علىٰ ألفية ابن مالك)، وحاشية العلامة محمد بن محمد البليدي ت١١٧٦هـ علىٰ شرح الأشموني علىٰ الألفية، وحاشية العلامة يوسف بن سالم بن أحمد الحفني ت١١٧٦هـ علىٰ الأشموني علىٰ الألفية، وحاشية العلامة حسن بن علي بن أحمد المدابغي المنطاوي الشافعي الأزهري علىٰ الأشموني علىٰ الألفية.

لكنَّ أجل حواشيهم علىٰ شرح الأشموني هي حاشية العلامة أبي العرفان محمد بن علي الصبان ت١٢٠٦هـ، وللأزهريين ولع وغرام خاص بهذه الحاشية، وللعلامة الشيخ منصور كساب العدوي تقرير عليها، وللعلامة الأنبابي تقرير آخر عليها، وللعلامة إسماعيل الحامدي تقرير آخر عليها، مطبوع سنة ١٣٠٥هـ.

وكان للعلامة الشيخ أحمد الرفاعي الفيومي حاشية علىٰ الأشموني، في أربعة مجلدات، انتقد فيها حاشية الصبان بألف اعتراض واعتراض.

ومنها: شرح ابن عقيل علىٰ الألفية، ولهم علىٰ هذا الشرح حواش لا تنحصر، كحاشية العلامة محمد الخضري الدمياطي ت١٢٨٧هـ، وهي أشهر من نار علىٰ علم، وحاشية العلامة محمد البديري الدمياطي الشافعي والمسماة: (إرشاد السالك النبيل، إلىٰ ألفية ابن مالك وشرحها لابن عقيل)، وحاشية العلامة الشمس محمد بن محمد بن محمد بن أحمد البديري ت١١٤٠هـ علىٰ شرح ابن عقيل، واسمه: (التحفة الوفية، علىٰ شرح ابن عقيل للألفية)، وحاشية العلامة السجاعي علىٰ ابن عقيل واسمها: (فتح الجليل، علىٰ شرح ابن عقيل)، وللإمام الأنبابي تقرير عليها، وللعلامة سيد الشرشيمي تقرير آخر عليها، وحاشية العلامة عطية الله بن عطية الأجهوري ت١١٩٠هـ علىٰ ابن عقيل علىٰ الألفية.

ومنها: شرح العلامة عبد الرحمن بن صالح المكودي علىٰ الألفية، وللعلامة الشهاب أحمد ابن عبد الفتاح الملوي ت١١٨١هـ حاشية عليه.

ومن شروحهم علىٰ كتب النحو الكبار: شروح مغني اللبيب لابن هشام، فمن ذلك: حاشية العلامة الأمير علىٰ مغني اللبيب، وحاشية العلامة عبد الهادي نجا الأبياري علىٰ مغني اللبيب واسمها: (القصر المبني، علىٰ حواشي المغني)، طبع منه جزآن إلىٰ الباب الثاني في تفسير الجملة وذكر أحكامها، وحاشية العلامة محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي المالكي ت١٢٣٠هـ علىٰ المغني.

◈ وكذلك شروحهم في علم البلاغة:

فمنها: عنايتهم الفائقة برسالة الإمام السمرقندي في الاستعارات، فإن عناية الأزهريين بمتن السمرقندية هذا لا مزيد عليه، فشرحه العلامة علي بن أحمد بن مكرم العدوي شرحًا فائقًا، يذكر في أوله أنه تقرير مسموع من أفواه العلماء، فأحب هو جمعه وتقييده، وكتب الإمام حسن العطار شرحًا على السمرقندية، وكتب الإمام الباجوري حاشية على السمرقندية كانت معتمدة في التدريس ومتداولة، وكتب العلامة أبو عائشة محمد الدمنهوري الحديني الشافعي ت١٢٨٨هـ حاشية على السمرقندية، وله حاشية أخرى كبيرة على السمرقندية كذلك، وكتب العلامة أبو شعبان أحمد بن محمد أبو شعبان العدوي حاشية على متن السمرقندية، وكتب العلامة عبد الحافظ بن علي المالكي الأزهري ت١٣٠٣هـ (زهر الرياض الزكية، الوافية بمضمون السمرقندية).

وشرحه العلامة الشهاب الملوي ت١١٨١هـ، بشرحين: كبير، وصغير، واعتنى الأزهريون بالشرح الصغير، فكتب العلامة السجاعي تقريرًا على شرح الملوي، وكتب العلامة محمد بن علي الصبان حاشية على شرح الملوي؛ وكتب العلامة أحمد بن موسى البيلي ت١٢١٣هـ حاشية على الشرح الصغير للملوي، وكتب العلامة محمد الخضري حاشية على الشرح الصغير للملوي، وكتب العلامة أبو السعد السيد عمر الرفاعي الحنفي حاشية على شرح الملوي الصغير للسمرقندية، وكتب الإمام أحمد بن موسى العروسي حاشية على الشرح الصغير للملوي، وكتب الأمير حاشية على الشرح الصغير الملوي، وللإمام الأنبابي تقرير على حاشية الأمير، وللعلامة محمد علي البسيوني البيباني تقرير آخر عليه، وللعلامة محمد الشبيني تقرير آخر عليه.

واعتنى الأزهريون كذلك بشرح العلامة العصام على السمرقندية، فللعلامة أبي الضياء الشبراملسي ت١٠٨٧هـ حاشية على شرح العصام، وللعلامة الشوبري حاشية على شرح العصام، وللعلامة الأسقاطي حاشية على شرح العصام، وللعلامة محمد بن علي الصبان ت١٢٠٦هـ حاشية على شرح العصام، وللعلامة أحمد بن يونس الخليفي الأزهري الشافعي ت١٢٠٩هـ حاشية على شرح العصام، وللعلامة البهوتي شرح على العصام، وللعلامة الأمير تقرير على شرح العصام، وللعلامة محمد عبادة العدوي تقرير آخر عليه، وللعلامة علي بن أحمد بن مكرم العدوي حاشية على شرح العصام، وللعلامة الشهاب أحمد ابن محمد الغنيمي ت١٠٤٤هـ حاشية على شرح العصام، وكتب العلامة ياسين العليمي حاشية أخرى عليه كذلك، وكتب العلامة حسن المدابغي حاشية على شرح العصام كذلك.

وشرح السمرقندية أيضًا العلامة شمس الدين محمد بن محمد البديري في: (أوضح الإشارات، إلى رسالة السمرقندي في الاستعارات).

وللإمام أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري (إيضاح المشكلات، من متن الاستعارات)، وللعلامة محمد هميسي الطوخي (البهجة السنية، على متن السمرقندية).

وقد عدل العلامة الشيخ محمد عبادة العدوي فذهب إلى نظم متن السمرقندية، كما عدل العلامة إسماعيل بن غنيم الجوهري ت١١٦٥هـ عن ذلك كله، فنهض إلى اختصار الرسالة السمرقندية لما فيها من التطويل والحشو، فأخرج رسالته البيانية في خلاصة السمرقندية.

۞ ونظير عناية الأزهريين في النحو بالألفية فإنهم قد اعتنوا في البلاغة عناية بالغة بكتاب تلخيص المفتاح للقزويني، يقول الشيخ حامد عوني في (المنهاج الواضح): (وقد بلغ هذا الكتاب من الشهرة ما لم يبلغه غيره من كتب هذا الفن؛ إذ عني به أرباب الشروح والحواشي، فانكبوا عليه، وكشفوا غوامضه، وأبانوا معالمه، ومن ثم حرص أبناء الأزهر على مدارسته، وتفهم عباراته وما كتب عليه إلى يومنا هذا)[١].

ومنها كذلك: عنايتهم بمختصر العلامة السعد على تلخيص المفتاح، فكتب الإمام الأنبابي تقريرًا عليه، ثم تقريرًا آخر على تجريد البناني عليه، وكتب العلامة إسماعيل الجوهري حاشية على مختصر السعد، وكتب العلامة يوسف الحفني حاشية عليه، وللحفني حاشية أخرى على حاشية حفيد العلامة السعد على مختصر جده على التلخيص، وكتب العلامة محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي حاشية على مختصر السعد، وكتب العلامة ياسين العليمي ت١٠٦١هـ حاشية على مختصر السعد على التلخيص.

وما زالوا يرقبون كل جديد تدبجه الأقلام في تلك الفنون، حتى يقول العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي في خطاب وجهه إلى الحافظ السيد محمد عبد الحي الكتاني مؤرخة بسادس ربيع النبوي التالي لوفاة أخيه الشيخ الخضر الشنقيطي: (وقد ألفت بعدكم منظومة في علم البيان، جمعت مالم يجتمع في غيرها، مع التحرير، وأنا في الحال مشتغل بكتابة حاشية عليها، لتطبع معها، وقد أعجبت أهل هذا الفن من أكابر الأزهريين)[٢].

۞ **الفن الرابع:** تأليفهم في فواتح الكتب أو خواتمها، فللعلامة أحمد السجاعي الأزهري ت١١٩٧هـ شرح على ديباجة الألفية، وللعلامة محمد عبد الحي الشبيني حاشية على خاتمة الألفية، وللعلامة محمد عليش ت١٢٩٩هـ خاتمة على شرح قطر الندى، وله ختم آخر على شرح ابن عقيل على الألفية، وللأمير الصغير ختم على الأزهرية، وللأنبابي ختم على شذور الذهب، وللعلامة محمد عبد الحي الشبيني ختم على شرح ابن عقيل، وللعلامة محمد عياد الطنطاوي ختم على شرح شذور الذهب، وله

(١) المنهاج الواضح /ص١٢/.

(٢) تحت يدي مصورة من ذلك المكتوب، أفادنيها فضيلة الشيخ خالد محمد المختار السباعي حفظه الله.

ختم آخر على قطر الندى، و(بلوغ المرام، بشرح ديباجة شرح القطر لابن هشام) للعلامة إسماعيل ابن غنيم الجوهري ت١١٦٥هـ، وكتب العلامة عيد النمرسي حاشية على خطبة شرح العصام على السمرقندية.

الفن الخامس: الظواهر اللغوية، كالمثلثات، نظم فيها العلامة الشيخ حسن قويدر الخليلي نظمه المشهور (نيل الأرب، في مثلثات العرب)، وله على نظمه هذا تقريرات، مخطوطة في الأزهرية، وكتب فيها الشيخ أبو عمران موسى ابن محمد بن موسى القليبي كتابه: (التحفة القليبية، في بعض المثلثات اللغوية) مخطوط في الأزهرية، ونظم فيها عبد الهادي نجا الأبياري (نفحة الأكمام، بمثلث الكلام).

وكالمشترك اللفظي، نظم العلامة الشهاب أحمد السجاعي قصيدة في معاني لفظ العين.

وكالأفعال التي جاءت على زنة حرف، فجمع العلامة الشيخ مصطفى البدري الدمياطي رسالته: (نزهة الطرف، في الأفعال التي جاءت على زنة حرف).

الفن السادس: كتب وبحوث في مسائل لغوية، والتي هي بمثابة أجزاء ورسائل تفرد مسألة بعينها بالتأليف لتمحيصها، فمن ذلك: (حلية ذوي الجد، بجواهر العقد، في الكلام على أما بعد)، للعلامة إسماعيل غنيم الجوهري، وله أيضا: (إحراز السعد بإنجاز الوعد بمسائل أما بعد).

وكذلك (إتحاف الإنس في الفرق بين اسم الجنس وعلم الجنس) للعلامة الأمير الكبير، ولمحمد ابن الجوهري رسالة في المسألة نفسها، وللشيخ سليم البشري رسالة في المسألة نفسها.

ومن ذلك: (ابتهاج الصدور في بيان كيفية الإضافة والتثنية والجمع للمنقوص والممدود والمقصور) للعلامة شهاب الدين أحمد بن محمد الغنيمي ت١٠٤٤هـ، ومن ذلك (رسالة في تحقيق ما جاء على وزن مفعل أو مفعل أو نحوهما مصدرًا أو اسم زمان أو مكان) للعلامة الصبان.

ومن ذلك كتاب: (القناعة، في الفعل المعتل اللام إذا اتصل به واو الجماعة)، للعلامة يوسف ابن إسماعيل الصفتي المالكي الأزهري ت١١٩٣هـ وله أيضًا شرح على كتابه هذا، وللعالم العلامة الشيخ مصطفى البدري الدمياطي أيضًا (شرح على نظم السيد محمد الدمنهوري في قاعدة الفعل المتصل به واو الجماعة)، طبع.

ومن ذلك: (إتحاف أولي الألباب، بشرح ما يتعلق بسي من الإعراب) للعلامة ابن الجوهري ت١٢١٥هـ، وللعلامة السجاعي نظم في إعراب لاسيما، وله شرح على تلك الأبيات، وللعلامة الأمير أيضًا شرح على تلك السجاعي هذه في إعراب لاسيما، ومن ذلك أبيات العلامة المرصفي في المبتدآت

التي يقترن خبرها بالفاء، وللعلامة نعيم بن هلال الشافعي الأزهري شرح عليها.

ومن ذلك: (بيان الإعراب والاستثناء في لا إله إلا الله) للإمام عبد الله بن حجازي الشرقاوي، ومن ذلك (رسالة فيما يتعلق بمدخول الباء بعد مادة الاختصاص) للعلامة الأنبابي.

ومن ذلك رسالة في النكرة واسم الجنس وما يتعلق بهما، للعلامة محمد بن محمد الدمنهوري الهلباوي الشافعي كان حيا سنة ١٢٨٨هـ.

ومن ذلك نظم العلامة الدمنهوري علاقات المجاز في بيتين، ثم شرحهما في شرح اسمه: (الحذاقة، بأنواع العلاقة)، ومن ذلك رسالة للإمام الأنبابي في إفادة تعريف المسند إليه أو المسند بلام الجنس.

الفن السابع: مجالس اللغة والنحو، فكانت تقع للأزهريين مباحثات ومجالس ومطارحات ومكاتبات في بحوث من مختلف فنون اللغة، بما تعمر به الأوقات، وتنهض به الهمم للتنقيب عن الدقائق، وربما آل هذا إلىٰ أفراد البحث الذي ينقدح لهم بعد طول استقصاء وتحقيق برسالة أو تأليف.

فمن ذلك ما وصفه الدكتور محمد رجب البيومي من حضوره مرة مجلسا، اجتمع فيه الإمام الأكبر شيخ الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين والشيخ عبد القادر المغربي، فتناقشا في معنىٰ كلمة (محدث) الواردة في الحديث (إن منكم محدثين، وإن منهم عمر بن الخطاب)[1]، فأفاض المغربي في معنىٰ كلمة المحدث والإلهام، وتكلم في الاشتقاق، واستطرد إلىٰ مواقف التاريخ التي تشهد لسيدنا عمر بن الخطاب، وكان الخضر الحسين يستمع مبتسما، ثم اتسع له مجال التعقيب، فذكر أنه عثر علىٰ رواية (مُحْدِث)، بضم الميم وكسر الدال، وأخذ يفسر المعنىٰ علىٰ لفظها، قال البيومي: (ودار نقاش أخذ يرتفع عن مستواي، تواردت فيه أسماء ابن جني، والاستراباذي، والشهاب الخفاجي، ثم سكت الخضر)[2]، وأقول: ما كان يخلو مجلس للأزهريين من مثل هذا، وكانت مجالسهم عامرة علىٰ الدوام ببحوث اللغة والإعراب ومسائل البلاغة والبيان.

ومن ذلك مثلًا ما استطار بينهم في مسألة صرف عمر، فقد شجر الخلاف فيها بينهم، واستفاض

(١) حديث (إِنَّهُ قَدْ كَانَ فِيمَا مَضَىٰ قَبْلَكُمْ مِنَ الْأُمَمِ مُحَدَّثُونَ وَإِنَّهُ إِنْ كَانَ فِي أُمَّتِي هَذِهِ مِنْهُمْ فَإِنَّهُ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ) ورد من مسندي أبي هريرة وعائشة، أما حديث أبي هريرة فقد رواه البخاري في صحيحه /٢/٧٢٥ ح ٣٧٣٤ مكنز/، كتاب فضائل أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي ﷺ وأما حديث عائشة فقد رواه مسلم في صحيحه /٢/١٠٢٧ ح ٦٣٥٧ مكنز/، كتاب فضائل الصحابة رضي الله تعالىٰ عنهم، باب من فضائل عمر ﷺ.

(٢) من أعلام العصر: كيف عرفت هؤلاء /ص١٢٩/.

فيها الحديث عندهم، وكتبت فيها مقالات، وأنشئت فيها قصائد، وتدافع فيها العلماء، وكان من أطراف النزاع فيها ابن التلاميد الشنقيطي، وحمزة فتح الله، وحسن الطويل، وأحمد زكي باشا، وأحمد لطفي السيد، وليست المسألة ترفًا، بل هي تدقيق في مسائل صغار، تظهر فيها المواهب والملكات وسعة الاطلاع وشدة التمحيص، بعد جهودهم الجليلة في كبار بحوث اللغة.

ومن ذلك مجالس العلامة سيد علي المرصفي، ومجالس الشيخ توفيق البكري التي كانت نواة أول مجمع للغة العربية.

إِضَاءَةٌ

في معالم عناية الأزهر بأصول الفقه وأنه جوهرة العلوم الأزهرية، وأنه العاصم للعقول من الانحراف والتطرف في فهم الوحي

علم أصول الفقه هو رأس العلوم الأزهرية، وأساسها، ولعله هو العلم الذي حظي بالعناية الكبرىٰ عند الأزهريين، وقام بالحظ الأكبر من صناعة عقولهم، وتنقيحها، وقد بلغ الأزهريون مبلغًا عظيمًا فيه وفي تحريره، وإتقانه، والعناية بتدريسه، وشرح كتبه الكبرىٰ، والتحرير عليها، فقد قال العلامة المحدث الشيخ عبد الفتاح أبو غدة (لأن الأزهريين أبقاهم الله تعالىٰ، وأعزهم بالعلم والدين، ونفْع المسلمين، وكثَّر سوادهم في الصالحين المخلصين المتقين، يتقن كبارهم علوم الدراية إتقانًا جيدًا ممتازًا، وفي رأسها: الفقه والأصول والتفسير، وشرح أحاديث الأحكام، وما يتصل بذلك، وعلوم العربية)[١].

وقد كانت العمدة عند الأزهريين في تدريس الأصول وصناعة الأصولي علىٰ كتاب (جمع الجوامع)، قال العلامة الشيخ عبد الله دراز: (فهذا كتاب «جمع الجوامع» بشرح المحلي بقي قرونا طويلة هو كتاب الأصول الوحيد الذي يدرس في الأزهر ومعاهد العلم بالديار المصرية)[٢]، قلت: حتىٰ إن العلامة الجليل الشيخ محمد حسنين مخلوف قد اجتهد في أوائل كتاب: (القول الجامع، في الكشف عن شرح مقدمة جمع الجوامع) في حصر شراح جمع الجوامع والكاتبين في اختصاره ونظمه، ثم قال: (ولا يبعد أن يكون علىٰ الكتاب غير ذلك من الشروح والحواشي والمختصرات، نظمًا ونثرًا، فإن عناية المشتغلين به وبشرحه حفظًا وتدريسًا وتأليفًا فوق كل عناية)[٣].

وقال صاحب: (معجم الأصوليين): (وهو كتاب أشهر من أن يعرف، فقد اعتكف عليه الناس تدريسًا وشرحًا، ونظمًا وحفظًا، فصار المرجع المعتمد في تدريس أصول الفقه في كثير من المدارس، حتىٰ قُرر في جامع الأزهر زمانًا طويلًا مرجع أصول الفقه الأول، وقد طبقت شهرته الآفاق)[٤].

---

(١) من تعليقة له علىٰ: بلغة الأريب، في مصطلح حديث الحبيب /ص١٦٠/، ط٢ (ملحقًا بقفو الأثر، في صفو علوم الأثر): مكتب المطبوعات الإسلامية بحلب، سنة ١٤٠٨هـ.

(٢) من مقدمة تعليقه الجليل على الموافقات في أصول الشريعة/ ١/١١/.

(٣) القول الجامع، في الكشف عن شرح مقدمة جمع الجوامع /ص٧/، مخطوط.

(٤) معجم الأصوليين /ص٣٢٧/.

وتأتي عناية الأزهريين بعلم الأصول من خلال فنون متعددة، وروافد متشابكة، تعرب عن شغفهم بهذا العلم، وتفننهم في دراسته، وإليك شذرات من ذلك:

❁ **الفن الأول**: مقدمات علم الأصول ومداخله وتاريخه، ومن أهم ما أبدعه الأزهريون في ذلك هو كتاب: (بلوغ السول، في مدخل علم الأصول)، للعلامة الشيخ محمد حسنين مخلوف، وكتب سماحة العلامة الجليل الشيخ علي جمعة كتابه: (تاريخ أصول الفقه)، وكتب الأستاذ الدكتور أحمد عبد العزيز السيد رئيس قسم الأصول بكلية الشريعة بجامعة الأزهر كتابا مهما عنوانه: (المدخل إلىٰ علم الأصول)، بسط فيه مقدمات العلم، ثم استعرض عددًا من كتبه الكبار، فتكلم عنها وعن مناهج مؤلفيها، وشروحها، ثم عقد مبحثًا مهمًّا لطيفًا يحصي فيه الكتب الحديثة في علم الأصول مرتبة علىٰ أبواب هذا العلم الشريف.

❁ **الفن الثاني**: تقريب علم الأصول وتلخيصه وتسهيله، وتأليف المختصرات فيه، فمن ذلك اختصار العلامة الشيخ محمد عبد المنعم القيعي لمستصفىٰ الغزالي، في نحو مئة وثلاثين صفحة، ومن ذلك (تسهيل الوصول، إلىٰ علم الأصول)، للعلامة محمد عبد الرحمن عيد المحلاوي، من أهم كتب الأصول علىٰ طريقة الحنفية، التي تعتني بربط القواعد الأصولية بالفروع الفقهية.

ومن ذلك العدول عن الطريقة المعهودة في الكتابة في الأصول إلىٰ نحو آخر، ومن هنا جاء كتاب (أصول الفقه) للشيخ محمد الخضري وقد كان - رحمه الله - متأثرًا بالشيخ محمد عبده، في إعادة تدوين العلوم الإسلامية بلغة العصر، فكتب محمد عبده رسالة التوحيد، وعلىٰ غرارها كتب الخضري كتاب أصول الفقه، قال الأستاذ الأديب الكبير مصطفىٰ صادق الرافعي في كتاب: (وحي القلم): (وانتهىٰ الخضري إلىٰ مدرسة القضاء الشرعي، فألف كتابه في الأصول، اختصر فيه وهذب وقارب، فهو كتاب في هذا العلم لا كتاب هذا العلم، وأساتذة الأصول قوم آخرون، لو أنت منهم مثل الشيخ الرافعي الكبير لرأيت البحر الذي يذهب في ساحله نصف طول الأرض، وقد بعث الخضري علىٰ ذلك أن جماعة يومئذ، كان منهم صديقنا المرحوم حفني ناصف، والشيخ المهدي، وغيرهما، اجتمعوا علىٰ إبداع نهضة في التأليف، فذهب ثلاثة منهم بحصة الأدب، وفرغ الخضري للأصول، أخبرني بذلك حفني بك رحمه الله)[1].

ونقل عنه الدكتور محمد رجب البيومي قوله: (ولقد كان الأستاذ الإمام في بعض نواحي تجديده داعية إلىٰ تذليل الكتب المعقدة، وإعادة تدوين العلوم الإسلامية والعربية بلغة العصر، وقد بدأ ذلك برسالة التوحيد، فجدد أعوص مسائل علم الكلام، بأسلوب شفاف مبين، ينضح بعبير القرآن، فجذب بذلك تلميذه الأستاذ محمد الخضري إلىٰ تذليل علم الأصول، في مذكرات واضحة شارحة)[2].

(١) وحي القلم /٣/١٠٩٣، ط: دار ابن حزم، بيروت، سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، بعناية بسام عبد الوهاب الجابي.

(٢) النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين /١/٢٨٤.

ثم توالت الكتابات على هذا النمط ، فألف أحمد بك إبراهيم ، وعبد الوهاب خلاف ، ومحمد أبو زهرة ، وغيرهم ، إلى أن جاء الشيخ محمد المدني شيخ كلية الشريعة ، وربط ترقية علماء كلية الشريعة بتأليف كتاب في الأصول ، فكثرت الكتب المستقلة والرسائل العلمية الميسرة من علماء الأزهر في هذا الفن ، بما يشكل مكتبة متكاملة في جميع موضوعاته الموروثة .

❁ **الفن الثالث:** نظم علم الأصول ، فنظم العلامة نور الدين علي الأشموني جمع الجوامع للسبكي ، ومن المعاصرين: العلامة الفقيه الكبير الأستاذ الدكتور الشيخ إبراهيم عبد الحميد ، فمن مؤلفاته: (نظم لكتاب «لب الأصول» لشيخ الإسلام زكريا الأنصاري) ، والأستاذ الدكتور محمود عبد الرحمن عبد المنعم ، حيث نظم كتاب (تقريب الوصول) لابن جزي في ألفية سماها (تحفة الحبيب ، في نظم التقريب) ، وأضاف إليها تحريرات ومسائل ، فبلغت أبياتها حوالي ١٣٥٠ بيتًا ، ونظم الدكتور عبد الرحمن رمضان الأزهري متن (منار الأنوار) لحافظ الدين النسفي في منظومة سماها: (تحفة الأخيار ، في نظم منار الأنوار) ، وهو مطبوع .

❁ **الفن الرابع:** العناية بكتب الأصول الصغار والكبار شرحًا وتحشيةً وتقريرًا ونظمًا:

فمن كتب الأصول الصغار ورقات الجويني: وشروح الأزهريين عليه وحواشيهم وتقريراتهم لا تكاد تنحصر .

فمنهم من شرحه مباشرة ، ومن ذلك شرح العلامة ناصر الدين محمد بن سالم الطبلاوي ت٩٦٦هـ على الورقات .

ثم نظر الأزهريون في شروح الورقات وهي كثيرة جدا ، فانتخبوا منها شرح العلامة المحلي ، وشرح ابن قاسم العبادي ، فكتبوا عليهما الحواشي والتقريرات .

فأما شرح المحلي على الورقات فقد كتب العلامة الشهاب السنباطي ت٩٩٥هـ تقريرًا عليه ، وكتب العلامة الشهاب القليوبي ت ١٠٦٩هـ حاشية عليه ، وكتب العلامة محمد عبادة العدوي ت١١٩٣هـ حاشية عليه ، وكتب العلامة علي بن علي النجاري توفي بعد سنة ٩٦٧هـ شرحًا عليه .

وأما شرح ابن قاسم على الورقات فقد كتب العلامة النور علي الشبراملسي ت١٠٨٧هـ حاشية عليه .

وأما كتب الأصول الكبار فعلى رأسها: كتاب جمع الجوامع للإمام السبكي ، وعناية الأزهريين به شرحًا وتحشية لا تنحصر ، ومن أوائل شروحه (البدر الطالع في حل جمع الجوامع) للإمام المحلي ، وقد

طار صيته في الآفاق وأقرأه الشيخ مرات عديدة وطلبه العلماء من الأقطار لقراءته وإقرائه واعتنوا به أيما عناية ووقع لديهم موقعًا عظيمًا وكتبوه بخطهم وتداولوه، فكتبه الشيخ عبد الله الشرقاوي، والشيخ عبد الله الخرشي المالكي، والشيخ علي العمروسي، وصار عمدة الشروح لجمع الجوامع، وعمدة تدريسه في الأزهر وغيره من معاهد العلم.

ووضعوا عليه الحواشي الرائقة فمنها: حاشية شيخ الإسلام كمال الدين بن أبي شريف ت ٩٠٥هـ، المسماة بالدرر اللوامع طبعت بفاس بالمغرب سنة ١٣١٢هـ، وحاشية شيخ الإسلام زكريا الأنصاري ت ٩٢٦هـ، وحاشية العلامة ناصر الدين اللقاني وطبع منها إلىٰ مبحث العام بمطبعة التمدن سنة ١٣٣٢هـ، وحاشية الشيخ السنباطي الشافعي (مخطوط بالمكتبة الأزهرية)، وحاشية الشيخ علي بن علي النجاري توفي بعد سنة ٩٦٧هـ (مخطوط بالأزهرية)، وحاشية العلامة محمد الصفتي المالكي، وحاشية الشيخ شهاب الدين البرلسي الشهير بعميرة ت٩٥٧هـ، وكتب عليه الإمام اللقاني كتابه: (البدور اللوامع، من خدور جمع الجوامع)، وكتب الإمام الشيخ حسن العطار حاشية عليه، وكتب الإمام الباجوري حاشية عليه، مخطوطة في الأزهرية، وكتب الشيخ إسماعيل الحامدي ت١٣١٦هـ حاشية عليه، والشيخ أحمد محجوب الفيومي ت١٣٢٥هـ له حاشية عليه.

واعتمد الأزهريون حاشية البناني علىٰ شرح المحلي علىٰ جمع الجوامع، وأقرأوها، وكتبوا عليها التقريرات النفيسة، فكتب الإمام الشمس الأنبابي تقريرًا نفيسًا علىٰ البناني، مخطوطة، وكتب العلامة عبد الرحمن الشربيني تقريرات علىٰ حاشية البناني.

ومنهم من كتب علىٰ مقدمته، فكتب الإمام الشيخ محمد بن علي الصبان شرحًا علىٰ مقدمته، وكتب الإمام البرهان الباجوري شرحًا علىٰ مقدمته، وكتب الإمام الشيخ بخيت المطيعي حاشية علىٰ مقدمته اسمها: (البدر الطالع)، وكتب العلامة الشيخ محمد حسنين مخلوف حاشية علىٰ مقدمته اسمها (القول الجامع، في الكشف عن شرح مقدمة جمع الجوامع)، مخطوط في الأزهرية.

ومنهم من أفرد مسألة من مسائله بالتأليف، كما وقع للعلامة الشيخ محمد بن أحمد بن حسن ابن عبد الكريم الجوهري فقد جمع رسالة لطيفة في مسألة الأصولي من جمع الجوامع سماها: (مراقي الوصول، إلىٰ معنىٰ الأصولي والأصول)، وكتب العلامة الشيخ إسماعيل بن غنيم الجوهري رسالة أخرىٰ سماها: (الكلم الجوامع، في مسألة الأصولي من جمع الجوامع)[1]، ولشيخ الإسلام عبد الله الشرقاوي

---

(١) وللعلامة المعقولي المحقق محمد حسنين مخلوف رصد مهم للكاتبين علىٰ جمع الجوامع، أوردها في كتابه الدقيق الماتع: بلوغ السول، من مدخل علم الأصول /ص١٩٩ ـ ٢٠٣/، ط٢: مصطفىٰ الحلبي، القاهرة، سنة ١٣٨٦هـ ـ ١٩٦٦م، وهو أيضا في مقدمة كتابه الجليل: القول الجامع، في الكشف عن شرح مقدمة جمع الجوامع /ص٥ ـ ٨/، مخطوط.

تقييدات على مسألة الأصولي من جمع الجوامع، مخطوط في الأزهرية.

ثم كتاب منهاج البيضاوي، وقد اعتنى به الأزهريون عناية فائقة، فشرحه العلامة الشيخ أبو النور زهير في كتابه (أصول الفقه)، وشرحه العلامة الشيخ يس سويلم طه في كتابه: (صفوة البيان، في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول)، ثم اختصره في كتابه: (مختصر صفوة البيان).

ومما كان معتمداً في تدريس الأصول في الأزهر أيضاً مختصر ابن الحاجب بحاشيتي السيد والسعد، وقد قرر مجلس الأزهر الأعلى أن يكون هذا الكتاب من كتب الأصول التي تدرس في الأزهر الشريف، وللإمام الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي حاشية نفيسة عليهما.

ومما كان معتمداً لتدريس أصول الحنفية في الأزهر منار النسفي وشروحه، فكتب الشيخ محمد رشيد بن عبد اللطيف بن عبد القادر بن مصطفى الرافعي ت١٣١٦هـ (نتائج الأفكار، على نسمات الأسحار)، مخطوط في الأزهرية.

وأقرأ الأزهريون كتاب الإحكام للآمدي أيام الشيخ محمد مصطفى المراغي ﷺ، إلا أن مدة إقرائه لم تطل، فما لبثوا أن عدلوا عنه[1].

ثم متن التحرير للكمال ابن الهمام، وألف في شرحه عدد من الأزهريين، فشرحه العلامة الشيخ أبو النور زهير، وشرحه العلامة الشيخ محمد عبد الفتاح العناني، وشرح العلامة الشيخ يوسف المرصفي قسما منه.

◈ **الفن الخامس:** إفراد مسألة من مسائل علم الأصول أو مبحث من بحوثه بالتأليف، فمن ذلك كتاب (حلية ذوي الأفهام، بتحقيق دلالة العام)، للعلامة محمد بن أحمد بن حسن ابن الجوهري ت١٢١٥هـ، مخطوط في الأزهرية، وكتاب (القول السديد، في الاجتهاد والتقليد) لرفاعة بك الطهطاوي، و(رسالة في جواز النسخ) للعلامة إسماعيل بن غنيم الجوهري ت١١٦٥هـ، و(رسالة في مبحث المطلق والمقيد من فن الأصول)، للعلامة محمد حسنين مخلوف، و(شرح بيتين في شروط التقليد) للعلامة محمد بن شافعي الفضالي الشافعي ت١٢٣٦هـ.

◈ **الفن السادس:** الكلام عن علاقة علم الأصول بالعلوم الأخرى، فمن ذلك (رسالة في المقارنة والمفارقة بين أصول الفقه الإسلامي وأصول القوانين الوضعية) للشيخ عبد الله صيام، وكتب

(١) كما نص عليه العلامة خليل الخالدي وانظر: مجلة الرسالة /العدد ٧٨/ص٢١٣١/، العدد الصادر بتاريخ ٢٤ رمضان، سنة ١٣٥٣هـ - ٣١ ديسمبر، سنة ١٩٣٤م.

الدكتور محمد زكي عبد البر أيضًا في ماهية العلاقة بين القوانين وبين علم الأصول، وذلك في كتابه: (تقنين أصول الفقه)، وكتب العلامة الشيخ علي جمعة في علاقة أصول الفقه بالفسلفة في كتابه (علم أصول الفقه وعلاقته بالفلسفة الإسلامية)، ثم التقط الباحثون هذا المبحث فكثرت فيه الكتابات، فكتب الدكتور محمد العروسي عبد القادر في العلاقة بين علم الكلام وبين علم الأصول في كتابه: (المسائل المشتركة بين أصول الدين وأصول الفقه)، وكذلك فعل الدكتور خالد عبد اللطيف محمد نور عبد الله في كتابه: (مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه)، وكتب الدكتور محمد بن علي الجيلاني الشتيوي كتابه: (علاقة علم أصول الفقه بعلم الكلام)، وكتب الدكتور عبد السلام بلاجي كتابه: (تطور علم أصول الفقه، وتجدده، وتأثره بالمباحث الكلامية)، وبحثت الدكتورة أميرة بنت علي بن عبد الله الصاعدي في العلاقة بين علم الأصول وبين علوم الحديث في كتابها: (القواعد والمسائل الحديثية المختلف فيها بين المحدثين وبعض الأصوليين).

❁ **الفن السابع:** النظر في تجديد علم الأصول، وكتب فيه العلامة الجليل الشيخ علي جمعة كتاب (قضية تجديد أصول الفقه)، وكتب الدكتور شعبان إسماعيل: (التجديد في أصول الفقه، دراسة وصفية نقدية).

❁ **الفن الثامن:** تفنيد الشبهات حول أصالة علم الأصول ومصداقيته ومنهجيته، وممن كتب في ذلك العلامة المتقن الشيخ محمد حسنين مخلوف في كتابه: (بلوغ السول، من مدخل علم الأصول)، وكتب الأستاذ الدكتور محمود عبد الرحمن عبد المنعم الأستاذ بكلية الشريعة كتابه المهم: (رؤية المستشرقين والمستغربين لنشأة علم أصول الفقه وتفنيدها: دراسة تحليلية ناقدة)، وله أيضًا ردٌّ أصوليٌّ مطول على كتاب: (مزالق الأصوليين)، المنسوب للأمير الصنعاني، ينقد فيه الشبهات التي يثيرها الكتاب المذكور حول علم الأصول، فجاء في غاية الجودة والتحرير، وسمى رده هذا: (المزالق العلمية في كتاب: «مزالق الأصوليين» المنسوب إلى الأمير الصنعاني)، وهو منشور[1].

❁ **الفن التاسع:** تراجم الأصوليين، وهذا الفن المهم قد ابتكره الأزهريون، حيث سبق العالم الجليل الشيخ عبد الله مصطفى المراغي إلى تأليف كتابه المبتكر: (الفتح المبين، في طبقات الأصوليين)، ولا نعلم أن أحدًا سبق إلى جمع كتاب في تراجم الأصوليين إلا ما كان من الحافظ السيوطي، فإن له كتابًا

(١) نشر في مجلة دار الإفتاء المصرية /ص١٦ ـ ١٥٦/، العدد العاشر، الصادر بتاريخ ذي القعدة سنة ١٤٣٢هـ ـ أكتوبر سنة ٢٠١١م.

تقييدات على مسألة الأصولي من جمع الجوامع، مخطوط في الأزهرية.

ثم كتاب منهاج البيضاوي، وقد اعتنى به الأزهريون عناية فائقة، فشرحه العلامة الشيخ أبو النور زهير في كتابه (أصول الفقه)، وشرحه العلامة الشيخ يس سويلم طه في كتابه: (صفوة البيان، في شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول)، ثم اختصره في كتابه: (مختصر صفوة البيان).

ومما كان معتمداً في تدريس الأصول في الأزهر أيضاً مختصر ابن الحاجب بحاشيتي السيد والسعد، وقد قرر مجلس الأزهر الأعلى أن يكون هذا الكتاب من كتب الأصول التي تدرس في الأزهر الشريف، وللإمام الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي حاشية نفيسة عليهما.

ومما كان معتمداً لتدريس أصول الحنفية في الأزهر منار النسفي وشروحه، فكتب الشيخ محمد رشيد بن عبد اللطيف بن عبد القادر بن مصطفى الرافعي ت١٣١٦هـ (نتائج الأفكار، على نسمات الأسحار)، مخطوط في الأزهرية.

وأقرأ الأزهريون كتاب الإحكام للآمدي أيام الشيخ محمد مصطفى المراغي ﷺ، إلا أن مدة إقرائه لم تطل، فما لبثوا أن عدلوا عنه[١].

ثم متن التحرير للكمال ابن الهمام، وألف في شرحه عدد من الأزهريين، فشرحه العلامة الشيخ أبو النور زهير، وشرحه العلامة الشيخ محمد عبد الفتاح العناني، وشرح العلامة الشيخ يوسف المرصفي قسما منه.

❁ **الفن الخامس:** إفراد مسألة من مسائل علم الأصول أو مبحث من بحوثه بالتأليف، فمن ذلك كتاب (حلية ذوي الأفهام، بتحقيق دلالة العام)، للعلامة محمد بن أحمد بن حسن ابن الجوهري ت١٢١٥هـ، مخطوط في الأزهرية، وكتاب (القول السديد، في الاجتهاد والتقليد) لرفاعة بك الطهطاوي، و(رسالة في جواز النسخ) للعلامة إسماعيل بن غنيم الجوهري ت١١٦٥هـ، و(رسالة في مبحث المطلق والمقيد من فن الأصول)، للعلامة محمد حسنين مخلوف، و(شرح بيتين في شروط التقليد) للعلامة محمد بن شافعي الفضالي الشافعي ت١٢٣٦هـ.

❁ **الفن السادس:** الكلام عن علاقة علم الأصول بالعلوم الأخرى، فمن ذلك (رسالة في المقارنة والمفارقة بين أصول الفقه الإسلامي وأصول القوانين الوضعية) للشيخ عبد الله صيام، وكتب

(١) كما نص عليه العلامة خليل الخالدي وانظر: مجلة الرسالة /العدد ٧٨/ص٢١٣١/، العدد الصادر بتاريخ ٢٤ رمضان، سنة ١٣٥٣هـ - ٣١ ديسمبر، سنة ١٩٣٤م.

الدكتور محمد زكي عبد البر أيضًا في ماهية العلاقة بين القوانين وبين علم الأصول، وذلك في كتابه: (تقنين أصول الفقه)، وكتب العلامة الشيخ علي جمعة في علاقة أصول الفقه بالفلسفة في كتابه (علم أصول الفقه وعلاقته بالفلسفة الإسلامية)، ثم التقط الباحثون هذا المبحث فكثرت فيه الكتابات، فكتب الدكتور محمد العروسي عبد القادر في العلاقة بين علم الكلام وبين علم الأصول في كتابه: (المسائل المشتركة بين أصول الدين وأصول الفقه)، وكذلك فعل الدكتور خالد عبد اللطيف محمد نور عبد الله في كتابه: (مسائل أصول الدين المبحوثة في علم أصول الفقه)، وكتب الدكتور محمد بن علي الجيلاني الشتيوي كتابه: (علاقة علم أصول الفقه بعلم الكلام)، وكتب الدكتور عبد السلام بلاجي كتابه: (تطور علم أصول الفقه، وتجدده، وتأثره بالمباحث الكلامية)، وبحثت الدكتورة أميرة بنت علي بن عبد الله الصاعدي في العلاقة بين علم الأصول وبين علوم الحديث في كتابها: (القواعد والمسائل الحديثية المختلف فيها بين المحدثين وبعض الأصوليين).

◉ **الفن السابع:** النظر في تجديد علم الأصول، وكتب فيه العلامة الجليل الشيخ علي جمعة كتاب (قضية تجديد أصول الفقه)، وكتب الدكتور شعبان إسماعيل: (التجديد في أصول الفقه، دراسة وصفية نقدية).

◉ **الفن الثامن:** تفنيد الشبهات حول أصالة علم الأصول ومصداقيته ومنهجيته، وممن كتب في ذلك العلامة المتقن الشيخ محمد حسنين مخلوف في كتابه: (بلوغ السول، من مدخل علم الأصول)، وكتب الأستاذ الدكتور محمود عبد الرحمن عبد المنعم الأستاذ بكلية الشريعة كتابه المهم: (رؤية المستشرقين والمستغربين لنشأة علم أصول الفقه وتفنيدها: دراسة تحليلية ناقدة)، وله أيضًا ردٌّ أصوليٌّ مطول على كتاب: (مزالق الأصوليين)، المنسوب للأمير الصنعاني، ينقد فيه الشبهات التي يثيرها الكتاب المذكور حول علم الأصول، فجاء في غاية الجودة والتحرير، وسمى رده هذا: (المزالق العلمية في كتاب: «مزالق الأصوليين» المنسوب إلى الأمير الصنعاني)، وهو منشور[1].

◉ **الفن التاسع:** تراجم الأصوليين، وهذا الفن المهم قد ابتكره الأزهريون، حيث سبق العالم الجليل الشيخ عبد الله مصطفى المراغي إلى تأليف كتابه المبتكر: (الفتح المبين، في طبقات الأصوليين)، ولا نعلم أن أحدًا سبق إلى جمع كتاب في تراجم الأصوليين إلا ما كان من الحافظ السيوطي، فإن له كتابًا

(١) نشر في مجلة دار الإفتاء المصرية /ص١٦ - ١٥٦/، العدد العاشر، الصادر بتاريخ ذي القعدة سنة ١٤٣٢هـ - أكتوبر سنة ٢٠١١م.

بعنوان (طبقات الأصوليين)، ومخطوطه في ألمانيا، وأنا ساع في طلبه منذ فترة، ثم شاعت الكتابة في طبقات الأصوليين من الأزهريين وغيرهم، فمن ذلك ما كتبه الدكتور شعبان محمد إسماعيل في كتابه: (علم أصول الفقه، تاريخه ورجاله)، ولم يزد كثيرًا علىٰ ما في كتاب (الفتح المبين)، ثم ألف الدكتور محمد مظهر بقا كتابه الماتع المهم: (معجم الأصوليين)، وهو مطبوعٌ في ثلاثة أجزاء، وكتابات أخرىٰ بعد ذلك.

إِضَاءَةٌ
في شدة عناية الأزهر بعلمي الكلام والمنطق وعلوم المعقول عموما ومعالم ذلك

أما العلوم العقلية فقد كان للأزهريين في تحقيقها وإتقان مداركها الدقيقة يد طولىٰ، وكانت عنايتهم بها فائقة، ولهم فيها التحقيق التام، وكم خرج منهم من إمام متبحر محقق في هذه العلوم، ولهم في ذلك التآليف التي لا يحيط بها حصر، فبرز منهم عبر التاريخ أساطين هذه العلوم، كاللقاني، والباجوري، والقويسني، والأمير، والملوي، والصبان، والحفني، والدردير، والسباعي، وعبد السلام، وعليش، والأنبابي، وبخيت المطيعي، ومحمد حسنين مخلوف.

وتفننوا في خدمة علوم المعقول، من علم الكلام، وعلم المنطق، وعلم آداب البحث والمناظرة، وعلم المقولات العشر، وعلم مقالات الفرق، واشتملت حواشيهم ومتونهم وشروحهم علىٰ حظ عظيم من التحقيق في تلك العلوم.

وقد تعددت شروحهم وجهودهم في خدمة هذه العلوم الجليلة علىٰ عدة أنحاء وفنون:

۞ **الفن الأول:** تأليف المتون المعتمدة، والمنظومات الرائجة المتداولة، التي وقع لها القبول، في علوم المعقول علىٰ اختلاف فنونها، فمن ذلك متن الخريدة لشيخ السادة المالكية وفخر علماء الأزهر الشهاب أحمد الدردير، وهو مدخل للمبتدئين، انتفعت به أجيال متعاقبة، وألف الأزهريون عليه شروحًا في غاية الكثرة ومازالوا، فشرحها الدردير نفسه، وحشىٰ علىٰ شرحه هذا العلامة الشيخ بخيت المطيعي، وشرحها العلامة الصاوي، وللعلامة إبراهيم الجناجي الملقب ببصيلة تقرير عليه، وانتهاء بشرح الشيخ محمد أحمد المسير المسمىٰ: (تيسير العقيدة، بشرح الخريدة).

ومن ذلك عقيدة الأجهوري، متن نظمه شيخ المالكية الإمام نور الدين أبو الإرشاد علي زين العابدين الأجهوري ت١٠٦٦هـ، ثم شرحه.

ومن ذلك منظومة مفتي مديرية الدقهلية العلامة الشيخ محمد الإمام الطاهري الأزهري الحنفي كان حيا سنة ١٢٧٩هـ والمسماة: (وسيلة العبيد)، وقد شرحها العلامة الشيخ محمد بخيت في كتابه: (القول المفيد، في علم التوحيد، علىٰ رسالة وسيلة العبيد).

ومن ذلك منظومة: (العقائد السنية) للعلامة الشيخ محمد بليحة في العقائد، ولخطيب الأزهر وعمدة الأزهريين العلامة البرهان السقا شرح على هذا النظم اسمه: (التحفة السنية، في العقائد السنية)، ألفه بطلب من الشيخ بليحة صاحب المنظومة، ومنه نسخة مخطوطة في مكتبة الأزهر، وقد ألف العلامة الشيخ محمد عياد الطنطاوي حاشيةً على شرح العلامة السقا المذكور، اسمه: (تشحيذ الروية، في فهم التحفة السنية)، مخطوط في مكتبة الأزهر.

ومن ذلك منظومة (البدر الفاخر)، وهي منظومة في التوحيد للعلامة الشيخ حسن النبراوي الأزهري، مخطوطة في مكتبة الأزهر الشريف.

ومن ذلك منظومة (إضاءة الدجنة)، للعلامة المقري، فقد شرحها عدد من العلماء؛ منهم: العلامة شهاب الدين أحمد سلام الرشيدي المالكي، كان حيا سنة ١١٦٨هـ، واسم شرحه: (بلوغ الأمنية، بشرح القصيدة المقرية)، مخطوط في مكتبة الأزهر.

ومن ذلك نظم لطيف لشيخ الأزهر الإمام الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهوري واسمه: (تحفة الملوك، بعلمي التوحيد والسلوك)، مخطوط في مكتبة الأزهر.

ومن ذلك نظم متن السنوسية، لمفتي نابلس العلامة الشيخ محمد منيب الهاشمي الجعفري الأزهري، وهي قصيدة رائية لطيفة، تصلح للمبتدي، أتم نظمها سنة ١٢٨٩هـ.

ومن ذلك متن الجوهرة للإمام اللقاني، ولقد وقع هذا المتن موقعًا فريدًا عند علماء الأزهر، وتلقوه بالقبول، واعتمدوه في التدريس على مدى قرون، وتواردوا على شرحه والتحشية عليه، حتى إن المتتبع ليمتلئ عجبا مما أوقعه الله تعالى لهذا المتن من القبول عند الأزهريين من أول يوم خرج فيه للناس، قال العلامة الجليل الشيخ صالح الجعفري: (المنظومة المسماة «جوهرة التوحيد» كتب منها طلبة الأزهر ألف نسخة في يوم ظهورها لهم)[1].

وأول من شرح متن الجوهرة هو مؤلفه بنفسه، فقد وضع عليه شرحًا حافلًا كبيرًا، ثم شرحه ابنه العلامة عبد السلام اللقاني ت١٠٧٨هـ في: (إتحاف المريد، لشرح جوهرة التوحيد)، وللعلامة علي الصعيدي ت١١٨٩هـ حاشيتان على شرح عبد السلام، وشرحه عبد البر بن عبد الله بن محمد الأجهوري الشافعي ت ١٠٧٠هـ، في: (فتح القريب المجيد، بشرح جوهرة التوحيد)، وشرحها العلامة عبد المعطي ابن سالم السملاوي الأزهري ت١١٢٧هـ في: (كشف الأسرار المحررة، الكامنة في ألفاظ الجوهرة)، ثم كتب: (الفوائد المقررة، على كشف الأسرار المحررة، الكامنة في ألفاظ الجوهرة)، وشرحه العلامة علي ابن خضر العمروسي ت١١٧٣هـ في: (إتحاف المريد، شرح جوهرة التوحيد)، وشرحه العلامة عيسى

(١) فتح وفيض وفضل من الله، في شرح كلمة لا إله إلا الله محمد رسول الله /ص٢٧/، ط: دار جوامع الكلم، القاهرة، (د ت).

البراوي الأزهري ت١١٨٢هـ في: (شرح جوهرة التوحيد)، وللعلامة محمد علي الشنواني ت١٢٣٣هـ حاشية على شرح القاضي زكريا لجوهرة التوحيد، وشرحه أحمد بن أحمد الأجهوري ت١٢٩٢هـ، وشرحه الباجوري شرحًا مشهورًا متداولًا، وشرحه العلامة الحسن بن علي بن محمد العوضي البدري في: (تحلية الجيد، بشرح جوهرة التوحيد)، مخطوط في مكتبة الأزهر، وشرحه العلامة عبد الله بن علي الشناوي القحافي في: (التذكرة، في حل ألفاظ الجوهرة)، وكتبت عليه شروح كثيرة لا تنحصر، واعتمد في تدريس ذلك العلم على مدى أجيال.

ومن ذلك متن العقائد النسفية، نظمه جماعة؛ منهم: العلامة الشيخ محمود بن عمر العالم المنزلي ت سنة ١٣١١هـ.

ومن ذلك: متن المقولات للعلامة السجاعي وشرحه للعلامة السيد البُليدي، وكتب عليه شيخ الإسلام حسن العطار ثلاث حواش، وللشيخ نصر الحويحي تقرير على الحاشية الصغرى من تلك الحواشي الثلاث، ثم الحاشية الثانية للعلامة محمد حسنين مخلوف، وفي الطبقات التالية كتاب للعلامة سليمان خميس اسمه: (شرح المقولات العشر).

فضلا عن عشرات التآليف في العقائد، مثل (بارقة التمهيد، لفهم خلاصة التوحيد) للعلامة الشيخ محمد الجوهري الصغير ت١١٨٢هـ، مخطوط في مكتبة الأزهر، و(القول الوافي السديد، في عقائد أهل التوحيد) للعلامة عليش، وله أيضا: (هداية المريد، لعقيدة أهل التوحيد)، وله أيضا: (تقريب العقائد السنية، بالأدلة القرآنية)، وللعلامة عبد الهادي نجا الأبياري شرح عليه سماه: (تقرير الفوائد، شرح تقريب العقائد)، و(الفرائد في العقائد) لعبد الله النديم الأديب المشهور، و(البحث السديد، في علم التوحيد) لمحمد علي ملوخية، وعشرات ومئات من المتون والتآليف اللطيفة التي تجري مجرى المتون.

ومن ذلك أنهم نظموا في علم آداب البحث وألفوا متونًا لطيفةً في هذا الفن أيضا، منها حاشية الصبان على آداب البحث، ولأبي المحاسن القاوقجي شرح على آداب البحث، ومنها منظومة العلامة زين ابن أحمد المرصفي، ومنظومة العلامة محمد الزكي المجدي الأزهري لآداب البحث للعلامة العضد، وقد شرحها ولده العلامة حسين المجدي الأزهري في رسالة ماتعة عنوانها (مُنى طالب البحث، من آداب البحث)، ومتن آخر للعلامة الشيخ أحمد مكي شيخ معهد الزقازيق الأزهري، سماه: (الرسالة الموضوعة في علم آداب البحث والمناظرة)، وألف شرحًا لها، طبعا معًا، ومن ذلك رسالة آداب البحث والمناظرة للشيخ محيي الدين عبد الحميد، بل لقد بلغ من عناية العلامة الشيخ حسين والي الأزهري ت ١٣٥٤هـ بهذا الفن أن ألف فيه ثلاثة كتب، وهي: (آداب البحث والمناظرة)، ثم اختصر منه كتابا وسطا، ثم اختصر الكتاب الوسط في كتاب لطيف اسمه: (الموجز في آداب البحث والمناظرة).

◉ **الفن الثاني:** شروحهم واختصارهم على كتب علوم المعقول الكبار والصغار، فشرح شيخ الإسلام زكريا متن إيساغوجي، وحشى على شرحه حسن العطار، وعليش، ويوسف الحفني، وشرحوا سلم الأخضري بشروح كثيرة.

وشرحوا متون السنوسي، حتى قال بعضهم وهو يتحدث عن السادة المغاربة: (ولم يؤلفوا فيه كتابا ذا بال، إلا الإمام محمد بن يوسف السنوسي التلمساني، فإنه ألف فيه على طريقة المشارقة عدة كتب شاعت وانتشرت في الشرق والغرب، وقررت في أكبر المعاهد الاسلامية كالأزهر)[1].

قلت: فمن شراحها من الأزهريين: داود بن السيد سليمان بن علوان الرحماني الشافعي ت١٠٧٨هـ، له: (التحفة السندسية، لمن يشتغل بشرح السنوسية)، مخطوط في مكتبة الأزهر، وله أيضًا حاشية على العقائد السنوسية.

ومنهم العلامة الشهاب أحمد بن محمد الغنيمي ت١٠٤٤هـ، له شرح اسمه: (بهجة الناظرين، في محاسن أم البراهين)، مخطوط في مكتبة الأزهر.

ومنهم العلامة محمد بن أحمد بن عبد الله الخراشي ت١١٠١هـ، له شرح اسمه (الأنوار القدسية، في الفوائد الخرشية، لحل ألفاظ العقيدة السنوسية)، يشرح فيه صغرى السنوسي، مخطوط في مكتبة الأزهر.

ومنهم العلامة محمد بن أحمد بن عرفة الدسوقي ت١٢٣٠هـ حاشية على شرح صغرى السنوسي، وحاشية على شرح الكبرى أيضا.

وللعلامة عيسى بن أحمد بن عيسى بن محمد الزبيري البراوي الأزهري ت ١١٨٢هـ شرح على السنوسية اسمه: (البهجة السنية، على متن السنوسية)، مخطوط في مكتبة الأزهر، وقد كان متداولا مقروءًا، فمنه نسخ خطية كثيرة.

وللعلامة علي الصعيدي ت١١٨٩هـ تقريرات على شرح السنوسية للمصنف، وحاشية على شرح الهدهدي على الصغرى.

وللعلامة محمد البديري الدمياطي الشافعي شرح اسمه: (الأقوال السنية، على متن السنوسية)، مخطوط في مكتبة الأزهر.

وللشيخ علي بن حسين الببائي الأزهري شرح اسمه: (الأنوار الربانية، في شرح المقدمة السنوسية)،

(١) العقائد الإسلامية لابن باديس /ص٢٠/.

مخطوط في مكتبة الأزهر كذلك.

فضلا عن شرح الإمام الباجوري على السنوسية، وللإمام الشمس الأنبابي تقرير عليه، وللعلامة الشرشيمي الشرقاوي الصغير تقرير آخر على شرح الباجوري على السنوسية.

وكذلك شرح العلامة أحمد الأجهوري ت١٢٩٢هـ على السنوسية، ولعل أوسع تلك الشروح جميعا شرح العلامة إسماعيل الحامدي للكبرى.

وشرح العلامة الشيخ محمد عياد الطنطاوي رسالة الإمام الباجوري في كتاب اسمه: (بغية المريد، على رسالة التوحيد)، مخطوط في مكتبة الأزهر.

وشرحوا متن الرسالة الشمسية، ومن آخر شراحها من الأزهريين العلامة الشيخ محمد إبراهيم سالم المنطقي المشهور بشمس.

وللشيخ عبد المتعال الصعيدي كتاب: (المنطق المنظم، في شرح الملوي على السلم).

وشرح الإمامُ الباجوري متن السنوسي في المنطق شرحًا ماتعًا محررًا، وله فيه بحوث فريدة، تدل على عقل فائق.

وشرح العلامة الملوي سلم الأخضري في المنطق، وحشى عليه العلامة الصبان، وللدمنهوري شرح على السلم أيضا، وللقويسني شرح عليه.

وشرح العلامة عبد السلام بن البرهان اللقاني متن اللامية الجزائرية في العقائد والتوحيد في: (فتح المجيد، لكفاية المريد).

وشرحوا متن تهذيب المنطق والكلام للعلامة السعد وحشوا عليه بعدة شروح.

وشرحوا متن النسفية بعدة شروح وحواش، ومثاله من الأقدمين العلامة منصور الطبلاوي ت١٠١٤هـ سبط الشيخ ناصر الدين الطبلاوي، له: (مطلع بدور الفوائد، ومنبع جواهر الفرائد، على شرح العقائد للنسفي)، ومثاله من المعاصرين: شرح الشيخ سليمان خميس، والمسمى: (توضيح العقائد النسفية)، والشيخ عبد المتعال الصعيدي في كتابه المسمى: (زبد العقائد النسفية مع شرحها وحواشيه).

واختصر شيخ السادة الشافعية العلامة الجليل الشيخ سليمان العبد (طوالع الأنوار) للبيضاوي في مختصر لطيف سماه (يانع الأزهار، في اختصار طوالع الأنوار)، وكان يدرّسه، وهو مطبوع ومشهور.

ومن ذلك شرحهم لأبواب أو بحوث معينة من مقاصد السعد أو مواقف العضد، ومثال ذلك كتاب العلامة سليمان سليمان خميس في شرح أبواب الإلهيات من المواقف، واسمه: (توضيح الإلهيات في

شرح السيد الشريف على المواقف للإمام العضد)، ومن شروحهم شرح الإمام الشيخ سليم البشري على رسالة الملا[1] حنفي في آداب البحث والمناظرة، وسماه (تحفة الطلاب، شرح رسالة الآداب).

الفن الثالث: تناول المسائل الجدلية التي اشتد فيها النزاع والخلاف بإفراد التآليف لها، ومثال ذلك تأليف العلامة الشيخ صالح موسى شرف كتابًا في التوحيد، عالج فيه أربعة عشرًا مبحثًا، ثار فيها الجدل بين المتكلمين، وبه نال عضوية هيئة كبار العلماء.

الفن الرابع: إفراد المؤلفات لمداخل علم الكلام، ومن ذلك ما قام به العلامة محمد الحسيني الظواهري حيث أفرد الأمور العامة في علم الكلام بكتاب اسمه: (التحقيقات الهامة، في مباحث الأمور العامة).

الفن الخامس: عنايتهم بتذليل العقائد للعوام، وتقريبها من مداركهم، فألف العلامة الشيخ أبو الفوز أحمد بن محمد بن رمضان المرزوقي نظم عقيدة العوام وشرحها في كتاب سماه: (تحصيل نيل المرام، لبيان منظومة عقيدة العوام)، مخطوط في مكتبة الأزهر، وألف العلامة إبراهيم عفيفي كتابه: (تحفة المحتاجين، لمعرفة عقائد الدين)، وذكر في أوله أنه ألفه للعوام لتنوير عقائدهم، وألف العلامة الفضالي كتابه اللطيف (كفاية العوام، فيما يجب عليهم من علم الكلام)، وشرحه الباجوري في كتابه المشهور: (تحقيق المقام، على كفاية العوام).

الفن السادس: إفراد الأجزاء الكلامية، بحيث يشتمل كل جزء على باب معين، أو مسئلة محددة، لتمحيص مداركها، وجمع أطرافها، كالكتاب الذي أفرده العلامة الشيخ محمد حسنين مخلوف لمسألة الاعتباريات، والكتاب الذي أفرده شيخ الإسلام حسن العطار لمسألة المحال العقلي وهل ينقلب جائزا، وكتاب العلامة الأمير الكبير في تحرير الخلاف في اسم الجنس وعلم الجنس وعلم الشخص، وسمى كتابه (إتحاف الإنس، في العلمين واسم الجنس)، وألف في هذه المسألة العلامة محمد ابن الجوهري ت١٢١٥هـ في تحقيق الفرق بين علم الجنس واسمه، وألف في ذلك الشيخ سليم البشري

(١) المُلَّا لقب يقصد به الشيخ أو العالم، يشيع في ديار الأكراد والأتراك والأفغان وما والاها شمالا، وهو إما أن يكون منحوتًا من قولهم: (من لا نظير له في العلم)، وحينئذ حقه أن يكون المنلا، أو أن يكون من الملّاء، على المبالغة من أملى، أو أنه مختصر من مولى، وأقحمت النون منعا للتضعيف، وانتصر الآلوسي لفتح الميم منه حتى قال: (فاحفظ، وبالفتح تلفظ)، وضبطه المرادي بضم الميم منه، وقد أوردت نبذة في ذلك في تعليقة لي في كتاب: (البلدانيات) /ص٢٨٧/، ثم جمعتُ ذلك كله مسهبًا مبسوطًا محققًا في رسالة مفردة أسميتها: (إمداد المولى، في ضبط الملّا)، وقد أتممتها منذ زمن بفضل الله.

أيضا، وكتاب: (تحرير مسألة الكلام، على ما ذهب إليه الأشعري الإمام) للحبيب عبد الرحمن ابن مصطفى العيدروس الباعلوي الحضرمي المصري الأزهري ت١١٩٢هـ، وكتاب (مطلع النيرين، فيما يتعلق بالقدرتين) للإمام الأمير الكبير، وألف العلامة محمد الجوهري الخالدي الصغير جزءًا لطيفًا في أوراق اسمه: (برهان حدوث العالم)، وألف العلامة علي بن أحمد الرهبيني رسالة في تعلق القدرة، اسمها: (تحفة الراغبين، في حفظ عقائد الدين)، مخطوط في مكتبة الأزهر.

ومن ذلك إفراد باب الأشكال المنطقية وللشيخ منصور كساب العدوي الأزهري ت١٢٨٠هـ رسالة في ذلك، وإفراد باب الموجهات في المنطق بالتأليف، فألف فيه العلامة عبد الله وافي الفيومي رسالة (نظم الموجهات)، وهي منظومة له في القضايا الموجهة، وشرحها في: (سوانح التوجهات، على نظم الموجهات)، وألف العلامة محمد أبو عليان في ذلك رسالته: (نقائض الموجهات وعكوسها وشروط الأشكال ونتائجها بحسب الجهة) مخطوط.

الفن السابع: كتابات في تجديد علم الكلام ومحاولة النظر في ذلك كما كتب الأستاذ الدكتور يحيى حسن هاشم فرغل كتابه في تجديد علم الكلام، وكما في كتاب: (كبرى اليقينيات الكونية) للعلامة محمد سعيد رمضان البوطي، ويكاد يكون شرحًا على الخريدة.

الفن الثامن: المجالس الكلامية الدقيقة، التي كان يجلس لها كبار العلماء للبحث العالي، بعيدًا عن مجالس التدريس المعتادة المعهودة في سلم التعليم للدارسين، فمن تلك المجالس أن العلامة الشيخ محمد الخضري الكبير المتوفي سنة ١٢٨٧هـ الموافق سنة ١٨٧٠م (حدث في أثناء طلبه بالأزهر أن بعض كبار العلماء طلبوا إلى الأستاذ الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ القويسني المشهور بعلو درجته أن يقرأ لهم كتاب كبرى السنوسي في التوحيد، فأجابهم إلى طلبهم، ورغب الشيخ الخضري في انتهاز هذه الفرصة الثمينة، لكنه رأى في نفسه أنه أقل درجة من أن يجلس مع أولئك الكبار في حلقة الدرس، فجلس وراءهم تواضعا منه، ثم عرضت أمامه مسائل اضطرته أن يسأل عنها، فزجره بعض الحاضرين استصغارًا له، ولكن الشيخ ـ وقد سمع كلامه، واستولى منه على ذكائه ـ سأل عنه، فأجيب أنه ولد صغير جرئ، فاستفسر عن اسمه وبلده، وأمر أن يحضر نسخة من الكتاب، وينتظم في سلك هذا الدرس، فكانت بينه وبين أستاذه مناقشات وأبحاث أدهشت غالب علماء الأزهر)[1].

ولا أدري كيف يكون أزهريًا أو يدعي الأزهرية في نفسه من قلَّ حظه من هذه العلوم، أو قلَّ تحقيقه

(١) جريدة أخبار دمياط /عدد ٣/٢٥/ الصادر بتاريخ الاثنين ٢٩ جمادى الثانية، سنة ١٣٦٩هـ، الموافق ١٧ أبريل، سنة ١٩٥٠م.

فيها وفي دقائقها، فضلًا عمن عَرِي منها بالكلية، أو جهلها تمامًا، فضلًا عمن يعادي هذه العلوم الشريفة، ويدعى تحريمها، لشدة الجهل المطبق بأهمية هذه في تشييد علوم أهل الإسلام وحضارتهم، واشتباكهم مع فلسفات العالم من حولنا، وتثبيت موضع قدم لهذا الدين وعلومه بين معترك تيارات الفكر المتلاطمة في العالم من حولنا.

ومن رأى شدة شغف الأزهريين بها، ورصد جهودهم فيها، وتآليفهم ونظومهم وشروحهم، ورأى مبلغ عنايتهم بها، ظن أنه لا شغل لهم بسواها، وأنهم منقطعون لها دون غيرها من العلوم، والحق أنهم انتقوا لأنفسهم منظومة من العلوم التي لا يمكن تصنيع العقل العلمي الكامل إلا بها، فاختاروا باقة من علوم اللسان العربي، وباقة من علوم النقل وقوانينه، وباقة من علوم المعقول، وباقة من علوم الفروع وقواعدها وأصولها، بحيث لا يمكن للعقل العلمي أن يتم أو يستبصر أو يرى بأقل من ذلك.

وهذه العلوم العقلية العميقة إحدى دعائم العقلية الأزهرية، ومن أهم موارد صناعتها وبلورتها وتكوينها، حيث يقف العالم الأزهريُّ المُؤَصَّلُ على ملتقي البحرين العظيمين: علوم المنقول وعلوم المعقول، ويمتزجان عنده فلا يبغيان، يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان.

إِضَاءَةٌ
في وصف ما كان فيه من الجو الدراسي الحافل المحفز للهمم

وأما وصف ما كان فيه من الجو الدراسي، وطبيعة سير الدروس، والهيئة الحافلة فيه بالتدريس والقراءة والمراجعة والحفظ والمحاورة، وصناعة العقول، وشحذ الأذهان، وتربية الملكات، فقد قال الشيخ محمد سليمان: (كانت أروقة الأزهر مكسوة الجدران بخزائن الخشب، وعلىٰ جدر صحنه كذلك، فكان للمجاور أو للمجاورِيْن والثلاثة خزانة يضع فيها أشياءه، ورأينا كثيرًا من الطلاب عكفوا في الجامع مستغنين بخزائنهم، وقد حوت كتبهم وثيابهم، وفرغوا للعلم وأداء المكتوبة، فلا يخرجون منه إلا يوم الخميس ظهرا، يقصدون النهر والرياض، فمنهم من يغسل ثيابه بيده، ومنهم من ينزه في الروض نظره، حتىٰ إذا غربت الشمس عادوا وقد ملئوا نشاطًا ونظافةً، فيعكفون في الأزهر إلىٰ نهاية الأسبوع.

وكنت ورفاقي وجمهرة الطلبة في ذلك الوقت لا نفتر عن الاشتغال بالعلم من مطلع الفجر إلىٰ الهزيع الأول من الليل، بعد الفجر درس، وبعد الشمس درس، وبعد الظهر درس، وبعد العصر درس، وبعد المغرب درس، وربما بعد العشاء درس، وفيما بين هذه الأوقات لا عمل لنا إلا المطالعة والتهيؤ للدرس.

ومن يدخل الأزهر بعد صلاة العشاء يرىٰ جموعه حاشدة كأنها زرعُ طلبة متلاصقين، فمنهم المذاكر وحده، والمشارك غيره، والعجب ألا يحس أحدهم صوت جاره لاشتغال كل بنفسه، وكثيرًا ما تأملت في هذا العجيج الصاعد من أصوات هذه الجموع، وأنا أسبح الله القادر علىٰ أن يميز سمعه كل صوت)(١).

وقال العلامة الشيخ حسنين مخلوف: (كان دأب النابهين من الطلاب إذ ذاك ألا يحضروا الدرس إلا بعد مطالعة الشروح والحواشي ـ وقد يضيفون إليها التقارير ـ مطالعة دقيقة، رغبة في العلم وتثبتًا منه، ويناقش بعضهم بعضًا في عباراتها ومفاهيمها، فتختلف الآراء والمذاهب، فإذا ألقىٰ الشيخ المحقق درسه، وشرح ما كتب فيه، وفند الاعتراضات، وحقق الأجوبة، واستخلص الحق من بين الآراء المتعارضة، عرف هؤلاء الطلاب الخطأ والصواب فيما تناقشوا فيه، وكانوا يناقشون الشيخ مناقشة قوية، وكانت هذه الدراسة شحذًا للأذهان، وتربيةً للملكات، وتقويةً للمعارضة، وتدريبًا علىٰ الجدل والمناظرة، وعدة لفهم

(١) من أخلاق العلماء /ص٥٤/، ط: دار الشعب، القاهرة، سنة ١٣٥٤هـ.

المراجع التي لا تدرس في الأزهر)(١).

نعم، لقد كان الأزهر الشريف بيئة علمية خالصة، يحتشد فيها جوٌّ علميٌّ حافل، ومتكاثف، يحرك الهمم، ويشحذ العزائم، ويثير في الدارسين غيرة حميدة لشدة ما يراه في حشود الطلبة حوله من عكوف ونهوض واستغراق في المطالعة والحفظ والاستحضار والمناقشة والتصرف والتطبيق في ألوف من طلاب العلم حوله، مع عمارة الأوقات بالدروس، وسماع تقرير العلم من العلماء المتبحرين، وكثرة مباحثتهم.

وأما احتشاد العلماء وتزاحمهم فيه فأمر عجب، حتىٰ لقد كان مشحونًا بالعلماء، حافلًا بهم، قال العلامة الجليل الشيخ فايد بن مبارك الأبياري الأزهري الحنفي وهو يصف الجو العلميَّ في الأزهر سنة ١٠٨٢هـ أي قبل نحو خمسة قرون: (فلما وصلتُ إلىٰ مصر، ودخلتُ الجامع الأزهر، وجدته مشحونًا بالعلماء العظماء، مملوءًا بالدروس، وكلُّ شيخٍ في درسه كالعروس)(٢).

وأما طلاب العلم وتلامذته فقد كان لهم طنينٌ وازدحامٌ ودويٌّ تضج به جنبات الجامع الأزهر، قال شيخ علماء السودان العلامة الشيخ محمد المبارك عبد الله في كتابه: (مع التعليم الديني في السودان): (ولا أنسىٰ أول عهدي بالأزهر، ونحن نذاكر في صحن الأزهر وأروقته، زملائي من شتىٰ بلاد العالم الإسلامي، ولهم في المذاكرة دويٌّ كدويِّ النحل)(٣).

وقال العلامة الشيخ عبد القادر القصاب الديرعطاني الأزهري: (ولما وصلنا إلىٰ محطة مصر وبينها وبين الأزهر ساعة، استأجر صاحبي حمارًا يركبه، فقلت: أمشي معه، فمشيت حتىٰ وصلنا الأزهر، وكانت الساعة قد بلغت الثالثة ليلا، فلما دخلنا سمعت دويًا كدوي النحل في المطالعة، فانشرح لذلك صدري، وحمدت الله وشكرته)(٤).

وهو يحسب كل ذلك بالساعة الغروبية القديمة، حيث كان مجيئه إلىٰ الأزهر في حدود سنة ١٢٨٤هـ، الموافق ١٨٦٧م، فكان التوقيت الغروبي هو الشائع إلىٰ ذلك الحين، وطريقته أن يجعل منتصف الليل تماما مع غروب الشمس.

وقال الحبيب حسن بن عبد الله بن عبد الرحمن الكاف، حيث قال: (ثم ذهبنا بعد ذلك إلىٰ الجامع الأزهر، فوجدناه غاصا بالعلماء والطلبة، وهم منتشرون في أنحائه، يطالعون دروسهم)(٥).

---

(١) حياة علم من أعلام الإسلام /ص١٨١/.

(٢) القول المختار، في ذكر الرجال الأخيار /ص٢٨/، مخطوط، تحت يدي مصورة منه.

(٣) مع التعليم الديني في السودان أو: مذكرات وذكريات في معهد أم درمان العلمي طالبا وأستاذا وشيخا للعلماء /ص٢٨/، ط: مطبعة محمد علي صبيح، القاهرة، سنة ١٣٩٢هـ ـ ١٩٧٢م.

(٤) العلامة الشيخ عبد القادر القصاب: حياته، نثره، شعره /ص٢١/.

(٥) رحلة وديوان /ص٨٥/، ط: مكتبة تريم الحديثة، تريم، حضرموت، سنة ١٤٢١هـ ـ ٢٠٠٠م.

وقال الدكتور عبد العزيز الخياط في كتابه: (سيرتي) وهو يصف أول لحظات دخوله للأزهر سنة ١٩٣٩م: (وسِرْنا ثلاثتنا، في شارع الأزهر، حتىٰ وصلنا الجامع، فدخلنا وصلينا ركعتين، ونظرنا، فإذا حلقات الدروس تعمر الجامع، كل أستاذٍ يجلس علىٰ كرسيٍّ كبيرٍ، متربعًا غالبًا، أو جالسًا متكئًا علىٰ عضادتي الكرسي، مستندًا علىٰ أسطوانة (عمود)، من أساطين المسجد الضخمة، وأمامه الطلاب، يستمعون إلىٰ شرحه لكتاب من كتب العلم، أو تقرير مسائل من كتب الفقه أو التوحيد أو النحو، والحلقة قد يكون فيها عشرون طالبًا، أو قد تبلغ المئات، ونحن نتأمل، هذا هو الأزهر، الذي قرأنا عنه، وبلغت شهرته الآفاق).

إلىٰ أن يقول: (ومعذرة عن التفصيل في حديثي، لأن هذه اللحظات من حياتي كانت من أهم ما انطبع في ذاكرتي، كانطباع أحداث الطفولة في ذهنِ كلِّ إنسان)[1].

وحدث ما شئت عن أهمية هذا الأثر النفسي والوجداني العميق، الذي تركه الأزهر في نفوس الكثيرين، والذي يجاور الأثر العقلي المعرفي جنبا إلىٰ جنب، ويتضافران معا علىٰ بناء شخصية العالم الأزهري الأصيل.

ولذا فإن الأزهر (بصفته مكانًا وثقافةً ومضمونًا روحيًّا جليلًا، كان له نصيب كبير من المعالجات الروائية والقصصية والشعرية في الأدب المعاصر، إضافة إلىٰ عدد وافر من كتب السيرة الذاتية التي سجل أصحابها تفاصيل حياتهم، وما تصل بها من أسباب تعلقت وتوثقت بالأزهر، مجاورة، أو دراسة، أو زيارة، أو غيرها من أسباب الاتصال والارتباط)[2].

وبعد كل ما سبق فإننا إذا أردنا أن نتصور طبيعة الجو العلمي الحافل الذي كان ينعقد في رحابه فإنه يلزمنا أن نرصد مظاهر وتفاصيل كثيرة.

من أنشطة العلماء ودروسهم وطرق التدريس والتعليم عندهم، وعاداتهم، وتفرداتهم وغرائبهم، ومظاهر عنايتهم الفائقة العجيبة بطلابهم، ومؤلفاتهم وتقريراتهم وحواشيهم، ومواهبهم في التدريس والشعر والخطابة، وأسفارهم ورحلاتهم.

ورصد أنشطة الطلاب، واختلاف أعراقهم وألوانهم، ومظاهر نبوغهم، وطرق استذكارهم وتحضيرهم للدروس، وحفظهم المتقن للمتون، وعكوفهم علىٰ المطالعة، وصبرهم وجلدهم في معاناة السفر والغربة، وشئون معيشتهم، وأرزاقهم، والمنافسات التي كانت تجري بينهم، بل المشاجرات التي كانت ربما تنشب بينهم فتخمد أو تتصاعد.

(١) سيرتي، ذكريات وتجربة حياة /ص٥٣ ـ ٥٤/، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، ٢٠١٢م.

(٢) اقتباس من تقرير مطول عن الأزهر، في مجلة: ناشيونال جيوغرافيك /ص٤٦/، العدد الصادر بتاريخ يوليو، سنة ٢٠١٣م.

وأجواء البكور الطاهر النقي من بعد صلاة الفجر، حيث تشتعل الحركة والنشاط، وتنعقد مجالس الدروس، وتمتزج أصوات العلماء ما بين جَهْوريٍّ مُدَوٍّ، وما بين رصينٍ مُتَّئِدٍ، وما بين خافتٍ مُسِرٍّ، وما بين صائح وسائل، وشارح وصائل، وسامع وقائل، ويتخلل ذلك همهمات الطلاب، ما بين مستمع ومشارك، ومستفهم وسالك.

وتتطاير إلىٰ أذنك في تلك الأجواء أبيات ابن مالك، ممزوجة بعبارات منهاج البيضاوي، ويداخلها قول أحدهم: قال النووي، وقول الآخر: حرر ابن حجر، وقال السعد، وعقب الأمير، وقال اللقاني ودقق الدردير، وتتحدر تقريرات البيان مصاحبة لبحوث الفقه، وتتعانق مسائل المعاني ببحوث أصول الفقه.

والألسنة تورد وتتعقب وتحرر، والعقول تستنير بالعلم وتتفتح، فلا تخمد هذه الجذوة إلا بغروب الشمس.

وترىٰ موسم الحج قد اقترب فإذا بصحن الأزهر وقد برزت فيه وجوه جديدة طارئة، من مغربي وشنقيطي، وسنغالي ونيجيري، وتشادي وسوداني، وغيرهم كثير من علماء تلك الآفاق، العابرين علىٰ أرض الكنانة قاصدين البيت العتيق.

فوضعوا رحالهم في رحاب الأزهر زمنًا يسيرًا، لتتشابك سلاسل الأسانيد، وتكتحل الأعين منهم برؤية الأكابر ذوي المهابة من طبقة أجلاء الأزهريين الذين بلغ صيتهم تلك البلدان، من طبقة بخيت والشمس الأنبابي والشربيني والأشموني ومن هو أكبر وأصغر، ولربما دعا العلماء الأزهريون أحد أولئك العلماء الوافدين للجلوس لإقراء شيء من الكتب، حرصًا منهم علىٰ أن يجتذب الأزهر كل حين نوابغ أبناء تلك الأقطار.

إِضَاءَةٌ

في ذكر معالم من يصدق عليه وصف الأزهري بالمعنى المطابقي

للأزهري عدد من السمات والصفات والخصائص المعرفية، والنفسية، والاجتماعية، إذا اجتمعت فيه كان أزهريا كاملا، وإذا اختلت عنده فليس بأزهريٍّ، وإن اعتمر عمامة الأزهر وحمل شهادته؛ إذ الأزهر ليس جدرانًا وأبنيّة، وفصولًا وأوراق شهادة، بل الأزهر معنىٰ ومنهج، فأيما شخص قام به ذلك المعنىٰ فهو الأزهري، ولشخصية الأزهري سمات وخصائص، أورد لك هنا عددًا منها:

❁ **فمن سماتهم** الجليلة التحقيق في العلوم الأزهرية الاثني عشر، والتبحر فيها، وامتلاك نواصيها، وأنها بين أعينهم كالسطر الواحد، وأنها عتبة العلم ومفتاحه، فلابد للأزهري من تحصيل علوم البلاغة الثلاثة، والنحو والصرف، وأصول الفقه وعلمي الكلام والمنطق، والحديث والتفسير، والفقه علىٰ أحد المذاهب الأربعة، وهذا القدر هو الحد الأدنىٰ من العلوم، ولا يسمىٰ الشخص عالما أزهريا إن فيما هو دون ذلك، قال العلامة الشيخ صالح الجعفري: (وما من علم إلا وهو موجود بالأزهر الشريف، وكان العالم يمكث به اثني عشر عامًا علىٰ الأقل ليأخذ شهادة العالمية، وبعدها يستطيع أن يقول: أنا مالكي، أو شافعي، ولا يزيد علىٰ ذلك، وإنما يتخصص في مذهب واحد فقط)(١).

❁ **ومن سماتهم** أن يتمكن الواحد منهم من هذه العلوم ويتضلع فيها، حتىٰ يستقل بالفهم، وتقوىٰ عنده طريق تربية القوىٰ الجدلية، حتىٰ ورد في منهاج علوم القسم العالي بالأزهر، في الفقرة الأخيرة من (مادة ٧٩) من اللائحة الداخلية في كيفية التدريس في القسم العالي: (ويراعىٰ في تعليم القسم العالي أن يعود الطلبة علىٰ الاستقلال بالفهم، وأن يؤخذ بهم في طريق تربية القوىٰ الجدلية، علىٰ وجه يقدرهم علىٰ دفع ما يرد عليهم في معلوماتهم، من الشبه النظرية، ويمكنهم من تمييز الأدلة اليقينية عن الشكوك الوهمية)(٢).

❁ **ومن سماتهم** أن يكون مدركًا لزمانه، قائمًا بواجب الوقت، مستوعبًا للأحداث علىٰ نحو يمكنه من أن يكون فاعلًا، ومؤثرًا، ومحركًا لها، ومثال ذلك شيخ الأزهر الإمام الشيخ حسن العطار، قال

---

(١) درس الجمعة بالأزهر، لإمام الجامع الأزهر /٢/١٦٢/.

(٢) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٤/١٥٢/.

العلامة أحمد تيمور باشا في: (أعلام الفكر الإسلامي في الوقت الحديث): (والخلاصة أن الشيخ حسن العطار كان له موقفٌ متكاملٌ من مشكلات عصره الثقافية، والتعليمية، والأدبية، والسياسية، وقد حاول أن يشخص هذا الواقع، ويحدد جوانب الضعف فيه، كما نادىٰ بضرورة التغيير، ورسم خرائط هذا التغيير، ثم أسهم بدوره في هذا التغيير)[١].

۞ **ومن سماتهم** أنهم كانوا أهل اعتقاد ومحبة للصالحين: قال العلامة الشيخ صالح الجعفري: (ولقد كان مشايخ الأزهر أصحاب محبةٍ وعقيدة، وكانت زيارة الإمام الشافعيِّ يوم الجمعة عادةً حميدة لهم، كانوا حريصين عليها باستمرار)[٢].

۞ **ومن سماتهم** التأنق في القراءة والأداء والبيان، والجهارة والإفصاح في مخارج الحروف وصفاتها، حتىٰ يقع منطقهم موقعا عذبا من الآذان، ويجد المستمع للفصحىٰ علىٰ ألسنتهم عذوبة وجمالا، في غير تقعر ولا تشنج، قال العلامة الشيخ صالح الجعفري: (وكذلك علماء الأزهر، كان لهم منطق حسن، ونبرات كأنها نبرات مخصوصة، ولكن هذا لم يعد موجودًا اليوم، فالعلماء الذين أدركتهم وسمعت كلامهم لم يبق منهم أحد.

لقد كان الشيخ السمالوطي ﵀ يقرأ الحديث كما لم يقرأه أحد من قبل، حتىٰ إنك لتحس كأن المصطفىٰ يتحدث، وكان الشيخ السمالوطي يقول: ألا أحدثك حديثًا سمعته أذناي، ووعاه قلبي، ونظرته عيناي، وكان ﵀ يحاكي أستاذه الشيخ سليم البشري)[٣].

۞ **ومن سماتهم** الحرص علىٰ السمت، وتحري المظهر اللائق، حتىٰ ورد في تقرير بعثة الأزهر إلىٰ الهند سنة ١٩٣٦م: (وحدث ـ ونحن علىٰ ظهر السفينة ـ أن اتفقت كلمتنا علىٰ النزول بفندق «تاج محل»، وهو أعظم فندق في بومباي، حفظًا لكرامة البعثة، والهيئة الموقرة التي أوفدتها، وحتىٰ تتاح الفرصة لكل من يريد الاتصال بالبعثة أن يقصد إلىٰ الفندق في غير حرج)[٤].

وورد في النشرة الرسمية للجامع الأزهر: (دعوة الأزهر لحضور الاحتفال الذي سيقام بمدينة الرباط بالمغرب لمضي أحد عشر قرنًا علىٰ إنشاء جامع القرويين، ووضع مئة وخمسين جنيها بالعملة الأجنبية، يحول باسم فضيلة وكيل الجامع الأزهر في بنك بالرباط، للصرف منه علىٰ الحفل الذي سيقام باسم الأزهر، للرد علىٰ حفاوة المحتفين بمثله)[٥].

---

(١) أعلام الفكر الإسلامي في العصر الحديث /ص٣٨/.
(٢) درس الجمعة في الأزهر /٢/٦٢/.
(٣) درس الجمعة في الأزهر /٢/١١٢/.
(٤) دراسة لأحوال الطوائف والهيئات الإسلامية بالهند /ص٨/.
(٥) النشرة الرسمية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية /٤١/٣/.

مما ترىٰ معه حرص الأزهريين علىٰ المظهر اللائق، الوافي بمكانة البلد الكبير الذي وفدوا منه، ومكانة المؤسسة العريقة التي يمثلونها، ومقدار ما ينبغي أن يتحلىٰ به هذا الوفد من مظهر كريم وسمت موقر، لتزداد معه مكانة الأزهر رسوخًا، وتطمئن الأجيال تلو الأجيال إلىٰ أن الأزهر ما زال علىٰ العهد به في وقاره وجلاله.

۞ **ومن سماتهم** الاقتدار الفائق علىٰ الخطابة، والجهارة والتدفق فيها، وامتلاك نواصي القلوب، قال الدكتور محمد كامل الفقي: (ولقد أجزم بأنك تستطيع تمييز الأزهري من غيره إذا خطب ـ دون أن يميزه زي، أو إعلان ـ بما يتوافر له من التجويد، وطول الاقتدار)[1].

۞ **ومن سماتهم** الاعتزاز بأزهريتهم، والافتخار بها، وإدراك شرف هذه النسبة الجليلة، والانتماء الفخيم، ومن المعلوم أن الانتماء ينبع من الإعجاب، والإعجاب ينبع من المعرفة، والمعرفة تأتي من التاريخ، وقد قال زينة علماء الأزهر الإمام الشيخ محمد زكي الدين إبراهيم في ذلك:

(وهم فاخروني بالذي عزَّ عندهم ... من العَرَضِ الفاني وذو الجهل يَجْتَرِيْ

فقلتُ لهم: فخري بأنِّيَ مسلمٌ ... وأنِّيَ صوفيٌّ وأنِّيَ أزهريْ)[2].

وقد أشرت إلىٰ ذلك في قصيدة: (الأزهر يتحدث عن نفسه)، فقلت:

(والأزْهَرِيُّ هو الذي قامتْ به ... تلك المعاني، دونما نُقْصانِ

والأزهريُّ هو الذي يَعْتَزُّ بي ... فمعاقدُ التعليمِ طَوْعُ بَنَاني

والأزْهَرِيُّ هو الذي لا ينحني ... ويميل نحو مناهج النُّكْرانِ

والأزْهَرِيُّ الحقُّ إن عرَّفْتَهُ ... قُلْتُ: الذي يَحْنُو علىٰ الإنسان

والأزْهَرِيُّ الحقُّ يصنع نهضةً ... ممزوجةً بتلاوةِ القُرْآنِ

الأزْهَرِيُّ هو الذي يَسْعَىٰ هُنا ... وهناك، ينشرُ قِيمَةَ العُمْرَانِ

الأزهريُّ يُعَلِّمُ الخلقَ التُّقَىٰ ... ويقودُ نحو صِيانَةِ الأَوْطَانِ).

والحاصل أن المهمة الأولىٰ للأزهر هي صناعة شخصيات علىٰ مستوىٰ رفيع، في العلم والثقافة والوعي، واللياقة النفسية والاجتماعية، والمعرفة العميقة بتضاريس الوحي الشريف ومقاصده النبيلة،

(١) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة /٢/٦/.

(٢) ديوان البقايا /ص١١٤/، ط: أكاديمية الدراسات الصوفية بالعشيرة المحمدية، بالاشتراك مع شركة الوابل الصيب، مصر، سنة ٢٠١٠م.

والعلوم الشرعية الخادمة لذلك الوحي، مع الإلمام بالواقع بكل عوالمه المتشابكة في الأشخاص والأفكار والأحداث والأشياء، وبكل تعقيداته الفلسفية والاجتماعية والقانونية، بحيث تحشد المؤسسات الدينية لأجل ذلك عددًا من الخبرات والمهارات والمعارف، وتصقل مهارات أولئك الخريجين بجرعات اختِيرتْ بدقة متناهية من فنون الإلقاء والتواصل، إنها عملية صناعة دقيقة، تخرج لنا منتجًا عالي الجودة، يتمثل في ذلك العالم الشرعي المتبحر في علوم الشريعة، والواسع الثقافة، والراجح العقل، والنافذ البصيرة، والعميق الخبرة بالعالم والواقع والمجتمع.

ولأجل صناعة هذا الشخص لابد من عملية علمية جادة، مبدعة، تتوفر لها كل المرافق والخدمات، وتفجر في عقول الطلاب أقصىٰ درجات النبوغ والعبقرية والموهبة والتحليل والاستنتاج والفهم، ومهارات الوصول إلىٰ المعلومات الصحيحة في كل مسألة أو بحث يعالجه، ومهارات تحليل تلك المعلومات، ومهارات توظيفها واستخدامها في بناء بصيرة ووعي عميق عند المجتمع، وبذلك يكون عالمًا واثقًا في ذاته، قادرًا علىٰ الانفتاح علىٰ فلسفات العالم وثقافته دون أن ينجرف أو يصطدم، بل يشتبك معرفيًّا، ويحاور ويجادل بالتي هي أحسن، ويحيط بكل ذلك بناء هذه الشخصية علىٰ نمط رفيع من الآداب النفسية والوجدانية، لصناعة شخص عالم رقيق القلب، رحيم بالكون كله والدنيا كلها، يستلهم النموذج المحمدي الكريم، في أرفع الشمائل والآداب والسجايا، حتىٰ يكون ذلك العالم الجليل رحيما، خلوقا، إنسانيا، عقلانيا، ودودا، قد استنار جنانه ووجدانه بآداب النبوة، والخلق المحمدي العظيم، بحيث كلما احتك الناس به خرجوا من التعامل معه وهم يمتلئون إجلالا لنبله وأخلاقه ثم علمه.

نعم، هذه هي المهمة الأولىٰ للأزهر الشريف، وكل ما عدا ذلك فهو نواتج تلقائية لهذا المنتج الرفيع العالي الجودة، فإن ذلك العالم متىٰ تخرج وقد أُعدَّ بهذه الطريقة، فإنه يترك في وجدان الشعوب والمجتمعات والأمم أثرًا رفيعًا من تحقيق الأمان، وحفظ الأوطان ومؤسساتها، وبناء وعي الناس علىٰ الجدية والاستقامة والهمة والعمل والأمل والحضارة، وإطفاء نيران التطرف والفتن، وإصلاح ما بين الناس في الخصومات والمنازعات والثارات، وتصويب كل ما يطرأ علىٰ المجتمع من مظاهر الخلل.

فيكون ذلك العالم حاملا لسراج المعرفة، ومشاعل النور، وصناعة الحياة وفقه الحياة وإكرام الحياة وخدمة الحياة بكل صورها.

وحينئذ فإن هذا العالم الجليل ـ الذي تعبنا في تصنيعه، وأنفقنا نفقات طائلة علىٰ إعداده، وحشدنا له العلوم والمعارف والأساتذة المهرة في مختلف ميادين المعارف ـ سيتحول إلىٰ خطيب في مسجد، أو أستاذ في جامعة، أو مدرس في مدرسة، أو متحدث في الإعلام، أو كاتب مبدع صاحب قلم، أو رحالة يطوف العالم في جامعاته ومراكزه الثقافية ومنتدياته، فلا يدخل مكانًا إلا دخله النور والاستنارة والفهم.

فمهمة الأزهر إتقان صناعة العالم، ونجاح أثره المتألق في المجتمع، إكراما للإنسان، وحفظًا للأوطان، وبهذا الشخص وبعلمه وبأدائه تنطفئ نيران التطرف، ويفرغ العقل المسلم سريعا من إسقاط هذه الأغلال، ويتحرر من الفقر والجوع والمرض، وينطلق في مضمار التمدن، وصناعة الحضارة، وتشييد المؤسسات.

ومهما تعددت وجوه أداء ذلك العالم بعد ذلك فإنه سيكون ناجحًا ومبهرًا في نتائجه، إنه العلم في أجل صوره المنيرة المشرقة، وقد تجسد في شخص، فصار ينضح بكل ما يمثله العلم ذاته من تطور واستنارة وفقه وحياة وآفاق واسعة ترجع على الإنسان بسعادة الدنيا والآخرة، ويرجع به هذا الدين كما أراده الله رحمة للعالمين، وهداية للعالمين.

نعم، إن المهمة الأولى للأزهر هي صناعة العقول والأشخاص والمواهب، وكل ما عدا ذلك فهو تطبيقات وأداءات وأنشطة فعالة ومتوهجة وناجحة لهذه الصنعة المتقنة، وهل أنزل الله تعالى هذا الدين الذي تتشرف بخدمته تلك المؤسسات إلا لتحقيق هذه المقاصد، وهل يمكن خدمة الدين إلا بفيض متدفق من العلم ينهض على حمله وتطبيقه على الواقع علماء أجلاء أصحاب بصيرة وعلم وأدب رفيع، فيرى فيهم الناس ـ بحقٍّ ـ أنوار وراثة النبوة، والعلماء كما نعلم جميعا ورثة الأنبياء، وهل للمؤسسات الدينية دور سوى ذلك، وهل ينتظر الناس منها شيئا سوى ذلك.

إِضَاءَةٌ

في المناصب والحرف والمهن التي تولاها الأزهريون

وقد تبوأ الأزهريون الكرامُ المناصبَ المختلفة، والمهن المتعددة، والصنائع المتفاوتة، بل منهم من ارتقىٰ إلىٰ أعلىٰ المناصب الرفيعة، ومنهم من جرت مقاديره علىٰ الاحتراف والتكسب بالصنائع، مما يكشف عن المجالات الواسعة التي انتشر فيها أبناء الأزهر وخريجوه، وأن الأزهر الشريف أمد الأوطان والبلدان بالرجال الأَكْفَاء، الذين نهضوا بأعباء الصنائع، وعَمَروا الحرف، فكان منهم رؤساء الدول، ورؤساء الوزارات، والوزراء، والقضاة، والمفتون، والمحافظون، والخطباء، والوعاظ، والكتاب، والمؤلفون، والإعلاميون، والصحفيون، والإذاعيون، والمترجمون، والروائيون، والمدرسون، والكتبيون، والقراء، والتجار، والأطباء، والفلكيون، وهم في أثناء ذلك يَعْتَزُّون بانتسابهم إلىٰ الأزهر، ويظهرون الافتخار والاعتداد بتلك النسبة الشريفة.

حتىٰ إن العلامة أحمد تيمور باشا يقول في أوائل رسالته الدقيقة: (الرتب والألقاب المصرية): (هي في مصر ثلاثة أصناف: عسكرية خاصة بالجند ورؤسائهم، وملكية للأعيان وموظفي الدواوين من غير الجند، وعلمية لعلماء الأزهر وما يتبعه من المعاهد، ويقال لها الدرجات، ويستحسن إحداث صنف رابع يخص به الكتاب والعلماء من غير الأزهر، ويسمىٰ بالرتب القلمية)[1].

فجعل رتب علماء الأزهر ودرجاتهم أحد ثلاثة أركان تقوم عليها تصنيفات الرتب في مصر، وجعل بقية الرتب العلمية التي سماها بالقلمية منسوجة علىٰ غرار رتب الأزهريين.

وقد جاء في المشروع المقدم لصاحب العطوفة محمد سعيد باشا ما نصه: (إنما وجد الأزهر لأغراض أسمىٰ، ومقاصد أرفع من ذلك بكثير، فيطلب من الأزهر وملحقاته: فقهاء، ومحدثون، ومفسرون، وأصوليون، ومتكلمون، ومناطقة، ونحويون، ولغويون، وصرفيون، ومؤرخون، وأخلاقيون، ويطلب منه شيخ الجامع الأزهر، ومفتي الديار المصرية، ومشايخ المعاهد التي أسست والتي تؤسس في القطر المصري، ووكلاء المعاهد، ومفتشوها، وكتابها، والمدرسون، والمراقبون، ومدرسو المساجد في القطر كله، وأئمته، وخطباؤها، والوعظة، ومعلمو الكتاتيب، وعرفاؤها، ومأذونو العقود، يطلب منه كل أولئك

(١) رسالة لغوية، في الرتب والألقاب المصرية /ص٣/.

ويطلب منه أيضًا قضاة شرعيون)[1].

وقال العلامة الشيخ عيسىٰ منون: (لذلك لا ترىٰ عالمًا ولا واعظًا ولا قاضيًا ولا مفتيًا ولا موظفًا في الشئون الدينية في معظم البلاد الإسلامية في هذا الزمان، وفيما مضىٰ من الأزمان إلا وقد تلقىٰ علومه في الجامع الأزهر مباشرة أو بالواسطة)[2].

وقال الدكتور محمد كامل الفقي: (خرّج الأزهر من مدرسته الصحفي البارع، والخطيب الساحر، والسياسي الداهية، والمصلح الخطير، ودرج علىٰ ربوعه قواد مصر في نهضتها وثورتها وبناة مجدها، وحماة تراثها.

كل نابه اغترف من فضله، وارتوىٰ من بحره، واغتذىٰ بثقافته، فإما عكف علىٰ طريقه حتىٰ أتمه، وإما وجهته هذه التنشئة، ومكنته تلك البداية من النهوض بما يحفل به من رسالة، وهو أبلغ ما يكون قوة، وأتم ما يكون أهبة، فالأزهر موئل العظمة في شتىٰ النواحي بطريق مباشر أو غير مباشر)[3].

ولذا قال مثلا الدكتور عبد الودود شلبي في مقاله: (عائد من جزر المالديف): (وتتكون جزر المالديف من ألف ومئتي جزيرة صغيرة، وعاصمتها تسمىٰ «مالي»، ورئيسها الآن شيخ أزهري اسمه: «مأمون عبد القيوم»، كما أن معظم وزرائها من خريجي الأزهر).

قلت: حتىٰ لقد خطر لي أن أعهد إلىٰ أحد الباحثين الأزهريين النجباء، أن يعكف علىٰ إخراج كتاب عنوانه: (معجم الوظائف والمهن التي تقلدها الأزهريون)، ليجتهد فيه في حصر الوظائف التي تولاها الأزهريون، ويرفق مع ذلك عددًا من النماذج والشخصيات التي انتسبت إلىٰ كل وظيفة من تلك الوظائف.

والظن أنه إذا ما تمَّ كان كتابًا ماتعًا، ترتسم به الخريطة المعرفية المجتمعية، التي تبين أثر الأزهر في الحرف والوظائف والمهن والصنائع، ونفع ذلك كبير، وأثره عظيم.

والمناصبُ الدينيةُ السامية في الأزهر كانت هي المناصب التي يشغلها كل من: شيخ الأزهر، وهيئة كبار العلماء، ووكيل الأزهر، ومفتي الديار المصرية، ورئيس المحكمة العليا الشرعية، وشيوخ الأروقة الأزهرية، والمدير العام للمعاهد الدينية، ورئيس جامعة الأزهر، وخطيب الجامع الأزهر، ورئيس مجمع البحوث الإسلامية، وأعضاء المجمع، ورئيس المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، وأعضاء المجلس، ونواب رئيس جامعة الأزهر، ورؤساء البعثات الأزهرية خارج مصر، ووزير الأوقاف، وشيخ عموم

(١) مشروع مقدم لصاحب العطوفة محمد سعيد باشا قائمقام الحضرة الخديوية ورئيس النظار /ص٨٣/، إعداد: لجنة إصلاح الأزهر المعمور، ط: المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٢٨م.

(٢) حياة علم من أعلام الإسلام: الشيخ عيسىٰ منون /ص٤٢/.

(٣) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة /١/٥٥/.

المقارئ المصرية.

إلىٰ غير ذلك من المناصب والقيادات الأزهرية، التي تتنزل بالتدريج حتىٰ تصل إلىٰ كل عالم أوىٰ إلىٰ مسجد في حارة، أو قرية قاصية، أو معهد أزهري ناءٍ، ممن تفيض من خلالهم العلوم والمعارف ومنظومة الأخلاق إلىٰ وجدان الناس ونفوسهم.

إِضَاءَةٌ

في منصب شيخ الأزهر، وأنه أرفع مناصب العلماء

منصب شيخ الأزهر منصب شريف، له الحظ الرفيع من الجلال والوقار والتاريخ والمهابة، وله في نفوس المسلمين في المشارق والمغارب المنزلة السامية التي لا تدانيها منزلة.

(ولفظ الشيخ لقب علمي قبل أن يكون مسمىً لرجال الأزهر، كما كان يطلق علىٰ كبار الأئمة، فيقال الشيخ الإمام أبو حنيفة، والشيخ الإمام محمد عبده مثلا، ومن ثم إطلاق لفظ «شيوخ» علىٰ علماء الأزهر إنما هو لبيان منزلتهم العلمية الراقية في نظر الناس، وانتسابهم لدين الله من خلال العلم المقرون بالعمل، وهو شرف لا يدانيه شرف)[١].

ومنصبُ شيخِ الأزهر هو أجلُّ مناصبِ العلماء الأزهريين علىٰ الإطلاق، وأرفعها قدرًا، وأعلاها منزلةً، وحدِّث ما شئتَ ولا حرج عن فخامة ذلك المنصب الأكبر، وجلالة شأنه، وأنه الملحوظ بعين العناية والإكبار من العلماء والأكابر والأعيان في المشارق والمغارب، ومن المسلمين وغيرهم، حتىٰ لقد قال الجبرتي في: (عجائب الآثار): (لمشيخة الأزهر، إذ هي أعظم مناصب العلماء)[٢].

وقال الدكتور عاصم الدسوقي: (وشيخ الأزهر هو أكبر سلطة في المؤسسة الدينية، وهو بمنزلة شيخ الإسلام في تركيا أيام الخلافة، يقوم بشئون جميع أهل الأزهر، وهو واسطة الاتصال بينهم وبين الحكومة)[٣]، إلىٰ أن قال: (ولقد بلغ من سمو مكانة شيخ الأزهر أنه كان عضوًا في مجلس البلاط الملكي، وعضوًا في المجلس الأعلىٰ للأوقاف، وهي مناصب أو وظائف خارج الأزهر، ولم يكن يضاهي خطورة هذا المنصب ومخصصاته أي وظيفة أخرىٰ في البلاد).

وفي لائحة شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ مصطفىٰ العروسي التي وضعها لإصلاح الأزهر الشريف، ورفعها إلىٰ ولي الأمر في ١٦ ربيع الثاني سنة ١٢٨٢هـ في بيان وظيفة شيخ الأزهر ومهامه

---

(١) الأساس الشرعي والقانوني للجنة الفتوىٰ بالأزهر الشريف ولجان الفتوىٰ بالمحافظات /ص٥٦/، ط: مطابع الأزهر الشريف، سلسلة البحوث الإسلامية، سنة ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.

(٢) عجائب الآثار، في التراجم والأخبار /٢/٧٥/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٣١هـ - ٢٠٠٩م.

(٣) مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٩٨٥ - ١٩٦١ /ص٣٨/.

المنوطة به: (أن يكون في جميع أوقاته ملاحظًا للعلماء والمجاورين، مطالعًا لصحائف حركاتهم وسكناتهم، مطلعًا علىٰ أحوالهم، ناظرًا بعين بصيرته إلىٰ حقائق أمورهم، مباشرًا سماع جميع دعاويهم وتحقيقات أقضيتهم بنفسه)[1].

وكان أمر اختيار من يتولىٰ هذا المنصب في يد علماء الأزهر، فكانوا يختارون من يرون فيه الأهلية والكفاءة، في دينه وعلمه، ثم يصدق الوالي علىٰ ذلك الاختيار، وظل ذلك الأسلوب متبعا حتىٰ عام ١٩٠٨م، حيث صار الاختيار يتم بإرادة سنية من الخديوي[2]، وأول عزل لشيخ الأزهر كان في مشيخة الشيخ العروسي سنة ١٢٨١هـ الموافق سنة ١٨٧١م، ثم عزل الشيخ المهدي العباسي سنة ١٢٩٩هـ[3].

وفي قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م ما نصه: (شيخ الجامع الأزهر هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين، والرئيس العام للتعليم فيه، وفي المعاهد الأخرىٰ، والمشرف الأعلىٰ علىٰ السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين، بالنسبة إلىٰ من ينتمي لجميع المعاهد من أهل العلم وحملة القرآن الشريف، وكذا من كان من أهل العلم وحملة القرآن الشريف من غير المصريين)[4].

والذي يستفاد من ذلك أن يكون شيخ الأزهر له الحظ الأوفر من تلك الصفات الرفيعة، حتىٰ يصلح لأن يكون المشرف الأعلىٰ علىٰ المنسوبين للعلم والقرآن، وحتىٰ يقر له الجميع بأهليته وتمكنه، وحيازته لمنزلته عن أهلية وجدارة.

وجاء في كتاب: (حفلة الافتتاح الرسمي لكليتي الشريعة واللغة العربية): (وكان شيخ الجامع الأزهر

---

(١) تاريخ التعليم في مصر /٤/٨٠٩/، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١١م.

(٢) الخديوي أرفع مناصب الحكومة المصرية، منصب الجناب العالي، وقد كتب الأستاذ عزيز خانكي بك بحثًا لطيفًا حول لقب الخديوي وتاريخه، وأنه أول من لقب به هو إسماعيل باشا في الفرمان الذي أنعم به عليه السلطان عبد العزيز سنة ١٨٧٦م، وأنها كلمة فارسية تزيد علىٰ رتبة الأمير، وتقل عن مرتبة الخلافة، وأنه لا يعرف أن الخلفاء الأتراك أثروا أحدا من ولاة الإيالات بمثل هذا اللقب الفخيم غير حكام مصر، وأنه كان معروفًا قبل ذلك، حيث شكل محمد علي باشا سنة ١٢٢٠هـ ديوانا سماه (ديوان الوالي)، وبعد بضع سنين سماه (الديوان الخديوي)، وأن هذا ينقض قول من زعم أن اللقب حظي به ثلاثة أولهم إسماعيل وآخرهم عباس الثاني، حيث كان اللقب معروفًا قبل إسماعيل لمحمد علي باشا، وسعيد باشا، وانظر بحثه المذكور في كتابه: طرائف تاريخية /ص١٠٦/، ط: المطبعة العصرية، القاهرة، مصر، سنة ١٩٤٦م، وانظر له أيضا: نفحات تاريخية /ص٦٧/، ط: (د ن)، سنة ١٩٤١م، ونشرت مجلة الهلال ـ / الجزء الخامس من السنة الثانية /ص١٤٠/ الصادر بتاريخ أول نوفمبر سنة ١٨٩٢م الموافق ٢٢ ربيع الثاني سنة ١٣١١هـ، وفي العدد التالي له ـ بحثًا موسعًا عنوانه: (المناصب والرتب والألقاب وتاريخها) أتت فيه حول منصب الخديوي وتاريخه وأصل اللقب بفوائد مهمة.

(٣) الوثائق الأرشيفية للأزهر الشريف والمعاهد الدينية من سنة ١٨٤٤م إلىٰ سنة ١٩٥٧م /ص١١/.

(٤) قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م /ص٤/.

هو المرجع الأعلىٰ لمن فيه، من أصغر طالب، إلىٰ أكبر عالم، كلمته هي العليا، وإشارته حكم، لا يتخطاه واحد منهم، وقوله الفصل في كل ما اختلف عليه، يوزع الأحباس والهبات، ويجيز العلماء والمدرسين، وكان إذا أشكل عليه أمر استشار فيه أكابر العلماء)(١).

وفي قانون الجامع الأزهر الصادر من مجلس النظار في صفر سنة ١٣٢٦هـ: (شيخ الجامع الأزهر هو الرئيس العام لرجال الدين وللتعليم الديني، وله حق الإشراف علىٰ كل مدرسة دينية علمية إسلامية أسست أو تؤسس في القطر المصري، وعلىٰ السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلىٰ من ينتمي لأية مدرسة من المدارس الدينية العلمية الإسلامية ومن لم ينتم إليها من أهل العلم وحملة القرآن الشريف)(٢).

وقال الدكتور زكي محمد غيث: (وشيخ الجامع الأزهر هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين، والمشرف الأعلىٰ علىٰ السيرة الشخصية الملائمة لشرف العلم والدين بالنسبة إلىٰ أهل العلم، وحملة القرآن الشريف، سواء أكانوا منتمين إلىٰ الأزهر، أم غير منتمين إليه)(٣).

وقال مؤرخ الجزائر المهدي البوعبدلي: (ثم بعد مشيخة الإسلام التي كانت شرفية، أحدثت مشيخة الأزهر، التي اعترفت لصاحبها بالتصرف التام، والإشراف علىٰ جميع شئون الأزهر المادية والأدبية، وبقيت هذه الوظيفة السامية يتوارثها كبار العلماء إلىٰ يومنا هذا)(٤).

وقال شيخ علماء ليبيا العلامة الشيخ فاتح محمد زقلام في: (بستان الممتعات): (ويقال لمن يتولىٰ الإشراف الأعلىٰ علىٰ شئون الأزهر الشريف: «شيخ الأزهر»، أو «الشيخ الأكبر»، وغالبا ما يكون من كبار العلماء، ويعين بقرارٍ من رئيس الدولة، وهو أعلىٰ منصبٍ دينيٍّ في مصر)(٥).

وقال شيخ المؤلفين محمد يونس القاضي في مقال له سنة ١٩٣٨م: (وشيخ الأزهر هو الإمام الأكبر لجميع رجال الدين، ويختار من هيئة كبار العلماء ويعينه جلالة الملك، وهو يرأس المجلس الأعلىٰ

(١) حفلة الافتتاح الرسمي لكليتي الشريعة واللغة العربية في يوم الأربعاء ٣ من ذي الحجة، سنة ١٣٥١هـ، ٢٩ من مارس، سنة ١٩٣٣م /ص٧/، ط: المطبعة الأميرية، القاهرة، سنة ١٩٣٣م.

(٢) قانون الجامع الأزهر الشريف المصدق عليه نهائيا من مجلس النظار المنعقد تحت رئاسة الجناب العالي في ٢ صفر سنة ١٣٢٦هـ وصدر الأمر العالي به علىٰ أثر ذلك /ص٢/.

(٣) المجلة التاريخية المصرية /المجلد الثاني، العدد الأول/ص٢٤٥/، الصادرة عن الجمعية الملكية للدراسات التاريخية، العدد الصادر في مايو، سنة ١٩٤٩م.

(٤) علاقات الجامع الأزهر بالجزائر بمناسبة عيده الألفي /ص٥٩/، ضمن: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، ط: عالم المعرفة، الجزائر، سنة ٢٠١٣م.

(٥) بستان الممتعات، من منتقىٰ المنوعات /٣٩/٣/، ط: دار الفسيفساء، طرابلس، ليبيا، سنة ٢٠١٠م.

للأزهر، ويؤلف من فضيلته، ووكيله، ومفتي الديار المصرية، ومشايخ الكليات، ووكلاء وزارات الحقانية والأوقاف والمعارف والملية، واثنين من هيئة كبار العلماء، يعينان بأمر ملكي لمدة سنتين، واثنين آخرين يكون بوجودهما مصلحة التعليم)[١].

وقالت الأستاذة ألفت جعفر في مقال لها: (وكانوا ينتخبون منهم شيخ الأزهر، وهو أكثرهم علمًا، ومشهود له بالتقوىٰ والورع)[٢].

وكان من شأنه أنه له الإشراف التام، والمتابعة الدقيقة لسير العملية التعليمية، بحيث يطمئن إلىٰ جودة العمل التعليمي وانتظامه، حتىٰ جاء في محاضر مجلس الأزهر الأعلىٰ ما يصف ذلك، فورد فيه: (ولقد كان فضيلة شيخ الجامع الأزهر يأتي دائرة الامتحان كثيرا، ويمر باللجان كلها، أثناء عملها، وينصح لهم ما شاء أن ينصح، ويوصيهم بالطلبة خيرًا فيمتثلون)[٣].

وبالنظر إلىٰ جميع ذلك فقد تقلد شيخ الأزهر مكانة علمية واجتماعية سامية، ونيطت به مهام جليلة، وتعلقت به آمال عظام، وصار له دور اجتماعي جليل داخل مصر وخارج مصر، وصارت مواريث النبوة، وعلوم الشريعة، ومكارم أخلاقها منوطة به، قال الدكتور زكي غيث: (ومنصب شيخ الأزهر من أعلىٰ المناصب في الدولة، وشاغله من رجال الصف الأول بين موظفيها، فمقامه الديني الممتاز، ومركزه الاجتماعي العظيم، يحتم عليه أن يكون من الطراز الأول دينا، وخلقا، وعلما، يهب نفسه ووقته وماله لرعاية مصالح «الأمة» الإسلامية، في مشارق الأرض ومغاربها، ويجعل بابه كعبة لكل القصاد، وبيته مثابة وأمنا لمريدي علمه، ورفده، ومعونته الأدبية، وبخاصة في هذه الأزمنة التي قست فيها القلوب، وأنكر فيها الإنسان أخاه الإنسان، فلا ود، ولا تعاطف، ولا رحمة، بل يكون هذا السلوك إحياء لسيرة هؤلاء الشيوخ الأماثل، ونهجًا قويمًا يسلكه أبناء الجيل الحاضر فيما بينهم، وهداية لمن يأتي في العصور المقبلة بعدهم)[٤].

ولم يزل صاحب هذا اللقب محفوفًا بالحشمة والوقار والمهابة، حتىٰ استقر العرف علىٰ تسميته بالإمام الأكبر، فجاء العرف القانوني والتوصيف الرسمي معبرًا بدقة عن المدلول الذي يكنه المسلمون لشيخ الأزهر، وكان يعرف قبل ذلك بالأستاذ الأكبر أو الشيخ الأكبر أو الإمام الأكبر، كما هو مدون في قرارات مجلس الأزهر الأعلىٰ سنة ١٣٢٩هـ، الموافق سنة ١٩١١م وما بعدها، وكما هو في نص قانون

(١) مجلة: علىٰ كيفك /ص٣٢ ـ ٣٦/، العدد الأول، الصادر بتاريخ ١٥ مايو، سنة ١٩٣٨م.
(٢) مجلة: صباح الخير /ص٣٦/، العدد الصادر بتاريخ ٢٩ سبتمبر، سنة ٢٠١٥م، الموافق ١٥ ذو الحجة، سنة ١٤٣٦هـ.
(٣) مجلس الأزهر الأعلىٰ، مجموعة محاضر وقرارات المجلس المشكل بمقتضىٰ قانون الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية /١/٢٠٥/.
(٤) المجلة التاريخية المصرية /المجلد الثاني، العدد الأول/ص٢٨٤/، العدد الصادر في مايو، سنة ١٩٤٩م.

نمرة ١٠ الصادر سنة ١٩١١م.

قلت: نعم، فهو المنوط به رسم خريطة معارف الأزهر وعلومه، وإعادة ترتيبها وترتيب إجراءات التدريس بما يلائم ظروف كل مرحلة زمنية، مع المحافظة على تضاريس العلوم الأزهرية، وما تحققه في العقول من أثر معرفي.

وأما عن لقب الإمام الأكبر فقد حصل فيه تطور أيضا، وقد نشرت مجلة (كل شيء والعالم) مقالًا طويلًا بعنوان: (ساعة مع الأستاذ الأكبر شيخ الأزهر الشريف) بمناسبة تولي الإمام الشيخ محمد الأحمدي الظواهري مشيخة الأزهر على لسان أحد صحفيها فقال: (وفي الساعة الحادية عشرة من صباح الاثنين ١٤ أكتوبر، سنة ١٩٢٩م ذهبت لإدارة المعاهد الدينية) إلى أن قال: (وكنا جالسين حوله في جمع كبير جدًّا من العلماء والكبراء، فناداه أحدنا بلقب «فضيلة الأستاذ الأكبر» فكان جواب فضيلته فورا: «ما أنا إلا واحد من المشايخ، وما أنا إلا عبد الله محمد الأحمدي، ولست أعتقد أني في مركزي هذا أكبر شيخ في الأزهر، بل أعتقد أن الأكبر هو من كان أكرم عند الله مصداقًا لقوله تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾[1]، ولست أعد نفسي إلا خادمًا للأزهر وأبنائه، لا رئيسًا له وكبيرًا عليه، وقد كان شيخ الأزهر قبل الشيخ حسونة النواوي رحمة الله عليه يدعى «خادم العلم والفقراء بالأزهر»، غير أن لقب الأستاذ الأكبر ظهر في العهد الثاني للشيخ حسونة وبقي إلى الآن، واسمحوا لي أقول: إني كلما سمعت هذا اللقب أو تصورت ذلك المركز أتضاءل في نفسي وأشعر بالمسئولية الكبرى الملقاة على عاتقي)[2].

وفي هذا الخبر تأريخ مهم لتاريخ لقب شيخ الأزهر، وأنه كان معروفًا عبر التاريخ بـ(خادم العلم والفقراء بالأزهر)، ثم صار في المشيخة الثانية للشيخ حسونة النواوي (الأستاذ الأكبر)، علمًا بأن المشيخة الثانية للشيخ حسونة كانت سنة ١٩٠٧م، وترك المشيخة سنة ١٩١٠م، فسرى هذا اللقب الشريف إلى قانون نمرة ١٠ الصادر سنة ١٩١١م.

وقد استقر في العالم كله توقير هذا المنصب الجليل، والاعتراف له بالتقدم والإجلال، وحصلت المواقف الفارقة الدالة على عمق ذلك، حتى اتفق أن الرئيس الباكستاني محمد ضياء الحق كان في استقبال الإمام الأكبر جاد الحق علي جاد الحق على أرض مطار إسلام آباد، يوم الثلاثاء، ١٤ من ربيع الأول، سنة ١٤٠٧هـ، الموافق ١٨ نوفمبر، سنة ١٩٨٦م، فقال له بعضهم: (سيادة الرئيس؛ إن هذا يخالف التقاليد؛ لأن الرئيس لا يَستقبل غير رؤساء الدول فقط، وشيخ الأزهر على درجة رئيس وزراء، فهذا يخالف البروتوكول)، فسألهم الرئيس الباكستاني: كم عدد رؤساء الدول في العالم؟ قالوا: كثير،

(١) سورة الحجرات، الآية ١٣.

(٢) السياسة والأزهر /ص٨٨/.

قال: كم رؤساء الوزارات في العالم؟ قالوا: كثير، قال: كم شيخٌ للأزهر في العالم؟! إنه شيخ واحد؛ ولذلك خرجت لاستقباله، إنه شيخ الأزهر)[١].

ويقول الدكتور مصطفىٰ الفقي: (إنه الأزهر الشريف الذي استقبل رئيس جمهورية باكستان أحد شيوخه الراحلين في مطار إسلام آباد استقبالًا رسميًّا، وهو الأزهر الذي حرص الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين ـ وهو خريجه مثلما تخرج فيه أيضًا الرئيس عبد القيوم رئيس دولة جزر المالديف ـ علىٰ توديع إمامه الأكبر بنفسه، في إشارة واضحة إلىٰ مكانة الأزهر الإسلامية وقيمته الدولية)[٢].

قال شفيق غربال: (ثم اقتضىٰ نمو الأزهر واتساع أرزاقه وإدارته ومصالح أهله وجود شخص يتفرَّغ للإشراف علىٰ شئون هذا المعهد الدينية والإدارية معًا، ويكون رئيسًا لشيوخ المذاهب والأروقة وسائر علماء الأزهر وطلابه، ومسئولًا مباشرةً أمام الولاة والسلاطين؛ ويصح جدًّا أن يكون الأمر كذلك، ولكن ليس لدينا نص أو نصوص بهذا الأمر الخطير.

والغريب أن ينشأ منصبٌ ذو خطرٍ كالمشيخة بلا مقدمات وبلا تنظيمات وبلا تحديد، ويقتضي كل ذلك التحقيق العلمي؛ واستمر عدم التحديد وعدم التنظيم يصاحبان تاريخ المنصب زمنًا طويلًا، والظاهر أن القاعدة جرَتْ بأن يعتمد ولي الأمر مَن يُجمع عليه العلماءُ)[٣].

وللدكتور عاصم الدسوقي بحث مسهب وواسع حول ظروف نشأة منصب مشيخة الأزهر، له فيه تتبع وتأمل يستحق العناية، مع رصد التطورات التاريخية لهذا المنصب الجليل وتطورات صلاحياته[٤].

وكذلك بحث مسهب حول نشأة هذا المنصب الشريف وتطوره التاريخي عند الأستاذ الدكتور أبو وردة عبد الوهاب عطية السعدني، في كتابه المهم (الجامع الأزهر وشيوخه في العصر العثماني)[٥].

ولم أزل كذلك متطلعًا إلىٰ بحث تاريخي دقيق يعتمد علىٰ الوثائق الأصلية والتنقيب في تاريخ هذا المنصب الشريف حتىٰ رأيت تلك الدراسة المهمة الدقيقة التي نهض بها الأستاذ حسام محمد عبد المعطي

---

(١) انظر كتاب: الإمام الأكبر مع مسلمي الشرق الأوسط: باكستان بنجلاديش /ص: ٣٧/، باكستان، هدية مجلة الأزهر، العدد الصادر بتاريخ رجب، سنة ١٤٠٧هـ.

(٢) مقال: (الأزهر والسياسة)، منشور بجريدة الأهرام، العدد الصادر بتاريخ: الثلاثاء، ١١ من شعبان، سنة ١٤٢٤هـ، الموافق ٧ أكتوبر، سنة ٢٠٠٣م.

(٣) تراث محمد شفيق غربال /١/١٢٣/.

(٤) مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٨٩٥ ـ ١٩٦١/ص١١ ـ ٢٩/.

(٥) الجامع الأزهر وشيوخه في العصر العثماني من سنة ٩٢٣هـ إلىٰ سنة ١٢١٣هـ /ص٩٠ ـ ١١٦/، مطبعة الأمانة، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

وعنوانها: (شيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني سنة ٩٤٥م - ١٢٢٧م /١٥٣٨م - ١٨١٢م)[١]، فأسفر بحثه عن نتائج مهمة جدًّا، حيث استخرج من وثائق محكمة القسمة العربية، ووثائق محكمة الباب العالي، ما ينص على وجود منصب شيخ الجامع الأزهر، أو شيخ العلماء بالجامع الأزهر قبل الشيخ الخراشي بكثير، وتوصل إلى رصد خمسة عشر شيخًا للجامع الأزهر الشريف قبل شيخ الأزهر الخراشي ﷺ.

ومما أضيفه هنا إلى البحث المذكور للأستاذ حسام عبد المعطي من القرائن الدالة على تقدم منصب مشيخة الأزهر وأسبقيته على الإمام الخراشي ما حكاه العلامة فايد بن مبارك الأبياري الحنفي الأزهري في (القول المختار) وهو يتحدث عن الإمام الشمس البابلي المولود سنة ١٠٠٠هـ والمتوفى سنة ١٠٧٧هـ، قال: (وقدم به والده الشيخ علاء الدين وهو صغير من بابل، فجاء به إلى مصر، ودخل على الشمس محمد الرملي في آخر عمره، وكان قد انقطع في بيته، وأجلسه بين يديه، وقال له: يا سيدي! ادع لولدي هذا، فقال له: «أبشرك أنه سيصير شيخ الجامع الأزهر»، فاستبشر بذلك والده)[٢].

والشمس الرملي توفي في جمادى الأولى سنة ١٠٠٤هـ، وهو يبشر الشيخ العلاء البابلي بأن ولده الصغير سيصير شيخًا للأزهر، فتجد هذه البشارة عند الوالد صدى عظيمًا، مما يفيد اشتهار علو منزلة شيخ الأزهر حينئذ، وأن التبشير بها يعد عند أهل العلم والمعرفة من عظائم الأمور، وكل هذا قبل مشيخة الإمام الخراشي.

وأول من تكشف الوثائق عن تسميته بشيخ الجامع الأزهر حسب بحث الأستاذ حسام هو: شيخ الأزهر العلامة الجليل الإمام الشيخ أحمد عبد الحق السنباطي الشافعي، وتولى المشيخة سنة ٩٤٥هـ إلى سنة ٩٥٠هـ.

ثم بعده شيخ الأزهر الإمام الشيخ أحمد شهاب الدين البرلسي الشهير بعميرة وتولى المشيخة سنة ٩٥١هـ إلى سنة ٩٦٠هـ.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ محمد بن أحمد الغيطي الشافعي، وقد تولى مشيخة الأزهر الشريف سنة ٩٦٠هـ إلى سنة ٩٨١م.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ علي بن يحيى الملقب بنور الدين الزيادي الشافعي، وتولى المشيخة سنة ٩٨١هـ إلى سنة ٩٩٥هـ.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ محمد بن شحاتة بن جمال الدين بن أبي المحاسن يوسف الشهير

(١) ذاكرة مصر /ص٣٦ - ٤٧/، العدد ٢٠، الصادر في يناير، سنة ٢٠١٥م، ثم طبعت كتابًا مستقلًّا في مكتبة الإسكندرية، مصر، سنة ٢٠١٦م.

(٢) القول المختار، في ذكر الرجال الأخيار /ورقة ٣٥/، مخطوط، تحت يدي مصورة منه.

قال: كم رؤساء الوزارات في العالم؟ قالوا: كثير، قال: كم شيخٌ للأزهر في العالم؟! إنه شيخ واحد؛ ولذلك خرجت لاستقباله، إنه شيخ الأزهر)[1].

ويقول الدكتور مصطفىٰ الفقي: (إنه الأزهر الشريف الذي استقبل رئيس جمهورية باكستان أحد شيوخه الراحلين في مطار إسلام آباد استقبالًا رسميًا، وهو الأزهر الذي حرص الرئيس الجزائري الراحل هواري بومدين ـ وهو خريجه مثلما تخرج فيه أيضًا الرئيس عبد القيوم رئيس دولة جزر المالديف ـ علىٰ توديع إمامه الأكبر بنفسه، في إشارة واضحة إلىٰ مكانة الأزهر الإسلامية وقيمته الدولية)[2].

قال شفيق غربال: (ثم اقتضىٰ نمو الأزهر واتساع أرزاقه وإدارته ومصالح أهله وجود شخص يتفرَّغ للإشراف علىٰ شئون هذا المعهد الدينية والإدارية معًا، ويكون رئيسًا لشيوخ المذاهب والأروقة وسائر علماء الأزهر وطلابه، ومسئولًا مباشرةً أمام الولاة والسلاطين؛ ويصح جدًّا أن يكون الأمر كذلك، ولكن ليس لدينا نص أو نصوص بهذا الأمر الخطير.

والغريب أن ينشأ منصبٌ ذو خطرٍ كالمشيخة بلا مقدمات وبلا تنظيمات وبلا تحديد، ويقتضي كل ذلك التحقيق العلمي؛ واستمر عدم التحديد وعدم التنظيم يصاحبان تاريخ المنصب زمنًا طويلًا، والظاهر أن القاعدة جرَتْ بأن يعتمد ولي الأمر مَن يُجمع عليه العلماءُ)[3].

وللدكتور عاصم الدسوقي بحث مسهب وواسع حول ظروف نشأة منصب مشيخة الأزهر، له فيه تتبع وتأمل يستحق العناية، مع رصد التطورات التاريخية لهذا المنصب الجليل وتطورات صلاحياته[4].

وكذلك بحث مسهب حول نشأة هذا المنصب الشريف وتطوره التاريخي عند الأستاذ الدكتور أبو وردة عبد الوهاب عطية السعدني، في كتابه المهم (الجامع الأزهر وشيوخه في العصر العثماني)[5].

ولم أزل كذلك متطلعًا إلىٰ بحث تاريخي دقيق يعتمد علىٰ الوثائق الأصلية والتنقيب في تاريخ هذا المنصب الشريف حتىٰ رأيت تلك الدراسة المهمة الدقيقة التي نهض بها الأستاذ حسام محمد عبد المعطي

---

(١) انظر كتاب: الإمام الأكبر مع مسلمي الشرق الأوسط: باكستان بنجلاديش /ص: ٣٧/، باكستان، هدية مجلة الأزهر، العدد الصادر بتاريخ رجب، سنة ١٤٠٧هـ.

(٢) مقال: (الأزهر والسياسة)، منشور بجريدة الأهرام، العدد الصادر بتاريخ: الثلاثاء، ١١ من شعبان، سنة ١٤٢٤هـ، الموافق ٧ أكتوبر، سنة ٢٠٠٣م.

(٣) تراث محمد شفيق غربال /١/١٢٣/.

(٤) مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٨٩٥ ـ ١٩٦١/ص١١ ـ ٢٩/.

(٥) الجامع الأزهر وشيوخه في العصر العثماني من سنة ٩٢٣هـ إلىٰ سنة ١٢١٣هـ /ص٩٠ ـ ١١٦/، مطبعة الأمانة، القاهرة، سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٤م.

وعنوانها: (شيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني سنة ٩٤٥م ـ ١٢٢٧م /١٥٣٨م ـ ١٨١٢م)[١]، فأسفر بحثه عن نتائج مهمة جدًا، حيث استخرج من وثائق محكمة القسمة العربية، ووثائق محكمة الباب العالي، ما ينص على وجود منصب شيخ الجامع الأزهر، أو شيخ العلماء بالجامع الأزهر قبل الشيخ الخراشي بكثير، وتوصل إلى رصد خمسة عشر شيخًا للجامع الأزهر الشريف قبل شيخ الأزهر الخراشي ﷺ.

ومما أضيفه هنا إلى البحث المذكور للأستاذ حسام عبد المعطي من القرائن الدالة على تقدم منصب مشيخة الأزهر وأسبقيته على الإمام الخراشي ما حكاه العلامة فايد بن مبارك الأبياري الحنفي الأزهري في (القول المختار) وهو يتحدث عن الإمام الشمس البابلي المولود سنة ١٠٠٠هـ والمتوفى سنة ١٠٧٧هـ، قال: (وقدم به والده الشيخ علاء الدين وهو صغير من بابل، فجاء به إلى مصر، ودخل على الشمس محمد الرملي في آخر عمره، وكان قد انقطع في بيته، وأجلسه بين يديه، وقال له: يا سيدي! ادع لولدي هذا، فقال له: «أبشرك أنه سيصير شيخ الجامع الأزهر»، فاستبشر بذلك والده)[٢].

والشمس الرملي توفي في جمادى الأولى سنة ١٠٠٤هـ، وهو يبشر الشيخ العلاء البابلي بأن ولده الصغير سيصير شيخًا للأزهر، فتجد هذه البشارة عند الوالد صدى عظيمًا، مما يفيد اشتهار علو منزلة شيخ الأزهر حينئذ، وأن التبشير بها يعد عند أهل العلم والمعرفة من عظائم الأمور، وكل هذا قبل مشيخة الإمام الخراشي.

وأول من تكشف الوثائق عن تسميته بشيخ الجامع الأزهر حسب بحث الأستاذ حسام هو: شيخ الأزهر العلامة الجليل الإمام الشيخ أحمد عبد الحق السنباطي الشافعي، وتولى المشيخة سنة ٩٤٥هـ إلى سنة ٩٥٠هـ.

ثم بعده شيخ الأزهر الإمام الشيخ أحمد شهاب الدين البرلسي الشهير بعميرة وتولى المشيخة سنة ٩٥١هـ إلى سنة ٩٦٠هـ.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ محمد بن أحمد الغيطي الشافعي، وقد تولى مشيخة الأزهر الشريف سنة ٩٦٠هـ إلى سنة ٩٨١م.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ علي بن يحيى الملقب بنور الدين الزيادي الشافعي، وتولى المشيخة سنة ٩٨١هـ إلى سنة ٩٩٥هـ.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ محمد بن شحاتة بن جمال الدين بن أبي المحاسن يوسف الشهير

---

(١) ذاكرة مصر /ص٣٦ ـ ٤٧/، العدد ٢٠، الصادر في يناير، سنة ٢٠١٥م، ثم طبعت كتابًا مستقلًا في مكتبة الإسكندرية، مصر، سنة ٢٠١٦م.

(٢) القول المختار، في ذكر الرجال الأخيار /ورقة ٣٥/، مخطوط، تحت يدي مصورة منه.

بالحلبي، وكان تاريخ توليه المشيخة سنة ٩٩٥هـ إلىٰ سنة ١٠٠٥هـ، وكان ناظرًا علىٰ أوقاف الأزهر أيضا.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ محيي الدين الغزي الحنفي، وتولىٰ مشيخة الأزهر الشريف سنة ١٠٠٦هـ إلىٰ سنة ١٠١١هـ.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ عبد الجواد بن نور الدين الشبراملسي الشافعي، وتولىٰ مشيخة الأزهر سنة ١٠١١هـ حتىٰ عزل منها سنة ١٠٢٢هـ، وتوفي سنة ١٠٣٤هـ.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ شهاب الدين أحمد الغنيمي الأنصاري الحنفي، الذي تولىٰ المشيخة سنة ١٠٢٢هـ إلىٰ سنة ١٠٣٧هـ.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ محمد درويش المحلي البكري الصديقي الشافعي، الذي تولىٰ المشيخة سنة ١٠٣٧هـ، إلىٰ سنة ١٠٣٩هـ، وكان قد تولىٰ منصب مفتي السلطنة الشريفة.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ محمد بن أحمد شمس الدين الخطيب الشوبري الشافعي، وتولىٰ المشيخة سنة ١٠٣٩هـ إلىٰ سنة ١٠٤٤هـ، وتم عزله، وتوفي سنة ١٠٦٧هـ.

ثم شيخ الأزهر الإمام الشيخ محمد أبو السرور بن محمد درويش البكري المحلي الشافعي، وقد تولىٰ المشيخة سنة ١٠٤٤هـ إلىٰ سنة ١٠٤٨هـ، وكان قد تولىٰ منصب مفتي السلطنة الشريفة.

ثم الشيخ عثمان بن أحمد بن محمد بن أحمد بن عبد العزيز بن رشد الفتوحي القاهري الحنبلي، وتولىٰ المشيخة سنة ١٠٤٨هـ إلىٰ سنة ١٠٦٤هـ.

ثم شيخ الأزهر وشيخ القراء في مصر الشيخ سلطان بن أحمد بن سلامة بن إسماعيل أبو العزائم المزاحي الشافعي وتولىٰ المشيخة سنة ١٠٦٤هـ إلىٰ سنة ١٠٧٥هـ.

ثم شيخ الأزهر الشيخ شعبان الفيومي الشافعي، وقد تولىٰ المشيخة سنة ١٠٧٦هـ إلىٰ سنة ١٠٧٧هـ.

ثم شيخ الأزهر الشيخ محمد بن محمد بن أبي الحسن العاملي الشافعي وقد تولىٰ المشيخة سنة ١٠٧٨هـ إلىٰ سنة ١٠٨٣هـ.

ومن بعده جاء الإمام الشيخ محمد بن عبد الله الخراشي المالكي الذي تولىٰ مشيخة الأزهر سنة ١٠٨٣هـ، وهو أول مالكي يتولىٰ مشيخة الأزهر وليس أول شيخ للأزهر علىٰ الإطلاق كما هو شائع.

وقد جمع الأستاذ علي عبد العظيم تاريخًا لمن تولىٰ هذا المنصب الجليل ابتداءً من الإمام الشيخ

الخراشيِّ فما بعد، وسماه: (مشيخة الأزهر)، فجاء في ثلاثة مجلدات حافلة، ويمكن الاستدراك والزيادة لكثير من أخبارهم علىٰ ما جمعه وأورده في الكتاب المذكور.

وكم تمنيتُ أن لو نهض باحث مؤرخ متمكن لرصد هذا الدور وهذه الوظيفة في ما بعد العصر العثماني، إلىٰ العصر الحاضر، حتىٰ يكون بين أيدينا مرصد للتقلبات التاريخية لمنصب شيخ الأزهر، سواء ما قبل استقرار هذا الاسم الجليل، حين كانت منصبًا معروفًا تلقائيًا، لأكبر وأبرز العلماء الأزهريين، أو ما بعد استقرار الاسم الجليل ابتداء من الإمام الشيخ الخراشي كما هو معلوم.

ومما أعان علىٰ ثبوت جلالة هذا المنصب السامي: اتساع الديار المصرية، ومركزيتها، واستبحار عمرانها، وأنها ملتقىٰ العالم، ومجمع الأمم، وأنها مقصودة بالرحلة لأغراض مختلفة ومتعددة، مما تتقبل العقول والطباع منه أن يبرز فيه منصبٌ علميٌّ له التبجيل والتقديم في المشارق والمغارب.

وقد أشار إلىٰ ذلك ابن خلدون ﷺ فقال في: (المقدمة): (ونحن لهذا العهد نرىٰ أن العلم والتعليم إنما هو بالقاهرة من بلاد مصر، لما أنَّ عمرانَها مستبحرٌ، وحضارتها مستحكمةٌ منذ آلاف السنين)[1]، مما جعل مكانة الأزهر وجلالة شأن إمامه القائم عليه سائغة عند الجميع.

بخلاف ما وقع من إعلان إطلاق اسم (شيخ الإسلام) علىٰ شيخ الإسلام أبي عبد الله محمد بيرم الرابع ت١٢٧٨هـ، شيخ علماء جامع الزيتونة بتونس، حيث استنكر الناس إطلاق لقب شيخ الإسلام عليه، مع تمكنه وجدارته العلمية، وجلالة شخصه وتبحره، حتىٰ حكىٰ ذلك ـ وأقره ـ العلامة النيفر في كتاب (عنوان الأريب، عما نشأ في البلاد التونسية من عالم أديب) فقال: (وهو أول من لقب بشيخ الإسلام في تونس؛ فإن هذا اللقب لمن يكن، حتىٰ فخم الأمير أحمد باشا الألقاب بإيالته الصغيرة، يحاكي السلطنة العثمانية، فاستدعىٰ يومًا صاحب الترجمة، وألبسه كُرْكًا سَمُّورًا[2]، ولقبه بشيخ الإسلام.

---

(١) مقدمة ابن خلدون /ص٥٢٤/، ط: دار القلم، بيروت، سنة ١٩٨٤م.

(٢) الكُرْكُ: رداء ذو فرو ثمين، وأكثر ما يكون من فرو السمور، والسَّمُّور ـ بفتح السين المهملة والميم المشددة المضمومة، علىٰ وزن السَّفُّودِ ـ: حيوان بري يشبه السِّنَّوْرَ، قال في المصباح: (السَّمُّور: حيوان ببلاد الروس يشبه النمس، ومنه أسود وأشقر)، وقال عبد اللطيف البغدادي: إنه حيوان جريء، ليس في الحيوان أجرأ منه علىٰ الإنسان عَلَىٰ الْإِنْسَانِ، ولحمه حلو والترك يأكلونه، قال في حياة الحيوان: وجلده لا يدبغ كسائر الجلود، قال: ومن عجيب ما وقع للنووي في تهذيب الأسماء واللغات أنه قال: السمور طائر، قال: ولعله سبق قلم، وخص هذا باتخاذ الفرو من جلوده للينها وخفتها ودفئها وحسنها وتلبسه الملوك والأكابر، قال مجاهد: رأيت علىٰ الشعبي قباء سمور، وانظر: تهذيب الأسماء واللغات /٢/١٥٥/، والمعجم الوسيط /٢/٧٨٤/، وحياة الحيوان الكبرىٰ /٢/٥٧٠/، وغذاء الألباب، شرح منظومة الآداب /٢/٢٦٥/، وتكملة المعاجم العربية /٩/٦٧/، ط: دار الشئون الثقافية العامة، بغداد، سنة ١٩٩٩م.

قال كاتب هذه السطور: يضرب بفروه المثل في سرعة التدفئة، وفي سواد لونه؛ أما سرعة دفئه فقد قال التوحيدي في (البصائر والذخائر) /٣/٣٥/، ط: دار صادر، بيروت، سنة ١٤٠٨هـ ـ ١٩٨٨م: (قال أبو العباس، قال الحسن بن سهل:=

وقد حدثني الثقات ممن دخل الآستانة ومصر وغيرهما من أمهات البلاد الإسلامية أنهم يسخرون من ذلك، وحُقَّ لهم؛ فإن وضع هذا اللقب لَوحيدٌ في دار الخلافة الإسلامية، لرعايته الدينية من يحويه في الشرق والغرب ظلها، فأنىٰ لتونس ـ ذات المليون ونصف من السكان ـ ذلك، ولله في خلقه شئون)[1].

وأقول: إن شيخ الإسلام محمد بيرم الرابع جدير بذلك، وكم في العلماء المتبحرين المتخرجين من الزيتونة من هو جدير بذلك، لكن ما اختص الله به مصر في مكانها، وكثرة سكانها، واستبحار شئونها، قد أعان علىٰ تقبل تلك المكانة الرفيعة لشيخ الأزهر.

وأخيرًا فإن القائم بمنصب مشيخة الأزهر له أثر كبير في نفسية طلاب العلم بالأزهر وفهمهم لمهمتم في المجتمع واعتدادهم بأنفسهم، وكلما كان شيخ الأزهر ساطعًا ومتألقًا، ومحفوفًا بالتوفيق، فإن هذا ينعكس علىٰ أبناء الأزهر وطلابه، وإذا خبا شخص شيخ الأزهر سرىٰ الخفوت والوهن في نفوس أبنائه، والجنود من روح قائدهم، فإذا كان جَسُورًا مهيبًا سرىٰ ذلك منه في نفوسهم.

ومثال ذلك أن الإمام الأكبر الشيخ عبد الله الشبراوي كان علىٰ مقدرة كبيرة في نسج العلاقات الاجتماعية والسياسية مع كل أطياف المجتمع المصري بشكل ناجح وجيد، فأدىٰ هذا إلىٰ ارتفاع مكانة والأزهر والعلماء بشكل كبير في المجتمع المصري، حتىٰ قال الجبرتي: (وكان طلبة العلم في أيام مشيخة الشيخ عبد الله الشبراوي في غاية الأدب والاحترام)[2].

= كل شيء تلبسه يستدفئ بك ثم يدفئك، إلا السمور؛ فإنه يدفئك قبل أن يستدفئ بك).

وأما سواد لونه فقد قال الحافظ السيوطي في المقامة الجيزية ـ (مقامات جلال الدين السيوطي) /١/٣٤٠/، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة (سلسلة الذخائر)، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م ـ: (هل لك في تشبيه لم أُسبق إليه، ولم يعول أحد بالتنبيه عليه:

النيل لمَّا أنْ علا مَوْجُهُ ... وحُفَّ بالنخل لذي المنظرِ

كفروة السمُّور إذْ رُكِّبتْ ... في مقعدٍ من سندسٍ أخضرِ).

قلت: يشير السيوطي إلىٰ أن النيل إذا جاء أوان فيضانه وعلا موجه كان لون مائه أسود لما فيه من الطمي، والنخل الأخضر يحف بسواده، فهو شبيه بفروة السمور سوداء اللون، إذا ركبت في مقعد لونه أخضر سندسي.

(١) عنوان الأريب، عما نشأ بالبلاد التونسية من عالم أديب /٢/٨٥٣/.

(٢) عجائب الآثار /١/٣٤٩/، ط: دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ٢٠٠٣م، وشيخ الجامع الأزهر في العصر العثماني /ص٤٩/.

إِضَاءَةٌ
في السند المسلسل بشيوخ الأزهر

ومما يتعلق بشيوخ الأزهر الشريف، وسلسلة رجالات هذا المنصب الجليل، وكيفية أخذ بعضهم عن بعض، وتلمذة بعضهم عن بعض: أني كنت قد تتبعت فترة من الزمن تاريخ من تولوا مشيخة الأزهر، وكيف تتلمذ المتأخر منهم على المتقدم، بحيث يتتلمذ شيخ للأزهر على شيخ للأزهر وهكذا فصاعدا، مع ضميمة الإجازة والتصريح بها، فظفرت من ذلك بسند جليل يروي فيه سبعة من شيوخ الأزهر بعضهم عن بعض.

فنروي عن شيخنا سماحة العلامة الإمام الشيخ علي جمعة مفتي الديار المصرية سابقا، عن مسند العصر العلامة الشيخ محمد ياسين الفاداني، عن أبي المعالي حسن بن علي بن عمر بن عبد الرحمن الحسني السمهودي.

(ح) ونروي عن العلامة السيد عبد الله بن عبد القادر التليدي، والعلامة السيد إبراهيم بن محمد ابن الصديق الغماري، كلاهما عن شقيق الثاني الحافظ السيد أحمد بن محمد بن الصديق الغماري.

(ح) ونروي من طريق مسند العصر السيد عبد الرحمن ابن مسند الدنيا العلامة السيد محمد عبد الحي ابن عبد الكبير الكتاني، عن أبيه، ثلاثتهم ـ الكتاني، والغماري، والسمهودي ـ عن الإمام الأكبر، شيخ الأزهر، الشيخ محمد أبو الفضل الجيزاوي، وهو عن شيخ الأزهر العلامة الشمس محمد بن حسين الأنبابي، وهو عن شيخ الأزهر العلامة الشيخ مصطفى العروسي، وهو عن أبيه شيخ الأزهر العلامة محمد العروسي وشيخ الأزهر حسن القويسني، والأول منهما عن أبيه شيخ الأزهر العلامة الشهاب أحمد العروسي وشيخ الأزهر عبد الله الشرقاوي، والأول منهما عن شيخه شيخ الأزهر العلامة محمد بن سالم الحفني وشيخ الأزهر عبد الله بن عامر الشبراوي، والثاني منهما عن شيخه شيخ الأزهر العلامة الفقيه محمد الخرشي ت١١٠١هـ شارح مختصر خليل، وهو عن والده جمال الدين عبد الله بن علي الخرشي المالكي، عن العلامة سالم السنهوري، عن النجم الغيطي، عن شيخ الإسلام زكريا الأنصاري، عن الحافظ أبي الفضل شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي بأسانيده ومروياته.

قلت: فهذا سندٌ عجيبٌ، وسِيَاقٌ فخيمٌ، جليلُ القدر، مسلسل بشيوخ الأزهر في غالبه؛ إذ روى فيه

سبعة من شيوخ الأزهر بعضهم عن بعض، فهؤلاء السادة الغرر، والأئمة الدرر، والبحور الزواخر، والنجوم الزواهر، إذا اجتمعوا في سندٍ على النسقِ المذكور، كان ذلك السند من عيون أسانيد المصريين، وأنفسها، وأكثرِها عزةً وجلالة، فخذه شاكرًا؛ فإني لم أرَ أحدًا انتبه إليه ولا استخرجه من قبلي، والحمد لله على ذلك حمدًا كثيرًا، لا تحيط به عبارة، ولا ترقى إليه إشارة.

وقد استخرج عدد من العلماء شيئًا من الأسانيد النوادر، المسلسلة بعدد من الأكابر، الذين يجمعهم وصف معين، فاحتفى كل واحد منهم بذلك السند المسلسل الذي استخرجه، حتى أفرد له تصنيفًا مستقلًا.

فمنهم الحافظ السيوطي ت٩١١هـ ـ ﷺ ـ، فقد استخرج السند المسلسل بالنحاة من طريق شيخه تقي الدين الشمني ـ بضم المعجمة والميم وتشديد النون ـ القسطنطيني الحنفي، فأفرد له جزءًا، قال في: (بغية الوعاة): (وخرَّجتُ له جزءًا، فيه الحديث المسلسل بالنحاة، وحدَّث به)[1]، كما أن السيوطي أورد ذلك السند الجليل في ثبته المسمى بـ(المنجم، في المعجم)، وهو مطبوع[2]، وفيه فوائد كثيرة.

وكذلك فعل العلامة أحمد بن محمد بن يونس السعودي الحنفي المصري ت١٠٢١هـ؛ فقد استخرج الإسناد المسلسل بالقضاة، فأفرد له جزءًا اسمه: (إتحاف الرواة، بمسلسل القضاة)، وقد اطلعت على مخطوطه بفضل الله.

وكذلك فعلتُ بتوفيق الله تعالى في هذا السند النادر العزيز، المسلسل بشيوخ الأزهر الأنور، فقد أفردت له جزءًا أسميته: (النجم الأزهر المنيف، في السند المسلسل بشيوخ الأزهر الشريف)، وأسميه اختصارًا: (الكواكب السبعة السيارة)، وسبحان من جعل السموات سبعًا، وقد ترجمت فيه لأعيانه، وخرجتُ من طريقه عدةَ أحاديث، في شرف مصر وفضلها وفضل أهلها، مع النظر في أسانيده ورواتها، فالحمد لله على ذلك.

(١) بغية الوعاة، في طبقات اللغويين والنحاة /١/٣٧٧/، ط: دار الفكر، القاهرة، سنة ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم.

(٢) المنجم، في المعجم /ص٩١/، ط: دار ابن حزم، بيروت، سنة ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

إِضَاءَةٌ
في منصب وكيل الأزهر

شاع بين مؤرخي الأزهر أن منصب وكيل الجامع الأزهر ظهر عندما أصيب الإمام الباجوري بالمرض، مما جعله عاجزا عن إدارة شئون الجامع، فصدر أمر الخديوي إسماعيل إلىٰ الشيخ العروسي باختيار ثلاثة من العلماء معه ليديروا أمور الجامع الأزهر نيابة عنه، فكانوا أول وكلاء للجامع الأزهر، ولم يكن المنصب بعد ذلك موجودًا بصورة دائمة، حتىٰ استقر تماما ابتداء من سنة ١٩٠٨م.

والحقيقة أن منصب وكيل الأزهر سبق ذلك بمدة، حيث تنص الوثيقة الصادرة من محمد علي باشا بتعيين الإمام الشيخ أحمد الدمهوجي شيخًا للأزهر، بتاريخ ١٨ صفر، سنة ١٢٤٥هـ، الموافق ١٩ أغسطس، سنة ١٨٢٩م، وفي الوثيقة نفسها حديث عن الشيخين المهدي والأمير نصه: (وأنه إذا كان الشيخ أحمد الدمهوجي يتنصب عوض المرحوم الشيخ العروسي فكونه كبير السن يلزم إما أن حضرات الشيخين المومىٰ إليهم يكونوا معينين له لأجل خدمة الجامع الأزهر، أو أنهم ينظروا واحدًا ويقيموه مع المذكور معينًا له، لأجل تمام خدمة الجامع وراحة الفقهاء)[١].

فهذه وظيفة وكيل الأزهر في أجلىٰ صورها، مع تحديد إجمالي للمهام التي ينهض بها وكيل الأزهر، وقد استقر الأمر بعد ذلك بالفعل علىٰ هذا النسق، فنهض الشيخان المهدي والأمير بوكالة الأزهر.

وفي لائحة الإمام الأكبر الشيخ مصطفىٰ العروسي التي وضعها لإصلاح الأزهر، ورفعها إلىٰ ولي الأمر في ١٦ ربيع الثاني سنة ١٢٨٢هـ وهو يتحدث عن شيخ الأزهر وأحوال احتياجه إلىٰ تولية وكيل له: (وإذا رأىٰ تراكم الأقضية عليه، وتزاحمها بين يديه، ولزم له من يساعده وقتيا عند التزاحم، وينوب عند اشتغاله بما هو أهم من الأمور الوقتية الديوانية، فلا مانع من أن يعين من يرىٰ فيه عقلًا وافرًا، وحظًّا من المعرفة والحزم باهرًا، له قدم في الفقه راسخ، وطرف عن المطامع الوخيمة طامح، مرضي الأخلاق، حميد السوابق، زكيًّا ذكيًّا، تقيًّا نقيًّا، عارفًا باصطلاحات الدواوين والأمراء، محيطًا بقوانين المجاورين والعلماء، إن أدىٰ عنه كلمة أفصحها، أوترجم عنه عبارة أبدعها وأوضحها، فإن الوكيل عنوان الأصيل، والفرع علىٰ الأصل دليل)[٢].

---

(١) ديوان المعية السنية /٢٩/١/ وفي النص المنقول ما لا يستقيم على قوانين النحو جريًا على اللغة الدارجة في المكاتبات حينئذ، فنقلنا النص على ما هو علي.

(٢) تاريخ التعليم في مصر /٨١٠/٤، ط: الهيئة العامة لقصور الثقافة، القاهرة، سنة ٢٠١١م.

ونحن هنا نرى المواصفات الرفيعة التي اشترطها الإمام الشيخ العروسي فيمن يقوم بهذه المهمة الجليلة، وأنه يكون موصوفًا برسوخ القدم في العلم، والأخلاق الراجحة الرفيعة، والدراية باصطلاحات الإدارة والقوانين واللوائح.

فصار منصب وكيل الأزهر منصبًا رفيعًا، حظي صاحبه بمكانة إدارية عالية، في الرئاسة الدينية العامة داخل الجامع الأزهر كله، لا سيما وهو الذي يعاون شيخ الأزهر، ويقوم مقامه أثناء غيابه، فورد في قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م: (ويجوز عند الاقتضاء تعيين وكلاء للجامع الأزهر، ولباقي المعاهد، ويكون لهم جميع الاختصاصات التي للمشايخ في حال غيابهم الرسمي)[١].

ونصت إحدى مواد قانون ٢٦ لسنة ١٩٣٦م بأن يكون وكيل الأزهر من جماعة كبار العلماء، وتغير عنوان الوظيفة إلى المدير العام للمعاهد الدينية ووكيل مشيخة الأزهر[٢].

وتحددت له اختصاصات منها التفتيش على سكرتارية مجلس الأزهر الأعلى، وسائر سكرتارية المعاهد الدينية، للتأكد من تنفيذها القوانين وااللوائح، والتفتيش على المساجد التي يتم فيها التدريس في القطر المصري، وإمكانية إلحاقها بالجامع الأزهر، لرفع عناء السفر عن الطلبة من أبناء تلك البلاد البعيدة، الذين يضطرون للسفر للتعليم في الأزهر، فضلا عن عضويته لمجلس الأزهر الأعلى ونيابته عن شيخ الجامع الأزهر حال غيابه.

فكان بموجب ذلك كله يعايش مع شيخ الأزهر كل ملفات العمل في المجالات المختلفة التي يباشرها الأزهر الشريف، من شئون العلم والتعليم، ومتابعة شئون الفكر والثقافة، ورصد ما يجري في العالم حولنا من فلسفات وأطروحات ورؤى وأحداث، بحيث يلم بتلك الملفات، وتطوراتها، وتفاصيلها، فإذا تغيب الإمام الأكبر أو طرأ له سفر، أو مرض، أو عارض من العوارض، فإن وكيله ينهض على تسيير كل شيء على وجهه.

ومما يدل على ذلك ما ذكره أحمد شفيق باشا في مذكراته، حيث قال في حوادث سنة ١٨٩٤م: (تعيين وكيل للأزهر: اعتلَّت صحة الشيخ محمد الأنبابي شيخ الجامع الأزهر، فلم يتمكن من القيام بعمله، فصدر الأمر في أول ديسمبر بتعيين الشيخ حسونة النواوي وكيلا للجامع، يباشر الأعمال فيه)[٣].

فالمهمة الكبرى لوكيل الأزهر، أنه ينوب عن شيخ الأزهر في القيام بمهامه، عند انشغاله أو غيابه،

(١) قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م /ص٥/.

(٢) الوثائق الأرشيفية للأزهر الشريف والمعاهد الدينية من سنة ١٨٤٤م ـ ١٩٥٧م /ص٢٠ ـ ٢٢/.

(٣) مذكراتي في نصف قرن /٢ القسم الأول /١٧٧/، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م، وانظر نشر الأمر الملكي بتعيينه وكيلا للأزهر مع التهاني له في جريدة الإسلام /عدد ١١ من السنة الأولى /ص٢٥٥/ الصادر بتاريخ غرة رجب سنة ١٣١٢هـ.

مما يقتضي أن يكون ملما بملفات العمل، عارفًا بتفاصيلها وتطورها التاريخي، قادرًا في مواهبه النفسية والذهنية والعلمية على النهوض بأعباء هذه النيابة الجليلة.

وربما كان من مقاصد وجود وكيل للأزهر هو إعداده وتدريبه للقيام بمهام المشيخة الموقرة، بحيث يمكن أن يخلف شيخ الأزهر وأن يتولى المشيخة بعده، بعد أن يكون قد قضى مدة وكالته في التمرس بملفات العمل وخباياه وسياقاته، ومما يشهد لذلك أن أحمد شفيق باشا يذكر في مذكراته أن الشيخ حسونة النواوي على إثر وكالته للأزهر فإنه قد اختير شيخًا للأزهر حيث قال: (سبق أن تعين الشيخ حسونة النواوي وكيلًا للأزهر نظرًا لما كانت عليه صحة الشيخ محمد الأنبابي شيخه من الانحراف، فلما اشتدت عليه وطأة المرض قدم فضيلته استقالته من المشيخة في ٢٥ يونيو، فقبلت وصدر الأمر بتعيين الشيخ حسونة النواوي بدلا منه)[١].

وكان قديمًا يقوم بمهمة إدارة المعاهد الأزهرية، إلى أن فُصل منصب وكيل الأزهر عن إدارة المعاهد الدينية سنة ١٣٤٨هـ، الموافق سنة ١٩٢٩م، وقد شغل هذا المنصب الرفيع عدد من العلماء الأزهريين الأجلاء؛ منهم: الشيخ محمد حسنين مخلوف، سنة ١٣٣١هـ، الموافق سنة ١٩١٣م، والشيخ عبد الرحمن قراعة، سنة ١٣٣٣هـ، والشيخ أحمد هارون، سنة ١٣٣٩هـ، والشيخ محمد عبد اللطيف الفحام، سنة ١٣٤٧هـ، والشيخ مأمون الشناوي، سنة ١٣٦٤هـ، وغيرهم كثير[٢].

---

(١) مذكراتي في نصف قرن /٢ القسم الأول /٢١٦/، ونص قرار التعيين الصادر بتاريخ ٨ جمادى الثانية سنة ١٣١٢هـ الموافق ٦ ديسمبر سنة ١٨٩٤م، في: مجموعة الأوامر العلية والدكريتات الصادرة من أول فبراير سنة ١٨٩٤م /ص٢٦٢/، ط: المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية سنة ١٨٩٤م افرنجية.

(٢) هيئة كبار العلماء /ص١٣١ ـ ١٣٣/.

إِضَاءَةٌ
في منصب مفتي الديار المصرية

وأما منصب مفتي الديار المصرية فهو من أجل الرتب والمناصب الأزهرية، حيث يلي مرتبة شيخ الأزهر في المكانة والمنزلة، حتىٰ جاء في (مجلس الأزهر الأعلىٰ) ما نصه: (وظيفة الإفتاء بالديار المصرية: التي هي ثانية الوظائف الكبرىٰ المشرفة علىٰ الهيئة الإسلامية بديار مصر)[1].

ولمفتي مصر في مختلف الأقطار الرتبة المقدمة، والكلمة الموقرة، ومن مهماته: الإفتاء للبلاد الإسلامية، والمساهمة في اختيار القضاة الشرعيين، إلىٰ أن ألغي القضاء الشرعي، وإصدار الفتاوىٰ في قضايا الإعدام، وقد تقلد هذا المنصب كبار العلماء الأزهريين، ذوي المكانة المرموقة، كالشيخ عبد القادر الرافعي، والشيخ المهدي العباسي، والشيخ بكري الصدفي، والشيخ بخيت المطيعي، وغيرهم كثير من ذوي الفضل والمكانة والجلال.

قال العلامة الإمام الشيخ محمد بخيت المطيعي: (مفتي الديار المصرية ليس مرجعًا للمصريين فقط في فتاواه، بل هو مرجع لمختلف الأقطار، لا فرق بين البعيد منها كالهند، والقريب كالشام؛ فإن أكثر هذه الأقطار ترجع فيما يشكل عليها من الأحكام الشرعية أو فيما يختلف فيه علماؤها إلىٰ فتوىٰ مفتي الديار المصرية، ويكون قوله هو الفصل في ذلك، وهذا مما يجعل لمصر فخرًا وشرفًا علىٰ سائر الأقطار الأخرىٰ)[2].

وهذا رصدٌ دقيقٌ للواقع المستقرِّ الذي ثبت وتبلور عبر عقود، من استقرار مرجعية مفتي مصر، وأنه المقصود والمنظور إليه عند استغلاق الأمور والنوازل، وأنه ينزل بين المفتين في العالم الإسلامي منزلة جليلة موقرة، وله منهم التسليم بتقدمه.

ويزداد الأمر وضوحًا إذا علمت أن الأكثرين ممن تولوا منصب الإفتاء في مختلف بقاع العالم

---

(١) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٦/٤٦١/، ط: مطبعة النهضة، القاهرة، مصر، سنة ١٣٣٨هـ ـ ١٩١٩م /١٩٢٠م.

(٢) مذكرة من حضرة مولانا الأستاذ الأكبر صاحب الفضيلة الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية، مقدمة لمجلس الشيوخ، ببيان أن وظيفة الإفتاء وظيفة شرعية دينية يجب علىٰ ولي الأمر أن يوظف فيها من يليق بها /ص٦/، ط: المطبعة السلفية، القاهرة، سنة ١٣٤٦هـ.

الإسلامي قد تخرجوا في الأزهر وتتلمذوا لعلمائه، فيكون مفتي الديار المصرية أجل المفتين وأستاذهم، وعليه عندهم المعول، وقد أحصيت هنا من المترجمين في هذه الجمهرة عددًا من المفتين مشرقًا ومغربًا؛ منهم: مفتي المدينة المنورة، ومفتي الأحناف، ومفتي كردفان، ومفتي القدس، ومفتي غزة، ومفتي يافا، ومفتي عكا، ومفتي نابلس، ومفتي طبريا، ومفتي جنين، ومفتي الخليل، ومفتي حلب، ومفتي اللاذقية، ومفتي حوران، ومفتي جوهور، ومفتي الأردن، ومفتي لبنان، ومفتي أرتيريا، ومفتي كازاخستان، ومفتي ليبيا، ومفتي الزاوية، ومفتي مصراتة، ومفتي الجيزة، ومفتي الإسكندرية، ومفتي الدقهلية، ومفتي طنطا، ومفتي المنيا، ومفتي سوهاج، ومفتي إخميم، ومفتي جرجا، وغيرهم، وجميع هؤلاء من متخرجي الأزهر وطلابه.

وقد جمع الدكتور عماد أحمد هلال دراسة توثيقية أرشيفية متشعبة ماتعة، حول الإفتاء والمفتين في مصر، من زمن الصحابة ﷺ، إلىٰ سماحة المفتي العلامة الجليل الشيخ علي جمعة، فأخرج لنا جمهرته الحافلة: (الإفتاء المصري من الصحابي عقبة بن عامر إلىٰ الدكتور علي جمعة)، وأتىٰ فيها بالفوائد النفيسة الدقيقة، المعتمدة علىٰ استقراء واسع للوثائق الأصلية، والأضابير المصرية.

وهذا كله رافد من روافد الأزهر، ومؤسسة علمية مصرية أزهرية عريقة، ارتبطت بالأزهر الشريف، ونَبَعَتْ منه، ودارتْ في فلكه، وعَبَّرَتْ عنه.

إِضَاءَةٌ
في منصب رئيس المحكمة العليا الشرعية

وأما منصب رئيس المحكمة العليا الشرعية، فقد كان من أجل المناصب الأزهرية في الديار المصرية، وكانت له اختصاصات رفيعة، ومنزلة اجتماعية سامية، فكان من اختصاصاته: إشهاد خروج المحمل بكسوة الكعبة الشريفة وبكسوة مقام الرسول ﷺ[1]، وبمقدار المبلغ النقدي المهدىٰ من الأوقاف إلىٰ فقراء الحرمين الشريفين، وإشهاد وفاء النيل، الذي بمقتضاه يحق شرعا للدولة جباية ضرائب الأراضي الزراعية.

وقد توقف هذان الإشهادان حيث كان آخر إشهاد بخروج المحمل في ٢٦ من شهر ذي القعدة سنة ١٣٨١هـ، الموافق أول مايو سنة ١٩٦٢م، بسبب خلافات سياسية بين جمهورية مصر والمملكة العربية السعودية في ذلك الوقت، امتنعت السعودية بسببه عن التصريح بدخول الكسوة من مصر، وكان آخر إشهاد بوفاء النيل في ١٢ من شهر رجب الفرد، سنة ١٣٩٢هـ، الموافق ٢١ أغسطس سنة ١٩٧٢م، بسبب حجز مياه فيضان النيل بالسد العالي فوق أسوان بعد هذا التاريخ.

كما كان من اختصاص رئيس المحكمة العليا الشرعية استطلاع أهلة الشهور القمرية التي فيها مواسم دينية ـ وهي أشهر: المحرم، وربيع الأول، ورجب، وشعبان، ورمضان، وشوال، وذي الحجة ـ، وصار هذا من اختصاص دار الإفتاء منذ إلغاء المحاكم الشرعية.

وكانت نصوص اللوائح والأعراف القانونية المستقرة في مصر علىٰ أنه كان لكل مديرية أو ولاية مفت، ولوزارة الحقانية مُفتٍ، ولوزارة الأوقاف مفت، وفوق كل هؤلاء مفتي السادة الحنفية أو مفتي الديار المصرية، وأن الفتوىٰ في القضايا كانت ملزمة للقضاة حسب لوائح ١٨٥٦م، ١٨٨٠، ثم لم تعد ملزمة للقضاة في المحاكم الشرعية في لائحة ١٨٩٧م وتعديلاتها بالقوانين أرقام ٢٥ لسنة ١٩٠٩م، و٣١ لسنة ١٩١٠م، و١٢ سنة ١٩١٤م، ثم الاستعاضة عن كل هذه القوانين باللائحة الأخيرة بالمرسوم ٧٨ لسنة ١٩٣١م.

---

(١) وانظر لزاما: رحلة مشعل المحمل: رسالة في سير الحاج المصري برًّا سنة ١٢٩٧هـ ـ ١٨٨٠م، تأليف اللواء محمد صادق باشا، ط: الدار العربية للموسوعات، سنة ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م، وأما المحمل التركي فانظر فيه: المحمل الشريف، ورحلة إلىٰ الحرمين الشريفين، إعداد: يوسف جاغلار وصالح كولن، ط: دار النيل، مصر، سنة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

وبإلغاء المحاكم الشرعية بالقانون رقم ٤٦٢ لسنة ١٩٥٥م، لم يعد في المحاكم الابتدائية إفتاء، وصارت أعمال الفتوىٰ سواء للحكومة أو للأفراد وللهيئات مقصورة علىٰ مفتي الديار المصرية في القاهرة.

وكان ممن تولىٰ هذا المنصب: الشيخ محمد مصطفىٰ المراغي، والشيخ علي قراعة شقيق المفتي الشيخ عبد الرحمن قراعة، والمرحوم فضيلة الشيخ عبد السلام البحيري رئيس المحكمة العليا الشرعية وعضو هيئة كبار العلماء سابقا، وحضرة صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ محمد إبراهيم سالم بك رئيس المحكمة العليا الشرعية، والعلامة الشيخ موسىٰ النواوي الحنفي، وغيرهم.

إِضَاءَةٌ
في منصب خطيب الأزهر

وأما منصب خطيب الجامع الأزهر الشريف فقد كان منصبًا رفيعًا، ومكانًا جليًّلا، يدل حتمًا على تمكن صاحبه من العلوم، ووجاهته، وحشمة مقامه، لا ينهض به إلا الخطباء المفوهون المصاقع، نظرًا لمكانة الجامع الأزهر، وجلالة منبره، وأنه هو المنبر المرموق بالأنظار، والذي تبتدره المسامع، لتصغي لما يقول، وتستوحي منه البصيرة، فهو أجل منابر المشرق علما، وهو صوت مصر والأزهر في الإبانة في المواقف والأحداث الجسام.

قال الأستاذ الشيخ خفاجي: (ويبدو أن وظيفة خطيب الجامع الأزهر لبثت تنمو في الأهمية على مر الزمن تبعا لنمو أهمية الأزهر نفسه، فهي في أواخر الدولة الفاطمية تسند إلى رجال من أصحاب المناصب الدينية الرفيعة مثل داعي الدعاة)(١)، إلى أن قال: (وقد كان يلي خطابة الجامع الأزهر في العصور المتأخرة والعصور المتقدمة أكابر القضاة والعلماء، فنرى بين خطباء الأزهر في أواخر القرن السابع الهجري قاضي القضاة تقي الدين أبا القاسم ابن قاضي القضاة تاج الدين ابن بنت الأعز، وفي أوائل القرن التاسع قاضي القضاة الحافظ ابن حجر العسقلاني).

حتى قال العلامة القاضي عبد الحفيظ بن محمد الطاهر الفاسي الفهري في: (المُدْهِش المُطْرِب): (لأن خطيبه أعظم خطيب بالديار المصرية، حيث إنه أعظم مسجد بها، ولهذا يندب خطيبه في الجمعة الأخيرة من شهر رمضان للخطبة بجامع عمرو بن العاص حسب القواعد المقررة في الديار المصرية)(٢).

فهناك أعراف مرعية، وقواعد مقررة، تختص بخطيب الأزهر الشريف، وكأن خطيبه لجلالته وسمو مقداره ينزل ضيفًا مهيب المقدار، في أقدم مساجد مصر وأعرقها، وهو جامع عمرو بن العاص، في آخر جمعة من رمضان، من باب إمداد الأزهر لأقدم محاريب مصر بأجل خطبائه، وفيه إشارة رمزية لعلو مكانة الأزهر، وأنه هو القائم بعمارة كبريات منابر مصر برجاله.

---

(١) الأزهر في ألف عام /١/٢١٧/، و/٦/١٣/.

(٢) المدهش المطرب، في تراجم من لقيته أو كاتبني بالمشرق والمغرب /ص١٢١/، ط: دار الكتب العلمية، بيروت، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٣م.

ولو أنَّ أحدًا من نبهاء الباحثين نشط لجمع كتاب في تراجم خطباء الجامع الأزهر لكان حسنا، لا سيما وقد جمعت المؤلفات في خطباء المساجد التي تأتي بعد الأزهر الشريف في الدرجة، نظير ما نهض له النسابة المؤرخ العلامة محمد أبو الفرج الخطيب الحسني، وترجمته هنا في هذه الجمهرة، في وفيات سنة ١٤٠٧هـ، حيث جمع كتابا اسمه: (الخطابة والخطباء في جامع بني أمية)، والخطابة والخطباء في الجامع الأزهر الشريف أولىٰ بالجمع والتتبع، خصوصًا أن ظاهرة الخطابة قد كانت من أجل ما يمنحه الأزهر لأبنائه وعلمائه، فكان من أجل ما يتميز به الأزهريون الجهارة والفصاحة في الخطابة، والموعظة البليغة النافعة، التي تستنير بها العقول في أوقات الظلمات المدلهمة.

وكان من أولئك الخطباء: البرهان السقا، وابنه العلامة محمد إمام، والعلامة حسن رجب السقا، وصولا إلىٰ طبقة الشيخ صالح الجعفري، والشيخ إسماعيل صادق العدوي وهذه الطبقة، من الخطباء الفصحاء، ذوي الجهارة والبلاغة والفصاحة والارتجال والتدفق، وامتلاك نواصي القلوب.

إِضَاءَةٌ
في منصب شيخ الرواق

أروقة الأزهر أجنحة أو عدة حجرات أو حجرة واحدة، معدة لإقامة الطلبة المرتبطين برابطة البلد أو المذهب، وعادة ما تلتحق بها مكتبة موقوفة علىٰ طلبة الرباط، وقد نشأت الأروقة في الأزهر في عصر دولتي المماليك البحرية تكميلا لرسالة الأزهر العلمية، وتذليلا للعقبات أمام طلاب العلم بتوفير المكان الملائم للإقامة والطعام، حتىٰ يتفرغ الطالب لدروسه وتحصيله العلمي، وقد استلزم كل ذلك وجود منصب شيخ الرواق، ليقوم علىٰ أمور الطلاب العلمية والمعيشية والإدارية.

وقد كان منصب شيخ الرواق منصبًا مهمًّا، له في تاريخ الأزهر ووجدان أبنائه منزلة موقرة، وله مهام إدارية واسعة، وإشراف علمي علىٰ طلبة الرواق، قال علي مبارك باشا في: (الخطط التوفيقية): (ثم إن تحت نظر شيخ الرواق جملة من أوقافه: الرباع، والحوانيت، يتصرف فيها بالنيابة عنهم، بالإصلاح والتعمير واستيفاء الأجر، وكلما تجمد عنده شيء من الريع بعد الترميمات اللازمة يصرفه علىٰ كل من كان بدفتره من مدرس وطالب علىٰ السوية، ولا يتولىٰ وظيفة المشيخة عليهم إلا واحد من أكبر مدرسيهم)[١].

وقد أصدر مجلس إدارة الأزهر في جلستة المنعقدة يوم الأحد ٢١ شعبان سنة ١٣١٤هـ الموافق ٢٤ يناير سنة ١٨٩٧م نظامًا لمشايخ الأروقة والحارات بالجامع الأزهر، يشتمل علىٰ أربع عشرة مادة، تحدد مواصفات شيخ الرواق، والمؤهلات التي تؤهله لهذه المرتبة، ووظائفه المنوطة به، وتنظم بقية شئونه فيما يتعلق بمرضه أو غيابه[٢].

وفي مادته الأولىٰ ما نصه: (شيخ الرواق أو الحارة في الجامع الأزهر لا يكون إلا من علمائه، ولابد أن يكون من أهل الرواق أو الحارة التي يعين شيخًا عليها).

وقد علق الدكتور عاصم الدسوقي علىٰ هذا النظام فقال: (وفي ٢٤ يناير ١٨٩٧ وضع نظام للأروقة، حيث جعلت مشيخة الرواق لأحد العلماء المستحقين، أو أحد علماء أقرب الأروقة، إذا لم يتوفر وجود هذه الشروط في الرواق المعين، كما تحددت وظائف شيخ الرواق في مراقبة أهل الرواق في

(١) الخطط التوفيقية /٤/٥١/.
(٢) جريدة الإسلام /عدد ٣ السنة الرابعة /ص٩٢/، الصادر بتاريخ غرة القعدة سنة ١٣١٤هـ الموافق ٣ أبريل سنة ١٨٩٧م.

سفرهم وحضورهم، وتقييد أسمائهم في دفاتر، وملاحظة سلوكهم داخل الرواق، وقيامه بالفصل فيما يقع بينهم من منازعات خفيفة، وعلىٰ شيخ الرواق أيضًا متابعة أداء الوظائف التي شرطها الواقفون «أصحاب الوقف» للرواق، كقراءة سور من القرآن، في ساعات معينة، وعليه تحصيل إيرادات الوقف وتوزيعها علىٰ المستحقين)[1].

واستمر الحال كذلك في اللوائح المتفرعة من قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م، حيث ورد في اللائحة الداخلية ما نصه: (شيخ الرواق أو الحارة أو وكيله هو المسئول عن كل ما يتعلق براحة الطلاب في مساكنهم، التابعة لجهتهم، من النظافة، والإنارة، والحراسة، وتخصيص كل مسكن بعدد من الطلبة لائق بهم صحيا، وتوزيع الخزن علىٰ أربابها، وحفظ نظام الطلبة، وغير ذلك)[2].

ولشيخ الرواق أثر رفيع علىٰ همة طلاب الرواق ومتابعة سيرهم الدراسي، قال الشيخ عبد الحميد السايح في مذكراته وهو يتكلم عن رواق الشوام بالأزهر: (وكان لرعاية شيخ الرواق أثر بارز في جدنا ونشاطنا وتقدمنا)[3].

وأما عن العلاقة بين شيخ الأزهر وشيوخ الأروقة فيشير إليها أستاذنا عبد الهادي التازي في قوله: (ولابد أن نعرف أن هناك قواعد تضبط علاقة شيخ الرواق المغربي بشيخ الأزهر، الذي يظل هو المشرف من الناحية الأدبية علىٰ ما يجري داخل الرواق، ولو أن الرواق يتمتع مع ذلك بكامل الحرية في مساعدة طلبته، وفي صيانة كتبه، واختيار أساتذته)[4].

وقد وقفت علىٰ وثيقة نفيسة رفعها شيوخ أروقة الأغراب بالأزهر، إلىٰ السلطان حسين كامل، سنة ١٣٣٥هـ، الموافق ٢٥ فبراير، سنة ١٩١٧م، للمطالبة باستمرار صرف جراية طلبة أروقتهم، وعليها توقيع شيخ رواق اليمن محسن بن ناصر أبو حربة، وشيخ رواق الحرمين مصطفىٰ أبو عشرين، وشيخ رواق الأكراد محمد أبو الوفا، وشيخ رواق السنارية، وشيخ رواق الجاوة، وشيخ رواق الهنود، وشيخ رواق الجبرت، وشيخ رواق البرناوية عبد العزيز البرناوي، وشيخ رواق دارفور، وشيخ رواق صليح، وشيخ رواق البرابرة، وشيخ رواق السليمانية، وعلىٰ ذلك الالتماس أختامهم جميعا، والمذكورون كلهم من علماء الأزهر الأجلاء، وفي ذلك الالتماس صورة لاتساع النطاق الجغرافي الذي يأوي طلابه إلىٰ الأزهر، وكيف أن مصر تقوم بإكرامهم، وتوفير متطلباتهم.

---

(١) مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٨٩٥ ـ ١٩٦١/ص٣٥/.

(٢) اللائحة الداخلية للمعاهد الدينية العلمية الإسلامية /ص١١/، ط: مطبعة ديوان عموم الأوقاف المصرية، سنة ١٣٢٩هـ ـ ١٩١١م.

(٣) فلسطين: لا صلاة تحت الحراب /ص٩/، ط: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، (د ت).

(٤) مجلة دعوة الحق، العدد ٢٢٩، الصادر بتاريخ شعبان/رمضان، سنة ١٤٠٣هـ، الموافق مايو/يونيو، سنة ١٩٨٣م

وجاء في جلسة مجلس الأزهر الأعلىٰ المنعقدة بتاريخ الأربعاء ٣ الحجة سنة ١٣٣٠هـ، الموافق ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٢م: (وخصوصًا فيما أصبح مشايخ الأروقة ووكلاؤها مكلفين به، من الأعمال النظامية، والنظر في شؤون الطلاب، واستحقاقات الأروقة، وتعهد أحوال السجلات، واستيفاء ما يلزم لها، وما يراد إدخاله عليها من التحسين والإصلاح)(١).

ثم نظر مجلس الأزهر الأعلىٰ في جلسته المنعقدة بتاريخ الأربعاء ٦ الحجة، سنة ١٣٣١هـ، الموافق ٥ نوفمبر سنة ١٩١٣م في تحديد مهام شيخ الرواق وشئونه، وتوسع في تفصيل ذلك، وكان ذلك ضمن تعديل اللائحة الداخلية للمعاهد الدينية(٢).

فهذا توصيف مهم لما يتعين علىٰ شيخ الرواق أن يقوم به من الوظائف والمهام والتكليفات، وأنها أعمال إدارية كثيرة، حتىٰ قرر مجلس الأزهر الأعلىٰ في تلك الجلسة أن حضرة الأستاذ الشيخ أحمد نصر العدوي ليس في وسعه القيام بتلك المهام في حال توظفه بمدرسة القضاء الشرعي، وكلف المجلس شيخ رواق الصعايدة أن يختار وكيلًا للرواق غير الأستاذ الشيخ أحمد نصر.

هذا وقد تطور الأمر عبر التاريخ، حتىٰ صدر بتاريخ ١٠ مارس سنة ١٩٦٠م قرار نصه: (تأليف لجنة لإعادة النظر من جديد في اللائحة الخاصة بمشايخ الأروقة، فيما يتعلق بمكافآتهم، وتحديد العمل الذي يسند إليهم تحديدًا واضحًا، وفي ضرورة ما إذا كان شيخ الرواق يجب أن يكون من بين طلبة الرواق أم يجوز أن يكون غريبًا: من السادة: فضيلة الشيخ عبد الله عبد الخالق المشد، مدير الوعظ والإرشاد، رئيسًا، محمد حسن درويش، شيخ معهد البعوث، عضوًا، عبد السلام عبد الخالق الشبراوي، مراقب البعوث المنتدب، عضوًا، السيد خالد صقر محمد عامر مساعد المشرف، علىٰ أن يقوم الأخير بأعمال سكرتارية اللجنة)(٣).

قال العلامة الشيخ صالح الجعفري: (والجماعة الأولون نظَّموا الأزهر نظامًا بديعًا، لأنهم أفضل وأعلم، فجعلوا مشايخ أروقة، فإذا جاء الطالب لكي ينتسب إلىٰ الأزهر فعليه أن يتقدم إلىٰ الشيخ، يوجد فيه سجل اسمه سجل المغاربة، وفيه سجل اسمه سجل السودان، وآخر يسمىٰ سجل الهنود)(٤).

والحاصل أن حال الأروقة الأزهرية وما جرىٰ فيها من أحوال وحركة علمية يمثل صفحة نادرة من تاريخ الأزهر، لابد من التنقيب عنها، واستخراج تفاصيلها، وإفراد عدد من التآليف والبحوث لذلك.

(١) مجلس الأزهر الأعلىٰ /١/٢٢١/.
(٢) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٢/٢٧٧ ـ ٢٨٢/.
(٣) النشرة الرسمية للجامع الأزهر والمعاهد الدينية /٣٦/١٢/، ط: مطبعة الأزهر، القاهرة، سنة ١٣٧٩هـ ـ ١٩٦٠م.
(٤) درس الجمعة بالأزهر، لإمام الجامع الأزهر /٧/٤٤/.

إضَاءَةٌ

في منصب التدريس في الأزهر

أما منصب التدريس في الأزهر فقد كان من المناصب المرموقة، الملحوظة بعين الإكبار والإجلال، لما يلوح علىٰ صاحبه من وقار العلم وهيبته ومكانته، وارتفاع حشمته ووجاهته في المجتمع، فاجتمع فيه جلال العلم والتدريس في ذاته، ثم أضيف إلىٰ ذلك أنه في الأزهر الشريف، الذي لا يتصدر للتدريس فيه إلا مشهود له بالتحقيق في العلم.

ولقد ظل التدريس في الأزهر علىٰ مدىٰ قرون يمثل مقامًا رفيعًا وأملًا كبيرًا يداعب خيال الآباء إذا سبح خاطرهم وتمنوا لأبنائهم أرفع الأماكن، فإذا بالواحد منهم يتمنىٰ لابنه أن يكون عالمًا في الأزهر، أو شيخًا لأحد الأعمدة فيه، وسبب ذلك هو ما استقر في وجدانهم عبر أجيال، وعبر تراكم زمني طويل، من أن التألق والزعامة والنجاح والمكانة المجتمعية العالية منوطة ومرتبطة بهذه الصفة، فصارت أمنية الآباء للأبناء.

قال جورج مقدسي: (كان لقب المدرس والشيخ يطلقان علىٰ من يتولون أعلىٰ منصب تعليمي)[1]، إلىٰ أن قال: (ومن الواضح أن مكانة المدرس في المجتمع كانت رفيعة المنزلة).

وقال الشيخ محمد عبد المنعم خفاجي: (وقد كانت مناصب التدريس في الأزهر وما إليه من المدارس الكبيرة يومئذ من المناصب الدينية الهامة، فلا يعين فيها سوىٰ أكابر الأساتذة والعلماء)[2].

قال الإمام الشيخ محمد متولي الشعراوي: (وكان التدريس في الأزهر له فرحة كبيرة، لأنها وظيفة يُحسب بها صاحبها من العلماء)[3].

قلت: وكان التدريس في الأزهر منوطًا بتحصيل شهادة العالمية، ومن لم يحملها فإن العلماء لا يسلمون له أهلية الإمامة ولا الخطابة ولا التدريس، حتىٰ ورد في قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م ما نصه:

---

(١) نشأة الكليات: معاهد العلم عند المسلمين وفي الغرب /ص٢٥١/، وفي /ص٢٧٥/ كلام عن كيفية التعيين في مناصب التدريس.

(٢) الأزهر في ألف عام /٢١٩/١/.

(٣) أسرار الشعراوي /ص١٤/، ط: دار العلوم الحديثة، القاهرة، سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٨م.

(العالم هو من بيده شهادة العالمية)[1].

وقال العلامة الشيخ صالح الجعفري: (وأعوذ بالله من دعوىٰ العلم من غير حضور علىٰ مشايخ، ومن غير الشهادة العالمية، التي حكم علماء الأزهر بأن من لم يحملها لا يكون عالمًا يثق العلماء بعلمه، ولا يتولىٰ الوظائف الدينية من إمامة وقضاء ووعظ وهكذا)[2].

وأذكر أننا كنا نتردد علىٰ شيخنا العلامة الشيخ مصطفىٰ عمران عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر، فكنا نغدو إليه في بيته للقراءة، ونلح عليه أن ينقل مجلس درسه هذا لرحاب الأزهر فيأبىٰ، حتىٰ إذا كانت مرة دخلنا عنده فأخبرنا أنه انتوىٰ عقد الدرس في الأزهر، فتهللنا وفرحنا، ثم رجعنا نسأله عن السبب، فذكر لنا أنه ظل سنوات في الكويت، وجمعته الصداقة والصحبة بالعلامة الشيخ فوزي فيض الله، فقال له مرة: يا شيخ مصطفىٰ!! لقد بقي لي في حياتي أمنية واحدة، فلما سأله الشيخ ما هي؟ قال: «أن آتي إلىٰ الأزهر فأعقد مجلسا للتدريس فيه»، ثم عقب شيخنا فقال: فلما تذكرت ذلك استحييت أن أرىٰ علماء الدنيا يتمنون التدريس في الأزهر، وأنا أُدعىٰ إليه فأمتنع.

(١) قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م /ص٤٠/.

(٢) فتح وفيض وفضل من الله، في شرح كلمة لا إله إلا الله /ص٩٢/، ط: دار جوامع الكلم، القاهرة، سنة ١٩٩١م.

إِضَاءَةٌ

في أسباب تراجع حركة العلم في مدارس مصر عموما وفي الأزهر الشريف خصوصًا، وأن هذا راجع إلى أربعة منعطفات

◉ **المنعطف الأول**: لما أن وقع تدهور للأحوال الاقتصادية في مصر، نتيجة النهج الذي انتهجه المماليك في إدارة البلاد، والتوسع في الإنفاق العسكري، ومحاولة تدعيم الجيش وبناء الثغور من غير تنمية لموارد البلاد، فقد اشتطَّ المماليكُ في فرض الضرائب والمكوس، كما وقع في زمن الناصر محمد ابن قايتباي[1].

وازداد الأمر، حتىٰ اشتهر السلطان الغوري بفرض الضرائب علىٰ تركات الأموات أو مصادرتها، ثم تجاوز الأمر ذلك إلىٰ تعدي المماليك ونوابهم علىٰ أموال الأوقاف، حتىٰ إن السلطان الغوري ت٩٢٢هـ حاول بعد وصوله إلىٰ عرش السلطنة مباشرة بيع أراضي الأوقاف، بحجة أنها أموال عامة لبيت مال المسلمين، وهو ولي أمر المسلمين، وبيت مالهم فارغ من المال، ولا بد من دفع مرتبات الجند وأخبازهم.

وقد أخرج العلامة الدكتور عبد الوهاب عزام كتابًا مهمًّا عنوانه: (مجالس السلطان الغوري، صفحات من تاريخ مصر في القرن العاشر الهجري)، طبع في مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، بالقاهرة، سنة ١٣٦٠هـ ـ ١٩٤١م، توسع في بعض فصوله في تتبع مصادرته للأموال، وأطال في رصد ذلك.

وقد ألف الحافظُ الجلال السيوطيُّ في ذلك رسالةً مهمةً اسمها: (الإنصاف، في تمييز الأوقاف) نبَّه فيها إلىٰ أن للأوقاف أنواعًا، منها ما يجوز للسلطان العادل التصرف فيه بيعًا وشراءً، ورد قيمته إلىٰ بيت المال، وأنواع أخرىٰ لا يحق للسلطان بحال من الأحوال التصرف فيها، أو التعرض لها.

يقول المؤرخ الأستاذ الدكتور حسنين ربيع في بحثٍ له حول الحافظ السيوطي ـ ﷺ ـ: (ولا حاجة إلىٰ القول بأن بيع الدور والحوانيت والحمامات الموقوفة، أو تحويل إيراداتها إلىٰ بيت المال أعطىٰ ضربة قاصمة لنظام الوقف في مصر، الذي كان المورد المالي لسنين طويلة للنفقة علىٰ: البيمارستانات

---

(١) انظر ذلك في بدائع الزهور حوادث سنة ٩٠٢ هـ.

«المستشفيات»، والخوانق «بيوت الصوفية»، والجوامع، والمساجد، ورواتب وجرايات المدرسين وطلاب العلم في المدارس، مما كان له أسوأ الأثر على أحوال مصر الاقتصادية قبل العصر العثماني)[1].

وكنت قد عرضت خلاصة هذا المبحث على سماحة شيخنا العلامة الجليل الشيخ علي جمعة مفتي الديار المصرية سابقًا، فقال لي: (هذا باب من العلم يحتاج إلى مزيد من التأمل، وإلى توسيع دائرة البحث فيه؛ إذ لا يتأتى دراسة أحوال الاقتصاد والأوقاف والعلم في مصر في تلك الفترة، بمعزل عن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي كان يشهدها العالم كله في ذلك الوقت، فقبيل هذه الفترة التي نتكلم عنها حصل أمران في غاية الأهمية والتأثير:

الأمر الأول: انهيارٌ بشريٌّ هائلٌ، ضرب أمة الإسلام، وسائر شعوب حوض المتوسط، وجنوب أوروبا، نتيجة الوباء الهائل المسمى بالطاعون الأسود، والذي وقع سنة ٧٤٩هـ، حتى يصف الحافظ ابن حجر شيئا من آثاره فيذكر أن التركة الواحدة كانت ربما انتقلت في اليوم الواحد إلى تسعة بيوت، بأن يموت هذا فتنتقل لورثته، فيموت فتخرج إلى ورثته، وهكذا إلى تمام تسعة بيوت في اليوم الواحد، فأدى هذا إلى انهيار بشري كبير، أثَّر تأثيرًا بالغًا، وقد كانت التقديرات والإحصائيات التي تجتهد في تحديد عدد سكان مصر في تلك الفترة، نتيجة دراسة مقادير الخراج، تنتهي إلى أنهم قرابة العشرين مليونا، ثم حصل ذلك الانهيار، فإذا بنا نجد الإحصائيات بعد ذلك بقرون، في أيام محمد علي باشا، تنتهي إلى تقدير عدد سكان مصر بنحو أربعة ملايين، فانظر إلى هذا الفارق الهائل، وهذا مؤثر بلا شك في الاقتصاد والعلم، إذ ذهاب البشر وموتهم بهذه الصورة معناه فقد العلماء والحرفيين وأرباب المهن والصنائع، فكان هناك انهيار في كل تلك الأمور، يوازي الانهيار البشري الذي نصفه.

ومما يشهد لذلك قول ابن إياس: إن مصر قد بطل منها نحو خمسين صنعة، كما ذكر ترحيل الصناع، وذكر أنواعهم إلى الآستانة، ليبنوا مدرسة للسلطان سليم بإستانبول، والسلطان لا يأخذ من الصناع إلا أمهرهم.

والشاهد أنه قد عبرت بنا عدة أمور تسببت في موت كثير من الصنائع والحرف، إما لتفشي الموت، أو لاجتذاب الصناع المهرة، أو لغير ذلك من الأسباب.

الأمر الثاني: أن طرق التجارة العالمية في تلك العصور كانت تمر بأراضي أمة الإسلام، فتنشط على ضفاف ذلك عشرات الوجوه من التجارات والمنافع والأنشطة الاقتصادية، مما يوفر للأمة موارد مالية هائلة، يمكن إنفاقها في سائر الأنشطة والعلوم والمرافق وما أشبه، فوقع في ذلك العصر اكتشاف طريق

(١) السيوطي ومنهج كتابة التاريخ، بحث ضمن بحوث ندوة: (جلال الدين السيوطي) /ص٦٦/ المنعقدة في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب، والمقال المذكور للدكتور حسنين ربيع كله مهم.

رأس الرجاء الصالح، فتحولت مسارات التجارة العالمية من أراضي أمة الإسلام، ففقدت الأمة موردًا اقتصاديًّا ضخمًا، مما أدىٰ إلىٰ انهيار مالي هائل، توقفت علىٰ أثره أنشطة علمية واجتماعية كبيرة، كانت تدور عليه.

فلابد من توسيع دائرة النظر، حتىٰ ندرس القضية بأبعادها وأسبابها ومؤثراتها، دون اجتزاء يؤدي إلىٰ الظلم أو سوء الفهم والتفسير، ولا شك أن العوامل السابقة لا تزال في حاجة إلىٰ مزيد من البحث والتتبع)، هذا خلاصة كلام شيخنا سماحة المفتي، سماعًا من لفظه، مع شيء من الاختصار.

قلت: وقد ترتبت علىٰ تدهور الأحوال الاقتصادية آثارٌ اجتماعيةٌ وعلميةٌ في غاية السوء؛ إذ فقدت المدارسُ والمساجدُ ـ والتي هي الجامعات والمراكز العلمية لذلك العهد ـ مواردها المالية، فلم يجد العلماء فيها كفايةً لشئون معاشهم فهجروها، ولم يجد الطلاب فيها جِرايةً تعينهم علىٰ التفرغ لتحصيل العلم، فاضطروا إلىٰ الخروج للتكسب، ولم يعد يجري علىٰ أبنية المساجد والمدارس رَيْعٌ ماليٌّ لتجديدها، وترميمها، وعمارتها، وصيانتها، وقد أدَّىٰ كلُّ ذلك إلىٰ توقفٍ وتجميدٍ لعقل الأمة المفكر، فتوقفت الآلة العلمية عن متابعة الواقع ورصده وتحليله، فضلًا عن تصويبه وتوجيهه، وتوقف العقل المسلم عن مطالعة أحوال الأمم المحيطة بديار أهل الإسلام، ورصد فلسفاتها ومناهجها، وما يدور في تلك المجتمعات من بودار نهوض وحركة فكرية، وتقاصر المسلمون بالتدريج عن المشاركة في صناعة ثقافة العالم وفكره وسياساته.

قال علي مبارك باشا في: (الخطط التوفيقية): (ومن ابتداء القرن التاسع إلىٰ القرن الثاني عشر ـ يعني: مدة ثلاثة قرون ـ قد أُهمِل أمرُ المدارس، وامتدت أيدي الأطماع إلىٰ أوقافها، وتصرف فيها النظار علىٰ خلاف شروط وقفها، وامتنع الصرف علىٰ المدرسين والطلبة والخدم، فأخذوا في مفارقتها، وصار ذلك يزيد في كل سنة عمَّا قبلها، لكثرة الاضطرابات الحاصلة بالبلاد، حتىٰ انقطع التدريس فيها بالكلية، وبِيعَتْ كتبها وانتهبت، ثم أخذت تتشعَّث وتتخرب من عدم الالتفات إلىٰ عمارتها، فامتدت أيدي الناس والظلمة إلىٰ بيع رخامها وأبوابها وشبابيكها، حتىٰ آل بعض تلك المدارس الفخيمة، والمباني الجليلة إلىٰ زاوية صغيرة، تراها مغلقة في أغلب الأيام، وبعضها زال بالكلية، وصار زريبةً أو حوشًا أو غير ذلك، كما بيناه في هذا الكتاب، والله عاقبة الأمور)[(١)].

قلت: فآل الأمر في الجملة إلىٰ انصراف النشاط العلمي من مصر، قال العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري في مقالاته: (ومن المعلوم أن الديار المصرية ظلت موئل العلوم إلىٰ خواتيم القرن العاشر، إذ بانقراض الدولة المصرية البرجية في أوائل ذلك القرن تضاءل النشاط العلمي بمصر، بل تزعزعت أركان

(١) الخطط التوفيقية /١/٢٢٠، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

العلم بها، وغادر هذا النشاط القطر المصري إلىٰ أقطار أخرىٰ، كما هو سنة الله في خلقه)(١).

مع أن هذا معنىٰ يحتاج إلىٰ تفصيل، ورصد تاريخي موسع للمظاهر العلمية، والمراكز الدرسية، وسير العلوم في علوها وهبوطها في تلك الأقطار، مع ما طرأ علىٰ كل واحد من من وجوه التغير.

وقال العلامة الأستاذ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر في كتابه: (الجامع الأزهر نبذة في تاريخه): (وفي أواخر القرن التاسع الهجري أصاب الأزهر ما أصاب المعاهد الأخرىٰ من الذبول والركود، فتقلص ظلُّ النشاط والازدهار العلمي، وانصرف كثيرٌ عن العلوم العقلية الفلسفية والرياضية والجغرافية، وأخذ القولُ بحرمتها يتسرب شيئًا فشيئًا، حتىٰ تُرِكتْ هذه العلوم من الأزهر، وبقيت مهجورةً، يُنْظَرُ إليها بنظر السخط، حتىٰ صدرت فتوىٰ من شيخ الأزهر الشيخ الأنبابي، والشيخ محمد محمد البنا مفتي مصر، بجواز تعلمها، وعدم حرمة تدريسها)(٢).

◉ **المنعطف الثاني:** إذا كان المنعطف السابق يتحدث عن تدهور التعليم في مدارس مصر عمومًا، فهذا المنعطف يتناول أسباب تراجع حال العلم في الأزهر خصوصًا.

---

(١) مقالات الكوثري /ص١٦٦/، وانظر في شرح ذلك الخطط التوفيقية /١/١٤٦/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م، وانظر وصفًا مسهبًا لما آلت إليه حالة القاهرة، من تدهور اجتماعيٍّ، وصحيٍّ، وعلميٍّ، واقتصاديٍّ، بحلول القرن الثاني عشر الهجري فما بعده، في: (الخطط التوفيقية) أيضًا /١/١٩٧/، ثم انظر مراحل التوسع والتغيير العمراني لخريطة القاهرة في عهد إسماعيل وما بعده في كتاب: (القاهرة، إقامة مدينة حديثة، ١٨٦٧ ـ ١٩٠٧م من تدابير الخديوي، إلىٰ الشركات الخاصة) تأليف: جان ـ لوك أرنو، ترجمة حليم واطسون، وفؤاد الدهان، نشر المجلس الأعلىٰ للثقافة، بالاشتراك مع المركز الفرنسي للثقافة والتعاون، سنة ٢٠٠٢م، وفي كتاب: (مدينة القاهرة، من ولاية محمد علي إلىٰ إسماعيل: ١٨٠٥ ـ ١٨٧٩م) للدكتور محمد حسام الدين إسماعيل، ط٢، دار الآفاق العربية، وفي كتاب: (القاهرة في عصر إسماعيل) للأستاذ عرفة عبده علي، ط: الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ومن أجود ما اطلعت عليه في وصف الحالة العمرانية للقاهرة كتاب: (القاهرة الخديوية، رصدُ وتوثيق عمارةِ وعمران القاهرة، منطقة وسط المدينة) تأليف الدكتورة سهير زكي حواس، نشره مركز التصميمات المعمارية، القاهرة، ٢٠٠٢م، وأقول: وكل هذا تحويل للقاهرة عن نسقها المعماري النابع من هويتها، وثقافتها، ومعطيات حضارتها في بناء المدن وتنسيقها، واقرأ في فلسفة المدينة ونسقها ومعمارها وترتيب مرافقها في العقل المسلم كتاب: (المدينة الإسلامية) للدكتور محمد عبد الستار عثمان، ط: دار الآفاق العربية، القاهرة، سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م، حيث تناول فيه الفكر الإسلامي واستراتيجية العمران، وتخطيط المدن في عقول كبار المعماريين المسلمين، وغير ذلك من البحوث المهمة.

(٢) الجامع الأزهر، نبذة في تاريخه /ص٢٤/ (بتصرف يسير)، وانظر شيئًا من ذلك في: (التعليم في مصر زمن الأيوبيين والمماليك) للدكتور عبد الغني عبد العاطي، ط: دار المعارف القاهرة سنة ١٩٨٤م، و(تاريخ المدارس في مصر الإسلامية) (أبحاث ندوة: (المدارس في مصر الإسلامية) التي أعدتها لجنة التاريخ والآثار بالمجلس الأعلىٰ للثقافة، وعقدت بالجمعية المصرية للدراسات التاريخية من ٢٢ ـ ٢٥ أبريل ١٩٩١م، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، سنة ١٩٩٢م وغير ذلك كثير.

ويأتي على رأس هذه الأسباب: الاستيلاء على أوقاف الأزهر ومصادر إنفاقه أيام محمد علي باشا، قال إدوارد وليم لين في: (المصريون المحدثون): (ولا يدفع الطلبة للدراسة في الأزهر أجرا؛ إذ إن أغلبهم فقراء، ويتناول أغلب الأجانب ـ الذين لهم أروقة خاصة ـ راتبا من الطعام يوميا، يصرف لهم من إيراد العقارات الموقوفة عليهم، والعادة أن يتناول طلبة القاهرة وما جاورها مثل هذا الراتب، إلا أنهم لا يتمتعون بذلك طويلًا، خلا شهر رمضان، لأن محمد علي استولى على جميع الأراضي الزراعية الموقوفة على المساجد، ففقد الأزهر أكبر جزء مما وقف عليه)، إلى أن قال: (وقد نقص عدد هؤلاء الطلبة ـ الذين لا رواق لهم ـ كثيرًا، منذ الاستيلاء على الأراضي الموقوفة على الأزهر)(١).

وقد علق الأستاذ الدكتور محمد عبد الله عنان على هذه الواقعة ـ بعد أن وثقها من مصادر متعددة ـ فقال: (ومن الأسف أن هذه الواقعة التاريخية، وهي استيلاء محمد علي على أوقاف المساجد ومواردها، وفي مقدمتها الجامع الأزهر، وهي التي يذكرها الجبرتي في غير موضع، وينوه بها العالمان الأجنبيان، لم تَلْقَ صدىً في كل ما كتب عن تاريخ مصر في هذا العصر، ولم يذكرها أو يُشِرْ إليها بالأخص أحد من أولئك الذين كثيرًا ما تحدثوا في كتبهم ونشراتهم عن مآثر الأسرة العلوية على الجامع الأزهر)(٢).

وأقول بل ذكرها الأستاذ الشيخ محمد عبده في مذكراته، قال: (نعم! أخذ ما كان للمساجد من الرزق، وأبدلها بشيء من النقدي يسمى «فائض رزنامة»، لا يساوي جزءًا من الألف من إيرادها، وأخذ من أوقاف الجامع الأزهر ما لو بقي له اليوم لكانت غلته لا تقل عن نصف مليون جنيه في السنة، وقرر له بدل ذلك ما يساوي نحو أربعة آلاف جنيه في السنة)(٣).

ولا يدرك أحد ضخامة هذا المبلغ الذي يذكره الشيخ محمد عبده إلا إذا علم أن واردات مصر الرسمية في ميزانيتها الرسمية سنة ١٩٠٧م كانت أربعة عشر مليونًا من الجنيهات المصرية، فإذا كانت أوقاف الأزهر حينئذ تقدر بنحو نصف مليون فإنه مبلغ هائل، يكفي للنهوض بالحركة العلمية على وجهها الأكمل.

وإن كان السيد عبد الله النديم قد ذهب إلى عكس ذلك كله، حيث قال: (ولولا وجود الأزهر بمصر لعدمت اللغة العربية في تلك الفترة، وقد أدرك المرحوم محمد علي باشا مصر واللغة في آخر رمق الحياة، والمستعمل بين الكتاب عبارات اصطلاحية مستهجنة، بخطوط تشبه الرموز، والرسم فاقد بينهم، ولم يبق من يكتب عبارة صحيحة إلا النبهاء والعلماء من أهل الأزهر، فاجتهد في تنظيم الأوقاف، حتى عمر

---

(١) المصريون المحدثون: شمائلهم وعاداتهم /ص١٤٥/، ط: مطبعة الرسالة، القاهرة، سنة ١٩٥٠م، ترجمة عدلي طاهر نور، و/ص٢١٤/ من ترجمة سهير دسوم، ط: مكتبة مدبولي، القاهرة، سنة ١٤١٩هـ ـ ١٩٩٩م.

(٢) تاريخ الجامع الأزهر /ص٢٣٠/، ط٢: مؤسسة الخانجي، القاهرة، سنة ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٨م.

(٣) مذكرات الإمام محمد عبده /ص٥٤/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، سنة ٢٠١١م.

بالطلاب، وأعيدت إليه دروس في علوم كانت ماتت وتركت الناس طلبها.

ثم قرب إليه العلماء، وخلع عليهم الخلع، وأخذ يلاطفهم، ويعاملهم معاملة التكريم، إظهارًا لشرف العلم وأهله، حتىٰ عشق الناس الأزهر، وتهافتوا علىٰ طلب العلم فيه.

ثم أعفىٰ أهله من الجهادية، ففر إليه كثير من أبناء الفلاحين والعمد، ليتخذوا من العلم حماية، وبهذا نبغ ألوف من المسلمين في الأزهر، وانتشروا في البلاد)[1].

والذي يذكره عبد الله النديم أمور حسنة، لكن تضييق مصادر الإنفاق لا يعوضها شيء مهما كان، من أمور التكريم ومنح الخلع والنياشين، حيث إن الغرض المهم من هذه الوقفيات هو توفير الإنفاق اللازم والكافي لتشغيل عملية التعليم بكل أعبائها ومتطلباتها، حيث لابد لتسيير حركة التعليم من أجور مجزية للعلماء والمدرسين، وأجور الإداريين والكتاب وغيرهم، وللإنفاق علىٰ رعاية الطلاب وتوفير المسكن والمأكل ومرافق الحياة، وتوفير أدوات الدراسة، والكتب، والأدوات التعليمية، وصيانة المبنىٰ الذي تجري فيه حركة التعليم، إلىٰ غير ذلك من الشئون التي لا تنتظم حركة التعليم إلا بها.

والأوقاف الضخمة التي كانت مرصودة للأزهر جاءت نتاج عقود وقرون من معاناة عملية التعليم وتقدير احتياجاتها، وتدبير كيفية توفيرها، فاستقرت المدرسة المصرية علىٰ وقف الأراضي الزراعية والتجارات الرائجة وغيرها للإنفاق من ريعها علىٰ عملية التعليم.

وهذا الشأن في غاية الأهمية، وهو في الحقيقة شريان الحياة الذي يكفل لحركة التعليم الاستمرار ثم التجويد والتطوير والتحسين.

ولقد ظل الأمل معقودًا عند ولاة الأمر علىٰ تنمية الأوقاف لتوفير النفقات الطائلة اللازمة للإنفاق علىٰ الأزهر وتطوير أساليب تعليمه، وإعادته نبراسًا للعلوم في مختلف الأقطار كسابق عهده، حتىٰ إن يعقوب صروف أحد صاحبي المقطم والمقتطف قد مثل بين يدي السلطان حسين كامل يوم ١٦ يناير سنة ١٩١٦م، فقال له السلطان حسين: (إني عازم إن شاء الله أن أزور الأزهر الشريف في الأسبوع التالي وأقف بنفسي علىٰ أساليب التعليم فيه، ولو اقتضت هذه الزيارة ساعة أو ساعتين، ثم أنظر مع المتولين شئونه في الأساليب التي ترقي العلوم العصرية فيه، حتىٰ تضارع ما فيه من العلوم اللغوية والشرعية، فيحافظ هذا المعهد العلمي العظيم علىٰ العلوم الإسلامية كلها، ويضيف إليها ما ثبتت أصوله وتحقق نفعه من العلوم الرياضية كالجبر والهندسة والفلك.

(١) مجلة الأستاذ /ص١٧٦/، الجزء الثامن، من السنة الأولىٰ، العدد الصادر بتاريخ الثلاثاء، ٢٠ ربيع الأول، سنة ١٣١٠هـ، الموافق ١١ أكتوبر، سنة ١٨٩٢م.

فقال يعقوب صروف: (إن هذه العلوم كانت تعلم في الأزهر، وقد لقيت منذ ثلاثين سنة بعض الذين درسوا مبادئها من شيوخه، ولما ذاكرتهم فيها بمصطلحاتها القديمة كالأس والميل والسمت والنظير أبرقت أسرتهم، وقالوا: هذه علومنا، وهذه مصطلحاتنا العلمية، ولا ندري لماذا عدل المؤلفون عنها في هذا العصر؟

فقال السلطان: وسيكون لهذه العلوم وأمثالها شأن كبير في الأزهر، لأنه أعظم مدرسة إسلامية في المسكونة، ويجب أن يبقىٰ كعبة الطلاب من الهند والصين وبخارىٰ وسمرقند وسائر الأقطار الإسلامية، كما كان في سالف العهد، حتىٰ لا تفوقه مدرسة من المدارس.

فقال يعقوب صروف: ولكن البلوغ إلىٰ ذلك يا مولاي يقتضي نفقات طائلة، لا أظن أن المال المقطوع للأزهر يفي بها.

فقال السلطان: أصبت، ولكن عندنا الأوقاف الإسلامية، وهي كبيرة جدًّا، وأنا مهتم بإصلاح شئونها، وإنماء دخلها، وإنفاق ما يمكن إنفاقه منه علىٰ التعليم، وبإنفاقنا منه علىٰ الأزهر ننفع هذا القطر وكل الأقطار الإسلامية، لأن العلماء الذين يتخرجون فيه يفيدون بلدانهم المختلفة فوائد لا تقدر)[1].

❁ **المنعطف الثالث:** تفكيك منظومة العلوم الصانعة للعقل الأزهري المتكامل، وتمزق خريطته المعرفية، مما يؤدي إلىٰ عدم التمكن من صناعة العقول وإعدادها، وذلك بعد إنشاء الكليات، حيث كان الطالب الأزهري عبر تاريخ الأزهر يتحتم إلمامه باثني عشر علمًا أساسيًّا، وتضاف لها علوم أخرىٰ مكملة، وكانت العلوم الاثنا عشر المذكورة هي مناط استحقاقه للعالمية، وبدونها لا يكتمل تكوينه المعرفي، ولا يستحق صفة العالم الأزهري، وقد جرىٰ في عهد الكليات أن تمزقت هذه الخريطة المعرفية، فجمعت علوم الفقه والأصول وما يلتحق بذلك وصارت كلية الشريعة، وجمعت علوم العربية وصارت كلية اللغة العربية، وجمعت علوم الحديث والتفسير وعلم الكلام والمنطق وصارت كلية أصول الدين، فانشعبت العلوم وتمزقت، وقد حاول القائمون علىٰ الأمر رأب ذلك بأخذ قبس من علوم كل كلية ليدرس في الكلية الأخرىٰ، لكن تضاءل ذلك وانفكت اللحمة التي كانت تربط العلوم في ذهن الطالب، فصرت ترىٰ أستاذًا متخصصًا في أصول الفقه، وهو يلحن في النحو، أو يجهل البلاغة بفنونها الثلاثة جهلًا مطبقًا، أو ترىٰ عالمًا بالحديث وهو عار تماما من علم أصول الفقه، وهذا منتهىٰ العجب والغرابة، ولم يسبق أن حدث له مثيل في تاريخ الأزهر في أي حقبة أو طور من أطواره التاريخية.

قال العلامة السيد عبد الله الصديق الغماري ت١٤١٣هـ عن حال علماء زمانه: (فإذا وجدت عالمًا

(١) رحلة عظمة السلطان حسين، في رياض البحرين /ص١٠٥/، ط: مطبعة التوفيق، مصر، سنة ١٩١٦م.

بالحديث تجده لا يحسن غيره، وإذا وجدت فقيهًا وجدته لا يحسن غير الفقه، وإذا وجدت نحويًّا أو مشتغلًا بالبلاغة وجدته بعيدًا عن علم الأصول وما يتبعه، وإذا وجدت أصوليًّا عالمًا بالعربية وجدته لا يعرف الحديث.

نعم قد يوجد من يشارك في بعض العلوم كالقدماء من علماء الأزهر وعلماء القرويين)[١].

وقد ورد في جلسة مجلس الأزهر الأعلىٰ المنعقدة بتاريخ السبت ١٧ شوال سنة ١٣٣١هـ الموافق ٢٨ سبتمبر سنة ١٩١٢م ما نصه: (فأكثر السقوط في علم أصول الفقه، ثم يليه علم المعاني، ثم يليه علم البيان والنحو، وهذا دليل علىٰ أن الطلبة مقصرون لا دليل علىٰ أن المدرسين مقصرون، ولقد قال رؤساء اللجان وأعضاؤها: «لم نعرف من هذه الوجوه في الدروس إلا القليل»، فأكثر هؤلاء الطلبة تركوا التلقي عن المشايخ من بعد ابن عقيل، فلم يتلقوا الأشموني كله، ولا السعد، ولا جمع الجوامع أو نظيره)[٢].

وهذه القضية في غاية الخطورة والحساسية، حيث نرىٰ من خلالها أن أول ما ظهر من بواكير الخلل في صناعة العقل العلمي الأزهري المتكامل يرجع إلىٰ ضعف طلابه في علم أصول الفقه وعلم البيان، وأن هذا الحدث كان سنة ١٩١٢م، وعلم أصول الفقه هو الدرع الأول الذي يتمكن من خلاله الدارس الأزهري من رصد وجوه الانحراف في فهم الوحيين الشريفين، ويقتدر به علىٰ تفنيد الأفهام المغلوطة التي تطرأ أمواجها كل حين.

۞ ومن تفكيك المنظومة أيضًا افتقاد نظام الحلقات بكل ما كان يشتمل عليه من دوائر تعليم، ومهارات تدريس، قال الدكتور محمد عبد الله عنان: (وقد فقد الأزهر كثيرًا من مزايا الدراسة الجامعية الحقة بإلغاء الحلقات الدراسية الشهيرة، التي لبثت قرونًا تزين أروقته وساحاته، فقضىٰ عليها النظام الجديد، ولم تبق منها إلا آثار ضئيلة، تتمثل في بعض الدروس العادية في علوم الدين أو اللغة بالجامع الأزهر)[٣].

ومن الآثار السلبية المترتبة علىٰ فقد نظام الحلقات أن انفصل الأساتذة عن طلابهم، ووقع انقطاع في سند الدراية، بحيث بقيت عملية التعليم قائمة، لكن اعتراها خلل جعل المهارات والمعاني والفهوم واللطائف والأذواق والآداب التي كانت عند جيل معين من الأجيال، لم تنتقل إلىٰ الجيل الذي بعده بتمامها، نتيجة اختزال عملية التعليم في مجموعة دروس أكاديمية فاقدة للروح، قال عبد الحميد ابن باديس: (أغلب المتعلمين في المعاهد الإسلامية الكبرىٰ كالأزهر لا يتصلون بتلامذتهم، إلا اتصالًا عامًّا

(١) سبيل التوفيق، في ترجمة عبد الله الصديق /ص٥٤/.
(٢) مجلس الأزهر الأعلىٰ /١/٢٠٣/.
(٣) تاريخ الجامع الأزهر /ص٢٦٤/.

لا يتجاوز أوقات التعليم، فيتخرج التلامذة في العلوم والفنون، لكن بدون تلك الروح الخاصة التي ينفخها المعلم في تلميذه ـ إذا كان للمعلم روح ـ، ويكون لها الأثر البارز في أعماله العلمية في سائر حياته، فعلىٰ المعلم الذي يريد أن يكوّن من تلامذته رجالًا أن يشعرهم ـ واحدًا واحدًا ـ أنه متصل بكل واحد منهم اتصالًا خاصًا، زيادة علىٰ الاتصال العام، وأن يصدق لهم هذا بعنايته خارج الدرس بكل واحد منهم عناية خاصة، في سائر نواحي حياته، حتىٰ يشعر كل واحد منهم أنه في طور تربية وتعليم، في كفالة أب روحي يعطف عليه، ويُعنىٰ به مثل أبيه، أو أكثر)[١].

۞ ومن تفكيك المنظومة أيضًا عدم إدراك الواقع، وقصور عملية التعليم عن التدريب علىٰ فهم الواقع والإلمام الدقيق به وبتضاريسه، تمهيدًا لتنزيل الأحكام عليه، وقد صور عبد الله النديم ذلك تصويرا في غاية الجلاء حيث قال في (مجلة الأستاذ): (كما نرىٰ كل مشتغل بالأزهر منصرفًا عن الدنيا وما فيها، فلا يقرأ الجرائد العلمية ولا السياسية، ولا يعرف شيئا عن أحوال الممالك، ولا يقرأ تقويم البلدان «الجغرافيا»، ولا علم له بشيء من الجاري بين الملوك والطوائف، ولا وقوف له علىٰ حوادث الحروب واختلاف الأمم، ولا إلمام عنده بصنعة أو زراعة أو أصول تجارة، ولا يبحث في مخترع يسمع به، ومقترح يرد عليه، كأنه في جب، لا ساكن فيه إلا من ماثله في هذا التجرد الشنيع، مع أنه يطلب العلم ليكون مؤهلا للإفتاء والقضاء، وهاتان الوظيفتان أرقىٰ وظائف السياسة القضائية المتصلة بكثير من الفروع الإدارية، وبهذا الإعراض عن الضروريات الدولية والمعاشية وقع كثير من العلماء في الخطأ، اغترارا بغاشٍّ يزين لهم ألفاظ الأسئلة، ليقيم عليهم الحجة بأجوبتهم، وأبعدت جموع العلماء عن مجالس الأمراء، لعدم اقتدارهم علىٰ مشاركتهم في تبادل الأفكار؛ إذ لا يعلمون من لوازم الدولة شيئا)[٢].

وقد سبقه رفاعة بك الطهطاوي ﷺ فأشار إلىٰ ذلك حيث قال في: (مباهج الألباب): (ومدار سلوك جادة الرشاد والإصابة، منوط بعد ولي الأمر بهذه العصابة، التي ينبغي أن تضيف إلىٰ ما يجب عليها من نشر السنة الشريفة، ورفع أعلام الشريعة المنيفة، معرفة سائر المعارف البشرية المدنية، التي لها مدخل في تقديم الوطنية، من كل ما يحمد علىٰ تعلمه وتعليمه علماء الأمة المحمدية؛ فإنه بانضمامه إلىٰ علوم الشريعة والأحكام، يكون من الأعمار الباقية علىٰ الدوام، ويَقْتدي بهم في اتباعه الخاصُّ والعام، حتىٰ إذا دخلوا في أمور الدولة يحسن من كل منهم في إبداء المحاسن المدنية قوله)[٣].

ومما يدل علىٰ ذلك ما ذكره أحمد شفيق باشا، رئيس الديوان الخديوي، في مذكراته، قال في

(١) ابن باديس حياته وآثاره /٤/٢٠٢/.

(٢) مجلة الأستاذ /ص٦١١/، الجزء السادس والعشرون من السنة الأولىٰ، العدد الصادر بتاريخ الثلاثاء ٢٧ رجب، سنة ١٣١٠هـ، الموافق ١٤ فبراير، سنة ١٨٩٣م.

(٣) مناهج الألباب المصرية، في مباهج الآداب العصرية /ص٣٧٢/.

أحداث سنة ١٨٩٢م أيام الخديوي توفيق: (جلسات تفسير القرآن في رمضان: وافق يوم ٣٠ مارس الليلة الأولى من رمضان، فوفد المهنئون من جميع الطبقات على سراي عابدين، وكان سموه يتلقاهم بالبشاشة مُظهرًا ارتياحه لتعلقهم به، ولما علم سموه أن المعتاد في رمضان أن يتلى القرآن الكريم وتفسر آياته فيما بين العصر والإفطار، أمر بانتداب أحد العلماء المبرزين في التفسير للقراءة في حضرة سموه، ورجال معيته، بسراي القبة، فانتدب شيخ الأزهر الشيخ أحمد الرفاعي للقيام بهذه المهمة، وقد ظل الأستاذ عدة أيام يتابع دروسه، وكنت ممن يحضرها، وكان كثير الإسهاب في إيراد أقوال المفسرين، وإيراد بعض الآراء والروايات الغريبة.

وفي ذات يوم تحدث عن «إرم ذات العماد»، فهالنا ما أورده عنها من الروايات الغريبة، ولا سيما القول بأنها مدينة شيدت طوبة من ذهب وأخرى من الفضة، وأنها معلقة بين الأرض والسماء، ثم توسع في ذلك، وعرض إلى علم الفلك بأسلوب يثير الشفقة والضحك، فكنا والخديو نزم شفاهنا حتى يغلبنا الضحك الرنان.

ولما انتهى الدرس وأفطرنا اجتمعنا مع الخديو وتحادثنا فيما سمعناه من الشيخ، فأبدى سموه دهشة، وإنكاره لطريقته، وتقرر أن يرسل لشيخ الأزهر باستبداله فانتدب مكانه الشيخ الشربيني)[١]، قلت: فأعاد الشيخ الشربيني الصورة اللائقة للعالم الأزهري.

۞ **المنعطف الرابع:** تعقيد القوانين والإجراءات الإدارية الخاصة بالأزهر: وليس بين أيدينا تتبع واستقصاء ووصف شامل لمنظومة القوانين التي تتعلق بالأزهر من خلال الوثائق الأصلية.

بل لم أرَ من يعتني بهذا الجانب المهم من تاريخ الأزهر، إلا ما كان من العالم الجليل الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون ﷺ حيث قال: (ونقول: إننا زاملنا القوانين في الأزهر من أولها، ما عدا قانون سنة ١٨٧٢م، فنحن نكتب في تاريخ الأزهر كما شاهدنا في مدى خمسين سنة، ونظن أننا نكتب الحقائق التاريخية كما هي، لأننا عاصرناها، وعرفناها في صورها وملابساتها الصحيحة، وكنا نتمنى أن يتسع لنا الوقت فنذكرها مفصلة، ولكننا سنتدارك ذلك في مناسبة الكتابة على الأزهر وتاريخه في عيده الألفي إن شاء الله تعالى)[٢].

لكن الأجل وافاه بعد ذلك بمدة يسيرة، حيث كان كلامه هذا سنة ١٩٤٩م، ثم لم يلبث أن توفي سنة ١٩٥١م، وتأخر الاحتفال بالعيد الألفي للأزهر إلى سنة ١٩٨٣م.

(١) مذكراتي في نصف قرن /٢/٢٨/، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ٢٠٠٧م.
(٢) الجامع الأزهر نبذة في تاريخه /ص١٥٠/، ط: مطبعة الأزهر، مصر، سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

ولأجل هذا كان لابد من باب مستقل يحصر تلك القوانين، ويبين ملابساتها وتفاصيلها، والآثار التي ترتبت على كل قانون منها، إيجابًا كان ذلك أو سلبًا، نفعًا كان ذلك أو ضررًا.

وسوف أورد هنا نبذة مقتضبة تصلح أن تكون مدخلًا لهذا الجانب، إلى أن ينهض من نوابغ الباحثين من يقدم أطروحة أو دراسة واسعة في هذا الباب.

كان الطلاب يدخلون الأزهر مختارين دون قيد أو شرط، ولهم الحرية في اختيار من يريدون حضور دروسه، وما كانوا مقيدين بفترة زمنية لإنهاء دراستهم، وكانت الدروس تنعقد في الأزهر ابتداء من العشرين من شوال من كل سنة، ويتعين في أول كل عام العمود المخصص لكل عالم، والكتب المحددة له، حتى يفضي هذا المسار الدراسي إلى الإجازة.

فجاء في التقويم الرسمي للدولة المصرية والذي عنوانه: (تقويم لسنة ١٩٣٠م) ما نصه: (كان الطالب يدخله مختارًا بلا قيد ولا شرط، ويختلف إلى من أراد من العلماء، لتلقي العلم عنه، ويبقى فيه ما شاء أن يبقى، فإذا آنس من نفسه علمًا كافيًا، وملكة يتمكن بها من إفادة غيره، جلس للتدريس حيث يجد مكانًا خاليًا، وعرض نفسه على الطلبة، فكانوا إذا وجدوه على علم التفوا حوله، وقبلوا يده، وإذا رأوا غير ذلك انصرفوا عنه، وتلك هي شهادة العالمية التي كان يعطاها العلماء)(١).

◉ وكان أول قانونٍ نظاميٍّ صدر بخصوص تنظيم أمور الأزهر وشئونه هو القانون الصادر بتاريخ ٢٣ من ذي القعدة سنة ١٢٨٨هـ، الموافق ١٨٧٢م، في عهد الخديوي إسماعيل، وهو المعروف بقانون الشيخ المهدي الأول، والذي يقضي بجعل نيل العالمية بالامتحان على يد لجنة من العلماء يختارها شيخ الأزهر، وتقسيم العلماء الحاصلين على العالمية إلى ثلاث درجات: الأولى، والثانية، والثالثة، وصدور بيورولدي(٢) عالٍ بذلك، وامتياز أرباب الدرجة الأولى بكسوة التشريف العلمية، وأن تكون العلوم التي يمتحن الطالب فيها هي: الفقه، والأصول، والتوحيد، والحديث، والتفسير، والنحو، والصرف، والمعاني، والبيان، والبديع، والمنطق، ومن حينئذ استقرت العلوم الإحدى عشر التي هي مناط العالمية.

◉ ثم بعد مضي أربع سنوات صدر قانونٌ ثانٍ بتاريخ ٧ جمادى الثانية سنة ١٣٠٢هـ الموافق ٢٤

(١) تقويم لسنة ١٩٣٠م /ص١٠٧/، ط: المطبعة الأميرية، قلم نشر مطبوعات الحكومة، سنة ١٩٣٠م.

(٢) البيورلدي العالي (buyuruldu): لفظة تركية معناها الأمر السلطاني، وصارت علمًا على الأمر المكتوب بالرسم الهمايوني الصادر من الصدر الأعظم أو من أحد الولاة، وقد كان يطلق هذا الاصطلاح في مصر حتى سنة ١٩١٥ على براءات التعيين حتى الدرجة الثانية، وعلى الشهادة التي يحصل عليها المتخرجون في الأزهر الشريف، وانظر: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية /ص٧٠/، ط: مطبوعات مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، سنة ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م، وتأصيل، ما ورد في تاريخ الجبرتي من الدخيل /ص٤٩/، ط: دار المعارف، مصر، سنة ١٩٧٩م، ومصطلحات التاريخ العثماني /١/٣٠٧/.

مارس سنة ١٨٨٥م، وهو عبارة عن لائحة تنفيذية لقانون ذي القعدة سنة ١٢٨٨هـ، وقد تعرض القانون مكون من ثلاث عشرة مادة، تنصب كلها في وضع معايير امتحان العالمية، وكيفيته وإجراءاته[١]، ونص القانون منشور في الأوامر العالية والدكريتات الصادرة سنة ١٨٨٥م[٢].

ولم يكن فيه من جديد سوىٰ أمور؛ منها: جعل الامتحان في علم الأصول اختياريا، فتخلخلت بذلك منزلة هذا العلم، رغم أنه العلم الأهم العاصم للتفكير من الانحراف في فهم الوحيين، وكان من بنود هذا القانون أمور تتعلق بالمواد التي يعينها شيخ الأزهر للامتحان، وتخصيص أرباب كل درجة بكتب يدرسونها في النحو، وأن يدرس في كل واحد من بقية العلوم ما يضاهي تلك الكتب حسب ما يناسب كل درجة، فأصبح العلم هو الكتاب، وصارت قراءة الكتاب وحدها علما، إلىٰ غير ذلك من مواد هذا القانون.

❁ ثم صدر القانون الثالث الضابط لأعداد أهل الجامع الأزهر من مجلس النظار بتاريخ ٧ المحرم، سنة ١٣٠٣هـ، الموافق ١٥ أكتوبر، سنة ١٨٨٥م، ويسري أيضًا علىٰ الجامع الأحمدي في طنطا، وجامع الشيخ سليمان باشا بالإسكندرية، وذلك أنه بعد صدور القوانين المنظمة للامتحان كان لابد من قانون يضبط نظام الطلبة، وكيفية انتسابهم، وتقييد أسمائهم علىٰ الأروقة، وأحوال الجرايات، وحكم من يهمل من الطلبة في الانتساب، إلىٰ غير ذلك من الشئون.

❁ ثم صدر القانون الرابع الخاص بامتحان التدريس المعروف بقانون الشيخ الأنبابي، في ٦ جمادىٰ الأولىٰ، سنة ١٣٠٥هـ، الموافق ١٩ يناير سنة ١٨٨٨م، وهو مكون من ثلاث عشرة مادة كذلك[٣].

ولا يكاد يختلف عن قانون سنة ١٣٠٣هـ إلا في أمور معدودة، أولها: أنه أعاد لعلم الأصول منزلته، وثانيها: إباحة تدريس الكتب الأعلىٰ لأهل الدرجة الأولىٰ، دون استئذان، وغير ذلك من المواد المتعلقة بالامتحانات والانتساب.

---

(١) مجموعة الأوامر العلية والدكريتات الصادرة من أول يناير ١٨٨٥م/ص٥٠ ـ ٥٣/، (د ن)، وانظر نصه أيضا في: قاموس الإدارة والقضا /١٥٢/١ ـ ١٥٤/، لفيليب بن يوسف جلاد، ط: المطبعة الحجازية، بني لاغوداكس، الإسكندرية، سنة ١٨٩٠م.

(٢) الدكريتات جمع دكريتو، وهي معربة عن الإسبانية: (decreto) ومعناها أمر عالٍ، أو الظهير الشريف، أو المرسوم، أو القرار، فالدكريتات هي المراسيم الصادرة، وتختلف عن الأوامر العلية، فالكتاب المشار إليه والذي هو مجموع الأوامر العلية والدكريتات يشير إلىٰ الفرق المعلوم بين الإرادة السنية التي هي الأمر العالي، وبين الدكريتات التي هي المراسيم، حيث إن الإرادة السنية أو العلية تعني صدور القرار خالصا دون معاونة من أجهزة تابعة، فتنحصر المسؤولية والتصرف في الملك، فهو نوع من الحقوق الشخصية للسلطان، أما المرسوم فيأتي بناء علىٰ اقتراح من السلطات التنفيذية والتشريعية، فيكون المرسوم الملكي اعتمادا للقرارات المقدمة أساسًا من مجلس الوزراء تحت مسئوليته، دون أن يتحمل السلطان أدنىٰ مسئولية، وانظر: مجتمع علماء الأزهر في مصر /ص٤٧/.

(٣) وانظر نص القانون في: قاموس الإدارة والقضا /١٥٤/١ ـ ١٥٥/، من طبعة سنة ١٨٩٠م، وهو في /٧٠/١/ من طبعة سنة ١٨٩٩م.

لكن بقيت هناك حاجة لتنظيم الأمور المتعلقة بتوزيع المرتبات، ومنح كساوئ التشريف، ونيل بقية امتيازات العالمية، فمست الحاجة إلىٰ قانون آخر يضبط ذلك.

❁ فصدر القانون الخامس المتعلق بامتحان من يريد التدريس بالجامع الأزهر في ٢١ رجب، سنة ١٣١٢هـ، الموافق ١٨ يناير سنة ١٨٩٥م، وكان القانون مكونًا من خمس عشرة مادة، ومن لدن هذا القانون بدأ امتياز جديد في استحقاق المرتبات والوظائف، وهو أن يكون الطالب الذي تلقىٰ العلوم الإحدىٰ عشر المعينة له، قد تلقىٰ علومًا أخرىٰ كعلم الحساب، والجبر، والتاريخ، وأن ينجح في امتحان تلك الفنون[1].

❁ ثم صدر القانون السادس المختص بصرف المرتبات بالأزهر، بتاريخ ٦ المحرم سنة ١٣١٣هـ، الموافق ٢٩ يونيو سنة ١٨٩٦م، حيث وقع تنظيم المرتبات إلىٰ قسمين: سنوية وشهرية:

أما السنوية فهي بدل الكساوئ، ومثمن الغلال، وبدل الكساوئ كان تقليدًا قديمًا يرجع إلىٰ أن أكابر العلماء وبعض مشايخ السجادات من أهل الحسب كانوا يزورون محمد علي باشا في أول يوم من رمضان، تبريكًا بحلول الشهر، فيخلع عليهم خلعًا هي الكساوئ، وبعد انتقاله تنوسيت تلك العادة، إلىٰ زمن إسماعيل باشا، حيث اهتم شيخ الأزهر بإحيائها، فصدر الأمر الخديوي بربط بدلها نقودًا، باسم طائفة من أهل العلم بالجامع الأزهر علىٰ الدوام، تصرف علىٰ المستحقين من العلماء.

ومثمن الغلال كان في الأصل مرتبات قديمة من البر، كانت مخصصة لأهل الأزهر، يبلغ مجموعها ٩٦١٧ أردبًا في كل سنة، ثم انقطع الصرف حينا، إلىٰ أن صدر الأمر بصرف النقود، بدلا من القمح، وسمي ذلك البدل مثمن الغلال.

وأما الشهرية فهي المرتبات الآتية من أوقاف علىٰ الأزهر، أو أوقاف للأزهر فيها نصيب، وهي في إدارة ديوان الأوقاف، ومن إعانات رتبها أمراء مصر علىٰ التوالي للعلماء بالروزنامجة[2]، ومن أوقاف المحسنين.

---

(١) مجموعة الأوامر العلية والدكريتات الصادرة من أول يناير سنة ١٨٩٥م /ص٢٠ ـ ٢٤/، ط: المطبعة الأميرية، ببولاق مصر المحمية سنة ١٨٩٦م، وقاموس الإدارة والقضا /١/٧٢/ ط: سنة ١٨٩٩م.

(٢) الروزنامجة سجلات المالية، التي تسجل فيها حتىٰ عهد التنظيمات يوما بيوم مفردات الوارد والصادر أو الموارد والنفقات في الدولة مع الإيضاحات اللازمة، أما بعد عهد التنظيمات فقد عرفت السجلات التي تندرج فيها تلك المعلومات المالية باسم (يومية)، والروزنامجي متولي الحسابات اليومية والأعمال الجارية في الباب الدفتري بالخزينة العامرة بإستانبول، وكذا في القاهرة، وكانت الأموال الداخلة إلىٰ الخزينة أو الخارجة منها؛ من: نقود، أو ذهب، أو فضة، أو خلع، أو غيرها، تقيد في قلم الروزنامجي الكبير، وانظر: المعجم الموسوعي للمصطلحات العثمانية التاريخية /ص١٢٨/، ومصطلحات التاريخ العثماني /٢/٦٦٣/.

وقد ناقش مجلس الأزهر الأعلىٰ في جلسته المنعقدة بتاريخ الثلاثاء ١٧ رجب سنة ١٣٣٨هـ الموافق ٦ أبريل سنة ١٩٢٠م مذكرة عنوانها (بيان مصادر رواتب العلماء)، وفي المذكرة رصد تاريخي وتتبع حسن لأصول مصادر رواتب العلماء وكيف تطورت عبر التاريخ، خصوصًا بدل الكساوىٰ ومثمن الغلال، وتشتمل علىٰ معلومات نفيسة عن هذا الجانب من تاريخ الأزهر(١).

ۜ ثم صدر القانون السابع المختص بكساوىٰ التشريف بتاريخ ١٧ شعبان، سنة ١٣١٣هـ، الموافق أول فبراير، سنة ١٨٩٦م، اطرادًا لخطة الإصلاح في جميع مرافق الأزهر، وقسمت الكساوىٰ إلىٰ علمية ومظهرية، وكانت الكساوىٰ العلمية مخصوصة بالعلماء، والكساوىٰ المظهرية تمنح لمن يمتاز بعلو المنزلة بين الناس، مثل نقيب الأشراف، وشيخ مشايخ الطرق، وشيخ السجادة الوفائية، ومن يكون من أرباب البيوتات المنتسبة للعلم ومن أهله ولائقًا لنيل كسوة التشريف.

وفي هذه المادة أيضًا أن الكساوىٰ العلمية عددها مئة، وأنها تنقسم إلىٰ ثلاث درجات، ثم مواصفات من يستحق كل درجة، ثم كيفية التصرف عند انحلال درجة منها بموت صاحبها وإلىٰ من تتوجه بعده، ثم التنصيص علىٰ مواصفات الكسوة الرفيعة، حتىٰ ورد في المادة الثامنة ما نصه: (تصنع الكساوىٰ العلمية والمظهرية علىٰ العموم من جوخ بنفسجي غامق، محلاة بالقصب، حسب الطراز المعتبر الآن لكل درجة، ويكون لون قصب كساوىٰ العلماء أصفر، وقصب كساوىٰ أرباب المظاهر أبيض)(٢).

ۜ ثم صدر القانون الثامن المختص بالجامع الأزهر بتاريخ ٢٠ المحرم سنة ١٣١٤هـ الموافق أول يوليو سنة ١٨٩٦م، لتنظيم شئون المعاهد العلمية الدينية الأخرىٰ، كالجامع الأحمدي في طنطا، والجامع الدسوقي بدسوق، حيث جاء القانون لإلحاق تلك المعاهد بالأزهر، وبدأ القانون ببيان اختصاصات شيخ الجامع الأزهر، وتنظيم أمور مجلس الإدارة، وشروط الانتظام في سلك طلبة الجامع الأزهر، وقواعد التعليم وما أشبه(٣).

ۜ ثم صدر القانون التاسع في ٢ صفر، سنة ١٣٢٦هـ الموافق ٥ مارس، سنة ١٩٠٨م، بخصوص تنظيم الدراسة في الأزهر، وقد أدار الأمر في هذا أحمد شفيق باشا رئيس الديوان الخديوي، وكان يراجع القانون معه الشيخ محمد شاكر، والشيخ محمد حسنين مخلوف، وكان الأمر قد بدأ مع الإمام الشربيني لكنه ما لبث أن توفي، وتعين في المشيخة خلفًا له الإمام الشيخ حسونة النواوي، وكان في معاونته العلامة

(١) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٦/٤٩٢ ـ ٥٠٦/.

(٢) فهرست الأوامر العلية والدكريتات الصادرة في سنة ١٨٩٦/ص٧٩ ـ ٨١/، ط: المطبعة الأميرية ببولاق مصر المحمية، سنة ١٨٩٧م إفرنجية، ومجموعة القوانين واللوائح بالجامع الأزهر والمعاهد الدينية /ص١١٨/، ط: مطبعة الأزهر، سنة ١٣٧٠هـ ـ ١٩٥٠م.

(٣) طبع نص القانون في كتاب لطيف اسمه: قانون الجامع الأزهر سنة ١٣١٤ هجرية، (د ن)، (د ت).

الشيخ محمد حسنين مخلوف والعلامة الشيخ محمد شاكر، وكان في مقابلهم فريق من العلماء يتزعمه العلامة الشيخ محمد راضي، وبقي الأمر في شد وجذب منذ سنة ١٩٠٥م إلىٰ صدور الأمر الخديوي بالقانون، فانعقد المجلس الأعلىٰ للأزهر يوم ١٧ مارس سنة ١٩٠٨م وفق هذا القانون، وتقرر تشكيل لجان لامتحان سائر الطلاب في الأزهر، ووضعهم في السنين اللائقة بمعلوماتهم حسبما تقتضيه(١).

وكان مجلس النظار رأىٰ أن تشكل لجنة لمراجعته من شيخ الأزهر والمفتي وشيخ المالكية والشافعية والحنابلة وأحمد شفيق باشا، وبعد مناقشات طويلة من اللجنة وإدخال تعديلات عليه وافقت علىٰ المشروع.

وقد أسهب أحمد شفيق باشا في وصف ذلك في مذكراته إلىٰ أن قال: (وإني أحمد الله علىٰ توفيقي في خدمة العلم بالأزهر، وإذا لم ينجح قبلي المرحوم الشيخ محمد عبده في معالجة إصلاحه فذلك يرجع أولًا إلىٰ أن كبار العلماء كانوا يتذمرون من قبول رأي أحد تلامذتهم ولا يرضخون لما يقرره من الاصطلاحات التي لم يتعودوها، وخصوصًا في شأن العلوم الحديثة، التي كانوا يعتبرون أن في بعضها ما يخالف الدين، وثانيًا لأنه كان يترفع عنهم، ويعتدُّ بنفسه معتقدًا أنه أوفر منهم مقدرة وعلمًا.

أما أنا فكنت أحترمهم بتقبيل أيديهم وإكرامهم وملاطفتهم، وأجتهد في إقناعهم بألا رغبة لي إلا إصلاح حالهم ماديًّا وأدبيًّا، فكان يسهل عليهم الأخذ بآرائي، خصوصًا وقد كانوا يعلمون أنني أحظىٰ بتعضيد الخديو وحكومته، وهذه تعد الخطوة الثانية لإصلاح الأزهر)(٢).

والقوانين التسعة السابقة ليس فيها ما يمس جوهر المواد الدراسية، قال الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون: (وما زالت تتوالىٰ علىٰ الأزهر القوانين والأنظمة واللوائح، حتىٰ سنة ١٣٢٩هـ، ١٩١١م، ولم تكن في تلك القوانين واللوائح ما يمس جوهر المواد الدراسية، وإنما يتناول تنظيم بعض الحالات الداخلية في الأزهر، كحضور الطلاب، وصرف المرتبات، ومنح الكساوىٰ والتشريفات من ولي الأمر، وتعيين بعض المدرسين لدراسة الحساب والجبر والهندسة والجغرافيا والخط وغير ذلك)(٣).

(١) قانون الجامع الأزهر الشريف، المصدق عليه نهائيا من مجلس النظار، المنعقد تحت رئاسة الجناب العالي، في ٢ صفر، سنة ١٣٢٦هـ، ويليه: اللائحة الداخلية للمدارس الدينية العلمية الإسلامية، ط: مطبعة النيل، مصر، سنة ١٣٢٦هـ - ١٩٠٨م، وفهرست قوانين الحكومة المصرية الصادرة في سنة ١٩٠٨م /ص٣ - ١٣/، وانظر في آثار هذا القانون: الخطاب الديني في الصحف المصرية ١٨٨٢م - ١٩١٤م /ص١٥٧، وص١٩٨/، ط: دار الكتب والوثائق القومية، مصر، سنة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م، ومذكرات مجاور في الجامع الأحمدي /ص٢٦٣/، ودور الأزهر في السياسة المصرية /ص٢٤٥ - ٢٥٢/.

(٢) مذكراتي في نصف قرن /٢ القسم الثاني /١٣٦ - ١٤٠/، ط: مكتبة الآداب، القاهرة، سنة ٢٠٠٨م.

(٣) الجامع الأزهر نبذة في تاريخه /ص٤٣/، ط: مطبعة الأزهر، مصر، سنة ١٣٦٨هـ - ١٩٤٩م.

ثم تكونت لجنة إصلاح الأزهر المعمور سنة ١٩١٠م الموافق سنة ١٣٢٨هـ، وقدمت مشروع قانون كان عنوانه: (مشروع مقدم لصاحب العطوفة محمد سعيد باشا قائمقام الحضرة الخديوية ورئيس النظار)، وتعرض هذا المشروع في بدايته لاستعراض القوانين التسعة السابقة، وبيان ما فيها من مزايا أو وجوه قصور، ثم أرفق مشروع نظام جديد، ليكون دستورًا للعمل به في الجامع الأزهر، وجعل الباب الأول منه في الإدارة العامة وبيان اختصاصات شيخ الأزهر، والباب الثاني في التعليم وأنظمته وبرامجه وشئون الامتحان، وهيئة كبار العلماء، وتنظيم الميزانية وأرزاق الأزهر والجرايات والعمل على استبدالها بنقود، ثم الأحكام الوقتية[1].

وكانت اللجنة التي عكفت على دراسة هذا القانون وصياغته مكونة من وكيل الحقانية أحمد فتحي زغلول باشا، والنائب العمومي عبد الخالق ثروت باشا، ووكيل الداخلية إسماعيل صدقي باشا، وهذا القانون هو الذي اعتبره أحمد شفيق باشا الخطوة الثالثة لإصلاح الأزهر[2].

ثم عقدت لجنة برئاسة الخديوي، ورئيس النظار محمد سعيد باشا، وحسين رشدي باشا، وفتحي زغلول باشا، وشيخ الجامع الأحمدي، وشيخ معهد الإسكندرية، والشيخ أبو الفضل، وأحمد شفيق باشا، وتلي القانون، وتمت مناقشته، وأخذ بعد ذلك دورًا طويلًا في مجلس الشورى، انتهى بإقراره وصدوره في ٢٧ سبتمبر.

فصدر قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م، المعروف بقانون الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية[3]، ولأنه جاء مكملا للقوانين التسعة السابقة فقد عرف هو بقانون نمرة ١٠.

وأهم ما يميز هذا القانون أمران: أولهما: إلحاحه على أن صلبه وعماده قائم على اعتبار الأزهر أم المدارس الدينية الإسلامية في مصر، وفي اعتبار شيخه الإمام الأكبر لرجال الدين، وفي توزيع إدارة هذه الجامعة بين مجلس الأزهر الأعلى، ومجالس الإدارة، وأن شيخ الجامع الأزهر ونوابه ـ وهم شيوخ الجوامع الملحقة به كالجامع الأحمدي ـ هم أركان ذلك، وإعطاء كل واحد سلطة تناسب مركزه، وثانيهما: دخول العلوم الحديثة لنظام التعليم، كقواعد الصحة، والتاريخ الطبيعي، ونظام الإدارة والقضاء والأوقاف والمجالس الحسبية، والتوثيقات الشرعية، ودروس الأشياء (الفيزياء) وغير ذلك.

---

(١) مشروع قانون مقدم لصاحب العطوفة محمد سعيد باشا قائمقام الحضرة الخديوية ورئيس النظار، ط: المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٢٨م.

(٢) مذكراتي في نصف قرن /٢/٢٣٢، و٢٤١/.

(٣) قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م: قانون الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، ط: المطبعة الأميرية لمصر، سنة ١٩١١م، وانظر أيضا: فهرست قوانين الحكومة المصرية الصادرة في سنة ١٩١١م /٥٧ ـ ١٠٤/، ط: المطبعة الأميرية بمصر سنة ١٩١١م.

ولأجل هذه القضية بعينها كان قانون نمرة ١٠ يمثل منعطفًا ونقطة فارقة في تاريخ الأزهر الشريف، فصار الأزهريون يؤرخون للأزهر بالتفريق ما بين الأزهر قبل قانون نمرة ١٠، والأزهر بعد قانون نمرة ١٠.

ثم صدرت اللائحة الداخلية الشارحة لبنود هذا القانون في جمادىٰ الثانية سنة ١٩١١م، وصدق عليها مجلس الأزهر الأعلىٰ في جلسة جمادىٰ الثانية سنة ١٣٢٩هـ[١].

وقد ترتبت علىٰ قانون نمرة ١٠ أضرار، وأدىٰ إلىٰ ارتباك يمكنك أن ترىٰ شذرة منه في محاضر وقرارات مجلس الأزهر الأعلىٰ[٢].

قال الأستاذ الشيخ محمود أبو العيون السكرتير العام للجامع الأزهر والمعاهد الدينية بعد أن شرح شيئًا من فوائد هذا القانون: (وهذه الفائدة التي أفادها القانون رقم ١٠ لسنة ١٩١١م تعد ضيئلة بجانب الضرر الذي نجم عنه، فقد اضطر الطلاب ليفوزوا بالنجاح في الامتحان التحريري إلىٰ أن يعتمدوا علىٰ الحفظ والاستظهار، واستهانت المعاهد بالامتحان الشفوي، وقد شعر المهيمنون علىٰ التعليم في الأزهر منذ وضع ذلك القانون بأن الأزهر أخذ يفقد أهم خصائصه ومميزات تعليمه، ولم تخل تقارير لجان الامتحان ولا تقارير المفتشين في سنة من السنوات من الشكوىٰ من اعتماد الطلبة علىٰ الاستظهار، ومن ضعف ملكتهم العلمية، وقد توالت علىٰ هذا القانون تعديلات آخرها التعديل الذي أدخل عليه بالقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م، وهو أظهر تعديل طرأ عليه)[٣].

● ومن جملة تعديلات قانون نمرة ١٠ أن صدر قانون نمرة ٦ لسنة ١٩١٦م بزيادة عدد أعضاء مجلس الأزهر الأعلىٰ، لتعديل المادة التاسعة من قانون نمرة ١٠، فصدر هذا القانون في ٢٥ ربيع الثاني سنة ١٣٣٤هـ، الموافق ٢٩ فبراير سنة ١٩١٦م[٤].

ومن جملة تعديلاته قانون نمرة ٢٧ لسنة ١٩٢٠م، بتعديل المادة التاسعة من قانون الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، وقانون ٢٨ للسنة نفسها، وقانون ٣٨ للسنة نفسها:

والأول متعلق بجعل رأي شيخي معهدي الإسكندرية وطنطا أساسيًّا في التصويت بعد أن كان استشاريًّا في قانون نمرة ١٠، والثاني يعدل قانون نمرة ١٠ فيما يتعلق بهيئة كبار العلماء، ومواصفات من يترشح

(١) اللائحة الداخلية للمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، المصدق عليها من مجلس الأزهر الأعلىٰ بجلسة ٢٩ جمادىٰ الثانية، سنة ١٣٢٩هـ الموافق ٢٦ يونيو سنة ١٩١١م، ط: مطبعة ديوان عموم الأوقاف المصرية، سنة ١٣٢٩هـ - ١٩١١م.

(٢) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٤/١٩٥ - ١٩٧/.

(٣) الجامع الأزهر نبذة في تاريخه /ص٤٨/.

(٤) مجموعة القوانين والمراسيم المتعلقة بالشئون العامة سنة ١٩١٦م /ص١٤ - ١٥/، ط: المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩١٨م.

لعضوية الهيئة وكيفية اختياره، والثالث مختص بتعديل المادتين ١٠٩ و١١٧ منه، وهما متعلقتان برواتب أعضاء الهيئة(١).

ومن جملة تعديلاته أيضًا قانون نمرة ٢٣ لسنة ١٩٢١م بتعديل قانون الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية فيما يتعلق بنقل الموظفين والمدرسين والمراقبين(٢).

ومن جملة تعديلاته قانون نمرة ٢٩ لسنة ١٩٢١م، باشتراط حفظ القرآن كله على الطلبة عند انتسابهم إلى المعاهد الدينية(٣).

ومن جملة تعديلاته أيضًا قانون رقم ٤ لسنة ١٩٢٣م، بتعديل المادتين ٤٤ و٤٥ من القانون نمرة ١٠، بجعل امتحان العالمية تحريريًا وشفويًا في مقرر السنة الأخيرة فقط، فيما هو مقرر للقسم من الفقه والتوحيد والبلاغة التطبيقية(٤).

وممن اعتنى بقانون نمرة ١٠ وأورده مع هوامش مهمة فيها التنصيص في كل فقرة على التعديل الذي لحق بها في القوانين التالية الأستاذان أحمد محمد حسن بك مدير إدارة مكتب وزير الحقانية، وايزيدور فلدمان المحامي بقسم قضايا الحقانية، في كتابهما القيم: (مجموعة القوانين واللوائح المعمول بها في مصر)(٥).

۞ ثم صدر قانون نمرة ٣٣ لسنة ١٩٢٣م بإنشاء قسم للتخصص في الجامع الأزهر، نظرًا لأن الحاجة مست إلى ضرورة إيجاد قسم بالأزهر الشريف يدخله الطالب بعد العالمية، فصارت بموجبه أقسام التخصص ثمانية، ومدة التعليم في هذا القسم أربع سنوات، ويشترط لقبول الطالب فيه أن يكون حائزا لشهادة العالمية، ويقوم بالتدريس فيه هيئة كبار العلماء(٦).

۞ ثم صدر قانون رقم ١٥ لسنة ١٩٢٧م وبموجبه لم يعد تعيين شيخ الأزهر بمرسوم ملكي كما كان معتادًا سابقًا، بل صار بأمر ملكي، ويفترق المرسوم عن الأمر في أن الثاني يكون بناء على ترشيح رئيس

---

(١) مجموعة القوانين والمراسيم المتعلقة بالشئون العامة سنة ١٩٢٠م /ص٣٩ ـ ٤٢، وص٦٥/، ط: المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٢١م.

(٢) مجموعة القوانين والمراسيم المتعلقة بالشئون العامة سنة ١٩٢١م /ص٧٣/، ط: المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٢٢م.

(٣) الوقائع المصرية /العدد ١٠٥ للسنة الثانية والتسعين/ص١/ الصادر بتاريخ الخميس ٢٤ ربيع الأول، سنة ١٣٤٠هـ، ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢١م.

(٤) مجموعة القوانين والمراسيم والأوامر الملكية: الثلاثة شهور الأولى من سنة ١٩٢٣م /ص٣٢/، ط: المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٢٣م.

(٥) مجموعة القوانين واللوائح المعمول بها في مصر /ص٤٠ ـ ٦٧/، ط: مطبعة مصر، شركة مساهمة مصرية، سنة ١٩٢٦م.

(٦) مجموعة القوانين والمراسيم والأوامر الملكية: الثلاثة شهور الأولى من سنة ١٩٢٣م /ص٣٢/.

الوزراء، وتوفي الشيخ الجيزاوي فبقيت مشيخة الأزهر خالية مدة عشرة أشهر، ثم اختير الشيخ المراغي لمشيخة الأزهر بناء على هذا القانون، وكانت هناك تداعيات بين الوفد والأحرار الدستوريين، والبرلمان والحكومة والملك في ذلك، ثم اتجهت الأمور إلى أن يرجع تعيين شيخ الأزهر بالمرسوم الملكي، فاستقال الشيخ المراغي(١).

◉ ثم صدر قانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠م، وهو مكون من ستة أبواب، تشتمل على مئة مادة وواحد، وهو أظهر القوانين المعدلة لإشكاليات قانون نمرة ١٠، وهو قاض بإعادة تنظيم الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، في مشيخة الشيخ الظواهري، ورفع الأزهر من تبعية الحكومة، وأعاده إلى اختصاصات الملك، وبموجب هذا القانون نشأت الكليات الأزهرية وهي كلية الشريعة وأصول الدين واللغة العربية، وحضر افتتاحها الملك فؤاد، فكان هذا منعطفًا آخر في تاريخ الأزهر وحركة التعليم فيه(٢).

ومن هنا ولدت الجامعة الأزهرية، حتى عرف الشيخ الظواهري بأنه أبو الجامعة الأزهرية، وإن كان تعبير الجامعة الأزهرية أقدم من ذلك، حيث ورد في محاضر مجلس شورى القوانين سنة ١٩١١م، مرادًا به معنى آخر، حيث ورد ما نصه: (اعتبرت المعاهد الدينية الإسلامية الموجودة الآن بالقطر المصري مجموعًا تتكون منه جامعة واحدة، سميت «الجامعة الأزهرية»، نسبة إلى الجامع الأزهر، الذي هو أكبرها وأقدمها، وذكرت المعاهد الأخرى وهي الموجودة في الإسكندرية وطنطا ودسوق ودمياط، وذكر على وجه الإجمال الغرض من هذه الجامعة وهو تعلم العلوم الدينية وتعليمها على وجه يفيد الأمة، ويدخل في الجامعة كل معهد يؤسس في القطر المصري بإرادة سنية)(٣).

فالجامعة الأزهرية هنا ليست هي مجموع الكليات الشرعية الثلاث المنبثقة من الجامع الأزهري على ما استقر عليه الأمر ثم أضيفت إليه الكليات الأخرى في قانون ١٠٣ لسنة ١٩٦١م، بل المراد هنا بالجامعة الأزهرية الرابطة التي تنتظم فيها كل المعاهد العلمية الملحقة بالأزهر على مدار القطر المصري كله.

---

(١) نشر الدكتور مجاهد توفيق الجندي محاضر جلسات هذا القانون في دراسة مهمة عنوانها: الأزهر بين المراغي والظواهري: دراسة وثائقية تنشر لأول مرة، انظر: مجلة كلية اللغة العربية بالقاهرة /ص١٢٦٢ - ١٥٢٩/، العدد ١٩ الصادر سنة ٢٠٠١م.

(٢) مرسوم بقانون رقم ٤٩ لسنة ١٩٣٠ بإعادة تنظيم الجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، ط: المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩٣٠م، وانظر حول هذا القانون ومشتملاته وظروف صدوره في: السياسة والأزهر /ص٢٤٩ - ٢٥٤/، ط: دار الشروق، مصر، سنة ٢٠١١م، والوثائق الأرشيفية للأزهر الشريف والمعاهد الدينية /ص٩٦/ من قائمة الملاحق، والجامع الأزهر نبذة في تاريخه /ص٥٠/.

(٣) مجلس شورى القوانين، مجموعة محاضر دور انعقاد سنة ١٩١٠ - ١٩١١م /ص٢٦٤/، ط: المطبعة الأميرية، القاهرة، مصر، سنة ١٩١١م.

ثم صدرت سنة ١٩٣١م لائحة منظمة لهذا القانون، بشأن استخدام المدرسين والموظفين، وأجازاتهم، وتأديبهم، مكونة من ثلاثة أبواب، وثلاث وخمسين مادة[١].

۞ ثم رأى الشيخ المراغي عقب توليته مشيخة الأزهر سنة ١٩٣٥م أن يضع مشروعا لقانون إصلاح الأزهر، يفي بالآمال المرجوة للأزهر الشريف وأبنائه، فتقدم لولي الأمر بمرسوم قانون، معه مذكرة إيضاحية تبين أغراضه، ورُئِي أيضًا إدماج القانونين السابقين: ٤٩ لسنة ١٩٣٠م، و٣٧ لسنة ١٩٣٣م، مع إصلاح ما يحتاج إصلاحًا في أبوابهما.

فصدر من مجموع ذلك كله القانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦م الخاص بإعادة تنظيم الجامع الأزهر والكليات، وتم تعديله بمرسوم قانون رقم ٨١ لسنة ١٩٣٧م، وبقانون رقم ٦١ لسنة ١٩٣٨م[٢].

وقد جعل هذا القانون التعليم الأزهري أربع مراحل، مرحلة ابتدائية مدتها أربع سنوات، ومرحلة ثانوية مدتها خمس سنوات، ومرحلة الكليات وهي ثلاث: الشريعة، وأصول الدين، واللغة العربية، وثلاثتها تمنح الشهادة العالية، ثم شهادة العالمية، ثم العالمية من درجة أستاذ.

۞ ثم صدر القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م، وهو من القوانين المحورية في تاريخ الأزهر، فقد نشأت بموجبه جامعة الأزهر، بعد أن ظلت الكليات الثلاث تابعة لمشيخة الأزهر، وأضيفت الكليات العملية كالطب والهندسة.

۞ ثم صدر مرسوم بقانون رقم ١٣ لسنة ٢٠١٢م، بتعديل بعض أحكام القانون رقم ١٠٣ لسنة ١٩٦١م، بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التي يشملها، وفيه أعيد تشكيل هيئة كبار العلماء، وصارت مختصة بانتخاب شيخ الأزهر عند خلو منصبه، وترشيح مفتي الديار.

---

(١) مرسوم بشأن لائحة استخدام المدرسين والموظفين وأجازاتهم وتأديبهم بالجامع الأزهر والمعاهد الدينية العلمية الإسلامية، ط: المطبعة الأميرية بالقاهرة، سنة ١٩١١م.

(٢) مجموعة القوانين والمراسيم والأوامر الملكية للثلاثة الأشهر الأولى من سنة ١٩٣٦م /ص٨٧ – ١٣٢/، ومرسوم بقانون رقم ٢٦ لسنة ١٩٣٦م بإعادة تنظيم الجامع الأزهر، ط: مطبعة المعاهد الدينية، مصر، سنة ١٣٥٥هـ – ١٩٣٦م، والوثائق الأرشيفية للأزهر الشريف والمعاهد الدينية /ص١٢٠/ من قائمة الملاحق، ومذكرات مجاور في الجامع الأحمدي /ص٢٦٤/.

إِضَاءَةٌ

في تقدير عدد من زعماء السياسة والفكر وغيرهم للأزهر الشريف، والدعوة الملحة منهم إلى عدم عقوقه

من المتعذر أن يحيط الباحث بكلام الزعماء والساسة والمستشرقين والرحالة والباحثين عن الأزهر، لأن هذا أمر واسع جدًّا، ومتفرق في مصادر عربية وأجنبية، لكن الغرض هنا هو أن ألتقط باقة من كلامهم تعد أنموذجًا، يشير إلىٰ عمق ما تبين لهؤلاء من أثر وطني متجذر وضارب في أعماق التاريخ ووجدان أبناء الوطن، وغيرهم من الباحثين من غير المصريين.

❁ قال رفاعة الطهطاوي: (لما منَّ الله ﷺ عليَّ بطلب العلم بطلب العلم بالجامع الأزهر، والمحل الأنور، الذي هو جنة علم دانية الثمار، وروضة فهم يانعة الأزهار، كما قال أستاذنا العلامة العطار:

لازم إذا رُمْتَ الفضائل مسجدًا ... بشموس أنواع العلوم تنورا

فيه رياض العلم أينع زهرُها ... فلذلك المعنىٰ تسمىٰ الأزهرا

وقال بعضهم ـ وأحسن ـ بيتين، معرِّضًا بعلماء الحرمين:

ومن يغترب عن أزهر العلم فَلْيَنُحْ ... علىٰ بُعدِ دار العلم والعلماءِ

ففيه بحورٌ طامياتٌ، وغيره ... بحورُ عروضٍ لا تجودُ بماءِ

وحصلت ما يسر به علي الفتاح، مما يخرج به الإنسان من الظلام، ويمتاز به عن مرتبة العوام)(١).

❁ وقال الخديوي عباس حلمي: (من المعلوم أن الجامع الأزهر هو المدرسة العظمىٰ لدراسة العلوم، خصوصًا ما يتعلق منها بالديانة الحنيفية السمحاء، مع ماله من الأهمية والشهرة في أقطار العالم الإسلامي، وتوارد الطلبة إليه من سائر أرجائها لتلقي العلوم واكتساب الآداب)(٢).

❁ بل بلغ من شدة اعتداد الحكومة المصرية بالأزهر، ومعرفة قيمته العظمىٰ أن صدر في عهد

---

(١) تخليص الإبريز، في تلخيص باريز /ص٣/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، سنة ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٢) مجموعة الأوامر العلية والدكريتات الصادرة من أول يناير سنة ١٨٩٥م /ص١٧/، ط: المطبعة الأميرية، ببولاق مصر المحمية سنة ١٨٩٦م.

الملك فؤاد تقويم رسمي للدولة المصرية عنوانه: (تقويم لسنة ١٩٣٠م) يتناول جغرافية القطر المصري، ومساحته، وعدد سكانه، ومكونات حكومته، ووصف مختلف مصالحه وإداراته كالتعليم، والحقانية، والمالية، والداخلية، والري والأشغال العمومية وغير ذلك، فجاء فيه ما نصه: (لم يكن للجامع الأزهر مثيل في جميع الأقطار الإسلامية، ولشهرة علمائه وعظم مكانة التعليم الديني فيه عرف في المغربين وفي المشرقين بأنه الكلية الإسلامية الأولىٰ، والجامعة الدينية التي يستضيء كل مسلم بنورها، ويهتدي بهديها)[١].

۞ وقال الزعيم أحمد عرابي ﷺ: (وكان والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان عالمًا فاضلًا تقيًا، أقام بالجامع الأزهر ٢٠ سنة، تلقىٰ فيها الفقه والحديث والتفسير، وبرع في كثير من العلوم النقلية والعقلية، علىٰ كثير من المشايخ، كشيخ الإسلام القويسني ﷺ، وغيره من العلماء الأطهار)[٢].

۞ وأما الزعيم سعد زغلول فمن وفائه للأزهر الشريف أنه لما زاره سنة ١٩٢١م بعد عودته من منفاه، لأداء صلاة الجمعة فيه، خطب في علمائه وطلابه، فقال فيما قال: (جئت اليوم لأؤدي في هذا المكان الشريف فريضة صلاة الجمعة، وأقدِّم واجبات الاحترام لمكانٍ نشأت فيه، وكان له فضل كبير في النهضة الحاضرة، تلقيت فيه مبادئ الاستقلال؛ لأن طريقته في التعليم تربي ملكة الاستقلال في النفوس؛ فالتلميذ يختار شيخه، والأستاذ يتأهل للتدريس بشهادةٍ من التلاميذ، الذين كانوا يلتفون حول كل نابغ فيه، ومتأهل له، يوجه إليه كل منهم الأسئلة التي يراها، فإن أجاب الأستاذ، وخرج التلميذ ناجحًا من هذا الامتحان كان أهلًا لأن يجلس مجلس التدريس، وهذه الطريقة في الاستقلال ـ التي تسمىٰ الآن خللًا في النظام ـ جعلتني أتحول من مالكيّ إلىٰ شافعيّ؛ فقد وجدت علماء الشافعية في ذلك الوقت أكفأ من غيرهم)[٣].

۞ وقال مصطفىٰ صادق الرافعي: (الأزهر! هذه الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة الهرم، وفي كلتا اللفظتين يكمن سرٌّ خفيٌّ من أسرار التاريخ، تجعل بعض الكلمات ميراثًا عقليًا للأمة، ينسىٰ مادة اللغة فيها، ولا يبقىٰ منها إلا مادة النفس، إذ تكون هذه الكلمات تعبيرًا عن شيء ثابت ثبات الفكرة التي لا تتغير)[٤].

---

(١) تقويم لسنة ١٩٣٠م /ص١٠٧/، ط: المطبعة الأميرية، قلم نشر مطبوعات الحكومة، سنة ١٩٣٠م.

(٢) مذكرات الزعيم أحمد عرابي /ص٢٣/، ط: دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٨٣م، عناية العميد أركان حرب محمد فريد السيد حجاج.

(٣) سعد زغلول سيرة وتحية /ص٦١/، لعباس محمود العقاد، ط: مطبعة حجازي، القاهرة، سنة ١٣٥٥هـ ـ ١٩٣٦م، من نسخة عتيقة عليها خط عبد الرحمن الرافعي علىٰ غلافه، وبداخل الكتاب تعليقات كثيرة بخطه، يصحح فيها بعض الأحداث التي يذكرها العقاد.

(٤) وحي القلم /٣/٧٧٦/.

إلىٰ أن قال: (فالحجر في الهرم الأكبر يكاد يكون في العقل زمانًا لا حجرًا، وفنًّا لا جسمًا، والمكان في الأزهر يغيب فيه معنىٰ المكان، وينقلب إلىٰ قوة عقلية ساحرة).

❁ وأما الدكتور طه حسين فقد قال: (وكذلك تنشأ الأجيال علىٰ الخطأ والجهل والعقوق، ويستقر في نفوس الناس أن الأزهر شيءٌ قديمٌ له قيمة التراث، فينبغي أن يحتفظ بهذه القيمة، وألا يطمع في أكثر منها، وينبغي قبل كل شيءٍ ألا يقوم عقبةً في سبيل الرقي والتقدم والإصلاح.

وهذا الكتاب الذي أقدمه مغتبطًا بتقديمه إلىٰ القراء مصلحٌ لهذا الخطأ، مزيلٌ لهذا الجهل، مُنَقٍّ للنفوس من هذا العقوق، لأنه يظهر في أوضح الوضوح وأجلىٰ الجلاء أن الأزهر لم يكن مشرق النور في عصورنا القديمة وحدها، وإنما هو مشرق النور في العصر الحديث)[(١)].

إلىٰ أن قال: (كان من أبنائه من شارك في إنشاء مدرسة الطب القديمة، ومن شارك في مدرسة الألسن، ومن شارك في إنشاء الجامعة المصرية، حين كانت تسمىٰ بهذا الاسم، ومنه أنشئت معاهد كانت أشد به اتصالا، بعضها لا يزال قائما إلىٰ الآن، كدار العلوم، وبعضها لم يكد يخرج منه حتىٰ عاد إليه كمدرسة القضاء.

وهو قد استأثر في وقت غير قصير بالسيطرة علىٰ النشاط الثقافي الحديث في مصر، وما زال مشاركًا أقوىٰ المشاركة في السيطرة علىٰ النشاط الثقافي المعاصر، وهو لم يدع ميدانًا من ميادين الإصلاح إلا برز فيه، وأحرز الفوز كل الفوز، فهو قد شارك في الإصلاح السياسي علىٰ اختلاف أطواره، وما يزال يشارك في هذا الإصلاح، وشارك في الإصلاح الاجتماعي، وما يزال يشارك فيه أقوىٰ المشاركة.

وكل خلاف بين القديم والجديد، وكل خصومة بين التقدم والمحافظة، وكل صراع بين النشاط والجمود، فإنما نشأ في الأزهر، ونما في الأزهر، بين الأزهريين أنفسهم أول الأمر، ثم بين الأزهريين وغيرهم بعد ذلك)[(٢)].

قال العلامة الجليل السيد محمد عبد الحي الكتاني في: (الإفادات والإنشادات): (اجتمعت في باريس ـ لما قصدناها بقصد الحضور في المؤتمر العالمي للمستشرقين ـ بالطائر الصيت في العالم العربي، عضو مجمع فؤاد الأول، وعميد كلية الآداب سابقًا ووزير المعارف لاحقًا الدكتور طه حسين المصري، فاستهواني بلطف وسيلان فكره، وحرصه علىٰ ما يسمع أكثر من حرصه علىٰ ما يقول).

(١) وانظر عبارته هذه أيضا في: الأزهر في سطور /ص١٠/، ط: مكتب شيخ الأزهر للشئون العامة، مصر، سنة ١٣٧٨هـ ـ ١٩٥٩م.

(٢) من مقدمة الدكتور طه حسين لكتاب: الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة /ص: د/، ط: المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف، القاهرة، سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

ثم قال الكتاني: (وقال لي الدكتور أيضًا عن الأزهر والأزهريين إنهم اليوم أسرفوا في مجاراة المدارس الحديثة، حين تركوا أو كادوا ينسون تقاليد الأزهر في العلوم اللسانية والأدبية والدينية، قال: وذلك خطر وأي خطر على الثقافة العربية، قال وأنا اليوم أَجُرُّ الكليات والجامعات المصرية للتقاليد القديمة والعلوم القديمة، لأنها التي تحفظ علينا طرق التعليم الصحيحة البعيدة الغور)(١).

❁ وأما الأستاذ أحمد لطفي السيد، فقد قال الأستاذ الشيخ منصور علي رجب: (وبهذه المناسبة أسجل شهادة لأستاذنا الجليل أحمد لطفي السيد، فقد سمعته مرة يقول: «إن العقل الأزهري إذا مسته العلوم الحديثة كان أقوى عقل»، واستشهد بسعد زغلول وطه حسين، وما ذلك إلا لتنشئته على الدقة في الفهم وتعويده أن يكون فقيه النفس)(٢).

❁ وأما الأستاذ عباس محمود العقاد فقد قال: (قد كانت القاهرة تحسب عاصمة الإسلام، وكان ملوك الإفرنج يخاطبون سلطانها باسم أمير الإسلام، إذ انتحل أحدهم لنفسه لقب الإمارة على المسيحيين، وكانت مصر طليعة الجيوش الإسلامية في مقاومة الصليبيين، وبيت المقدس تابع لها في أيام تلك الحروب، ومضى زمن على العالم الإسلامي في القرون الوسطى وهو لا يعرف قبلة لعلوم الدين أولى بالرحلة إليها من الجامع الأزهر)(٣).

❁ وفي خطاب الرئيس جمال عبد الناصر في احتفال الأزهر بتوقيع اتفاقية الجلاء في ٢٥ أكتوبر سنة ١٩٥٤م، في قاعة المحاضرات بالأزهر، قال: (ولا يسعني في هذه المناسبة إلا أن أذكر جهاد الأزهر على مر السنين؛ فقد حمل الأزهر دائما الرسالة، ولم يتخلَّ أبدًا عن الأمانة، وكافح كفاحًا مريرًا في سبيل الحصول على حرية الوطن، كافح الأزهر في أيام الحملة الفرنسية، وقاسى رجاله، وعذبوا وقتلوا وشردوا، واقتحم المحتلون الأزهر، فلم يتأخر الأزهر عن حمل رسالة الجهاد والكفاح لتحرير الوطن وبلاد العروبة والإسلام، واستمر الأزهر يحمل الرسالة حتى سلمها إلى الجيش، إلى عرابي الذي قام متسلحًا بروح الأزهر ليطالب بحقوق الوطن.

وما إن دخل الإنجليز أرض مصر حتى حاولوا أن يقضوا على الأزهر ورسالته، كما حاولوا أن يقضوا على الجيش ورسالته وقوته.

واستمر الأزهر يكافح على مر الأيام حتى حمل الأمانة مرة أخرى عام ١٩١٩م، وحمل الرسالة، وأرادوا أن يفرقوه شيعا وأحزابا، وأرادوا أن يحطموا الجيش ويحطموا الأزهر)(٤).

---

(١) الإفادات والإنشادات، وبعض ما تحملته من لطائف المحاضرات /ص٤٣٢/.
(٢) تأملات في فلسفة الأخلاق /ص١٧/، ط: مطبعة مخيمر، القاهرة، سنة ١٩٥٣م.
(٣) الإسلام في القرن العشرين: حاضره ومستقبله /ص٥٦/، ط: نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة.
(٤) مجموعة خطب وتصريحات وبيانات الرئيس جمال عبد الناصر القسم الأول ٢٣ يوليو ١٩٥٢م - يناير سنة ١٩٥٨م /ص٢٣٤/.

وفي كلمة الرئيس جمال عبد الناصر بمناسبة افتتاح القسم العالي في الجامع الأزهر قال: (في إطار التاريخ الإسلامي، وعلىٰ هدي من رسالة محمد ﷺ: قام الشعب المصري بأعظم الأدوار دفاعا عن الحضارة والإنسانية، فتحمل المسئولية الأدبية في حفظ التراث الحضاري العربي وذخائره الحافلة، وجعل من أزهره الشريف حصنًا للمقاومة ضد عوامل الضغط والتفتت، ولم تكن الحملة الفرنسية علىٰ مصر هي التي صنعت اليقظة المصرية؛ فإن هذه الحملة وجدت الأزهر يموج بتياراتٍ جديدة، تتعدىٰ جدرانه إلىٰ الحياة في مصر كلها)(١).

❁ وقال جوستاف لوبون في: (حضارة العرب): (إن الأزهر نال شهرة عالمية في أرجاء العالم الإسلامي، حيث قصده الطلاب أفرادًا وجماعات، وكيف لا يقصدونه، وهو الملجأ الأخير لعلوم العرب في الشرق)(٢).

وقال بيارد دودج في كتاب: (الأزهر في ألف عام): (ومما يثير الفخر والإعجاب أن نرىٰ خريجي الأزهر قد حملوا مشاعل الثقافة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف، وأنَّ الأزهرَ نفسه كان المنارة التي تشع النور في العالم، من سيبريا إلىٰ نيجيريا، ومن مراكش إلىٰ الصين، قبل أن يسمع الناس بأمريكا، أو الكشف عنها بعد، كما كانت البقاع الشمالية من أوربا تعيش في تيه الضلالة والجهل، برابرة بدائيين)(٣).

ولو ذهبنا ننتقي عددًا من أعلام الفكر والسياسة ومشاهير المستشرقين، لنستخرج كلامهم المعبر عن عظيم تقديرهم للأزهر، وهم من خارج البيئة الأزهرية، لوجدنا أمامنا قدرًا عظيمًا من كلامهم، يصلح أن نجمعه في كتاب مستقل، يكون مرآة صادقة في وصف صورة الأزهر في أذهانهم.

(١) كلمات بمناسبة افتتاح القسم العالي في الجامع الأزهر /ص٧/، ط: مطبوعات جامعة الأزهر، القاهرة، سنة ١٩٦٥م.
(٢) حضارة العرب /ص٢٣٢/.
(٣) الأزهر في ألف عام (دودج) /ص١٧٥/.

إِضَاءَةٌ

في دور الأزهر الشريف في بناء الشخصية المصرية وتثبيت دعائمها

بين الشخصية المصرية وبين النشاط العلمي للأزهر الشريف تضافر عميق، حيث نسجت مع مرور الزمن علاقات بينية متجذرة، وعروة وثقىٰ لا تنفصم، بين هذين الأمرين(١).

ورغم كلِّ ما قيل عن الأزهر الشريف، وعن دوره العلمي، والثقافي، والسياسي وغير ذلك من أوجه النشاط التي قام بها الأزهر أو ترتبت علىٰ وجوده وانتشار علمائه، فإنني أَلْفت النظر هنا إلىٰ قضية أخرىٰ، شديدة الأهمية في تصوير أثر الجامع الأزهر ومناهجه الدراسية في صناعة عقلية الإنسان المصري، وصياغة شخصيته، وتكوين طريقة تفكيره، وتحليله للأحداث، ونظرته للدنيا، وتقييمه للأمور، فقد ظل الجامع الأزهر ولعدة قرون هو المرجع العلمي الوحيد الذي يكون الحركة العلمية والثقافية في مصر.

وقد كانت في مصرَ عبر تلك القرون مدارسُ ومراكزُ علميةٌ في طول مصرَ وعرضها، فقد كانت هناك بيئةٌ علمية في قوص، وفي أرمنت، وفي جرجا، وفي طهطا، وفي أسيوط، وفي الإسكندرية، وفي طنطا، وقد رأيت أطرافًا منثورةً في تراجم العلماء، تُصَوِّرُ لمحاتٍ من أخبار تلك المدارس، وأرىٰ أنها تحتاج إلىٰ تتبعٍ وكشف، وإلىٰ رصدٍ لتلك المدارس العلمية وأعلامها ومناهجها الدراسية، وآثارها علىٰ البيئات والمجتمعات المحيطة بها، فإن هذا كفيلٌ بكشفِ كنوزٍ مدفونة من آثار مصر العلمية.

ورغم كل ذلك فقد ظل الجامع الأزهر أبرز المدارس العلمية في بر مصر، وأكثرها شهرة، وظل يمثل القيادة العلمية، والمرجعية الكبرىٰ، التي تصنع فكر المصريين، وطرائق تحليلهم وتفكيرهم زمانًا طويلًا.

---

(١) منذ أواخر سنة ٢٠١١م انقدحت لي فكرة الغوص في دراسة العلاقة بين الأزهر الشريف والشخصية المصرية، وكتبت فيها عدة أشياء، وطلبت من فضيلة الدكتور رشوان أبو زيد محمود الأزهري أن يكتب ورقة بحثية نشرت في إصدارات مكتب رسالة الأزهر، فكتب بحثًا مهمًّا كان عنوانه أيضا: (الأزهر الشريف وعلاقته بالشخصية المصرية)، وظللت علىٰ مدىٰ تلك السنوات أظن أنني مبتكر هذا الباب من البحث، حتىٰ اطلعت اليوم ١٦ يوليو سنة ٢٠١٧م في العدد التاريخي الصادر من مجلة (منبر الإسلام) /ص٢٩ ـ ٣٢/ بمناسبة العيد الألفي للأزهر، والصادر بتاريخ جمادىٰ سنة ١٤٠٣هـ الموافق مارس سنة ١٩٨٣م علىٰ مقال مهم للدكتور محمد أبو الأنوار الأستاذ بكلية العلوم جامعة الأزهر عنوانه: (الأزهر والشخصية المصرية)، فأسجل هنا كل اعتزاز وشكر لهذا المقال ولكاتبه، وأتراجع خطوة لأقدمه، ولأعتبره صاحب السبق إلىٰ اقتناص هذه الفكرة.

كان الجامع الأزهر عبر القرن الحادي عشر، والثاني عشر وما بعد مجمعًا علميًّا فريدًا، له ثقلٌ وجذبٌ لأكابر العلماء، ولأرباب الفكر، يأوي إليه العلماء والوجهاء من المصريين ومن أهل الآفاق والأقطار الإسلامية، فكان له تميزٌ لا يوجدُ في أي بيئة من البيئات العلمية المحدودة الموجودة في مصر في تلك الأزمان.

ولم تكن قد أُنشئت فروعٌ للجامع الأزهر في ربوع مصر، حتىٰ كانت أوائل القرن الماضي حيث أنشئ معهد الإسكندرية، ومعهد فؤاد الأول في أسيوط، بالإضافة إلىٰ الجامع الأحمدي في طنطا، وكانت المدارس العلمية الموجودة في جرجا وطهطا وغيرها مدارس مستقلة، تدور في فلك الأزهر، وتدرس علومه وكتبه، بل كان الأكثرون من علماء تلك المدارس ومشايخها يتخرجون في الأزهر الشريف، حتىٰ إذا ما رجعوا إلىٰ ديارهم تكونت حولهم بيئة علمية محدودة، أو تصدروا في مدرسة من المدارس المذكورة.

وقد كان الواحد من الناشئين إذا أراد أهلُه تعليمه أدخلوه الكُتّاب ليحفظ القرآن، ويحصل المعارف الأولية، ثم ينتقل إلىٰ القاهرة لينتظم في الجامع الأزهر الشريف للدراسة، بل وربما كان الدارس منهم يقطع شوطًا في البيئات العلمية القريبة منه، ثم يترقىٰ بعدها للسفر إلىٰ الأزهر لإكمال الدراسة فيه.

وانتبه معي إلىٰ أننا نتكلم عن فترةٍ لم تكن فيها وسائل التواصل من مواصلات واتصالات قد تطورت علىٰ النحو المعهود المألوف في زماننا، فلم تكن في تلك الأيام قطاراتٌ، ولا سياراتٌ، ولا طائراتٌ، ولا صحفٌ، ولا إذاعات، فقد كان التواصل المعرفي وسريان العلوم والأخبار والأحداث بطيئًا إلىٰ حد ما، لا يقارن بما هو موجود في زماننا هذا، من تسارع وتلاحم وسريان معرفي لحظي.

ولو أنك تمكنت من تصور زمانٍ مجردٍ من كل وسائل التواصل المذكورة، واستطعت أن تتخيل المجتمع كيف كان يعيش ويتواصل حينئذ، لأمكنك أن تفهم كثيرًا من الأحداث والظواهر.

في ذلك الزمان كان الأزهرُ هو المركزَ العلميَّ الأشهر البراق، الذي تهوي إليه الأفئدة، وتتعلق به آمال ذوي الطموح، ولم تكن له فروع كما ذكرنا من قبل، فكان يجتمع في رقعة الجامع الأزهر والمساجد المجاورة له عشرة آلاف طالب، كما ذكر العلامة علي مبارك باشا في: (الخطط التوفيقية)، وذكر هذا العددَ أيضًا العلامةُ السيد محمد بن جعفر الكتاني في: (الرحلة السامية، إلىٰ الإسكندرية ومصر والحجاز والبلاد الشامية)، وهو مطبوع، وهو يسوقه سماعا من شيخ الإسلام وشيخ الأزهر العلامة عبد الرحمن الشربيني، وقد سبق الحديث عن ذلك بالتفصيل في الفصل الخاص بضخامة أعداد الطلاب المنتسبين للأزهر.

وقد كانت الدراسة حينئذ تعمر في الأزهر مدة عشرة أشهر من كل عام، حيث تتوقف الدراسة من

منتصف شهر شعبان إلىٰ منتصف شهر شوال، حتىٰ ورد في: (الأوامر العلية لسنة ١٨٩٨م) ما نصه: (تبتدئ السنة الدراسية في الجامع الأزهر من اليوم الحادي عشر من شهر شوال، وتنتهي في اليوم العشرين من شهر شعبان)[1]، فينصرف الدارسون إلىٰ بلدانهم، وقد كان من هؤلاء الدارسين عدد ضخم من أبناء الأقطار الإسلامية المختلفة، وكان من المصريين من لا يرحل إلىٰ بلده في أوقات توقف الدراسة، لكن لا أقلّ من خمسة آلاف عالمٍ أزهريٍّ ينتشرون في كل ربوع مصر، وكفورها، ونجوعها، ومدنها، وقراها، مع كل ما يمثله العالمُ الأزهريُّ حينئذ من جلالٍ، ووقارٍ، ومعرفةٍ، وعلمٍ، لا سيما وهو عائدٌ إلىٰ أهل بلدته من القاهرة، فيحرصون علىٰ معرفة ما عنده من أخبار مصر وأسواقها، وأنماط المعيشة فيها، وأحداث السياسة، وأخبار الحكام، والثورات، والأحداث، وغير ذلك مما لا يستطيعون متابعته، لعدم توفر الصحف، والإذاعات، ووسائل المواصلات اليومية كالقطارات والسيارات، فقد كان ذلك العالمُ الأزهريُّ الوافدُ علىٰ أهل بلده من القاهرة نافذةً يطلون من خلالها علىٰ العالم.

فقد توفرت إذًا الدواعي الكثيرةُ المتداخلةُ، علىٰ شدة اهتمام الناس بالعالمِ الأزهريِّ، وقد كان وقتُ رجوعه إلىٰ بلده من القاهرة موسمًا تنكبُّ القرية بأكملها علىٰ تَرَقُّبه، وكان يومُ نزوله إلىٰ البلدة عيدًا ومهرجانًا، يتسامع به الناس، ويهتمون به، لا سيما وهو ممزوجٌ بما يمثله العالمُ الأزهريُّ من مرجعيةٍ دينيةٍ، ومرجعيةٍ فكريةٍ، يرشد الناس، ويعلمهم، ويفتيهم، ويقضي بينهم، ويتعرض لقضاياهم، وأحداث حياتهم، ثم إن رجوعه مقترن بأيام مباركة وأزمان تنتعش فيها الروح الإيمانية، فقد كان يقيم في قريته منتصف شعبان، وشهر رمضان بأكمله، ومنتصف شوال، وهي شهور إقبال وعبادة.

فقد كان يحصل في مصر في تلك الفترة من كل سنة تحركٌ، وانتعاشٌ، وإحياءٌ للمعرفة، والتدين، والثقافة، ولك أن تتخيل خمسة آلاف علىٰ الأقل ينتشرون في القرىٰ والمدن محدثين ذلك الأثر.

ثم إن ذلك العالِم الأزهريَّ كان يقضي نهاره في الدروس، والفتاوىٰ، وتعليم الناس، حتىٰ إذا ما صلىٰ الناسُ العشاء برز الشيخ إلىٰ الناس في مجلس عند منزله، فيجتمع الوجهاء والأعيان والعوام، يتجاذبون معه أطراف الحديث، وأخبار القاهرة والدنيا، فضلا عن فهم أحكام الشرع الشريف.

ولا تنس أن ذلك العالِمَ الأزهريَّ كان يتعلم العلوم العقلية والنقلية، وكان يتلقىٰ علوم اللغة، وعلوم المعقول من الأصول والكلام والمنطق، والتي هي علوم تحليل وفهم، فكأن عقله قد تعلم التفكير المنضبط المنهجي، فكان كل ذلك ينضح ويسري منه إلىٰ عامة الناس، عندما يخالطونه، ويناقشونه، ويستفتونه، ويسمعون كلامه، فيتعلمون من وراء المسائل طريقة للفهم، ومنهجًا للتعامل، وأسلوبًا للتفكير.

(١) مجموعة الأوامر العلية والدكريتات الصادرة من أول يناير سنة ١٨٩٨م /ص١٤٧/، ط: المطبعة الأميرية في بولاق مصر المحمية، سنة ١٨٩٨م.

ويترتب علىٰ ذلك كله أن العقلَ الجماعيَّ المصريَّ كان يجري عليه تعديلٌ، وتحويرٌ، وضبطٌ، وتصحيح لطريقة الفكر، من خلال تلك المداخلة، مما يسهم في تثبيت شخصية الإنسان المصريِّ، ويسري ذلك إلىٰ منظومة أخلاقه، وطريقة تفكيره، ونمط حياته، ونظرته إلىٰ الدنيا وإلىٰ الأحداث من حوله.

وخذ مثالا علىٰ ذلك ما تحدث عنه الزعيم أحمد عرابي في مذكراته، حيث ذكر نبذة عن والده العالم الأزهري الشيخ محمد عرابي بن السيد محمد وفي بن السيد محمد غنيم الحسيني الأزهري، ثم ذكر لمحة من أثره الحميد في قريته، وفي رفع حالة التعليم فيها، وصناعة الوعي، وتنوير العقول، ومحاربة الأمية، حيث تكلم عن قريته هرية رزنة، ثم قال: (وكان والدي ﷺ شيخًا عليها، إلىٰ أن توفي في شهر شعبان، سنة ١٢٦٥هـ)، ثم قال: (وكان والدي عليه سحائب الرحمة والرضوان عالمًا فاضلًا تقيًّا، أقام بالجامع الأزهر ٢٠ سنة، تلقىٰ فيها الفقه والحديث والتفسير، وبرع في كثير من العلوم النقلية والعقلية، علىٰ كثير من المشايخ، كشيخ الإسلام القويسني ﷺ، وغيره من العلماء الأطهار).

إلىٰ أن قال وهو المقصود عندي هنا: (ولما آلت إليه وظيفة الشياخة علىٰ عشيرته: جدد عمارة المسجد المنسوب إلىٰ عشيرته بالقرية المذكورة، وفيه أربعة أعمدة من الحجر الصوان القديم، ومنبر من الخشب عجيب الصنعة.

وأنشأ بجوار المسجد مكتبًا لتعليم القرآن الكريم، وجعل له فقيها صالحًا عالمًا يسمىٰ الشيخ نجم، من سلالة السيد العزازي، وألزم الأهالي بتعليم أولادهم، وكان ﷺ يشدد عليهم في ذلك، حتىٰ صار نحو نصف تعداد الناحية المذكورة يحسنون القراءة والكتابة، وكل منهم يعرف واجباته الدينية، ومنهم نحو مئة وخمسين فقيهًا عالمًا)[(١)].

وأقول: فهذه صورةٌ ناصعةٌ ودقيقةٌ من صور صناعة الأزهر الشريف لشخصية الإنسان المصري، حيث إن هذا النموذج كان يتكرر في مختلف القرىٰ والنجوع المصرية، فإذا بالعلماء الأزهريين يحرصون علىٰ رفع الحالة المعرفية للقرية المصرية، وسريان نور التعليم والمعرفة فيها، وإكساب كل إنسان حالة من الوعي وشيئا من القدرة علىٰ الوصول إلىٰ المعرفة، حتىٰ يذكر أحمد عرابي باشا أن والده كان يلزم الأهالي بتعليم أولادهم، فانظر إلىٰ شدة الحرص علىٰ التعليم، وما كان يكتفي بالإلزام، بل يقول: (وكان يشدد عليهم في ذلك)، مما يكشف عن شدة شغفه وتشوفه وحرصه علىٰ سريان حالة التعليم، والتصدي

(١) مذكرات الزعيم أحمد عرابي /ص٢٣/، ط: دار المعارف، القاهرة، سنة ١٩٨٣م، عناية العميد أركان حرب محمد فريد السيد حجاج.

لما قد يحدث من ممانعة بعض الأهالي لتعليم أولادهم، ثم يصف أثر هذه الهمة الشريفة على حالة القرية، حيث يذكر أن نصف تعداد الناحية تقريبا صاروا يحسنون القراءة والكتابة، ويعرفون واجباتهم الدينية التي هي حب الوطن، والحرص على عمرانه ونماء الخير فيه وزراعة أرضه لتنمية الخير والنماء، وإكرام الضيف، وإطفاء نيران الفتن والثارات، وإقامة فرائض الله تعالى وسننه.

وأضرب هنا مثالا أعجب وأغرب، ألا وهو الشيخ أحمد علي الشرقاوي، والذي حول قرية هورين سنة ١٩٠٣م وما بعدها إلى مركز نهضة علمية كبيرة، قال محمد عبد الجواد في: (مذكرات مجاور): (هذا الاسم رمز النهضة العلمية في هورين، هو باعثها ومحييها، وهو موجهها الاتجاه الحديث الذي اتجهته في الثلث الأول من القرن العشرين.

نعم كان بالقرية ثلاثة من خريجي دار العلوم، وهم المرحومون المشايخ: محمود ضيف بك، وإسماعيل خليل، وعبد الله خليل، ولكن الأولين لم يقيما بها، وكذلك كان المغفور له الشيخ محمد ماضي الرخاوي وكان من خيار العلماء الصالحين).

ثم قال: (كان الشيخ أحمد الشرقاوي ذكيا، وعلى جانب من العلم عظيم، ولكنه لم يحظ بنيل الشهادة الرسمية، شهادة العالمية.

لهذا عمد الشيخ الشرقاوي وقد يئس من حصوله على شهادة العالمية إلى سلوك طريق في التعليم خاصة، غير الطريق التي كان يسلكها العلماء في الأزهرين، فالكتاب الذي يقرؤونه في سنة طويلة يتمه في شهرين، تاركًا التمحكات اللفظية إلى جوهر المعنى ولب الموضوع.

فيلخص الدرس، ويفسر المتن بلا كلفة ولا مشقة، ثم يعود فيقرأ مع الشرح التعليق على ما يراه في حاجة إليه، وإجمالًا كان يسهل وييسر سبيل العلم إلى المشتغلين بتحصيله.

وقد توافد الطلاب من القرى حول هورين، فكثر عددهم في الجامع، واكتفى الشيخ بالتدريس لكبار الطلبة، وعهد إلى بعض هؤلاء الطلاب النابهين بدراسة كتب صغيرة لصغار الطلبة والمستجدين.

وبهذه الطريقة أسس معهدًا صيفيًا كان على رأسه من يدير دفته، وكل من فيه متطوعون، فنشطت الحركة العلمية نشاطًا كبيرًا في هذه القرية، والقرى حولها، من كفر هورين، وكفر عليم، وحنون، وكفر أكلا الباب، حتى وفد إليه من طنطا أحد كبار الموظفين «الأستاذ أحمد خلف الله المراقب المساعد لمنطقة غرب الدلتا»، وبعض أقارب الشيخ من مديرية الشرقية، فكان مسجد سيدي حسين عامرا في كل صيف كأحسن معهد ديني علمي رسمي.

لم يكتف الشيخ الشرقاوي بشغل الطلاب في الصيف، بل شجع كثيرا منهم على اللحاق بمدرستي دار العلوم والقضاء الشرعي، والضعاف منهم بمدارس المعلمين الأولية في أنحاء القطر، وبذلك انتشرت الثقافات الحديثة، وفتح أبواب الرزق في وجوههم.

ولم يقتصر على هذا، بل كان يذهب إلى كل والدة تضع ولدًا في بلده، فيعاهدها على أن تهب ابنها للعلم، وكان يساعد الفقراء والمحتاجين منهم في رحلته إلى الأزهر أو إلى المدارس، حتى إنه كان يتخذ بالقاهرة سكنًا له وللطلاب معه، يكون في ربع أو في منزل من منازل المماليك ذات الردهات الواسعة، وينظم في هذا المسكن إدارة لمعيشة الطلاب ودراستهم وامتحانهم، ونومهم، إدارة دقيقة، كأنها مدرسة داخلية غاية في النظام)(١).

وقد ظل الشيخ أحمد علي الشرقاوي قائما بهذا النشاط من سنة ١٩٠٣م إلى أن توفي في يونيو سنة ١٩٣٨م، فلم يخرج من تحت يده شخص تكفيري يقتل الناس ويحمل السلاح، ولم تخرج من تحت يده تيارات كالإخوان أو داعش، بل رغّب الناس في العلم بمختلف صوره، وحثهم عليه، وساعدهم، وأنفق من ماله، وبذل الكثير في سبيل ذلك، وفتح أبواب الرزق في وجوه الناس، وشاع له بين الناس أطيب الأثر، وأحبه الناس وقدروه لما يبذله ويتحمله، لقد كان رجلًا صادقًا رحيمًا، ورغم أنه درس في الأزهر ولم يحصل على العالمية إلا أنه عكف على تدريس كتب الأزهر وعلومه، ولم يقصر الناس عليه، بل دفعهم للتعلم بأي صورة كانت، فحثهم على دخول الأزهر أو دار العلوم أو مدارس المعلمين الأولية أو مدرسة القضاء الشرعي، فكان صاحب همة خارقة، وصبر عجيب، وشغف كبير بالعلم، وحرص على محاربة الأمية والجهل، وتنوير العقول.

لقد كان هذا العالم الجليل وأمثاله أبواب رحمة وأمان في مختلف القرى والنجوع، ولما أن لمس الناس منهم الصدق والأمان، وأنه يقوم بكل ذلك مخلصا لنفعهم وإفادتهم، ولا غرض له، وأنه لم يخدعهم أو يسلك بهم في سبيل ينتهي بهم إلى الخطر والدماء وثقوا فيه، وأحبوه، حتى يقول محمد عبد الجواد: (ومجرد ذكر اسم الشيخ الشرقاوي يدعو للإطراق والتفكير في ضروب تشجيع المتعلمين في قريته)(٢).

ولم يكن هذا الشأن مقصورا على الأزهر وحده، بل كان شأنًا عامًّا في المدارس العلمية الكبرى، كالزيتونة مثلا، قال محمد المختار بن محمود وهو يصف افتتاح الدراسة في جامع الزيتونة العريق في

(١) مذكرات مجاور في الجامع الأحمدي /ص٢١٣ ـ ٢١٨/ باختصار وتصرف.
(٢) مذكرات مجاور في الجامع الأحمدي /ص٢١٧/.

الرابع عشر من شهر رجب، وهو يوم افتتاح السنة الدراسية: (وهو يوم مشهود، تترقبه النفوس الحية، وتبتهج به كما تبتهج بأيام المواسم والأعياد، وحدثت بسبب ذلك حركة في البلاد، من جميع نواحيها، حيث حل بالعاصمة آلاف من الطلبة، من مختلف أنحاء القطر، بعد قضوا زمن المصيف في بلدانهم بين أهلهم وأصحابهم)[١].

فكل هؤلاء كانوا قد انتشروا في القرىٰ والأماكن النائية، مزودين بما تحملوه من علم ومنهجية فهم وتفكير، فانتشروا بها طوال أيام أجازاتهم، وهم محل تقدير وسؤال من الناس، فكانت تفيض منهم علىٰ الناس، حتىٰ يصير هؤلاء مشاعل نور في بلدانهم.

قال الأستاذ محمد البشير الإبراهيمي: (وعلىٰ هذا الرأي فأنا لا أسمي نهضة إلا ما كان آتيا من الأزهر، أو متسببا عنه، ومتصلا به، مباشرة أو بواسطة أو بوسائط، وكل ما جاء علىٰ غير طريقه فهو ثانوي أو مكمل.

ومن المبهج أن هذا هو الواقع في نهضة مصر، فإن الدعائم التي قامت عليها دولة البيان نحتت من معدن الأزهر، وإن معظم الأقطاب الذين اضطلعوا بالسياسة نشأوا نشأتهم الأولىٰ في الأزهر، وإن أول صوت جهير ارتفع بالإصلاحين الديني والاجتماعي خرج من الأزهر.

وإن الترويج للنهضة في الأرياف والدعاية للآراء، كان بألسنة أبناء الأزهر، ولولاهم لما راج في مصر رأي، ولا ثبتت عقيدة، وإن زعموا لها المزاعم، وعقدوا عليها صلاح الدين والدنيا، فهم أعصاب القرىٰ كما يصفهم شوقي في قوله:

هـزوا القـرىٰ مـن كهفهـا ورقيمهـا   أنتم لعمر الله أعصاب القـرىٰ)[٢].

وقد ظل الأزهرُ كذلك علىٰ مدىٰ قرون من الزمان، ولولا الاستعمار والحروب والكوارث وأحوال العسر التي كانت تذهب بأوقاف الأزهر ومصادر إنفاقه لكان قد قفز بمصر قفزات كبرىٰ، لكنه علىٰ أقل تقدير حافظ علىٰ الحد الأدنىٰ، الذي يحميٰ الوطن من الموت، وكان هو وجيش مصر العظيم دروع هذا الوطن في اليسر والعسر، وفي الشدة والرخاء.

قال الأستاذ الشيخ محمد المهدي محمود علي: (إذ الشخصية المصرية ذات صلة وثيقة بالأزهر، وبما وضعه التاريخ علىٰ عاتق الأزهر من أعباء، من مقومات هذه الشخصية المصرية: الإسلام كدين وكثقافة، واللغة العربية وما تعبر عنه من تاريخ وأحداث، فإذا ضعف الأزهر، وإذا أُبعد المتخرجون فيه عن

---

(١) المجلة الزيتونية /ج ٢ من السنة الأولىٰ /ص٩٦/، الصادر بتاريخ شعبان سنة ١٣٥٥هـ، الموافق أكتوبر سنة ١٩٣٦م.
(٢) آثار الإمام محمد البشير الإبراهيمي /٣/٥٠١/، ط: دار الغرب الإسلامي، بيروت، سنة ١٩٩٧م.

مجال التربية والتعليم الشعبي وهو التعليم الرسمي، اضمحلت الشخصية المصرية بقدر يضعف الأزهر)[١].

قال العلامة الشيخ عيسىٰ منون: (فهو غرة في جبين الدهر، ودرة وهاجة في تاج العزة لمصر، ومفخرة عظيمة تتيه بها علىٰ سائر الأقطار الإسلامية، وهو مع استظهار القرآن الكريم الميزة الوحيدة التي امتازت بها مصر عن سائر البلاد الإسلامية، لذلك كان محط أنظار العالم الإسلامي، وكان من أقوىٰ الأسباب التي هيأت لمصر الزعامة الكبرىٰ لجميع الدول الإسلامية)[٢].

وقال الشيخ عبد المعز الجزار رئيس بعثة الأزهر في أندونيسيا وهو يصف مشاهداته العجيبة هناك: (وإن تاريخ الأزهر هو صفوة تاريخ مصر، وتاريخ مصر هو صفوة تاريخ الأمة العربية، والشعوب الإسلامية)[٣].

وقال الدكتور طه حسين: (فالأزهر صورة لمصر، فيه كل ما فيها من القوة والضعف، ومن النشاط والخمود، ومن التقدم والمحافظة)[٤].

وإذا كان الأزهر صورة لمصر، فإن جامع القرويين في المغرب ـ وهو شقيق الأزهر ـ صورة للمغرب، وملخص لتاريخ المغرب، حتىٰ إن العلامة السفير الدكتور عبد الهادي التازي قد تكلم في أوائل موسوعته الجليلة (جامع القرويين) عن جلساته مع الدكتور طه حسين، وتأثره العميق به، وأنه بسبب ذلك كتب أطروحته المذكورة، فقال: (إنني لم أجد في فاس شيئًا غير جامع القرويين، الذي كان وراء تاريخ فاس، ووراء تاريخ المغرب كله، بل وراء تاريخ علاقة المغرب بكل الجهات الأخرىٰ)[٥]، وكتب الأستاذ الشيخ محمد إبراهيم أبو المزايا الكتاني في ذلك كتابًا مهمًّا اسمه: (فضل جامعة القرويين في الدفاع عن السيادة الوطنية خلال العصور)، في مجلدين.

ويؤكد شيخ المؤرخين شفيق غربال هذا المعنىٰ فيقول: (ولن يتم ـ في رأيي ـ فهم صحيح وإدراك حقيقي لأحوال الأمة المصرية إلا بتاريخ الأزهر) إلىٰ أن قال: (ولعل فيما أثبت ما يكفي لإظهار ما ذهبتُ إليه من أن تاريخ مصر لا يُفهَم إلا بفهم تاريخ الأزهر)[٦].

---

(١) المصابيح المباركة: القرآن الكريم، شهر مضان، الأزهر الشريف /ص٣٧/، ط: مطابع دار الكتاب العربي، القاهرة.

(٢) حياة علم من أعلام الإسلام: الشيخ عيسىٰ منون /ص٤٢/.

(٣) مجلة الأزهر /٥١٤/٧١/، العدد الصادر بتاريخ ربيع الآخر، سنة ١٤١٩هـ ـ أغسطس سنة ١٩٩٨م.

(٤) من مقدمة الدكتور طه حسين لكتاب: الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة /ص: و/، ط: المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف، القاهرة، سنة ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٦م.

(٥) جامع القرويين: المسجد والجامعة بمدينة فاس /٨/١/، وقد جمع الباحث أحمد التازي بحثًا مهمًّا اسمه: (القرويين ودورها في ترسيخ الهوية المغربية)، إشراف الدكتور محمد الروكي، ط: جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، أكدال، للسنة الجامعية ٢٠٠٥م ـ ٢٠٠٦م.

(٦) تراث محمد شفيق غربال /١١٩/١ و١٢٥/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٣٣هـ ـ ٢٠١٢م.

ولقد أعجبني قول المرحوم محمود الطناحي وهو يؤرخ للكتاب المطبوع في مصر في القرن التاسع عشر: (ومن غايات كتابي هذا الموجز أيضا: إبراز مكانة مصر في ذلك الزمان ـ ليس من باب عصبية البلد، لكن من باب ردِّ الحقوق إلىٰ أصحابها، وحق هذا الجيل أن يعرف تاريخه ـ نعم كان من غايتي أن أبرز دور مصر ووفاءها للثقافة العربية، بما طبعته وأذاعته من الكتب، بتلك الأعداد الضخمة، في كل علم وفن، وفي الميادين الثلاثة: نشر التراث والترجمة والتأليف، وسترىٰ أيها القارئ الكريم أن القائمين علىٰ الأمر في مصر في ذلك الزمان، كانوا جادين في بناء دولة وقيام حضارة، لم تكن لمصر وللمصريين فقط، بل مدَّت ظلالها لتشمل العالم العربي والإسلامي كله في ذلك الزمان)(١).

وأنا أقول: إن من أكبر غاياتي في هذه الجمهرة إبراز دور مصر العميق الشامل الممتد في محيطها العربي والإسلامي، عصبية لا تُخلُّ مني بدينٍ ولا مروءة، ولا أنتقص بها بلدًا من بلدان الدنيا بجوار مصر، ولكن الذي يطالع هذه الجمهرة بتأمل، يدرك بعمق مقدار الأثر العظيم الهائل المتراكم الضخم، الذي قدمته مصر لأشقائها العرب والأفارقة والمسلمين عموما والبشرية كلها.

والذي أستطيع أن أقوله: إن الأزهر في حقيقته وجوهره العميق إنما هو صورة من صور العبقرية المصرية، ويمثل تجليا من تجليات مصر، وتجربة جليلة ناجحة غير منفصلة ولا منقطعة عن العطاء المصري، والذي يرصد تألق الأزهر الشريف، وسطوع شمسه، وحركته العلمية الجبارة، وامتداد أثره المعرفي في آفاق الدنيا من المغرب إلىٰ الملايو، ثم يغوص في أغوار الأعماق البعيدة لذلك كله، فإنه يرىٰ هنالك العطاء المصري العميق، الذي منحته مصر للأزهر، وهي ترىٰ فيه ابنها البكر النجيب، الذي حفظ لها الود، وقدر لها ضخامة العطاء، وحفظ في وجدانه الامتنان العميق لهذه الأم التي منحته عددًا من المنح والعطايا عن كرم سابغ وجود نفس.

فمما منحته مصر للأزهر: تفرُّدُ مكانها وعبقريتُه، وموقعُها النادر في قلب العالم، فنجاح الأزهر في اجتذاب طلاب العلم من الملايو والهند والصين شرقا، إلىٰ وسط إفريقيا جنوبا، إلىٰ المغرب الأقصىٰ غربا، يرجع في الأساس إلىٰ أنه صادف موقعا عجيبا لا مثيل له، جعله مركز ذلك كله، فيكون في متناول المشارقة والمغاربة، والأزهر يدرك أن تألقه ونجاحه ليس ذاتيا فيه، بل لما اكتسبه وارتشفه من موقع أمه التي هي مصر، ولو قدَّرنا أن الأزهر بذات عبقريته وتألقه ونجاحه وقع موقعا نائيا في أقاصي الغرب أو الشرق لانزوىٰ في نطاقه الجغرافي، ولضاقت دائرة تأثيره، ولاقتصرت علىٰ تنوير محيطه الملاصق له.

وها هو ذا جامع القرويين، شقيق الجامع الأزهر، ونظيره في التحقيق العلمي وغزارة الإفادة، قدَّر الله له أن يقع في مدينة فاس من أقاصي الغرب، فحمل سراج التنوير في المغرب والجزائر وشنقيط

(١) الكتاب المطبوع بمصر في القرن التاسع عشر /ص١٧/، ط: دار الهلال، القاهرة، سنة ١٤١٦هـ ـ ١٩٩٦م.

والسنغال ونيجيريا وتلك النواحي من الغرب الأفريقي، وقد نهض بواجبه العلمي على أكمل وجه، لكننا ما رأينا هنديًّا ولا صينيًّا ولا ملايويًّا ولا حضرميًّا ولا عراقيًّا ولا شاميًّا ولا قوقازيًّا ولا حجازيًّا قد تجشم شد رحاله إلى القرويين، نظرًا لبعد مكانه، بل حصل عكس ذلك، فجاء كثيرون من أبناء فاس ومن أبناء القرويين ذاته ومن أبناء الغرب الأفريقي عمومًا إلى الأزهر الشريف، وقل مثل ذلك في جامع الزيتونة في تونس وفي غيره من مدارس العلم في الهند، فإننا ما رأينا مغربيًّا ولا تونسيًّا تجشم أن يقفز إلى المشرق ليدرس في الهند، بل بقيت مدارس الهند مقصورة في عطائها العلمي الجليل على أبناء العلم ونواحيها.

وقل مثل ذلك في أربطة العلم ومدارسه العريقة في اليمن، حيث إنها أنجبت عبر التاريخ عددًا جَمًّا من العلماء المتبحرين في مختلف العلوم والفنون، مما هيأ لليمن أن تحقق اكتفاءً ذاتيًّا في مجال العلم والعلماء، إلا أن أخبارهم ظلت أسيرة عزلة علمية ومعرفية عانى منها علماء اليمن زمنًا، نظرًا لعدم وقوع اليمن على طريق الحج، وبعده عن مركز الخلافة وحواضر العلم الكبرى، ومبالغة العلماء هناك في التواضع ونكران الذات، وصعوبة الطبيعة الجغرافية هناك، إلى غير ذلك مما رصده الأستاذ الشيخ المهدي الحرازي في كتابه القيم: (تراجم علماء اليمن بين الواقع والطموح)[1]، وفي المقابل فقد سلم الأزهر من ذلك كله، بل توفرت له كل تلك المزايا التي تقدم بها على مدارس العلم في المشرق والمغرب.

قالت الدكتورة مليكة الزغل: (وتعود الهيبة التي يحظى بها الأزهر في العالم الإسلامي إلى: استدامته، وإلى موقعه المركزي، وإلى العلاقات المتينة التي ربطت هذه المؤسسة الدينية منذ ظهورها بالسلطة السياسية)[2].

حتى تفرَّد الأزهر من بين مدارس العلم في المشرق والمغرب بأن جمع الله فيه العقول المختلفة، والطبائع المتباينة المتباعدة، نظرًا لما أكرمه الله به، بأن جعله دون مدارس العلم في قلب مصر، فاكتسب منها تفرد مكانه، وصار مظهرًا فريدًا من مظاهر ريادة مصر العظيمة.

قال سيد الندماء عبد الله النديم في (مجلة الأستاذ): (إلى أن انزوت التعاليم البغدادية والكوفية والبصرية، والإشبيلية والفاسية والقرطبية، في البقعة المباركة المصرية المسماة بالأزهر، وصار الأزهر المبارك مدرسة المسلمين الجامعة، فهُرع إليه أهل اليمن، والحجاز، والهند، والجاوة، وسنار، ودارفور، وبربرة، وكوردفان، وبرنو، وتمبكتو، وفلانة، وجبرت، والشام، والعراق، والمغرب، والأناضول، وبنيت لأهل هذه البلاد أروقة مسماة بأسماء ممالكهم، ووقفت الأوقاف العظيمة للطلبة، وقرئت كتب

(١) تراجم علماء اليمن بين الواقع والطموح، ط: (د ن)، سنة ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م، ورقم الإيداع ١٥٥٨/٢٠٠٥م.
(٢) حراس الإسلام: علماء الأزهر في مصر المعاصرة /ص٢٩/، دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، سنة ٢٠١٥م.

التفسير والحديث، والفقه، والتوحيد، ومصطلح الحديث، والأصول، والقراءات، والتجويد، ومرسوم الخط، والنحو، والمنطق، والبيان، والبديع، والمعاني، والعروض، والحساب، والتاريخ، والهندسة، وتقويم البلدان، والوضع، والصرف، والاشتقاق، واللغة، والهيئة، والطب، والعقاقير، والإنشاء، والفلسفة، وتهذيب الأخلاق، والزراعة، والحيوان، والإنسان).

إلىٰ أن قال: (واشتغل الناس كذلك بالتعليم والتعلم في اسلامبول «مدينة الإسلام التي هي الآستانة» ودمشق، وبغداد، ومكة المكرمة، وفاس، ومراكش، وغيرها، ولكن علىٰ الاختصاص بأهل كل بلد، فلم يرحل لجهة من هذه الجهات أناس مثل الراحلين إلىٰ الأزهر من جميع الأقاليم والبلدان الإسلامية)[١].

وتقدم أيضًا قول الإمام الشيخ محمد الخضر حسين: (أما الأزهر فله الشهرة في الشرق والغرب، لأن دائرة التعليم فيه أوسع، وطلاب العلم يؤمونه من كل ناحية، والمكاتب عامة أوخاصة لا تكاد تخلو من مؤلفات علمائه، أما المعهدان الأخيران فلعل موقعهما الجغرافي وحال محيطهما الاقتصادي وقفا منهما دون أن يحوزا كما حاز الأزهر سمعة لم تدع دارًا إلا غشيتها، ولا أذنًا إلا ولجتها)[٢].

والشاهد أن الأزهر يدرك أن ما تبوأه من مكانة سامية في قلوب المسلمين في المشارق والمغارب لا يرجع فقط إلىٰ عبقريته العلمية وحدها، بل يرجع إلىٰ سبب خفي بجوار ذلك، وهو أنه كان يمكن لعبقريته العلمية أن تنزوي وتنحسر في بقعة نائية من الأرض، لولا أن مصر قد تولته، ورأت فيه ابنها النجيب، البارع في العلوم، الذي تمنحه كل ما يطلبه، فينطلق في آفاق الدنيا مقدرا لها، بارا بها، حاملا اسمها ومكانتها معه حيثما حل.

ومما منحته مصر للأزهر الشريف أيضًا: أنها أنفقت عليه، وأكرمت زواره، وطلابه، والوافدين إليه، ووسعتهم، وما بخلت عليهم، وبذلت لهم كل ما في وسعها وطاقتها، واعتبرتهم ضيوف ابنها البكر، فهم ضيوفها، تأخذ علىٰ عاتقها إكرامهم، فيطعمون من خيرها، ويعيشون علىٰ أرضها، ويخالطون أهلها، وتصهرهم بذوقها وطبعها، ويرجعون إلىٰ ديارهم وقد استنارت عقولهم بأنوار العلم والمعرفة، وقد نحتت أرض الكنانة في وجدانهم أطيب الأثر، وأعذب الذكريات، وأذكر أنني في سنة ٢٠٠٨م قد زرت سفيرنا المصري الكريم في مقر سفارة مصر في كوالالمبور، فقال لي: (إن طلاب ماليزيا في مصر يزيدون علىٰ سبعة آلاف، وهم عند سفرهم من ماليزيا يكونون سفراء لماليزيا في مصر، وعند تمام تكوينهم العلمي ورجوعهم إلىٰ بلادهم يكونون جميعا سفراء لمصر في ماليزيا).

(١) مجلة الأستاذ /ص٦٠٦/، الجزء السادس والعشرون من السنة الأولىٰ، العدد الصادر بتاريخ الثلاثاء ٢٧ رجب، سنة ١٣١٠هـ، الموافق ١٤ فبراير، سنة ١٨٩٣م.

(٢) تونس وجامع الزيتونة /ص١٦/، ط: (د ن)، سنة ١٣٩١هـ - ١٩٧١م.

لقد وقفت مصر ترقب ابنها البكر: الأزهر الشريف، وهو يُثْبِتُ جَدَارَتَه، وتسطع شمسه، ويعلو صيته، ويرسل شعاعات النور والعلم إلىٰ آفاق الدنيا، وينجح في أن يجتذب لها كل طالب علم حريص علىٰ العلم من المشارق والمغارب، فما بخلت مصر عليه، بل سعدت به، وعلقت عليه آمالها، وتعهدته بالرعاية، وبذلت له، وعرفت فيه شدة الوفاء لها، وجاءت اللحظات الحاسمة والفاصلة، فانبرىٰ هو لردِّ الجميل، والنهوض بحق البر للأم الكريمة، ونافح عنها، وتحول في لحظات الجد إلىٰ بذل الأرواح الكريمة دفاعا عن أرضها وشعبها، وألقىٰ أقلامه وأوراقه وحمل السلاح ليدفع عنها كل محتل أو غاصب أو ظالم.

ولقد ردَّ الأزهرُ لمصر الجميل والعرفان، فحمل اسمها معه في كل موضع وصلت إليه شهرته، وكم قرية أو مدينة من روسيا إلىٰ أقصىٰ غرب إفريقيا جاء منها طالب علم تعلم في الأزهر، فرجع إليها ولسانه يلهج بذكر مصر ومكانتها وشعبها، وقد امتزجت في نظره كل مآثر الأزهر فصارت هي مآثر مصر، فصار اسم مصر يتردد في وجدان الشعوب والأمم والقبائل والدول والمدن والقرىٰ بسبب ذلك.

وقد سبق قول مصطفىٰ صادق الرافعي: (الأزهر! هذه الكلمة التي لا يقابلها في خيال الأمة المصرية إلا كلمة الهرم، وفي كلتا اللفظتين يكمن سرٌّ خفيٌّ من أسرار التاريخ، تجعل بعض الكلمات ميراثًا عقليًّا للأمة، ينسىٰ مادة اللغة فيها، ولا يبقىٰ منها إلا مادة النفس، إذ تكون هذه الكلمات تعبيرًا عن شيء ثابت ثبات الفكرة التي لا تتغير)(١).

قال الدكتور محمد كامل الفقي: (وكان من آثار الأزهر في مصر أن جعل لها مكانًا ممتازًا وسلطانًا أدبيًّا، وزعامة موفورة، علىٰ البلاد العربية والشعوب الشرقية، وأصبحت هذه الأقطار تنظر إلىٰ مصر نظرها إلىٰ الهادي المرشد، وتعترف لها بالفضل وعلو المكانة، وتوفد بعوثها إلىٰ هذا الخضم الزاخر، تنهل من علمه وثقافته)(٢).

وقال العلامة الشيخ صالح الجعفري: (العجم - أي غير العرب من المسلمين - كلهم يحبون مصر، من أجل الأزهر الشريف، فالأزهر هذا الحصن الحصين جعل لمصر في قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها محبة عظيمة، ومنزلة عظيمة، وما عدا ذلك فهم لا يعرفون شيئًا عن مصر سوىٰ رمز الإسلام فيها، من أجل الأزهر الشريف)(٣).

بل لقد صار الأزهر سببًا لتصنيف القاهرة مدينة من المدن ذوات الوظيفة الثقافية، لأن الناس رحلوا

(١) وحي القلم /٣/٧٧٦/.

(٢) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة /١/٥٤/، ط: المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف، القاهرة، سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

(٣) درس الجمعة بالأزهر، لإمام الجامع الأزهر /ص٣/٩٣/.

إليها من أجل الأزهر على مدى زمني يمتد لعدة قرون، قال صاحبا كتاب: (المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة): (وتنقسم المدن الدينية إلى: مدن حج مثل مكة المكرمة، وليزيو في جبال البرانس بين أسبانيا وفرنسا، ومدن الأضرحة مثل مدينة طنطا، ومدن الحكم الديني مثل روما، وبغداد، والقيروان، ومدن الأديرة أو الزوايا، وتكون هذه المدن متطرفة ومنعزلة في غابة أو مستنقع، بعيدًا عن العمران مثل مدن التبت «اللامات، والرباط التي كان يرابط بها الشيوخ المجاهدون»، وهناك وظائف أخرى للمدن مثل الوظيفة الثقافية، مثل: الأزهر، وجامعة الزيتونة، وهناك المدن الجامعية في أوروبا مثل أكسفورد وكمبردج في بريطانيا، وبرنستون في الولايات المتحدة الأمريكية)(١).

إن الأزهر الشريف هو الابن البارُّ لمصر، وهي علاقةٌ متشابكةٌ عجيبةٌ محيرة، من العطاء المتبادل، والعرفان المتبادل، والامتنان المتبادل، والتقدير المتبادل، ما بين أم كريمة، وابن مطبوع على أرفع صفات البر والوفاء.

ولقد صاغ العبقري محمد جاهين بدوي هذا المعنى شعرا، فجاء بيانه سحرا، فقال في ملحمته الرائعة على لسان الأزهر الشريف:

(قَــدَرُ الكِنَانَــةِ أَنْ تَكُــونَ حَضَــانَتِي ... صِــنْوَيْنِ كُنَّــا مُنْــذُ فَجْــرِ مُكَــبِّرِ
فَــلْتَحْفَظُوهَا فِــي المَــآقِي وَالسُّوَيْــ ... ــدَا كَعْــبَةً، وَهِدَايَــةَ المُتَحَيِّــرِ
أُمُّ الــدُّنَا أُمِّــي، وَنُــورُ بَصِــيرَتِي ... وَتُرَابُهَــا فِــي الــرُّوحِ مِسْكَــةُ عَنْــبَرِي
حَــسْبِي سَــمَاهَا أَنْ تَضُــمَّ مَــآذِني ... وَبِأَنَّهَــا فِــي الكَوْنِ «مِصْــرُ الأَزْهَــرِ»)(٢).

ولا يكاد يتحقق هذا إلا بنشأة أجيال الأزهريين على وعيٍ كامل بهذه المعاني، وقد فاضت أفئدتهم عرفانًا لمصر، ووفاءً لها، وإجلالًا لقدرها، وإدراكًا لعمق عطاء مصر للأزهر الشريف.

(١) المدخل إلى علم الجغرافيا والبيئة /ص٣٩٦/، لمحمد محمود محمدين، وطه عثمان الفراء، ط٤: دار المريخ، الرياض، سنة ٢٠٠٢م.

(٢) حدث أزهريٌّ قال /ص٢١/، ط: دار روعة للطبع والنشر والتوزيع، مصر، سنة ٢٠١٤م.

إِضَاءَةٌ

في التغيرات التي طرأت عبر الزمان على علاقة العلماء بالحكام في ضوء مسار تاريخ الأزهر ورجاله

من البحوث الدقيقة التي لابد من التقصي والبحث فيها: علاقة العلماء عمومًا ـ وعلماء الأزهر الشريف خصوصًا ـ بالحكام، وهذا موضع يحتاج إلىٰ رصد واسع، لعشراتٍ ومئات من المواقف التي يمكن أن نستخلص من مجموعها معالم تلك العلاقة بكل أبعادها وتفاصيلها.

وقد مضىٰ علىٰ الأزهر الشريف قرون من الزمن وهو يصنع العلماء، ويتقن صناعة العلم والتعليم، ويخوض في الشأن العام، وينهض بقضايا الوطن والدفاع عنه في أحداث عاصفة، مما حتم وجود تقاطع وتشابك بين الدور المجتمعي لعلماء الأزهر، والوجوه التي قاموا فيها بخدمة الوطن وأبنائه، وبين أدوار الحكام ووظائفهم والأدوار التي كانوا يقومون بها.

وقد مرت تلك العلاقة بأطوار مختلفة وتعقيدات كثيرة، كان علماء الأزهر فيها يضعون عدة موازين، يحققون بها الحفاظ علىٰ أمانة العلم والشرع الشريف، ويدركون بها الواقع بمختلف ملابساته، وينسجون بها علاقتهم بالحكام، مما تقاربت فيه المواقف أو اختلفت وتباعدت.

وممن استعرض أبعاد هذه العلاقة بالدراسة المتأنية الموسعة: الدكتور عبد الجواد صابر إسماعيل في كتابه المهم: (مجتمع علماء الأزهر إبان الحكم العثماني)، حيث خرجت هذه الدراسة في قريب من سبع مئة صفحة، انتهىٰ في آخرها إلىٰ النتائج الآتية، قال: (ولقد بدَّدتُ نتائج هذا البحث كثيرا من المعلومات التاريخية الخاطئة التي تعارفنا عليها، بعد أن تلقيناها عن مؤرخي الغرب، لأن الحقائق لا يمكن أن يصمد أمامها أي قول من الأقوال الباطلة، مهما كسته الزخارف أو غمرته الأضواء:

فأول هذه الحقائق: هي أن علماء الأزهر كانوا صفوة مجتمعنا، وعقله المفكر، وضميره الحي، ودرعه القوي، فبهم أحق مجتمعنا الحق، وأبطل الباطل، واحتمىٰ من تيارات الفتن والمظالم والشر.

وثاني هذه الحقائق: هي أن المصريين علىٰ رأسهم علماء الأزهر لم يستكينوا لمظالم الباشوات العثمانيين والأحزاب العسكرية وأمراء المماليك، فلقد شهدت القرون الثلاثة التي خضعت مصر فيها

للحكم العثماني انتفاضات متتالية قادها علماء الأزهر، لرفع المظالم، وكف أيدي البغاة من الباشوات وذوي النفوذ السياسي والعسكري)[1].

وقد كان الواحد من العلماء الأزهريين متقنًا ومدققًا جدًّا في النظر في الأدلة، والشهود، وقرائن الإثبات، وكانت مصادر المعلومات عنده موثقة يقينية، لا خلل ولا تشكيك فيها، فكان يستطيع أن يبني عليها العقوبات أو المواقف التي يقدرها بعقليته القضائية، وسوف أختار هنا نموذجا أشير من خلاله إلىٰ لمحات من تلك القضية، ألا وهو الإمام شهاب الدين أحمد الدردير، شيخ السادة المالكية، وكبير علماء الأزهر في زمانه، حيث وقف عدة مواقف مشرفة في علاقته بحكام عصره، لكنها لم تكن ثائرة ومندفعة، تختلط فيها المعلومات، ويفتقد فيها اليقين، بل كانت مواقف لها موازين حكيمة تشهد له بالرزانة والإخلاص لدينه ووطنه.

وهذه المقدرة من الإمام الشهاب الدردير علىٰ مواجهة الظالم، مهما كان موقعه في المجتمع، حاكما كان أو محكوما، كانت تتأتىٰ وتتحصل له من مجموع أمرين:

أولهما: قوته في دين الله تعالىٰ، وشدة غيرته علىٰ حرمات الله وحقوق العباد، وشدة إنسانيته ونصرته للمظلوم، وأخذه علىٰ يد الظالم لرده عن ظلمه، وكل هذه الأمور هي الدافع الأول.

ثانيهما: هو توفر مصادر المعلومات وأدلة الإثبات التي يتمكن معها من اتخاذ المواقف الحاسمة، لأنه شديد التحري للحق، وشديد الترفع عن الظلم أو الخوض فيما هو ملتبس.

وسبب ذلك أن المعلومات الواسعة الموثقة اليقينية التي كانت تُصَبُّ بين يدي الإمام الدردير تخوِّل له وتمنحه سلطات واسعة في المجتمع، فهو الذي يملك الإذن بالتحقيق، وهو الذي يملك تقدير الجريمة والعقوبة، فكانت تجتمع له في زمانه (بموجب المعلومات) عدة صلاحيات.

وقد ذكر الجبرتي أن وفدًا من العلماء علىٰ رأسه الشيخ عبد الله الشبراوي شيخ الجامع الأزهر، صعد إلىٰ القلعة، وقابل أحمد باشا كور، الباشا العثماني، ليعرضوا عليه مطالب الناس وحوائجهم، وكأن الباشا أنكر صنيعهم وصفتهم فما كان من الشيخ الشبراوي أن قال للباشا: (نحن المتصدرين لخدمتهم وقضاء حوائجهم عند أرباب الدولة والحكام)[2].

والصلاحيات الواسعة التي كانت مجتمعة في يد الإمام الدردير ـ والممنوحة له من الشعب ـ جرىٰ توزيعها بعد ذلك علىٰ عدد من الجهات الرقابية والإدارية والمالية في النظم الإدارية الحديثة، التي طرأت

---

(١) مجتمع علماء الأزهر إبان الحكم العثماني ١٥١٧م ـ ١٧٩٧م /ص٦٣١/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، مصر، سنة ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.

(٢) عجائب الآثار /١/١٤٨/.

على العالم من بعد الثورة الفرنسية، التي غيرت كل ما كان على ظهر الأرض من نظم الحكم والإدارة، والتي كانت نتاج نظريات عدد من الفلاسفة مثل جون لوك ونظرية الفصل بين السلطات، ومثل جان جاك روسو ونظرية العقد الاجتماعي (الدستور)، ومثل توماس هوبز ودراساته لمفهوم الدولة، ومثل هيجل، وغيرهم، والخلاصة أن الثورة الفرنسية التي استمرت موجاتها على مدى عشر سنوات، من سنة ١٧٨٩م، إلى سنة ١٧٩٩م، قد غيرت كل نظم الإدارة والحكم في العالم، ولما أن كانت وفاة الإمام الدردير سنة ١٢٠١هـ، الموافق ١٧٨٦م، وكان اندلاع الثورة الفرنسية سنة ١٧٨٩م الموافق ١٢٠٣هـ، أي بدأت بعد وفاة الدردير بسنوات قلائل، واستغرقت زمنًا حتى استقرت نتائجها السياسية، فلم تصل إلينا نتائجها إلا بعدها بعقود، لما أن كان ذلك كله، فإن الإمام الدردير عاش واقعًا اجتماعيًّا ليس فيه نائب عام، ولا رقابة إدارية، فكانت تجتمع عنده تلك الصلاحيات كلها، من غير سعي منه إلى ذلك، بل لأن الشعب كان يطالبه بها، وكان يضغط عليه للقيام بتلك المهام، التي يقف فيها نصيرا للناس في رفع المظالم عنهم، وتحقيق الأمان لهم في شئونهم المختلفة.

وكان من نتائج استقرار نظم الإدارة في العالم وقوع تغيير كبير جدًا في الصلاحيات والمهام المجتمعية التي كان يطلبها الشعب من أمثال الإمام الكبير الشهاب أحمد الدردير، فبعض ما كان مخولًا له من دور مجتمعي ورقابة على الانحراف والفساد في الإداريات في زمنه وقع تقنينه بعدها في جهاز موقر ومحترم اسمه: الرقابة الإدارية، وبعض ما كان مخولًا ومتاحًا للإمام الدردير من ضبط التلاعب بالأموال مما كان يستقيه من أصحاب الوقائع المباشرة، صار الآن مقننًا في جهاز قانوني وموقر ومحترم اسمه: الجهاز المركزي للمحاسبات، وبعض ما كان متاحًا للإمام الدردير من صلاحية التحقيق المباشر مع أي شخص أو مسئول صار اليوم مقننًا ومحددًا في صلاحيات هيئة قانونية موقرة اسمها: (النيابة العامة)، وصار فتح التحقيق مع أي شخص من حق النائب العام وحده.

وقد وُزِّعتْ بموجب ذلك أكثر صلاحيات الإمام الدردير ومهامه ـ التي طالبه المجتمع بالقيام بها ـ على عدد من الأجهزة الرقابية الموقرة، التي نحترمها جميعا، واحترامها واجب، فكان الإمام الدردير في حقيقته مؤسسة تمشي على قدمين، له حق جمع المعلومات، وفتح التحقيق، وتقدير العقوبة، وتنفيذها، ولم تكن تلك الصلاحيات أبدًا حكمًا ولا صولجانًا ولا هيمنة ولا دولة دينية، وإنما كانت صلاحيات خولها المجتمع إليه، وطالبه بالقيام بها، فخضع لطلب جماهير الناس من أبناء شعب مصر العظيم، وتشرف بالقيام بخدمتهم، ونهض بأعباء ذلك كله على وجه مشرّف وراق، دون أن ينازع ذوي السلطان في سلطانهم، أو أن يتشوف إلى سلطة أو جاه أو دنيا، بل متى تمت مصالح الناس وارتفع الحرج عنهم رجع إلى مجلس التدريس والتعليم قانعا بدوره، محبا له، مدركا لشرفه وجلاله.

ولما أن استقر المجتمع من بعد على تنظيم تلك الصلاحيات على هيئة أجهزة قانونية، قبل العلماء

ذلك وأقروه، واحترموا ذلك أتم احترام، وقامت تلك الأجهزة ـ المتضافرة والمتنوعة والمتفرقة ـ في مجموعها، بما كان يقوم به شخص واحد من علماء الأزهر الشريف.

وعند غياب تلك الهيئة الكاملة التي كان ينهض بها الواحد من علماء الأزهر أمثال الإمام الدردير، فإنه لا يمكن اليوم لأي شخص أن يقوم بما كان يقوم به الإمام الدردير، لأنه حينئذ يفتئت على السلطات، ويتعدى على القانون، ويتصرف بغير صفة، والافتيات على السلطات والمؤسسات القائمة غير مقبول بالمرة، ولو ذهب أحد العلماء اليوم لأي مسئول وواجهه بفساده الذي يتحقق منه ويعلمه، فإنه سوف يقول له: (أنت تظلمني وتتهمني بالباطل، ولا يمكنك إثبات اتهاماتك بأي وثيقة، وليس عندك أمر من النيابة بالتحقيق معي، وأنا في المقابل سوف أقاضيك وأطالب برد اعتباري).

مما يدل على أن الأمر استقر على قيام المؤسسات بهذه المهام، وأنه ليس من حق أحد أن يفتئت على صلاحياتها.

فالتوصيف الصحيح إذن لما كان يقوم به علماء الأزهر في تلك الأزمان هو القيام بأعباء المؤسسات القضائية والأجهزة الرقابية، وامتلاك المعلومات والوثائق، مع ما يترتب على وجود ذلك وتوفره من تصرفات اجتماعية شجاعة، ومواقف تاريخية مجيدة، ومواجهة للظلمة، وكل ذلك يصير سهلا بعد توفر الوثائق، والعلم الموثق له سلطان وجاه لا يمكن إنكاره ولا المكابرة فيه.

فتصرفات علمائنا في العصور السابقة كانت عند توفر المعلومات، وصدور الحكم القضائي، بحيث تصير تصرفاتهم بمفهوم زماننا حكمًا قضائيًا نهائيًا غير قابل للطعن ولا للاستئناف، فحينئذ كان يقود العلماء الأزهريون الجماهير لتنفيذ الحكم، كما لو قامت الشرطة الآن بالتوجه للقبض على شخص صدرت ضده أحكام قضائية.

والأمر أوسع بكثير من قضية الثورة الفرنسية وآثارها، ومفهوم الدولة الحديثة، بل ما نحن فيه هو الكلام عن دولة المؤسسات، وكيف أن كثيرًا جدًا من المهام والوظائف الفردية التي كانت قائمة عندنا قديما قد تحولت اليوم إلى مؤسسة كاملة تقوم بتلك المهمة، وممن أشار إلى هذه اللمحة البالغة الأهمية ـ والتي هي التحول التراكمي الطارئ عبر العقود والأزمان، والذي صُبَّتْ فيه عدد من الأدوار والمهام الشرعية في إطار مؤسسات موقرة تولت هي القيام بهذا الدور ـ العلامة الشيخ أحمد مصطفى المراغي، قال ما نصه: (للمحتسب أن يمنع الحمالين وأرباب السفن من الإكثار من حمل الدواب والسفن خوفًا من الخطر على الناس والحيوان «مفتش قلم المرور الآن».

وله أن يأمر أرباب المباني المتداعية للسقوط بهدمها خوفًا من ضرر متوقع منها على السابلة «عمل مصلحة التنظيم الآن».

وله أن يراقب المعلمين في المكاتب وغيرها حتىٰ لا يبالغوا في ضرب الصبية ولا يعاملوهم بقسوة «عمل وزارة المعارف الآن».

وله ختم اللحوم والنظر في صلاحيتها للأكل أوعدم صلاحيتها «عمل مصلحة الطب البيطري».

وله أيضًا النظر في الأطبخة التي تقدم في الأسواق والفنادق لمعرفة حالها جودة ورداءة «عمل وزارة الصحة الآن».

كذلك له النظر في ملاحظة السير في الأسواق والشوارع والأزقة حتىٰ لا تحصل مضايقة للمارة والسابلة «عمل الشرطة الآن».

وله أن يأمر السقائين بتغطية المياه التي في الروايا بالأكسية حتىٰ لا يعلق عليها غبار ولا أوساخ «مفتش الصحة الآن».

ويطلب إليهم تحديد مقدار الماء الذي يكون في كل قربة وختم عيارها «مصلحة المكاييل والموازين»)[1].

فانظر كيف تبلورت وتحولت كل تلك الأدوار والوظائف إلىٰ مؤسسات مختصة بذلك، تحقق المطلوب منها، وربما اختل الأداء في بعضها أو ساء، لكن شتان ما بين إصلاح تلك المؤسسات لتقوم بدورها علىٰ الوجه الأكمل بكل شفافية ونزاهة، وبين عدم إدراك قيامها بتلك المهام، أو تجاهل ذلك، أو محاولة السرقة والتعدي علىٰ صلاحياتها، مما تنحرف إليه تيارات وجماعات معاصرة، تلاعبت بدين الله ﷻ.

ومحاولة إسقاط مواقف علمائنا السابقين علىٰ المعاصرين من شيوخنا وعلمائنا الأزهريين المخلصين، فيه تلميح غير لطيف بأن المعاصرين عاجزون، وعبيد للسلطة، وجبناء لا يستطيعون نصرة الحق، ولا الجهر في وجه الظالم، والحال أنهم ليسوا كذلك بالمرة، وحاشاهم، وما باعوا دينهم أبدا، وهم يتحرون رضا بارئهم في ما يقولون قدر طاقتهم، وعدم قيامهم بمواقف الأقدمين فسببه هذا التحول الاجتماعي والإداري والتنظيمي والهيكلي الذي عهد بما كان يمنحه لهم المجتمع قديما إلىٰ مؤسسات وهيئات موقرة.

والذي يستقر عليه الأمر وتتبلور من خلاله قاعدة هذا الباب أن علاقة العلماء بالحكام أمر تعتريه الأحكام التكليفية الخمسة، فيكون واجبًا تارة، ويكون مندوبًا تارة، ويكون مباحًا تارة، ويكون مكروهًا تارة، ويكون حرامًا تارة، بحسب اختلاف الأحوال والأشخاص.

مع التدقيق في قاعدة إذا تعارض المانع والمقتضي قدم المانع، والنظر في استثناءاتها، ومما يفيد

---

(١) الحسبة في الإسلام /ص٢٨/، ط: مطبعة عيسىٰ البابي الحلبي، القاهرة، (د ت).

في ذلك هذا الموقف والميزان الدقيق من الإمام القاضي أبي بكر الباقلاني والذي ساقه الشاطبي في (الموافقات) قال: (فصل: وقد تكون المفسدة مما يُلْغَي مِثْلُها في جانب عِظَمِ المصلحة، وهو مما ينبغي أن يتفق علىٰ ترجيح المصلحة عليها، ولذلك مثال واقع:

حكىٰ عياض في: المدارك أن عضد الدولة فَنَّا خُسْرو الديلمي بعث إلىٰ أبي بكر ابن مجاهد والقاضي ابن الطيب ليحضرا مجلسه لمناظرة المعتزلة، فلما وصل كتابه إليهما قال الشيخ ابن مجاهد وبعض أصحابه: هؤلاء قوم ضالون ـ وشدد القول فيهم ـ، لا يحلُّ لنا أن نطأ بساطهم، وليس غرض الملك من هذا إلا أن يقال: إن مجلسه مشتمل علىٰ أصحاب المحابر كلهم، ولو كان خالصًا لله لنهضت.

قال القاضي ابن الطيب: فقلت لهم: كذا قال المحاسبي وفلان ومن في عصرهم: «إن المأمون فاسق، لا يحضر مجلسه»، حتىٰ ساق أحمد بن حنبل إلىٰ طرسوس، وجرىٰ عليه ما عُرِف، ولو ناظروه لكفوه عن هذا الأمر، وتبين له ما هم عليه بالحجة، وأنت أيضًا أيها الشيخ!! تسلك سبيلهم حتىٰ يجرىٰ علىٰ الفقهاء ما جرىٰ علىٰ أحمد، ويقولوا بخلق القرآن، ونفي الرؤية، وها أنا خارج إن لم تخرج، فقال الشيخ: إذ شرح الله صدرك لهذا فاخرج، إلىٰ آخر الحكاية.

فمثل هذا إذا اتفق يُلْغَي في جانب المصلحة فيه ما يقع من جزئيات المفاسد، فلا يكون لها اعتبار، وهو نوعٌ من أنواع الجزئيات التي يعود اعتبارها علىٰ الكليِّ بالإخلال والفساد، وقد مر بيانه في أوائل هذا الكتاب والحمد لله)[1].

وهذا كلام جليل من الإمام الباقلاني، فيه مقارعة الحجة بالحجة، والبرهان بالبرهان، وفتح باب النقاش والجدل العلمي الحر النزيه المؤصل، مما تظهر معه الحقائق.

ودور علماء الأزهر حاليًّا هو مَدُّ جسورُ الثقة والتوقير والاحترام مع كل فئات المجتمع، ونشر العلوم والمفاهيم، والانخراط في أخوة وصداقة عميقة مع كل أجهزة المجتمع ومؤسساته، مما يتيح لهم الاطلاع علىٰ المشكلات الجزئية العميقة التفصيلية في المجالات المختلفة، وتبادل الرؤىٰ ووجهات النظر فيها، مما يسهم في تقريب المضمون النظري والعلمي والمعرفي والأخلاقي والقيمي لهذا الدين إلىٰ كافة المهن والحرف والوظائف، من باب حسن التعهد والإفادة، وتبقىٰ المحاسبة بيد الأجهزة المعنية، دون أن يفتئت عليها أحد.

وتبقىٰ قيمة المعلومات عظيمة جدًّا، وغياب المعلومات يؤدي إلىٰ العجز عن التصرف، مع التأكيد

(١) باختصار من الموافقات /٢/٣٧٢/، ط: المكتبة التجارية الكبرى، مصر، بتعليق العلامة عبد الله دراز، وقبله أورده القاضي عياض في ترتيب المدارك وتقريب المسالك /٧/٥١/، ط: وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية، بالمملكة المغربية، سنة ١٤٠٢هـ ـ ١٩٨٢م، ومقدمة العلامة السيد أحمد صقر على كتاب إعجاز القرآن للإمام الباقلاني /ص٢٠/، ط: دار المعارف (سلسلة ذخائر العرب)، مصر، (د ت).

على كيفية قراءة التاريخ بعد الدراسة والدراية العميقة بالوقائع، حتى لا نقوم بتنزيل وقائع التاريخ على واقع متغير مختلف فنظلم الماضين أو المعاصرين، ونثق في أنه لا يخلو جيل من القيام بواجب زمنه قدر طاقته وقدر ظروف زمنه.

ومطالبة المعاصر بما كان يقوم به القدماء، مع عدم مراعاة التراكمات والتغيرات التي تحدث على مدى القرون، يشبه مطالبة الإنسان المعاصر بأن يتحمل المشي والسير لمئات الكيلومترات يوميا، وبذل المجهود البدني الشاق، مع التغافل عن التراكمات الحاصلة على مدى عقود، والتي ظهر فيها القطار، والطائرة، والسيارة، فأدت إلى تراجع كبير في المقدرة البدنية، لكنها في المقابل منحت الإنسان بدائل أخرى وفوائد، والحاصل أن دراية الواقع، والإلمام العميق به، ومعرفة التغيرات وأثرها، وحسن توصيف التاريخ بالعبارات التي يفهمها المعاصرون أمر مهم جدا، وبدونه يحدث اللبس والخلط والضباب.

وعليه فإني أحذر من القراءة المتعجلة للتاريخ، والتنزيل المشوَّشِ لوقائع التاريخ على واقعنا المعاصر، والخطأ في توصيف أحداث التاريخ، ويرجع سبب الخطأ في ذلك كله إلى: افتقاد المنهج المنضبط في جمع المادة العلمية من مظانها التاريخية الموثقة، ثم في عدم الصبر والدأب والتأمل الطويل في كيفية ترتيب تلك المادة التاريخية، وتركيبها، والتفطن إلى الفجوات الحاصلة فيها، والتوصل إلى تصور كلي واضح لأحداث التاريخ ودوافعها وبواعثها وتعليلها، ثم في افتقاد تلك القراءة إلى التنزيل السديد لوقائع التاريخ على واقعنا هذا، ثم في عدم توصيف الواقع توصيفًا دقيقًا يمكن معه تنزيل كل شيء على ما يناسبه.

وانتزاع واقعة من التراث والتاريخ، والتسرع في تنزيلها على الواقع المعاصر، ثم التسرع في سحب أحكام ذلك الحدث التاريخي على الواقع: خطأ فادح، يفضي إلى عقلية تائهة مضطربة مشتتة ما بين عدم فهم الواقع على وجهه، وعدم فهم التاريخ على وجهه، ويكفيك في هذا المعنى الدقيق قول الإمام الجليل بدر الدين الزركشي في (البحر المحيط): (ثم وراء ذلك غائلة هائلة، وهي أنه يمكن أن الواقعة التي وقعت له هي الواقعة التي أفتى فيها الصحابي، ويكون - قلت: أي على رغم ذلك - غلطًا، لأن تنزيل الوقائع على الوقائع من أدق وجوه الفقه، وأكثرها للغلط)[1].

قلت: يريد أن الانطلاق إلى ما هو مدون في الكتب، والمسارعة إلى تنزيله على الواقع خطأ شديد، لوجود فوارق دقيقة، تحتاج إلى نظر علمي سديد، قادر على معرفة الفوارق أو الجوامع بين الحدث التاريخي وبين الواقعة المعاصرة.

ولا يعني هذا إهدار الحوادث التاريخية وإغلاق باب الاستفادة من التاريخ بالمرة، بل إن هذه

(١) البحر المحيط في أصول الفقه /٨/٣٣٩/، ط٣: دار الكتبي، القاهرة، سنة ١٤٢٤هـ - ٢٠٠٥م.

الجمهرة التي بين يديك أحد نماذج الاستفادة من التاريخ والحفاظ علىٰ الذاكرة، لكن المقصود أن تخريج الوقائع المعاصرة علىٰ حوادث مشابهة في التاريخ، إنما هو برزخ دقيق يفصل بين خطأين: الأول: إهدار التاريخ بالمرة، والكف عنه بالكلية، وهذا يعزل المعاصر عن ثروة التاريخ وتجاربه، والثاني: هو الدخول إليه من غير أي ضابط ولا منهج، وهذا يجعل المعاصر في غاية من الاضطراب والضياع بين تاريخ لم يتقنه، وواقع لم يتقن تلخيصه وتكييفه وتوصيفه.

والإلحاق بين المسكوت عنه والمنصوص عليه، فيما يعرف بالقياس، والإلحاق بين حدث معاصر مسكوت عنه، وبين حدث تاريخي فيه تصرف لواحد من الأئمة، كلاهما أمر يحتاج إلىٰ ضوابط باب القياس من علم الأصول، وكيفيات الإلحاق.

ولابد مع ذلك من دراسة تاريخية واسعة ومتشعبة حول شخصية الدردير، ثم حول شخصية الشرقاوي، تستغرق منه زمنًا طويلًا، وفكرًا أصيلًا، وصبرًا علىٰ استخراج سمات شخصياتهم من كتبهم ومؤلفاتهم، فضلًا عن كتب التاريخ المعتادة، حتىٰ يخرج لنا بتحليل نفسي واجتماعي وعلمي دقيق لتصرفات الشرقاوي، ومدىٰ مطابقتها أو عدم مطابقاتها لموازين الحكمة، ومقاييس الشرع، وأنا أجزم بأن هذا لم يحدث.

والهدف منه هو الغوص علىٰ عقلية كل واحد من هؤلاء الأئمة، حتىٰ كأنك عشت معهم، ويمكنك أن تتصور أسباب تصرفاتهم، وهذا هو النقد الذي وجهه العلامة محمود شاكر لسلسلة (ضحىٰ الإسلام) لأحمد أمين، وكلامه في كتاب: (جمهرة مقالات العلامة محمود شاكر)، وهو مطبوع مشهور[1].

وليس هذا دعوة إلىٰ تقديس الثورة الفرنسية ومنتجاتها، ونظريات فلاسفتها، بل تحت يدي بحوث وكتابات نقدية كبيرة ومتشعبة لتلك الأطروحات كلها، إنما أقول: إلىٰ أن ننقدها، ونخرج طرحًا بديلًا عنها، ونبدي الرأي فيها، فلابد من مراعاة أنها هي الأطروحات التي يتم من خلالها ومن خلال تطبيقاتها وتطويراتها تشغيل نظم الإدارة في العالم، فاستدعاء حدث عند الإمام الدردير، كان فيه النظام الإداري قائما علىٰ أسس وأصول وتطبيقات معينة، وتنزيلها علىٰ واقعنا هذا، الذي يتم تشغيله وفق آليات ونظريات مختلفة، يؤدي إلىٰ خطأ والتباس، فغاية ما أدعو إليه هو مجرد الانتباه إلىٰ تلك الفوارق، التي تعيق الإلحاق التاريخي السديد.

ولا يعني هذا أيضًا تقديس مواقف العلماء، ولا يعني عدم وجود من تستخفه الدنيا منهم، أو تميل به الأهواء والأغراض، بل هذا واقع فيهم لا محالة، لكني أتحدث عن كبارهم وأعيانهم، الذين يشهد الواقع والمجتمع والتاريخ أنهم تركوا من بعدهم الأثر الحميد، والذكر الحسن، وشواهد الصدق الدالة علىٰ تحريهم لرضوان باريهم، فعن هؤلاء أتحدث.

(١) جمهرة مقالات الأستاذ محمود محمد شاكر /٢/٦٢٤/، ط: مكتبة الخانجي، مصر، سنة ٢٠٠٣م.

إِضَاءَةٌ

في ذكر المفتاح الحقيقي لنجاح الأزهر وعلمائه وأثرهم الحميد في الأمم والشعوب وأن ذلك كله يرجع إلى بناء الثقة

المفتاح الحقيقي في نجاح الأزهر في علاقته مع الأمم والشعوب يرجع إلىٰ كلمة واحدة لا ثاني لها ، ألا وهي : الثقة ، وأعنيٰ بها أن الرصدَ التفصيليَّ الواسع لأثر علماء الأزهر في مجتمعاتهم من الملايو شرقا ، إلىٰ المغرب غربا ، وإلىٰ عمق أفريقيا جنوبا ، يبين أنهم نجحوا عبر أجيال متعاقبة ، وعلىٰ امتدادٍ جغرافيٍّ وبشريٍّ هائل ، في أن ينحتوا بصبر وأناة وعلم واسع وأخلاق حميدة أثرًا جليلًا في وجدان الشعوب من الحكمة والبصيرة والاستقرار والأمان وبناء المؤسسات .

حيث كان الواحد من أبنائهم يغترب عنهم زمنًا طويلًا ، ويتحملون مشقة فراقه ، ثم يرجع إليهم بعد زمن وقد امتلأ من العلم ، ونضجت شخصيته بالحكمة ، فيتولىٰ عندهم القضاء أو الوزارة أو التدريس أو الخطابة أو الإفتاء فيجدون له أثرًا كريمًا يحمده الناس ويرضونه ، دون أن يتسبب أحد منهم في قلاقل أو اضطرابات أو إراقة دماء ، أو اصطدام المجتمع بعضه ببعض ، فتطمئن قلوبهم إلىٰ أن تلك المؤسسة الأزهرية قد أهدت إليهم معروفًا ، فيمتلئون ثقة في تلك المؤسسة ، وامتنانًا لها ، ويستقر في ضميرهم ووجدانهم أنها مؤتمنة بحقٍّ علىٰ أبنائهم ، وأنها قائمةٌ بالأمانة علىٰ وجهها الأكمل .

فالركيزة الأساسية في صناعة هذا الأثر الواسع والعميق للأزهر الشريف في الحقيقة ترجع إلىٰ نجاحه في اكتساب الثقة فيه ، والاعتماد عليه ، حيث نجح ووفق في أن يقدم لشعب مصر الكريم ولشعوب الأمة العربية والأمة الإسلامية ما يجعل تلك الشعوب تطمئن إلىٰ جودة صنعته ، وترىٰ الأثر الحميد المنير لأبنائه ، وتلمس مقدار العمق والعلم والجودة واللياقة والإتقان والأمانة في ما يقدمه الأزهر من محتوىٰ يصنع عقول أبنائهم .

فيقول مثلا الشيخ حامد بن عبد الرحمن الحمدابي : (إن للأزهر ومتخرجيه علىٰ السودان دَيْنًا في الأعناق ، ونحن في السودان نعترف بذلك الفضل ، ونحفظ له ولمصر ، فمنه تخرج ذلك النفر الكريم من السودانيين الذين عملوا مع إخوانهم العلماء المصريين في نشر التعليم الديني النظامي في السودان)[١] .

---

(١) دور الأزهر في السودان : إعلام وعلماء /ص٣٤ .

وقد رصد الدكتور محمد المعتصم سيد تأثير القاهرة في العمق الأفريقي، في كتابه (القاهرة والحضارة والإسلام في أفريقيا)، فقال: (واستطاع الأزهر خلال هذه السنين الطويلة أن يخلق لنفسه مكانة شامخة في أفريقيا والعالم أجمع، حين اعتبره الجميع الجامعة الإسلامية الكبرىٰ، وأصبح موضع الثقة والاعتبار)(١).

وانظر مثالا علىٰ ذلك: ما ساقه المؤرخ الكبير ميخائيل شاروبيم رئيس النيابة العمومية بمحكمة المنصورة الأهلية في كتاب (الكافي) من موقف شيخ الأزهر الباجوري عندما أراد الخديوي عباس إلحاق شر وأذىٰ بأهل الكتاب: (قيل واشتد به البغض للنصارىٰ حتىٰ دبر أمر إخراجهم من وطنهم وتبعيدهم إلىٰ أقاصي السودان، وأرسل إلىٰ الأستاذ الشيخ الباجوري شيخ الإسلام يومئذ يسأله في ذلك، فلما جلس الشيخ قال له: أسألك أمرا لا تكتمه عليّ، قال: وما هو يا أمير، قال: إني أقصد تبعيد النصارىٰ كافة من بلادي ومقر حكومتي إلىٰ أقصىٰ السودان، وقد دبرت لذلك تدبيرا، فما قولك؟ قيل: فقطب الشيخ وجهه وقال: أي النصارىٰ تعني يا أمير، إن كنت تعني الذميين الذين هم من أهل البلاد وأصحابها فالحمد لله لم يطرأ علىٰ ذمة الإسلام طارئ، ولم يستول عليها خلل، حتىٰ تغدر بمن هم في ذمته إلىٰ اليوم الآخر، وإن كنت تعني النصارىٰ الفرنجة النازلين في بلادك فإني أخاف عليك إذا فعلت بهم شرا أن يحل ببلادك ما حل بالجزائر من الفرنسيس، قيل: فغضب عباس باشا ونادىٰ: خذوه عني، فقام الشيخ وهو يقول: إي ويعلم الله، إي ويعلم الله)(٢).

وانظر مثالًا علىٰ ذلك أيضا: موقف الشيخ محمد بخيت المطيعي مفتي الديار المصرية وأجل علماء الأزهر في زمانه، لما أن وقف وقفة صارمة من اللورد ملنر، عندما جاء إليه علىٰ رأس اللجنة المشهورة، وكانت تهدف إلىٰ إجهاض ثورة سنة ١٩١٩م، فزار الشيخ محمد بخيت في بيته، وجرىٰ بينهما حوار كان فيه الشيخ بخيت صارمًا في النهوض بحق وطنه في وجه المستعمر، ونشرت الصحف خلاصة الحوار الذي جرىٰ بينهما، فكتب سعد زغلول إلىٰ الشيخ بخيت ما نصه: (قد أيدت الحق بالحجج الناهضة، ودحضت الباطل بالإنارات الواضحة، وكانت أحسن وقعا، وأبلج أثرًا من المقاطعة، ولا غرو، فهي أجوبة أكبر مفتٍ في الإسلام، رضي الله عنكم وأرضاكم، وسدد خطانا وخطاكم، آمين)(٣).

إن الأزهر الشريف ما كان يبرز دوره في أوقات السكون والهدوء والاستقرار، بل ما كان يسطع

---

(١) القاهرة والحضارة والإسلام في أفريقيا /ص٣٤/، ط: المجلس الأعلىٰ للشئون الإسلامية، القاهرة، سنة ١٣٨٤هـ - ١٩٦٥م.

(٢) الكافي في تاريخ مصر القديم والحديث /٤/١٠٩/، ط: المطبعة الكبرىٰ الأميرية ببولاق، مصر، سنة ١٣١٨هـ، وهو في /٤/٢١٤/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية، القاهرة، سنة ١٤٣٣هـ - ٢٠١٢م.

(٣) مجلة الشبان المسلمين /ص٤٧٤ - ٤٨٧/، عدد صفر، سنة ١٣٥٥هـ.

ولا يتوهج ولا يتألق إلا في أوقات الشدائد والأزمات، والحروب والثورات، والأحداث العاصفة، والأزمات الخانقة، التي تطيش فيها العقول والألباب، ويشتد فيها الصخب والضجيج، وتتحير فيها العقول النبيهة، والأذهان الثاقبة، وتلتبس فيها مخارج الأمور ومداخلها، فحينئذ فقط، يبرز الأزهر الشريف، ويشهد الناس ذلك الفارس المقدام الجسور، الذي يتقدم الصفوف، ويشق الغبار، غير متحير ولا مضطرب، ولا مندهش ولا مصدوم، ولا خائف ولا وجل، وقد احتشد واستجمع وتأهب، وتسارعت إلىٰ بديهته عصارة دوائر العلوم الدقيقة، التي هو عاكف علىٰ دراستها علىٰ مدىٰ سنوات، والتي تنظم عقله، وتصفي تفكيره، ويتمرس بها ذهنه علىٰ دراسة الحلول والبدائل، والبصر النافذ بآثارها البعيدة وامتداداتها ومآلاتها، ويظل يتشرب تلك العلوم ببطء علىٰ مدىٰ سنوات، ويعكف علىٰ تفهمها وارتشافها، حتىٰ تستوي بديهته وتستنير، وتسعفه في أوقات الشدائد، ولا تسمح لغبار الأحداث أن يغبش مرآته، ولا أن يحجب الرؤية الصحيحة عنه.

فإذا به في أشد أوقات الأزمات الحالكة المظلمة، يسعف الناس بقبس من الحكمة، وبصيص من النور، ويربط علىٰ قلوبهم، ويرفع الكرب عنهم، ويؤمِّنهم علىٰ أنفسهم.

فبينما الناس مشدوهون متحيرون إذا بهذه المؤسسة الجليلة قد حفرت في عقولهم ووجدانهم كل الامتنان لها، والثقة فيها، لما شهدوه بأنفسهم من جسارتها وجسارة رجالها، ونجاحها ونجاحهم في احتواء الأزمات والتصدي لها دونهم.

فيكون الأزهر وريثًا صادقًا لأبي بكر الصديق لما عصفت الأمور وتحير الناس في موقف انتقال النبي ﷺ إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، بقي هو ساكنًا، حليمًا، رصينًا، يسبق الناس بخطوات في الخروج من الأزمة فيهتدون به، ويحمدون بعد الأزمة أثره، ويعرفون قدره.

فتنحسر الأزمات بعد ذلك وتزول، ويخرج الأزهر منها وقد حفر لنفسه نجاحًا، وامتدت له في ذلك الطور من تاريخه مصداقية عميقة جليلة تجعل كل جيل يشهد له في زمانه بأن ما يحكىٰ عنه في التاريخ ليس مبالغةً ولا تهويلًا، بل يشهد كل جيل له أنه بالفعل أمينٌ علىٰ الدين والوطن، مستحق لكل إجلال، مسعف في الأزمات، ثم ترجع الأمور للسكون والاستقرار فيعود الأزهر لمهمة التعليم، إلىٰ أن تثور الأمور وتعصف من جديد، فيأتي وقته من جديد.

والخلاصة أن هناك جذورا عميقة وراسخة وباقية من الجلال والأصالة والعبقرية المعرفية والتبحر العلمي والشموخ، مزجت جميعا وتجسدت كيانًا واحدًا عرف بين الناس باسم الأزهر الشريف، الذي سطع في أحلك الأوقات المحتدمة والخطوب المدلهمة، فاهتدىٰ به الناس في الظلمات.

ويشهد لذلك أيضًا أن وكيل الأزهر العلامة الشيخ محمد شاكر كان يتولىٰ منصب قاضي قضاة

السودان، فاتفق في سنة ١٩٠٢م أن قام قاضي محلة الرباطات الشرعي بأجازة من غير أن يستأذن الشيخ شاكرا، فلما علم الشيخ شاكر بذلك كتب إلىٰ كاتم السر القضائي يلفته إلىٰ خطأ ذلك، وأبرق إلىٰ قاضي الدامر يأذن له بمباشرة الأحكام في محكمة الرباط أثناء غياب قاضيها.

ولكن كاتم السر كتب إلىٰ الشيخ ينبهه إلىٰ أن محكمة العموم التي يرأسها موغلة في التدخل إداريا في شئون المحاكم التابعة بها.

فما أغضىٰ الشيخ شاكر طرفه عن هذه اللفتة، وجرد قلمه ورد عليه ردًّا يحفظه التاريخ، وكان في ختامها قوله: (وإلىٰ هذا الحد أرجو أن تعيدوا النظر في هذه الملاحظات، وتقدروا موضوعها حق قدره، فإن بقاءها علىٰ ما هي عليه يذهب بكثير من الثقة، التي هي عماد الاشتراك في المصالح، والتي إن فقد الموظف شيئا منها فخير له أن يفقد مركزه ليحتفظ بها، وأنا أول رجل يسخو بمركزه في سبيل الثقة بنفسه)[١].

ومن هذه المواقف وأمثالها كانت تنبني علاقة عميقة من الثقة في أن هؤلاء الرجال أمناء علىٰ الوطن، وعلىٰ المؤسسات، وأنهم الملاذ الآمن الذي يفزع إليه أي إنسان مكروب في المجتمع.

وانظر لزامًا شرحًا أوسع في ذلك في ترجمة العالم الأزهري الجليل الشيخ الجليل حسن باشا عبد الرازق، والد الشيخ مصطفىٰ عبد الرازق شيخ الأزهر، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢٥هـ، ففيها تفصيل زائد في قضية علاقة الأزهر بالمجتمع وأنها قائمة علىٰ الثقة المتبادلة.

ولتحقيق هذه الحالة من الثقة فإنه لابد للأزهر من الخروج من حالة العزلة والانفصال عن المجتمع، ومن صناعة الثقة المتبادلة، والتقدير المتبادل، وبناء جسور متينة من الفهم العميق للواقع، وصناعة خطاب برهاني منطقي رصين، وتبادل الزيارات لفتح الآفاق، وتنقيح عقول الدارسين بمعرفة العالم، وقد جاء في مجلة (الرسالة) سنة ١٩٣٧م ما نصه: (قرر مجلس الجامع الأزهر تلبية لدعوة المكتب الدولي للتعاون الثقافي أن يشترك في شهود مؤتمر القانون الدولي الذي تقرر عقده في مدينة لاهاي بهولندة) إلىٰ أن جاء في نهاية الخبر: (وهذه سنة حسنة، تمهد لتعاون الأزهر مع الهيئات العلمية والدولية الكبرىٰ، وتزيد في هيبته العالمية)[٢].

ثم جاء في المجلة نفسها بعد عدة أعداد ما نصه: (في هذا الأسبوع تحتفل جامعة أثينا بعيدها المئوي، فقد دعيت جامعتنا المصرية ودعيت الجامعة الأزهرية لشهود هذا الاحتفال العلمي، فلبتا

(١) الأزهر وأثره في النهضة الأدبية الحديثة /٢/١٨٤/، ط: المطبعة المنيرية بالأزهر الشريف، القاهرة، سنة ١٣٧٥هـ - ١٩٥٦م.

(٢) مجلة الرسالة /العدد ١٨٩/ص٢٧٦/، الصادر بتاريخ ذي الحجة، سنة ١٣٥٥هـ - فبراير، سنة ١٩٣٧م.

الدعوة، وانتدبت الجامعة المصرية مديرها الأستاذ أحمد لطفي السيد باشا لتمثيلها، وانتدبت الجامعة الأزهرية أحد أساتذة التفتيش، ومما يلاحظ بهذه المناسبة أن الأزهر قد بدأ يتخذ مكانه في هذه المهرجانات العلمية الدولية، بعد أن لبث دهرًا بعيدًا عنها)[1].

ومن مظاهر ذلك قول العلامة الفلكي الأزهري الجليل الشيخ محمد أبو العلا البنا: (لتقويم ما امتد إليه قلم أخي الشيخ محمد رحيم، أحد علماء طرابلس الشام، في رسالته التي سماها «وقت الظهر»، وقدمها إلىٰ مشيخة الأزهر، في عهد ساكن الجنان الشيخ محمد مصطفىٰ المراغي، لإبداء الرأي فيها، فأوصاني ﷺ بنظرها، والقيام بما يجب نحو ثقة الأمة بمشيخة الأزهر وعلمائه)[2].

فقد اشتملت هذه العبارة علىٰ فوائد عدة، تكشف عن إجراءات ونظم علمية كانت تتأسس علىٰ أكتافها علاقة الأزهر الشريف بالأمة، فإن الأزهر ما زال يمثل الثقة والمرجعية للأمة الإسلامية في مختلف دوائر العلوم المتعلقة بالشريعة، تعلقًا أصليًّا أو تابعًا، وعندما كتب أحد علماء طرابلس كتابه في وقت الظهر رفعه مباشرة إلىٰ مشيخة الأزهر لإبداء الرأي فيه، مما يكشف عن وجود نسق معرفي سابق ومستقر، يُسلم الباحثون والعلماء فيه للأزهر مركزيته ومرجعيته، وكل ذلك يوجب علىٰ الأزهر وعلمائه أن يكونوا علىٰ مقدار رفيع وعظيم من التحقيق في العلوم، والانتقال من العلوم الخادمة للنص الشريف مباشرة، إلىٰ دوائر أبعد وأوسع، تتاشبك وتتقاطع مع العلوم الشرعية الصريحة، مما يحملهم حملا علىٰ اتساع دائرة الثقافة والقراءة والاطلاع، والتمكن والبحث والتحقيق، بحيث يكون هؤلاء العلماء علىٰ أتم درجة من الجاهزية والاستعداد القريب للمباحثة في أي باب من أبواب العلوم، ربما يقع فجأة هنا أوهناك، مما يوجب عليهم دوام التحديث والملاحقة والنظر والمباحثة والتحقيق، بحيث لا ينفتح باب من النظر العلمي الحر الأصيل إلا وجد الناظر فيه أن علماء الأزهر سبقوا إليه منذ زمن، وفرغوا من تحقيقه، وقلبوا النظر في خباياه ودقائقه، واستشرفوا احتمالاته الواردة عليه، فتتبعوها بالتأمل، كل ذلك بهدف تحقيق غرض عظيم، ومقصد جليل، ألا وهو استدامة الثقة فيه، لما يتحققه كل جيل ويراه بعينه من تبحر أولئك القوم وسبقهم إلىٰ المعرفة والاطلاع الواسع المحيط.

فيحكي الشيخ محمد أبو العلا البنا أن الشيخ المراغي أوصاه بنظر تلك الرسالة الوافدة من طرابلس الشام والمرفوعة إلىٰ الأزهر من مؤلفها الشيخ محمد رحيم، ثم يعلل ذلك بهذا التعليل الجليل فيقول: (والقيام بما يجب نحو ثقة الأمة بمشيخة الأزهر وعلمائه)، مما يكشف عما هو كامن في عقول علماء الأزهر في كل جيل من وعيهم بمشتملات مهامهم العلمية، وأن من أجل مطالبهم النهوض بأعباء تلك

(١) مجلة الرسالة /العدد ١٩٨/ ص٦٧٥/ الصادر بتاريخ صفر، سنة ١٣٥٦هـ - أبريل، سنة ١٩٣٧م.

(٢) تحقيقات فلكية شرعية /ص٢/، ط: مطبعة السعادة، القاهرة، سنة ١٩٤٧م.

الثقة التي ما تبلورت عبر العقود والقرون إلا بالسبق إلىٰ المعرفة، والشغف بالعلم، والتي لابد من بقائها واستمرارها بحقها.

ويقول أيضًا في كتابه: (ملخص كتاب الأبحاث التحريرية): (ولعلي قمت بما يجب نحو ثقة الأمة بالأزهر وعلمائه، وأرحت المفتين والمستفتين من كثرة الآراء والاضطراب في هذا التقدير)[١].

مما يدل علىٰ شدة حضور فكرة ثقة الأمة في الأزهر عنده، وأنه كان من أكثر العلماء انتباها إلىٰ هذا المعنىٰ الجليل، وقياما عليه، وسعيا في استدامته وترسيخه وتحقيقه.

ومن العجيب بعد كل ذلك أن تعلم أنه قد أنشئت عندنا في مصر (الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد)، بالقانون رقم ٨٢ لسنة ٢٠٠٦م، وتم اعتبار هذه الهيئة هي الجهة المسئولة عن نشر ثقافة الجودة في المؤسسات التعليمية والمجتمع، وعن إعادة هيكلة المؤسسات التعليمية وتحسين جودة عملياتها ومخرجاتها علىٰ النحو الذي يؤدي إلىٰ كسب ثقة المجتمع فيها.

فكان المستهدف الأكبر الذي تعمل تلك الهيئة علىٰ تحقيقه من خلال تأهيل المؤسسات علىٰ استيفاء معايير جودة التعليم هو تحقيق تلك القضية الكبرىٰ والجليلة والمهمة، وهي النجاح في كسب ثقة المجتمع[٢].

---

(١) ملخص كتاب الأبحاث التحريرية، في تقدير الأوزان والأكيال والنقود الشرعية، بوحدة الماء المقطر في درجة حرارة ٤ مئوية /ص٢/، ط: مطبعة السنة المحمودية، القاهرة.

(٢) دليل اعتماد كليات ومعاهد التعليم العالي /ص٨/، الإصدار الثالث، ط: إصدارات الهيئة القومية لضمان جودة التعليم والاعتماد، مصر، سنة ٢٠١٥م.

إِضَاءَةٌ
في العمامة الأزهرية وتاريخها

وأما العمامة الأزهرية والزي الأزهري المعهود فلهما تاريخ ممتد في الوجدان الأزهري، بل صارا من أهم المعالم المنظورة المرئية التي تعبر عن الأزهر، ومن أهم معالم صناعة الهوية البصرية لهذا المعهد العريق.

وقد تحولا إلىٰ رمزٍ ثابتٍ للأزهر، تعرفه الشعوب والمجتمعات، ويتميز به الأزهري عن غيره، بحيث إذا ما رآه أحد من أبناء تلك الشعوب في الأعمِّ الأغلب فإنه يدرك علىٰ الفور أنَّ هذا الشخص من أبناء الأزهر الشريف، أما في داخل مصر فقد مضت عقود وهذا الزي الشريف ملحوظ بعين الإكبار في كل مكان ينزل فيه حامله.

ولعل أكبر مظهرٍ رسميٍّ للعناية بالعمامة كان عند محمد علي باشا، حيث أصدر في ٢٦ شوال سنة ١٢٤٠هـ الموافق سنة ١٨٢٤م أمره إلىٰ ناظر فُوَّة أحمد أغا، بإعلامه بما استقر عليه الرأي من تأسيس مصنع الطرابيش في حديقة الأمير محمود بالجانب الغربي من فُوَّة، وأنه قد أرسل ما يلزم لذلك من نجارين وأخشاب ومكابس وغيرها من الأدوات اللازمة للإنشاء.

وقد أمر محمد علي باشا بسرعة إتمام ذلك المصنع، واستحضر إخصائيًّا مغربيًّا من تونس، اسمه محمد المغربي، للإشراف علىٰ إنشاء هذا المصنع، وقد تحرر إليه في ١٤ ذي القعدة سنة ١٢٤٠هـ الموافق سنة ١٨٢٤م، بما نصه: (من الوالي إلىٰ ناظر فابريكة الطرابيش بفوة: محمد المغربي، بإعلامه بأن كتب إلىٰ محافظ دمياط، بخصوص إرسال ما يلزم من الخشب السنديان اللازم لمصنع الطرابيش، وإذا لم يوجد فيُشْترىٰ من حيث يوجد).

ويذكر المؤرخون أن هذا المصنع قد نجح عند إنشائه نجاحًا باهرًا لأنه ينتج مصنوعات جيدة بأيسر تكلفة، وكان إنتاج المصنع مخصصا للجيش المصري، والإنتاج الذي يزيد عن حاجة الجيش يباع إلىٰ تجار مصر، كما كان يوجد محلج للقطن بجوار مصنع الطرابيش يرجع لنفس العصر.

ثم توقف المصنع عن العمل، بعد إلغاء الحكم الملكي في مصر، بقيام ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢م، حيث أصدر الرئيس الراحل جمال عبد الناصر قرارًا بإلغاء الألقاب، وإلغاء إلزامية وضع الطربوش، فلم

يعد للمصريين غطاء للرأس يختصون به، باستثناء العمامة الأزهرية التي بقيت إلىٰ اليوم متداولة عند طلاب الأزهر الشريف وشيوخه.

قال الشيخ الباقوري وهو يتحدث عن زعيم الصين ماوتسي تونج: (إن شخصية هذا الرجل وفلسفته وذكاءه ظهرت في حفل استقبالٍ للقائه، ولست أنسىٰ أبدًا الحكمة التي بدت من تصرف الزعيم ماوتسي تونج في تلك الليلة، لقد وقفنا صفًّا واحدًا نحن رؤساء بعثات الدول، ننتظر قدوم الزعيم ماو، وكنت في مكاني بعيدًا عن الباب، وتقريبًا في نهاية الصف، ودخل الزعيم، ومن ورائه وزراؤه ومعاونوه، ولم يشأ أن يقف لكي يصافح الناس الذين يتقدمون إليه، ولكنه ترك كل هؤلاء الناس، وجاء إليَّ أنا وصافحني يدًا بيد، وقال لي زملاؤه: لقد صنع هذا لأنه علم أنك رجل من الأزهر الشريف، فلما رأىٰ العمامة واضحة بين الرؤوس العارية قصد إليك يحييك تحية خاصة)[1]، ومن ثم فقد صار للأزهريين غيرة علىٰ هذا الزي الجليل، وإجلال له، ودبجوا فيه القصائد الطنانة.

وقد جمعت الدكتورة أهداب حسني جلال كتابا نفيسا مهما عن تاريخ العمامة من خلال الوثائق، عنوانه: (العمامة العثمانية في تركيا ومصر، في ضوء التحف التطبيقية، وتصاوير المخطوطات)، فخصصت فيه فصلا عنوانه: (العمامة الطربوش لغة واصطلاحا، ونشأة، وأهمية، وألوان، وأنواع، وأسعار، وخامات، وكيفية صناعته)[2].

وأنا قد أفردت له تأليفًا لطيفًا أسميته: (تاج العلماء: العمامة الأزهرية، تاريخها وتطورها)، تناولت فيه العمامة الأزهرية، وتاريخها، وتطورها، مع إلماع إلىٰ آدابها، وما تقتضيه في حاملها من وقار، وقيام بحق العلم، فتكلمت فيه عن الاستدلال لها، ومكانتها، وأسمائها، وماهيتها وتركيبها، وصناعتها ولفها، واحترامها وأنها تاج العلماء، وتكلمت عن كرسي العمامة، وتضخيم العمامة، وآدابها، وما يتعلق بها من أمثال، وما أنشد فيها من أشعار.

(١) الباقوري: ثائر تحت العمامة /ص١١٧/، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٨٨م.

(٢) العمامة العثمانية في مصر وتركيا /ص٢٧١ ـ ٣٠٧/، ط: دار الآفاق العربية، القاهرة، سنة ١٤٣٧هـ ـ ٢٠١٦م.

إِضَاءَةٌ
في معمار الأزهر وأبنيته

ومن المهمات أيضًا عند التعرض لتاريخ الأزهر وأعيانه، أن نشير إلىٰ معماره، ومبناه، بعد العناية بفحواه ومهمته ومعناه، وقد تعرض علي مبارك باشا في: (الخطط التوفيقية) لوصفٍ دقيقٍ لمعمار الأزهر، في مبانيه، ومناراته، وقبابه، وأبوابه، ومحاريبه، ومزاوله، وأروقته، وصهاريجه، ومقاصيره، ومراحل التوسع والإضافة إلىٰ مبانيه عبر الأعصار، علىٰ يد الولاة والأمراء، وغيرهم.

وقد سبق في أوائل هذه الجمهرة قول شيخ المؤرخين محمد شفيق غربال: (وتدلنا الدراسات التي خصَّصتها بالذكر علىٰ أربعة أنواع من المباحث، أعتبرها أساسية:

فالنوعُ الأولُ أثريٌّ معماريٌّ، والنوع الثاني دينيٌّ صرفٌ، والنوع الثالث نظامٌ تعليميٌّ، والنوع الرابع تراجمُ الرجال؛ وتقوم الأنواع الأربعة علىٰ الوثائق الأصلية)[(١)].

فأشار إلىٰ الخريطة التي ينبغي تحقيقها عند إرادة إخراج مشروع تاريخي شامل يحقق الخدمة التي تليق بالأزهر الشريف، فجعلها علىٰ أربعة أركان وأسس، وأحدها هو الشق المعماري الأثري.

وقد أشار الدكتور حسين مؤنس ﷺ في كتابه: (المساجد) إلىٰ أن عددًا من كبار الأثريين والمؤرخين المصريين قد توفروا علىٰ دراسة الجامع الأزهر، وتسجيل وتوثيق عمارته وأجزائه، وتفاصيله المعمارية الدقيقة.

قلت: ومنهم كريزويل في كتابه عن تاريخ العمارة الإسلامية، قال شفيق غربال: (وأخيرًا يجب عليَّ أن أشير إلىٰ دراسة الأستاذ «كريزويل» للأزهر من ناحية العمارة والآثار فيما نشر من تاريخ العمارة الإسلامية، وهو مؤلَّف ضخم نُشِر منه في الشهر الحالي الجزء الثالث، ويتعلَّق بعهد الإخشيديين والفاطميين.

ولعل من تلاميذ الأستاذ «كريزويل» الأثريين المعماريين المصريين مَن يتبع أستاذه في درس الأزهر من الناحية المعمارية الأثرية، ثم يُخرِج لنا باللغة العربية ثمرات ذلك الدرس)[(٢)].

(١) تراث محمد شفيق غربال /١/١١٨.

(٢) تراث محمد شفيق غربال /١/١١٨.

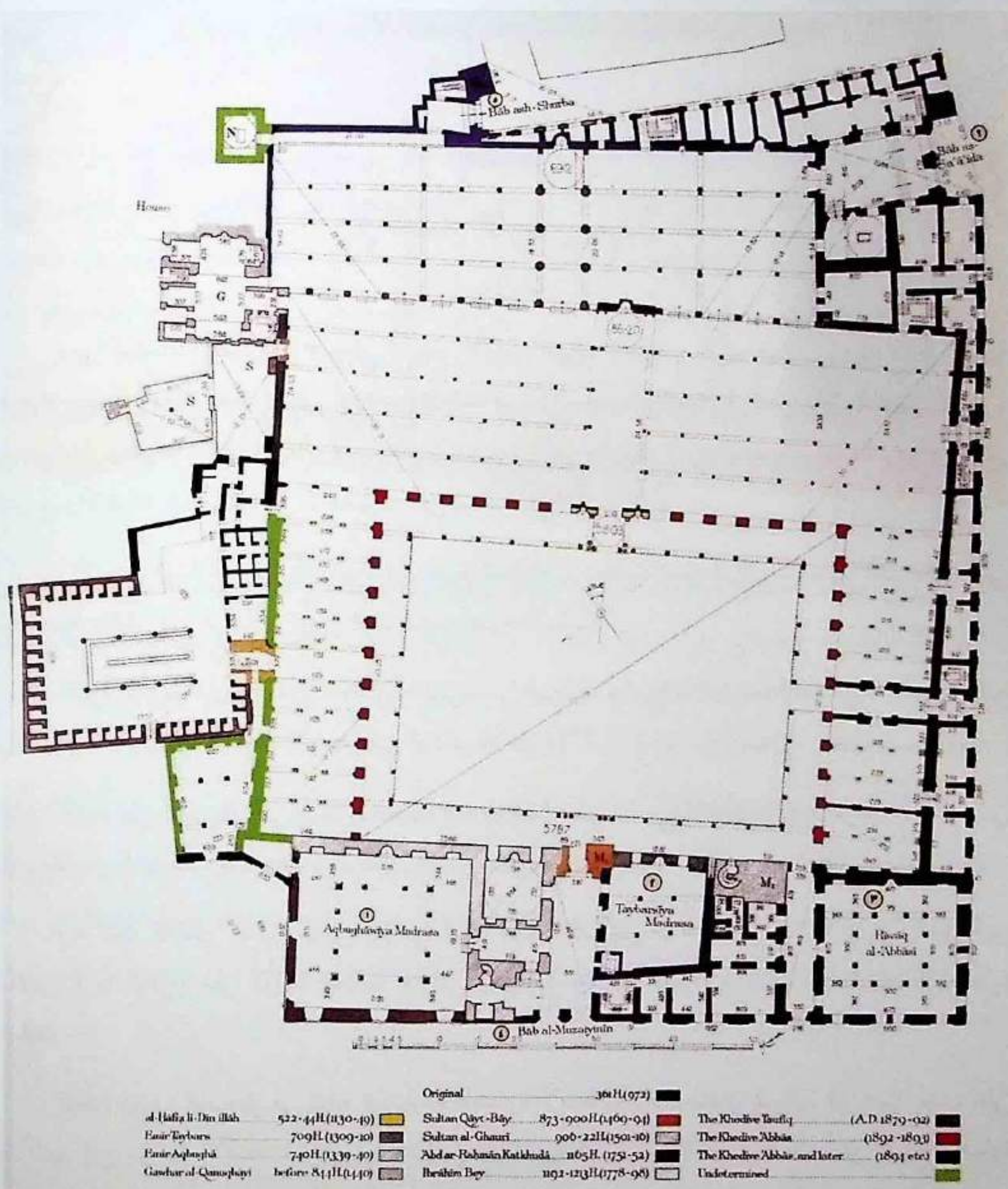


Fig. 20. Mosque of al-Azhar: showing the various periods.

خريطة زمنية للجامع الأزهر وتطوره في الأزمنة المختلفة

١ ـ المدرسة الأقبغاوية
٢ ـ المدرسة الطيبرسية
٣ ـ الرواق العباسي
٤ ـ باب المزينين
٥ ـ باب الشورية
٦ ـ باب الصعايده
ثم هناك المفتاح في أسفل الخريطة
ولو بدأنا من اليمين والأعلى سيكون كالآتي:

ـ الخديوي توفيق ١٨٧٩ ـ ١٨٩٢ ميلادي
ـ الخديوي عباس ١٨٩٢ ـ ١٨٩٣ ميلاي
ـ الخديوي عباس وما بعده ١٨٩٤ وما بعدها
ـ غير محدد
ثم العمود الذي في المنتصف ويبدأ من أعلى باللون الرمادي
ـ الأصلي (أي الجامع الأصلي من العصر الفاطمي) ٣٦١ هجريا ٩٧٢ ميلاديا
ـ السلطان قايتباي ٨٧٣ ـ ٩٠٠ هجريا ١٤٦٩ ـ ١٤٩٤ ميلاديا

ـ السلطان الغوري ٩٠٦ ـ ٩٢٢ هجريا ١٥٠١ ـ ١٥١٦ ميلادي
ـ عبدالرحمن كتخدا ١١٦٥ هجريا ١٧٥١ ـ ١٧٥٢ ميلادي
ـ إبراهيم بك ١١٩٢ ـ ١٢١٣ هجريا ١٧٧٨ ـ ١٧٩٨ ميلادي
ثم العمود الأخير إلى اليسار ويبدأ باللون الأصفر
ـ الحافظ لدين الله ٥٢٢ ـ ٥٤٤ هجريا ١١٣٠ ـ ١١٤٩ ميلادي
ـ الأمير طيبرس ٧٠٩ هجريا ١٣٠٩ ـ ١٣١٠ ميلادي
ـ الأمير أقبغا ٧٤٠ هجريا ١٣٣٩ ـ ١٣٤٠ ميلاديا
ـ جوهر القانوقباي قبل ٨٤٤ هجريا ١٤٤٠ ميلاديا

وأقول: ما زلت أتتبع حتىٰ توصلنا إلىٰ كتاب كريزويل (عمارة المسلمين في مصر)، وتفضل صديقي المعماري المتقن السيد وليد عرفة باستحضار الكتاب، وتفضل بإفادتي بما فيه عن الأزهر الشريف ومعماره، ومما اشتمل عليه كتابه هذه الخريطة الزمنية النفيسة، التي رسم فيها كريزويل أطوار المعمار والإضافات التي طرأت علىٰ الأزهر، مشيرا إلىٰ كل عصر وإضافة بلون مخالف، مما يعين علىٰ تصور التطور التاريخي التراكمي لمعمار الجامع العتيق[١].

وللأستاذ الدكتور أحمد عبد الرزاق أحمد في كتابه: (العمارة الإسلامية في مصر) رصد للتطور المعماري للجامع الأزهر، والمدارس التي أضيفت إليه، وجهود الأمراء والحكام في ذلك، وما لعله بقي من الأصل الفاطمي الأول من العقود والدعامات الفاطمية، التي أمكن الاستدلال عليها من شكلها ونظام زخارفها، ويصف تطورات ذلك إلىٰ أن صار الأزهر أرفع الجوامع في القاهرة قدرًا، وهو يشير فيه كثيرا إلىٰ كريزويل ورسومه ومساقطه الأفقية[٢].

والذي تتبع تلك العناصر الزخرفية الأصيلة الباقية من المعمار الفاطمي، وحدد مواضعها الخمسة الباقية في الجامع الأزهر، وتحدث عنها بالتفصيل هو الدكتور أحمد فكري في كتابه المهم: (مساجد القاهرة ومدارسها)[٣].

(ومنهم الأستاذ حسن عبد الوهاب في كتابه المهم عن «تاريخ المساجد الأثرية»، الذي أورد في كتابه وصفًا شاملًا لكل جزء من أجزاء الجامع، مع تاريخ معماري كامل للمسجد، كما أوردت الدكتوره سعاد ماهر في كتابها الموسوعي «مساجد مصر وأولياؤها الصالحون» وصفًا آخر دقيقًا للناحية المعمارية من المسجد)[٤].

وقال أحمد خيري باشا: (كتاب: «تاريخ المساجد الأثرية» للأستاذ حسن عبد الوهاب، وهو كتاب جليل، دالٌّ علىٰ تمكن صاحبه من فنه ومادته)[٥].

وكتب الأستاذ فرج حسين فرج الحسيني فصلًا نفيسًا عن النقوش الكتابية الزخرفية في الأزهر،

---

(١) كتاب: عمارة المسلمين في مصر /١/ص٣٦ ـ ٦٤/.
K. A. C. Creswell, 1952. The Muslim Architecture of Egypt (Volume I: Ikhshids And Fatimids A.D 939-1171), pp. 36-64. Oxford University Press

(٢) العمارة الإسلامية في مصر منذ الفتح العربي حتىٰ نهاية العصر المملوكي ٢١ ـ ٩٢٣هـ/٦٤١ ـ ١٥١٧م/ ص٨٣ ـ ١٠٠/، ط: دار الفكر العربي، القاهرة، سنة ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

(٣) مساجد القاهرة ومدارسها (الجزء الأول: العصر الفاطمي) /ص٥٥ ـ ٥٩/، ط: دار المعارف، مصر، سنة ١٩٦٥م.

(٤) اقتباس من تقرير مطول عن الأزهر، في مجلة: ناشيونال جيوغرافيك /ص٤٥/، العدد الصادر بتاريخ يوليو، سنة ٢٠١٣م.

(٥) قصيدة الأزهر /ص٥/.

متتبعًا اختلاف الطرز، وطرائق رسم الحروف، منذ عهد تأسيسه، مرورًا باختلاف العمائر التي عبرت على الأزهر في تاريخه[١].

ولعل أمنية محمد شفيق غربال قد تحققت هنا مؤخرًا، حيث أخرجت مؤخرًا مكتبة الإسكندرية كتابًا حافلًا، وسفرًا جليلًا، عنوانه: (الجامع الأزهر)، تناول عمارة الجامع الأزهر في عصر الدولة الفاطمية، ثم في عصر الدولة الأيوبية، ثم في عصر الدولة المملوكية البحرية، ثم في عصر الدولة المملوكية الجركسية، ثم في العصر العثماني، ثم في العصر الحديث.

فجاء هذا الكتاب بمثابة مرصد شامل، موثق بالصور والخرائط الهندسية، للتطور العمراني، وتراكم الأبنية والملحقات المضافة إلى الأزهر عبر الأعصار، مع الطُرُز والأنماط الهندسية والفنية التي تميزت بها كل مرحلة، حتى اتسع الكتاب ليتناول صور الأروقة والحارات، والنقوش الكتابية، وصور الحياة في رحابه، فما ترك حجرا فيه إلا حفظ لنا سجلا عنه وعن نقوشه ونسقه المعماري[٢].

(١) النقوش الكتابية الفاطمية على العمائر في مصر /ص٩٧ ـ ١١٨/.

(٢) خرج الكتاب في مجلدين كبيرين، بعنوان: الجامع الأزهر الشريف، ط: مكتبة الإسكندرية، مركز دراسات الحضارة الإسلامية، سنة ٢٠١٣م.

إِضَاءَةٌ
في أروقة الأزهر وحاراته

ومن الأمور المهمة المتعلقة بالجامع الأزهر، وكيفية استيعابه للطلاب من أجناس وأعراق وطبائع وشعوب مختلفة، أن برزت فيه فكرة الأروقة من وقت مبكر، حيث قال المقريزي في: (المواعظ والاعتبار): (وذلك أنه لم يزل في هذا الجامع ـ منذ بني ـ عدة من الفقراء يلازمون الإقامة فيه، وبلغت عدتهم في هذه الأيام سبع مئة وخمسين رجلا، ما بين عجم وزيالعة، ومن أهل ريف مصر، ومغاربة، ولكل طائفةٍ رواقٌ يعرف بهم)(١).

وأشار الحافظ السخاوي من بعده إلىٰ مشيخة الأروقة الأزهرية، فذكر أن حافظ الدين محمد ابن عبد الرحمن بن سليمان المنهلي، فقال في: (الضوء اللامع): (حافظ الدين محمد وشيخ أحد أروقة الأزهر)(٢).

وقد عمرت بذلك الأروقة، حتىٰ وصلت سنة ١٨٦٧م إلىٰ خمسة وعشرين رواقا، بعضها خاص بالمصريين وبعضها خاص بالوافدين، حيث: (توالت الإضافات والزيادات في الأزهر، فقامت فيه الأروقة المختلفة، حتىٰ وصل إلىٰ حجمه الحالي، إذ يكاد يكون مدينة قائمة بذاتها، ذلك أن ملحقات الجامع التعليمية ضمت ما يشبه المدينة الجامعية الكاملة، لكونها مكونة من مبان كل منها يسمىٰ «رواقا»)(٣).

وقد سردت الموسوعة الإسلامية الميسرة، الصادرة عن الأكاديمية الهولندية الملكية أسماء تلك الأروقة، ثم قالت بعدها مباشرة: (إن أهمية الجامع الأزهر في العالم الإسلامي لا يوضحها شيء أكثر من هذه القائمة، من أسماء الطلاب الوافدين، من بلاد خارج مصر)(٤).

---

(١) المواعظ والاعتبار، بذكر الخطط والآثار /٢/٢٧٦/، ط: دار الطباعة المصرية ببولاق، مصر، سنة ١٢٧٠هـ.

(٢) انظر ترجمة حافظ الدين المنهلي عند الحافظ السخاوي في الضوء اللامع /٧/٢٩٠/، وانظر وصفه بمشيخة أحد أروقة الأزهر في الضوء اللامع أيضا /١١/٢٢٨/.

(٣) اقتباس من تقرير مطول عن الأزهر، في مجلة: ناشيونال جيوغرافيك /ص٤٢/، العدد الصادر بتاريخ يوليو، سنة ٢٠١٣م، وانظر: الوثائق الأرشيفية للأزهر الشريف والمعاهد الدينية /ص٥٣ ـ ٥٦/.

(٤) الموسوعة الإسلامية الميسرة /١/٦٨/.

بل تعدَّت الأروقة التسعين رواقًا، بقي منها اثنان وخمسون رواقًا في القرن التاسع عشر الميلادي، وبجوار الأروقة عمرت الحارات المحيطة بالأزهر، حيث تأجر الطلاب البيوت في حارات ممتدة ومحيطة بالأزهر، حتىٰ غدا هو المنطقة المركزية، التي تحيط بها الحرف والصناعات الخادمة للعلم، وتحيط بها المساجد والزوايا التي كانت تشبه قاعات دراسة ملحقة بالأزهر، وتحيط بها الحارات التي اتخذها الطلاب الغرباء للسكنىٰ، كحارة العفيفي، والزرافة، والبشابشة، والسليمانية، والجيزاوية، والزهار، والمناصرة، وغيرها، مما أشار إليه الدكتور حسين مؤنس وغيره.

ولابد من لمحة حول الأروقة الأزهرية، والحارات الأزهرية، أما الرواق الأزهري فهو عبارة عن غرفة أو مجموعة غرف، يقيم فيها جماعة من طلاب جهة واحدة أو جهات مختلفة، وأما الحارة فهي مجموعة من الخزائن الخشبية توضع بجوانب الأزهر من الداخل، ليحفظ فيها الطلاب أمتعتهم، وقد يبيتون ليلا بجوارها، والفرق بينها وبين الأروقة أنها ليس لها باب.

(والأروقة هي الوحدات التنظيمية الأساسية في مجتمع العلماء، التي يتوزع عليها الطالب عند التحاقه بالأزهر، ويظل مشهورا بالرواق الذي ينتمي إليه حتىٰ بعد تخرجه، والأروقة بالنسبة للمصريين تحدد علىٰ أساس إقليمي أو مذهبي أو شخصي، نسبة للشخص الذي أنشأ الرواق، وكان كل طالب يأخذ طريقه إلىٰ الرواق علىٰ أحد هذه الأسس، أما بالنسبة للأغراب أي غير المصريين فكانت الأروقة تحدد علىٰ أساس إقليمي فقط، تبعا للبلاد الوافدين منها)[1].

وهذا مسردٌ لذكر أروقته وحاراته، قيدته من (دفتر بطلاب القسم الثانوي للأزهر سنة ١٣٣٤هـ دراسية، جهة جهة، أنشئ يوم ٢٢ صفر، سنة ١٣٣٥هـ، الموافق ١٨ ديسمبر سنة ١٩١٦م)، ومن (السجل الخصوصي للطلبة الغرباء من سنة ١٣٥٢هـ ـ ١٩٣٣): رواق معمر، رواق الشراقوة، رواق الصعايدة، رواق البحاروة، رواق الأبتغاوية، رواق الفشنية، رواق الفيمة، رواق الطبرسية، رواق الحنفية، رواق الحنابلة، رواق الأتراك، رواق الحرمين، رواق المغاربة، رواق الشوام، رواق السنارية، رواق الجاوة، رواق الجبرت، رواق اليمن، رواق البرابرة، رواق البرناوية، رواق الأكراد، رواق الهنود، رواق الأروام، رواق صليح، رواق الصين، رواق السليمانية (الأفغان)، رواق درافور، رواق البغادة أو من لا جهة لهم، رواق البغدادية.

وأما حاراته، فلكل حارة شيخ ونقيب، ومنها: حارة البشابشة، حارة الزراقنة، حارة العفيفي، حارة البجيرمية، جارة الجيزاوية، حارة المناصرة، حارة الشنونانية، حارة الزهار، حارة النفاروة، حارة السليمانية، حارة الممشىٰ، حارة الجوهرية، حارة الأجاهرة، حارة الواطية[2].

---

(١) مجتمع علماء الأزهر في مصر ١٨٩٥ ـ ١٩٦١ /ص٣٣/.

(٢) وانظر أيضا في أروقة الأزهر وحاراته: الأزهر أثر وثقافة /ص٧٣ ـ ٨٢/، والأزهر في ألف عام /١٨٤/٣ ـ ١٩٠/.

وأنت تجد في كل رواقٍ من أروقته خليطًا من الأعراق والجنسيات، التي تنصهر وتمتزج في رحاب الأزهر، فيقول العلامة الشيخ محمود أبو العيون: (ويسكن رواق الأتراك: الترك، الشراكسة، الداغستانيون، الكرجيون، التتر، البولونيون، الرومانيون، البلغاريون، اليوغسلافيون، الألبانيون، القوقازيون، أهل تركستان: الصيني والروسي)(١).

وفي (مجلس الأزهر الأعلىٰ) عند الحديث عن انتخاب شيخ لرواق المغاربة أن الرواق يشتمل علىٰ أربع طوائف وهي الطرابلسية، والتونسية، والجزائرية، والمراكشية(٢).

وهذا الذي صنع لمصر الصيت العلمي الموقر، في أنحاء العالم الإسلامي شرقًا وغربًا، قال الأستاذ مصطفىٰ بيرم في كتاب: (الأزهر): (حدثنا الكثير من الأقطار المختلفة، ممن شافهناهم واثقين بهم: أن المتخرج الأزهري حيثما كان، عراقيا أو كرديا، لا يعادل به أغلب سكان تلك الأقطار أكبر عالم لديهم لم يتخرج من الجامع المذكور، فترىٰ لهم من الخضوع لعالمهم الأزهري، والإصغاء لقوله، والصدع بأمره، ما ليس لغيره من العلماء، حتىٰ بلغ من ذلك أن مجرد انتساب الرجل للأزهر في بعض الأقطار الإسلامية كاف في سماع قوله، وإطاعة أمره.

وهذا من أعظم الأسباب التي جلبت وفود بعض أهالي البلاد القاصية إلىٰ الأزهر للتعلم، كي يصل بذلك إلىٰ إجلال قومه له، وإكبارهم إياه، فمكان الأزهر لدىٰ عامة المسلمين مكان السويداء من الفؤاد، فتراهم متهللين مستبشرين إذا حدثوا بحديث تعظيمه، وحسن العناية بأهله، نادمين إذا ألقي إليهم ضد ذلك)(٣).

قال بيارد دودج في كتاب: (الأزهر في ألف عام): (ومما يثير الفخر والإعجاب أن نرىٰ خريجي الأزهر قد حملوا مشاعل الثقافة الإسلامية وتعاليم الدين الحنيف، وأنَّ الأزهرَ نفسه كان المنارة التي تشع النور في العالم، من سيبريا إلىٰ نيجيريا، ومن مراكش إلىٰ الصين، قبل أن يسمع الناس بأمريكا، أو الكشف عنها بعد، كما كانت البقاع الشمالية من أوربا تعيش في تيه الضلالة والجهل، برابرة بدائيين)(٤).

فهذه شذرةٌ ولمحةٌ من رصد الباحثين عن أثر الأزهر الشريف، والذي امتدَّ وتفرَّق في الآفاق، وسرىٰ بالتنوير والتبصير، من خلال منظومة عمل اجتماعي، يرتبط فيه العلماء الأزهريون بالمجتمعات التي يعايشونها ارتباطًا عميقًا، حتىٰ تنضح منهم العلوم والمعارف والآداب علىٰ من يحتكُّ بهم، فيرتفع

---

(١) الجامع الأزهر نبذة في تاريخه /ص٩٤/.

(٢) مجلس الأزهر الأعلىٰ (سنة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م) /ص٤/.

(٣) الأزهر /ص١٩/، ط: مطبعة التمدن، مصر، سنة ١٣٢١هـ.

(٤) الأزهر في ألف عام /ص١٧٥/، ط: ترجمة دكتور حسين فوزي النجار.

مستوى العلم والمعرفة والأخلاق، ويجد منهم في المواقف والأزمات والنوازل الرأي الحصيف، والبصيرة النافذة، وبعد النظر، والاهتداء إلى المخارج الحكيمة من الأزمات التي تطيش فيها العقول والآراء، فيشهد الناس لهم بالمصداقية، وللأزهر الشريف بالعرفان والرفعة.

وهذا الصنيع هو الذي حفر للأزهر الشريف منزلة عميقة في وجدان الشعوب، لا بالكلام والشعارات، بل بالأثر الذي يغوص عميقًا في واقع الناس، ويقدم الحلول والمخارج والأطروحات النيرة، التي يجد الناس فيها الأمان والسكينة.

قال الأستاذ هاشم الإمام: (ومصر قبلة طلاب العلم، وإليها يفد الدّارسون من مختلف بلدان العالم الإسلامي لينهلوا من مؤسساتها العلميّة العريقة، التي كانت وما زالت ترفد العالم الإسلامي بالعلماء والفقهاء والقضاة والوعّاظ وأئمة المساجد، وتنهض بدور عظيم في إحياء التراث الإسلامي تحقيقًا ونشرًا.

ولعلّ أعظم هذه المؤسسات العلميّة وأقدمها «الأزهر الشريف»؛ فإليه يهرع الطلاب ليكرعوا من صافي علمه، ولينالوا شرف التخرّج فيه، والانتماء إليه، فقد كانت كلمة «أزهري» قديمًا ترادف كلمة «عالم»، وذلك قبل أن تفتر الهمم، ويطلب الدين من أجل الدّنيا، وتصير الشهادة غرض الطالب، والوظيفة مبتغاه، بل إنّ أهلنا في السودان جعلوا كلمة «أزهري» علمًا سمّوا به بعض أبنائهم، كما سمّوا أيضًا كثيرًا منهم بأسماء المشاهير من علماء الأزهر، مثل: الدرديري، والصّاوي، والحنفي، والنفراوي، وعليش وغيرهم)[1].

(١) من مقال للأستاذ هاشم الإمام، نشر في جريدة: سودانيل، بتاريخ ٢ يونيو، سنة ٢٠١٠م.

إِضَاءَةٌ
في تشابك أسانيد الأزهريين في العلوم والفنون المختلفة بأسانيد علماء الأقطار

ولقد أفضىٰ ذلك كله إلىٰ استبحار حركة العلم، مع التنوع الواسع في الوافدين وأعراقهم وجنسياتهم، واختلاف أوطانهم وبلدانهم، مع كثرة الوافدين والنازلين من علماء الأقطار في رحاب الأزهر الشريف، إلىٰ أن تنشأ حركةٌ عجيبةٌ من التلاقح، وتبادل العلوم والمعارف، وتنقيح طرائق التعليم، وتبادل الخبرات العلمية.

حتىٰ قال العلامة المهدي البوعبدلي: (كما أن مصر كانت أعظم محطة يقيم فيها الحجاج المغاربة، في طريقهم إلىٰ الحج، ذهابا وإيابا، علىٰ اختلاف طبقاتهم، وكان العلماء منهم يقصدون مدة إقامتهم في القاهرة: الأزهر، الذي كان ملتقىٰ العلماء المصريين، والواردين علىٰ مصر من مختلف البلاد الإسلامية، فيتصلون بهم، ليتبادلوا معهم الإجازات والتآليف، ثم يفيدون ويستفيدون من حلقات الدروس التي يقيمونها في الأزهر، أو يحضرونها، كما هو مبين بتفصيل في جميع الرحلات، واجتماع العالم في طريق الحج، ووقوفه بالأزهر للإفادة والاستفادة، كان جانبا هاما يراعىٰ في مقاصد الحج)(١).

وقد قال العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثري: (كانت أسانيدُ علماء دار الخلافة في علوم التفسير، والحديث، والفقه، والأصلين، والعلوم العربية متشابكة مع أسانيد علماء الحجاز، ومصر، وحلب، والعراق، والبلاد المغربية، لكثرة التواصل بين علمائها برحلاتهم، إما طلبًا للعلم أو نشرًا له)(٢).

وهذا ملحظ دقيق من العلامة الكوثري؛ فإن الالتفات إلىٰ ذلك التداخل الواقع في الأسانيد من شأنه أن يفضي إلىٰ الكشف عن ظواهر علمية عجيبة في حركة العلم في الأقطار، وتداخل مناهج علماء الأمصار في التعليم والتفقيه، مع بقاء فوارق وخصائص لكل مدرسة علمية.

ثم إنَّ العلامة المسند السيد سالم بن جندان باعلوي - ﷺ - قد أخذ هذا المعنىٰ الجليل من العلامة

---

(١) علاقات الجامع الأزهر بالجزائر بمناسبة عيده الألفي /ص٦٥/، ضمن: الأعمال الكاملة للشيخ المهدي البوعبدلي، ط: عالم المعرفة، الجزائر، سنة ٢٠١٣م.

(٢) مقالات الكوثري /ص٥٧٢/.

الكوثريِّ - رحمه الله - فنزَّله علىٰ علماء حضرموت، من الأئمة السادة الأشراف آل باعلوي، زينة تلك الديار وبهجتها، بل بهجة الدنيا بما فيها، فقال في ثبته المسمىٰ: (روضة الولدان): (وكانت أسانيد أسلافنا العلويين، وعلماء حضرموت في علوم التفسير، والحديث، والفقه، والعلوم العربية، متشابكةً مع أسانيد علماء الحجاز، واليمن، ومصر، والشام، والعراق، وبلاد المغرب، وأفريقية، والهند، وجاوة، لكثرة التواصل بين علمائها برحلاتهم، إما طلبًا للعلم أو نشرًا له)[1].

قلت: وأنا أنسج علىٰ غرار كلام هذين الشيخين، وأنزِّل هذا الكلام علىٰ أهل مصر، فأقول: وكانت أسانيد الأزهريين في علوم التفسير، والحديث، والفقه، والأصلين، والعلوم العربية، وغيرها من العلوم، متشابكةً مع أسانيد علماء الشام، والعراق، والهند، والحجاز، واليمن، وتركيا، والمغرب الأقصىٰ، وبلاد التكرور، وسائر الأقطار، لكثرة وفود العلماء إليها، ومرورهم بأراضيها عند ذهابهم إلىٰ الحج، ولكثرة مدارسها، وعلمائها، وانتشار العلم بها، ولكونها مركزَ العالم القديم، فكانت محطَّ الرحال، ومنتهىٰ الآمال، فامتزجت فيها أسانيد المشارقة بالمغاربة، لكثرة العلماء النازلين بأرضها، وكثرة التواصل بين علمائها، إما طلبًا للعلم، أو نشرًا له[2].

وهنا ملحظٌ مهمٌّ، وهو التشابك العجيب الحاصل في أسانيد علماء الأمة؛ إذ تمتزج أسانيد الحجازيين، والمصريين، والشاميين، والمغاربة، والهنود، وغيرهم من علماء الأقطار المختلفة، فلا تزال تلتقي وتفترق، وتتداخل وتمتزج، بحيث يقتضيك العجب إن ذهبت تستقصي حركة أسانيد علماء الأمة، كيف تصعد وتهبط، وتنشعب وتلتقي، وتمتزج وتفترق.

والسبب المحرك لذلك هو الرحيل، والانتقال، والسفر، والسياحة، للأغراض المتنوعة، من طلب للعلم، وسفر للحج، وغير ذلك من الأغراض.

قال العلامة الشيخ محمد الفاضل بن عاشور: (واتصلت سلاسل الرواية والملاقاة وتلقي الدروس كامل القرن الثاني عشر قوية نامية متتالية، وفيه شدَّ كثيرٌ من التونسيين الرحلة إلىٰ الأزهر؛ لاستكمال تخرجهم فيه بالأساتذة الأعلام، الذين كانت سمعتهم السائرة تجلب إليهم الشادين في طلب العلم من الآفاق، لاسيما وقد أثرت القرون الماضية في تشابه مناهج الدراسة، واتحاد الكتب التي يزاولها الدارسون، ويعتني بتقريرها والتعليق عليها المدرسون والشراح والمحشون.

فـ«مختصر خليل»، وكتب القرافي، والبيضاوي، وكتب ابن هشام، و«شرح الأشموني علىٰ الألفية» وكتب العضد، والتفتازاني، وكتب ابن حجر، والسيوطي، والقاضي زكريا، وأسانيد هؤلاء الثلاثة الأخيرين

(١) روضة الولدان، في أسانيد سالم بن جندان /١/٩/، مخطوط، تحت يدي مصورة منه.
(٢) أسانيد المصريين /ص١٠٧/.

ذكرًا، هي التي كان عليها مدار الدراية والرواية، على السواء بمصر وتونس، وعليها عكف الطلبة، وبها تخرج العلماء في المعهدين العظيمين، الأزهر والزيتونة.

ففي الوقت الذي أقبل فيه الشيخ محمد بن سعيد الحجري، الملقب بالنجم الثاني، على جامع الزيتونة آتيًا من قرية أبي حجر، في الساحل الشرقي التونسي، كان اثنان من تلك البلاد الساحلية نفسها قد وفدا على الجامع الأزهر، وهما: الشيخ محمد سعادة، والشيخ عبد الرحمن بن جاد الله البناني، أما الشيخ محمد سعادة فقد رجع إلى تونس مملوء الوطاب، متين الأسباب، من دروس الشيخ محمد الزرقاني، والشيخ أحمد الفقيه، والشيخ عبد الرؤوف البشبيشي، ومن أسانيد الشيخ علي الطولوني، والشيخ عيد النمرسي)[1].

وهذا هو العلامة محمد بن محمد الأمير الكبير، مسند مصر في زمانه، في: ثبته الأشهر: (سد الأرب) والذي عليه مدار رواية المصريين في زمانه، يروي فيه عن عشرة من الشيوخ؛ منهم اثنان من المغاربة، وإذا ارتقيت إلى مشايخه رأيت في مشايخهم وفي تلامذتهم من المشارقة والمغاربة عددًا، على نحو من التداخل عجيب.

وثبت الأمير ـ وهو مفخرةٌ لأهل مصر والأزهريين في عصر الأمير وما بعده، لأنه محررٌ، حسن السياق ـ تلقاه أقرانه فمن دونهم بالقبول، واعتمدوه وأحالوا إليه، وجعلوه مدارَ أسانيدهم، فترى الواحد منهم يقول: وأنا أروي الكتاب الفلاني عن شيخنا فلان، عن فلان، عن الأمير بما في ثبته، ولا تنس أيضًا شيوع الاعتماد عليه عند المشارقة والمغاربة.

قال العلامة الشيخ محمد المكي بن مصطفى بن عزوز ﷺ: (ثبت هذا الشيخ مع اختصاره احتوى على أسانيد كثيرة، بعضها بالتصريح وبعضها بالتلويح، والناس أكثر تعلقًا به من غيره، لاسيما المصريين، يكاد الأزهريون ومن يأخذ عنهم لا تجد عندهم غير ثبت الأمير، وأكثر الناس لا يهتدي إلى دقة مسالكه، أو لا يظفر بتفصيل مجملاته)[2].

وقال عنه وعن ثبت رفيقه العلامة عبد الله الشرقاوي العلامةُ النورُ حسن العطار شيخ الجامع الأزهر في إجازته للدمنتي: (ومن أجل ثبت عليه الآن الاعتماد، في طريق الإسناد، ثبت شيخنا الأمير والشرقاوي، وغالب بقية الأشياخ المصريين آخذُ عنهما وراوي، وثبتهما مشهور، وأمرهما في الفضل غير منكور، فهذان الثبتان من غرر مروياتي، وأفضل ما اكتسبته في حياتي)، فانظر إلى هذه الكلمة الجليلة من

(١) من بحث جليل عنوانه: (امتزاج الأزهر بالزيتونة)، في المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامية ٢٢ من ذي الحجة ١٣٨٩هـ = ٢٨ فبراير ١٩٧٠م.

(٢) عمدة الأثبات، في الاتصال بالفهارس والأثبات /ص٦٨/، ط: الدار المالكية، تونس، سنة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

شيخ الإسلام الشيخ حسن العطار، وهو من هو علمًا وجلالةً.

والمقصود أنه قد ارتضىٰ العلماء ثبت الأمير الكبير، وتلقوه بالقبول، وأحالوا إليه، وأجازوا تلامذتهم بما تضمنه، لما أنه بالغ في تحرير مروياته، وذكر شيوخه، وأسانيده إلىٰ الكتب المعتمدة في الفنون المختلفة، والأحاديث المسلسلة التي تحملها، فكان ثبته فتحًا جديدًا، وأمرًا غير مألوف عند المصريين في ترتيب أثباتهم، وقد كانوا قبلها يوردون أسماء مشايخهم كيفما اتفق، كما تراه في ثبت الشبراوي، وثبت الدمنهوري، وثبت الشنواني، وسند الأسقاطي، وثبت أحمد بن محمد الطهطاوي، وغيرها من الأثبات.

ومن هنا ينفتح باب مهمٌّ في مقارنة أثبات المصريين بثبت الأمير، والنظر المطول في مزايا ثبت الأمير علىٰ غيره، من حيث الجودة في توظيف الأسانيد في مواضعها، وإتقان صنعة الكتاب، مما ترك تلك المنزلة العالية لثبت الأمير.

ولم يزل الكتاب موضعَ عنايةٍ من علماء مصر، يتداولونه، وينسخونه، ويجيزون به، حتىٰ كانت فترةٌ في الأعصار الأخيرة، هُجِر فيها الكتاب، وأهملوا وصل أسانيدهم به، حتىٰ رأيتُ مرة أحد أشياخنا المصريين المسندين، وقد جاءه الطلبة بنسخةِ ثبت الأمير ليجيزهم به، فأعاده إليهم، وذكر لهم أنه لا يرويه، مع أن أسانيد الشيخ موصولة به بعلو، لكن قلَّت العناية بثبت الأمير حتىٰ آل الأمر إلىٰ ما وصفته، وأيضًا ما خدمه ولا اعتنىٰ به في المتأخرين مصريٌّ واحد، حتىٰ خدمه وطبعه العلامة الشيخ محمد حبيب الله الشنقيطي ت١٣٦٣هـ، وقد طبعت نسخته المذكورة في مطبعة المعاهد، بجوار قسم الجمالية في مصر، سنة ١٣٤٥هـ.

ثم نهض لخدمته وتحريره، ووصل الأسانيد بأسانيده مسند العصر العلامةُ الشيخ محمد ياسين الفاداني، ومع ذلك فمطبوعةُ الفاداني مهجورةٌ، غيرُ شائعةٍ عند أهل مصر، لا تكاد تجدها إلا بعد عنتٍ ومشقةٍ، في خزانات الكتب الخاصة.

وأقول: قد طرأت أجيال هنا مؤخرًا غابت عنهم أهمية هذا الباب وهجروه وأهملوه، فهجرت الكتب والأثبات التي تكشف عن كثير من تراجم الأزهريين، وتعلق قلب طالب العلم بهم، وبأن يكون له طريق وسند يصله بهم، فضاع بضياع ذلك جانب عظيم من جوانب العلم في الأزهر.

وكان مسند الدنيا العلامة الحافظ محمد مرتضىٰ الزبيدي ت١٢٠٥هـ ﷺ قد نهض لجمع جزء حديثي إسنادي لطيف، عنوانه: (أسانيد الأزهريين)، وقد اطلعت علىٰ مخطوطه، وهو مفيد.

فياليت أحدًا من نبغاء الأزهريين ينهض للتذييل عليه، وجمع تراجم أعيان المسندين من الأزهريين إلىٰ

زماننا هذا، ليكون ثبتًا جامعًا، وبرنامجًا حافلًا، يشتمل على تراجم المسندين الأزهريين ذوي العناية بهذا الفن الشريف، ويرصد سلاسل أسانيد الأزهريين، وكيف تتشابك مع أسانيد المشارقة والمغاربة.

وقد اعتنيت بهذا الباب اعتناءً خاصا فأخرجت كتابًا اسمه (أسانيد المصريين)، لعله أن يكون حلقة متممة لثبت الأمير، ولكتاب المرتضى الزبيدي.

إضَاءَةٌ
في رحلات الأزهريين

جاء في مجلة (الإسلام) لصاحبها حضرة الأستاذ الشيخ أحمد علي الشاذلي في عدد صفر سنة ١٣٢٣هـ ما نصه: (ألقىٰ حضرة العالم الفاضل عزتلو محمود بك سالم صاحب مجلة عرفات الغراء خطبة بليغة، في الجمعية الجغرافية، باللغة الفرنساوية، في موضوع سياحات المسلمين المتقدمين ونشاطهم للسير في الأرض والاعتبار، اتباعا لأوامر الله تعالىٰ بدليل: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾[1]، للإفادة والاستفادة، سواء كان للتجارة أو للعلم، ولفائدتها نشرناها بحروفها، مترجمة بقلم حضرة الأديب البارع محمود أفندي سلامة صاحب جريدة الواعظ الأغر، ونصها:)، ثم أورد نص المحاضرة علىٰ مدىٰ نحو من عشرين صفحة[2].

وفي هذا السياق جاءت رحلات الأزهريين لتمثل ظاهرة مهمة، تستحق التتبع والرصد، نظرًا لما تشتمل عليه من حركة علمية في غاية النشاط، تمتد إلىٰ نطاق جغرافي شديد الاتساع والتباعد، وتؤدي إلىٰ آثار علمية واجتماعية في غاية الثراء، وتشهد للقاهرة من زاوية أخرىٰ بأنها ظلت مصدر إشعاع وتنوير كبيرين عبر زمن ممتد.

وتمثل هذه الرحلات وجها مهما من وجوه المدِّ الأزهري المصري الفاعل المؤثر، الذي يبقىٰ معه علىٰ مرور الزمان أثر مصر قويا وحاضرا في وجدان الشعوب.

ويضيق النطاق هنا عن رصد هذه الظاهرة بما يليق بها، نظرًا لضخامتها وثرائها وكثرة تفاصيلها، حتىٰ إني أجزم أنه لا يمكن الإحاطة بتضاريس هذه الظاهرة إلا من خلال دراسة تفصيلية توثيقية مستقلة، ينهض بها باحث خبير وصبور، حتىٰ يتمكن من جمع هذا الخضم الواسع من تحركات علماء الأزهر في أرجاء المعمورة، يحملون مشاعل العلم والتنوير، وينزل بهم الأمان والمعرفة حيثما نزلوا.

ومما استوقفني كثيرا في هذا الباب ما ختم به العلامة الشيخ حسن أفندي توفيق العدل الأزهري رحلته الماتعة: (رسائل البشرىٰ، في السياحة بألمانيا وسويسرا)، حيث ذهب يعدد رحلات قدامىٰ علماء الإسلام، الذين وسعوا من خلال رحلاتهم نطاق علم الجغرافيا وعادات الأمم، ثم استعرض جهود

---

(١) سورة الأنعام، الآية ١١.

(٢) مجلة الإسلام /عدد ٢ من السنة الثامنة /ص٢٥ ـ ٤٣/، الصادر بتاريخ صفر سنة ١٣٢٣هـ الموافق أبريل سنة ١٩٠٥م.

الرحالة الأصطخري، وابن حوقل، والشريف الإدريسي، وابن الوزّان، وابن بطوطة، والغرناطي، إلىٰ أن قال: (وها أنا آخذ في تتبعهم وتعرف أعمالهم، التي شغف بها علماء أوربا، واشتهروا لديهم بجميع المدارس العليا، كاشتهار علماء النحو بين طلبة الجامع الأزهر العامر، ولست ترىٰ عالما جغرافيا أو تاريخيا بقارة أوربا إلا ولديه علم بتلك الكتب، إن لم نقل بما حوته.

ولم أقصد سادتي بحديثي هذا تشدقا، كلا بل بعثًا من نشاطكم، وتنبيهًا من التفاتكم نحو ما قامت به أسلافكم، وتعبوا لأجله، وواصلوا الأيام والليالي في رقمه، أكان عبثًا ما جاءوا به حتىٰ نتركه وراءنا ظهريًّا، أم لعبًا فنهزأ به، ألم نكن نحن الجديرين بأن نقدر لأسلافنا قدر أعمالهم، فنبحث وننقب عنها، وندرسها، فنعلم ما هدونا إليه، وننسج علىٰ منوالهم، ونتمم مشروعاتهم)[١].

كان هذا الكلام من الأستاذ الأزهري الجليل الشيخ حسن العدل سنة ١٣٠٧هـ، وأنا أقول اليوم: إن ما ندبجه ونرقمه ونجمع أطرافه في هذه الجمهرة من علوم الأزهريين وجهودهم واهتماماتهم ورحلاتهم ومؤلفاتهم لا نقصد به التشدق، بل بعث النشاط نحو جهودهم الخارقة الجليلة، حتىٰ ننسج علىٰ منوالهم، ونتمم مشروعاتهم، ونبني مثل ما بنوا.

وإليك شذرات من أخبار رحلات الأزهريين: فمن ذلك أن العلامة الشيخ عبد الخالق عبد الله المنوفي الشافعي الأزهري، وقد كان حيًّا نحو سنة ١١١٠هـ الموافق سنة ١٦٩٨م، وقد رحل إلىٰ مكة المكرمة، ثم أصبح فيما بعد شيخ القراء في دلهي بالهند، وله غير كتاب في القراءات[٢]، وقال عنه الشيخ إلياس الساعاتي: (ارتحل إلىٰ الديار الهندية عام ١١٥٠هـ خمسين ومئة وألف من الهجرة تقريبًا، فاستقبله حاكمها في دلهىٰ عاصمة الهند؛ ورحب به أعظم وأشد ترحيب؛ فأكرمه وعززه ونصَّبه بمنصب شيخ القراء بالهند، فقام بنشر القرآن والقراءات؛ حتىٰ انتشر علم القراءات بالديار الهندية، وارتحل إليه الحفاظ والقراء ليقرؤوا عليه وينهلوا من علمه، وظل كذلك لمدة ما يقارب خمسين عامًا لا يكل ولا يمل في تعليم أبناء المسلمين وتلقينهم القرآن والقراءات حتىٰ لم يكن في الهند أحد إلا وقرأ عليه، وكان له الفضل بعد الله في مسيرة علم القراءات إلىٰ يومنا هذا، وسنده هو السائد والمنتشر لدىٰ علماء وقراء الهند)[٣].

ومن ذلك الشيخ علىٰ بن عمر القناوي الشريف الحسيني الأزهري المتوفىٰ ١١٩٨هـ، تلميذ شيخ الأزهر الإمام الحفني، قال الجبرتي: (ثم حبب إليه السياحة، فورد الحرمين، وركب من جدة إلىٰ سورت،

(١) رحلة حسن أفندي توفيق العدل ١٨٨٧م ـ ١٨٩٢م /ص٤٢٠/، ط: مطبعة دار الكتب والوثائق القومية بالقاهرة، مصر، سنة ١٤٢٩هـ ـ ٢٠٠٨م، دراسة الدكتور محمد صابر عرب، إعداد الأستاذ عبد المنعم محمد سعيد.

(٢) تاريخ الأدب العربي من فتح مصر ١٥١٧م إلىٰ الحملة الفرنسية سنة ١٧٩٨م، كارل بروكلمان (ص٢٤٦)، ترجمة عمر صابر عبد الجليل، ط، الهيئة المصرية العامة للكتاب سنة ١٩٩٥م.

(٣) إمتاع الفضلاء بتراجم القراء /٢/١٦٠/.

ومنها إلىٰ البصرة وبغداد، وزار من بهما من المشاهد الكرام، ثم دخل خراسان، ومنها إلىٰ غزنين، وكابل، وقندهار، واجتمع بالسلطان أحمد شاه، فأكرمه وأجزل له العطاء، ثم عاد إلىٰ الحرمين، وركب من هناك إلىٰ بحر سيلان، فوصل إلىٰ بنارس، واجتمع بسلطانها، وذهب إلىٰ بلاد جاوة، ثم رجع إلىٰ الحرمين، ثم سار إلىٰ اليمن، ودخل صنعاء واجتمع بإمامها، ودخل زبيد، واجتمع بمشايخها وأخذ عنهم، واستأنسوا به، وصار يعقد لهم حلق الذكر علىٰ طريقته، وأكرموه، ثم عاد إلىٰ الحرمين، ثم إلىٰ مصر، وكانت مدة غيبته نحو عشرين سنة)[١].

ومن ذلك قول شيخ الأزهر الإمام حسن العطار في إجازته لحسن البيطار: (وقد يسر الله حين سياحتي في الديار الرومية والشامية والحجازية، فرأيت جهابذة فضلاء، وأساتذة نبلاء، قد تسنموا غارب الفضل، واجتنوا ثمار العقل، فأخذت عنهم بعضًا من العلوم، وربحت تجارتي بما استفدته من دقائق المنطوق والمفهوم).

ومن ذلك العلامة الشيخ محمد المصري القناوي[٢] الأدفوي، حيث درس في الأزهر الشريف علىٰ مفتي المالكية العلامة الشيخ سالم السنهوري، وعلىٰ العلامة يوسف الزرقاني، ثم لما تكامل تكوينه العلمي ألف عددًا من المؤلفات، منها شرح العقيدة السنوسية، وشرح الرسالة الشمسية في علم المنطق، ثم تبوأ منصب القضاء، ثم إنه رحل إلىٰ السودان، لنشر العلم وللدعوة إلىٰ الله تعالىٰ، فاستقر في مدينة البربر القديمة، وكانت تعرف بـ(المخيرف)، وبنىٰ بها مسجدا، فأقبل عليه طلاب العلم من كل حدب وصوب.

وقد تتلمذ عليه هناك جماعات من طلبة العلم في أجيال متعاقبة، من أشهرهم: الشيخ محمد ابن عيسىٰ بن صالح، المعروف بسوار الذهب[٣]، فقد لزم شيخه الأزهري المذكور، وتخرج به، حتىٰ صار من أجل علماء السودان.

ومن تلامذة الشيخ القناوي الأدفوي الأزهري أيضًا حفيده محمد المضوي، حيث أفاد من جده، وبرع في علوم المعقول، حتىٰ ألف حاشية علىٰ العقائد النسفية، هي أوسع مادة، وأغزر من حاشية العلامة

(١) عجائب الآثار، في التراجم والأخبار /٢/١٢٨/.

(٢) قناوي: اسم لأكثر من عائلة في السودان، منسوبين إلىٰ قنا بمصر، واشتهر آل قناوي بالخرطوم بحري، جاء جدهم نصار علي من قنا أول الفتح المصري للسودان، وانظر: موسوعة القبائل والأنساب في السودان وأشهر أسماء الأعلام والأماكن /٥/١٨٩٥/، ومحمد المصري القناوي المذكور ولد في أدفو، في صعيد مصر، ودخل ديار الفونج أول النصف الثاني من القرن العاشر الهجري، وعرف أبناؤه بالمصاروة، وانظر: موسوعة القبائل والأنساب /٥/١٨٩٦/.

(٣) انظر في نسبه ونسبته كتابا مهما عنوانه: نسبة الأستاذ الجليل المغفور له الشيخ ساتي محمد سوار الذهب، جمعه ورتبه الشيخ ساتي زيادة ساتي أحمد، ط: (د ن)، إلا أنه مسجل بسجل الأنساب العام بنقابة الأشراف تحت رقم ١١٦، بتاريخ ١٣٧٠هـ - ١٩٥١م.

السعد، ثم تصدر هذا الحفيد للتعليم، فكان من تلامذته: الشيخ خوجلي عبد الرحمن، المعروف بأزرق توتي.

وكان الحفيد الشيخ المضوي قد اشتهر أمره في الآفاق، فجاء إليه طلبة العلم من أماكن بعيدة، حتى رحل إليه أولاد سوار الذهب من دنقلا، ولما أتموا تعليمهم عنده رجعوا إلى بلادهم.

ثم رحل الشيخ المضوي إلى الجنوب، فنزل في شندي، وأقام فيها زمنا، يدرس الفقه المالكي، فدرس المختصر الخليلي، والرسالة، وعددًا من الكتب في البلاغة والتفسير والحديث، وزاد عدد طلبته على ثلاث مئة طالب[1].

ولعل أشهر الرحالة الأزهريين على الإطلاق هو الأستاذ الجليل الشيخ رفاعة الطهطاوي، وقد سجل مشاهداته في باريس في رحلته المشهورة: (تخليص الإبريز، في تلخيص باريز).

وفي وقت رحيله إلى فرنسا توجه قرينه العلامة الجليل الشيخ محمد عياد الطنطاوي شرقًا إلى روسيا، وأقام في سانت بترسبورج إلى وفاته وسجل مشاهداته في رحلته: (تحفة الأذكيا، في أخبار بلاد روسيا)، ولم يزل أثره ساريا في المستشرقين الروس، حتى كتب عنه كراتشكوفيسكي كتابا مهما، ترجم إلى العربية وطبع.

ومما يدل على عمق أثره أنه بقي نقطة التقاء في العلاقات المصرية الروسية، حتى لقد نظمت الجمعية المصرية الروسية للثقافة والعلوم بالتنسيق مع مكتبة الإسكندرية في العام الماضي سنة ٢٠١٦م احتفالا حضره السفير الروسي بمصر وزوجته ووزير الثقافة المصري حلمي النمنم، وغيرهم من القيادات والمثقفين والأدباء والعلماء، في الذكرى المئة والخامسة والخمسين على وفاة الشيخ عياد الطنطاوي أول معلم للغة العربية في روسيا، وكان الاحتفال في رحاب قريته نجريج.

وقد أطلعني رئيس دار الكتب المصرية السابق سعادة الدكتور شريف شاهين في مكتبه على مطبوعات هذا الاحتفال في اليوم التالي لانعقاده، فتمنيت أن لو كنت أعلم قبلها لأحضر هذا الاحتفال، إجلالا لهذا العلم الأزهري الكبير، الذي أثمرت رحلته خيرا كبيرا في علاقات مصر بروسيا، وبقي أثره قويا بعد قرن ونصف من وفاته.

ويتكرر هذا الاحتفال سنويا، وفي سنة ٢٠١٣م على هامش هذا المؤتمر قامت أنباء روسيا بإهداء دار الكتب والوثائق القومية نسخة إلكترونية من المخطوطات النادرة التي تركها الشيخ محمد عياد الطنطاوي، وقد مات ﷺ ودفن بمقابر التتار المسلمين سانت بترسبورج، وهي مجموعة مكونة من ١١٣

(١) دور الأزهر في السودان /ص٣٢/ تأليف محمد سليمان، ط: الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، سنة ١٩٨٥م.

مخطوطة نادرة منها المجموعة الخاصة التي ألفها الشيخ بنفسه.

ومن ذلك مسند عصره العلامة أبو المحاسن القاوقجي، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٠٥هـ، وله رحلة في غرائب أسفاره في مصر والحجاز والشام.

ومن ذلك العلامة حسن توفيق العدل الأزهري الشافعي، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢٢هـ، وله (رسائل البشرى، في السياحة بألمانيا وسويسرا)، و(الرحلة البرلينية)، وقد سبقت الإشارة إليه قبل صفحات.

ومن ذلك واعظ زمانه الأستاذ الجليل الشيخ علي أبي النور الجربي الأزهري، فإن له سياحات عظيمة ببلاد الحجاز وبلاد العرب وسوريا وتركيا، واجتمع بكثيرين من أفاضل الغرب والهند والعجم وغيرهم، وأخذ عنه كثيرون منهم(١).

ومن ذلك العلامة صالح بن مهنا القسنطيني الأزهري، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢٨هـ، له رحلة في كتاب مستقل اسمه: (الرحلة الأزهرية).

ومن ذلك العلامة الجليل الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي، حيث جمع في أخبار رحلته كتابا ماتعا عنوانه: (نفحة البشام، في رحلة الشام)، طبع، وهي من أمتع الرحلات وأحفلها بالفوائد والتراجم، وقد اشتملت على تراجم أزهرية نادرة.

ومن ذلك العلامة الشيخ إبراهيم الجبالي الذي رحل إلى الهند في بعثة أزهرية موقرة، لرصد أحوال المسلمين وغيرهم، ورفع تقريرا بذلك إلى شيخ الأزهر، وطبع في كتاب مستقل عنوانه: (دراسة لأحوال الطوائف والهيئات الإسلامية بالهند، وبحث في شئون المنبوذين ومبلغ استعدادهم لاعتناق الإسلام)، ونشر تقريره المذكور في مجلة الأزهر.

وكان من ضمن أعضاء هذه البعثة الأزهرية إلى الهند الشيخ عبد الوهاب النجار، وقد كتب أخبار رحلته هذه في كتابه: (مذكرات عن الهند)، مخطوط.

ومن ذلك العلامة عثمان بن مصطفى الطباع الدمشقي الغزي الأزهري في رحلته: (راحة المستهام، في رحلة الشام)، وفيها معلومات مهمة تتعلق بالأزهر الشريف ورجاله.

ومن ذلك أن قاضي قضاة الأردن العلامة إبراهيم القطان قد دون رحلاته ومذكراته في كتاب طبع

---

(١) الكنز الثمين، لعظماء المصريين /ص١٧٧/، وانظر خبر وصوله من الآستانة بعد سياحة في الولايات العثمانية، واحتشاد الوجهاء لاستقباله في جريدة الإسلام /العدد ١٠ من السنة الأولى /ص٢٣١/ الصادر بتاريخ غرة جمادى الثاني، سنة ١٣١٢هـ، الموافق نوفمبر سنة ١٨٩٤م.

بعنوان: (المذكرات والرحلات للشيخ إبراهيم القطان)، طبع في وزارة الثقافة الأردنية، ويشتمل على أخبار وفوائد حول رحلته للأزهر، ومشاهداته فيه.

ومن ذلك أن العلامة محمد بن محمد الخانجي البوسنوي دون رحلته إلى مصر والأزهر في كتاب اسمه: (من أخبار مصر وتاريخها)، لكنه لم يكمله، والقدر الذي كتبه منه مطبوع.

ونزل العلامة الشيخ عبد الله المشد ومعه بعثة إلى الصومال والقرن الأفريقي، ودون رحلته في تقرير منشور، رفعه إلى شيخ الأزهر.

وكذلك شيخ الأزهر الشيخ محمد الخضر حسين حيث جمع كتابا مهما اسمه: (الرحلات)، أتى فيه بفوائد علمية، وأبان عن شبكة علاقات معرفية واسعة.

وكذلك فعل الشيخ عبد الرحمن النجار، ودون رحلته إلى القرن الإفريقي في كتابه: (رحلة دينية إلى أفريقيا).

وقد دون الشيخ علي الجرجاوي رحلته إلى اليابان في كتابه: (الرحلة اليابانية)، وهو مطبوع، وحوله حديث يأتي في ترجمته هنا، وقيد الشيخ محمد عبد العزيز البتشتي مشاهداته في رحلته: (دعاة الأزهر في أندونيسيا)، وكذلك رحلات عبد الوهاب عزام، ورحلات الشيخ محمود حب الله إلى الدول الإفريقية والولايات المتحدة وبريطانيا واليابان، ورحلات الشيخ علي حسن عبد القادر ونشاطه الجليل في بريطانيا، ولم يزل هذا النمط عريقًا وساريًا في عقلية الأزهريين، حتى تشرفت هنا في هذه الطبقة المتأخرة بتقييد شذرات من رحلاتي في كتاب جعلته على غرار تصانيف المحدثين، وأسميته: (البلدانيات)، وهو مطبوع.

إِضَاءَةٌ
في فن السير الذاتية عند الأزهريين

لا حاجة بنا إلىٰ بيان أهمية فن السير الذاتية، وقد تكلمت عن ذلك بالتفصيل في أوائل كتابي: (الذين ترجموا لأنفسهم)، إلا أن الظاهرة التي نحن بصدد رصدها هنا هي ظاهرة السير الذاتية عند الأزهريين خصوصًا، وكيف أنها تمثل رافدًا عظيمًا من روافد رصد أخبار الأزهر، ونمط المعيشة فيه، وملامح عملية التدريس ومهاراتها التفصيلية التي تبلورت علىٰ مدىٰ قرون.

وأضرب لك مثالًا علىٰ ذلك، وهو أن الأستاذ محمد بن مسعود عبد المجيد فشيكة من أعيان مؤرخي الديار الليبية، وقد وفد إلىٰ الأزهر، فجاور في رواق المغاربة لتلقي العلم، إلا أن مدة إقامته لم تطل، ولم تتجاوز السنتين، ولم تصدر له الشهادة التي تفيد ذلك لعراقيل، إلا أنه قيد مذكرات له اسمها: (كأنك معي)، يذكر فيها أن زملاءه من طلاب رواق المغاربة قد عقدوا لجنة لإصلاح الرواق وأوقافه من جميع وجوهه، وكان من أعضائها البارزين: العالم المرحوم الشيخ فرج عبد السلام الفيتوري، ويذكر أن زملاءه جعلوه هو رئيسا لهذه اللجنة، فكان هذا سببًا لاتصاله بالإمام الأكبر الشيخ المراغي، وبلغت اللجنة عنده من الحظوة أن اعترف بها رسميًّا، وكادت تظفر بجميع مطالبها، إلا أن استقالة الشيخ المراغي من مشيخته الأولىٰ حالت دون ذلك، ثم صدر بعد ذلك كتاب اسمه: (الكتاب الأليم عن مظالم رواق المغاربة بالأزهر الشريف)[1].

وأقول: إن هذا الخبر العابر الذي ساقه هذا الرجل الجليل في مذكراته يمثل جانبًا مهمًّا من تاريخ الأزهر لا يجوز إغفاله، ويصلح مثالًا لما نتكلم عنه من أن السير الذاتية للأزهريين مهمة جدًّا، وإذا أراد باحث أن يكتب بحثًا مستقلًّا أو أطروحة ماجستير أو دكتوراه عن رواق المغاربة في الأزهر، فكيف يستقيم له ذلك إلا إذا عرَّج علىٰ هذه اللجنة، واهتدىٰ إلىٰ معرفة أعضائها، ومطالبها، وأطروحاتها، ووثائقها التي رفعتها إلىٰ مشيخة الأزهر.

وكم في بطون السير الذاتية من شذرات عن الأزهر مفرقة ومبعثرة، إذا اجتمعت في صعيد واحد

---

(١) كأنك معي في طرابلس وتونس /ص٣١/، ط: مطبعة ماجي، طرابلس الغرب، سنة ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م، ومشايخ وعلماء طرابلس في الأزهر الشريف /٧٠ و٧١/، ط: دار الرسالة، طرابلس، ليبيا، (تحت رعاية جمعية الفكر الليبية)، سنة ٢٠١٧م.

فإن تاريخ المؤسسة يتكامل، وتلوح لنا جوانبه وزواياه المهجورة، وإذا كانت هذه مذكرات طالب عابر لم يطل مقامه في الأزهر، فكيف بمذكرات من طالت إقامتهم، فقيدوا من أخبار الأزهر ورجاله قدرًا جليلًا ونبيلًا.

وتبرز عندنا في هذا المجال هناك سلسلة كتب ومؤلفات، ألفها الأزهريون، وكلها في سوق مذكراتهم، ووقائع حياتهم.

فكتب الروائي الأستاذ سليمان فياض كتابه (أيام مجاور)، وهو مطبوع، في ذكريات دراسته بمعهد الزقازيق الأزهري، وله مذكرات أخرىٰ مخطوطة لم تنشر.

وكتب الأستاذ الشيخ عبد المتعال الصعيدي كتابه: (حياة مجاهد في الإصلاح)، وهو مخطوط، اطلعت عليه، وتحت يدي مصورة منه.

وكتب فضيلة الأستاذ الشيخ عبد الرحمن حسن كتابًا لطيفًا عنوانه: (جزء من حياتي في الأزهر الشريف وما بعده)، مخطوط، اطلعت عليه، وعندي مصورة منه.

وكتب الأستاذ الشيخ محمد أحمد عبد الجواد الهوريني صاحب تقويم دار العلوم: (حياة مجاور في الجامع الأحمدي).

وكتب شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ محمد الأحمدي الظواهري ﷺ مذكراته في كتابه المهم (السياسة والأزهر)، طبع غير مرة.

ومن ذلك العلامة السيد محمود ابن الإمام الأكبر شيخ الأزهر السيد: عليٰ بن محمد الببلاوي، الحنفي الأزهري فقد ترجم لنفسه في آخر كتابه (التاريخ الحسيني).

وكتب وزير الأوقاف الأستاذ الدكتور محمد البهي (حياتي في رحاب الأزهر: طالب وأستاذ ووزير)، مطبوع ومشهور.

وكتب الأستاذ الشيخ محمد حدو أمزيان الأزهري ورئيس المجلس العلمي في تطوان مذكراته عن حياته في الأزهر، ومذكراته أيام وجوده في أسبانيا، مخطوطة.

ومن ذلك العارف بالله: الشيخ أحمد بن سعد بن عثمان بن علي العقاد الفيومي الشافعي الأزهري، فقد ترجم لحياته في كتابه: (الراح الطهور، في التحدث بنعمة الله الشكور)، مطبوع.

وكتب مفتي الديار الأرترية العلامة إبراهيم المختار بن أحمد عمر الجبرتي الزيلعي كتابه: (جلاء النظر، بأخبار رواق الزيالعة ثم الجبرت بالأزهر)، وقد عني ﷺ بسيرته الذاتية وأخبار مجاورته في الأزهر في

عدد من كتبه ومؤلفاته، مما يشتمل على فوائد نفيسة عن الأزهر وشيوخه.

وكتب المرحوم الحاج محمد تواضع: بانغ شي تشيانغ الأزهري، ذكرياته عن الدراسة في الأزهر في كتابه (ذكريات السنوات التسع في مصر)، طبع بالصينية عدة مرات، وقد وصف فيه الأزهر وتاريخه وأنظمة تعليمه، ومكتبته، وتاريخ الطلاب الصينيين فيه، ووصف المشاهد التي مر في الطريق إلى مصر، والمناظر الطبيعية، وهموم وطنه، وغير ذلك من الأمور.

وكتب العلامة المحدث السيد عبد الله الصديق الغماري كتابه: (سبيل التوفيق، في ترجمة عبد الله ابن الصديق)، وهو سيرة ذاتية له، حافلة بالكثير من أخبار الأزهر الشريف وعلمائه وطبيعة التدريس فيه.

وكتب شقيقه العلامة المحدث السيد عبد العزيز الصديق الغماري مذكراته في كتابه: (تذكرة المؤتسي، بترجمة نفسي)، مخطوط، فيه من أخبار الأزهريين ما لا يجوز إغفاله.

وكتب العلامة الشيخ سليم شُرَّاب كتابه: (سبعة أعوام، في رواق الشوام)، وكتب الشيخ محمد الغزالي السقا سيرة ذاتية بقلمه طبعت في أحد أعداد (مجلة إسلامية المعرفة)، وكتب الدكتور طه حسين (الأيام)، والجزء الأول منه في فترة مجاورته بالأزهر، وللدكتور طه حسين كلام مهم عن الأزهر، والدعوة إلى عدم عقوقه، وكلامه متفرق في عدد من الكتابات، وهو كلام جاء في فترة النضج وخواتيم أمره، فجاء مختلفًا تمامًا عن التصور الهجومي اللاذع الذي خطه في كتاب (الأيام)، وكتب الإمام الشيخ عبد الحليم محمود مذكراته: (الحمد لله هذه حياتي)، وكتب الشيخ محمد المبارك عبد الله مذكراته واسمها: (مع التعليم الديني في السودان)، وكتب الأستاذ الدكتور محمد إبراهيم الفيومي مذكراته، واسمها: (أيامي: حديث نفس مغتربة)، وكتب الأستاذ الدكتور محمد غلاب مذكراته، واسمها: (نفثات ولمحات)، وكتب العلامة محمد الخانجي البوسنوي الأزهري كتابه الجليل: (الحاوي، للرسائل والإجازات والمهمات والفتاوي) مجلدان، ترجم فيه لنفسه ترجمة مسهبة مفصلة، وكتب فضيلة الأستاذ الدكتور محمود حمدي زقزوق وزير الأوقاف الأسبق وعضو هيئة كبار العلماء سيرة حياته المسماة: (رحلة حياة، ذكريات وحقائق وتجارب حياتية)، وكتب قاضي قضاة الأردن الشيخ إبراهيم القطان مذكراته المسماة: (المذكرات والرحلات للشيخ إبراهيم القطان)، طبعته وزارة الثقافة الأردنية، وغيرها كثير مما كتبه الأزهريون في هذا المجال.

ومن الفوائد التي يشتمل عليها هذا اللون من مؤلفات الأزهريين أن عددا من أولئك الكتاب سجل انتقادا على طريقة التعليم في الأزهر، وهم جميعا أزهريون، من أبناء الأزهر، وقد صار لهم شأن نابه، حملهم على كتابة مذكراتهم، فينبغي جمع انتقاداتهم جميعا، والنظر فيما هو موضوعي وعلمي ودقيق،

فيؤخذ به في تطوير عملية التعليم، حتى تكون دائمة التحديث والتقويم بتغذية مرتجعة نابعة من ملاحظة انتقاد صادق.

ونحن نتكلم هنا عمن حصل له نشاط من الأزهريين إلى هذا الجانب، واعتنى عناية خاصة بقضية السيرة الذاتية، حتى نهض لتدوين كتاب مستقل يتحدث فيه عن نشأته ومراحل حياته وأثر الأزهر في تكوينه.

وتمثل هذه الكتب رافدًا عظيمًا من روافد وصف البيئة الأزهرية، والاطلاع عن قرب على تفاصيل تلك الحياة ومجرياتها، وفيها قدر كبير من تفاصيل أخبار الأزهر والعلماء الأزهريين.

إِضَاءَةٌ

في تمييز المتشابه من أسماء الأزهريين وأنسابهم وألقابهم

هذه نبذةٌ يسيرة، في ضبط عدد من الأسماء والألقاب والنسب التي وقعت في أسماء عدد من العلماء الأزهرين، وربما اشتبهت والتبست على المطالع والباحث، فكان من المهم أن نقيد هنا ما يرفع اللبس، ويفرق بين المشتبه.

وهذا الباب هو المعروف عند المحدثين بباب المتفق والمفترق، وباب المختلف والمؤتلف، ولهم في هذين البابين تدقيق زائد، وأفردوا له مؤلفات كثيرة، لشدة احتياجهم إلى ضبط الرواة الذين تشتبه أسماؤهم وأنسابهم.

فأما المختلف والمؤتلف: فهو فن جليل، ويترتب على الجهل به ضرر وخلط عظيم، ويقع في الأسماء والألقاب والأنساب، ومعناه: الأعلام الذين يتفقون في الخط دون اللفظ، كمثل من سمي من الرواة سلام، فكلهم بتشديد اللام إلا خمسة، منصوص عليهم، ومثاله عَسَلٌ وعِسْلٌ، وحزام وحرام، وقل مثل ذلك في الألقاب والأنساب، وفيه كتاب الإكمال للإمام الأمير ابن ماكولا، وعليه ذيول وتتمات[1].

وأما المتفق والمفترق: فهو اتفاق أسماء بعض الرواة وأسماء آبائهم، وافتراق أشخاصهم، فمنه نوع اتفق الرواة فيه في أسمائهم وأسماء آبائهم، كالخليل بن أحمد، اسم لستة أشخاص، فما هي الكواشف التي يميز بها المحدثون والنقاد بين هؤلاء الأعلام بحيث لا يتداخلون عند المحدث، وتختلط عليه طبقاتهم، ودرجاتهم في التوثيق وعدمه

ومنه نوع اتفقت أسماؤهم وأسماء آبائهم وأجدادهم، كأحمد بن جعفر بن حمدان، أربعة كلهم يروون عمن يسمى عبد الله، وفي عصر واحد، وفيه مؤلف جليل للخطيب البغدادي، ثم مؤلفات أخرى كثيرة للحفاظ والنقاد[2].

وقد اعتنى الدكتور محمد العلمي فأخرج كتابًا مفيدًا في هذا الباب يميز فيه الأعلام المتشابهة داخل المذهب المالكي عموما، فجاء كتابا في غاية الإفادة، اسمه: (إفادة السالك، بتمييز الأعلام المتشابهة في

(١) تدريب الراوي، في شرح تقريب النواوي /٢/٢٩٧ ـ ٣١٥/.
(٢) تدريب الراوي، في شرح تقريب النواوي /٢/٣١٦ ـ ٣٢٩/.

مذهب مالك)، فتجد فيه مثلا أن الغلاوي من المالكية ثلاثة عشر علما، ثم يترجم لهم، وابن عاشر من المالكية ثلاثة أنفس، والقرافي من المالكية أربعة أنفس، فيترجم لهم، وهكذا، ونحن هنا نأتي بشبيه لهذا العمل لكنه مخصوص بالأزهريين[1].

وهو باب مهمٌّ، نظرًا للكثرة البالغة في الأعلام الأزهريين، مع امتداد الزمان وتوالي الطبقات والأجيال، فوقعت عندنا أعلام تشابهت في الأسماء، أو في النِّسَبِ، فيحدث عند الباحث والمطالع خلط كبير، ومن أمثلة ذلك في الأعلام الأزهريين: ما وقع للأستاذ يوسف اليان سركيس المتوفى سنة ١٩٣٢م في (معجم المطبوعات العربية) عند حديثه عن العلامة النحوي الشيخ حسين بن إبراهيم الأزهري الشافعي، حيث التبس عليه بالعلامة المفتي الشيخ حسين بن إبراهيم الأزهري المالكي، وكلاهما حسين ابن إبراهيم، وكلاهما أزهري، ومن هنا جاء اللبس، فهذا مثال جيد لأهمية هذا الاب.

وقد نسب الأستاذ سركيس للأول أنه مفتي المالكية في مكة، وأنه إمام المقام المالكي بالمسجد الحرام، مع أنه ينص في سياق اسمه ونسبه على شافعيته.

والحال أن الذي تقلد الإفتاء وإمامة المقام المالكي هو العلامة الفقيه الشيخ حسين بن إبراهيم ابن حسين بن محمد الأزهري المالكي، المصري الأصل، المكي المقام والوفاة، والمتوفى سنة ١٢٩٢هـ، وهو والد العلامتين الفقيهين: الشيخ محمد عابد بن حسين المالكي ت١٣٤١هـ، والشيخ محمد علي ابن حسين المالكي ت١٣٦٧هـ، الذي هو شيخ مسند العصر الشيخ يس الفاداني.

أما الذي كان يترجم له الأستاذ سركيس بالأصالة فهو العلامة الشيخ حسين والي بن إبراهيم ابن إسماعيل الشافعي المتوفى سنة ١٣٠٦هـ، وهو والد العلامة المشهور الشيخ حسين والي ت١٣٥٤هـ[2].

كل هذا والأستاذ يوسف سركيس خبير متمرس بالكتب والأعلام، وقد كان يستقي مادة كتابه من إفادات العلامة الأزهري المتضلع من الخبرة بالكتب النادرة الشيخ محمد ابن شيخ الأزهر الإمام الشيخ علي الببلاوي، ومن العلامة الخبير بالنوادر الأستاذ الشيخ أحمد تيمور باشا، ومع هذا التبس عليه هذان العلمان الأزهريان بمثل هذا اللبس العجيب، فكيف بمن كان قليل المخالطة للأعلام والتراجم والكتب والطبقات، فسوف تلتبس عليه عشرات من الأعلام الأزهرية.

فحينئذ توجبت العناية بجمع المتفق والمفترق والمؤتلف والمختلف من أعلام الأزهر الشريف، ولا أعلم أحدًا قبلي نهض للعناية بهذا الباب، وغاية ما أسوقه هنا إنما هو شذرات، أمهد بها لمن يأتي من بعدي، فينهض لاستيعاب هذا الباب اللطيف:

(١) طبع كتاب إفادة السالك في الرابطة المحمدية للعلماء، المملكة المغربية، سنة ١٤٣٦هـ - ٢٠١٥م.
(٢) معجم المطبوعات العربية والمعربة /١/٧٧٣، ط: مطبعة سركيس، مصر، سنة ١٣٤٦هـ - ١٩٢٨م.

۞ الأبياري، قديم وحديث، أما القديم فهو العلامة علي بن إسماعيل الأبياري ت٦١٨هـ، شارح برهان الجويني، وأما الحديث فهو العلامة المشهور الشيخ عبد الهادي نجا الأبياري وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٠٥هـ، وفي الأزهرين جماعة غيره من الأبياريين.

۞ الأشموني: شخصان، أما الأول فهو العلامة نور الدين أبو الحسن علي بن محمد بن عيسىٰ الأشموني الشافعي صاحب الشرح المشهور علىٰ ألفية ابن مالك، والذي كتب عليه العلامة الصبان حاشيته المشهورة، وله أيضًا نظم جمع الجوامع للسبكي في الأصول، وأما الثاني فهو شيخ الأزهريين في زمانه الإمام المعمر الشيخ محمد الأشموني الشافعي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢١هـ.

۞ الأمير: جماعة من الأزهريين، أشهرهم الإمام محمد الأمير الكبير صاحب المجموع، وابنه محمد الأمير الصغير، ثم الشيخ محمد الأمير بن عبد الحافظ الأزهري وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢٥هـ، ثم الشيخ محمد الأمير بن محمد بن الحسين الخزرجي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٤٧هـ، وقد أفرد العلماء كتابا وأكثر لترجمته.

۞ الباجوري: البياجرة جماعة؛ منهم قديم ومنهم حديث، أما القدماء فجماعة، برهان الدين وشمس الدين ونور الدين، وأشهرهم وأجلهم في إتقان المذهب الشافعي هو الإمام الفقيه برهَان الدين إبراهيم بن أحمد بن علي بن سليمان بن سليم بن فريح بن أحمد البيجوري توفي سنة ٨٢٥هـ صاحب الحاشية علىٰ الروضة للنووي، قال السخاوي في (الضوء اللامع): (هو أفضل البياجرة الثلاثة: هو، وشمس الدين، ونور الدين)(١)، وأما المحدثون فأجلهم الإمام الجليل شيخ الأزهر البرهان إبراهيم ابن محمد الباجوري الشافعي صاحب الحاشية الفقهية علىٰ ابن قاسم، وصاحب شرح جوهرة التوحيد للقاني، وهو عمدة متأخري الأزهريين.

۞ الباقوري: جماعة من الأزهريين، منهم شخصان يتفقان في الاسم واسم الأب، وهما: فراج سيد الباقوري، والثالث أشهرهم وهو أحمد حسن الباقوري، أما الأول فهو العلامة الشيخ فراج سيد فراج الباقوري الحنفي، مفتي البحيرة وقنا وأسيوط، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢١هـ، والثاني العلامة الشيخ فراج سيد عبد الرسول الباقوري، من كبار علماء معهد أسيوط، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٥٦هـ، والثالث وزير الأوقاف الشيخ أحمد حسن الباقوري، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٤٠٥هـ.

۞ البحراوي والنحراوي: أما البحراوي فهو شيخ الفقهاء: الإمام العلامة الجليل المعمر عبد الرحمن ابن عبد الرحمن البحراوي الحنفي الأزهري وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢٢هـ، وأما النحراوي فالعلامة السيد أحمد النحراوي، والعلامة السيد علي النحراوي الحنفي، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٣١هـ.

(١) الضوء اللامع، لأهل القرن التاسع /١/١٩/، وحسن المحاضرة /١/٤٣٩/، وطبقات الشافعية للإمام الشرقاوي /ص٤١٢/.

◉ الجيزاوي الكبير والصغير، أما الأول فهو العلامة أحمد الجيزاوي المالكي الكبير، والثاني هو شيخ الأزهر الإمام محمد أبو الفضل الجيزاوي، وكلاهما مالكي وأزهري.

◉ الحامدي: جماعة من الأزهريين، منهم العلامة الجليل الشيخ إسماعيل الحامدي، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣١٦هـ، والعلامة العارف بالله الشيخ أحمد الطاهر بن عوض الله بن عبد القادر بن كليب ابن أحمد بن موسىٰ الحامدي، المالكي مذهبًا، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٣١هـ، وابنه الشيخ محمد أحمد الطاهر الحامدي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٩٧هـ.

◉ حسنين مخلوف، كبير وصغير، أما الكبير فهو العلامة الشيخ حسنين بن محمد بن علي مخلوف العدوي الكبير الأزهري المالكي ثم الحنفي في أواخر أيامه، المتوفىٰ سنة ١٢٨٨هـ[١]، والثاني: حفيده مفتي الديار العلامة المعمر الشيخ حسنين محمد حسنين مخلوف وترجمته هنا في وفيات سنة ١٤١٠هـ.

◉ الخراشي، قديم وحديث، أما القديم فهو الإمام الأكبر شيخ الأزهر: الشيخ محمد عبد الله الخراشي، وأما الحديث فهو الأستاذ الولي الصالح الشيخ محمد عبد الرحيم علي محمد الملقب بالخراشي بن محمد الحسيني الشقيري وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٨١هـ.

◉ الخضري الكبير والصغير، والخضاري: أما الخضريون فهم جماعة، في طليعتهم الخضري الكبير والصغير، أما الكبير فهو شمس الدين محمد بن مصطفىٰ بن حسن الخضري الدمياطي الشافعي، شيخ العلماء بدمياط، توفي سنة ١٢٨٧هـ الموافق سنة ١٨٧٠م، وكان له شقيق يسمىٰ باسمه، قضىٰ حياته في الأزهر، واشتهر بالتدريس، وتميزا بين الشقيقين أطلق علىٰ الأول محمد الخضري الكبير، وعلىٰ الثاني الشيخ محمد الخضري الأزهري توفي بالقاهرة يوم الثلاثاء ٣ صفر، سنة ١٢٩٨هـ[٢].

قال نقولا يوسف في: (جريدة أخبار دمياط) أثناء ترجمة الشيخ الخضري الكبير: (ومما هو جدير بالذكر أنه كان له أخ أصغر منه يسمىٰ الشيخ محمد الخضري، قضىٰ حياته كلها في الأزهر، فاشتهر بالتدريس، حتىٰ أصبح جميع علماء الأزهر ممن تلقىٰ العلم عليه أو علىٰ من تلقىٰ عليه، وهكذا اشتهر الأول بالتأليف واشتهر الثاني بالتدريس، وكان يطلق علىٰ الأول «الشيخ محمد الخضري الكبير الدمياطي»، وعلىٰ الثاني «محمد الخضري الأزهري»، وبعض المؤرخين يخلط بين الاثنين)[٣].

---

(١) وترجمته في تاريخ بني عدي /٣/١٧٦/.

(٢) استفدت تاريخ وفاته بعد تعب من كتاب الفيض الرحماني، في تاريخ الإمام الحلواني /٢/٥٨٧/، وذكر هناك أن ثلاثة من العلماء من أحب شيوخ الإمام العلامة الشيخ أحمد الحلواني الخليجي قد توفوا في تلك السنة، ١٢٩٨هـ، فتوفي العلامة الشيخ محمد الخضري في ثالث صفر، وتوفي العلامة السيد إمام القصبي شيخ الجامع الأحمدي يوم السبت ٢٦ ربيع الثاني، وتوفي العلامة الشيخ السقا يوم ١٤ جمادىٰ الثاني من ذلك العام، فكان العلامة الحلواني يسميه عام الحزن.

(٣) أخبار دمياط /عدد ٢٦/ص٣/، الصادر بتاريخ ٧ رجب، سنة ١٣٦٩هـ، الموافق ٢٤ أبريل سنة ١٩٥٠م، ويقول=

ويشتبه بهؤلاء جميعا خضري آخر، وهو العلامة الشيخ محمد الخضري الحنفي الأزهري، مفتي الفيوم، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣١٢هـ.

وأما الخضاري فهو العلامة الأعجوبة الشيخ محمد خضاري سليم العدوي ثم الدسوقي المالكي الأزهري، من محققي علماء الأزهر في القرن الثالث عشر، حتىٰ كان الأزهريون يقولون عنه هو والعلامة المتقن مصطفىٰ البولاقي: (خذ من المالكية الخضاري والبولاقي، ودع الباقي)، وهو صاحب الحاشية علىٰ شرح ابن تركي علىٰ العشماوية، وصاحب الحاشية علىٰ الكفراوي في النحو، نزيل قرية جمجمون من أعمال دسوق، وقد تديَّرها زمنًا، وبها توفي نحو سنة ١٢٨٨هـ، وفي ترجمته عجائب، وهو جد العلامة المتقن الشيخ محمد حسنين مخلوف لأمه، فلزم التنبيه رفعًا للالتباس[1].

❁ راضي الكبير والصغير: أما الشيخ راضي الكبير فهو العلامة الشيخ محمد راضي البوليني الكبير الحنفي الأزهري، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣١٩هـ، وأما الصغير فهو العلامة الفقيه الأصولي الشيخ محمد راضي البحراوي الحنفي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٣٦هـ، ويسمىٰ بالكبير تمييزا له عن الشيخ راضي الصغير عضو هيئة كبار العلماء الذي يعتبر من تلاميذه[2].

❁ الزرقاني: الزرقانيون جماعة، منهم الفقيه الشيخ محمد علي سلامة الزرقاني، ومنهم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني صاحب مناهل العرفان، وهو من أجل الأزهريين عناية بعلوم القرآن، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٦٧هـ.

❁ الشربيني: جماعة من الأزهريين، منهم الخطيب الشربيني صاحب مغني المحتاج، والتفسير، والإمام الأكبر شيخ الأزهر عبد الرحمن بن محمد الشربيني، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢٦هـ.

❁ الشرشيمي: ثلاثة نفر من أعلام الأزهر، العلامة الشيخ عبد الرحمن ابن العلامة السيد الشرقاوي الشرشيمي الأزهري وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٠٩هـ، ووالده المتوفىٰ سنة ١٢٨٨هـ، وثالثهم هو العلامة الفقيه الشيخ عبد المعطي الشرشيمي، عضو هيئة كبار العلماء، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٧٦هـ.

❁ عاشور الصدفي، رجلان، أحدهما مفتي الديار المصرية، وشيخ السادة الحنفية، العلامة الشيخ

= نقولا يوسف في العدد السابق: (ويرجع الفضل في الاحتفاظ بهذه الذكريات العطرة إلىٰ حفيده العلامة صاحب الفضيلة الشيخ أحمد كامل الخضري، شيخ معهد دمياط اليوم، الذي ورث عن جده العلم والفضل والصلاح، فمنه استقينا تاريخ جده الكبير، وله منا جميعا الشكر الغزير)، وانظر أيضا: دمياط في التاريخ الحديث /ص٢٢٤/.

(١) وترجمة العلامة الخضاري في: تاريخ بني عدي /٣/٣٥٧/، مخطوط.

(٢) الإفتاء المصري من الصحابي عقبة بن عامر إلىٰ الدكتور علي جمعة /٤/١٩١٨/.

بكري بن محمد عاشور الصدفي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٣٣هـ، والثاني مفتي الأوقاف الخديوية: العلامة الشيخ محمد بن بكري بن عاشور الصدفي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٦٤هـ، والثاني غير الشيخ محمد عاشور الصدفي، والد مفتي الديار الشيخ بكري محمد عاشور، لأن المفتي الشيخ بكري الصدفي كان معاصرا للثاني الشيخ محمد بكري عاشور، وربما كان أكبر سنا منه، فلا يمكن أن يكون الثاني والدًا للأول، وقد ولد المفتي الشيخ بكري الصدفي سنة ١٢٦٥هـ وتوفي سنة ١٣٣٣هـ، وهي تقريبا نفس سنوات عمر الثاني، وعندما كان الثاني يشغل منصب مفتي الأوقاف الخصوصية، كان الشيخ بكري الصدفي يشغل منصب مفتي بيت المال ومجلس حسبي مصر، ثم صار مفتيا للديار[١].

❁ العِدْوي والعَدَوي، هذه النسبة على أحد وجهين: فهي تارة تكون العِدْوي، بكسر فسكون في المهملتين، نسبة إلى قرية العدوة، قرية من قرى بلاد البهنسا بمحافظة المنيا، أو العدوي بفتح العين والدال نسبة إلى قرية العلم والعلماء بني عدي بأسيوط.

❁ العروسي ثلاثة نفر من الأزهريين، وثلاثتهم تولوا مشيخة الأزهر، شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ مصطفى العروسي ابن شيخ الأزهر الإمام الأكبر الشيخ محمد العروسي ابن شيخ الأزهر الإمام الأكبر أحمد بن موسى العروسي، وإذا كان مؤرخ دمياط الأستاذ نقولا يوسف قال في جريدة (أخبار دمياط): (وهكذا تولى مشيخة علماء دمياط من ذرية الشيخ الخضري الكبير ثلاثة: وهم ابنه، وحفيده، وابن حفيده، وهذا فضلٌ كبيرٌ قلَّ أن يتحقق في أسرة من الأسر)[٢]، فكيف نقول في أسرة تولى مشيخة الأزهر منها ثلاثة، وهم الشيخ أحمد العروسي وحفيده وابن حفيده، فهذا شرف كبير لا يتحقق مثله في أسرة من الأسر، وحُقَّ لعلي بك رفاعة أن يقول عن آل العروسي: (بيتهم مهبط العلم ومأوى الفضائل)[٣].

❁ علي جمعة، شخصان من الأعلام الأزهريين، الأول العلامة الفقيه الشيخ علي جمعة الطمليهي المالكي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٤٤هـ، والثاني العلامة الإمام الجليل الشيخ علي جمعة الشافعي، عضو هيئة كبار العلماء بالأزهر ومفتي الديار المصرية سابقا، حفظه الله.

❁ الغماري، منهم قديم وحديث، أما القديم فهو أحد كبار شيوخ الحافظ ابن حجر، قال في جزئه القيم: (ذيل التبيان، لبديعة الزمان) في ترجمته لشيخه المجد الفيروزآبادي الشيرازي صاحب القاموس المحيط: (وهو آخر الرؤوس الذين أدركناهم موتًا، فإني أدركت على رأس القرن رؤوسًا في كل فنٍّ، كالبلقيني، والعراقي، والغُمَاري، وابن عرفة، وابن الملقن، والمجد الشيرازي هذا، تغمدهم الله بغفرانه،

(١) الإفتاء المصري من الصحابي عقبة بن عامر إلى الدكتور علي جمعة /٤/١٩٨٠، و/٥/٢٨٤٨.

(٢) جريدة أخبار دمياط /عدد ٢٦/ص٣/ الصادر بتاريخ الاثنين ٧ رجب سنة ١٣٦٩هـ، الموافق ٢٤ أبريل، سنة ١٩٥٠م.

(٣) المرائي الموصلية، في العلماء المصرية /ص٦٣.

وجمع بيني وبينهم في دار رضوانه، آمين)[1]، وأما الحديث فهم السادة الغماريون الصديقيون الأزهريون المشهورون، وتراجمهم هنا في مواضعها.

◉ القرنشاوي: جماعة من الأزهريين؛ منهم: العلامة الشيخ: بسيوني بن بسيوني بن حسن عسل الحسني القرنشاوي الشافعي الأزهري، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٤٢هـ، والعلامة المدقق الشيخ عبد الجليل القرنشاوي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٤٢٢هـ، وقبلهما العلامة الشيخ محمد بن أحمد ابن يوسف القرنشاوي، كان مفتي الشافعية بالمحلة، وكان حيا سنة ١١٨٠هـ.

◉ القصبي: الكبير والصغير، أما القصبي الكبير فشيخ الجامع الأحمدي العلامة السيد محمد إمام القصبي، والصغير هو ابنه، وشيخ الجامع الأحمدي بعده، السيد محمد بن محمد إمام القصبي، وأعلام بيت القصبي وأعيانه كثيرون، يستحقون أن ينهض أحد الباحثين لتخصيص كتاب يجمع فيه تراجمهم وأخبارهم.

◉ القويسني: كبير وصغير، أما الأول فهو شيخ الأزهر الإمام الجليل الشيخ حسن درويش القويسني ت١٢٥٤هـ، وأما الثاني فهو العلامة الشيخ حسن بن محمد القويسني الشافعي الصغير، عرف بالصغير تمييزا له عن الأول، كان حيا سنة ١٢٩٦هـ، ووقفت على صورة خطه وختمه، وتتلمذ له العلامة الشيخ صالح بن محمد أبو سعيدة العدوي المالكي ترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٣٤هـ.

◉ كابُوه، بتخفيف الباء الموحدة بعدها واو وآخره هاء، كذا يطبق الناس على نطق اسم هذه العائلة الكريمة في بلدهم بني عدي بلد العلم والعلماء، والمشهور منهما شخصان من الأزهريين؛ منهم: الشيخ أحمد كابوه بن محمد العدوي المالكي ت١٢٨٤هـ المشهور بالكبير، الملازم لتدريس مختصر خليل، والثاني ابنه الشيخ علي أحمد كابوه العدوي الصعيدي المالكي.

◉ المرصفي، المراصفة كثيرون، وكلهم منسوبون إلى قرية العلم والعلماء مرصفا، ومن أشهرهم: العلامة سيد بن علي المرصفي صاحب شرح كامل المبرد، والعلامة الشيخ حسين المرصفي صاحب الوسيلة الأدبية.

◉ المطيعي، جماعة من علماء الأزهر، كلهم ينتسبون إلى قرية المطيعة من أعمال أسيوط، أولهم العلامة الشيخ محمد محمد عنتر المطيعي المالكي وترجمته هنا في سنة ١٣٢٠هـ، وثانيهم والده العلامة الشيخ محمد عنتر الكبير، ثم تلميذ الأخير وأشهر المطيعيين وبه يفتخرون ويفتخر الأزهر وتفتخر مصر: العلامة الإمام الشيخ محمد بخيت المطيعي، وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٥٤هـ.

(١) ذيل التبيان، لبديعة الزمان /ص٦٨/، ط: مكتبة الرشد، الرياض، سنة ١٤٢٢هـ ـ ٢٠٠١م.

ويشتبه أيضًا الإمام محمد بخيت المطيعي الحنفي مفتي الديار، بمحمد نجيب المطيعي الشافعي صاحب تكملة المجموع شرح المهذب، والأول مترجم هنا، بل هو زينة المترجمين هنا، والثاني ليس مترجمًا لأنه ليس أزهريًّا.

◉ النواوي، عدد من الأزهريين؛ منهم: موسىٰ النواوي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٧٣هـ، وصالح النواوي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٣٧هـ، ومحمد شقير النواوي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٢٩هـ، وغيرهم، وأشهرهم جميعا شخصان، وهما ابنا عم، وكلاهما تولىٰ مشيخة الأزهر، أولهما شيخ الأزهر الإمام الشيخ حسونة النواوي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣٤٣هـ، وثانيهما شيخ الأزهر الإمام الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي وترجمته هنا في وفيات سنة ١٣١٧هـ.

فهذه نبذة يسيرة، وباكورة يمكن الزيادة فيها، حتىٰ تصبح كتابًا مستقلًا، يتوسع في جمع أطراف هذا الباب المهم.

إِضَاءَةٌ
في رسالة الأزهر والكتابات التي ظهرت في ذلك

لم يكن قدامى الأزهريين في حاجة إلى التنصيص على رسالة الأزهر، أو بذل الجهد في استخراجها وبيانها، أو تعدد المحاولات في توصيفها، لما أنها كانت حالا يعيشونه، وروحًا سارية في مجالسهم ودروسهم، ونمط حياتهم، بل كانوا هم الصانعين لها، لشدة وضوح أدوات العلوم ومقاصدها في عقولهم، وكانت عندهم مهارات عالية في التجريد، ورد الجزئيات الكثيرة المتفرقة إلى أصولها وكلياتها، مما يزداد مع الإمعان فيه عروجًا بهم إلى المقاصد العليا، دون الحاجة إلى معاناة أو بذل مجهود في ذلك.

ولأجل هذا فقد كانت رسالة الأزهر حالًا معرفيًّا شائعًا بينهم، يقتدرون معه على إدراك مقاصد التعليم، ومعايرة نتائجه، والتدقيق في مدى انطباقها على ما في عقولهم من معايير، واجتماع إتقان العلوم مع وضوح المقاصد ولمعان المهارات الذهنية في التجريد كانت تجعل أثرهم في المجتمع محققًا لرسالة الأزهر على أرض الواقع، وهم في كل ذلك لا يتحيرون، ولا تلتبس عليهم، بل إذا دهمت الأحداث وجاء المستعمر مثلا لم يترددوا في أن يهبوا للدفاع عن الوطن، لما أن حضور العلوم والمقاصد كان يجعل لهم فرقانًا في كل موقف يطرأ.

ولأجل هذا لم يكن عندهم اشتغال ولا بحث ولا مؤلفات تفتش عن رسالة الأزهر وتجتهد في تشخيصها وتحديدها.

وبرزت قضية الكلام عن رسالة الأزهر في زمنٍ متأخر، حصل فيه تداخل معرفي وحضاري بيننا وبين فلسفات أخرى، مما طرحت معه أسئلة، وجدّت معه نوازل، وطرأت معه قضايا، اقتضت وجود اجتهاد وتجديد، كان من جملة مسائله فيما يخص المؤسسة الأزهرية أن ينفتح باب التفكير في الكلام عن رسالة الأزهر، نظرًا لكون الأحداث جارفة ومتسارعة.

وسوف أرصد هنا شيئًا من الكتابات في هذه القضية، ففي سنة ١٨٨٧م اتفق الدكتور حسن بك رفقي، الطبيب الشرعي لدى المحاكم الأهلية، مع إبراهيم بك مصطفى ناظر مدرسة دار العلوم على إنشاء مجلة علمية أدبية، تضم كثيرا من البحوث والفصول في الأدب والسياسة، والدين والاجتماع، والعلم

والفن، وقد اتفقا على تسمية هذه المجلة الوليدة باسم: (مجلة الأزهر).

وقد كانت مجلة طريفة، تعكس رغبة في سعة الاطلاع، والإلمام بالعلوم الحياتية والتقنية، والبحوث الطبية والهندسية، بجوار البحوث الشرعية، فجاءت مجلة جامعة لأشتات العلوم، وضروب المعرفة، حتى عنيت بنشر مباحث في الجغرافيا والهندسة، والزراعة، وعلوم الأيدروليكية، أو علم التصرفات، وهو العلم الذي يبحث في حركة المياه، كما نشرت بحوثًا في تاريخ العرب، وبحثًا عن ترعة الخطاطبة وحالة الري فيها، حتى نشرت بحثًا طريفًا، عن وسائل الاحتفاظ بعطرية مشروب القهوة، كما نشرت بحثًا عن المقاييس والمكاييل والموازين في الإسلام.

وخصصت المجلة بابًا للعلامة علي مبارك باشا، فكتب عددًا من المقالات التربوية، منها مقالة عنوانها: (مفاتيح الكنوز)، نشرت في المجلة بتاريخ يونيه، عام ١٨٩١م.

والمجلة المذكور بالطبع مختلفة تمامًا عن المجلة التي نعرفها جميعا باسم (مجلة الأزهر)، والتي أصدرتها مشيخة الأزهر في المحرم من سنة ١٣٤٩هـ، وكان عنوانها حينئذ: (نور الإسلام)، إلى أن تغير عنوانها في المحرم سنة ١٣٥٤هـ إلى: (مجلة الأزهر).

فمجلة الأزهر التي استفتحت بالكلام عنها، هي إصدار قديم، صدر على مدى سنوات، ثم ذهبت به الأيام، ونسيه الناس، وتراكمت عليه السنين، وغابت تمامًا عن ذاكرة الأمة، وعن ذاكرة الأزهريين، إلى أن صدرت المجلة المعروفة باسم (مجلة الأزهر)، والتي ما زالت تصدر إلى الآن بفضل الله.

والذي سجل لنا أخبارا عن المجلة القديمة التي عرفت باسم (مجلة الأزهر) هو الدكتور جمال الدين الرمادي؛ إذ كتب عنها مقالًا ماتعًا، وصف فيه خطتها، وأورد نماذج من مقالاتها، وكان عنوان مقاله: (من تاريخ الصحافة: مجلة قديمة، تحمل اسم الأزهر)[(١)].

وأنا أتساءل: هل كانت هذه المجلة معبرة عن قناعة عند من أصدروها بأن رسالة الأزهر واسعة، وأنها تشمل علوم الشرع الشريف، مع سائر العلوم والمعارف، مع فنون الحياة، وأنماط المعيشة؟

فإن كان هذا هو السبب، فإنه ينقلنا إلى شعورٍ شعبي عام، عند المصريين جميعًا بأن الأزهر الشريف قام برسالة العلم والتنوير، ونشر الفكر والثقافة، وصياغة العلوم التي تبني الحياة، وتحقق العمران.

ثم ازدادت قضية رسالة الأزهر بروزًا بالتدريج، وأقيمت من أجلها المسابقات في الصحف

(١) وقد نشر مقال الدكتور جمال الدين الرمادي في مجلة الأزهر المعروفة /ص٥٨/، من العدد الصادر بتاريخ المحرم سنة ١٣٨١هـ ـ الموافق يونيه سنة ١٩٦١م.

الكبرىٰ، وتدافع كبار الكتاب لإنشاء البحوث والمقالات في هذه القضية، وإليكم لمحة من ذلك.

فقد أعلنت الحكومة في عام ١٩٣٦م عن مسابقة بين المفكرين والكتاب في موضوعات منها (رسالة الأزهر في القرن العشرين) واختير الشيخ أمين الخولي عضوًا في لجنة التحكيم، وشدته أهمية الموضوع إلىٰ أن يدلي بدلوه فيه، وأفسحت له (جريدة المصري) صفحاتها علىٰ مدىٰ ثلاثة أشهر، يشرح فيها رسالة الأزهر الاجتماعية، ويبين العلاقة بين الدين والحياة.

وأوضح أن رسالة الأزهر ـ من حيث هو مركز ديني ـ هي: حماية الدين ومحاوره الاجتماعية، وأن يمكن الإنسانية من أن تسعد بأثره في الحياة، ويكون ذلك بالتدبير المحكم في التعريف بالدين، ونشر الإسلام علىٰ أيدي رجال لهم الصفة الدينية المتميزة.

ورسالته ـ من حيث هو بيئة اجتماعية ـ هي: أن يحمي الروح القومية لمصر والشرق الإسلامي، حماية عاقلة متبصرة متدينة.

ورسالته العلمية هي: إعداد الإسلام للعلماء والواعظين الناشرين له، وأن تكون دراسته العلمية مرجعا للشرق كله والغرب كله، وحرص علىٰ ربط حاضر الأزهر بماضيه، ثم شرح الدين الإسلامي بأنه تدين إنسانيُّ القلب، نبيلُ العاطفة، يأمر بالتعاون البشري والإخاء الإنساني.

وكتب أيضًا في تلك الفترة الأستاذ محمد أفندي فتح الله درويش بحثًا بعنوان: (رسالة الأزهر في القرن العشرين)؛ عرض فيه دور الأزهر ورسالته علىٰ النحو التالي:

١ ـ الأزهر في نظر المسلمين الآن.

٢ ـ رسالة الأزهر من جانبها العلمي والعام: (أ): العالم الأزهري صفاته وواجباته (ب): موقف الأزهر إزاء ما أحدثته المدنية الحديثة من تطور في المعاملات المالية والاقتصادية وغيرها، (ج) موقف الأزهر إزاء البحوث العلمية الإسلامية بأوروبا، (د): موقف الأزهر إزاء تفكك المسلمين اجتماعيًّا.

٣ ـ رسالة الأزهر في مصر (أ) موقفه إزاء الجهل العام بالدين، (ب) الأزهر والتوجيه الديني للمتعلمين، (ج) موقفه إزاء المرأة المصرية، (د) المظاهر التي لا تليق ببيئةٍ فيها الأزهر، (هـ) الإحسان المنظم وما يتعين علىٰ الأزهر إزاءه، (و) موقف الأزهر إزاء الرأي العام وواجب توجيهه.

٤ ـ رسالة الأزهر في الشرق الإسلامي: (أ) الشرق العربي، (ب) الشرق الإسلامي (ج) رسالةالأزهر في الشرق غير الإسلامي.

وشارك المسئولون بالأزهر والجامعة المصرية في مسابقة سنة ١٩٣٦م، لأفضل دراسة عن (رسالة

الأزهر في القرن العشرين)، وقد وضعت للفائزين فيها مكافأة مجزية، وحرصت (جريدة الأهرام) علي متابعتها، ونشر أهم دراسات المتقدمين إليها، وإن كانت قد عنيت عناية خاصة بثلاث من تلك الدراسات، فقدمتها بنصها.

وكان الأستاذ عباس الجمل أول المساهمين، وبعد أن بدأ مساهمته بمقدمة تاريخية طويلة، أخذ في التذكير بالرسالة التي ظل يقدمها الأزهر طوال القرون العشرة السابقة.

فهناك رسالة إلىٰ عامة الناس بالموعظة الحسنة، التي يؤديها الأئمة والخطباء والمدرسون، الذين يؤمون المسلمون في صلواتهم، ويعظونهم في جمعاتهم.

وهناك رسالة في العلوم الدقيقة، فقد حفظ الأزهر الشريف للعالم الإسلامي في القرن التاسع عشر حصيلة كبرىٰ من علوم اللغة والدين.

وهناك رسالة في الحفاظ علىٰ اللغة العربية في ذات القرن، حيث بسطت المدارس الابتدائية والثانوية إلىٰ الأزهر أيديها تستجدي من يعلم ناشئتها لسانهم العربي.

وخلص في مساهمته إلىٰ أن الأزهر الشريف قد رسم في القرن العشرين طريقًا مرسومًا إلىٰ غاية معلومة، فهو المعهد العلمي الديني الإسلامي الأكبر، والغرض منه القيام علىٰ حفظ الشريعة واللغة العربية.

الرسالة الثانية كانت من وضع الأستاذ محمد الههياوي، وقد منحتها اللجنة إحدىٰ جوائزها، وإن لم تكن الجائزة الأولىٰ، كان أهم ما جاء في هذه الرسالة جملة التوصيات التي تجعل الأزهر يحسن أداء رسالته في القرن العشرين، وقد لخصها في أربع:

١ ـ حال طالب العلم أول إقباله علي الأزهر كحال الطفل أول درجاته واستطعامه، فيجب أن يؤخذ في هذا الطور بالرفق والأناة، فلا يُلقىٰ إليه ما لا يقوىٰ عقله علي هضمه.

٢ ـ متىٰ تفتح ذهن الطالب واستوىٰ استعداده، يمكن نقله إلىٰ شيء من معقدات الكتب، وعوائص المسائل، لتتربىٰ فيه ملكة الفهم والتمحيص.

٣ ـ لا يصلح ابن الأزهر لأداء رسالته، ما لم يكن قادرا علي الإبانة بقلمه والإفصاح بلسانه، فيجب إذن أن لا تقوم اللغة العربية في الأزهر قيام العلم الجاف الخشن المحبوس علي النحو والصرف، أو المحصور من هذه العلوم التي يسمونها علوم البلاغة، بل يجب أن تقوم مقاما يكشف عن أسرارها، وأمثل السبل لذلك أن تدرس اللغة العربية وفقهها وأدبها وتاريخها درس تذوق واستشعار لا درس حفظ واستظهار.

٤ ـ لأجل أن يفهم الناس كتاب الله يجب أن يفهمه الأزهري قبل سواه، حتىٰ يتمكن من الإعانة علىٰ الفهم، وهو ليس لديه من كتب التفسير ما يعينه علي هذه الغاية الواجبة.

والملاحظ أن مداخلة الأستاذ الههياوي جاءت أقرب إلىٰ مطالبات الإصلاحيين، التي تنادوا بها منذ أول القرن، في طليعتهم الشيخ محمد عبده.

وكانت اللجنة المنوط بها الحكم علي الموضوعات المقدمة قد اختارت الرسالة التي تقدم بها الأستاذ أحمد خاكي للفوز بالجائزة الأولىٰ، فقد كانت متميزة في كل شيء، الأمر الذي دفع جريدة الأهرام العريقة إلىٰ نشرها كاملة علي عددين[1].

وعندما تقدم الأستاذ خاكي برسالته لم يكن قد تجاوز الثامنة والعشرين، لأنه من مواليد سنة ١٩٠٨م، وكان قد حصل علي دبلوم مدرسة المعلمين العليا قسم التاريخ واللغة الإنجليزية عام ١٩٢٩م، ودبلوم معادلة البكالوريوس من جامعة إكستر بإنجلترا بعد عامين، وعندما كتب مقالته التي فاز بها في المسابقة كان مدرسا بمدرسة الأمير فاروق الثانوية، وقد ارتقىٰ الرجل في الوظائف الإدارية حتىٰ شغل عام ١٩٦٦م وظيفة وكيل وزارة التربية والتعليم، وقد ألف الأستاذ أحمد خاكي كتابا عنوانه: (رسالة الأزهر في القرن العشرين)، وهو نفس الموضوع الذي نال عليه الجائزة، ويبدو أن حصوله عليها قد شجعه علىٰ أن يطور بحثه إلىٰ كتاب بذات العنوان.

وبحكم الصنعة بدأ أحمد خاكي دراسته بمقدمة تاريخية طويلة عرض في جانب منها إلىٰ أصول الإسلام، والذي أنهاه بقوله: إن رسالة الأزهر كانت دائما رسالة الإسلام، ولن نستطيع أن نقدر رسالة الأزهر في القرن العشرين حتىٰ نتبين إلىٰ أي مدىٰ تغلغل الأزهر في الحياة المصرية في القرن الماضي.

وجدير بكل رسالة فكرية أن تقوم في أساسها علي التقاليد التي صحبت العهد الذي أنتجها، بل خليق بها أن تسير مع تقاليد البلد التي تنشأ فيها.

ثم تعرض في جانب آخر من مقدمته التاريخية لما تمتع به الأزهر من زعامة فكرية بين المصريين، وهي الزعامة التي لم تقتصر علي مواجهة مظالم الولاة، وانتقل بعد ذلك إلىٰ ما أسماه (فترة الزوابع السياسية)، التي تلت عصر نابليون وسبقت ولاية محمد علي، وأن الأزهريين قاموا خلالها يثبتون حق الشعب ويؤيدون ما يذهبون إليه بنصوص من الدين الحنيف.

ثم أفرد الأستاذ خاكي بعد ذلك مساحة من دراسته استعرض فيها ما أسماه (تقاليد الأزهر)، حاول

(١) نشرت جريدة الأهرام ذلك في عددين، الأول هو الصادر يوم ١٦ مايو، عام١٩٣٦م، وقد احتل صفحة كاملة فيه، والثاني الصادر في اليوم التالي، وقد خصصت له صفحة وبعض صفحة.

أن يجيب فيها علي أكثر من سؤال: كيف استطاع معهد واحد أن يقود أمة بأسرها خلال قرن كانت فيه مسرحًا للطمع الأجنبي؟ كيف استطاع أن يصمد لعدوان الأجانب؟ أي قوىٰ تسلح بها حتىٰ وقف أمام الأغرار من كتاب الغرب؟

ثم تحول إلىٰ الحديث عن علاقة المؤسسة الدينية العريقة بالحركات الاجتماعية التي تدب بين المصريين، وأن اهتمامه بتلك الحركات وحدبه عليها ظلت أساسا لزعامته.

ثم انتقل بعد ذلك إلىٰ صلب الموضوع (رسالة الأزهر في القرن العشرين)، والمشكلة في رأي الرجل أن المصريين قد تقدموا خلال السنوات العشرين السابقة بسرعة أكبر كثيرا من تقدم الأزهر، فقد تولدت في كل ناحية قوة تدفع بالمصري إلىٰ الأمام، ففي الصناعة قام بنك مصر وشركاته بعبء فادح، وفي الزراعة أدت الجمعية الزراعية الملكية واجبًا خطيرًا، وفي العلوم أنشئت الجامعة المصرية، فكان إنشاؤها مبدأ لعصر زاهر، وقد دفعتنا كل تلك المنشآت في طريق التقدم المادي ونخشىٰ أن تكون قد وهنت العلاقة بين الأزهر وبين الناس حتىٰ أصبح يزور عنه الكثير شططًا أنه عائق للتقدم.

في أعقاب ما طرح الأستاذ خاكي إشكالية رسالة الأزهر في القرن العشرين علي هذا النحو سعىٰ إلىٰ تقديم الإجابة، وكانت ـ في رأيه ـ أن التقدم المادي إذا لم يصحبه التقدم الروحي انتهىٰ إلىٰ ما هو أشر من التأخر، (فجدير بالأزهر إذن أن يساهم في كل نواحي الحياة المصرية، وأن يكون قوة دافعة، لأن التقدم المادي ينتهي دائما بكفاح يخلو من المثل العليا).

الإشكالية الأخري التي طرحها عن العلاقة بين روح الإسلام والتقدم، وقد لخص هذه الروح في كلمتين: (التأليف، والانسجام).

ثم نشرت الأهرام يوم ١٧ مايو القسم الثاني من مقالة الأستاذ أحمد خاكي، وكانت تحت عنوان (رسالة الأزهر إلىٰ العامة)، وتناول فيها الوسائل التي يتخذها رجال الجامعة الدينية العريقة ليقرب بينها وبين سائر المصريين.

من هذه الوسائل ما يجب أن يتخذه الوعظ من الوسائل العامة، فالدعوة في العصور الحديثة تقوم علي وسائل شتىٰ أنتجها العلم، (ولعل الصحافة والراديو والسينما هي خير تلك الوسائل وأوسعها ذيوعا، والأزهر إذا أراد أن يدعو الناس عامة إلىٰ مبادئ الدين الحنيف لخليق به أن يتخذ من هذه الوسائل الثلاث وسائط بينه وبين الجماهير)، ويكون هو المشرف علىٰ تحرير صحافته كذلك علىٰ محاضرات الدين التي تلقىٰ علىٰ الأثير، وعلىٰ قصص الأخلاق التي تشعها الشاشة البيضاء، فيندس نور الدين في الأركان المظلمة التي تنمو فيها الجرائم والشرور.

أفرد بعد ذلك مساحة للعلاقة بين الأزهر وحرية الرأي، واستعان ببعض الآيات التي أكدت علىٰ أن

الإسلام انتهج نهجًا واضحًا لحرية العقيدة، ثم أضاف بعد هذه المقدمة أن الحرية الفكرية سايرت نشأة العلوم في الإسلام.

وقد سار الأزهر في تاريخه الطويل على طريقة كانت كفيلة بتشجيع الاجتهاد، وبأن تحوط حرية العقيدة بسياج من الجلال، وقد أتى على الأزهر حين كان طلاب العلم يجلسون فيه إلى شيوخهم في حلقات يتنقلون من الواحدة إلى الأخرى في غير تقييد ظاهر، وكان الأزهريون شيوخًا وطلابًا مولعين بالنقاش والمحاجة، وكانت مناقشاتهم ـ علي ما يعتورها بعض أحيان من لجاج ـ تمتاز بالدقة التي نتجت عن المنطق المدرسي القديم.

وخلص في تبيين هذه العلاقة إلى القول أنه لو قام الأزهر بكل تلك الأعباء لأصبح كما كان مركزا لحركة فكرية سامية، وما نخال إلا أنه سوف يجمع حول الدين مدرسة من مدارس الفكر تتحلل من ذلك الطابع الشكلي الذي يكاد يجعله معهدًا من معاهد الحكومة.

ثم رأى أن الجامعة العتيدة بحكم طابعها الديني تجاوزت كثيرا حدود الوطن الذي تعيش فيه وضربت إلى سائر آفاق العالم الإسلامي، الأمر الذي دفعه إلى أن يخصص القسم الأخير من دراسته لموضوعين: رسالة الأزهر والحضارة الحديثة، والأزهر وحضارات العالم[١].

وقد أعاد الدكتور يونان لبيب رزق نشر خلاصة تلك الأبحاث، في ديوان الحياة المعاصرة: الأزهر بين التقليد والتجديد، في ملفات الأهرام، المنشورة في جريدة الأهرام[٢].

ثم ألَّف الأستاذ الشيخ عباس الجمل، المحامي أمام المحكمة الشرعية العليا، كتابا اسمه: (رسالة الأزهر في القرن العشرين)، وهي مطبوعة[٣].

وكتب العلامة الشيخ محمد حسين النجار، من علماء معهد أسيوط الأزهري كتابا جليلا اسمه: (رسالة الأزهر)، أو (إظهار الإسلام)[٤].

وقد أقيم احتفال كبير في دار المركز العام لجمعيات الشبان المسلمين بالقاهرة، بتاريخ ١٩ شعبان، سنة ١٣٧٧هـ، ضمن سلسلة: (حديث الاثنين)، تحت عنوان: (رسالة الأزهر الشريف)، وقد تكلم فيه الأساتذة الشيوخ: عبد اللطيف السبكي، ومحمود حب الله، وأحمد الشرباصي، ومحمد الغزالي،

---

(١) وقد نشرت رسالة أحمد خاكي تحت عنوان: (رسالة الأزهر في القرن العشرين)، في مكتبة النهضة، بشارع المدابغ، بالقاهرة، سنة ١٣٥٦هـ ـ ١٩٣٦م.

(٢) جريدة الأهرام، العدد الصادر بتاريخ الخميس، ٨ من جمادى الآخرة، سنة ١٤٢٦هـ، الموافق ١٤ يوليو، سنة ٢٠٠٥م

(٣) طبعت في المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، سنة ١٩٣٦م.

(٤) طبعت في مطبعة الجهاد، بأسيوط، سنة ١٣٥٥هـ.

وعبد الرحيم فودة، والشاعر محمد مصطفىٰ حمام، وألقىٰ هناك قصيدة عنوانها: (مكانة الأزهر المعمور).

وكتب الأستاذ محمد عبد الحليم أبو زيد - خريج كلية اللغة العربية، - كتابا اسمه: (رسالة الأزهر الدينية والأدبية)، وهي مطبوعة[1].

وكتب الشيخ عبد الفتاح بدوي المدرس بكلية اللغة العربية كتابا اسمه: (رسالة الأزهر في القرن العشرين)، وهي مطبوعة، لكن دون ناشر.

وكتب الأستاذ حسن الشيخة، عضوُ نقابة الصحفيين، ست مقالات بعنوان: (رسالة الأزهر)، نشرت في مجلة الأزهر، في أعداد متتابعة[2].

وكتب الإمام الأكبر شيخ الجامع الأزهر الشيخ محمود شلتوت كتابًا اسمه: (رسالة الأزهر)، وهي مطبوعة[3].

وعند صدور قانون الأزهر تجدد الحديث عن رسالة الأزهر، فكتب الإمام الأكبر، شيخ الأزهر، الشيخ محمود شلتوت مقالا عنوانه: (رسالة الأزهر، في ضوء قانونه الجديد)، نشرت في (مجلة الأزهر)[4] ثم نشرت كتابا بعنوان: (رسالة الأزهر)، كان ملحقًا لمجلةالأزهر[5].

ثم كتب الأستاذ الكبير محمد أحمد عرفة الأزهري ت١٣٩٢هـ - ١٩٧٣م كتابًا كاملا اسمه: (رسالة الأزهر في القرن العشرين)، كما في تقويم دار العلوم[6].

ثم كتبت الباحثة الأستاذة ميرفت حافظ حسين أطروحتها التي تقدمت بها لنيل درجة الدكتوراه في أصول التربية من جامعة القاهرة فكان عنوانها: (التعدد في أنواع التعليم الأزهري قبل الجامعي في ضوء رسالة الأزهر العالمية: تصور مقترح).

فهذه حلقات من تاريخ الأزهر الشريف، لابد من أن نستحضره، وننتفع به، ونبني عليه، ولابد من

---

(١) طبعت في مطبعة الفيوم، سنة ١٩٦٢م.

(٢) نشر المقال الأول منها في مجلة الأزهر /ص٨٢٨/، العدد الصادر بتاريخ رمضان، سنة ١٣٧٧هـ - الموافق مارس، سنة ١٩٥٨م، ثم نشرت بقية المقالات الستة في أعداد متتابعة بعد ذلك.

(٣) طبعت في مطبعة الأزهر، سنة ١٩٥٩م، ضمن مطبوعات مكتب شيخ الجامع الأزهر للشئون العامة، الرسالة الثانية.

(٤) مجلة الأزهر /مجلد ٣٣/ص٧٧٩/، العدد الصادر بتاريخ رجب، سنة ١٣٨١هـ، الموافق ديسمبر، سنة ١٩٦١م.

(٥) ملحقة بمجلة الأزهر، العدد الصادر بتاريخ شعبان ١٣٧٨هـ - الموافق يناير سنة ١٩٥٩م، وذكرها الأستاذ علي عبد العظيم ضمن مؤلفات الشيخ محمود شلتوت في كتابه الماتع: (مشيخة الأزهر منذ إنشائها حتىٰ الآن) /٢/٦٠٦/، ط: مطابع الأزهر الشريف، سنة ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م.

(٦) الأعلام /٦/٢٥/، ط١٥: دار العلم للملايين، بيروت، سنة ٢٠٠٢م.

أن نستخلص من كل تلك الكتابات ميثاقًا جامعًا لمعالم رسالة الأزهر الشريف.

وأقترح أن نجمع تلك الرسائل وغيرها مما كتب في قضية رسالة الأزهر، وأن نعيد نشرها في مجموع يخرج في عدة مجلدات، حتى يكون بين أيدينا مرصد تاريخي يمكن من خلاله متابعة الأطروحات والمقترحات التي كتبت في هذه القضية، ولا شك أن هذا العمل سيكون مفيدا، ويحفظ لنا جانبًا من تاريخ المؤسسة العريقة.

إِضَاءَةٌ

في أن العلماء المترجم لهم هنا كقطرة في بحر بالنسبة للعلماء الأزهريين الذين كانوا موجودين في نفس الحقبة

العالم عند الأزهريين هو من نال شهادة العالمية، مما يقتضي أنه أتقن العلوم الاثني عشر، وأمضىٰ في تحصيلها زمنًا طويلًا حتىٰ تشربتها روحه، وفهم ما وراء المسائل من نسق ومنهج، ثم شهد له شيوخه بالمخالطة والحضور وحسن الفهم، وأنه محصل معروف بينهم بالذكاء والمناقشة المسفرة عن استعداده وقوة مدركه، ثم لابد في الختام من الامتحان الذي يتوج ذلك كله، بمثول صاحبه بين يدي لجنة مهيبة تقلب معه النظر في حصيلته العلمية ومدىٰ فهمه لها، ثم ينال العالمية، وقد ورد في قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م ما نصه: (العالم هو من بيده شهادة العالمية)(١).

وعند البحث والتنقيب ينجلي لنا أن من حازوا هذه المرتبة العليَّة، وعبروا علىٰ هذه المراحل المتعاقبة من صناعة عقلية العالم عدد كثيرة كثرة هائلة، يصعب معها حصرهم وإحصاؤهم.

حتىٰ إنك ترىٰ في (مجلس الأزهر الأعلىٰ) سنة ١٩١٧م إحصاءً للعلماء القائمين بالتدريس والحصص العلمية الموزعة عليهم من المدرسين في الأزهر، ومن مشيخة علماء الإسكندرية، ومن مشيخة علماء طنطا، ومن مشيخة الجامع الدسوقي، ومن مشيخة معهد دمياط، ومن مشيخة معهد أسيوط، فبلغ مجموع العلماء خمس مئة وأربعة وستين عالما من الأكابر، وليس بين يدي منهم سوىٰ نحو خمسين نفسًا، ولم أستطع الوصول إلىٰ تراجم باقيهم(٢).

وترىٰ في (فهرس مخطوطات مكتبة الأزهر الشريف) في موضع واحد أسماء مئة وستة وتسعين عالما، ألف كل واحد منهم (رسالة في مبادئ العلوم)، ومؤلفاتهم هذه محفوظة في مكتبة الأزهر، وهذا مخصوص بمن سمىٰ كتابه باسم (رسالة في مبادئ العلوم) هكذا، وإلا ففي الفهرس المذكور أسماء جماعة آخرين من نفس الطبقة ألفوا رسائل في الموضوع نفسه لكن جعلوا لرسائلهم عناوين مغايرة، والذين ظفرت لهم بترجمة من هؤلاء اثنان وعشرون شخصًا فقط(٣).

---

(١) قانون نمرة ١٠ لسنة ١٩١١م /ص٤٠/.

(٢) مجلس الأزهر الأعلىٰ /٥/٧٧ ـ ١٠١/.

(٣) فهرس مخطوطات مكتبة الأزهر الشريف /١٩/٢٥٧ ـ ٣٠٦/.

وترىٰ في قرار مشيخة الجامع الأزهر بشأن حضرات علماء دمياط يتبعه جدول ببيان أسماء حضرات السادة العلماء المدرسين في ثغر دمياط وملحقاته وبيان درجاتهم ومذاهبهم، فورد في الجدول أسماء ستين عالما جليلا، ليس بين أيدينا من تراجمهم سوىٰ خمسة أو ستة، والباقون لا نعلم عنهم شيئًا(١).

وتنشر جريدة (الوقائع المصرية) ثلاثة وأربعين اسمًا من الناجحين في امتحان شهادة العالمية من معهدي الإسكندرية وطنطا سنة ١٣٣٩هـ فتذكر ثلاثة وأربعين عالمًا، ومعهم ثلاثة وعشرون من الناجحين في امتحان الأهلية، وليس بين يدي سوىٰ ترجمة واحد منهم فقط(٢).

وفي الكتاب المنشور بخصوص عيد احتفال طلاب البعوث الإسلامية بالأزهر بعيد جلوس الملك فاروق الأول كلمات لطلاب أوغندة، وجنوب السودان، والسنارية، ودارفور، وأثيوبيا، وأرتريا، وتشاد، والسنغال، وسيراليون، ونيجيريا، وجنوب أفريقيا، وتونس، والجزائر، ومراكش، والحجاز، والعراق، ورواق الأكراد، واليمن، وسوريا، والشام، ولبنان، وفلسطين، والأفغان، والهند، وأندونيسيا، والملايو، والجراكسة، ويوغوسلافيا، وألبانيا، وعن كل بلد تكلم طالب، وليس عندي أي ترجمة لأي واحد من هؤلاء، ومنهم من قدم بصفته: (الحائز علىٰ الشهادة العالية بكلية أصول الدين والشهادة العالمية مع إجازة التدريس بكلية اللغة العربية)(٣).

وفي آخر كتاب (الأزهر الشريف في عيده الألفي) ملحق عنوانه (لوحة الشرف)، يشتمل علىٰ أسماء أوائل خريجي الكليات المختلفة، فمما جاء فيه قائمة أوائل خريجي كلية الشريعة بالقاهرة من العام الجامعي ١٩٣٣م - ١٩٣٤م حتىٰ العام الجامعي ١٩٦٠ - ١٩٦١م، ولعلك تلحظ أن القائمة المذكورة تقتصر من خريجي كل سنة علىٰ الأول فقط، وأغلب تلك الأسماء ليس عندي تراجم لهم، ومن بعد السنوات المذكورة يأتي أوائل الكليات إلىٰ سنة ١٩٨٢م وهذا جيل أغلبه ما زال حيا(٤).

وفي كتاب (الشيخ الرزقي الشرفاوي حياة وآثار) يتحدث مؤلفه محمد الصالح الصديق عن رفاق الشيخ الشرفاوي من الجزائريين الوافدين الذين نالو العالمية، فيورد ثمانية وعشرين اسما، ثم يعقب بقوله: (وثيقة خطية أخذناها عن الشيخ بلقاسم بن طالب إمام مسجد قرية فريحة وهو عن ابن الشيخ المولود

(١) وأنت ترىٰ نص القرار والملحق الذي فيه أسماء حضرات السادة العلماء في: قاموس الإدارة والقضا /١/٩٣/، ط: سنة ١٨٩٩م.

(٢) الوقائع المصرية /ملحق العدد ١٠٣، السنة الثانية والتسعون /ص٧/، الصادر يوم الخميس ١٧ ربيع الأول، سنة ١٣٤٠هـ، الموافق ١٧ نوفمبر سنة ١٩٢١م.

(٣) احتفال طلاب البعوث الإسلامية بالأزهر بعيد جلوس حضرة صاحب الجلالة مولانا الملك المعظم فاروق الأول، ط: مطبعة الأزهر، سنة ١٩٥٠م.

(٤) الأزهر الشريف في عيده الألفي /ص٣٢٥/.

الحافظي الأزهري)، ويقول قبلها إنه يذكر أسماءهم للتاريخ، وليس بين يدي من تراجم هؤلاء سوىٰ أربعة أنفس[1].

ومن السنغال جاءت بعثة طلاب مدرسة خاي الفلاحية إلىٰ الأزهر الشريف سنة ١٩٥١م، حيث نجح منهم نحو ٥٠ طالبا، فانتخب منهم ١٥ طالبا للسفر إلىٰ مصر للالتحاق بالأزهر، وقد تجشموا في السفر إلىٰ مصر عناء وأهوالا، من تعقب الاستعمار لهم، وسفرهم إلىٰ السودان، وصعوبة انتقالهم من السودان إلىٰ مصر، فأين سير هؤلاء الطلاب، ووثائقهم عندنا في الأزهر، وأين تراجمهم، وماذا صنعوا بعد رجوعهم إلىٰ بلادهم[2].

أما عند الانطلاق إلىٰ وثائق الأزهر وسجلاته وأراشيفه في دار المحفوظات وفي دار الكتب وفي مكتبة الأزهر وفي ملفات وزارة الخارجية وعند الأسر والعائلات، والانطلاق إلىٰ ما يناظر ذلك عند الدول المختلفة، فنحن أمام بحر متلاطم من الشخصيات التي لم تخدم بعد.

وأضرب لك مثالًا بمقالٍ ماتعٍ حافل للأستاذ الجليل إسماعيل إبراهيم المختار، أعتبره توثيقا لصفحات مطوية من تاريخ المؤسسة الأزهرية، صادرا من قلم خبير بهذا الشأن، حيث نشأ كاتبه في كنف أبيه العلامة المفتي إبراهيم المختار بن عمر، فرأىٰ من أخبار العلم والعلماء في أرتريا ما رأىٰ، وشهد الروابط التي تربط الحركة العلمية في بلاده بالأزهر الشريف، ولو قُدر لنا أن نستكتب الخبراء في كل بلد عن رصدهم لارتباط أعلام بلدهم بالأزهر، لخرجت لنا من مجموع ذلك كنوز مجهولة من أثر الأزهر الشريف وعمق حركته العلمية.

قال الأستاذ إسماعيل إبراهيم المختار ما نصه: (هذا المقال مبني علىٰ تجربتي التعليمية المبكرة في أرتريا، وأسمرة بالأخص؛ وعلىٰ قراءات سريعة، وليس علىٰ دراسة ميدانية واسعة، وهي مساهمة متواضعة يراد منها الإشارة لا الحصر.

لا أكون مبالغًا إن قلت: إن أرتريا في تاريخها لم تشهد زخمًا علميًّا مثلما شهدته في الفترة الواقعة مابين ١٩٤٠م إلىٰ ١٩٧٥م. ولا أكون مبالغًا أيضًا إن قلت: إن كثيرًا من الدول الأفريقية المسلمة لم يتوفر لها من العلماء والأساتذة مثلما توفر لأرتريا في تلك الفترة، ورغم مضي الأيام، فإنني لا زلت أتذكر ما لايقل عن ٣٠ عالمًا أرتريًّا أزهريًّا، كانوا في فترات متقاربة، أكثرهم يقطن في مدينة أسمرة.

والرحلة في طلب العلم لها جذورها البعيدة في أرتريا، وفي السابق كانت تتجه نحو اليمن، والحجاز، والسودان، وبعض الأحيان إلىٰ الحبشة، ومن أبعد الرحلات العلمية المدونة كانت رحلة العلامة الشيخ

(١) الشيخ الرزقي الشرفاوي حياة وآثار وشهادات ومواقف /ص٣٠ ـ ٣٢/، ط: دار الأمة، الجزائر، سنة ١٩٩٨م.
(٢) الثقافة العربية الإسلامية في غرب أفريقيا /ص٧٣٥/، ط٣: دار المنهاج، جدة، سنة ١٤٣٦هـ ـ ٢٠١٥م.

محمد صالح الأبريعاوي (توفي عام ١٩٤٠م) إلىٰ جامعة ديوبند في الهند.

وفي بداية فترة العشرينيات من القرن المنصرم ظهرت رغبة ملحة عند جمهور من الشباب الأرتري للاتجاه نحو مصر للالتحاق بالأزهر لتلقي العلم، وكان أغلب هؤلاء الشباب من الأرياف، والمرتفعات، ولعل تحسن سبل المواصلات في العصر الإيطالي كان عاملًا مساعدًا، وكان خط سيرهم يتجه من البادية إلىٰ السودان، ومن السودان إلىٰ مصر، ثم الأزهر الشريف.

هذه الكوكبة من طلاب وخريجي الأزهر يمكن تقسيمهم إلىٰ مجموعتين: مجموعة رواق الجبرتة، ومجموعة مدينة البعوث الإسلامية؛ المجموعة الأولىٰ أدركت سكنىٰ رواق الجبرتة الذي كان مخصصًا لطلبة العلم القادمين من شرق أفريقيا، وهو رواق قديم لا تتوفر فيه المرافق الحديثة، المجموعة الثانية أدركت سكنىٰ مدينة البعوث الإسلامية التي أنشئت بعد الثورة المصرية لسكنىٰ الطلبة الوافدين، وكانت مجمعًا سكنيًّا تتوفر فيه المرافق الحديثة.

من أوائل دفعات مجموعة رواق الجبرتة كان ثلة من العلماء الذين عادوا إلىٰ أرتريا في العصر الإيطالي، وتولوا مهام كبيرة في أرتريا، منهم:

١ ـ القاضي علي عمر عثمان: تولىٰ القضاء في مدن كثيرة، من مؤسسي حزب الرابطة الإسلامية، وعضو البرلمان الأرتري، عاد إلىٰ أرتريا عام ١٩٣٨، وتوفي في عام ١٩٦٩م.

٢ ـ سماحة المفتي الشيخ إبراهيم المختار: تولىٰ مسؤولية دار الإفتاء، والقضاء، والأوقاف وغيرها. عاد إلىٰ أرتريا عام ١٩٤٠، وتوفي عام ١٩٦٩م.

٣ ـ القاضي إدريس حسين سليمان: تولىٰ مشيخة المعهد الإسلامي، ورئاسة محكمة الاستئنافات الشرعية بأسمرة. عاد إلىٰ أرتريا عام ١٩٤٤، وتوفي في أواسط السبعينيات.

٤ ـ الشيخ سليمان الدين أحمد: أول مدير لمدرسة حرقيقوا الإسلامية، وعضو المحكمة العليا. عاد إلىٰ أرتريا عام ١٩٤٠، وتوفي في أواخر السبعينيات.

تتالت الأفواج بعد الرعيل الأول، والفضل في ذلك يعود لظهور المؤسسات الإسلامية في أرتريا وانتظامها، وحاجة هذه المؤسسات إلىٰ العلماء، وقيام الأزهر بتغطية مرتبات من التحق منهم بسلك التعليم. وقد بدأ الأزهر بإرسال العلماء المصريين في مبدأ الأمر، وقد أدركت واحدًا منهم، وهو الشيخ محمد الدمرداش ـ شيخ المعهد الإسلامي بأسمرة ـ وقد سبقه من قبل العشرات منهم؛ ومع توفر العلماء الأرتريين المتخرجين من الأزهر، وتغير الظرف السياسي في أرتريا، تمت الاستعاضة عنهم بالعلماء الأرتريين، وقد استمر الأزهر في دفع مرتبات هؤلاء العلماء الملتحقين بالمعهد إلىٰ آخر من تبقىٰ منهم.

هذه الكوكبة المباركة من العلماء توزعت أدوارها في مجالات مختلفة، منها:

التدريس: وأكثرهم كان يدرس في المعهد الإسلامي، ومدرسة الجالية العربية بأسمرة. وأسس أحدهم، وهو الأستاذ بشير، مدرسة الضياء بحي «أكريا» بأسمرة.

القضاء: وقد تولىٰ الكثير منهم قضاء المدن الأرترية المختلفة، وعمل بعضهم في محكمة الاستئنافات الشرعية العليا.

الوعظ والإرشاد: وقد كان عدد منهم يقوم تطوعا بالوعظ والإرشاد، ويقيم الحلقات العلمية في كافة العلوم الشرعية، وكانوا منارات زاهرة في الجوامع والمساجد.

الخطابة: تولىٰ عدد منهم منصب خطابة الجمعة، فكانوا نعم الخطباء، من حيث المحتوىٰ العلمي، وفصاحة اللسان العربي.

الإفتاء: وقد تولىٰ هذا المنصب سماحة الشيخ إبراهيم المختار، وسماحة الشيخ الأمين عثمان.

ولعلي أذكر هنا بعضا ممن درست وتلقيت عليهم العلم ـ بالإضافة إلىٰ سماحة الوالد ـ في دروس مدرسة المعهد الإسلامية، وفي حلقات المساجد، وخطب الجمعة. في مدرسة المعهد درست مبادئ العلوم الشرعية، ومبادئ علوم اللغة العربية علىٰ عدد من المدرسين، وجلهم كانوا من علماء الأزهر.

في دروس الجامع حضرت درس التفسير الذي كان يلقيه كل يوم أحد بعد صلاة العصر العلامة المفسر الشيخ عبد الله حسن، الذي ظل مواظبا علىٰ درس التفسير لما يزيد علىٰ ربع قرن ـ حتىٰ في أحلك الأيام في أسمرة ـ وقد تلقيت منه تفسير سور الحواميم السبع. وحضرت كذلك دروس الشيخ محمود (الذي اشتهر بمحمود شلتوت) في العقيدة، وبالأخص في البدعة، وتعريفاتها، ومجالاتها. وحضرت مواعظ الأستاذ أنور في جامع الخلفاء ـ وكان يلقي دروسه بالعربية والتيجرينية ـ، وكذلك الشيخ أحمد (الذي اشتهر بأحمد سنة) الذي كان أيضا يحاضر باللغتين.

ومن أكثر من استمعت إلىٰ خطبهم المميزة الشيخ أحمد محمد، في جامع عمر بن عبد العزيز بحي «جزابندا» بأسمرة؛ والقاضي عثمان صالح عمر، خطيب جامع الخلفاء الراشدين. وممن عرف بقول الشعر، وفصاحة العبارة، وحسن السمت الأستاذ عبد القادر إبراهيم، الذي كان زينة جامع أسمرة، والمقدم في مناسباتها. والبعض من هؤلاء الأعلام كانت له حلقات، ودروس علمية خاصة، تقام في المنازل، استفاد منها الكثير. وقد حضرت بعضا من هذه الحلقات العلمية، منها الحلقة المنزلية للأستاذ عبد القادر إبراهيم، وكان البعض من هؤلاء العلماء يقوم برحلات علمية إلىٰ البوادي، والأرياف، لتعليم الناس وتوعيتهم.

هذا غيض من فيض، فما من هؤلاء الأعلام إلا وكان له دور - ما بين مقل ومكثر - في محاضرات عامة، ومناسبات خاصة، ومواسم رمضان، والمناسبات الإسلامية العامة. وكان هؤلاء العلماء، بعمائمهم الأزهرية، وبطلعاتهم المباركة، درة في جبين أسمرة؛ أحيوا المساجد، وعمروا المدارس، وأعادوا للقضاء مكانته، وللعربية رونقها، وللعلوم الشرعية بهائها، وللمنبر تألقه، عمروا مكتبة المعهد الإسلامي الزاخرة بكتبهم التي تبرعوا بها، والتي نهل منها جيلنا علوم العربية، والثقافة الإسلامية، وهي لاتزال باقية إلى يومنا هذا صرحا علميا مميزا، يرجع إليه العلماء والدارسون.

تعاملوا مع العوام باللطف والحكمة، فصححوا لها مفاهيمها بحنكة وروية، بعيدًا عن التجريح، والتبديع، وإثارة الفتن. عرفوا عرف مجتمعهم - وقد نشأوا في جنباته - فتعاملوا مع واقعهم تعاملا يتناسب معه، دون اجترار أعراف مجتمعاتهم التي درسوا فيها، فكانوا بذلك علماء، حكماء، عقلاء.

وكان من الممكن أن يتسع عطاء هذه الكوكبة من أهل العلم لولا ما فرض عليها من تضييق وحصار. فقد اعتقلت السلطات عددًا منهم لفترات متراوحة، واستجوبت آخرين، وطردت بعضهم من الوظائف القضائية، وأجبرت الشيخ الدمرداش المصري على مغادرة البلاد.

وقد اضطر البعض منهم لمغادرة البلاد مبكرا، كالشيخ موسى أرحو - المدرس بالجالية العربية -، ومن العلماء الذين تم اعتقالهم لمرات عديدة وتم التنكيل بهم، فضيلة الشيخ صالح حامد، مدير مدرسة الجالية العربية، وخطيب جامع عبد القادر الجيلاني بأسمرة. وقد اعتقل للمرة الأخيرة في أيام منجستوا في أواسط السبعينيات، وتم تصفيته في السجون السرية، دون أن يعثر له على أثر بعدها.

بعد اشتداد المعارك حول أسمرة في عام ١٩٧٥م، واشتداد وطأة نظام منجستوا، غادر الكثير ممن بقي من هذه الكوكبة العلمية إلى السودان، فاحتضنهم جهاز التعليم الأرتري، التابع لقوات التحرير الشعبية - الذي كان يرأسه الأستاذ محمود سبى -، فقاموا بمهام التدريس في معسكرات اللاجئين ومدن السودان، ونشر العلوم بين أهلها، وبعد رحيل هؤلاء العلماء من أسمرة، وتتابع وفيات من بقي منهم، أقفرت أسمرة من أهل العلم، وترهلت المؤسسات التعليمية الإسلامية.

وفيما يلي قائمة بأسماء بعض من عاصرتهم - بالإضافة إلى الأربعة الذين ذكرتهم سابقًا -، وكلهم من حملة الشهادة العالمية من الأزهر، والبعض منهم من حملة الماجستير، أو تخصصات مابعد التخرج، والقليل من هؤلاء كانوا من خريجي دار العلوم «جامعة القاهرة لاحقا»، والقليل منهم التحق بالأزهر، ولكنه لم يتم دراسته فيها.

١ - الشيخ الأمين عثمان، قاضي بمحكمة الاستئنافات الشرعية، وخطيب جامع خالد بن الوليد بحي «مادشتوا» في أسمرة، والمفتي الثاني لأرتريا.

٢ ـ الشيخ محمد سراج أحمد، مدير مدرسة المعهد الإسلامي، وسكرتير جبهة العلماء الأرترية.

٣ ـ الشيخ أحمد محمد، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي، وخطيب جامع عمر بن عبد العزيز.

٤ ـ الشيخ صالح حامد، مديرمدرسة الجالية العربية، وخطيب جامع عبد القادر الجيلاني.

٥ ـ الأستاذ عبد القادر إبراهيم، المدرس بمدرسة الجالية العربية.

٦ ـ الشيخ علي ياسين، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

٧ ـ الشيخ إبراهيم ديني، مدرس بالجالية العربية، ومدرس في معسكرات اللاجئين، وداعية منتدب من قبل رابطة العالم الإسلامي إلىٰ أوغندا وكينيا.

٨ ـ الشيخ أحمد محمد درسا، المدرس بمدرسة الجالية العربية.

٩ ـ الشيخ أدم محمد علي الهرري، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

١٠ ـ الشيخ محمود محمد موسىٰ، المدرس بمدرسة الجالية العربية، ومدرس بمعسكرات اللاجئين.

١١ ـ الشيخ موسىٰ أراحوا، المدرس بمدرسة الجالية العربية، ومدرس بمعسكرات اللاجئين.

١٢ ـ الشيخ أحمد ـ المشهور بأحمد سنة ـ، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

١٣ ـ الشيخ محمود أحمد عمر، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

١٤ ـ الشيخ محمود ـ شلتوت ـ، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

١٥ ـ الشيخ عبد الله محمد حسن، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

١٦ ـ الأستاذ أنور، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

١٧ ـ الأستاذ محمد علي، مدير المكتبة الإسلامية، ومدرس بمدرسة الجالية العربية، ومدرس بمعسكرات اللاجئين.

١٨ ـ الأستاذ إسماعيل، المدرس بمدرسة الجالية العربية، ومدرس بمعسكرات اللاجئين.

١٩ ـ الشيخ صالح عمر أحمد، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

٢٠ ـ الأستاذ محمود عمر، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي.

٢١ ـ القاضي عثمان صالح عمر، قاضي أسمرة، وخطيب جامع الخلفاء.

٢٢ ـ القاضي يوسف، قاضي دقي أمحرئ وغيرها.

٢٣ ـ الأستاذ محمد بشير، مؤسس ومدير مدرسة الضياء.

٢٤ ـ الأستاذ محمد نعمان، المدرس بمدرسة الجالية العربية، ومدرس بمعسكرات اللاجئين.

٢٥ ـ الأستاذ سليمان عبد القادر، مدرس بمدرسة الجالية العربية، ومدير مدرسة الجالية العربية في أديس أبابا.

٢٦ ـ الشيخ إدريس خيري، المدرس بمدرسة المعهد الإسلامي (متعه الله بالصحة).

٢٧ ـ الأستاذ نافع تشيواي، المدرس بمدرسة الجالية العربية، ومقيم في أمريكا (متعه الله بالصحة والعافية وبارك في عمره).

وهناك خمسة آخرون لا أذكر أسمائهم كانوا ضمن هذه المجموعة، وبعضهم لا أتذكر إلا اسمهم الأول أو الأخير، وهؤلاء هم أساتذة، وأعلام جيلنا، أسطر هذه الكلمات عرفانًا لفضلهم، وتقديرًا لجهودهم.

تنويه: هناك علماء آخرون لم أذكرهم إما لعدم معاصرتي لهم، أو عدم التقائي بهم، واكتفيت هنا بمن عرفتهم، وبمن درس وتخرج في الجامعات الإسلامية)[1].

(١) أمدني فضيلة الشيخ إسماعيل إبراهيم المختار بمقاله هذا في مراسلات جرت بيني وبينه.

إضَاءَةٌ
في شرط هذه الجمهرة

وشرطي في هذا الكتاب أن أترجم للأزهريين، من المصريين، وغيرهم من الوافدين وأهل الآفاق، النازحين إلىٰ الديار المصرية رغبة في الالتحاق بذلك المعهد العريق الأنور.

والأزهرية وصفٌ له حدَّان: أعلىٰ وأدنىٰ؛ أما الحدُّ الأعلىٰ فهو تلقي العلوم في الأزهر، ونيل شهادة العالمية منه، والتدريس فيه، والترقي في مناصبه، فمن ارتقىٰ إلىٰ منصب شيخ الأزهر، أو مفتي الديار، أو عضوية هيئة كبار العلماء، أو مشيخة الأروقة، أو التدريس في الأزهر، أو مشيخة معاهده التابعة له، فذلك هو حدُّ التمام والتمكن من الصفة، وهنا يوجد الأزهري الكامل المستوفي لصورته العليا.

وأما الحد الأدنىٰ فهو كل شخص عبر علىٰ الجامع الأزهر متعلمًا أو مستفيدًا، وجلس للحضور علىٰ شيوخه وعلمائه، وإن قصرت مدة التلمذة، وإن لم يحصل علىٰ شهادته، لكنه جثا علىٰ الركب، وسمع تقرير علمائه لبحوث العلم، واستنار ذهنه بشيء من تقريرهم، فهذا يشمله وصف الأزهرية في أدنىٰ صوره.

ويكون حينئذ من طالت تلمذته، وحصل علىٰ شهادته أولىٰ بالذكر، فضلا عمن جلس للتدريس فيه، أو في ملحقاته، أو ارتقىٰ في مناصبه، وتبوأ مدارجه ومعارجه الرفيعة كما سبق.

وهذا نظير صنيع المحدثين في تام الضبط وخفيف الضبط، ونظير صنيعهم في الراوي الثقة الموصوف بالحفظ والإتقان، والمرتقين في درجات التوثيق عروجًا إلىٰ طبقات الأئمة، ونزولا إلىٰ من يشمله اسم الستر والصدق وتعاطي العلم، علىٰ ما بسطه الإمام مسلم بن الحجاج في أوائل صحيحه الجليل.

فيخرج عن شرط الكتاب مَنْ عَبَرَ علىٰ الأزهر الشريف زائرًا أو سائحًا وليس له تلمذة، ويخرج أيضًا من نزل إلىٰ الأزهر عالمًا مكتفيًا، وإن امتزج بعد ذلك بالبيئة الأزهرية علىٰ وجه المباحثة والمذاكرة والصداقة، لما استقر عند المحدثين من التفرقة بين التحديث والمذاكرة، وأثر ذلك في صيغ التحمل.

وعند العلماء تدقيق في كيفية احتكاك الباحث بالعلماء، حتىٰ إن مؤرخ الأزهر محمد حسين النجار

في كتابه: (كلية أصول الدين وعميدها الجليل) ليورد الشيخ عبد الغني محمود في شيوخ الشيخ عبد العزيز خطاب، ثم يرجع في آخر الكتاب معتذرا، ويقول: (في صفحة ٥٢ أن المرحوم الشيخ عبد الغني محمود كان من أساتذة الشيخ عبد العزيز خطاب، والصواب أنه كان عضوًا في لجنة العالمية التي امتحن أمامها)(١).

وهذا الحس العلمي النقدي المرهف الأمين، الباعث على الأمانة العميقة والتدقيق في خلع صفات الأستاذية والتلمذة، وهيئات التحمل والأداء، وهو يرى أن القدر الذي وقع من الاحتكاك والتعامل بين الشيخ عبد العزيز خطاب وبين الشيخ عبد الغني محمود ـ وهو في طبقة شيوخه ـ لا تثبت به التلمذة من الأخير للأول، بل غاية الأمر المثول بين يديه في لجنة امتحان العالمية، وهذا القدر لا تثبت به التلمذة التي هي استنارة العقل على يد الأستاذ، وتلقين الشيخ المعارف والبصائر لتلميذه، والإسهام في صناعة عقله، وفي تكوين مداركه العلمية، فأي قدر أو صورة حصل بها ذلك المعنى فهي تلمذة، وما دون ذلك مهما كانت صوره ومظاهره فهو علاقة علمية أخرى، يمكن أن تسمى الإفادة، أو المذاكرة، أو المباحثة، أو الاختبار والامتحان، أو غير ذلك.

ويخرج أيضًا من تعلم يسيرًا في الأزهر ثم عدل عنه إلى غيره من المدارس، إلا إن ظهر في ترجمته انتفاع بمدة دراسته الأزهرية أو حرص عليها، وتأثر بها، ويخرج عن الشرط من استوفى تلك الأوصاف ثم طرأ عليه ما جعله يتنكب المنهج الأزهري، وينخلع منه، وينظر له بعين الازدراء، أو يعدل عنه إلى المناهج الفكرية المتطرفة التي ربما ضلل بعض أفرادها الأزهر ومناهجه.

والذي يزيد المقصود إيضاحًا، ويفصح عنه إفصاحًا، هو أنني أفتش هنا عن كل درة نثرها الأزهر في العقول، استقل الناس من ذلك أو استكثروا، فمحور البحث في هذه الجمهورة هو إعادة الجمع والحصر لما فرقه الأزهر ونشره وبثه في الوافدين عليه على اختلاف مقاصدهم، ومدد إقامتهم في رحابه، وعلى اختلاف الصور والهيئات التي صدروا بها عن الأزهر بعد ورودهم عليه.

وعليه فإن من يتناولهم شرط الكتاب كثرة كاثرة، لا يدخل أغلبهم تحت انحصار، وقد انتشروا في البلدان وتفرقوا في الأمصار، ونأت بهم الديار، وانقطعت عنهم الأخبار، حيث إن الغرض في الحقيقة من هذه الجمهرة هو جمع ما نثره الأزهر عبر القرون من الفوائد والبصائر في العقول والطبائع، فليس الشأن هنا بمقصور على حملة الشهادة الرسمية منه.

لكني أبذل غاية الوسع والتقصي للاهتداء إلى من يمكنني الوصول إليه، وأنا موقن أن من أهتدي إليهم في جانب من يفوتني منهم كقطرة في بحر زاخر، وغرفة من محيط هادر، لكن هذه الجمهرة بداية

(١) كلية أصول الدين وعميدها الجليل /ص١٠٦/.

يراكم عليها من يأتي بعد ذلك، ولعلها إن شاء الله أن تكون نواة لذيول واستدراكات وتتمات، تتسع بها دائرة الرصد لأعيان الأزهريين، فنتوصل بالتدريج إلىٰ الوفاء الواجب للجهد الخارق الذي قام به الأزهر في صناعة العقول، وبناء الأجيال، وتخريج العلماء.

وقد أكثرت في الصفحات السابقة من نقل عبارات الكتاب والعلماء عن الأزهر، والاستشهاد بها، ولهذا الصنيع فائدة جليلة، تظهر لمن طالع مقال (النقل والناقلون)، حيث ورد فيه: (للتأليف طريقتان: طريقة الاعتماد علىٰ من سبق المؤلف، ونقل كلامهم ليدعم به قوله، ويؤيد رأيه، وطريقة إبداء رأي المؤلف مباشرة دون الاستشهاد بأقوال غيره، مهما بلغت من المكانة.

والطريقة الأولىٰ هي الطريقة العلمية المقنعة، التي تبقىٰ علىٰ الدهر، ويصعب أن يتطرق إليها الخلل، إلا إذا ظهرت نصوص كثيرة صحيحة تخالف ما استشهد به الكاتب)(١).

ثم تعرض لرأي الفيلسوف ديكارت في هذه المسألة، ومخالفة الفيلسوف كوزين له، وعادة مؤلفي الغرب في ذلك، ثم قال: (ومن العادة عند مؤلفي الغربيين إذا أرادوا الكتابة أن يطالعوا جميع ما يمكنهم مطالعته في الموضوع الذي يريدون الخوض فيه، فيطالع الألماني ما كتبه الفرنسي، والإيطالي، والروسي، والإنكليزي، والأميركي وغيره، لتكون كتابته مؤيدة بالشواهد الصحيحة، ولذا قرأ سبنسر فيلسوف الإنكليز في القرن التاسع عشر ١٧٣ كتابا قبل أن يكتب كتابه العدل، وهكذا كل مؤلف في الغرب اليوم).

إلىٰ أن قال في ختام الأمر: (وقصارىٰ القول أنه لا ينقل إلا كلام الثقات والعظماء للاستئناس به، وتقوية أواصر الكلام به، وقد ينقل كلام بعض الضعة لنكتة فيه، أو لعبرة تراد منه، والكتابة بدون استشهاد بأقوال الأئمة العظماء مهما بلغت درجة صاحبها لا يلتفت إليها عند المحققين ولو حوت من اللآلئ كل عقد ثمين).

ولسنا هنا في هذه الجمهرة بصدد بحث فلسفي يعتمد علىٰ التحليل العقلي البحت، بل نحن بصدد بحث تاريخي، يعتمد علىٰ كثرة المصادر، وتنوعها، ومقارنة بعضها ببعض، والمقدرة علىٰ الوصول إلىٰ الوثائق، وتحليلها، وتوثيق الأحداث، وتحقيق ظروف الشخصيات المترجم لهم، إلىٰ غير من أدوات المؤرخ، فمثال هذه الجمهرة كمثال تاريخ الجبرتي، الذي ترجع قيمته ونفاسته إلىٰ أنه وثيقة تاريخية عايش صاحبها أحداثًا وأشخاصًا، كانوا حلقة وجزءًا من تاريخ هذا الوطن، وكذلك هذه الجمهرة، هي جزء من تاريخ الوطن، وتوثيق لجانب من تاريخ إحدىٰ مؤسساته.

(١) مجلة المقتبس /ص٢١٨/، العدد الصادر بتاريخ ربيع الثاني، سنة ١٣٢٧هـ.

وقد كنت حريصًا على صون هذا الكتاب عن أن أترجم فيه لأي شخص حمل شهادة الأزهر ثم انحرف إلى أحد تيارات التطرف التي نبتت في ثمانين عاما مضت، بل إن من أهم البواعث على تأليف هذه الجمهرة هو بيان الجماهير الغفيرة والطبقات المتتالية، المنتشرة زمانًا ومكانًا، من مشارق الأرض إلى مغاربها، من علماء الأزهر الذين حملوا لواء العلم والمعرفة والأمان للأوطان، واستنارت عقولهم بالعلم والمعرفة فعصمها ذلك من التردي في شطط الفهم والغلو في الدين، حتى يرى المطالع تلك الألوف المؤلفة من العلماء المتخرجين في الأزهر، في مقابل أفراد معدودين جرفهم الحماس الطائش فتهاووا في تلك التيارات وإن كانوا يحملون شهادة الأزهر ويعتمرون عمامته.

وبيان ذلك أن الأزهر في حقيقته ليس شهادة وعمامة، بل هو معنى قبل أن يكون مبنى، وطريقة تفكير استنارت بالعلم ففهمت مقاصد الشريعة، فحملت للناس الأمان على الأنفس والعقول والأوطان والعمران.

فإن تفلت من تحت يدي أحد وترجمت له هنا دون أن أنتبه إلى أنه زلت قدمه وتورط في تلك المناهج المنحرفة فإني أرجو من القارئ الكريم أن يرسل لي بما ينبهني إلى ذلك، حتى أمحوه في الطبعات القادمة.

وقد رتبتُ الكتاب على سني الوفيات، ولعلي أن أرتب الأعيان المذكورين تحت كل سنة فيه على حروف المعجم، لكني أستثني من ذلك كبار علماء الأزهر، كشيخ الأزهر، أو وكيله، أو مفتي الديار، فإذا اتفقت ترجمة واحد منهم في سنة من السنوات صَدَّرْتُ بها، إجلالا لشأنه، واستفتاحًا لأعيان تلك السنة بمن هو مقدم فيهم مكانة ومنزلة؛ إذ لو كان حيًّا واجتمع هو وهم، لما تقدموا بين يديه، ولآثروه بالتقديم إعظامًا لمرتبته، فكذلك الشأن في ترتيب تراجمهم بعد وفاتهم، والله أسأل أن يرحم الجميع، وأن يسكنهم من الفردوس المكان الرفيع.

وقد آثرت ترتيب هذا التاريخ الأزهري على السنين، لأن هذا أجلُّ فائدةً، وأَعْوَدُ بالمنفعة، على المطالع المبحر في تاريخ الأزهر ورجاله، الراصد لحركة التعليم فيه، وأطوارها وتطوراتها، وما قد يطرأ من تغير على مسالك صناعة العلماء فيه؛ فإن ترتيب التراجم على السنين يساعد على معرفة الشيوخ والتلامذة، وكيف تناسلت الأجيال من الأجيال، وتوالدت العقول من العقول.

حتى وجدتُ التصريح بذلك في عبارةٍ نفيسةٍ للعلامة المحدث السيد: أحمد محمد شاكر - ﷺ - قال: (ومن مارس كتب التراجم، وأطال القراءة فيها، وجد أن ما رتب منها على السنين والطبقات، أجلُّ نفعا، وأعلى فائدة للمستفيد، من الكتب المرتبة على الحروف، لأن القارئ يدرس رجال العصر وأحوالهم

متقارنة متقاربة، ومتتابعة متوالية، فيعرف النظائر والأقران، والشيوخ والتلاميذ، فيستفيد صورة مجموعة غير مفرقة، بخلاف ما رتب على الحروف، فقد يرغم هذا الترتيب المؤلف على أن يأتي برجل من الطبقة الأولى، بعد رجل من الطبقة العاشرة مثلًا، فلا يجد القارئ فيها تناسبا بين ما يقرأ)(١).

فهذا كلام نفيس من محدث خبير، مارس كتب الرجال والجرح والتعديل، وعكف على تحقيق عيون الكتب في التراجم، فانتبه من جراء طول الممارسة إلى مقدار الفوائد الجزيلة الكامنة في ترتيب كتب التراجم على الطبقات، وقد خضنا من ذلك البحر ما تيسر، فوجدناه حقًّا.

ثم إني أورد تراجم أعيان كل سنة في السنة التي توفوا فيها كيفما اتفق، دون ترتيب داخلي لهم، على أن أرجع في الطبعات القادمة للكتاب لترتيبهم داخل كل سنة زمنيًّا بحسب شهور وفياتهم، مع تأخير من ذكروا في تلك سنة مع عدم الاهتداء لتاريخ وفاتهم إلا أنهم كانوا أحياء فيها، ويشكل فقط وجود عدد من الأعيان لم يتبين عندي التاريخ التفصيلي لوفاتهم بالشهر واليوم.

وأورد في ترجمة كل علم من الأعلام ما تيسر لي الوقوف عليه من الوثائق المتعلقة به، من صورته الشخصية، أو صورة شهادة العالمية التي حصل عليها، أو صورة خطه على أقل تقدير(٢).

وألتزم في ترجمة كل علم ورد هنا أن أذكر طرفًا من أسماء شيوخه وطبقة أساتذته من الأزهريين، للإعراب عن نسبه العلمي، وسنده المعرفي، وأن أتبع ذلك ذكر بعض تلامذته، لوصل الحاضر بالماضي، قال الأديب الكبير عبد الله كنون في: (ذكريات مشاهير رجال المغرب): (هذا، ومن منهجية الترجمة لأهل العلم أن يُذكر بعد المشايخ الذين أخذوا عنهم: المشايخ الذين تتلمذوا لهم، حفظًا لسند العلم، وفرقًا بينهم وبين المدعين أو المدعى لهم أنهم رجال علم، ورسل معرفة، فيقال في حقهم: من هم الذين رووا عنهم، أو تخرجوا على يديهم، ونحن لا نجد لهم ذاكرًا في الفهارس، ولا نعثر على أنه كان لهم مجلس بين المجالس)(٣).

وقد حرصت هنا قدر الوسع على ذكر الأساتذة والتلامذة، تدليلًا على اتساع الأثر التعليمي، وحدود دائرة التنوير والتبصير والتأثير التي نتجت عن كل واحد من السادة العلماء الأماجد المذكورين هنا.

(١) من تقدمته ﷺ على سنن الإمام أبي عيسى الترمذي /١/٥٤/، ط: المكتبة الثقافية، بيروت.

(٢) في مجلة المقتبس /ص٣٠٩/، العدد الصادر بتاريخ غرة جمادى الثانية، سنة ١٣٢٤هـ خبر طريف عن معرفة الرجال من النظر إلى خطوطهم، ويدعى هذا العلم بالغرافولوجيا.

(٣) ذكريات مشاهير رجال المغرب في العلم والأدب والسياسة /١/٦٩٧/.

ولربما استطردت في تراجم بعض المتأخرين من الأزهريين، ممن تشرفنا بإدراكهم، أو جلسنا إليهم، وعايشنا طرفًا من أخبارهم وشئونهم، من موقف يستحق الذكر، أو عبارة نابهة جليلة الشأن والقدر، لما أنها صفحات من تاريخ الأزهر يحسن أن تبقىٰ لمن بعدنا، علىٰ حين أن كثيرًا من تراجم المتوفين أوائل القرن أو في القرن الذي قبله تكون شذرة يسيرة، لأننا لا نكاد نظفر عنهم إلا بسطر أو سطور.

ولقد ذكرني هذا بما وقع للإمام أبي عبد الله الحاكم النيسابوري في (تاريخ نيسابور)؛ إذ ربما أطال تراجم المتأخرين من النيسابوريين، من طبقة مشايخه أو مشايخهم، حتىٰ قال شيخ الإسلام التاج السبكي في: (طبقات الشافعية الكبرىٰ): (وأما الحاكم فأكثر من يذكره من شيوخه، أو شيوخ شيوخه، أو ممن تقارب من دهره دهره، لتقدم الحاكم وتأخر علماء نيسابور، فلما قلَّ العددُ عنده كثر المقالُ، وأطال في التراجم واستوفاها)[1].

ثم إني قد ترجمت هنا لمن انتقلوا إلىٰ الرفيق الأعلىٰ، وما أوردت فيه أحدًا من الأحياء، لعدم جريان العادة بالترجمة للأحياء إلا في أبواب مخصوصة، وممن أشار إلىٰ ذلك العلامة الأدفوي في (الطالع السعيد)، فقال: (ولا أذكر الأحياء إلا في النادرِ لغَرَض، أو لأمرٍ عَرَض)[2].

وكذلك العلامة الفقيه أحمد بك الحسيني، حيث قال في: (مرشد الأنام): (وقد أمسكنا عن تراجم أفاضل العلماء الموجودين، علىٰ ما فيهم من الفضل والعلم والتقوىٰ والصلاح، لعدم جريان العادة بترجمة الأحياء، ولكثرتهم)[3].

ولقد أتت تراجم الكتاب في الأعم الأغلب تراجم موجزة، تقتصر علىٰ المعلومات المهمة من حياة كل شخص، من مولده ووفاته، ومراحل حياته، وشيوخه وتلامذته، ومؤلفاته، حتىٰ تكون هذه الجمهرة بمثابة المفتاح لمن أراد بعد ذلك أن يتتبع حياة كل واحد منهم علىٰ حدة، وأن ينساب مع حياته، وفكره، ومواقفه، وتفاصيل حياته، وخلاصة مشروعه العلمي أو الفكري، ولو أردت أن أكتب عن الأعلام المذكورين هنا بهذه المنهجية لطال الأمر جدا، ولخرجت في عشرات المجلدات، لكنني آثرت أن أجعلها مدخلا لمن أراد التوسع.

(١) طبقات الشافعية الكبرىٰ /١/٣٢٤/.

(٢) الطالع السعيد، الجامع لأسماء الفضلاء والرواة بأعلىٰ الصعيد /ص٦/، ط: المطبعة الجمالية بحارة الروم، القاهرة، سنة ١٣٣٢هـ - ١٩١٤م.

(٣) مقدمة مرشد الأنام، إلىٰ بر أم الإمام /٢/٦٧٨/، للعلامة أحمد بك الحسيني، صورة من مخطوطه، في خزانة كتبي.

ويكفي أن تعلم مثلا أن الأستاذ الدكتور محمد رجب البيومي قد اتبع منهجية التوسع تلك، وكان لا يكتب عن شخصٍ إلا إذا توسع في النظر في كتبه ومؤلفاته ونتاجه العلمي كاملا، مع رصد ما كتبه صاحب الترجمة أو كتب عنه في المجلات والدوريات، فجاءت جمهرته المسماة: (النهضة الإسلامية في سير أعلامها المعاصرين)، وليس فيها من التراجم سوى مئة وتسعين شخصا، ورغم هذا خرج كتابه في ستة مجلدات، فكيف بنا هنا ونحن نكتب عن ألوف من الأشخاص.

وبعض التراجم هنا ثرية واسعة، لتوفر موادها، وبعضها تراجم فقيرة، لعدم توفر معلومات عن صاحبها، لكن كم من ترجمة عندي هنا بدأت بسطور، ثم تراكمت بين يدي على مرور السنين حتى صارت ترجمة وافية.

وليس هذا بمستغرب، فإن الخبير بفن التراجم، الممارس له، يرى هذا التفاوت في حجم التراجم في أمثال (تاريخ بغداد) للخطيب، أو (طبقات الشافعية الكبرى) للسبكي، أو (الضوء اللامع) للسخاوي، بحسب المادة التي توفرت للواحد من أولئك الأعلام عند تأليف كتابه، فرُبَّ ترجمةٍ عند الواحد منهم امتدت على مدى صفحات طوال، ورب ترجمة لا تتجاوز سطورا، ورب ترجمة لا تزيد على أن يذكر اسم المترجم ثم يترك بياضًا بعده، وتبقى ترجمته هكذا في الكتاب إلى يومنا هذا، لكنها تكون مفتاحًا لمن يأتي بعده.

ولربما ضاقت موارد الترجمة عند التاج السبكي مثلا فلم يظفر بشيء ذي بال من المعلومات المتعلقة بمن يترجم له، لكنه لتبحره وفطنته ودرايته يلجأ إلى أن ينحت المعلومات نحتًا عن من يترجم له من ثنايا أحد مؤلفاته، أو من أمر ذكر عنه عرضًا في أثناء تقريرِ مسألةٍ أو حكايةِ مبحثٍ، أو أن يظفر بإشارة عابرة له في معجم أو مشيخة لا يُظَنُّ أن له ذكرا فيه، إلى غير ذلك من عجائب الصنعة الدالة على تمكن واقتدار وسعة حيلة، ثم يخرج في نهاية الأمر وإذا به قد استخرج له ترجمة من غير مظان التراجم.

وإنما أشرت إلى هذا لأنني عانيت الأمر هنا في هذه الجمهرة وعرفته عن كثب، ومررت بمثل ذلك، ورأيت أن الواحد من أعلام الأزهر ربما ضاقت الموارد في حقه فأستخرج عنه الشذرات والومضات من كتابٍ ألفه، أو من ذِكْرٍ عارضٍ له أثناء ترجمة أحد الأعلام سواه، فلما أن خُضْت غمار الأمر وعرفت صعوبته علمت مقدار الصبر وسعة الاطلاع والصنعة الدقيقة التي شيد على أساسها الخطيب البغدادي والسبكي وغيرهما أمثال تلك الجماهر الحافلة.

وختاما فإنَّ إحياءَ تراجمِ الرجال والعلماء الأكابر ـ بكل ما تشتملُ عليه من مواهب ومعارف ـ من أجل المكارم التي تدل على الوفاء، وتحرك في القلب معاني النبل والانتماء، وتفتح أبواب العرفان

لإخلاص أولئك الكرام في القيام بواجب وقتهم.

وأكرم برجل جبل طبعه على النُّبلِ، فإذا حَرَّكْته إلى الذكرى اهتزَّ لها وأسهب، حتى قال العلامة الأزهري الجليل الشيخ أحمد محمد مرسي النقشبندي في قصيدة له:

ويا حبذا خِلٌّ وَفِيٌّ تَهُزُّهُ ... إلى خُلَّةِ الذكرى فيَرْثِي ويُسْهِبُ
وليس كعرفانِ الجميلِ فضيلة ... ولا كالوفاء السمح خُلْقٌ مُحَبَّبُ
إذا نلتَ بعد الموت ذِكْرًا مُعَطَّرًا ... فعُمْرُك بعد الموت أبقى وأَرْحَبُ
وذِكْرُكَ آثارَ الرجالِ ونَشْرُها ... أَبَرُّ وأَهْدى ما يُقالُ ويُكْتَبُ

إلى أن قال:

فما العلمُ إلا حَلْبَةٌ لرجاله ... حَمِيدٌ لديها غالبٌ ومُغَلَّبُ
يجادل بالحسنى أولو العلم والتقى ... وإلا فإنَّ العلم جهل مركبُ
وتصطرع الآراء والحقُّ بينها ... مَرامٌ كريمٌ للعقول ومأربُ

ولعل هذه الجمهرة أن تكون مسعى حميدًا في ذكر آثار الرجال، ونشر فضائلهم، مما يعين الأجيال القادمة على أن تتلمس طريق العلم، وأن تهتدي إلى منابع العلوم، ومعادن الفكر المنير، وأن تخترق ضبابًا كثيفًا من الالتباس واضطراب المفاهيم واختلاط المعالم وتجريف أدوات صناعة المعرفة، وأن تلم من جديد بمكونات العقل العلمي الأزهري المتكامل.

وعلى رغم تطاول القرون والأزمان على الأزهر الشريف، وتدفقه بألوف مؤلفة من العلماء والأعيان، واحتشاده للقيام بأمانة الدين عبر الأزمان، ونهوضه بأعباء صناعة العلم، حتى تفرد بالمكانة العلمية المرموقة السامية، فإنه لم يتصد أحد إلى جمع تاريخ لرجاله وأعيانه، مرتبا على السنوات أو الطبقات أو حروف المعجم، ولم تخطر تلك الفكرة السامية لأحد على بال، على رغم كثرة المؤرخين المنتسبين إليه، أو المعنيين بدراسته، فقلت: لعل الله تعالى قد ادخر هذا العمل للفقير، وجعله سبحانه حلية يتحلى بها الجيد، وتحفة مذخورة ومدخرة، يسعى نورها بين يديّ يوم القيامة، وأمسك بها على الأجيال القادمة أطرافًا من أخبار آبائهم في العلم.

ولقد ـ والله ـ نازل القلب ما نازله من الاغتباط والشكر والحياء من الله، لما شرفني به من خدمة سير أولئك الأكابر، وتنزيه الخاطر في رياضهم، ومطالعة صفحات حياتهم، والإمعان في صحبتهم، واستنارة الجنان بمخالطة عقولهم، فلو لم يكن لي في مدة عمري سوى هذه الجمهرة لكانت هي الغاية.

ولقد ذكرني هذا بقول الحافظ السيوطي ﷺ: (فرأيت كتاب «التقريب والتيسير» لشيخ الإسلام الحافظ، ولي الله تعالىٰ، أبي زكريا النواوي، كتابا جلَّ نفعه، وعلا قدره، وكثرت فوائده، وغزرت للطالبين موائده.

وهو مع جلالته وجلالة صاحبه، وتطاول الأزمان من حين وضعه، لم يتصد أحد إلىٰ وضع شرح عليه، ولا الإنابة إليه، فقلت: لعل ذلك فضل ذَخَره الله تعالىٰ لمن يشاء من العبيد، ولا يكون في الوجود إلا ما يريد)[1].

وقد ضمَّنتُ هذه المقدمة بحوثًا عن الأزهر ومركزيته، ومدِّه العلمي، وأثره في المجتمع، وعقله ومنهجه، ودوائر علومه، ومناصب رجاله، ورحلاتهم، وأسانيدهم، وسيرهم الذاتية، وغير ذلك من البحوث، مما أرجو معه أن تنزل هذه المقدمة من الجمهرة منزلة (هدي الساري) من (فتح الباري)، ومنزلة مقدمة ابن خلدون من تاريخه.

وختاما، فذلك هو الجامع الأزهر، الذي نشأت في رحابه، وتفتح العقل علىٰ جلال تاريخه، ولمعت أمام العين والفؤاد الصفحات المدهشة من عراقته، ودقائق علوم شيوخه.

ولقد مضتْ السنوات والشهور، والأيام والليالي، والساعات الطوال، وأنا أعايش أنفاس علمائه، وأخالط عقولهم، وأتجول في أفنانهم، وأرىٰ غرائبهم ومواقفهم، وأشنِّف الأذن بأسمائهم، وشيوخهم، وتلامذتهم، ومؤلفاتهم، وتحصيلهم، وصبرهم، ووظائفهم، ومناصبهم، وسفرهم واغترابهم.

وبلغ من امتزاجي بشخصيات هذه الجمهرة وعالمهم ما جعلني خارج الدنيا، أعيش معهم زمنهم، حتىٰ كأني ارتحلتُ معهم إلىٰ ديارهم وأهليهم، أو عكفتُ معهم في خلوات تحصيلهم وتعهدهم للعلم، أو سمعتُ طنين مذاكراتهم في أروقة الأزهر أو في صحنه أو ما حوله من الحواري والطرق، أو حضرتُ معهم مجالس تقريرهم أو تلقيهم، حتىٰ كأنهم من شيوخي الذين تلقيتُ العلم عنهم مباشرة.

وذكَّرَني هذا بقول الحافظ الناقد السيد أحمد بن الصديق الغماري في شدة انتفاعه ومخالطته لكتب الحافظ الجلال السيوطي ﷺ: (لا سيما وللحافظ السيوطي ﷺ علينا وعلىٰ المسلمين فضلٌ كبير، ومنّةٌ جسيمةٌ، بخدمته للعلم، ودفاعه عن الحق، وتآليفه الكثيرة النافعة التي انتفعنا بها، ولا سيما في هذا العلم الشريف، حتىٰ صرنا نعده كأنه من أشياخنا الذين تلقينا عنهم العلم مباشرة)[2]، وأنا أقول ذلك في حق كل من ورد ذكرهم هنا في هذه الجمهرة.

---

(١) تدريب الراوي /١/٣٩/، ط٢: مكتبة التراث، القاهرة، سنة ١٣٩٢هـ - ١٩٧٢م.

(٢) المداوي، لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي /٦/٦٢٨/، ط: دار الكتبي، مصر، سنة ١٩٩٦م.

ولكم جاشتْ مني العَبَراتُ لموقفٍ جليلٍ، أو كلمةٍ مدويةٍ، أو شخصيةٍ كبيرةٍ قديرة، أو مشهد أزهريٍّ خالدٍ، حتىٰ انصهر وجداني في سيرهم وأخبارهم، وتشرب العقل أنفاسهم وطبائعهم ودقائق أحوالهم، وطرائق تفكيرهم، وتقواهم وورعهم، وكيفية انتفاعهم بالعلم في فهم الوحيين، وصناعة الحضارة، وحفظ الأوطان، ولعل الله تعالىٰ أن يجعل هذا ميراثًا واقتباسًا من أنوار قوله ﷻ: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّـٰدِقِينَ﴾(١).

والحمد لله تعالىٰ حمدًا كثيرًا طيبًا علىٰ واسع فضله، وعميم جوده، وصلىٰ الله وسلم وبارك علىٰ سيدنا ومولانا محمد، إمام أئمة الهدىٰ، وكنز المعارف والندىٰ، وعلىٰ آله وصحبه وسلم تسليمًا كثيرًا.

(١) سورة التوبة، الآية ١١٩.

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
مدخل في الباعث علىٰ جمع هذه الجمهرة وأنه لا يوجد بين أيدينا تاريخ جامع يستوعب تراجم رجال الأزهر وعلمائه	٥
إِضَاءَةٌ في أنَّ جمعَ تراجم العلماء والعباقرة جزءٌ من الذاكرة الوطنية والمؤسسية التي تبني الأمم، ومدىٰ أهمية ذلك في بناء الأجيال	٢٠
إضاءة في مستلزمات إنشاء مرصد تاريخي ينهض بأعباء التأريخ اللائق بالأزهر الشريف، وأن الوثائق الأصلية من أهم أدوات ذلك	٢٣
إضاءة في نموذج من أثر الوثائق الأصلية، واكتشاف أول شيخ للأزهر الشريف التقطت له صورة فوتغرافية، وهي أول صورة في تاريخ القطر المصري	٣١
إضاءة في ذكر لمحة مما كابدته في هذه الجمهرة من عناء البحث	٤٦
إضاءة في تاريخ المدارس العلمية في الإسلام وأن الأزهر هو تاج تلك المدارس	٦٠
إضاءة في بدايات طفرة حركة المدارس العلمية في مصر وكيف أنها بادت واندثرت جميعا، وبقي الأزهر	٦٧
إضاءة في أقدمية الأزهر وأسبقيته لكل مدارس العلم في أمة الإسلام مع استمرار ذلك فيه دون انقطاع	٧٨
إضاءة في سريان الصيت العلمي الرفيع للأزهر في مختلف بلدان المعمورة	٨٦
إضاءة في تشبيه مدارس العلم الكبرىٰ في المشرق والمغرب بالأزهر الشريف مما يدل علىٰ مركزيته وعبقريته	٩٥
إضاءة في أن الأزهر أهدىٰ إلىٰ كل قطر من الأقطار عقلًا متألقًا وشخصية رفيعة كانت باب علم وأمان ورحمة لذلك البلد	١٠٦
إضاءة في أن الأزهر الشريف من أبرز صور تحويل آيات القرآن الكريم إلىٰ برنامج عمل	١١٠
إضاءة في أن الأزهر في حقيقته صانع للعقول	١١٨

الموضوع	الصفحة

إضاءة في أن الأزهر قد صهر عقولا متفاوتة، وطبائع مختلفة، من أمم وشعوب متباعدة، مما صقل تجربة التعليم فيه إلىٰ أبعد حد ١٢٣

إضاءة في ضخامة أعداد الطلاب المنتسبين إلىٰ الأزهر عبر العصور ١٢٦

إضاءة في ذكر سبب من الأسباب العجيبة في استمطار التوفيق والفتح من الله علىٰ الأزهر وأرض مصر، يرجع إلىٰ ضخامة أعداد الطلاب المنتسبين إليه ١٣٥

إضاءة في وصف ما كان في الأزهر من التعبد والعباد والزهاد والصالحين ١٣٧

إضاءة في تعلق القلوب بالأزهر الشريف وحبها له حتىٰ رحل بعض طلاب العلم إليه سيرا علىٰ الأقدام ١٤٠

إضاءة في طبقات علماء الأزهر وتفاوت درجاتهم ومنازلهم ١٤٧

إضاءة في أن علماء الأزهر علىٰ مدرستين: المحافظين والإصلاحيين، وأن هناك مدرسة ثالثة تغيب عن كثير من الناس ١٥١

إضاءة في أن الأستاذ هو عماد نجاح عملية التعليم في الأزهر ١٥٦

إضاءة في تراكم مهارات التدريس في الأزهر ومعالم العملية التعليمية فيه ١٦٠

إضاءة في المقارنة بين منهجية التدريس في الأزهر، ومنهجيات التدريس المتبوعة في المدارس العلمية المناظرة للأزهر كالزيتونة والقرويين ١٧٣

إضاءة في تحليل العقلية الأزهرية ومكوناتها وآلات التفكير وكيفية صناعة العقول عندها ١٧٩

إضاءة في ماهية المنهج الأزهري ١٨٦

إضاءة في الفرق بين المنهج الأزهري وبين الكتب والمقررات الدراسية، وأن المقررات والكتب لابد من تغييرها كل حين حتىٰ تظل قادرة علىٰ توصيل المنهج ١٩٠

إضاءة في كيفية اختيار الأزهر الشريف لمناهجه وكتبه ١٩٧

إضاءة في معتمد المدرسة الأزهرية ابتداءً من الشأن العام والمسائل الكبرىٰ نزولا إلىٰ دقائق مسائل العلوم وفروعها ٢٠٢

إضاءة في أن علوم الأزهر ترجع إلىٰ محورين: علوم أصلية وهي العلوم الاثنا عشر، وهي مناط استحقاق الدارس للعالمية واكتمال صفته الأزهرية، وعلوم مكملة لمن أرادها وسما إليها ٢٠٨

إضاءة في معالم عناية الأزهر بالتفسير وعلوم القرآن ٢١٣

إضاءة في معالم عناية الأزهر بعلوم الحديث النبوي ٢٢٥

الموضوع	الصفحة
إضاءة في معالم عناية الأزهر بعلوم اللسان العربي	٢٣٢
إضاءة في معالم عناية الأزهر بأصول الفقه وأنه جوهرة العلوم الأزهرية، وأنه العاصم للعقول من الانحراف والتطرف في فهم الوحي	٢٤٦
إضاءة في شدة عناية الأزهر بعلمي الكلام والمنطق وعلوم المعقول عموما ومعالم ذلك	٢٥٣
إضاءة في وصف ما كان فيه من الجو الدراسي الحافل المحفز للهمم	٢٦١
إضاءة في ذكر معالم من يصدق عليه وصف الأزهري بالمعنىٰ المطابقي	٢٦٥
إضاءة في المناصب والحرف والمهن التي تولاها الأزهريون	٢٧٠
إضاءة في منصب شيخ الأزهر، وأنه أرفع مناصب العلماء	٢٧٣
إضاءة في السند المسلسل بشيوخ الأزهر	٢٨٣
إضاءة في منصب وكيل الأزهر	٢٨٥
إضاءة في منصب مفتي الديار المصرية	٢٨٨
إضاءة في منصب رئيس المحكمة العليا الشرعية	٢٩٠
إضاءة في منصب خطيب الأزهر	٢٩٢
إضاءة في منصب شيخ الرواق	٢٩٤
إضاءة في منصب التدريس في الأزهر	٢٩٧
إضاءة في أسباب تراجع حركة العلم في مدارس مصر عموما وفي الأزهر الشريف خصوصًا، وأن هذا راجع إلىٰ أربعة منعطفات	٢٩٩
إضاءة في تقدير عدد من زعماء السياسة والفكر وغيرهم للأزهر الشريف والدعوة الملحة منهم إلىٰ عدم عقوقه	٣١٩
إضاءة في دور الأزهر الشريف في بناء الشخصية المصرية وتثبيت دعائمها	٣٢٤
إضاءة في التغيرات التي طرأت عبر الزمان علىٰ علاقة العلماء بالحكام، في ضوء مسار تاريخ الأزهر ورجاله	٣٣٧
إضاءة في ذكر المفتاح الحقيقي لنجاح الأزهر وعلمائه وأثرهم الحميد في الأمم والشعوب وأن ذلك كله يرجع إلىٰ بناء الثقة	٣٤٥
إضاءة في العمامة الأزهرية وتاريخها	٣٥١
إضاءة في معمار الأزهر وأبنيته	٣٥٣

الموضوع	الصفحة

إضاءة في أروقة الأزهر وحاراته ٣٥٧

إضاءة في تشابك أسانيد الأزهريين في العلوم والفنون المختلفة بأسانيد علماء الأقطار ٣٦١

إضاءة في رحلات الأزهريين ٣٦٦

إضاءة في فن السير الذاتية عند الأزهريين ٣٧٢

إضاءة في تمييز المتشابه من أسماء الأزهريين وأنسابهم وألقابهم ٣٧٦

إضاءة في رسالة الأزهر والكتابات التي ظهرت في ذلك ٣٨٤

إضاءة في أن العلماء المترجم لهم هنا كقطرة في بحر ، بالنسبة للعلماء الأزهريين الذين كانوا موجودين في نفس الحقبة ٣٩٣

إضاءة في شرط هذه الجمهرة ٤٠١

فهرس الموضوعات ٤١١

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

ISBN 978-977-452-481-5



BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الإسكندرية

ISBN 978-977-452-481-5